

صَحِيح

مَحْضَرُ تَقْسِيمِ الزُّكِّيَّةِ

إلى حافظه عماد الدين أبي الفدا واسماعيل بن عمر بن كثير

أتمه وشرح الأثر في شرح قريب الله

محمد بن عبد الحليم

محمد بن أحمد

محمد بن أبي بكر

المجلد الثالث

بازار السنين

الطبعة والنشر والتوزيع

صَحِيح

مَخْصَرُ تَفْسِيرِ الشُّرُكِيِّ

لِلْحَافِظِ عَمَادِ الدِّينِ أَبِي الْفِدَاوِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ

أَتَمَّهُ وَضَعَهُ أَمَّارِيَّةٌ وَضَعَ غَرِيبُ الْفَائِذِ

أَحْمَدُ عَبْدُ الرَّازِقِ الْبَكْرِيُّ مُحَمَّدُ عَادِلُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدُ عَبْدِ الْلطِيفِ خَلْفٌ

الْمَجْلَدُ الثَّالِثُ

بَلَدُ السَّيِّدِ السَّلَامِ

الطَّبَاعَةُ وَالنَّشْرُ وَالتَّوْزِيعُ وَالتَّرْجُمَةُ

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للمنشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والبيعة

لصاحبها

عبد القادر محمود الكماز

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

الطبعة الثالثة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

القاهرة - جمهورية مصر العربية

الإدارة : ١٩ شارع عمر امللي موزا لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران

عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشريفي - مدينة نصر

هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (+ ٢٠٢) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (+ ٢٠٢)

المكتب : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (+ ٢٠٢)

المكتب : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (+ ٢٠٢)

بريدًا : ص.ب ١٦١ النورية الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والبيعة

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣ م وصقلت

على جادة أنجيل ناشر للتراث ثلاثة

أحرام متتالية ١٩٩٩ م ، ٢٠٠٠ م ،

٢٠٠١ م هي عمر الجادة هي بنا لمعد

ثلاث مبنى في صناعة النشر

تكن نازاً وإنما كانت نوراً يتوهج . وفي رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجباً مما رأى فنودي ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ . قال ابن عباس : تقدس . ﴿وَتَنْ حَوْلَهَا﴾ أي : من الملائكة . وعن أبي موسى عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَنَاَم وَلَا يَتَبَشَّى لَهُ أَنْ يَتَنَاَم ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيُؤَفِّقُهُ ، يُوَفِّعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ» . زاد المسعودي : «وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه البصر» . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَتَنْ حَوْلَهَا﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْ لِلَّهِ أَكْبَرُ رَبِّكَ الْكَلِيمِ﴾ أي : الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم المبين لجميع المخلوقات ، ولا يكتشفه الأرض والسموات بل الأحد الصمد المنزه عن مائلة المحدثات .

وقوله تعالى : ﴿يُخَوِّضُ الْيَمَّ إِنَّ اللَّهَ الْأَكْبَرُ الْأَكْبَرُ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ل يظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء ، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا أَنِ خَلَتْ مِنْ حَتَّى جَاءَهَا الْحَيَّاتُ بِأَكْبَرُ﴾ . وفي الحديث نهى عن قتل جنات البيوت (٢) . فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَصَا﴾ أي : لم يلتفت من شدة فرقه ﴿يُخَوِّضُ الْيَمَّ﴾ لا تخف لي لا يخاف لك الترسون ﴿أي : لا تخف مما ترى ، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً ، وأجعلك نبياً وجيهاً ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَنْتَظِرُ لَكَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سيئ ، ثم أقطع عنه ورجع وتاب وأناب ، فإن الله يوجب عليه . كما قال تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ بِنَاةٍ فَاتَّبَعَ طَرَفًا فَوُضِعَ صَبْرًا لَكَ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَلَا هِيَ تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلأأ كالبرق الخاطف . وقوله تعالى : ﴿فِي يَمِينِهِ كِتَابٌ﴾ أي : هاتان ثنتان من تسع آيات أو يديك بهن ، وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ كُفَّارًا﴾ وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ يَسْحَاقَ يَسْحَاقَ﴾ . كما تقدم تقرير ذلك هنالك ، وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي : بينة واضحة ظاهرة . ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرم ، فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿وَيَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي : في ظاهر أمرهم ﴿وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظَلَمُوا﴾ أي : ظلماً من أنفسهم سجيح ملعونة ﴿وَقَالُوا﴾ أي : استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ الْعَذَابِ﴾ أي : انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة . فعوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون لحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣ ، ٢٩٥) وابن ماجه في سننه (١٩٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (السلام) (١٣٤/٣١) والإمام أحمد في مسنده (١٤٦/٢) .

يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى ، فإن محمداً ﷺ برهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما أتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشماله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ الموافق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

وَقَالَ عَالِفًا دَاوُدَ وَشُلَيْمَانَ يٰمٰٓرَا اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَدَّعَ سُلَيْمٰنُ دَاوُدَ بِمَا تَابَهَا النَّاسُ عَلَيْنَا مَطَوعًا وَّأَوْفَا بِمَا كَانَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَخَيْرٌ لِّشَيْئِكُمْ مِّمَّا تُدْعَوْنَ بِهِ ۝ وَالْأَمِيرُ فَهُمْ يَوْمَئِذٍ ۝ حَقَّ لَنَا مَا عَلَىٰ رَأْيِ الْقَوْمِ قَالَتْ تِلْكَ بِمَا تَبَيَّنَا الْقَوْمُ اَتَمَّلُوا سَيِّئَكُمْ لَا تَمْسِكُمْ سُلَيْمٰنُ وَخُذُوهُ وَمَنْ لَا يَعْقِلْ ۝ تَبَيَّنَ حَاجَتُنِ فِي قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي اَنْ اَشْكُرَ فَضْلَكَ الَّذِي بَرَّكَ لِيْ وَرَبِّكَ اَلَمْ يَجْعَلْ لِّكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود ، وابنه سليمان عليهما السلام ، من النعم الخفية ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتسكين التام في الدنيا ، والنبوّة والرّسالة في الدين . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ لَحْمَدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ جَاءُوا الْفَتْيَٰنَ ﴾ . روي أن عمر بن عبد العزيز كتب : إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمة لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ لَحْمَدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ جَاءُوا الْفَتْيَٰنَ ﴾ . فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام . وقوله تعالى : ﴿ وَبَيَّنَّا سُلَيْمَانَ دَاوُدَ ﴾ أي : في الملك والنبوّة ، وليس المراد وراثته المال ، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لدواد مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوّة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله : « نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا تُوْرَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ فَيَوِّزُ صَدَقَةً » ^(١) . وقال : ﴿ بَيَّنَّا لِدَاوُدَ عِلْمًا سَبَقَ الْكَلِمَ وَأَوْفَيْنَا بِرَحْمَتِنَا ﴾ أي : أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتسكين العظيم حتى أنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَّمْنَا سَبْقَ الْكَلِمَ وَأَوْفَيْنَا بِرَحْمَتِنَا ﴾ أي : بما يحتاج إليه الملك ﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أي : الظاهر البين لله علينا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَ دَاوُدُ عليه السلام فِيهِ غِيْرَةٌ شَدِيْدَةٌ ، فَكَانَ إِذَا خَرَجَ أَغْلَقَتِ الْأَبْوَابُ ، فَلَمَّ يَدْخُلْ عَلَى أَهْلِهِ أَحَدٌ يَرْجِعُ » - قَالَ : فَنَجَرَ حَتَّى ذَاتَ يَوْمٍ وَأَغْلَقَتِ الْأَبْوَابُ ، فَأُخْبِرَتْ امْرَأَةٌ تَطْلُعُ إِلَى الدَّارِ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ ، فَقَالَتْ لِمَنْ فِي الْبَيْتِ : مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ وَالْأَمْرُ مُغْلَقٌ ؟ وَاللَّهِ لَتَقْضِيَنَّ بِدَاوُدَ ، فَجَاءَ دَاوُدُ عليه السلام ، فَإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ . فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : الَّذِي لَا يَهَابُ الْمُلُوكَ ، وَلَا يَخْشَى مِنْ الْحُجَابِ ، فَقَالَ دَاوُدُ : أَنْتَ إِذَا وَاللَّهِ مَلَكَ الْمَوْتِ ، مَرْحَبًا بِأَمْرِ اللَّهِ ، فَتَرْمَلْ دَاوُدُ مَكَانَهُ حَتَّى قُبِضَتْ نَفْسُهُ حَتَّى فَرَعَ مِنْ شَأْنِهِ ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، فَقَالَ سَلِمَتْنَا عليه السلام لِلطَّيْرِ : أَطْلَى دَاوُدَ ، فَطَلَعَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَتَّى أَطْلَعَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ ، فَقَالَ

لَهَا سُلَيْمَانٌ أَقْبَضِي جَنَاحَا جَنَاحًا ۖ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ فَعَلْتَ الطَّيْرَ ؟ فَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ الْمَضْرُوحَةُ ^(١) . قَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : الْمَضْرُوحَةُ هِيَ النُّسُورُ الْحُمْرَاءُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَبَشِّرِ الشَّيْطَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَي : وَجَمَعَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ يَعْنِي : رَكِبَ فِيهِمْ فِي أَبْهَةِ وَعَظْمَةِ كَبِيرَةٍ فِي الْإِنْسِ ، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَلُونَهُ ، وَالْجِنُّ وَهُمْ بَعْدَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالطَّيْرُ ، وَمَنْزِلَتُهَا فَوْقَ رَأْسِهِ ، فَإِنْ كَانَ حَرُّ أَظْلَمَهُ مِنْهُ بِأَجْنَحَتِهَا . وَقَوْلُهُ ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَي : يَكْفَى أَوْلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ لَعَلَّا يَتَقَدَّمُ أَحَدٌ عَنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هِيَ مَرْتَبَةٌ لَهُ . قَالَ مُجَاهِدٌ : جَعَلَ عَلَى كُلِّ صِنْفٍ وَزَعَةً يَرُدُّونَ أَوْلَاهَا عَلَى آخِرَاهَا لَعَلَّا يَتَقَدَّمُوا فِي الْمَسِيرِ كَمَا يَفْعَلُ الْمَلُوكُ الْيَوْمَ . وَقَوْلُهُ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا تَوَلَّىٰ سَآئِلُ ﴾ أَي : حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ سُلَيْمَانُ ﷺ مِنْ مَعَهُ مِنَ الْجِيُوشِ وَالْجُنُودِ عَلَى وَادِي النَّمْلِ ﴿ فَكَانَتْ تَمْلَأُ يُنَادِيهَا الْقَتْلُ انْقُضُوا عَنْكُمْ لَا تَبْغِيكُمْ سَبِيلَكُمْ وَيَجُودُوا وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَي : خَافَتْ عَلَى النَّمْلِ أَنْ تَحْطِمَهَا الْخِيُولُ بِحَوَافِرِهَا ، فَأَمَرَتْهُمْ بِالْدُخُولِ إِلَى مَسَاكِنِهِمْ . فَفَهِمَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ ﷺ مِنْهَا ﴿ فَتَبَسَّ سَاجِدًا لِرَبِّهَا وَقَالَ رَبِّ أَرْضُغْنِ أَنْ تَكُونَ مَرْضًا فَتَسْتَكْفِرَ الْإِنِّ فَكُنْتَ عَلَى وَجْهِ الْوَلَدِ وَلَنْ تَكُونَ سَاجِدًا تَرْضَاهُ ﴾ أَي : أَلْهَمَنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ مِنْ تَعْلِيمِي مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانَ ، وَعَلَى الَّذِي بِالْإِسْلَامِ لَكَ ، وَالْإِيمَانُ بِكَ ﴿ وَكَانَ تَمْلَأُ سَبِيلًا تَرْضَاهُ ﴾ أَي : عَمَلًا تَحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ . ﴿ وَلَتَنُصِيبَنَّ رِيحًا تُبْهِتُكَ فِي عِبَادِكَ الْكَافِرِينَ ﴾ أَي : إِذَا تَوَفَّيْتَنِي فَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ ، وَالرِّيحُ الْأَعْلَى مِنْ أَوْلِيَائِكَ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « قَرَضَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَمْلَأُ قَافَرًا بِقُرْبَةِ التَّمَلُّلِ فَأُخْرِقَتْ ، فَأَوَّخَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، أَوَيْ أَنْ قَرَضْتُكَ تَمْلَأُ أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ ؟ فَهَلَّا تَمْلَأُ وَاحِدَةً ؟ » ^(٢) . ﴿ وَتَقَعَّدَ الْقَافِرُ فَقَالَ مَا لَكَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كُنَّا مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ لَاخُذِي عَذَابًا حَسِيدًا أَوْ لَاذِيغِي نَارًا لِيَأْتِيَنَّكَ بِشَاعِلُنِ شَيْئِينَ ﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : كَانَ كَانَ الْهُدُودُ مَهْنَدَسًا يَدُلُّ سُلَيْمَانَ ﷺ عَلَى الْمَاءِ إِذَا كَانَ بِأَرْضِ فَلَاحَ طَلِبُهُ ، فَنَظَرَ لَهُ الْمَاءُ فِي تَحْوِمِ الْأَرْضِ كَمَا يَرَى الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ الظَّاهِرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَيَعْرِفُ كَمَ مَسَاحَةِ بَعْدِهِ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ ، فَإِذَا دَلَّهُمْ عَلَيْهِ أَمَرَ سُلَيْمَانَ ﷺ الْجَانَّ ، فَحَفَرُوا لَهُ ذَلِكَ الْمَكَانَ حَتَّى يَسْتَبِطَ الْمَاءُ مِنْ قَرَارِهِ . فَتَزَلَّ سُلَيْمَانُ ﷺ يَوْمًا بِفَلَاحَ مِنَ الْأَرْضِ ، فَخَفَّدَ الطَّيْرُ لِيَرَى الْهُدُودَ فَلَمْ يَرَهُ ﴿ فَقَالَ مَا لَكَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كُنَّا مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ حَدَّثَ يَوْمًا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ بِنَحْوِ هَذَا ، وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ يَقَالُ لَهُ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ ، وَكَانَ كَثِيرَ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَهُ : قِفْ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ غَلَبْتَ الْيَوْمَ ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : إِنَّكَ تَخْبِرُ عَنِ الْهُدُودِ أَنَّهُ يَرَى الْمَاءَ فِي تَحْوِمِ الْأَرْضِ ، وَإِنَّ الصَّبِيَّ لَيَضِعُ لَهُ الْحَبَّةَ فِي الْفَخِّ ، وَيَحْشُو عَلَى الْفَخِّ تَرَابًا فَيَجِيءُ الْهُدُودَ لِيَأْخُذَهَا ، فَيَقَعُ فِي الْفَخِّ فَيَصِيدُهُ الصَّبِيُّ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَوْلَا أَنْ يَذْهَبَ هَذَا فَيَقُولُ : رَدَدْتَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ لِمَا أَجَبْتَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَيَحْشُو إِنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْقَدَرُ عَمِي الْبَصَرُ ، وَذَهَبَ الْحَذَرُ ، فَقَالَ لَهُ نَافِعُ : وَاللَّهِ لَا أَجِدُكَ فِي شَيْءٍ مِنْ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٩/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٦) ومسلم في (السلام) (١٤٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٣/٢) .

القرآن أبداً . وقوله : ﴿ لَا تَلْبِسْتُمْ حَدَابَ حَكِيمِنَا ﴾ قال ابن عباس : يعني تنف ريشه ، وقال عبد الله بن شداد : تنف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه تنف ريشه وتركه ملقي يأكله الذر والنمل . وقوله : ﴿ أَوْ لَا تَلْبِسْتُمْ ﴾ يعني قتله ﴿ أَوْ لَا تَلْبِسْتُمْ بِطَانَتَيْنِ ﴾ بعلز بطن واضح ، وقال سفيان بن عيينة : لما قدم الهدد قالت الطير : ما خلقك فقد نلر سليمان دمك ، فقال : هل استنيتي ؟ قالوا : نعم قال : ﴿ لَا تَلْبِسْتُمْ حَدَابَ حَكِيمِنَا أَوْ لَا تَلْبِسْتُمْ أَوْ لَا تَلْبِسْتُمْ بِطَانَتَيْنِ ﴾ قال : نجوت إذا .

﴿ تَمَكَّنْتَ عِزًّا بِيَبْرٍ فَقَالَ أَحْسَنْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَخَشِيتُكَ مِنْ سَكْرٍ يَلْكُ يَتَيْنِ ١١ ﴾ إِلَى وَصَدْتَ أَمْرًا تَلْبِسْتُهُمْ وَأَوْرَيْتَ مِنْ كَعْلٍ قَتَوُا وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ ١٢ وَصَدَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَصْنَافَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ عَنْ أَنْبِيلٍ فَهُمْ لَا يَحْتَدُونَ ١٣ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْجَنَّةَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبَرَأ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْكِرُونَ ١٤ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ١٥ .

يقول تعالى : ﴿ تَمَكَّنْتَ ﴾ الهدد . ﴿ عِزًّا بِيَبْرٍ ﴾ أي : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال سليمان : ﴿ أَحْسَنْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك . ﴿ وَخَشِيتُكَ مِنْ سَكْرٍ يَلْكُ يَتَيْنِ ﴾ أي : بخير صدق حق يقين ، وسبأ : هم حمير ، وهم ملوك اليمن ، ثم قال : ﴿ إِلَى وَصَدْتَ أَمْرًا تَلْبِسْتُهُمْ ﴾ قال الحسن البصري : وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وقال قتادة : كانت من بيت ملكة ، وكان أولو مشورتها ثلثمائة والثاني عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل ، وكانت بأرض يقال لها : مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء . وقوله : ﴿ وَأَوْرَيْتَ مِنْ كَعْلٍ قَتَوُا ﴾ أي : من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ ﴾ يعني : سرير يجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللاكر . قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، وكان فيه ثلثمائة وستون طائفة من مشرقه ، ومثلها من مغربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طائفة ، وتغرب من مقابلها ، فيسجدون لها صباحاً ومساءً . ولهذا قال : ﴿ وَصَدَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَصْنَافَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ عَنْ أَنْبِيلٍ فَهُمْ لَا يَحْتَدُونَ ١٣ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ معناه . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَصْنَافَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ عَنْ أَنْبِيلٍ فَهُمْ لَا يَحْتَدُونَ ١٣ ﴾ أي : لا يعرفون سبيل الحق التي هي : إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ زَيْنَ مَا يَدْعُونَ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّيْنِ وَلَا لِلْأَفْئِدَةِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِتَّاهَ تَسْجُدُونَ ١٤ ﴾ . وقرأ بعضهم (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ) ^(١) جعلها أَلَا الاستفتاحية ويا للنداء وحذف المنادي تقديره عندهم : أَلَا يا قوم اسجدوا لله . وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْجَنَّةَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . قال ابن عباس : يعلم كل خبيطة في السماء والأرض . وقال سعيد بن المسيب : الحبيب الماء . وقال عبد الرحمن بن زيد : خبء السموات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق ؛ لأطعم من السماء ، والنبات من الأرض . وهذا

(١) قرأ أبو جسر والكاسي ورويس (أَلَا يَسْجُدُوا) بخلاف اللام ويقفون (أَلَا) ويقولون (اسجدوا) بحمزة منضومة على الأمر فهو في تقدير (أَلَا) مولاة (اسجدوا) فهما كلمتان فمن فصلت وقفاً ، والباقرن بتشديد اللام ويسجدوا كلمة واحدة فلذا لم تفصل (انظر : تهرب البشر من : ١٥٤) .

مناسب من كلام الهمد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض ودخلها . وقوله : ﴿ وَبَنَّا مَا نَحْنُورُ وَمَا نَحْنُورُ ﴾ أي : يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : هو للدعو الله وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهمد داعيا إلى الخير ، وعبادة الله وحده ، والسجود له نهي عن قتله . فمن أبي هريرة رضي الله عنه قال : نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدد والصد (١) .

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ لَمَسَدَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أَذْهَبَ يَكْنِي كَسَدًا فَلَقِيَهُ لِتَمَّ ثُمَّ قَوْلَ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجُونَ ﴿ فَأَنَّ يَكُنَّا لَأَمْثَلُ إِلَهٍ إِلَهِي إِنْ كُنْتُ كَرِيمٌ ﴾ إِنَّهُمْ مِنْ شَيْئَنَ زَيْلَهُ بِشَرِّ أَقْوَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ أَلَا تَتْلُوا عَلَ وَأَتُونِي شَيْئِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن قول قول سليمان للهمد حين أخبره عن أهل سبا وملكتهم ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ لَمَسَدَتْ ﴾ أي : في إخبارك هذا ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ في مقاتلتك لتخلص من الوعيد الذي أوعدتك ﴿ أَذْهَبَ يَكْنِي كَسَدًا فَلَقِيَهُ لِتَمَّ ثُمَّ قَوْلَ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجُونَ ﴾ وذلك : أن سليمان عليه السلام كتب كتابا إلى بلقيس وقومها ، وأعطاه ذلك الهمد فحمله ، وذهب إلى بلادهم ، فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية ، أدبها ورعاية ، فنجرت مما رأت وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ شَيْئَنَ زَيْلَهُ بِشَرِّ أَقْوَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أَلَا تَتْلُوا عَلَ وَأَتُونِي شَيْئِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمرأعها وكبراء دولتها وملكتها . ثم قالت لهم : ﴿ يَكُنَّا لَأَمْثَلُ إِلَهٍ إِلَهِي إِنْ كُنْتُ كَرِيمٌ ﴾ تعني بكرمه ما رأيته من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم : ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ شَيْئَنَ زَيْلَهُ بِشَرِّ أَقْوَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أَلَا تَتْلُوا عَلَ وَأَتُونِي شَيْئِينَ ﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به ، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها . وقال العلماء : لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام .

وقوله : ﴿ أَلَا تَتْلُوا عَلَ ﴾ قال قتادة يقول : لا تجبروا علي ﴿ وَأَتُونِي شَيْئِينَ ﴾ . وقال عبد الرحمن ابن زيد : لا تمتنعوا ولا تكبروا علي وأتوني مسلمين . قال ابن عباس : موحدن ، وقال غيره : مخلصين ، وقال سفيان بن عيينة : طاهرين .

﴿ فَأَنَّ يَكُنَّا لَأَمْثَلُ إِلَهٍ إِلَهِي إِنْ كُنْتُ كَرِيمٌ ﴾ قَالَ عَنْهُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَكْثَرُ إِلَهُ قَانُظَرُ مَاذَا يَرْجُونَ ﴿ كَأَنَّ لِي الْوَيْلُ لِمَا كُنْتُ فَعَرِجْتُ أَفْسَدَهَا وَجَعَلُوا أَعْيُنَ أَهْلِهَا أَوَّلَةً وَكَذَلِكَ يَتَمَتَّلُونَ ﴾ وَلَقَدْ مَرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِعَدَّتِ قَانُظَرُ يَوْمَ يَرْجُؤُا الرُّسُلَ ﴾ .

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ولهذا قالت : ﴿ يَكُنَّا لَأَمْثَلُ إِلَهٍ إِلَهِي إِنْ كُنْتُ كَرِيمٌ ﴾ قَالَ عَنْهُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَكْثَرُ إِلَهُ قَانُظَرُ مَاذَا يَرْجُونَ ﴾ أي : حتى تمضون وتشيرون ﴿ قَالَ عَنْهُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَكْثَرُ إِلَهُ قَانُظَرُ مَاذَا يَرْجُونَ ﴾ .

وَأُولَئِكَ يَلْمِزُكَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٦﴾ أَي : منوا بتقديهم وعُدوهم وقوتهم ، ثم فرضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : ﴿ وَالَّذِينَ يَلْمِزُكَ الْفَاسِقُونَ كَذَّابُونَ ﴾ أَي : نحن ليس لنا عاقبة ، ولا بنا بأس إن شئت أن نقصديه ونحاربيه فما لنا عاقبة عنه . قال الحسن البصري رحمه الله : فرضوا أمرهم إلى عجلة تضطرب بداياها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديهاً . فقالت لهم : إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصداً بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا . ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ الثَّلُوثَ إِذَا تَكَلَّمُوا فَزَيَّغَ أَلْسِنُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أي إذا دخلوا بلدنا عنوة أفسدوه أي : خربوه . ﴿ وَجَعَلُوا آيَةً لَهُمْ آيَةً ﴾ أَي : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر . قال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿ إِنَّ الثَّلُوثَ إِذَا تَكَلَّمُوا فَزَيَّغَ أَلْسِنُهُمْ وَجَعَلُوا آيَةً لَهُمْ آيَةً ﴾ قال الرب رحمه الله : ﴿ وَكَذَلِكَ يَقُولُ ﴾ ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة ، والمسألة والمخادعة والمصانعة . فقالت : ﴿ وَلَئِنْ مَرِئَةٌ لَّتِي هَدَيْتَ قَائِلَةً يَوْمَ تَبَيَّنَ الْأَمْرُ ﴾ أَي : سأبعث إليه بهدية تليق بمجمله ، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك فلمله يقبل ذلك منا ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ، ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة رحمه الله : ما كان أعقلها في إسلامها وشررها ، علمت أن الهدية تقع موقفاً من الناس . وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ مَرْيَمَ بِبَنِيِّهَا قَالَتْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي تَكُونُ لَكُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ أي : أنتج إليهم ولقائهم بمشور لا يدل لهم بها ولا تفتيهم بنتاً آذلة ومم مكررة .

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه عظمية من ذهب وجواهر والآل وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت بلين من ذهب . والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب . والظاهر أن سليمان رحمه الله لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم : ﴿ أَتُؤَدُّونَ بِنَايَ ﴾ أي : أتصنعونني ببال لأترككم على شرككم وملككم ؟ ﴿ كَذَّابَةٌ أَتَتْكَ آيَةٌ رَبِّكَ تَبَيَّنَتْ ﴾ أي : الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ بَلْ أَنْتَ مَرْيَمُ ﴾ أي : أنتم الذين تتقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل إلا الإسلام أو السيف .

﴿ أَنْتِ لَئِنْ لَمْ تَنْتَبِهِ أَهْلَكَ بِبَنِيِّكِ فَكَانَ لَكَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَرَبٌ ﴾ أي : لا طاقة لهم بقتالهم . ﴿ وَاتَّقِي اللَّهَ وَاعْلَمِي أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلِينَ ﴾ أي : مهانون مدحورون . فلما رجعت إليها رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان : سمعت وأطاعت هي وقومها ، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان نارية متابعته في الإسلام ، ولما تحقق سليمان رحمه الله قدامهم عليه ، ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ بَيْنَايَ الْكَلَامُ إِلَيْكُمْ بِنَايَ بِرَبِّي قَدْ أَنْتَبِهُتُمْ شَيْئًا مِمَّا كُنْتُمْ تَفْسِدُونَ ﴾ قال عفيف بن لؤي : أنا مليك يوم قتل أن تقوم بين مفايك ولبي عليه لقول آية ﴿ قَالَ الْإِنْسَانُ عِندَ عَذَابٍ لَنْ لَكُنَّ بِكَ يَوْمَئِذٍ مَنَّانًا ﴾ أي : عندكم قال مَنَّان بن قنيل بن بعلزول مَشْكُرٌ أم أَكْفَرٌ وَمِنْ شُكْرٍ فَلَمَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمِنْ كَفَرٍ فَإِنَّ رَبِّي فِيهِ كَرِيمٌ .

عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد والله عرفت ما هذا ملكك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئاً ، وبخشت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك ، وما تدعوننا إليه من دينك ، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خلفت على سلطانيها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى أتيتك ، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف ، قيل : من ملوك اليمن تحت يدي كل قبيل منهم ألوف كثيرة ، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومتنها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من الجن والإنس من تحت يده فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا كِتَابَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَيْكُمْ مِنْ دُونِ الْحَقِّ وَلَكِنْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَلَا يَكُونُوا فِي أَعْيُنِنَا ذِكْرًا وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ السُّبْحَةِ وَفِى الْغَدِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه . وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستزاً بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق ، ففكر أن يأخذها بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودمائهم فقال : ﴿ قَدْ يَتَّبِعُ الَّذِينَ آمَنُوا كِتَابَ اللَّهِ وَلَكِنْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَلَا يَكُونُوا فِي أَعْيُنِنَا ذِكْرًا وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ السُّبْحَةِ وَفِى الْغَدِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . فحرم على أموالهم بإسلامهم ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَرَأْنِي مِنْ آلِي وَمَنْ آمَنَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ وَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ سَعِيدًا مَذْكُورًا ﴾ قال مجاهد : أي مارد من الجن ، قال أبو صالح : وكان كأنه جبل ﴿ لَأَنَّا نَمُوتُ وَيَدُنَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَذِكْرُنَا كَذِبٌ عِنْدَهُ ﴾ قال ابن عباس ؓ : يعني قيل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك . وقال السدي وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات ، وللعلماء من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ رَبَّنَا عَنِ الْغَيْبِ لَيْسَ لَنَا حِصْرٌ ﴾ قال ابن عباس : أي قوي على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر ، فقال سليمان ؓ : أريد أعجل من ذلك ، ومن ها هنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك ، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبت بالأغلاق والأقفال والحفظ . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ أَلَيْسَ عِنْدَ رَبِّكَ الْكَوْكَبُ ﴾ قال ابن عباس : وهو أصف كاتب سليمان ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم . وقال قتادة : كان مؤمناً من الإنس واسمه أصف . زاد قتادة : من بني إسرائيل . وقال زهير بن محمد : هو رجل من الإنس يقال له ذو النور . وقوله ﴿ لَأَنَّا نَمُوتُ وَيَدُنَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَذِكْرُنَا كَذِبٌ عِنْدَهُ ﴾ أي ارفع بصرك ، وانظر مد بصرك بما تقدر عليه ، فإنك لا تكل بصرك إلا وهو حاضر عنك ، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فوضأ ودعا الله تعالى . قال مجاهد : قال : يا ذا الجلال والإكرام . قال الزهري : قال : يا إلهنا وإله كل شيء إلهنا واحداً لا إله إلا أنت اتنتي بعرشها . قال : فمثل بين يديه . قال مجاهد وغيره : لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس ، وكان في اليمن وسليمان ؓ بيت المقدس غاب السرير ، وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان .

وقال عبد الرحمن بن زهد أسلم : لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه قال : وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر ، فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَتْنِ اللَّهِ ﴾

رَبِّكَ أَي : هذا من نعم الله علي ﴿ يَبْلُغُونَ ﴾ أي : ليخبرني ﴿ يُلَاقِكُمْ ثُمَّ أَكْبَرُ مِنْ شُكْرِكُمْ فَلَمَّا يَنْتَكِرُوا يَنْتَبِهُوا ﴾ . كقوله : ﴿ مَن عَمِلَ مِثْلًا فَلْيَتَّبِعْهُ وَمَن أَسَاءَ فَلْيَتْلِبْهُ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : هو غني عن العباد وعبادتهم ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي : كريم في نفسه ، وإن لم يعبه أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَفِي الْأَرْضِ حَيَآةٌ لَّكَ اللَّهُ لَنُؤَيِّدَنَّكُمْ ﴾ وفي صحيح مسلم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَأَخِيرُكُمْ ، وَأَوَّلُكُمْمْ وَجَنَّتُمْ ، كَانُوا عَلَى أَفْقَى قَلْبٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْعًا . يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَأَخِيرُكُمْ ، وَأَوَّلُكُمْمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْعَى قَلْبٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْعًا . يَا عِبَادِيَ إِنَّمَا هِيَ أَغْنَاكُمْ عَنْهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ لِمَآهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا ذَلِكَ فَلَا يُلُومُنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (١) .

﴿ قَالَ تَكْرَرُوا لِمَا عَرَّيْتُمَا أَنْتَهُنَّ أَرُ كُتُّهُنَّ مِنَ الْبَيْنِ لَا يَنْتَكِرُونَ ﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ يَدَ أَمْكُنَا عَرَّيْتُمَا فَكَانَتْ كَأَنَّهُمْ وَأَوَّلُكُمْ الْيَوْمَ مِنْ قِبَلِهِمَا وَكُنَّا سَائِلِينَ ﴿ وَصَلَّيْنَا مَا كُنْتَ سَائِدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ مِنْ قَوْمٍ كَذِبِينَ ﴾ يَدُ لَمَّا أَتَيْنَا الْقَرْيَةَ فَلَمَّا رَأَيْنَا حَبِيبَةَ لُجَّةٍ وَكُنْتُ عَنْ سَائِبَةٍ قَالَ إِنَّهُ مَرَجَ مُرَدَّةً بَيْنَ قَرَارِيضَ فَكَانَتْ رَبِّ إِلَى طَلَسَتْ تَقْبِي وَتَلَسَّتْ مَعَ سَائِلِينَ بِرَبِّ السَّائِلِينَ .

لما جى سليمان عليه السلام بعرض بلقيس قبل قدموها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ليخبر معرفتها ولبانها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال : ﴿ تَكْرَرُوا لِمَا عَرَّيْتُمَا أَنْتَهُنَّ أَرُ كُتُّهُنَّ مِنَ الْبَيْنِ لَا يَنْتَكِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه ، وقال مجاهد : أمر به بغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر ، وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله . وقال عكرمة : زاولوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ، ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ يَدَ أَمْكُنَا عَرَّيْتُمَا ﴾ أي : عرض عليها عرشها وقد غير ونكر ، فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هول بعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن غير وبدل ونكر . فقالت : ﴿ كَأَنَّهُمْ وَأَوَّلُكُمْ الْيَوْمَ مِنْ قِبَلِهِمَا وَكُنَّا سَائِلِينَ ﴾ أي : يشبهه ويقاربه . وهذا غاية في الذكاء والحزم . وقوله : ﴿ وَأَوَّلُكُمْ الْيَوْمَ مِنْ قِبَلِهِمَا وَكُنَّا سَائِلِينَ ﴾ قال مجاهد : يقول سليمان ، وقال تعالى : ﴿ وَصَلَّيْنَا مَا كُنْتَ سَائِدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ مِنْ قَوْمٍ كَذِبِينَ ﴾ هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد ، أي : قال سليمان ﴿ وَأَوَّلُكُمْ الْيَوْمَ مِنْ قِبَلِهِمَا وَكُنَّا سَائِلِينَ ﴾ ، وهي كانت قد صدها أي : منعه من عبادة الله وحده ﴿ مَا كُنْتَ سَائِدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ مِنْ قَوْمٍ كَذِبِينَ ﴾ . وهذا الذي قاله مجاهد حسن ، وقاله ابن جرير أيضًا ، ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون في قوله : ﴿ وَصَلَّيْنَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله تعالى تقديره ومنعه ﴿ مَا كُنْتَ سَائِدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : صدها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّمَا كُنْتَ مِنْ قَوْمٍ كَذِبِينَ ﴾ قلت : ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي .

وقوله : ﴿ يَدُ لَمَّا أَتَيْنَا الْقَرْيَةَ فَلَمَّا رَأَيْنَا حَبِيبَةَ لُجَّةٍ وَكُنْتُ عَنْ سَائِبَةٍ ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير ، أي : من زجاج ، وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، تكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَا حَبِيبَةَ لُجَّةٍ وَكُنْتُ عَنْ سَائِبَةٍ ﴾ لا

غيلة ، ثم يقولوا لأوليائهم من أقربيه إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك . فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي النَّبِيِّينَ ﴾ أي : مدينة ثمود ﴿ يَتَّبِعُهُ رَقِيعٌ ﴾ أي : تسعة نفر ﴿ يَتَّبِعُونَكَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ، لأنهم كانوا كبارهم ورؤسائهم . قال ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي : الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم فبجحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك . قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاحْشُرْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِذِ ابْتُغِيَ لَكُمْ بَابُهَا ﴾ . وقال عطاء - ابن أبي رباح - ﴿ وَكَانَ فِي النَّبِيِّينَ يَتَّبِعُهُ رَقِيعٌ يَتَّبِعُونَكَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّونَ ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم ، يعني أنهم كانوا يأخذون منها ، وكانهم كانوا يتعاملون بها عدداً كما كان العرب يتعاملون . وعن سعيد بن المسيب أنه قال : قطع الذهب والورق من الفساد في الأرض ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس^(١) . والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق بقدرون عليها ، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَنَاسَوْا بِلِلَّهِ تَعْلِيمَهُ وَتَعْلَمُ ﴾ أي : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم . قال مجاهد : تناسوا وتحالفوا على هلاكه ، فلم يصلوا إليه ، حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعدما عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلاً لبيبتهم في أهله ، فدسغتهم للملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوه منشدين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلته ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقاً تريدوا ربحكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك . وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح : ﴿ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ خَيْرٌ مِّكَذُوبٍ ﴾ قالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام ، فحين نفرغ منه وأهله قبل ثلاث . وكان لصالح مسجد في الحجر عند شبيب هناك يصلي فيه ، فخرجوا إلى كهف - أي : غار - هناك ليلاً فقالوا : إذا جاء يصلي قتلناه ، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ، ففرغنا منهم . فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حياهم ، فخشوا أن تشدهم فبادروا ، فانطليقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار فلا يدري قومهم أين هم ، ولا يدرون ما فعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ها هنا ، وهؤلاء هاهنا ، وأنجى الله صالحاً ومن معه ثم قرأ : ﴿ وَكَرَّوْا مَكْرًا وَكَرَّوْا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ ۝ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ۝ فَتَالِكٌ لِّبُؤْسِهِمْ عَاثِينَ ۝ أَي : فارغة ليس فيها أحد ﴿ يَسَاءَ ظَلَمُوا إِنْ كُنْ فِي ذَٰلِكَ لَآئِيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنبِئْنَا النَّبِيَّ مَأْمُورًا وَكَانُوا يَنْشُرُونَ ﴾ .

﴿ وَلَوْ كُنَّا إِذْ سَأَلْتُمُوهُ سَأَلْتُنَا فَانصَحْنَا وَأَنشَرْتُمُوهُمْ ۝ لَإِنْ كُنْتُمْ لَنَاصِحِينَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِ الْإِنسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِمِثَالِهِمْ ۝ فَكَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ كَانُوا أَغْوَيْنَا كَالْأُطُورِ بَيْنَ قَوْمَيْنِ لَاقِيَهُمْ آتِشَ

صَكَاتَ لَكُمْ أَنْ تُخَيَّرُوا شَجَرًا ﴿٦١﴾ أي : لم تكونوا تقدرُونَ على إنبات أشجارها . وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل ، بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، ﴿ وَكَيْفَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ ﴾ أي : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق . وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة ، من هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ مَعَ اللَّهِ الْكُفَّاءُ ﴾ أي : إله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرازق ١١٩ . ومن المفسرين من يقول : معنى قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ﴾ فعل هذا ، وهو يرجع إلى معنى الأول ؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به . فيقال : كيف تعبدون معه غيره ، كما قال : ﴿ أَفَتَنْتَ يَتْلُو كَذِبًا لَا يَخْلُقُ ﴾ الآية . وقوله تعالى ما هنا : ﴿ أَفَتَنْتَ خَلَقَ السَّمَكَيْنِ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴿ أَفَتَنْتَ ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أَمَنْ يفعل هذه الأشياء كَمَنْ لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق ، وإن لم يذكر الآخر ؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك . وقد قال تعالى : ﴿ مَلَكُهُ خَيْرٌ أَمَّا يُتْرَكُونَ ﴾ ، ثم قال في الآية الأخرى : ﴿ بَلْ شِم قَوْمٌ يَبْذُلُونَ ﴾ أي : يجعلون لله عدلاً ونظيراً . وقال تعالى : ﴿ أَفَتَنْتَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ يُنَازَعُ ﴾ أي : أَمَنْ هو شهيد على أفعال الخلق حركاتهم وسكناتهم ، يعلم الغيب جليلة وحقيقته ، كَمَنْ هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله ؟

﴿ أَفَتَنْتَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَافَهُ أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا لَوْ أَنَّ مَعَ اللَّهِ بَدَلٌ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَتَنْتَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي : قارة ساكنة ثابتة لا تميد ، ولا تتحرك بأهلها ، ولا ترتجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك . ﴿ وَجَعَلَ خِلَافَهُ أَنْهَارًا ﴾ أي : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار ، وبين ذلك . وسيرها بحسب مصالح عباده وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا ﴾ أي : جبالًا شامخة ترسي الأرض ، وتثبتها فلا تميد بكم . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أي : تجعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا أي : مانعًا يمنعها من الاختلاط فلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا . فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه . فإن الأنهار السارحة الجارية بين الناس المقصود منها أن تكون عذبة زلالًا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار للمالحة ماؤها ملتح أجاج فلا يفسد الهواء بريحها كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَعَ الْبَحْرِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَسِيمًا وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا حَبْرًا ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : فعل هذا أو يعيد على القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿ بَلْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : في عبادتهم غيره .

﴿ أَفَتَنْتَ يُبْسِ الْأْمُضِرُّ لَكَ دَنَاءٌ وَيَكْثِفُ الشُّرُوءُ وَيَجْعَلُكَ خَلْقَةَ الْأَرْضِ أَوْلَاهُ مَعَ اللَّهِ قِيلَ مَا تَدْعُونَ ﴾ .

فيه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند التوازل ﴿ أَفَتَنْتَ يُبْسِ الْأْمُضِرُّ لَكَ دَنَاءٌ ﴾ أي : من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لا يكشف ضرر المضرورين سواه . عن جابر بن سليم الهجيمي قال :

أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهو محبب بشملة ، وقد وقع هديها على قدميه فقلت : أيكم محمد رسول الله ؟ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت : يا رسول الله أنا من أهل البادية وفيي جفاؤهم فأومأني قال : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَرْغُوفِ شَيْعًا ، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَحَاكَ وَوَجَّهَكَ مُتَّصِلًا ، وَلَوْ أَنَّ تُفْرَغَ مِنْ دُلُوكَ فِي إِنَاءٍ لَمُشَّقِي ، وَإِنْ اشْرَوْ شَتَمَكَ بِمَا يَتَلَمَّ فِيكَ ، فَلَا تَشْتَعُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وَزْرُهُ ، وَإِنَّكَ وَاشْتَبَالَ الْإِزَارَ ، فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْخَيْلَةِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَيْلَةَ ، وَلَا تَشِينَ أَحَدًا » . قال : فما سببت بعده أحدًا ولا شاة ولا بهيرًا ^(١) . وقال عبيد الله بن أبي صالح : دخل علي طائوس يعوذني فقلت له : ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن . فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . وقوله تعالى : ﴿ وَنَبْتَخِلُكَ الْخَيْلَ ﴾ أي : يخلف قرنًا لقرن قبلهم ، أي : أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، وقومًا بعد قوم ، ولو شاء لأوجدنهم كلهم في وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء خلقتهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ، ولكن لا يبيت أحدًا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويلزمهم في الأرض ، ويجعلها قرويًا بعد قرون ، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَتَنْهَى النَّاسَ إِيَّاكَ وَيَعْبُدُونَكَ الْكَثِيرَ وَيَجْعَلُونَ خَلْقَكَ الْآخِرِينَ أَوْلَىٰ نَحْ أَفْءَ ﴾ أي : يقدّر على ذلك أو إله مع الله بعد هذا ! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له ؟ ﴿ قِيلَ لَا تَذْكُرُونَ ﴾ أي : ما أقل تذكرهم فيما يرشدكم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَتَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الْيَنْبَغَ بُشْرًا بَيِّنَةً رَّحْمِيَهُ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَمَلُّ اللَّهُ مَكَا يُنْزِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَتَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَالْبَحْرِ ﴾ أي : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَعْلَمُونَ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلَ الْيَنْبَغَ بُشْرًا بَيِّنَةً رَّحْمِيَهُ ﴾ أي : بين يدي السحاب الذي فيه مطر يفيض الله به عباده المجددين الأذلين القنطين ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَمَلُّ اللَّهُ مَكَا يُنْزِلُونَ ﴾ .

﴿ أَتَنْ يَمَلُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يَرْجِعُهُمْ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلَّ هَاكُنَا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَفِينِينَ ﴾ . أي : هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ لَشَيْءٌ ﴾ ﴿ إِنَّهُ هُوَ يَهْدِي وَيُضِلُّ ﴾ . ﴿ وَمَنْ يَرْجِعُهُمْ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلَّ هَاكُنَا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَفِينِينَ ﴾ . ﴿ وَنَبْتَخِلُكَ الْخَيْلَ ﴾ أي : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُ مَا يَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْجِي وَنَهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَنْجِي فِيهَا ﴾ فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء فيسلكه بتابع في الأرض ، ثم يخرج منها أنواع الزروع والثمار ، والأزهار وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كَلَّا وَابْصُرْ أَتَنْهَى إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ أَنْ تَلْبِثَ لَيَالٍ كَثِيرًا ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : فعل هذا ، وعلى القول الآخر بعد

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٨٣/٣) والبيهقي في مسنده (١٨٨/٤) .

هذا ﴿ قُلْ مَا كُنَّا بِمُرْسِلِيكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ سَيِّئِينَ ﴾ في ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ أَهْلَ الْكِتَابِ فَكُلُوا مِمَّا كَانُوا يَكُونُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ لَا يَمْلِكُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْقَبْ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُنَ لِأَن يَمُوتَ ﴾ ﴿ بَلِ ادْرَكُوا عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ يَنْتَهَوْنَ .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع أي : لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَيْبِ لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية . والآيات في هذا كثيرة . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُنَ لِأَن يَمُوتَ ﴾ أي : وما يشعر الخلاق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى : ﴿ فَتَكُنُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي : ثقل علمها على أهل السماوات والأرض . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ لَا يَمْلِكُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْقَبْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم ثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاضى فيها غير ذلك ، فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أخذوا من هذه النجوم كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والذميم ، وما علم هذا النجم ، وهذه الدابة ، وهذا الطير بشيء من الغيب ، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون بأن يمحون . وقوله : ﴿ بَلِ ادْرَكُوا عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴿ أَي : انتهى علمهم ، وعجز عن معرفة وقها . وقرأ آخرون : ﴿ بَلِ ادْرَكُوا عِلْمَهُمْ ﴾ أي : تساوى علمهم في ذلك . كما في الصحيح لمسلم أن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » (١) أي : تساوى في العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل . قال ابن عباس : أي غاب . وقال قتادة : يعني : بجعلهم بريهم ، يقول : لم ينفذ لهم علم في الآخرة . وعن عطاء الخراساني ابن عباس : ﴿ بَلِ ادْرَكُوا عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي : حين لم ينفع العلم . وبه قال السدي أن علمهم إنما يترك ، ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك . كما قال تعالى : ﴿ أَتَبَعَ يَوْمَ وَقَعْتَ يَوْمَ يَأْتُونَكَ لَكَ الْكَلْبُومُونَ الْيَوْمَ فِي مَكَلِّ ثَمِينٍ ﴾ . وعن الحسن أنه كان يقرأ : ﴿ بَلِ ادْرَكُوا عِلْمَهُمْ ﴾ (٢) قال : اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ عائد على الجنس والمراد الكافرون . أي شاكون في وجودها ووقوعها . ﴿ بَلْ هُمْ يَنْتَهَوْنَ ﴾ أي : في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها .

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (١ ، ٧ ، ٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ بَلِ ادْرَكُوا ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي ﴿ بَلِ ادْرَكُوا ﴾ انظر زاد المسير (١٨٨/٦) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كُنَّا نَدْرِكُكُمْ لَبَدَدْنَا لَكُمُ الْوَيْلُ ﴾ ٦٧ ﴿ لَقَدْ وَعدْنَا مَنَّا عَنْ وَبَائِكُمْ إِنْ قَبِلْتُمْ إِلَّا تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ٦٨ ﴿ قُلْ يَوْمَ يَدْعُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴾ ٦٩ ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي حَيْبٍ مِمَّا يَشْكُرُونَ ﴾ ٧٠ .

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفائاً وقرأ ثم قال : ﴿ لَقَدْ وَعدْنَا مَنَّا عَنْ وَبَائِكُمْ إِنْ قَبِلْتُمْ إِلَّا تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا ، ولا نرى له حقيقة ، ولا وقوعاً ، وقولهم : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : أخذه قوم عن قبلهم من كتبهم يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة ، ﴿ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُوْلَاءِ ﴾ يَوْمَ يَدْعُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴾ أي : المكذبين بالرسول وبما جاءهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نعمة الله وعذابه ونكاله ، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ، ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : للمكذبن بما جئت به ولا تأسف عليهم ، وتذهب نفسك عليهم حسرات . ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي حَيْبٍ مِمَّا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : في كيدك ورد ما جئت به ، فإن الله مؤيدك وناصرك ، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغرب .

﴿ وَيَقُولُوكَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٧١ ﴿ قُلْ صَعِدَ الْكَوْكَبُ رَدِفَ لَكُمْ بَشَرٌ أَلْهَى تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ٧٢ ﴿ وَلَهُ لَقَدْ فَضَّلَ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ٧٣ ﴿ وَلَهُ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكْرَهُمْ سُوءُفَعْمَ وَمَا يَتْلُونَ ﴾ ٧٤ ﴿ وَمَا مِنْ قَائِمٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ٧٥ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ وَيَقُولُوكَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال الله تعالى مجيباً لهم : ﴿ قُلْ صَعِدَ الْكَوْكَبُ رَدِفَ لَكُمْ بَشَرٌ أَلْهَى تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ . قال ابن عباس : أن يكون قرب أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُوكَ مَتَى هُوَ قُلْ صَعِدَ الْكَوْكَبُ رَدِفَ لَكُمْ بَشَرٌ أَلْهَى تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ في قوله : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ لأنه ضمن معنى عجل لكم ، كما قال مجاهد في رواية عنه : ﴿ صَعِدَ الْكَوْكَبُ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ عجل لكم . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَهُ رَبُّكَ لَقَدْ فَضَّلَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : في إصابته نعمته عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكروه على ذلك إلا القليل منهم . ﴿ وَلَهُ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكْرَهُمْ سُوءُفَعْمَ وَمَا يَتْلُونَ ﴾ أي : يعلم الغمائم والسرائر ، كما يعلم الظاهر . ﴿ يَتْلُمُ الْكَيْتَرُ وَالْخَفَى ﴾ . ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو ما غاب عن العباد ، وما شاهدوه فقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَذَا لَفَرْدَانِ يَشْهَدُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَفْتَكِرُونَ ﴾ ٧٦ ﴿ وَلَقَدْ كُنَّا وَدَّعْنَاهُ ثَلَاثِينَ نَجَارَةً ﴾ ٧٧ ﴿ فَتَوَلَّى عَلَى اللَّهِ وَلَهُ رَبُّكَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ٧٨ ﴿ وَإِنَّكَ لَاشْفَعُ الْقَوْلَ وَلَا تَشْفَعُ الْقَوْلَ إِلَّا مَنْ شَفَعْنَا لَهُمْ فَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْكُمْ قِرْبَانٌ ﴾ ٧٩ .

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان ، أنه يقص على بني إسرائيل ، وهم حملة التوراة والإنجيل : ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَفْتَكِرُونَ ﴾ كاختلافهم في عيسى ،

وتبانيهم فيه فاليهود اخروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسيط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام . كما قال تعالى : ﴿ خَلَقَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَوَسَّلَ الْخَلْقَ الْإِنْسِي فِيهِ مِمَّا خَلَقَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَئِنَّ هَٰذِهِ لَشَيْءٌ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : هدى لقلوب المؤمنين به ، ورحمة لهم في العمليات . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿ وَيُكَفِّرُ بَعْدَ الْعَذَابِ ﴾ أي : في انتقامه ﴿ التَّائِبِينَ ﴾ بأفعال عبادهم وأقوالهم . ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : في جميع أمورك ، وبلغ رسالة ربك . ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْخَبَرِ الْبَلِيغِ ﴾ . أي : أنت على الحق المبين ، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة : ﴿ إِنَّكَ لَا تَشِيعُ الْكُفْرَ ﴾ أي : لا تسمعهم شيئاً ينفعهم . فكل ذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم وقر الكفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَشِيعُ الْكُفْرُ إِنَّهُ تَوَلَّى مُذَبِّحِينَ ۖ وَآتَى يَدَيْهِ الْعُمْنُ مِمَّنْ كَذَبُوا ۖ إِنَّ شَيْئَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع في القلب ، والبصيرة الخاضع لله ، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل ﷺ . ﴿ وَلَقَدْ رَفَعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ فَهَوَّيْنَا لَهُمْ ذِكْرَهُمْ فَكَفَرُوا بِلِقَائِ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ .

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل : من مكة ، وقيل : من غيرها - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى - فتكلم الناس على ذلك . قال ابن عباس : ويرى عن علي عليه السلام تكلمهم كلاماً أي : مخاطبهم مخاطبة . وقال عطاء الخراساني : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بأياتنا لا يوقنون . وفي هذا القول نظر لا يخفى والله أعلم . وقال ابن عباس في رواية : ترجمهم ، وعنه رواية قال : كلأ فعل يعني هذا وهذا ، وهو قول حسن ، ولا منافاة والله أعلم . وفي الحديث : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالْدُّخَانُ ، وَخُرُوجُ بَاجُوجٍ وَمَاجُوجٍ ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْجُجَالُ ، وَثَلَاثَةُ خُشُوفٍ : خُشْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخُشْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخُشْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسُوفُ - أَوْ تَحْسُرُ - النَّاسَ ثَبِيثٌ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاقُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » (١) .

وعنه عليه السلام قال : « إِنْ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجُ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى ، وَابْتِهَاجُهَا كَانَتْ قَبْلَ ضَاجِبَتِهَا ، فَالْآخِرَى عَلَى أَرْضِهَا قَرِيْبًا » (٢) .
وعنه عليه السلام قال : « بَادِرُوا بِالْأَعْتَالِ سَبَاحًا : طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالْدُّخَانُ ، وَالْجُجَالُ ، وَالْذَّابَّةُ ، وَخَاصَّةُ أَحَدِكُمْ » (٣) .

﴿ يَوْمَ نَبْشِثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ لَوْحًا يَمُنُّ بِكَذِبٍ يَتْلُونَهَا فهُمْ يُزْهَوْنَ ۚ سَخَّ لَئِكَ جُلُودُهُمْ فَأَلَّ أَحْسَدُهُمْ يَتَابَعِي وَكَرَّ يُحِيلُوا بِمَا عَلَّمَا أَنَا كُنْتُمْ تَصَلُّونَ ۚ وَنَقَعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يُبْلَغُونَ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِنَمُوتَ بِهِ وَتَهَاجَرُوا فَبِعِزَّتِكَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .

(١) أخرجه الإمام مسلم في الفتن (٤) والإمام أحمد في مسنده (٧/٤) وهرملي في سننه (٧١٨٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٠٦٩) والبيهقي في جميع الروايات (٩/٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الفتن (١٢٨ ، ١٢٩) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٧/٢) .

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله ﷻ ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا ترفيهاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَخْتَرُ مِنْكُمْ كَفْراً أَنتُمْ نَحْنُ وَاللَّهُ يَخْتَرُ عَنْكُمْ أَي : من كل قوم وقرن فوجاً أي : جماعة ﴾ يَمَنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا ﴿ كما قال تعالى : ﴿ احْشَرُوا الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُرْزَقُونَ ﴾ قال ابن عباس ؓ : يدفعون وقال قتادة : وزعة ترد أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد : يساقون ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ ﴾ ووقفوا بين يدي الله ﷻ في مقام المسألة ﴿ قَالَ أَصْحَابُكُمْ يُكَلِّمُكَ بِكَلِمَاتٍ لَيَّالِيَةٍ وَلِيَلَّغُوا بِنَا عَلِمْنَا أَنَّكَ كُنتُمْ تَمْلِكُونَ ﴾ أي : فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة . وكانوا كما قال الله عنهم : ﴿ قَدْ سَلَكُوا سَبْلاً ﴾ ولكن كَلَّمَ رَبُّكَ ﴿ فحيتل قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم علم يحتلونه به كما قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَكُونُ لَكُم مَلَأٌ وَلَا حِزْبٌ لَكُمْ فِيهِ مَقْتٌ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : بهتوا فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد وردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية . ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا إِبْرَاهِيمَ نَذِيرًا ﴾ أي : في ظلام الليل لتسكن حركايتهم بسببه ، وتهلأ أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم ﴿ وَاتَّخَذُوا مُبْتَدِئاً ﴾ أي : منيراً مشرقاً فيسبب ذلك يصرفون في المعاش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها . ﴿ يَكُ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَخَرُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَكَهُ اللَّهُ وَكُلُّ نَفْسٍ نَظِيرٌ لَهَا فَعَمَلُهَا وَفِي الصُّورِ مَرْجَعُ كُلِّ نَفْسٍ إِلَى حَيْثُ كَانَ حَتَّى يُعْطَاهَا اللَّهُ أَثَرَهَا ﴾ من جهة إلى الجهة التي كانت عليها ﴿ وَمَنْ يَرْجُ يَوْمَ يَرْجُ بَرِيءٌ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ ومن جهة إلى الجهة فكَبُرَتْ وَجْهَهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

بخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث قرن بنفخ فيه . وفي حديث الصور أن إسماعيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السماوات ، ومن في الأرض ﴿ إِلَّا مَنْ شَكَهُ اللَّهُ ﴾ وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . عن عبد الله بن عمرو ؓ : وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ؟ أو : لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما . لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون - ثم قال - قال رسول الله ﷺ : « يُخْرِجُ الدُّجَالَ فِي أَهْنَى قَبْعَتِكَ أَرْبَعِينَ - لا أُرَى أَرْبَعِينَ يَوْماً أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْراً أَوْ أَرْبَعِينَ عَاماً - فَيَهْبِطُ اللَّهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ غُرُورٌ مِنْ مَسْغُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمُوتُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحاً تَارِدَةً مِنْ بَيْتِ الشَّامِ ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ يَمْقُلُ ذُرَّةً مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَيْدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال : « فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خَيْفَةِ الْعُيُوبِ ، وَأَعْلَامِ السُّبْحَانِ لَا يَبْقَوْنَ مَقْرُوفاً ، وَلَا يُنْجُونَ مُنْكَرًا ، فَيَسْتَقْبِلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ تَأْمُرُنَا ؟

﴿ أَلَيْسَ حَرَمُهَا ﴾ أي : الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها . كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُفْضَلُ شَوْكُهُ ، وَلَا يُتَقَرُّ ضَيْدُهُ ، وَلَا يَنْقُطُ لِقَطْعَتُهُ إِلَّا مَرَّ عَرَفَهَا ، وَلَا يَخْطُلُ خَلَاَهَا »^(١) . الحديث بتمامه . وقوله تعالى : ﴿ وَنَهَ كُلَّ قَوْمٍ مِّنْ بَابِ عِطْفِ الْعَامِ عَلَى الْخَاصِّ أَيْ : هُوَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ، وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . ﴾ وَأَمَّا أُنْذِرُكَ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ أَمَرُوا بِحَرَمِهَا أَيْ : لِلْمُوحِدِينَ الْمُخْلِصِينَ لِلنَّقَادِينِ لِأَمْرِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ . وقوله : ﴿ وَإِنَّ أُنْذِرُكَ النَّارَ ﴾ أي : أَنَا مُبْلِغٌ وَمُنْذِرٌ . ﴿ فَتَنِّي لَعَنَتَكَ فَلَمَّا يَتَنَبَّأُ بِغَيْبِهِ وَمَنْ سَلَّ فَقُلْ لَكُنَّا أَنَا مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ أَمَرُوا بِالرَّسْلِ الَّذِينَ أُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ ، وَقَامُوا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ ، وَخَلَصُوا مِنْ عَهْدَتِهِمْ ، وَحَسَابِ أَمْرِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَمَّا عَلِمْتَ الْكَذِبَ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ . ﴿ وَقُلْ لَعَنَتُ يَوْمَ سَبْرِيكَ يَكْفِيهِمْ فَتَرَوْنَهَا ﴾ أي : لِلَّهِ الْحَمْدُ الَّذِي لَا يَعْذِبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَالْإِنْذَارِ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَبْرِيكَ يَكْفِيهِمْ فَتَرَوْنَهَا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ سَبْرِيكَ يَكْفِيهِمْ فِي الْأَفْكَارِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَبَارَكْتَ بِغَنَائِهَا تَمَكَّنْتَ ﴾ أي : بَلْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَحْتَرِصُوا أَعْدُكُمْ بِاللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ خَافِلًا شَيْئًا لَأَغْفَلَ الْبُغْوَصَةَ وَالْحُرْؤَةَ وَالذُّورَةَ » . وعن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مغفلاً شيئاً لأغفل ما تعني الرياح من أثر قدمي ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره :

إذا ما خلوت الدهر يوماً لا تغفل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

(١) أخرجه البخاري في المحج (١٥٧٨) ومسلم في المحج (٤٤٦) .

كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها : ﴿ هَيْبِي ۖ أَي : اتبعي أثره وخذي خبره ، وتطلي شأنه من نواحي البلد ، فخرجت لذلك . ﴾ ﴿ فَصُرَّتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ﴾ . قال مجاهد : بصرت به عن جنب : عن بعد . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده . وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك ، واستطالقت منه عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها شيئاً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك ، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : حرّمنا قدرها ، وذلك لكرامته عند الله وصباه له أن يرتضع غير ثدي أمه ، ولأن الله ﷻ جعل ذلك سبباً إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة . فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه قالت : ﴿ هَلْ أَتَاكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِكُمْ لَوْ أَنَّكُمْ لَأَخَذْتُمْ أَيْمَانَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْرُكَ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ لَأَخَذْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحبهم له وشفتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ، ورجاء منفعة ، فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك ، وخلصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلها ، فدخلوا به على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنّت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً ، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها ، ثم سألتها أسية أن تقيم عندها فرفضه فأبى عليها ، وقالت : إن لي بهلاً وأولاداً ، ولا أقدر على المقام عنده ، ولكن إن أحببت أن أرفضه في بيتي فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلوات ، والكساري والإحسان الجزيل . ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ قَرَّبْنَاهُ إِلَيْنَا آيَةً ۖ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : به ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِ ۖ ﴾ أي عليه . ﴿ وَلَتَسْلَمَنَّ أَنْتَ وَفَدَّ اللَّهُ حَقَّ ﴾ أي : فيما وعدنا من رده إليها ، وجعله من المرسلين ، فحيث تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته في تربيته ما ينهي له طبعاً وشرعاً . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : حكم الله في أفعاله وعواقبها الحمودة التي هو الحمود عليها في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ أَنْ تَضَعُكَ سَبَّحًا وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ حَبْرًا عَظِيمًا ﴾ . ﴿ مِمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ نَاصِيَتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ ﴾ ﴿ وَوَحَّلَ الْمَلَكُوتَ عَلَىٰ عَيْنٍ عَظِيمَةٍ ۚ ﴾ ﴿ وَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلْيَتَّخِذْ أَهْلًا فَإِنَّهُ لَيَبْغِيَنَّ بِقَوْلَانِ هَذَا مِنْ شَيْءِهِ وَكَذَا مِنْ شَيْءِهِ فَاسْتَفْتَىٰ الْكَلْبُ مِنْ شَيْءِهِ عَلَىٰ الْكَلْبِ مِنْ شَيْءِهِ فَكَرَّرَ مَوْحَنَ فَقَعَنَ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الْكَافِرِينَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ عَذَابٍ مُبِينٍ ۚ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۚ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُحْسِنِينَ ۚ ﴾ .

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده ، واستوى آتاه الله حكماً وعِلْماً . قال مجاهد يعني : النبوة . ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة ، والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين . فقال تعالى : ﴿ وَوَحَّلَ الْمَلَكُوتَ عَلَىٰ عَيْنٍ عَظِيمَةٍ ۚ ﴾ . قال ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء . وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . ﴿ فَجَعَلَ لَهَا تَصَدِّقَاتٍ بَنِيَّانِ ﴾ أي :

يتضاريان ويتنازعان ﴿ هَذَا بَيْنَ يَسْجِدَ ﴾ أي : إسرائيلي . ﴿ وَهَذَا بَيْنَ عَصَايَ ﴾ أي : قبطي . فاستغاث الإسرائيلي بموسى ﷺ ، فوجد موسى فرصة ، وهي غفلة الناس ، فعمد إلى القبطي ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ثَضَاجَةً عَلَى رَأْسِهِ ﴾ قال مجاهد : ﴿ فَوَكَزَهُ ﴾ أي : طعنه بجمع كفه . وقال قتادة : وكره بعضا كانت معه فقضى عليه أي : كان فيها حشفة فمات . ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ هَذَا بَيْنَ عَصَايَ الْفِيلَيْنِ بِمَا مَكَّدْتُ ثِيَابِي ﴾ قال رُبِّي إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَكْمَسْتُ عَصًا ﴾ أي : بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي معينا ﴿ لِّلْمُتَّبِعِينَ ﴾ أي : الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَاصْبِرْ فِي أَلْيَوْمِكَ بِمَا بَرَّكَ فَلَمَّا الْبَيُّ اسْتَصْرَعَهُ بِالْأَثْنَيْنِ يَسْتَصْرِعُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَنَوَيْتُ شَيْئًا ﴾ قلنا أن أراد أن يتبشّر بالآلِ هُوَ مَكَّدُ لَهَا قَالَ يَتَوَسَّعُ أَثَرُهُ أَنْ تَقْتُلِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَثْنَيْنِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موسى ﷺ لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ فِي أَلْيَوْمِكَ بِمَا بَرَّكَ ﴾ أي : من مرة ما فعل ﴿ بِمَا بَرَّكَ ﴾ أي : بطلت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر . فمر في بعض الطرق ، فإذا ذلك الذي استصمره بالأسس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر ، فقال موسى : ﴿ إِنَّكَ لَنَوَيْتُ شَيْئًا ﴾ أي : طاهر الغواية كثير الشر ، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلة أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه ﴿ يَتَوَسَّعُ أَثَرُهُ أَنْ تَقْتُلِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَثْنَيْنِ ﴾ ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى ﷺ ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من قمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون ، وألقاها عنده . فلم فرعون بذلك ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى ، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَكَهْ نَبِيٌّ مِنْ قَوْمِكَ الْفِيلَيْنِ يَمْنَنُ قَالَ يَتَوَسَّعُ أَثَرُهُ أَنْ تَقْتُلُوهُ فَاتَّخِذْ إِلَيْكَ مِنْ الْمُتَّبِعِينَ ﴾ . قال تعالى : ﴿ نَبِيٌّ نَبِيٌّ ﴾ وصفه بالرجولية ؛ لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى فقال له : يا موسى . ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْفِيلَيْنِ يَمْنَنُ ﴾ أي : يتشاورون فيك ﴿ يَتَوَسَّعُ أَثَرُهُ فَاتَّخِذْ إِلَيْكَ مِنْ الْمُتَّبِعِينَ ﴾ أي : من البلد ﴿ إِلَيْكَ مِنْ الْمُتَّبِعِينَ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وَلَمَّا قَرِهَ يَلْقَاهُ مَبِيتَ قَالَ عَن رَّبِّ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ النَّجْلِ ﴿ وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَبِيتَ يَبِيدُ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ النَّكَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ آتْرَافِينَ يَتَنَاوَلُونَ فَاغْلَبَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فَكَانَ لَا تَسْمَعُ مِمَّنْ شَارِكُوا فِي الْأَصْنَةِ وَأَنْتَ كَاتِبٌ فَخَبَّرَهُمْ ﴾ فَسَقَ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الْفِيلِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

لما أخبره ذلك الرجل بما عملاً عليه فرعون ودولته في أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قبل بل كان في رفاهة ونعمة ورياسة . ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يظن . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : من فرعون وملئه ، فذكروا أن الله ﷻ بعث إليه ملكا على فرس ، فأرشده إلى الطريق فالله أعلم . ﴿ وَلَمَّا قَرِهَ يَلْقَاهُ مَبِيتَ ﴾ أي : أخذ طريقًا سالكا مهيقا فرح بذلك . ﴿ قَالَ عَن رَّبِّ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ النَّجْلِ ﴾ أي : الطريق الأقوم ، ففعل الله به ذلك ، فجعله هاديا مهديا . ﴿ وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَبِيتَ ﴾ أي : لما وصل إلى مدين ، ورد ماعوا ، وكان لها بئر يرد رعاء الشاء . ﴿ يَبِيدُ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ نَبِيٍّ ﴾

الْكَاذِبِينَ يَنْتَهِوْنَ ﴿٢٥﴾ أَي : جماعة يسقون . ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ دُونِهِمْ لِنَاكَ ذُرِّيَّتَيْنِ ذَكَوْنَيْنِ﴾ أَي : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا . فلما رآهما موسى ﷺ رق لهما ورحمهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أَي : ما خيركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿قَالَا لَا نَتَّبِعُ حَقَّ يَتَّبِعُكَ إِلَّا نَتَّبِعُكَ أَي : لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء . ﴿وَأَبَوُنَا حَقَّ سَكِينٍ﴾ أَي : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى . قال الله تعالى : ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ . روي عن عمر بن الخطاب ؓ أن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بأمرأتين تلودان قال : ما خطبكما ؟ فحدثناه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم ، وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نَزَلْنَا إِلَى نَارِ الْهَدْيِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِنَا زَكَاةً إِلَى رَبِّ خَيْرٍ قَبِيرٌ﴾ قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل ، وهو صفة الله من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهوره من الجوع وأنه لاحتاج إلى شق ثمرة . وقوله : ﴿إِلَّا الْهَدْيِ﴾ قال ابن عباس : جلس تحت شجرة ، وقال عبد الله ابن مسعود : حثت على جبل ليلتين حتى صبحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى ، فإذا هي شجرة خضراء ترف فأهوى إليها جملي ، وكان جائعاً ، فأخذها جملي فعالجها ساعة ، ثم لفظها فعدعت الله لموسى ﷺ ، ثم انصرفت ^(١) . وقال السدي : كانت الشجرة من شجر السم ^(٢) . وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى : ﴿رَبِّ إِنِّي لِنَا زَكَاةً إِلَى رَبِّ خَيْرٍ قَبِيرٌ﴾ أسمع المرأة . ﴿لَمَّا نَسَتْ لِحْدَهَا نَتْنَى عَلَى أَسْنَانِهَا قَالَتْ إِنَّكِ إِلَى يَدْعُوكَ يَتَّبِعُكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَسَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الْفَاطِلِينَ﴾ قَالَتْ لِحْدَهَا بَنَاتُ اسْتَجَرْتُ إِلَيْكَ حَزَنِي اسْتَجَبَرْتُ الْقَوْمَ الْأَوَّيْثَ ﴿قَالَ إِنَّهُ أَرِيدُ أَنْ أَرْكَبَكَ لِحْدِي أَبْنَى مَتْنِي عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي نَتْنَى جَمْعٌ فَإِنْ أَتَمَسْتَ شَجَرًا كُنْ مِنْكَ وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَتُكَّكَ مَلِكٌ سَتَجِدْتُ إِنْ شَكَا اللَّهُ مِنْ الْفَاطِلِينَ﴾ قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَبَنَاتُكِ أَيْسَا بِالْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ وَجُودٌ .

لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا ، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى ﷺ . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى : ﴿لَمَّا نَسَتْ لِحْدَهَا نَتْنَى عَلَى أَسْنَانِهَا قَالَتْ إِنَّكِ إِلَى يَدْعُوكَ يَتَّبِعُكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم رية ، بل قالت : ﴿إِنَّكِ إِلَى يَدْعُوكَ يَتَّبِعُكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعني : ليبيك ويكاخلك على سقيك لغنمنا . ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَسَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أَي : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الْفَاطِلِينَ﴾ يقول : طب نفسا ، وقو عينا ، فقد خرجت من ملككهم فلا حكم لهم في بلادنا . ولهذا قال : ﴿نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٢٥/٥) .

(٢) أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (٧٦/٢٠) .

أَنْطَلَيْينَ ﴿٢٥﴾ ، وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ؟ على أقوال ؛ أحدها أنه شعيب النبي ﷺ الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء . وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ﷺ بمدة طويلة لأنه قال لقومه ﴿ رَبَّنَا قَوْمٌ لَّوْطٌ يَنْصِبُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ﷺ بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى ﷺ مدة طويلة ؛ تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد ، وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة ، إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا . وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده .

وقوله تعالى : ﴿ فَالْتَمِسْهُمْ يُنَبِّئُكَ أَسْمُهُمْ إِسْكَنْتَ مِنْهُمْ الْقَرْيَ الْكَبِيرَ ﴾ أي : قالت إحدى ابنتي هذا الرجل ، قيل : هي التي ذهبت وراء موسى ﷺ قالت لأبيها : ﴿ يُنَبِّئُكَ أَسْمُهُمْ ﴾ أي : لرحبه هذه الغنم ، قال عمر وابن عباس : لما قالت : ﴿ إِسْكَنْتَ مِنْهُمْ الْقَرْيَ الْكَبِيرَ ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطبق حملها إلا عشرة رجال ، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اضطفت علي الطريق فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأعتدي إليه . وقال عبد الله ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : أكرمي مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يُنَبِّئُكَ أَسْمُهُمْ ﴾ إِسْكَنْتَ مِنْهُمْ الْقَرْيَ الْكَبِيرَ . قال : ﴿ إِنَّ أَرِيدُ أَنْ أُرْكَبَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَذَيْنِ ﴾ أي : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ، ويروجه إحدى ابنتيه هاتين ، وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : بعتك أحد هذين العبدین بمائة فقال : اشترت ، أنه يصح . والله أعلم .

وقوله : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبَبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَيَنْعِنِي ﴾ أي : على أن ترعى غنمي ثمانين سنين ، فإن تبرعت بزيادة ستين فهو إليك ، وإلا ففي الثمان كفاية . ﴿ رَبَّنَا أَرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سِتْنِيذِينَ إِنْ شَكَتَ اللَّهُ مِنْكَ الْبَصِيصَ ﴾ أي : لا أشاقل ولا أؤذيك ، ولا أمارك . وقوله تعالى إخباراً عن موسى ﷺ : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيُّهَا الْأَجْلِينَ قَسَيْتَ فَلَا تُعْدُونَ عَلَى اللَّهِ عَنِّي مَا تَقُولُ وَكَيْفَ ﴾ . إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندي ، فإنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد ، وخرجت من الشرط . ولهذا قال : ﴿ أَيُّهَا الْأَجْلِينَ قَسَيْتَ فَلَا تُعْدُونَ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : فلا حرج علي مع أن الكامل ، وإن كان مباحاً ، لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج . كما قال تعالى : ﴿ كَسَنَ مَسْجِدَ فِي يَوْمَيْنِ فَكَأَيْدِهِمْ وَتَنَ تَأْتَرُ فَلَا يُزَمُّ عَلَيْهِ ﴾ وقال رسول الله ﷺ لحزمة بن عمرو الأسلمي ؓ ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم في السفر فقال : « إِنْ ثَبُتَ فَصُمْ وَإِنْ ثَبُتَ فَأَقِطُوا » ^(١) . مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر . هذا وقد دل الدليل على أن موسى ﷺ إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما . وعن سعيد بن جبير قال : قال سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟

(١) أخرجه مسلم في (الصيام) (١٠٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٩٤/٣) .

فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأساله ، فقدمت على ابن عباس رضي ، فسأله فقال :
قضى أكثرهما وأطيعهما ، إن رسول الله إذا قال فعل .

وعن محمد بن كعب القرظي أن النبي صلى مثل أي الأجلين قضى موسى ؟ - قال :- « وأوقاهما
وأتمهما » (١) .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الثَّوْرِ كَنَّا قَالَ لِأَخِيهِ أَتَنْكُرُنِي إِنَّكَ عَازٍ عَلَىٰ النَّاسِ بَصُدُودًا ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا نُورًا مِّن سُدِّيٍّ أَفَكُنَا ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمَا نُورًا مِّن سُدِّيٍّ أَفَكُنَا ﴿٣١﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمَا نُورًا مِّن سُدِّيٍّ أَفَكُنَا ﴿٣٢﴾ ﴾

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى صلى قضى أمم الأجلين وأوقاهما وأبرهما ، وأكملهما
وأتمهما . وقد استفاد هذا أيضا من الآية الكريمة حيث قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ أي :
الأكمل منهما والله أعلم . وقال مجاهد : قضى عشر سنين ، وبعدها عشرا آخر ، وهذا القول لم أره
لغيره ، فالله أعلم . وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على
زيارتهم في خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله ، وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره ، فسلكت
بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلا فجعل كلما أوري زنده لا يضيء شيئا فتعجب من ذلك ،
فبينما هو ذلك كذلك : ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الثَّوْرِ كَنَّا ﴾ أي : رأى نارا تضيء على بعد له ﴿ قَالَ لِأَخِيهِ
أَتَنْكُرُنِي إِنَّكَ عَازٍ عَلَى النَّاسِ بَصُدُودًا ﴾ أي : حتى أذهب إليها ﴿ لَمَّا آتَاهُمَا نُورًا مِّن سُدِّيٍّ ﴾
﴿ أَوْ جَعَلَهُ نَارًا ﴾ أي : قطعة منها ﴿ لَمَّا كُنَا فِيهَا ﴾ أي : تستدفون بها من البرد . قال الله
تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا نُورًا مِّن سُدِّيٍّ أَفَكُنَا ﴾ أي : من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من
ناحية الغرب . والنار قد وجدها تضطرب في شجرة خضراء في لقع الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتا
في أمرها . فناداه ربه ﴿ مِنْ سُدِّيٍّ ﴾ أي : من سُدِّيٍّ ﴿ الْبَصُرَ الْيُسْرَىٰ ﴾ وعن أبي عبيدة عن عبد الله
قال : رأيت الشجرة التي نودي منها موسى صلى سمره خضراء ترف ، وقال قتادة : هي من العوسج ،
وعصاه من العوسج ، وقوله تعالى : ﴿ أَن يَتَّبِعُونَ إِلَهَ إِلَّا إِلَهُنَا ﴾ أي : الذي يخاطبك
ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ، وقوله : ﴿ وَإِنِّي عَصَاكَ ﴾ أي : التي في يديك قال
تعالى : ﴿ فَالْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ عرف وتحقيق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن
فيكون . وقال هانئ : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَيَّأَ ﴾ أي : تضطرب ﴿ كَانَتْ جَانِبًا وَكُنَّا مَتَرًا ﴾ أي : في حركتها
السريعة مع عظم خلقتها ، وقوامها واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة
إلا ابتلعها ، تنحدر في فيها تتقفع كأنها حادة في واد فعند ذلك ﴿ وَكُنَّا مَتَرًا وَكُنَّا مَتَرًا ﴾ أي : ولم
يكن يتلفت ؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ، فلما قال الله له : ﴿ يَتَّبِعُونَ إِلَهَ إِلَّا إِلَهُنَا ﴾
﴿ الْيُسْرَى ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال الله تعالى : ﴿ أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْهِكَ فَتَرَىٰ مِن بَعْدِ
الْأَيَّامِ ﴾

سَوَّى أَي إِذَا أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دَرْعِكَ ، ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا ، فَإِنَّمَا تَخْرُجُ تَلَالُفًا كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ فِي لَمَعَانِ الْبَرَقِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مِنْ غَيْرِ سَوَّى ﴾ أَي : مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذْتُمْ إِلَٰهَتَكُمْ جَنَاحَ الْبَشَرِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مِنْ الْفَزَعِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : مِنْ الرَّعْبِ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ : مِمَّا حَصَلَ لَكَ مِنْ خَوْفِكَ مِنَ الْحَيَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ أَصَمٌ مِنْ هَذَا ، وَهُوَ أَنَّهُ أَمَرَ الْفُلَّانَ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ مِنَ الرَّهْبِ ، وَهُوَ يَدُهُ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْخَوْفِ . وَرَبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْاِقْتِدَاءِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فُرَادِهِ ، فَإِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ أَوْ يَخْفُفُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِهِ الثَّقَةُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَذُنُوبَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِيَوْمَئِذٍ مِنْ تِلْكَ ﴾ بِعَنِي لِقَاءُ الْعَصَا ، وَجَعَلَهَا حَيَةً تَسْمَى ، وَإِدْخَالَهُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَخَرَجَ يَبِضًا مِنْ غَيْرِ سَوَّى ، دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْخَفَاءِ ، وَصَحَّةِ نُبُوَّةِ مَنْ جَرَى هَذَا الْخَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ بِرُفُوعَتِكَ وَمَلَانِيَّتِكَ ﴾ أَي : وَقَوْمِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ ، وَالْكِبَرَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أَي : خَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ مُخَالَفِينَ لِأَمْرِهِ وَدِينِهِ .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ فَاسِقُونَ ﴾ وَأَيْضًا هَكَذَا هُوَ أَفْصَحُ رَبِّي إِسْكَانًا فَأَرْسَلْتُ رَبِّي رَدْمًا يَصْدُقُ رَبِّي إِنَّهُ أَفْصَحُ أَنْ يُكْذِبُونَ ﴿ قَالَ سَنُنْذِرُ عَذَابَكَ لِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ شُلُوبًا فَلَا يَعْلَمُونَ بِإِغْنَاءِ آيَاتِنَا أَشْيَاءَ رَبِّي الْأَتَّعَتُكَ الْفَلْسُفَةُ ﴾ .

لَا أَمْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ الَّذِي إِذَا خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ فَرَّارًا مِنْهُ ، وَخَوْفًا مِنْ سَطْوَتِهِ . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ فَاسِقُونَ ﴾ بِعَنِي ذَلِكَ الْقِيَمِي ﴿ قُلْتُ أَنْ يَقْتُلُونِي ﴾ أَي : إِذَا رَأَوْنِي ﴿ وَأَيْضًا هَكَذَا هُوَ أَفْصَحُ رَبِّي إِسْكَانًا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي لِسَانِهِ لَفْظٌ بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاوَلَ تِلْكَ الْجُمُوعَةَ حِينَ خَبَرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الثَّمَرَةِ أَوْ الدَّرَةِ ، فَأَخَذَ الْجُمُوعَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ ، فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ ، ﴿ فَأَرْسَلْتُ رَبِّي رَدْمًا يَصْدُقُ رَبِّي ﴾ أَي : وَزَيْدًا وَمَعِينًا ، وَمَقْوِيًا لِأَمْرِي بِصِدْقِي فِيمَا أَقُولُ ، وَأَخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّهُ خَبَرَ الْاِثْنَيْنِ أُنْجَعَ فِي النُّفُوسِ مِنْ خَيْرِ الْوَاحِدِ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّي لَأَفْصَحُ أَنْ يُكْذِبُونَ ﴾ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : ﴿ رَدْمًا يَصْدُقُ رَبِّي ﴾ أَي : يَبَيِّنُ لَهُمْ عَنِّي مَا أَكَلِمُهُمْ بِهِ ، فَإِنَّهُ يَفْهَمُ عَنِّي مَا لَا يَفْهَمُونَ . فَلَمَّا سَأَلَ ذَلِكَ مُوسَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَنُنْذِرُ عَذَابَكَ لِأَخِيكَ ﴾ أَي : سَنَقْوِي أَمْرَكَ ، وَنَعَزُ جَانِبَكَ الَّذِي سَأَلْتَ لَهُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَعَكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكَ شُلُوبًا ﴾ أَي : حِجَّةَ قَاهِرَةٍ ﴿ فَلَا يَعْلَمُونَ بِإِغْنَاءِ آيَاتِنَا ﴾ أَي : لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى أَذَاكَمَا بِسَبَبِ إِهْلَاكَكُمْ آيَاتِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ يَكْتُمُونَ بِرَبِّكَ إِلَٰهًا - إِلَى قَوْلِهِ - وَكَفَى بِأَقْوَى حَيْبًا ﴾ أَي : وَكَفَى بِاللَّهِ نَاصِرًا وَمَعِينًا وَمُؤَيِّدًا ، وَلِهَذَا أَخْبَرَهُمَا أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمَا ، وَلَنْ اتَّبِعَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتُنَاسِئُونَ أَنْتُمُوكُمُ الْفَلْسُفَةَ ﴾ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَسْبَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى إِلَهُ الْوَحْدِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَجِهَ ابْنُ جَرِيرٍ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكَ شُلُوبًا فَلَا يَعْلَمُونَ بِإِغْنَاءِ آيَاتِنَا ﴾ ، ثُمَّ يَتَدَعَى فَيَقُولُ : ﴿ يَتَذَكَّرُ أَشْيَاءَ رَبِّي الْأَتَّعَتُكَ الْفَلْسُفَةَ ﴾ تَقْدِيرُهُ أَتُنَاسِئُونَ وَمَنْ اتَّبِعَكُمْ الْغَالِبُونَ بِآيَاتِنَا . وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ ، وَهُوَ حَاصِلٌ مِنَ التَّوْجِيهِ الْأَوَّلِ ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿ قُلْنَا جَاءَكُمْ مُوسَى وَمُؤْتَى بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا هُوَ إِلَّا رِبِّكُمْ مُنْجَرٍ وَمَا سَكَنَتْكُمْ يَمِينًا فِي عِبَادَتِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾

وَقَالَ مُوسَى رَبِّيَ أَكَلَمَ بَيْنَ جَمْعٍ بِالْهَيْدَى مِنْ عِنْدِهِ وَتَنْ تَكُونُ لَمْ عَقِبَهُ النَّارُ إِنَّهُ لَا يُقْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٦﴾ .
 يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة ، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله ﷻ . فلما عاين فرعون وملؤه ذلك ، وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم ، وبغضهم إلى العناد والمباينة ، وذلك لطغيانهم ، وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا : ﴿ مَا خَدَّأَنَا إِلَّا سِحْرٌ مُقَرَّرٌ ﴾ أي : مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما بعد معهم ذلك . وقوله : ﴿ وَنَا سَمِعْنَا بِهَيْدَى فِي مَائِكَتَا الْأَوَّلِينَ ﴾ يعنيون : عبادة الله وحده لا شريك له ، ويقولون : ما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى ﷺ مجيبا لهم : ﴿ رَبِّيَ أَكَلَمَ بَيْنَ جَمْعٍ بِالْهَيْدَى مِنْ عِنْدِهِ ﴾ يعني : مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال : ﴿ وَتَنْ تَكُونُ لَمْ عَقِبَهُ النَّارُ ﴾ أي : من النصرة والظفر والتأكيد . ﴿ إِنَّهُ لَا يُقْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : المشركون بالله ﷻ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهِمَا الْكَلَامُ مَا عَمِلْتُ لَكُمُ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَسُنَّ عَلَى الطَّيْنِ فَلْيَسْكَلْ فِي مَرْحَا لَسْكِي أَمْلِجْ إِلَيَّ إِنَّهُ مُرَوِّعٌ وَإِلَى الْأَلْهُمِ مِنْ الْكَلْبِيِّينَ ① وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَشُعُوبُهُ فِي الْأَرْضِ يَكْبِرُ الْهَوَىٰ وَطَرَا أَفْهَمُ إِيَّسَا لَا يُبْصِرُونَ ② فَاحْذَرِكُهُمْ وَشُعُوبَهُمْ فَتَبَذَلَهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الظَّالِمِينَ ③ وَجَعَلْنَاهُمْ أَهْلَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْآكَارِ يَوْمَ الْآبِسَةِ لَا يَبْصُرُونَ ④ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هُلُولِهِ الدُّنْيَا لَنَنصَنَّ يَوْمَ الْفِتْنَةِ هُمْ مِنَ الْغَاقِبِيِّينَ ⑤ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه ، واقتراه في الإلهية لنفسه التبيحة لعنه الله : كما قال تعالى : ﴿ فَاسْتَكْبَرَ قَوْمَهُ فَاغْلَاغَهُ ① ﴾ وذلك أنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية : فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم ، قال : ﴿ يَأْتِيهِمَا الْكَلَامُ مَا عَمِلْتُ لَكُمُ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ، وانتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة ، وحتى أنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿ لَيْنَ الْهَيْدَى إِلَهَا غَيْرِي لَأَجْمَلَكَ مِنْ السَّمْعَيْنِ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَسُنَّ عَلَى الطَّيْنِ فَلْيَسْكَلْ فِي مَرْحَا لَسْكِي أَمْلِجْ إِلَيَّ إِنَّهُ مُرَوِّعٌ ﴾ يعني : أمر وزيره هامان ، ومدير رعيته ، ومشير دولته ، أن يوقد له على الطين يعني : يتخذ له أجزأ لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع العالي كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْنَسُنَّ آتِيَنِي مَرْحَا لَسْكِي أَمْلِجْ الْأَسْبَبَ ② ﴾ أَتَسْبَبُ السَّمْعِيَّ أَمْلِجْ إِلَيَّ إِنَّهُ مُرَوِّعٌ وَإِلَى الْأَلْهُمِ كَذِبًا وَكَذَلِكَ رُبَّنَ إِيْرَعُونَ سَوَّ عَكْلِهِ وَسَوَّ عَوَّ السَّيْدِي وَمَا كَيْفَ فِرْعَوْنُ إِلَّا فِي تَسَابٍ ③ ﴾ .

وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ولهذا قال : ﴿ وَإِلَى الْأَلْهُمِ مِنْ الْكَلْبِيِّينَ ﴾ أي : في قوله أن ثم رجا غيري لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله ؛ لأنه لم يكن يحترف بوجود الصانع جل وعلا ، فإنه قال : ﴿ وَمَا رَبِّيَ الْمَلَكِيَّةِ ﴾ وقال : ﴿ لَيْنَ الْهَيْدَى إِلَهَا غَيْرِي لَأَجْمَلَكَ مِنْ السَّمْعَيْنِ ﴾ وقال : ﴿ يَأْتِيهِمَا الْكَلَامُ مَا عَمِلْتُ لَكُمُ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَشُعُوبُهُ فِي الْأَرْضِ يَكْبِرُ الْهَوَىٰ وَطَرَا أَفْهَمُ إِيَّسَا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي : طغفوا وتجبروا ، وأكثروا في الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ④ إِذْ رَكَكَ لِلْأَلْمَرَادِ ﴾ ولهذا قال تعالى ها هنا :

﴿ فَاتَّخَذْتَهُ مَثَلًا ۖ وَخَرَجْنَاهُ مِنْ قَبْلِهِمْ فِي الْيَمِّ ۖ أَي : أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد . ﴾ ﴿ فَانْقَرَضَتْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَى الْآخِرِ ۖ أَي : لمن سلك وراءهم ، وأخذ طريقهم في تكذيب الرسل ، وتعطيل الصانع . ﴾ ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۖ أَي : فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بهذا الآخرة وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي هَدًى أَلَدًا لِنُفَكَّهُ ۖ أَي : وشرع الله لهمتهم ، ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله ، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء ، وأتباعهم كذلك . ﴾ ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُورِينَ ۖ . ﴾ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّا مَوْسَى الْكَتَبَ إِذْ بَدَأَ مَا أَحْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِسَكَاةٍ لِلثَّانِي وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَالَمِينَ يَذْكُرُونَ ۖ . ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على موسى الكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملاه . وقوله تعالى : ﴿ إِذْ بَدَأَ مَا أَحْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر للمؤمنين أن يقتاتوا أعداء الله من المشركين . وقال أبو سعيد الخدري : ما أهلك الله قوماً بعد ما أهلك الله قوماً من السماء ، ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوهم فرعون بعد موسى . ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّا مَوْسَى الْكَتَبَ إِذْ بَدَأَ مَا أَحْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ (١) . وقوله : ﴿ بِسَكَاةٍ لِلثَّانِي وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً ۖ أَي : من العمى والغي ، وَهَدَىٰ ۖ إِلَى الْحَقِّ وَرَحْمَةً ۖ أَي : لإرشادنا إلى العمل الصالح ﴾ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ۖ أَي : لعل الناس يذكرون به ، ويهتدون بسببه . ﴾

﴿ وَبَا كُنْتَ بِصَاحِبِ الْقُرْبَىٰ إِذْ قَسَيْتَآ إِلَىٰ مَوْسَى الْأَمْرَ وَبَا كُنْتَ بَيْنَ الْكُفَّهِينَ ۝ وَلَكِنَّا إِنَّمَا جَعَلْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأُمُورُ وَبَا كُنْتَ قَائِمًا بِأَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ مَا يَكُونُ لَكُنَّا كُنَّا مَرِيضِينَ ۝ وَبَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنَّا وَلَكِنْ لَّيُذَكِّرْ قَوْمًا مَا آتَيْنَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَنْذَعُرُونَ ۝ وَلَوْلَا أَن نَّيُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ مِّمَّا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ يَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُفِخَ فِي صُورٍ مِّنْكَ وَتَكُونُ مِنَّا الْمُؤْمِنِينَ ۖ . ﴾

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كان سامعه شاهداً وراء لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك . ﴿ وَبَا كُنْتَ بِصَاحِبِ الْقُرْبَىٰ إِذْ قَسَيْتَآ إِلَىٰ مَوْسَى الْأَمْرَ ﴾ يعني : ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ﴿ وَبَا كُنْتَ بَيْنَ الْكُفَّهِينَ ﴾ لذلك ، ولكن الله ﷻ أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدهما ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَا كُنْتَ قَائِمًا بِأَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ مَا يَكُونُ لَكُنَّا كُنَّا مَرِيضِينَ ۖ أَي : وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أجبرت عن نبينا شبيب ، وما قال لقومه وما ردوا عليه : ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مَرِيضِينَ ۖ أَي : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك إلى الناس رسولاً . ﴾ ﴿ وَبَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ عن أبي هريرة ؓ قال : نودوا أن : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وأجبتكم قبل أن تدعوني (٢) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٩٨/٢٠) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٠٠/٢٠) .

ولهذا قال : ﴿ يٰٓمُوسَىٰ صَبِّرْ ۚ أَيُّ عَلَىٰ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ۚ فَإِنْ تَجَشَّمْ مِثْلَ هَذَا شَدِيدٍ عَلَىٰ النَّفُوسِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِي ، وَعَبَدَ عَمَلُوكَ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ فَأَدَّيْهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيئَهَا ، ثُمَّ أَحْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا » ^(١) . وَعَنْ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : لَإِنِّي لَصَحْتُ رَاحِلَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَقَالَ قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا ، وَقَالَ فِيمَا قَالَ : « مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ، وَلَوْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا » ^(٢) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَذَرُونَ بِالْمَسْكُونَةِ الْيَتِيمَةَ ﴾ أَيُّ : لَا يَقَابِلُونَ السَّقَى بِمِثْلِهِ ، وَلَكِنْ يَصِفُونَ وَيَصِفُحُونَ .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أَيُّ : وَمِنَ الَّذِي رَزَقَهُمْ مِنَ الْحَلَالِ يَنْفِقُونَ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ فِي النِّفَاقَاتِ الْوَاجِبَةِ لِأَهْلِيهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ ، وَالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَالْمُسْتَحْبَةِ مِنَ التَّطَوُّعَاتِ ، وَصَدَقَاتِ الْفُلِّ وَالْقَرَبَاتِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِكَ سَيَرْحَمُ اللَّهُ أَمْثَلَكُمْ مَنَّهُ ﴾ أَيُّ : لَا يَخَالُطُونَ أَمَلَهُ وَلَا يَمَاشُرُونَهُمْ ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِكَ سَيُؤَلِّمُ اللَّهُ شِرَارَكُمْ ﴾ . ﴿ وَكَانُوا لَنَا أَعْتَلًا وَلَكُمُ أَعْتَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا يَبْنِي الْجَنَّةِينَ ﴾ أَيُّ : إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمْ سَفِيهًا ، وَكَلَّمَهُمْ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمْ الْجَوَابَ عَنْهُ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَلَمْ يَقَابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ ، وَلَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ إِلَّا كَلَامٌ طَيِّبٌ ، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ لَنَا أَعْتَلُكُمْ وَلَكُمُ أَعْتَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا يَبْنِي الْجَنَّةِينَ ﴾ أَيُّ : لَا نَرِيدُ طَرِيقَ الْجَاهِلِينَ وَلَا نَحِبُّهَا . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ : ثُمَّ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ بِمَكَّةَ - عَشْرُونَ رَجُلًا أَوْ قَرِيبَ ذَلِكَ مِنَ النَّصَارَى ، حِينَ بَلَغَهُمْ خَبَرُهُ مِنَ الْحَبِشَةِ ، فَوَجَدُوهُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَجَلَسُوا إِلَيْهِ ، وَكَلَمُوهُ وَسَأَلُوهُ ، وَرَجُلَانِ مِنَ قُرَيْشٍ فِي أُنْدِيَّتِهِمْ حَوْلَ الْكُمَةِ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْ مَسْأَلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمَّا أَرَادُوا ، دَعَاهُمُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ ، فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ ، ثُمَّ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَأَمَنُوا بِهِ ، وَصَدَّقُوهُ وَعَرَفُوا مَا كَانَ يُوصِفُ لَهُمْ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ ، فَلَمَّا قَامُوا عَنْهُ اعْتَرَضَهُمْ أَبُو جَهْلٌ بْنُ هِشَامٍ فِي قَفْرِ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالُوا لَهُمْ : خَيِّبَكُمُ اللَّهُ مِنْ رَكْبٍ ، بِهَيْكُمُ مِنْ رِءَاكُمُ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ تَرْتَادُونَ لَهُمْ لَتَأْتُوهُمْ بِخَبَرِ الرَّجُلِ ، فَلَمْ تَطْعَمْنِ مِنْ جَالِسِكُمْ عَنْدَهُ حَتَّى فَارَقَهُمْ دِينُكُمْ ، وَصَدَقْتُمُوهُ فِيمَا قَالَ ، مَا نَعْلَمُ رَكْبًا أَحَقُّ مِنْكُمْ ، أَوْ كَمَا قَالُوا لَهُمْ . فَقَالُوا لَهُمْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَغَاهَلُكُمْ ، لَنَا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ ، وَلَكُمْ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَمْ نَأَلْ أَنْفُسَنَا خَيْرًا . قَالَ وَيَقَالُ : إِنَّ النُّفَرَ النَّصَارَى مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ فَاللَّهُ أَصْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ . قَالَ : وَيَقَالُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ أَلْيَتُهُمْ أَلْيَتُ الْيَهُودِ ثُمَّ يَدَّيْنِهِمْ - إِلَى قَوْلِهِ - لَا يَبْنِي الْجَنَّةِينَ ﴾ قَالَ : وَسَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيمَنْ نَزَلَتْ . قَالَ : مَا زِلْتُ أَسْمَعُ مِنْ عُلَمَائِنَا أَنَّهُنَّ نَزَلْنَ فِي النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ ﷺ ، وَالْآيَاتُ اللَّاتِي فِي سُورَةِ الْمَائِنَةِ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ يُتَبَّعُونَ وَذُنُوبُهُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - فَاتَّخَذُوا لِلَّهِ الْأَلْيَتِينَ ﴾ ^(٣) .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وَقَالُوا إِنَّ نَتِيجَ الْمَلَكَيْنِ مَعَكَ تَتَخَفُ مِنْ أَنْ تُضِلَّ أَوْ لَمْ تُضِلَّ لَمْ تُضِلَّ حَرَمًا عَلَيْنَا يَجِبُ لِيُؤْتِيَ فَرَسًا كُلِّي فَمَتَى ذُنُوبُنَا لَنَا وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١) ومسلم في (الإيمان) (٢٤١) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٢/٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٩/٢) والبيهقي في مجمع الزوائد (٩٣/١) .

(٣) سيرة ابن هشام (٣٢/٢) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : **إِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾** أي : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، له الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ، ممن يستحق الغواية . وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ وكان يحوطه وينصره ، ويحبه حباً شديداً لا شرعياً فلما حضرته الوفاة ، وحين أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه ، واستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ : **« مَا عَمَّ قُلُوبُ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَابَجَ لَكَ بِهَا عِزُّ اللَّهِ »** فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو : **« عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَاللَّهِ لَأَسْتَفْزِزَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتِهِ عَنْكَ »** . فأنزل الله تعالى : ﴿ **مَا كُنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَفْزِزُوا بِالْمُشْرِكِينَ فَقَدْ كَذَّبْنَا أُولَئِكَ فَتَنَ** ﴾ وأنزل في أبي طالب : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لَئِيْلَكَ الْمَكَّةَ تَنَزُّلًا** ﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ **إِنَّ لَئِيْلَكَ الْمَكَّةَ تَنَزُّلًا** ﴾ أي : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا . قال الله تعالى مجيباً لهم : ﴿ **أَوَلَمْ تَرَ كَيْفَ جَعَلْنَا لَئِيْلَكَ الْمَكَّةَ تَنَزُّلًا** ﴾ يعني : هذا الذي اعتلوه به كذب وباطل ، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع ، فكيف يكون هذا الحرم أمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون أمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ وقوله تعالى : ﴿ **يَجْعَلُ إِلَيْنَا تَنَزُّلَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أي : من سائر الشمار بما حوله من الطوائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ **يُرَدُّكَ مِنْ لَدُنَّا** ﴾ أي من عندنا ﴿ **وَلَكِنَّ أَصْغَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا .

﴿ **وَكَمْ أَمْلَكْنَا مِنْ قَرِيبٍ يَبُولُوتَ مَيْمَنَتَهَا فَيَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِمْ ثُمَّ يُلْقِيهِ فِي الْوَيْبِ** ﴾ أي : كم أملكنا من قريبتهم يبولوت ميمنتها فَيَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِمْ ثُمَّ يُلْقِيهِ فِي الْوَيْبِ ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهَيْمًا عَلَى الْقُرْآنِ حَتَّى يَبَيِّنَ فِيهِ آيَاتِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَتْلُونَ** ﴾ أي : وما كنا ربك مهيماً على القرآن حتى يبين في آياته لهم ما يتلون عليهم ما يتلون .

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى : ﴿ **وَكَمْ أَمْلَكْنَا مِنْ قَرِيبٍ يَبُولُوتَ مَيْمَنَتَهَا** ﴾ أي : طفت وأشرت ، وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، قال تعالى : ﴿ **فَيَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِمْ ثُمَّ يُلْقِيهِ فِي الْوَيْبِ** ﴾ أي : دثر ديارهم ، فلا ترى إلا مساكنهم . وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهَيْمًا عَلَى الْقُرْآنِ** ﴾ أي : رجعت خراباً ليس فيها أحد ، ثم قال تعالى مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهَيْمًا عَلَى الْقُرْآنِ حَتَّى يَبَيِّنَ فِيهِ آيَاتِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَتْلُونَ** ﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي - وهو

(١) أخرجه البخاري في التفسير (١٧٧٢) ومسلم في (الإيمان) (٣٩) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٣/٥) .

الماكِلَ والمشارِبَ ، والملابسِ والمساكنِ ، وللمناكِحِ ، فإن لربك عليك حقًا ، ولنفسك عليك حقًا ، ولأهلك عليك حقًا ، ولزورك عليك حقًا ، فأت كل ذي حق حقه . ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ لَيْتَكَ ﴾ أي : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض ، وتسمي إلى خلق الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَنْ حُبٍّ جَنِّتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمًّا وَلَا يُخَفِّلُ عَنْ ذُرِّيَّتِهِ الْمُتَبَرِّينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَنْ حُبٍّ جَنِّتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمًّا ﴾ أي : إنما أعطيتُه لعلم الله في أنني أهلك له ، وهذا كقوله : ﴿ لَيْتَكَ ﴾ أي : لعلك تسمع أن الله قد أعطاه من المال : ﴿ أَوَلَمْ يَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمًّا ﴾ أي : قد كان من هو أكثر منه مالاً ، وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم ، وعدم شكرهم . ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُخَفِّلُ عَنْ ذُرِّيَّتِهِ الْمُتَبَرِّينَ ﴾ أي لكثرة ذنوبهم . قال قتادة : ﴿ عَنْ حُبٍّ جَنِّتُ بِهِ ﴾ : على خير عندي ، وقال السدي : على علم أنني أهلك للذلك . وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد ، فإنه قال في قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَنْ حُبٍّ جَنِّتُ بِهِ ﴾ قال : لولا رضا الله عني ، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال . وقرأ : ﴿ أَوَلَمْ يَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمًّا ﴾ الآية ، وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطى .

﴿ فَخَرَجَ عَنْ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَبِيتَ لَنَا مَثَلٌ مِمَّا أُوتِيَ قَدْ رَوَدُونا لَدُنْكَ حَظِيرٌ ﴿ وَيَسْأَلُ الَّذِينَ أُوتُوا الْإِلْمَ وَيَلْعَنُكُمْ قَوْمٌ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ خَرَجَ لَنَا مَخْرَجٌ وَتَوَلَّى سَبِيلًا وَلَا يَلْقَاهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ، ويميل إلى زخارفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى . ﴿ قَالُوا يَبْنَيتَ لَنَا مَثَلًا مِمَّا أُوتِيَ قَدْ رَوَدُونا لَدُنْكَ حَظِيرٌ حَظِيرٌ قَوْمٌ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ خَرَجَ لَنَا مَخْرَجٌ وَتَوَلَّى سَبِيلًا ﴾ أي : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون . كما في الحديث الصحيح : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَاقْرَأُوا إِنَّ شِقَاقَكُمْ ﴾ . فلا تَلَمَّ نَفْسٌ مِمَّا أَخَفَى لَكُمْ مِنْ فَتْنَةٍ أَمَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا كَانُوا يَسْتَخِيرُونَ ﴿ ^(١) . وقوله : ﴿ وَلَا يَلْقَاهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ . قال السدي : ولا يلقى الجنة إلا الصابرون ، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة ، وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله ﷻ ، وإخباره بذلك .

﴿ لَمَسْنَا مِنْ دُونِهِ الْأَرْضَ فَكُنَّا لَمْ مِنْ فَتْرَةٍ بَنَصُورَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كُنَّا مِنَ الْغَثَّيَيْنِ ﴾ (١) وَأَصْبَحَ الْكُفْرَ تَمَرًا مَكَتَةً بِالْأَنْبِيَاءِ يَقُولُونَ وَيَكُنَّا اللَّهُ يَسْطُ الْكَرْبُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ بَيْنَهُ مِنْ يَكُونُ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّا لَا يَخْلُجُ الْكَثِيرَةَ .

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه ، وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت في الصحيح عن سالم عن أبيه عنه عليه السلام قال : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي إِزَارُهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (١) .

وعن أبي سعيد قال : قال عليه السلام : بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كُنَّا لَمْ مِنْ فَتْرَةٍ بَنَصُورَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كُنَّا مِنَ الْغَثَّيَيْنِ ﴾ أي : ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصرا لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الْكُفْرَ تَمَرًا مَكَتَةً بِالْأَنْبِيَاءِ ﴾ أي : الذين لما رأوه في زينته قالوا : ﴿ يَكُنْ كُنَا يَقُلْ مَا أَوْفَى قَدْرُهُ لَمْ لَدُو حَظِّ عَظِيمٍ ﴾ . فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ وَيَكُنَّا اللَّهُ يَسْطُ الْكَرْبُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ بَيْنَهُ مِنْ يَكُونُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : ليس المال بديل على رضا الله عن صاحبه ، كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَسْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » (٣) . ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي : لولا لطف الله بنا ، وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله ﴿ وَيَكُنَّا لَا يَخْلُجُ الْكَثِيرَةَ ﴾ يعنون أنه كان كافرا ، ولا يفلح الكافر عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة . ﴿ يَكُنْ أَنْذَارُ الْآخِرَةِ جَمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالَّذِينَ هُمْ لِلْمَسْكُونَةِ قَلْبٌ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَهُ بِالْإِسْلَامِ فَلَا يُجْزَى عَلَيْهِمْ أَشْيَاءٌ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْسُكُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوا في الأرض أي ترفقا على خلق الله ، وتعبيرا بهم ، ولا فسادا فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر . وقال سعيد بن جبير : العلو البغي . وعن مسلم البطين : العلو في الأرض التكبر بغير حق ، والفساد أخذ المال بغير حق (٤) ، وعن علي قال : إن الرجل ليعجبه من شارك نعله أن يكون أجود من شارك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى : ﴿ يَكُنْ أَنْذَارُ الْآخِرَةِ جَمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالَّذِينَ هُمْ لِلْمَسْكُونَةِ قَلْبٌ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَهُ بِالْإِسْلَامِ فَلَا يُجْزَى عَلَيْهِمْ أَشْيَاءٌ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْسُكُونَ ﴾ (٥) وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاؤل على غيره . فإن ذلك مذموم . كما ثبت في الصحيح عنه عليه السلام : « إِنَّهُ أَوْجِي إِلَيَّ أَنْ

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٩٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٠/٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في المستدرک (٣٣/١) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٤٩/٢٠) .

(٥) ذكره الطبري في تفسيره (١٤٩/٢٠) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَزَيَّجْتُكُمْ مِنَ الْغَايِبِ وَمَنْ مَوْزِعَاتِي رَيْبٌ عَيْنٍ ﴾ أي : قل لمن خالفك وكذبك من قومك من المشركين ، ومن تبعهم على كفرهم . قل : ربي أعلم بالملهيدي منكم ومني ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة . ثم قال مذكرا لنبيه نعمته العظيمة عليه ، وعلى العباد إذ أرسله إليهم : ﴿ وَبَايَعْتُمْ تَحْتَ الْغَيْثِ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ إِلَيْنَا الْكِتَابُ ﴾ أي : أما كنت تقطن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ولكن ﴿ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ ﴾ أي : إنما أنزل الوحي عليك من الله ، من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا ﴾ أي معينا . ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ولكن فارقهم ونايذهم وخالفهم ، ﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْوَعْدِ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي : لا تتأثر لخالفهم لك وصدهم الناس عن طريقك ، لا تلوي على ذلك ، ولا تباله ، فإن الله محل كلمتك ، ومؤيد دينك ، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ، ولهذا قال : ﴿ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا كَرِهَ اللَّهُ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : لا تليق العبادة إلا له ، ولا تبغي الإلهية إلا لعظمته . وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أي إلا إياه . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عنه عليه السلام قال : « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ لَيْبَدٌ :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَقَ اللَّهُ بَاطِلٌ » ^(١)

وقال مجاهد والثوري في قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أي : إلا ما أريد به وجهه . وهذا القول لا ينافي القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة ، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشرعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة ، إلا ذاته تعالى وتقدس ، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء . وقوله : ﴿ لَهُ الْخَلْقُ ﴾ أي : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه . ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا ﴾ أي يوم معادكم ، فيجزئكم بأعمالكم إن غيرنا فخير ، وإن شئنا فشر .

(١) أخرجه البخاري في (الأدب) (٦١٤٧) و (مناقب الأنصار) (٣٨٤١) ومسلم في (الشعر للقدماء) (٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .

خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وباري وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدودها في أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذي يقول للشيء كن فيكون . ولهذا قال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ سَبَّحُوا فِي الْآرِثِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُ الْخَلْقَ الْآخِرَةَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سُبُّهُمْ مَلَكًا فِي الْأَفَّاكِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ الْحَقُّ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُنَكِّتْ لَهُمْ ﴾ (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَّا إِلَهُ الْآلِهَةِ ﴾ أي : ترجعون يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَشَدُّ يَسْجِدَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَاسْتَعِذُّ ﴾ أي : لا يمجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شيء خائف منه فقير إليه ، وهو الغني عما سواه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُوا اللَّهَ وَيَكِيدُوا بِنَفْسِهِمْ ﴾ أي : جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ أَرَأَيْتُمْ يَمْشِيَنَّاتِ رَحْمَتِي ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ مَكِيدٌ أَلَيْسَ ﴾ أي : موجه شديد في الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بِمَعْشَرِكُمْ بَعْضًا وَمَا وَثِقُكُمْ أَثَارًا وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ، ومكابرهم ، ودفعهم الحق بالباطل ، أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، فعدلوا إلى استعمال جاههم ، وقوة ملكهم ﴿ قَالُوا ابْنُائِنا بِكَيْدِنَا فَانْقَرِضْ فِي الْبَحْرِ ﴾ (٤) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ، ثم أضرموا فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم ، فكنموه وألقوه في كفة المنجنيق ، ثم قذفوه فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ ﴾ أي : سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول لقومه مقررماً لهم ، وموياً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان ، إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة ، وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا ، وهذا على قراءة من نصب ﴿ مودة بينكم ﴾ على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع (٦) فمعناه إنما اتخذاكم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٢/٥) .

(٢) قرأه بالغ وابن عامر وأبو بكر ﴿ مودة ﴾ وقرأ الأعشى ﴿ مودة ﴾ وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿ مودة ﴾ (حجة الترايات ص ٥٥٠) .

ينعكس هذا الحال ، فبقى هذه الصداقة ، والمودة بغضاً وشنائاً ، ثم : ﴿ يَكْثُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي : تتجادلون ما كان بينكم ﴿ وَيَأْمُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي : يلعن الأتباع المتبعين ، والمتبعون الأتباع . ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب قالت : قال لي النبي ﷺ : « أَخْبِرُكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَمَنْ يَذَرِي آثَرَ الطُّوفَانِ ؟ » قَالَتْ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ - ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ فَيَشْرِيهِمْ - قَالَ : أَبُو عَاصِمٍ يَفْقَهُونَ رُؤُوسَهُمْ - ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ . - قال : « فَيَقُومُ النَّاسُ قَدْ تَعَلَّقَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فِي ظُلُمَاتٍ الدُّنْيَا - يعني المظالم - ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ : لِيَبْفِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ وَعَلَى اللَّهِ الْقُرَابُ » (١) .

﴿ قَتَانٌ لَمْ يُولَدْ ﴾ وَقَالَ ابْنُ مَهْجَرٍ إِنَّ رَبِّي إِتَهَ هُوَ الْفَرِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَوَعَيْنَا لَهُ، إِشْحَاقُ وَيَتَقَوَّبُ وَجْهَنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْشُّبْرَةُ وَالْكِتَبُ وَمَلَيْتَنَاهُ جَبْرًا فِي الدُّنْيَا وَلَيْتَهُ فِي الْآخِرَةِ لِيَن الْقَبْلَيْنِ ۝ .

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له لوط يقال إنه ابن أخي إبراهيم ، يقولون : هو لوط بن هارون بن آزر يعني : ولم يؤمن به من قومه سواء ، وسارة امرأة إبراهيم الخليل ، لكن يقال : كيف اجتمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه فقال : أختي ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأنت أختي في الدين (٢) . وكأنما المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، فإن لوطاً الطيب : آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها ، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ابْنُ مَهْجَرٍ إِنَّ رَبِّي ﴾ يحتمل عود الضمير في قوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ على لوط ، لأنه هو أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم . قاله ابن عباس والضحاك . وهو المكنى عنه بقوله : ﴿ قَتَانٌ لَمْ يُولَدْ ﴾ أي : من قومه ، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء لإظهار الدين ، والتمكن من ذلك ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْفَرِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي : له العزة ولسلوه وللؤمنين به الحكيم في أقواله وأفعاله ، وأحكامه القدرية والشرعية . وقال قتادة : هاجرا جميعاً من كوثي وهي من سواد الكوفة إلى الشام . وعن شهر بن حوشب قال : لما جاعتنا بيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام ، فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي فنجته ، إذ جاء فانتهز الناس ، وعليه خميصه ، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّهَا سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ ، فَيَتَحَارَّ النَّاسُ إِلَى مَهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ لَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ إِلَّا شَرَارُ أَهْلِهَا ، فَتَلْفَطُهُمْ أَرْصُهُمْ ، تَغْنَرُهُمْ نَفْسُ الرَّعْمَنِ ، تَحْشَرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقَرَدَةِ وَالْحَنَازِيرِ ، فَتَيْبُثُ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا ، وَتَبِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا ، وَتَأْكُلُ مِنْ تَلَفِ مَعَهُمْ » . قال : وسمعت

(٢) أخرجه البخاري في حديث الأنبياء (٣٣٠٨) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦١/٣) .

الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه كما قال ابن عباس ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَزِيَّزِعَ الْأَیُّ وَكَأَنَّ ﴾ أي : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَبَاتَتْهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ أَتَابُوا ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُ إِذْ قَالَ لِغُلَامِهِ إِتَّخِذْ لَكَ ذَرْوًا لَفَتَحْنَاكَ مَا سَبَّحْتَكَ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : لو أنكم اتَّخَذْتُمْ الْإِنْسَانَ وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ وَتَأْتُوا فِي كَادِبِكُمْ الشُّكْرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْلِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِكَ دِثْلٍ بَلَّغَ اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ورسوله ، ويخالفون ويقطعون السبيل أي : يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿ وَتَأْتُوا فِي كَادِبِكُمْ الشُّكْرَ ﴾ أي : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك . فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ ، قاله مجاهد . ومن قائل : كانوا يضطربون ويضاحكون ، قاله عائشة رضي الله عنها والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، وينافرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك ، وعن مجاهد ﴿ وَتَأْتُوا فِي كَادِبِكُمْ الشُّكْرَ ﴾ قال : الصغير ولعب الحمام ، والجلال والسؤال في المجلس ، وحل أزرار القباء . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْلِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِكَ دِثْلٍ بَلَّغَ اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهما من كفرهم واستهزأتهم ، وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ رَبِّهِمْ يَبْتَغِيهِمْ يَابَسُورًا قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ آمَنَّا بِكُمْ ﴾ قال إِنْ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْ فِتْنَةٍ فَتَنَجَّيْتُمْ وَأَهْلَكُمْ إِلَّا أَمْرًاكُمْ كَذَبْتُمْ مِنْ الْقَدِيمِ ﴿ إِنْ مَثَلُوا عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ بِجَزَاءٍ مِنْ أَلْسَانٍ يَمَّا كَانُوا يَفْشِقُونَ ﴾ وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا مَائِدَةً يَوْمَ يُقِيمُونَ ﴾ .

لما استنصر لوط عليه السلام بالله تعالى عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة ، فمروا على إبراهيم الخليل في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبيئ للضعيف ، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام ، نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ، ويشررونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ، وكانت حاضرة ، فتعجبت من ذلك ، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لهمليهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴿ قَالَ إِنْ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْ فِتْنَةٍ فَتَنَجَّيْتُمْ وَأَهْلَكُمْ إِلَّا أَمْرًاكُمْ كَذَبْتُمْ مِنْ الْقَدِيمِ ﴾ أي : من الهالكين لأنها كانت تمالهم على كفرهم ، وبغيهم وديهم ، ثم ساروا من عنده ، فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان ، فلما رأهم كذلك ﴿ يَوْمَ يُصَافِكُمْ بِهَمٍّ دَرَكًا ﴾ أي : اغتم بأمرهم إن هو

أضافهم ، خاف عليهم من قومه ، وإن لم يصفهم خشى عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراحنة ﴿ وَكَانُوا لَا تَخَفُ وَلَا تَحْزَنُ إِنَّا مُّشْرِكُونَ وَأَعْلَمُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقُرْآنِ آيَاتِهِ وَإِنَّا مُّزِيلُونَ ﴾ ٣٦ . ذلك أن جبريل عليه السلام أتبع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة متنة ، وجعلها عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عدايا يوم المعاد . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رُزِقْنَا مِنهَا آيَاتٍ بَاطِنَةً ﴾ أي واضحة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُثِّرْنَا عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴾ ٣٧ . وَإِلَّا لَأَكِيدُنَّ أَقْلَكُمْ ﴾ ٣٨ . ﴿ وَإِنَّا مُّزِيلُونَ ﴾ ٣٩ . وَلَقَدْ رُزِقْنَا مِنَ الْقُرْآنِ آيَاتٍ بَاطِنَةً ﴾ ٤٠ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شبيب عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين ، فقال : ﴿ يَنْقُزُ آبُودُ اللَّهِ وَآبُودُ الْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه : واخشوا اليوم الآخر ، وقوله : ﴿ وَلَا تَمُوتُوا فِي الْأَرْضِ مُّضِيِّينَ ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد ، وهو السعي فيها والبغي على أهلها ، وذلك أنهم كانوا يتقصون الكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصبيحة أخرجت القلوب من حناجرهم ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم . وقوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُثَيِّينَ ﴾ قال قتادة : ميتين . وقال غيره : قد ألقى بعضهم على بعض . ﴿ وَصَدَّاعُوا وَكُشُوا وَقَدْ بُعِتَ لَكُمْ مِنْ سَكِينَتِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الْغِيَاثُ أَفَكُنْتُمْ فَصْدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُّشْتَبِهِينَ ﴾ ٣٦ . وَفَرَقُوا وَفَرَّقُوا وَفَرَّقُوا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ثَوْنٌ وَابْتَدَتْ فَجَنَّتْهُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَوِيَّةً ٣٧ . فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ مِّنْ أَوْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاسِبًا وَيَنْهَرُ مِّنْ أَخَذْتَهُ الْقَبِيحَ وَيَنْهَرُ مِّنْ حَسَنَاتِكَ ٣٨ . فِي الْأَرْضِ وَيَنْهَرُ مِّنْ أَهْرَفْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتويع في عذابهم ، فعاد قوم هود عليه السلام يسكنون الأحقاف ، وهي قرية من حضر موت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبا من وادي القرى . وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله عليه السلام ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ أي : كانت عقوبته بما يناسبه ﴿ فَيَنْهَرُ مِّنْ أَوْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاسِبًا ﴾ وهم عاد وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ، فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جدا ، تحمل عليهم حصاء الأرض فتلقيه عليهم وتقطعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى بدنا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ وَيَنْهَرُ مِّنْ أَخَذْتَهُ الْقَبِيحَ ﴾ وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلتت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهجدوا نبي الله صالحا ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صبيحة أحمدت

الأصوات منهم والحركات ﴿ وَفِيهِمْ نَفْتٌ حَسَنًا يَدُ الْأَرْتَكِ ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى ومشى في الأرض مرجحا ، وقرح ومرح ، وتاه بنفسه واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلى فيها إلى يوم القيامة ﴿ وَفِيهِمْ تَنْ أَعْرَقًا ﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر ﴿ وَمَا كُنَّا أَنْفُكَ يُظْلِمُهُ ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم . ثم قال : ﴿ تَكَلَّا لَأَخَذُنَا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نهيت على هذا ؛ لأنه قد قال ابن عباس في قوله : ﴿ فَيَنْهَضُ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ﴿ وَفِيهِمْ تَنْ أَعْرَقًا ﴾ قال : قوم نوح وهذا منقطع عن ابن عباس ، فإن ابن جريج لم يدركه . ثم قد ذكر الله في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بأنزال الرجز من السماء ، وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق . وقال قتادة : ﴿ فَيَنْهَضُ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ﴿ وَفِيهِمْ تَنْ لَأَخَذُنَا النَّيْبُكُ ﴾ قوم شعيب ، وهذا بعيد أيضا لما تقدم ، والله أعلم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ ذُنُوبِ اللَّهِ أَوَّلِيَّةَ كَثَلِ الْعَنَكِبُونَ أَتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوَّلِيَّيَ الْبُيُوتِ لَبِيتَ الْعَنَكِبُونَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١٠ إِذْ أَتَاهُ سَلَامٌ مِمَّنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ قَوْمٍ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ١١ وَفَالِكِ الْأَمْثَلِ نُصْرَتُهَا لِلثَّانِي وَمَا يَقْبَلُهَا إِلَّا الْعَسَلِيُّ ١٢ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من ألتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئا . ثم قال تعالى متوعدا لمن عبد غيره ، وأشرك به ، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم . ثم قال تعالى : ﴿ وَفَالِكِ الْأَمْثَلِ نُصْرَتُهَا لِلثَّانِي وَمَا يَقْبَلُهَا إِلَّا الْعَسَلِيُّ ١٢ ﴾ أي : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراحسون في العلم ، المتضلعون منه . قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل ^(١) . وهذه منقبة عظيمة لعمر بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَفَالِكِ الْأَمْثَلِ نُصْرَتُهَا لِلثَّانِي وَمَا يَقْبَلُهَا إِلَّا الْعَسَلِيُّ ١٢ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْأَشْيَاءَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ١٣ وَفَالِكِ الْأَمْثَلِ نُصْرَتُهَا لِلثَّانِي وَمَا يَقْبَلُهَا إِلَّا الْعَسَلِيُّ ١٢ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَفَالِكِ الْأَمْثَلِ نُصْرَتُهَا لِلثَّانِي وَمَا يَقْبَلُهَا إِلَّا الْعَسَلِيُّ ١٢ ﴾ أي : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية . ثم قال تعالى أمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَفَالِكِ الْأَمْثَلِ نُصْرَتُهَا لِلثَّانِي وَمَا يَقْبَلُهَا إِلَّا الْعَسَلِيُّ ١٢ ﴾ أي : ولذكُر الله ﷻ أكبر . يعني : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات أي : مواظبتها تحمل على ترك ذلك ، وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعا : « مَنْ لَمْ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٣/٤) .

تَنْهَاهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ؛ لَمْ تَزِدْهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا ، ^(١) .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لَا صَلَاةَ لِمَنْ يُطْعِمُ الصَّلَاةَ » وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر . قال : وقال سفيان ﴿ قَالُوا بِشَيْئِهِمْ صَلَاتُكَ تَأْتِرُهُ ﴾ قال سفيان : أي والله تأمره ونهاه ^(١) .

وعن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلانًا يصلي بالليل ، فإذا أصبح سرق . فقال : « إِنَّهُ سَيَقْتُلُ مَا تَقُولُ » (٣) . وتشتمل الصلاة أيضًا على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : أعظم من الأول ﴿ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْتَبُونَ ﴾ أي : يعلم جميع أعمالكم ، وأقوالكم . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَتَأْتِيَنَّ عَيْنًا فَانصَبْ وَاصْبِرْ ﴾ قال : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ، فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه . وقال ابن عون الأنصاري : إذا كنت في صلاة فأنت في معروف ، وقد حذرتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر . وقال حماد بن أبي سليمان : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَتَأْتِيَنَّ عَيْنًا فَانصَبْ وَاصْبِرْ ﴾ يعني : ما دمت فيها . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يقول : ولذكر الله لعباده أكبر ، إذا ذكروا من ذكرهم إياه . وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وفي رواية عن ابن عباس ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : ذكر الله عند طعامك ، وعند منامك ، قلت : فإن صاحبًا لي في المنزل يقول غير الذي تقول ، قال : وأي شيء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله تعالى : ﴿ تَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَهُمْ هَدًى فَذَكَرَ اللَّهُ إِلَهُهُمْ أُولَئِكَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فذكر الله إلهنا أكبر من ذكرنا إياه ، قال : صدق . وفي رواية أخرى عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : لها وجهان : قال : ذكر الله عند ما حرمة ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه ، عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لي ابن عباس : هل تدري ما قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قال : قلت : نعم ، قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير في الصلاة ، وقراءة القرآن ونحو ذلك ، قال : لقد قلت قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به ، أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه ، واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تَجِدُوا أُمَّةَ أَحَدٍ أَكْرَبَ إِلَيْكُمْ مِنْ أَكْرَبِ الْيَوْمِ إِلَى الْيَوْمِ إِلَّا الْيَوْمَ الَّذِي تَقُولُونَ ﴾

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هي باقية محكمة لمن أُرَاد الاستيصار منهم في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه . كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْزَنَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ﴾ الآية . وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قُلْنَا لَعَلَّكَ تَتَذَكَّرُ أَوْ تَتَّقِي ۚ ﴾

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٨/٢) والطبراني في الكبير (٥٤/١١).

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٩/٢٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٢) .

وهذا القول اختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى﴾ أي : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح الحق ، وعاندوا وكابروا . فحيثما ينتقل من الجدل إلى الجدل ، ويقاثلون بما يمنهم ويردعهم . قال مجاهد : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى﴾ يعني أهل الحرب ، ومن امتنع منهم من أداء الجزية . وقوله تعالى : ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني : إذا أخبروا بما لا تعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا تقدم على تكذيبه ؛ لأنه قد يكون حقاً . ولا تصديقه فلعلة أن يكون باطلاً ، ولكن تؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط : وهو أن يكون منزلاً ، لا مبدلاً ، ولا مؤولاً . وفي الحديث « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكْذِّبُوهُمْ وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْحَقُّ وَالْهَكْمُ وَاجِدٌ وَتَحَرُّ لَهٗ شُعَلِفُونَ » ^(١) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق ، أو تصدقوا باطلاً ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال ^(٢) . وقال ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ؟ وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرأونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنًا قليلاً ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم ^(٣) . وقال حميد بن عبد الرحمن ، أنه سمع معاوية يحدث رجلاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب ^(٤) ، قلت : معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ومن منحه الله علماً بذلك . كل بحسبه والله الحمد والمنة .

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُقْرَءُونَ بِهِ وَتِلْكَ هُتُوهُ مِنْ يُحْيِي بِهِ وَمَا يَصْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَقْطَعُ بِبَيِّنَاتٍ إِذَا لَأَزْتَابُ الْقَبِيلُونَ ﴿١١﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي سُورِ الْكِتَابِ آيَاتُ الْآلِ وَالْمَا بِحَسْبِكَ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْفَالِقُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل . كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب ، وهذا الذي قاله حسن ، ومناصبته وارتباطه جيد . وقوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُقْرَءُونَ بِهِ﴾ أي : الذي أخذوه فتلوه حق تلاوته من أسفارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما . وقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ هُتُوهُ مِنْ يُحْيِي بِهِ﴾ يعني : العرب من قريش وغيرهم . ﴿وَمَا يَصْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي : ما يكذب بها ويحسد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ثم قال تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَقْطَعُ بِبَيِّنَاتٍ﴾ أي : قد لبست

(١) أخرجه البخاري في (الاصحاص) (٧٣٦٢) (والترديد) (٧٥٤٢) والبيهقي في مسنده (١٦٣/١٠) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢١/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في (الاصحاص) (٧٣٦٣) .

(٤) أخرجه البخاري في (الاصحاص) (٧٣٦١) .

ينيات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب . قلت : وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس ، وهو الأظهر والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا أَتْلُفُونَ ﴾ أي : ما يكذب بها ، ويخسر حقها ويردها إلا الظالمون أي : المحتلون المكابرون الذين يعلمون الحق ، ويحيدون عنه .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّا أَنْزَلْنَاهُ يُدْبِرُونَهَا ﴿٥٠﴾ لَآتَيْنَاكَ الْكِتَابَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ لَعَلَّكَ تَهْتَدُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَنَذِيرًا ﴿٥٢﴾ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَلْبَانِ وَالْأَسْوَاطِ وَالْأَنْجَالِ وَالْأَنْجَالِ وَالْأَنْجَالِ وَالْأَنْجَالِ هُمْ الْخَائِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات ، يعنون ترشدكم إلى أن محمدًا رسول الله كما أتى صالح بناته قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان فلا يجيبكم إلى ذلك ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ يُدْبِرُونَهَا ﴾ أي : إنما بعثت نذيرًا لكم بين النذارة فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى . ثم قال تعالى مبينًا كثرة جهلهم وسخافة عقولهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه . فقال تعالى : ﴿ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُهُمْ أَنَّ لَنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ ﴾ أي : أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ولما ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدًا من أهل الكتاب ، فجتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب ، مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ . وقد قال تعالى : ﴿ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُهُمْ أَنَّ لَنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ ﴾ أي : إن في هذا القرآن ﴿ لَعَلَّكَ ﴾ أي : بيانا للحق وإزاحة للباطل ، وذكرى بما فيه حلول النعمات ونزول العقاب بالمكذبين ، والمعاصين لقوم يؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : أعلم بما تعضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني فلو كنت كاذبًا عليه لانقم مني ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ بِسَبْعِ الْقَابِلِ ﴿٥٣﴾ لَخَسَفَ بِهِ الْيَوْمَ ﴿٥٤﴾ ثُمَّ لَخَسَفَ بِهِ الْيَوْمَ ﴿٥٥﴾ فَكَا يَنْكُرُ مِنْ لَوْ مَعَهُ حَاجِيزٌ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّمَا أَنَا صَادِقٌ عَلَيْهِ فِيمَا أَخْبَرْتُمْ بِهِ . ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات ﴿ بَيِّنَةً مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : لا تخفى عليه خافية ﴿ وَاللَّيْلِ مَا أَشْرَأُ بِالْأَنْجَالِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ ﴾ أي : يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق ، واتباعهم الباطل ، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم . ﴿ وَتَسْتَجِيبُكَ بِالْكَذِبِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَئِنَّهُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ تَسْتَجِيبُكَ بِالْكَذِبِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَئِنَّهُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله من أن

يحل عليهم : ﴿ وَنَسْتَعِظُكَ بِالنَّارِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجُئْتَ إِلَى النَّارِ ﴾ أي : لولا ما رحم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة ، لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه . ثم قال : ﴿ وَإِنَّا نَبْهَتُهُمْ بِقَتْلِهِ ﴾ أي : فبئس ما لا يشعرون . ﴿ نَسْتَعِظُكَ بِالنَّارِ وَلَوْلَا جَهَنَّمُ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي : يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْتَسْقِطُ النَّارُ مِنَ قُوْفِهِمْ وَنَحْبِ أُنْطِجِهِمْ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَنْجِ جَهَنَّمَ مِنْ قُوْفِهِمْ وَنَحْبِ أُنْطِجِهِمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ دُجُوهِهِمْ أَنْ ذَلَّ عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية . فالتار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبطل في العذاب الحسي وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتَلُّ دُورُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد وتقرير وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوي على النفوس ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَصْرَخُ لَكَ نَارُ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ حذو النار التي كُتِبَ بها كُفُوبُكُمْ ﴿ أَيْسَرُ هَذَا أَمْ أَشَدُّ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ أَسْمَلُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ دُجُوهِهِمْ أَنْ ذَلَّ عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية . فالتار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبطل في العذاب الحسي وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتَلُّ دُورُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد وتقرير وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوي على النفوس ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَصْرَخُ لَكَ نَارُ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ حذو النار التي كُتِبَ بها كُفُوبُكُمْ ﴿ أَيْسَرُ هَذَا أَمْ أَشَدُّ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ أَسْمَلُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ يَتَبَايَعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ أَرْضُ رِيحَةٍ فَكَيْفَ فَكَيْفَ ﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رَجَعُهُمْ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا يُجْرُونَ مِنْ حَتَّى إِذَا الْخُتُلَيْنَ فِيهَا يَسْمَعُونَ أَصْوَاتَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ وَهُمْ يُؤْتَلُّونَ ﴾ ﴿ وَكُلٌّ مِنْ فَحَقٍّ لَا يُغَيِّرُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا رِزْقًا وَمَنْ أَتَسْبَحُ الْحَمْدَ ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدر على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَتَبَايَعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ أَرْضُ رِيحَةٍ فَكَيْفَ فَكَيْفَ ﴾ عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « الْبِلَادُ يَلْدُ اللَّهُ ، وَالْبِلَادُ جِنْدُ اللَّهِ ، فَحَيْثُمَا أَصْبَحَتْ خَيْرًا قَامُوا » (١) . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هنالك . فوجدوا خير المنزلين هنالك ، أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى . فأواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيوفاً بيلاده ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابه الباقيون إلى المدينة النبوية يهرب المطهرة . ثم قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رَجَعُهُمْ ﴾ أي : أينما كنتم يدركم الموت . فكفونا في طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم . فإنه إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ووفاه أتم الثواب . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا يُجْرُونَ مِنْ حَتَّى إِذَا الْخُتُلَيْنَ فِيهَا يَسْمَعُونَ أَصْوَاتَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ وَهُمْ يُؤْتَلُّونَ ﴾ أي : لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاعوا ﴿ خَلِيلَيْنِ فِيهَا ﴾ أي : ما كنين فيها أبداً لا ينفون عنها حولاً ﴿ يَسْمَعُونَ أَصْوَاتَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ وَهُمْ يُؤْتَلُّونَ ﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿ الَّذِينَ سَبَّحُوا ﴾ أي : على دينهم وهاجروا إلى الله وناشدوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده ، وعن أبي مالك الأشعري : أن رسول الله ﷺ حدثه : أن في الجنة غرّاً ، يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله تعالى لمن أطعم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٦/١) والبيهقي في مسنده (١٤٢/٦) .

الطعام ، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام ^(١) .
﴿ وَكَانَ يَوْمَ يُنْفَخُ ﴾ في أحوالهم كلها ، في دينهم ودنياهم . ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام خلقة ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ؛ فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ لَاحِظٌ رِزْقَهَا ﴾ أي : لا تطيق جمعه وتحصيله ، ولا تدخر شيئاً لغد ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّكُمْ ﴾ أي : الله يقيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء ، والحيتان في الماء . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْتَظِرُ الْأَرْضَ إِلَّا عِلٌّ لَّهُ يَرْزُقُهَا وَبَعْدَ مُسْقَاةٍ يَرْزُقُهَا كُلٌّ فِي كَيْفٍ مُّيَّيَّنٍ ﴾ .

وفي الحديث « سافروا تصبحوا وتغشوا » ^(٢) . قوله : ﴿ وَهُوَ أَلْسِنَةُ الْغَلِيظِ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ الله يسيطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقيض له إله الله بكل قوة عليه ^(٣) . ولئن سألتهم من زلزل من السلاسل ماء فأتينا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله علي الحسد لله بل أكفركم لا يقولون .

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره ، معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض ، وأنه الخالق الرازق لعباده ، ومقدر أجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم ، ففاضت بينهم فمنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلًّا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيرًا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تليينهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك ^(٤) .

﴿ وَمَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا لَهُمْ وَلَبٌّ وَلِبٌّ ذَلِكَ الَّذِينَ الْأَخِرَةِ لَيْسَ الْخَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فلما رخصوا في الفلأبي دعوا الله عظيمين له الذين قلنا نجنتهم إلى الذين إذا هم يشركون ^(٥) . يكفروا بما عابتنهم وليستمنوا سوف يعلمون .

يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ الْأَخِرَةِ لَيْسَ الْخَوَانُ ﴾ أي : الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد . وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له ، فهنا يكون هذا منهم دائمًا ﴿ لَكِنَّا نَكِيدُ فِي الْأَفْئَادِ دَعْوَا اللَّهِ عَظِيمِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا نَسُوكُ الْغُرَىٰ إِلَى الْبَحْرِ سَلِّ مَنْ نَدْعُو إِلَّا إِلَهَ نَا فَتَنَّا بِتَنَكُّكَ إِلَى الْبَحْرِ أَمْنَهُمْ ﴾ الآية ، وقال ها هنا : ﴿ فَلَمَّا بَجَنَتُمْ إِلَى الْبَحْرِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ عن عكرمة ابن أبي جهل أنه لما فزع رسول الله ﷺ مكة ذهب فأوا منها ، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ؛ فإنه لا ينجي ها هنا إلا هو ، فقال

(١) أخرجه البيهقي في سننه (١٠٢/٧) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٦/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

عكرمة : والله لمن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضًا غيره ، اللهم لك علي عهد لمن خرجت لأذهبن فلاضمن يدي في يد محمد ، فلاجدنه رعوفاً رحيماً فكان كذلك . وقوله تعالى : ﴿ يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ رَسُولًا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك ، وتقويضه إياهم لذلك فهي لام التعليل .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّاكِنًا وَمَتَّعْنَا النَّاسَ مِنْ حَرَمِهِمْ أَهْلًا لَّا يَبْلُغُونَ وَيَنْتَعِمُونَ بِاللَّهِ يَتَكَبَّرُونَ ۖ وَنَزَّلْنَا ظُلُمًا مِنَ السَّمَاءِ عَلَى آلِهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالتَّحْقِ لَنَا جَهَنَّمَ ۖ الْبَاقِيَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَاذِبِينَ ۖ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۖ ﴾ .

يقول تعالى ممثلاً على قريش فيما أحلهم من حرمة الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً . وقوله تعالى : ﴿ أَهْلًا لَّا يَبْلُغُونَ وَيَنْتَعِمُونَ بِاللَّهِ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ أي : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَلُوا يَمَنًا لَّهِ كُفْرًا وَاسْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآثَارِ ﴾ فكفروا بنبي الله وعبدوا ورسوله ، فكذبوه فقاتلوه فأخرجوه من بين أظهرهم ، ولهذا أرغم الله أنافهم وأذل رقابهم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا ظُلُمًا مِنَ السَّمَاءِ عَلَى آلِهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالتَّحْقِ لَنَا جَهَنَّمَ ۖ ﴾ أي لا أحد أشد عقوبة من كذب على الله ، فقال : إن الله أوحى إليه ، ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة من كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر والثاني مكذب . ولهذا قال تعالى : ﴿ الْبَاقِيَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَاذِبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : لنهدينهم سبلنا أي : طرقنا في الدنيا والآخرة . قال عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الخواريزي : فحدثت به أبا سليمان يعني الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حتى وافق ما في قلبه . وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال الشعبي : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، والله أعلم .

فغاب المسلمون على أي بكر تسميته ست سنين . قال : لأن الله يقول ﴿ فِي بَيْتِ سِنِينَ ﴾ قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير ^(١) .

ولتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ ۖ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . وأما الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم إسرائيل ويقال لهم : بنو الأضر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة . ويقال لها : المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالي ، وهم الذين أسسوا دمشق وبنا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال ، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة . وكان من ملك منهم الشام يقال له : قيصر ، فكان أول من دخل في دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين ابن قسطنس ، وأمه مريم الهيلانية الفندقانية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفاً فتابعها . يقال : تقية واجتمعت به النصارى ، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافاً كثيراً متشراً متشتراً لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هي الخيانة الخفية ، ووضعوا له القوانين ، يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيروا دين المسيح ^(٢) ، وزادوا فيه ، ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير ، واتخذوا أعياداً أحدثوها ، كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعائين ، وجعلوا له الباب ، وهو كبيرهم ، ثم البتارقة ، ثم المطازنة ، ثم الأساقفة والقساوسة ثم الشماسية ، وابتدعوا الرهبانية ، وبني لهم الملك الكنائس والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية يقال : إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة ، وبني بيت لحم بثلاثة محاريب وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ، ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة . كما قال رسول الله ^(٣) : « إِنَّهُمْ اقْتَرَفُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسِمِينَ فِرْقَةً » ^(٤) .

والفرض أنهم استمروا على النصرانية . كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل ، وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدماهم ، وأبعدهم غوراً ، وأقصاهم رأياً ، فملك عليهم في رياسة عظيمة ، وأبهاء كثيرة فتاواه كسرى ملك الفرس ، وملك البلاد كالعراق وخراسان والري وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف ، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وكانوا مجوساً يعبدون النار ، فتقدم عن عكرمة أنه قال : بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه . والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية ، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيماً زائداً ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ، لأن نصفها من ناحية البر ، ونصفها الآخر من

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣١٩٤) .

(٢) أخرجه وابن ماجه في سننه (٣٩٩٢) .

ناحية البحر فكانت تأتيتهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر ، دير قيصر مكيدة ، ورأى في نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصلحه عليه ويشترط عليه ما شاء ، فأجاب به إلى ذلك وطلب منه أموالاً عظيمة ، لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة ، فطأوه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشرة ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام ، وأقاليم مملكته ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيشي ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتي ، وإن شئتم وليتم عليكم غيري ، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيًا ، ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط ، هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعًا حتى انتهى إلى بلاد فارس . فعات في بلادهم قتلاً لرجالها ، ومن بها من المقاتلة أولاً فأول ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهي كرسي مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده ، وركبه على حمار ، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والدلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذ ، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصىه إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد ، فجذ في حصارها بكل ممكن ، فلم يقدر على ذلك ، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك . احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أُرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة ، وركب في بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التين والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعدًا ، ثم أمر بالقاء تلك الأحمال في النهر ، فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ، فقاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يومًا مشهورًا عند النصارى ، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون ، لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادهم قد خربت بها الروم ، وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم ، فكان هذا من غلب الروم لفارس ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم ، وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز . وقال مجاهد : كان ذلك في الجزيرة وهي أقرب بلاد الروم من فارس ، فالله أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضعة سنين ، وهي تسع فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء في الحديث « أَلَا اخْتَطَلَتْ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ فَإِنَّ الْبِضْعَ مَا يَنْ ثَلَاثَ إِلَى تِسْعٍ »^(١) .

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٩١) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلُ وَيَوْمَ يُنْفَخُ ﴾ أي : من قبل ذلك ومن بعده ، فبني على الضم لما قطع المضاف ، وهو قوله : ﴿ قَبْلُ ﴾ عن الإضافة ونويت ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْيَاءُ ﴾ ينصهر الله ﴿ أي : للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم الجوس . وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء ، وعن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به ، وأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْيَاءُ ﴾ ينصهر الله ينصهر من ينكأ وهو المكسر الرجح ^(١) . وقال الآخرون : بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية . إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس ، فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة ؛ فهم أقرب إلى المؤمنين من الجوس كما قال تعالى : ﴿ تَجِدَهُمْ أَشَدَّ كُفْرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ وأما الآية التي ذكرنا وتجدتهم أقربهم قودةً للذين آمنوا الآية قالوا إنما نصركم ﴿ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا عَلَّمْنَا مَا كُنْهَاتِمْ ﴾ وقال تعالى ها هنا : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْيَاءُ ﴾ ينصهر الله ينصهر من ينكأ وهو المكسر الرجح ﴿ وقال ابن الزبير الكلبي يحدث عن أبيه قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك في خمس عشرة سنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَوْزَ الْمَكِينِ ﴾ أي : انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿ الْكَيْدِ ﴾ بعباده المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ وَفَوْزَ اللَّهِ لَا يَخْلُقُ اللَّهُ فَعَمَّ ﴾ أي : هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق ، وخبر صدق لا يخلف . ولا بد من كونه ووقوعه ؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل . وقوله تعالى : ﴿ يَتْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أي : أكثر الناس ليس لهم علم ، إلا بالدينا وأكسابها وشؤونها ، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة ، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة . قال الحسن البصري : والله ليلعب من أحدهم بدياه أنه يقلب الدرهم على ظهره فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلي . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَتْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في الأرض فينظروا كيف كان عبيد الذين بين قلوبهم كانوا أشد منهم قوة وأتقوا الأرض وعصروا أكثر مما عصروا ومكثهم وأجبت قسا كانت الله يظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ ثُمَّ كَانَ عَقِبَهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لَآتَيْنَهُمْ سُلْطَانًا مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ كَانُوا إِلَّا لَشَيْءٍ مُّطْرَافٍ ﴾

يقول تعالى منها على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده ، وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ ﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ، ولا باطلاً

بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
يُلَاقِي رَبَّهُمْ لَكَاثِرِينَ ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما جاعوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات
والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم . فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَإِذَا هِيَ كَأَنَّهُمْ مَّرْجٌ يُسْفَلُ ﴾ ولهذا قال : ﴿ فَتَنَبَّأُوا كَيْفَ كَانَ
عَذَابُ الَّذِينَ يَن قُلُوبُهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِمَّنْ قُوَّة ﴾ أي : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة ،
أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ . وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه ،
وعمروا فيها أعمارا طولا فعمروها أكثر منكم ، واستغلوا أكثر من استغللكم ، ومع هذا فلما
جاءتهم رسلهم بالبينات ، وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا
حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم متقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما
أحل بهم من العذاب والهلاك ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث
كذبوا بآيات الله واستهزأوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم . ولهذا قال
تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَذَابَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الشُّرَكَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ أَثَرًا ﴾ كما قال تعالى :
﴿ لَكُنَّا زَاغَةً وَأَنَّا لَنُفَكِّرُ ﴾ وعلى هذا تكون السوأي منصوبة مفعولا لأساعوا ، وقيل : بل المعنى في
ذلك ﴿ ثُمَّ كَانَ عَذَابَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الشُّرَكَ ﴾ أي : كانت السوأي عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله
وكانوا بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوأي منصوبة خبر كان ، هذا توجيه ابن جرير ، ونقله عن
ابن عباس وهو الظاهر - والله أعلم - لقوله : ﴿ وَكَانُوا يَحْتَضِرُونَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ١٠ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْشِرُ الْمُشْرِكُونَ ١١ وَأَمَّا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّطْبُوعٍ ١٢ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ بِهَا مُسْتَقَرُونَ ١٣ فَهُمْ فِي رُجَعِهِمْ يُصْهَرُونَ ١٤ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ .

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : كما هو قادر على بداءته ، فهو قادر على إعادته .
﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله . ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْشِرُ
الْمُشْرِكُونَ ﴾ قال ابن عباس : يباشر المحرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المحرمون ، وفي رواية : يكتب
المحرمون ﴿ وَأَمَّا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّطْبُوعٍ ﴾ أي : ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من
دون الله تعالى ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْشِرُ
بِقُرْآنِهِ ﴾ . قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعني أنه إذا رفع هذا إلى عليين ،
وخفض هذا إلى أسفل سافلين ، فذلك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ بِهَا
مُسْتَقَرُونَ ﴾ قال مجاهد و قتادة : ينعمون . وقال يحيى بن أبي كثير :
يعني سماع الغناء ، والحيرة أعم من هذا كله .

﴿ فَسَبِّحْ لِلَّهِ جَمِيعَ ثَمَنَاتٍ وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ١٥ وَلَهُ الْحُكْمُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَظْهَرُ ١٦
يُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَهُوَ الَّذِي يُخْرِجُ الْغَمَّ مِنَ الْغَمِّ وَالَّذِي يُخْرِجُ الْغَمَّ مِنَ الْغَمِّ .

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه للمقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة

الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح - وهو التحميد - فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِي ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : هو المحمود على ما خلق في السماوات والأرض ، ثم قال تعالى : ﴿ وَرَبِّكَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام ، والإظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا ، فائق الإصباح ، وجاعل الليل سكناً ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّذِينَ ءَاتَىٰهُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ مَّوْتًا ﴾ . وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُخْبِرَكُمْ لِمَ سَمَّىٰ ٱللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ ٱلَّذِي وَفَّى ؟ ۚ لَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَسْمَى : شُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْشُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَٱلَّذِ ٱلْحَقْدُ فِي ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ »^(١) . وعن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْشُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ۝ وَٱلَّذِينَ فِي ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَرَبِّكَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الآية بكمالها ، أدراك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدراك ما فاته في ليلته »^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ ٱلْأَنفُسُ مِنَ ٱلْجُثَىٰ وَيَخْرُجُ ٱلْأَنفُسُ مِنَ ٱلْجُثَىٰ ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك : إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من الطلقة والطفلة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . وقوله تعالى : ﴿ وَيُنْفِثُ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ . فقلوه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّذِينَ ءَاتَىٰهُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ مَّوْتًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفَجَاءَ فِيهَا مِنَ ٱلْغَيْثِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَقُودُهُمْ فَقَالَ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَفْخِشُكُمْ ﴾ .

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّذِينَ ءَاتَىٰهُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ مَّوْتًا ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَفْخِشُكُمْ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّذِينَ ءَاتَىٰهُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ مَّوْتًا ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته ، أنه خلق أبابكم آدم من تراب . ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنشَأَ بَشَرًا تَنْفِيرًا ﴾ فأصلكم من تراب مهين ، ثم تصوّر فكان علقه ، ثم مضغة ، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحماً ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المداين والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، فسبحان من أقدرهم وسيطرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّذِينَ ءَاتَىٰهُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ مَّوْتًا ﴾ . وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱدَمَ مِنْ قِصْبَةٍ قَبْضِهَا مِنْ جَمْرِ ٱلْأَرْضِ فَجَاءَ بِثَوِّ ٱدَمَ عَلَى قَلْبِ ٱلْأَرْضِ ، بَجَاءٍ مِنْهُمْ ٱلْأَبْيَضُ وَٱلْأَخْضَرُ وَٱلْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (١١٧/١٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٧٦) .

وَالْحَيْثُ وَالطَّيْتُ وَالشَّهْلُ وَالْحَرْثُ وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَنَافِلَاتُ الْفُلْكِ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : خلق لكم من جنسكم إنثاء تكون لكم أرواحاً ﴿ لِيَتَكُنَّ رِجَالًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُكُمْ فِي بُطْنِ أُمَّهَاتِكُمْ ذَكَرُوا ذُرِّيَّتَهُمْ ذَكَرُوا وَنَسُوا أَلْوَانَ الْبُحْرِ وَكَانُوا فَتَنًا ﴾ يعني بذلك حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورا ، وجعل إنثاهم من جنس آخر من غيرهم ، إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الاختلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة - وهي : المحبة - ورحمة - وهي : الرأفة - فإن الرجل يمسك المرأة ، إما لمحبتها لها ، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَنَافِلَاتُ الْفُلْكِ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وَالْأَرْضُ وَالْأَنْفُ وَالْأَنْفُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ^(٢) وَنَافِلَاتُ الْفُلْكِ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ^(٣) .

يقول تعالى : ﴿ وَنَافِلَاتُ الْفُلْكِ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي : خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها وشغوف أجرامها وزهرة كواكبها ومجموعها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها ، وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار . وقوله تعالى : ﴿ وَنَافِلَاتُ الْفُلْكِ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء بتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء تكرر ، إلى غير ذلك ، مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم ، واختلاف ألوانها وهي حلاهم فجميع أهل الأرض ، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة ، كل له عيوان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح ، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ^(٤) وَنَافِلَاتُ الْفُلْكِ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب ، والأسفار في النهار وهذا ضد النوم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : يعون ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قُلْ : اللَّهُمَّ غَارِبِ النُّجُومَ ، وَهَدِّبِ الْغَيُوثَ ، وَأَنْتَ حَيُّ قَيُّومٌ ، يَا قَيُّومُ أَنْتَ عَيْتِي وَأَعْدِي لَيْلِي » ^(٥) فقلتها فذهب عني .

﴿ وَنَافِلَاتُ الْفُلْكِ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وَالْأَرْضُ وَالْأَنْفُ وَالْأَنْفُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ^(٦) وَنَافِلَاتُ الْفُلْكِ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ^(٧) . يقول تعالى : ﴿ وَنَافِلَاتُ الْفُلْكِ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الدالة على عظمتها أنه ﴿ يُرِيكُمْ الْآيَاتِ حَقًّا وَكَلِمَاتٍ ﴾ أي : تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة تخرجون وميضه ، وما يأتي بعده من

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/٤٠٦) والحاكم في المستدر (٢/٦١) وأبو داود في السنن (٤/٦٦٢) والترمذي في السنن (٢/٢٩٥٥) .

(٢) ذكره البيهقي في صحيح الرواد (١٠/١٢٨) .

المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَبُهِتَ بِهِ الْأَرْضُ بِغَدَّتْ بِهِ وَنَزَلَ مِنْهَا نَجْمٌ كَأَنَّ النَّجْمَ كَالْكَوْكَبِ ﴾ . فلما جاءها الماء ﴿ أَغْرَقَتْ وَبَرَّتْ رَكْبَتُهَا ﴾ . وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَنْ تَقُونَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِأَمْرٍ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ تَبْسُطُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا طَائِفَةٌ ﴾ . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال : والذي تقوم السماء والأرض بأمره ، أي : هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ، ودعائه إياهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذْ أَنْتُمْ فِئَاتٌ ﴾ . أي : من الأرض كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَسَنَةٍ وَقَدْ يُنَادُّوكُمْ لِئَلَّا يَكُونَ لَكُمْ آيَاتٌ يَسْتَأْذِنُ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِ حِكْمٌ ﴾ .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَّمْ يَكُنْ لَّهُ فَرْثٌ ﴾ . وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يبيدو وهو أموت عليه . وله السُّلُّ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَّمْ يَكُنْ لَّهُ فَرْثٌ ﴾ . أي : ملكه وعبيده ﴿ كَلَّمَ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ لَّمْ يَكُنْ لَّهُ فَرْثٌ ﴾ . أي : خاضعون خاشعون طوعا وكرها ، عن أبي سعيد مرفوعا « كُلُّ خَوْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُدْكَرُ فِيهِ الْفَرْثُ فَهُوَ الطَّاعَةُ » ^(١) . وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ . قال ابن عباس يعني : أسر عليه ، وقال مجاهد : الإعادة أمون عليه من البداية والبداءة عليه هينة . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَلَّمْتَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمْتَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْلِيمِي إِيَّائِي : فَقَوْلُهُ : لَنْ تُعِيدَنِي كَمَا بَدَأْتَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّائِي : فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الضَّمُّدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ » ^(٢) .

وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء . وقال العوفي عن ابن عباس : كل عليه هين . ومال إليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة قال : ويحتمل أن يعود الضمير في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ إلى الخلق أي : وهو أمون على الخلق . وقوله : ﴿ وَلَهُ السُّلُّ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ، وهو العزيز الذي لا يقابل ولا يمانع ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه الحكيم في أقواله وأفعاله شرعا وقنونا . وعن محمد بن المنكدر في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ السُّلُّ الْأَعْلَى ﴾ قال : لا إله إلا الله .

﴿ صَبَّ لَكُمْ مِنَّا لَكُم مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شَرِّكَاتٍ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ مِّنْ غَافِلِينَ كَيْفَ يُعَذِّبُكُمْ أَنْفُسُكُمْ كَذَلِكَ فَفَعِلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . بي أَنَّهُ الَّذِي ظَلَمُوا أَهْوَاهُمْ يَغَيِّرُ

(١) ذكره السبوي في الدر (١١٠/١) بحقه الإمام أحمد في مسنده (٧٥/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٢٠/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٩٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٠/٢) (٣٩٤) .

عَلَيْهِمْ قَسَمَ يَهْدِي مَنْ أَمَلَ اللَّهُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿٢٨﴾ .

هذا مثل ضربه تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءهم من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ صَرِّفْ لَكُمْ بُنْيَانَكُمْ ﴾ أي : تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم . ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ بِهِ سَوَاءٌ ﴾ أي : يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله ، فهو وهو فيه على السواء ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي : تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجاز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذلك ، كذلك الله لا شريك له . والمعنى : أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ، وعن ابن عباس قال : كان يلبس أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله تعالى : ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ بِهِ سَوَاءٌ تَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ لَكُمْ أَنْتُمْ عَلَى بَرَاءَةٍ عَلَى اللَّهِ وَنَزَاهَةٍ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخِرَى . قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْقِصَّةَ الَّتِي كُنْتَ تَقُولُ ﴾ ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً وجهلاً : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي المشركون ﴿ أَوْلَاءَهُمْ ﴾ أي : في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿ قَسَمَ يَهْدِي مَنْ أَمَلَ اللَّهُ ﴾ أي : فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴾ أي : ليس لهم من قدرة الله منقذ ، ولا مجير ولا محيد لهم عنه ، لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَوْدَعَ اللَّهُ لَهُمْ سَبْعَ حَبَإٍ مِمَّا يَكُونُ الْأَنْفُسُ لَا يَخْلُقُ اللَّهُ فِطْرَتَكَ السَّالِمَةَ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا شُرَكَاءَ مَا تَدْعُونَ ﴾ ﴿ ٢٩ ﴾ مُبْدِينَ إِلَيْهِ وَأَقْوَاهُ وَأَوْسَمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ ٣٠ ﴾ بَيْنَ الَّذِينَ قَرَأُوا فِيهِمْ وَكَانُوا يَشْعُرُونَ كُلَّ حَرْفٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَيَرْنَوْنَ .

يقول تعالى : ففسد وجهك . واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداه الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، إنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره . وفي الحديث : « إِنِّي خُلِقْتُ عِبَادِي مُحْتَقاً فَاجْتَنِبُوا الشَّيَاطِينَ عَنْ دِينِهِمْ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَبْدِيلُ يَخْلُقُ اللَّهُ ﴾ قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فضيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فيكون خبراً بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ كَذَلِكَ كَانِ كَانَتْ ﴾ وهو معنى حسن صحيح ، وقال آخرون : هو خبر على باب ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ لَا يَبْدِيلُ يَخْلُقُ اللَّهُ ﴾ أي : لدين الله ، وقال البخاري : قوله : ﴿ لَا يَبْدِيلُ يَخْلُقُ اللَّهُ ﴾ لدين الله ، خلق الأولين دين الأولين ، الدين والفطرة الإسلام (٢) . وعن أبي هريرة قال : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ قَابِوَةً يَهُودِيَّةً أَوْ نَصْرَانِيَّةً أَوْ مَجَسَّانِيَّةً ، كَمَا تَخْتَلِجُ الْبَيْهَمَةُ

(١) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

(٢) أخرجه بسنده مسلم في (الجنة) (٦٣) والطبراني في الكبير (٢٦٣/١٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

بِهَيْمَةَ جَعْفَةَ هَلْ تَحْسُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ . ثم يقول : ﴿ فَطَرْتُ اللَّهُ أَلَيْسَ عَلَيْنَا لَا بُدَّ لِمَا نَقُولُ ﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْقَيُّمُ ^(١) . عن الأسود بن سريع قال : أتيت رسول الله ﷺ ، وغزوت معه فأصبحت ظفراً . فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَهُمُ الْقَتْلُ الْيَوْمَ حَتَّى قَتَلُوا الذُّرِّيَّةَ ؟ » ، فقال رجل : يا رسول الله أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : لا ، إنما خياركم أبناء المشركين ، ثم قال : « لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً ، لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً » وقال : « كُلُّ نَسَمَةٍ تُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يَرْبَ عَنْهَا لِسَانُهَا ، فَأَبَاوَاهَا يَهُودَانِهَا ، أَوْ نَصْرَانِهَا » ^(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مثل عن أولاد المشركين فقال : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ إِذْ خَلَقَهُمْ » ^(٣) .

وعن عياض بن حجار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إِنَّ رَبِّي تَعَالَى أَمْرُنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَعَلْتُمْ بِمَا عَلَّمَنِي فِي تَوْحِيدِي هَذَا : كُلُّ مَا تَخْلُقُهُ جِنَادِي خَلَالٌ . وَإِنِّي تَخْلَقْتُ جِنَادِي سَحَابَةً كُلُّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَأَصْلَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَخَوَّثَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَعْلَمْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَتُرِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَظَرَ إِلَيَّ أَهْلِي الْأَرْضَ فَمَقَعَتْهُمْ ، عَزَمَتْهُمْ وَعَجَمَتْهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَقَالَ : إِنَّمَا يَهْتَكُ لِي بِهَيْمَتِكَ وَأَهْلِي بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقَرُّؤُهُ نَابِئًا وَبَقِيَّةً ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمْرُنِي أَنْ أُحْرِقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ : رَبِّ إِذَا بَلَغَ رَأْسِي فَيَدْعُهُ خِيَرَةً ، قَالَ : اسْتَحْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَحْرِجَ جُحُوكَ ، وَأَغْرُهُمْ نَفْرَكَ ، وَأَتَوْقُ فَسْتَنْقُؤُ عَلَيْهِمْ ، وَابْتَغِ جَيْشًا تَبْتَغِ حَفْصَةً مِثْلَهُ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ ، قَالَ : وَأَهْلُ الْجَبَةِ ثَلَاثَةٌ ، ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٍ مُتَصَدِّقٌ مُؤَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَجِيمٌ يَقِيقُ الْقَلْبَ لِكُلِّ ذِي قُوَّةٍ مُشْلِمٍ ، وَرَجُلٌ غَافٍ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ » قال : « وَأَهْلُ الثَّارِ حَفْصَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زِيْلَةَ ، الْبَذِينُ فِيكُمْ هُمْ تَتَّبِعُ لَا يَسْتَفُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْحَائِثُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَائَةً ، وَرَجُلٌ لَا يَضْبِعُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » ^(٤) . وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفحاش . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْقَيُّمُ ﴾ أي : التمسك بالشرعية والفترة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ وَلَنْبُكَ أَكْثَرُ

النَّاسِ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : فلماذا لا يعرف أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ أَتَايَ وَلَوْ سَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » . وقوله تعالى : ﴿ مُبِينٌ إِلَيْكَ ﴾ قال ابن زيد : أي : راجعين إليه ﴿ وَاتَّقَوْهُ ﴾ أي : خافوه وراقبوه ﴿ وَأَقْبِلُوا أَلْسِنَتَكُمْ ﴾ الطاعة العظيمة ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه . قال يزيد بن أبي مرزم : مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل ، فقال عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات ؛ الإخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها ، والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٥٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٣) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٦٢/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٥/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في القدر (٢٣ - ٢٦) والإمام أحمد في مسنده (٣٢٨/١ ، ٢٤٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الحجة (٦٣) .

العصمة ، فقال عمر : صدقت . وقوله تعالى : ﴿ يَنْ أَلَزَيْتَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي : بدلوه وغيروه وأمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرا بعضهم (فارقوا دينهم) أي تركوا ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة ، بما عدا أهل الإسلام ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء . وهذه الأمة أيضا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة . وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه .

﴿ وَلَئِن مِّنْ أَنَاسٍ شَرُّ دَعْوَىٰ رَجَمَ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِنَّا أَدْنَاهُمْ رَبَّنَا رَحْمَةً إِنَّا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُشِيرُونَ ﴾^(١) يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَسْتَأْذِنُوا فَنَقُولُ نَحْنُ مُسْلِمُونَ ﴿ أَمْ أَرْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَمْلِكُكُمْ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشِيرُونَ ﴾ وَلَئِنَّا أَدْنَاكَ أَنَاسٌ رَّحِمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ حَسِيتٌ بِمَا قُلْتُمْ لَيُصِيبَنَّ إِنَّا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن الناس أنهم في حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره . وقوله تعالى : ﴿ يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ ﴾ هي : لام العاقبة ولام التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقصي الله لهم ذلك ثم توعدهم بقوله : ﴿ نَحْنُ مُسْلِمُونَ ﴾ قال بعضهم : والله لو توعدني حارس درب لحفت منه ، فكيف والمتوعد ها هنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون . ثم قال تعالى منكرا على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أَمْ أَرْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ أي : حجة ﴿ فَهُوَ يَمْلِكُكُمْ ﴾ أي : ينطق ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشِيرُونَ ﴾ وهذا استفهام إنكار ، أي لم يكن لهم شيء من ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنَّا أَدْنَاكَ أَنَاسٌ رَّحِمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ حَسِيتٌ بِمَا قُلْتُمْ لَيُصِيبَنَّ إِنَّا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووقفه . فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجَّى مُنُورٌ ﴾ أي : يفرح في نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأبس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : صبروا في الضراء ، وعملوا الصالحات في الرخاء . كما ثبت في الصحيح : « عَجِبَا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ نَصَابَةً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعده ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ فَتَابَ ذَا الْقُرْآنِ حَتَّمَ وَالْيَسِيرِينَ وَإِنَّ السَّبِيلَ إِلَيْكَ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾^(٢) وَمَا ءَاتَيْنَاهُ مِن رِّبَا يَرْجُوا فِي آمَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ وَجَّ ءَاتَيْنَاهُ مِن دُونِ رَيْدُونِ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّصُكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَقْعَلُ بِنِ دَلِكُمْ مَن فَنِي رَّ شَيْبَتَهُمْ وَقَدْ كَانَ عَنَّا يُشِيرُونَ ﴾ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤/٥) وذكره الألباني في الصحيحة (١٤٨) .

يقول تعالى آمراً بإعطاء كل ذي القربى حقه أي : من البر والصلة ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفافته ﴿وَالنَّسَبَ﴾ وهو للمسافر المحتاج إلى نفقة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي : النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي : في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَتْ بَيْنَ رَبِّنا وَرَبِّنا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً﴾ أي : من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . بهذا فسر ابن عباس ، وهذا الصنيع مباح - وإن كان لا ثواب فيه - إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ النَّاسِ﴾ أي : لا تعط العطاة تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباعان ، فربا لا يصح - يعني : ربا البيع - وربا لا بأس به - وهو هدية الرجل يريد فضلها أضعافها - ثم تلا هذه الآية : ﴿وَمَا مَنَعَتْ بَيْنَ رَبِّنا وَرَبِّنا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة . ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَتْ بَيْنَ كَثِيرٍ شَرِيعَتِ اللَّهِ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي : الذين مضاعف الله لهم الثواب والجزاء . كما جاء في الصحيح « وَمَا تَصَدَّقُ أَحَدٌ بِعَدْلٍ ثَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ ، فَنَزَّلَهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَى أَخْذُكُمْ فَلَوْهُ ^(١) أَوْ قَصِيْلُهُ حَتَّى تَصِيرَ الشَّعْرَةُ أَكْظَمَ مِنْ الْحَبِّ » ^(٢) . وقوله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي : هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأموال والمكاسب . وعن حبة وسواء ابني خالد قالوا : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شياً فأعناه فقال : « لَا تَأْتِيَا مِنَ الرَّزْقِ مَا تَهْتَزَّهْتَ وَرُغُوسُكُمْ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ أَكْثَرُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِسْرَةٌ ، ثُمَّ يُرْزَقُهُ اللَّهُ فَفَكَ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُبَشِّرُكُمْ﴾ أي : بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُبَشِّرُكُمْ﴾ أي : يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿مَنْ يَنْ شَرَّكُمْ﴾ أي : الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَنْ يَفْعَلْ يَنْزِلْكُمْ مِنْ سَحَابٍ﴾ ؟ أي : لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ثم يبحث الخلاق يوم القيامة ، ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي : تعالى وتنزه عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْثَ الَّذِي وَعَدُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أضعفهم مثركم .

قال ابن عباس وغيره : المراد بالبر هاهنا الغيافي ، وبالبحر الأمصار والقرى . وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر . وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر هو البحر المعروف . وقال زيد بن ربيع : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعني دوابه . وعن مجاهد قال : فساد البر قتل ابن آدم ، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً ، وقال عطاء الخراساني : المراد بالبر ما فيه من المدن والقرى ، وبالبحر جزائره .

(١) اللؤلؤ : الجمش أو اللؤلؤ يظلم أو يبلغ السنة . وللمعجم الوسيط ص ٧٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠) ومسلم في الزكاة (٦٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٣١/٢ ، ٤١٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) وابن ماجه في سننه (٤١٦٥) .

والقول الأول أظهر وعليه الأكثر ، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق في السيرة : أن رسول الله ﷺ صالح ملك أهلك وكتب إليه يحره يعني يبلده . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ ، أي : بأن النقص في الزروع والشمار بسبب المعاصي . وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض ، فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة . ولهذا جاء في الحديث : « لَخَد يُقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُطْفَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا » ^(١) . والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سببا في حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا ثبت في الصحيحين : أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ^(٢) . وعن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ها هنا الشرك وفيه نظر . وقوله تعالى : ﴿ يُدَبِّقَهُمْ بِضَلَالِهِمْ فِي أَيَّامٍ ﴾ الآية . أي : يتلهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا منه لهم ومجازاة على صنيعهم . ﴿ تَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ﴾ أي : عن المعاصي كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يُلْقُونَكَ الْمَتَنِينَ وَالْمُتَنِينَ تَلُمُكُمْ يَوْمَهُمُ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَئِذٍ فِي الْأَرْضِ فَافْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبلكم ﴿ كَانُوا أَكْثَرُ شُرَكَائِكُمْ ﴾ أي : فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

﴿ قَالُوا رَبَّنَاكَ الَّذِينَ الْغَفِرُونَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمَ لَا مَرَّةَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ يَوْمِهِمْ يَسْتَفْهِونَ ۖ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَهُوَ يُعِلُّ صَيْلًا مِثْلًا فَلَا تَنْصِفُهُمْ يَوْمَهُدُونَ ۚ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۚ ﴾ . يقول تعالى أمرا بعباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات : ﴿ قَالُوا رَبَّنَاكَ الَّذِينَ الْغَفِرُونَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمَ لَا مَرَّةَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ يَوْمِهِمْ يَسْتَفْهِونَ ۖ ﴾ أي : يتفرون ؛ ففرق في الجنة وفرق في السعير ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَهُوَ يُعِلُّ صَيْلًا مِثْلًا فَلَا تَنْصِفُهُمْ يَوْمَهُدُونَ ۚ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴾ أي : يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۚ ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور .

﴿ وَهِيَ الْيَوْمِ أَنْ يَنْبُلَ الْيَوْمِ مِثْرَيْنِ وَلَيَذَاقَنَّ مِنْ رَحْمَتِي الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلَيَنْتَفِرْنَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُلَّ فَتَكْرُونَ ۚ ﴾ ولقد أرسلنا من قبلك رُسُلًا إِنْ قَوْمٌ مُجَادِفٌ بِالْيَمِينِ فَانْتَفِنَا مِنَ الَّذِينَ لَجِمُوا وَكَانَتْ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۚ . يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقيبها . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَيَذَاقَنَّ مِنْ رَحْمَتِي ۚ ﴾ أي : المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ﴿ وَلَيَنْتَفِرْنَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴾ أي : في التجارات والمعاش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر ، ﴿ وَلَكُلَّ فَتَكْرُونَ ۚ ﴾ أي : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِنْ قَوْمٌ مُجَادِفٌ بِالْيَمِينِ فَانْتَفِنَا مِنَ الَّذِينَ لَجِمُوا ۚ ﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٢/٢) .

(٢) انظر صحيح البخاري في الرقاق (٦٥١٢) ومسلم في الجهاد (٦١) .

ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا بِمَا قَرَأْتُمْ مُصَدَّرًا لِّظُلُومٍ مِنْ مُنَادٍ يَدْعُو إِلَى تَكْوِينٍ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا بِمَا قَرَأْتُمْ مُصَدَّرًا ﴾ أي : قد اصفر وشرع في الفساد ﴿ لِّظُلُومٍ مِنْ مُنَادٍ ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ يَدْعُو إِلَى تَكْوِينٍ ﴾ أي : يجهلون ما تقدم إليهم من النعم . فقولته تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلْ تَحْمِلُونَهَا كَظَمَاتٍ خِشْيَتِهَا رِيعًا ﴾ قال عبيد الله بن عمرو : الرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة منها عذاب ؛ فأما الرحمة : فالناشرات والمبشرات والمرسلات واللدائيات ، وأما العذاب . فالعقيم والصرصر وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر ، فإذا شاء ﴿ فَجَعَلَهُ حَرَكَهَ بِحَرَكَهَ الرَّحْمَةِ ، فَجَعَلَهُ رِخَاءً وَرَحْمَةً وَبَشَرَى بَيْنَ يَدَيِ رَحْمَتِهِ ، وَلَاقَحَهَا لِلْمَحَابِ تَلْقَحَهُ بِحَمْلِهِ الْمَاءِ ، كَمَا يَلْقَحُ الذَّكَرُ الْأُنثَى بِالْحَمْلِ ، وَإِنْ شَاءَ حَرَكَهَ بِحَرَكَهَ الْعَذَابِ فَجَعَلَهُ عَقِيمًا وَأَوْدَعَهُ عَذَابًا أَلِيمًا وَجَعَلَهُ نَقْمَةً عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَيَجْعَلُهُ صَرَصَرًا وَعَاتِيًا وَمَقْسَدًا لَا يَمُرُّ عَلَيْهِ . وَالرِّيحُ مَخْتَلِفَةٌ فِي مَهَابِهَا ، صَبَا وَدَبُورٌ وَجَنُوبٌ وَشَمَالٌ ، وَفِي مَنَفْعَتِهَا وَتَأْثِيرِهَا أَعْظَمُ اخْتِلَافٍ ، فَرِيحٌ لَيِّنَةٌ رَطْبَةٌ تَغْذِي النَّبَاتَ وَأَبْدَانُ الْخَيْوَانِ وَأُخْرَى تَجْفِفُهُ ، وَأُخْرَى تَهْلِكُهُ وَتَعْطِبُهُ ، وَأُخْرَى تَسِيرُهُ وَتَصْلِبُهُ ، وَأُخْرَى تَوَهِّنُهُ وَتَضَعِفُهُ .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ وَلَا تُسْمِعُ الْعُمْرَ الْفَلْعَةَ إِذَا وَلَّى مُنِيرٌ ﴾ وَمَا أَنْتَ بِمَهْدٍ الْعُمَى عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴿

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله ؛ فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴾ أي : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم القتلى الذين ألقوا في قلب بدر بعد ثلاثة أيام ومعايته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جفوا ؟ فقال : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعٍ بَلْ أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ ﴾ . وتأولته عائشة على أنه قال : ﴿ إِنَّهُمْ الْآنَ يَقُولُونَ أَنْ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقًّا ﴾ ^(١) . وقال قتادة : أحياءهم الله له حتى سمعوا مقاتله تقريماً وتوبيخاً ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ما روي عن ابن عباس مرفوعاً : ﴿ مَا مِنْ أَحَدٍ يُؤْمِرُ بِقَتْلِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَانَ يَقْرَفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيَسْلَمُ عَلَيْهِ ؛ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ﴾ ^(٢) . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم لأمته إذا سلموا على

(١) أخرجه مسلم في (الحج) (٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٧/٣) .

(٢) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣٦٥/١٠) والسيوطي في الخواص للنفوس (٣٠٢/٢) .

﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ ﴾ أي : اعتذارهم عما فعلوا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي : ولا هم يرجعون إلى الدنيا .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَسَّهُمْ بِلَايَةٍ لَيُوقُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ أَنتَ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ، ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ وَلَكِنْ جَسَّهُمْ بِلَايَةٍ لَيُوقُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ أَنتَ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أي : لو رأوا أي آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل . كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَسْتَخِفُّونَكَ وَلَكِنْ لَآ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿ وَكَوْجَسَّهُمْ كُلُّ نَافِثٍ مِمَّنْ رَزَا زُكُورَ الْكَذِبِ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم ، وجعله العاقبة لك ولن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقُونَ ﴾ أي : بل أثبت على ما بعثك الله به ، فإنه الحق الذي لا مرية فيه ولا تعديل عنه ، وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه ، قال قتادة : نادى رجل من الخوارج علياً عليه السلام ، وهو في صلاة الغداة فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوتِيَ إِلَيْكَ وَلِلَّهِ الَّذِينَ يَنْ قَبْلَكَ لَنْ أَتْرُكَكَ لِيَحْكُمَ عَلَيْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْفَائِزِينَ ﴾ فأنصت له علي حتى فهم ما قال ، فأجابوه وهو في الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقُونَ ﴾ .

الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله . ﴿ لَمْ جَنَّتْ أَلَيْمٌ ﴾ أي : يتمتعون فيها بأنواع الملاذ والمساكن والماكَل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنضرة ، والسماع الذي لم يخطر ببال أحد وهم في ذلك مقيمون دائماً ، لا يظنون ولا يفتنون عنها حوْلاً . وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أي : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله والله لا يخلف اليعاد . ﴿ وَفَوَّ الْفَزْءَ ﴾ الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء . ﴿ لَتَسْكُنَنَّ ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ، ﴿ قُلْ هُوَ إِلَهُكَ فَاتَّخِذْهُ حَسْبًا وَنَصِيحَةً ﴾ وَاللَّيْلُ لَا يُفْهَمُونَ فِي مَا كَانُوا مِنْهُمْ وَفَرَّ وَفَوَّ عَلَيْهِمْ عَشَى ﴾ الآية . ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ فِي أَلْفَيِّ يَوْمٍ أَنْ تَبْيُذَ بِكُمْ وَبَنَى فِيهَا مِنْ كُلِّ صَبَّغٍ مَاءً فَلَبَّسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ١٠ ﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَدَّبَ فِيهَا خَلْقَ الْإِنسَانِ فِي سَلَكٍ بَيْنِ .

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السماوات والأرض ، وما فيها وما بينهما فقال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ . قال الحسن : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . وقال ابن عباس : لها عمد لا ترونها . ﴿ وَالْأَرْضَ فِي أَلْفَيِّ يَوْمٍ ﴾ يعني : الجبال أُرست الأرض وفُككتها فلما تضطرب بأهلها على وجه الماء . ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَبْيُذَ بِكُمْ ﴾ أي : فلما تمجد بكم . وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَى فِيهَا مِنْ كُلِّ صَبَّغٍ مَاءً ﴾ أي : وذراؤها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ، ولما قرر سبحانه أنه الخالق تبه على أنه الرازق بقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَلَبَّسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَبَاجٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : من كل زوج من النبات ﴿ كَرِيمٍ ﴾ أي : حسن المنظر وقال الشعبي : والناس أيضاً من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم ، وقوله تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أي : صادر عن فعل الله وخلقهم وتقديره وحده لا شريك له في ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَدَّبَ فِيهَا خَلْقَ الْإِنسَانِ فِي سَلَكٍ ﴾ أي : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنناد ﴿ فِي السَّلَاطِينِ ﴾ يعني : المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ فِي سَلَكٍ ﴾ أي : جهل وعسى ﴿ يُبْذِرُ ﴾ أي : واضح ظاهر لا خفاء به . ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَنَ الْكِتَابَ أَنْ يَشْكُرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ ١١ ﴾

اختلف السلف في لقمان ، هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الأولون على الثاني . قال ابن عباس : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً . وقال قتادة : عن عبد الله بن الزبير : قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أقطس الأنف من النبوة ، وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ، ومنعه النبوة . وقال خالد الربيعي : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، قال : أخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله . ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها فقال : أخرج أعني مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أعني مضغتين فيها فأخرجتهما ، فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أعني منهما إذا خبثا ^(١) . وقال مجاهد : كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً . وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبداً

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٨٢/٢١) .

سيديها ويظهرها بلطف علمه . كما قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَتَمَلَّى فِي صَخْرَةٍ صَمَاءٍ لَيْسَ لَهَا ثَابِتٌ وَلَا كُوَّةٌ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَأَنَّمَا كَانَ » ^(١) .

ثم قال : ﴿ يَبْتَغِ أَفْئِدَةً أَفْكَرَ ﴾ أي : بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ وَاسْتَرْعَى الْإِنْسَانَ ﴾ أي : بحسب طاقته وجهده ﴿ وَاسْتَرْعَى عَنْ مَا أَصَابَكَ ﴾ ، اعلم أن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر . وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ الْأُمُورِ ﴾ أي : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور . وقوله : ﴿ وَلَا تَصْبِرْ عَلَى مَا لَمْ تُغَلِّبْ عَلَيْهِ ﴾ . يقول : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم ، أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم ، ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث : « وَلَوْ أَنَّ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُتَبَسِّطٌ ، وَإِلَّاكَ وَاشْتَبَالَ الْإِزَارَ فَأَلْفَتْهُ مِنَ الْخِيَلَةِ ، وَالْخِيَلَةُ لَا يُجِيبُهَا اللَّهُ » ^(٢) . قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تَصْبِرْ عَلَى مَا لَمْ تُغَلِّبْ عَلَيْهِ ﴾ لا تتكبر ، فتحتقر عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ، وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَلَا تَصْبِرْ عَلَى مَا لَمْ تُغَلِّبْ عَلَيْهِ ﴾ لا تتكلم وأنت معرض . وقال إبراهيم النخعي : يعني بذلك التشدد في الكلام ، والصواب القول الأول . قال ابن جرير : وأصل الصبر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً ﴾ أي : خيلاء متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يغيضك الله ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي : مختال معجب في نفسه ﴿ فَخُورٍ ﴾ أي : على غيره ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَكَانَ يُبْعَثُ لِكُلِّ شَيْءٍ ثَابِتٌ ﴾ ابن قيس بن شماس : ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ ، فشدد فيه فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله ، إنني لأغسل ثيابي ، فيمجنبي بياضها ويمجنبي شرك نعلي وعلاقة سوطي ، فقال : « لَيْسَ ذَلِكَ الْكِبَرُ إِنَّمَا الْكِبَرُ أَنْ تُعْصِمَ الْحَقَّ وَتُقْصِطَ النَّاسَ » ^(٣) . وقوله : ﴿ وَتَقْصِصْ فِي سُنَّتِكَ ﴾ أي : امش مقتصدًا مشيًا ليس بالبطيء المتبسط ولا السريع المفرط ، بل عدلاً وسطاً بين بين . وقوله : ﴿ وَتَقْصِصْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أي : لا تبalg في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ اللَّيْلِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمر في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغض إلى الله تعالى ، وهذا التشبيه في هذا بالحمر ، يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ لَنَا مِثْلُ الشَّوْرِ الْعَائِدِ فِي هَيْبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَبْقَى ثُمَّ يَهْوِي فِي قَيْئِهِ » ^(٤) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِذَا سَمِعْتُمْ صَيْعَاعَ الدِّيَكَةِ فَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ تَهَيُّقَ الْحَمِيرِ فَتَعَوُّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا » ^(٥) . وفي بعض الألفاظ : بالليل ، فالله أعلم . فهذه وصايا نافعة جداً

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٥/٤) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٨٢/٣) والحاكم في المستدرک (١٨٦/٤) والطبراني في الكبير (٦٠/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في البهيات (٨ ، ٧ ، ٢ ، ١) والإمام أحمد في مسنده (٢١٧/١) .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣٠٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٨٢) وأبو داود في سننه (٥١٠٢) .

وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها نموذجاً ودستوراً إلى ذلك .

عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ إِذَا اسْتَوْدَعَ شَيْئًا حِفْظَهُ » ^(١) . وعنه ﷺ قال : « قَالَ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعْظُهُ : يَا بُنَيَّ إِنَّاكَ وَالتَّقَنُّعُ فَإِنَّهُ مَخُوفَةٌ بِاللَّيْلِ مَذْمُومَةٌ بِالنَّهَارِ » ^(٢) . وعن الثوري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك . وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

فصل في الخمول والراضع

وذلك متعلق بوصية لقمان عليه السلام لابنه ، عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رَبُّ أَشَقَّتْ ذِي طَعْرَيْنِ يُضْفَعُ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَمْرٍ » . وفي رواية : « مِنْهُمْ الزَّيَّاءُ بْنُ مَالِكٍ » ^(٣) . وعن عمر رضي الله عنه : أنه دخل المسجد ، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ : سمعته يقول : « إِنَّ التَّيْسَ مِنَ الزَّيَّاءِ شَرُّهُ وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَخْيَارَ الْأَخْيَارَ الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ تُهْدَى بِشُعُونٍ مِنْ كُلِّ غَيْرَةٍ مُظْلِمَةٍ » ^(٤) . وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

باب ما جاء في الشهرة

عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خَشِبَ الثَّرِيُّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا مَنْ غَضِمَ اللَّهُ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرَتِكَ ، وَلَكِنْ إِلَى قُلُوبِكَ وَأَعْمَالِكَ » ^(٥) . وروى عن الحسن مرسلاً نحوه ، ف قيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ، فقال : إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق . وعن علي رضي الله عنه قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيب الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم عليه السلام : ما صدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب : ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس . وقال سماك بن سلمة : إياك وكثرة الأضلاع . وقال أبان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم إليك دينك ، فأقل من المعارف . كان أبو العالية

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٧/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٢/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤١١/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٢/٤) .

(٣) أخرجه نحوه الإمام أحمد في مسنده (١٤٥/٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/١) .

(٥) أخرجه نحوه الترمذي في السنن (٢٤٥٣) .

إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . وعن أبي رجاء قال : رأى طلحة قوماً يشربون معه ، فقال : ذباب طمع وفراش النار . وقال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا ما يزدريك السفهاء . وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجلياد التي يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويستذل دينه ، وقال الحسن عليه السلام : إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه ما لهم تفاقدوا .

فصل في حسن الخلق

قال أنس رضي الله عنه ، كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً ^(١) . وابن عمر قيل : يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » ^(٢) .

وقال ميمون بن مهران عن رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ شُوءِ الْخُلُقِ » ^(٣) . وعن أبي هريرة مرفوعاً « إِنَّكُمْ لَا تَسْعَوْنَ النَّاسَ بِأَفْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَسْفَهُهُمْ مِنْكُمْ بِشَطِّ وَجْهِهِمْ وَخُسْرِ خُلُقِهِ » ^(٤) وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل في ذم الكبر

قال ابن مسعود رفعه : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » ^(٥) . وعن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا ، فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدنا ليقدر نفسه يقول : خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن : عجبنا لابن آدم يغسل الخراء بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السماوات .

فصل في الاعتجال

عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعاً : « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خَيْلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ » ^(٦) وعن أبي هريرة مرفوعاً : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ ، وَتَبَيَّنَا رَجُلٌ يَتَخَفَتُ فِي يَوْدِيهِ أَهْجَبَتْهُ نَفْسُهُ خَشَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٧) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ حُسْنَهُ ظَهْرَهُ وَيُلَئِنِ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجِدِلُ فِي آيَاتِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ۖ وَلَا يَذِلُّ لَهُمْ أَنْبِئُوهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ يَتَّبِعُ مَا يَدْبَرُونَ غَيْرَ مَنبَغٍ ۖ وَتَبَدَّلَا عَلَيْهَا الْبَلَاءَ نَارًا ۖ أَوْ لَوْ كَانُوا يَشْعُرُونَ ۚ يَدْعُوهُمْ إِلَيْنَا صَبَاحًا مُبْتَدِئًا ۖ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٥٤) وأحمد في مسنده (٣٧٠/٣) والترمذي في مسنده (٢٠١٥) .

(٢) ذكره للبخاري في الترهيب والترهيب (٤٠٤/٣) . (٣) ذكره للبخاري في الترهيب والترهيب (٤١٣/٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٢٤/١) والسيوطي في الدر المنثور (٧٣/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩) .

(٦) له روايات كثيرة منها ما أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٣) ومسلم في اللباس (٤٥) وأحمد في مسنده (٤٢/٢) .

(٧) أخرجه البخاري في (القياس) (٥٧٨٨) .

يقول تعالى منها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليالهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحب وأطمار وثلج وبر ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا . وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل . ثم مع هذا كله ما آمن الناس كله ، بل منهم من يجادل في الله ، أي في توحيد وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب ماثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : مبين مضيء ﴿ وَإِنَّا قَدِ لَمُنَّ ﴾ أي : لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ أَتُحِبُّونَ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ ﴾ أي : على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قَالُوا بَلْ نَحْبِبُهُ مَا وَبَدَأَ عَلَيْهِ مِلَّةً ﴾ أي : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّا بِتَقْوَاتِكُمْ لَدُنْكُمْ ﴾ أي : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ كُنَّا أَكْثَرُكُمْ يَتَّبِعُونَ ﴾ أي : لعذاب الشيعي .

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِوَجْهِهِ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ حَيٌّ فَقَدْ اتَّسَمَكَ بِالْمَرْوَةِ الْوَقْفَى وَإِلَى اللَّهِ عِيقَةُ الْأُمُورِ ﴾ ومن كفر فلا يَرْزُقُكَ كُفْرُهُ إِنَّهُ يَرْجِعُهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ يَسْعَاوُنَ إِنَّ اللَّهَ قَلِيلٌ يَذَابُ الْمُشْكِرِينَ ﴿ تَتَّبِعُهُمْ فَيَلَا ثُمَّ نَضَعُ طَرَفَهُمْ وَإِنَّا لَمَّا كَذِبٌ غَلِيظٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن أسلم وجهه لله ، أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتباع شرعه ، ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ حَيٌّ ﴾ أي : في عمله باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ فَقَدْ اتَّسَمَكَ بِالْمَرْوَةِ الْوَقْفَى ﴾ أي : فقد أخذ موثقا من الله ميتا أنه لا يعذب . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عِيقَةُ الْأُمُورِ ﴾ ومن كفر فلا يَرْزُقُكَ كُفْرُهُ ﴿ أي : لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله ، وبما جئت به ، فإن قدر الله نافذ فيهم ، وإلى الله مرجعهم ، فنبيهم بما عملوا أي : فيجزئهم عليه ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿ فلا تخفى عليه خافية . ثم قال تعالى : ﴿ تَتَّبِعُهُمْ فَيَلَا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ ثُمَّ نَضَعُ طَرَفَهُمْ ﴾ أي : لنجهم ﴿ إِنَّ كَذِبَ غَلِيظٌ ﴾ أي : فظلم صعب مشق على النفوس .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لله ما في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْكَافِي .

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعرفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ يَقُولُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : هو خلقه وملكه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْكَافِي ﴾ أي : الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه ، الحمدي في جميع ما خلق له الحمد في السماوات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو الحمد في الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ سَبَعًا لَشِجْرٌ مَّا قَدَّتِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَفَتَيْنِ وَجَدَّ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

وكل شيء فقير إليه ؛ لأن كل ما في السماوات والأرض الجميع خلقه وعبيده لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لمعجروا عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ إِنَّهُ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَلَهُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبُغْيُوتُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ أي : العلي الذي لا أعلى منه الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَّكَ يَمْشِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَبُ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ عَمَلِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وَلَقَدْ غَشِيَهُمْ نَوْجٌ كَالظُّلُمِ دَعَا اللَّهُ عَالَمِينَ لَهُ الْإِيْنُ فَلَمَّا بَجَّتَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَبَنَتْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَحْصُدُ إِيَّانِيْنَا إِلَّا كُلُّ خَنَازِيرٍ كَثُورٍ .

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلفظه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت . ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ عَمَلِكُمْ ﴾ أي : من قدرته ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . أي صبار في الضراء شكور في الرخاء . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ غَشِيَهُمْ نَوْجٌ كَالظُّلُمِ ﴾ أي : كالجال والغمام . ﴿ دَعَا اللَّهُ عَالَمِينَ لَهُ الْإِيْنُ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَكَّتْ الْفُلُّ فِي الْبَحْرِ مِمَّنْ دَعَا إِلَى الْيَأْسِ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَجَّتَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَبَنَتْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أي كافر كأنه فسر المقتصد ها هنا بالجاحد . كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَجَّتَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُدْرِكُونَ ﴾ وقال ابن زيد : هو المتوسط في العمل ، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى : ﴿ فَبَنَتْهُمْ عَالَمِينَ مُقْتَصِدٌ ﴾ الآية . فالمتقصد ها هنا هو المتوسط في العمل ، ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات في البحر . ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص . كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب في العبادة والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَحْصُدُ إِيَّانِيْنَا إِلَّا كُلُّ خَنَازِيرٍ كَثُورٍ ﴾ . فالخنازير هو الغدار . قاله مجاهد والحسن وقتادة ، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده . والخنازير أتم الغدر وأبلغه . وقوله : ﴿ كَثُورٍ ﴾ أي جمود لنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَأْتِيَنَّ النَّاسُ أَفْئِدَتُكُمْ وَأَنْفُسَ يَوْمَ لَا يُجْزَى وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ وَالِدَيْهِمْ هَاسِرُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ وَالِدَيْهِمْ هَاسِرُونَ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ وَالِدَيْهِمْ هَاسِرُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ وَالِدَيْهِمْ هَاسِرُونَ .

يقول تعالى منذروا للناس يوم المعاد ، وأمرأ لهم بقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لَا يُجْزَى وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ وَالِدَيْهِمْ هَاسِرُونَ ﴾ أي : لو أراد أن يفد نفسه لما قبل منه . كذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه ، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلَا تَتْرَكُوهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي : لا تلهيكم بالطمأنينة فيها على الدار الآخرة . ﴿ وَلَا تَتْرَكُوهُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ ﴾ يعني الشيطان . فإنه يفر ابن آدم وبعده وبنيه وليس من ذلك شيء ، بل كان كما قال تعالى : ﴿ يَتَّبِعُهُمُ الشَّيْطَانُ وَمَا يَكْتُمُ مِنْ أَلْسِنَةٍ أَعْجَبُ لَكَ مَا لَا يُعْلِنُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَهُوَ فِي الْأَفْقَانِ وَمَا يَكْتُمُ مِنْ أَلْسِنَةٍ أَعْجَبُ لَكَ مَا لَا يُعْلِنُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛

وكل ذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخرها ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك ، وهذه شبهة بقوله تعالى : ﴿ تَعَسَّوْا مَتَاعِيَ النَّبِيِّ لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَتَلَفَهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَايَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَهُوَ مَا فِي الْأَرْصَادِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَتَاذَا تَكْسِبُهَا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (١) .

وعن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله : أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَايَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَهُوَ مَا فِي الْأَرْصَادِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَتَاذَا تَكْسِبُهَا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوما باردا للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْغَيْبِ الْآخِرِ » . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : « الْإِسْلَامُ ، أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَقْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ » . قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « مَا الْمَشْهُورُ عَلَيْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأَعِدُّكَ عَنْ أَسْرَاطِهَا : إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَةُ رَبِّهَا فَذَلِكَ مِنْ أَسْرَاطِهَا ، وَإِذَا كَانَ الْخِفَافَةُ الْعِرَاءُ رُؤُوسَ النَّاسِ ، فَذَلِكَ مِنْ أَسْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَايَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَهُوَ مَا فِي الْأَرْصَادِ ﴾ » . ثم انصرف الرجل فقال : « وَدُّوهُ عَلَيَّ » فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئا فقال : « هَذَا جَبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ » (٣) .

وعن ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أليج ؟ فقال النبي ﷺ لحادسه : « اُخْرُجْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يُحْسِنُ الْاسْتِئْذَانَ قُلُّ لَهْ : فَلْيَقُلْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخَلَ ؟ » قال : فسمعتة يقول ذلك فقلت : السلام عليكم أَدْخَلَ ؟ فأذن لي فدخلت فقلت : بم آتيتا ؟ قال : « لَمْ آتِيكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ ، أَتَيْتُكُمْ بِأَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ تَدْعُوا اللَّهَ وَالْعَزْرَى ، وَأَنْ تُصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ ؛ وَأَنْ تَصُومُوا مِنَ الشَّهْرِ شَهْرًا ، وَأَنْ تُحُجُّوا الْبَيْتَ ، وَأَنْ تَأْخُذُوا الزَّكَاةَ مِنْ مَالِ أَغْنِيَاكُمْ فَتُرَوِّدُهَا عَلَى فَقَرَاؤِكُمْ » . فقال : فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قَدْ عَلَّمَنِي اللَّهُ فَكَانَ خَيْرًا وَأَنْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَتَلَفَعُ إِلَّا اللَّهُ ﷻ : الْخَمْسُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَايَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَهُوَ مَا فِي الْأَرْصَادِ ﴾ » .

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٧٨) وأحمد في مسنده (١٢٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٥/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (الإيمان) (٤٧٧٧) ومسلم في (الإيمان) (٥) .

وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَسْكَرُ مَا فِي الْأَرْحَابِ ﴿١﴾ . وقال مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتي حبلى ، فأخبرني ما تلد ؟ وبلادنا مجدية ، فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت ، فأخبرني متى أموت ؟ فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِذْ أَتَاهُ عِنْدُ عِلْمٍ السَّاعَةِ - إِلَى قَوْلِهِ - عَلَيْهِ خَيْرٌ ﴾ قال مجاهد : وهي مفاتيح الغيب التي قال تعالى : ﴿ وَبَعْدُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ . قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ﴿ إِذْ أَتَاهُ عِنْدُ عِلْمٍ السَّاعَةِ ﴾ ، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أي سنة ، أو أي شهر أو ليل أو نهار . ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلًا أو نهارًا . ﴿ وَسْكَرُ مَا فِي الْأَرْحَابِ ﴾ . فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو . ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أخير أم شر ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غداً ، لعلك المصاب غداً ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أي : ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض ، أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل . وقد جاء في الحديث « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بَارِئٍ جَعَلَ لَهُ فِيهَا - أَوْ قَالَ بِهَا - حَاجَةً » (٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٢/١) .

سورة السجدة

عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ آت ﴾ ﴿ تَوَلَّى ﴾ السجدة و ﴿ مَلَأَهُ عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ آت ﴾ ﴿ تَهْلِكُ الْكَتَبُ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّهٗ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِشَبَدْرَ قَوْمًا مَّا أَنَّهُمْ مِنْ كَذِبٍ ذَنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَكُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقوله : ﴿ تَهْلِكُ الْكَتَبُ لَا رَبَّ فِيهِ ﴾ أي : لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ مِنْ رَبِّ الْكَافِرِينَ ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّهٗ ﴾ أي : اخلفه من تلقاء نفسه . ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِشَبَدْرَ قَوْمًا مَّا أَنَّهُمْ مِنْ كَذِبٍ ذَنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَكُونَ ﴾ أي يهجون الحق .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ يَذَرُ الْأَمْثَرَ مِنَ السَّحَابِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَمْشِي عَلَى الْبَرِّ فِي يَوْمٍ كَانَ يَقْدَرُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ﴿ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَاللَّهِ الْغَيْبِ الْمُبِينِ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء ، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ ﴾ أي : بل هو المالك لأزمة الأمور ، القادر على كل شيء ، فلا ولي خلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني . أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه تعالى ، وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك ، وقوله تعالى : ﴿ يَذَرُ الْأَمْثَرَ مِنَ السَّحَابِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَمْشِي عَلَى الْبَرِّ ﴾ أي : ينزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة . كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَبَيْنَ الْأَرْضِ يَنْزِلُ الْأَمْثَرَ بَيْنَهُنَّ ﴾ الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، ومسك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد : النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام . ولكنه يقطعها في طرفة عين . ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ يَقْدَرُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ﴿ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَاللَّهِ الْغَيْبِ الْمُبِينِ ﴾ أي : المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وصغيرها وكبيرها ، وهو عزيز في رحمته رحيم في عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلا ذل .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ لَكُم مِّنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِ رَبِّكَ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ لَّدُنْهُ أَلْسِنًا وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . وقال زيد بن أسلم : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَ ﴾ قال : أحسن خلق كل شيء ، كأنه جعله من المقدم والمؤخر . ثم لما ذكر تعالى

خلق السماوات والأرض ، شرع في ذكر خلق الإنسان ، فقال تعالى : ﴿ وَيَدَّخُنَّ الْإِنْسَانُ مِنْ طِينٍ ﴾ يعني : خلق أبأ البشر آدم من طين . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا سَلَكًا مِنْ سُلَكٍ مِنْ مَّاءٍ تَهَيَّجَ . أَي : يتأسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل ورتائب المرأة ﴾ ثُمَّ سَوَّيْنَاهُ ﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سويًا مستقيمًا ﴿ وَفَتَحْ يَسُونَ مِنْ نَحْيٍ وَجَعَلْ لَكُمْ الْشَّعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ يعني العقول ﴿ قِيلَ مَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي : بهذه القوى التي رزقكموها الله تعالى ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه تعالى . ﴿ وَقَالُوا أَوَلَمْ نَسْأَلْكَ فِي الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَلْخِ خَلْقِي جَدِيدٌ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ يَتُوفَّكُم مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرْ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في استبعادهم المعاد ، حيث قالوا : ﴿ أَوَلَمْ نَسْأَلْكَ فِي الْأَرْضِ أَي : تترقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتُوفَّكُم مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرْ بِكُمْ ﴾ الظاهر من هذه الآية : أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، وقد سمي في بعض الآثار بعزيزائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد وله أعوان ، وورد في الحديث أن أحواله ينزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولوها ملك الموت ، قال مجاهد : حوت له الأرض ، فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء . وعن جعفر بن محمد ، قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ : « يَا مَلِكَ الْمَوْتِ اؤْتِنِي بِضَاجِي فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ » فقال ملك الموت : يا محمد ، طب نفسي وقر عيني ، فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ، ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أنني أردت أن أفيض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها ^(١) . قال جعفر : بلغني أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت ، فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ، ولقنه الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله في تلك الحال العظيمة . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمِينَ نَاكِرًا يُرْوِضُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّخِذْنَا سَلَكًا مِّنْ سُلَكٍ إِنَّا مُتَوَقِّعُونَ ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ فَادْعُوا يَمَّا تَدْعُونَ إِلَيْكُمْ يَوْمَ كَذَلِكَ إِنَّ كَيْدَكُمْ هَذَا يَأْتِيكُمْ عَنَّا بِالْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخير تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله تعالى حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم أي : من الحياء والخجل يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى : ﴿ أَتَسْتَعِينُ يَوْمَ يُأْتِيكُمْ بِتُؤْتِنَا ﴾ . وهكذا هؤلاء يقولون :

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٧٣/٥) .

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾ أي : إلى دار الدنيا ﴿ تَسْمَلُ سَلِيلًا إِنَّا مُنْقَرُونَ ﴾ أي : قد أبقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقائك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا ، يكدبون بأيات الله ويخالفون رسله . كما قال تعالى : ﴿ وَكَوْنُوا عَلَى الْآثَرِ فَتَقَالُوا بَيْنَكُمْ لُزَّةٌ دَلِيلٌ لِلْكَذِبِ يُخَوِّدُكُمْ فِيهَا ﴾ الآية . وقال هاهنا : ﴿ وَكَوْنُوا شِفْنَا لَا يَهْتَدِ كُلُّ قَبِيلٍ مَهْدُهَا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَكَوْنُوا شَكَّةَ رَبِّكَ لَا تَمَنَّ مِنْ بِي الْأَرْضِ كُلُّكُمْ جَبِيلٌ ﴾ . وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك . ﴿ فَذُوقُوا يَمَّا يُبَدِّلُ لَكُمْ يَوْمَكُمْ هَذَا ﴾ أي : يقال لأهل النار على سبيل التعزير والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إِنَّا نَبِيدُكُمْ ﴾ أي : ستعاملكم معاملة الناسي ، لأنه تعالى لا ينسى شيئًا ، ولا يضل عنه شيء . بل من باب المقابلة كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخَسِرُكَ كَمَا بَيَّرْتَ لَنَا يَوْمَكَ هَذَا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا مَذَاقَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بسبب كفركم وتكذيبكم .

﴿ إِنَّا بَرَأْنَاهُ إِذْ بَعَثْنَا الْبَرِّ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ تَسْبَّحُ جُثُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَكَمَلًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾ ﴿ فَلَا تَقْصُ فِتْنَتَا الْغَيْنِ لَهُمْ مِنْ فِتْنَةِ آخِرِينَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَرَأْنَاهُ بِحَمْدِ رَبِّهِ ﴾ أي : إنما يصدق بها ﴿ الْبَرِّ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أي : استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلًا . ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَرِّ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ يَمَانِي سَيَكُونُ جَهَنَّمَ دَكْرِجَةً ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ تَسْبَّحُ جُثُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيفة ، قال مجاهد والحسن في قوله تعالى : ﴿ تَسْبَّحُ جُثُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وعن أنس وعكرمة وقادة : هو الصلاة بين المشاعين ، وعن أنس أيضًا : هو انتظار صلاة الحمة . وقال الضحاك : هو صلاة المشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَكَمَلًا ﴾ أي : خوفًا من وبال عقابه وطمعًا في جزيل ثوابه . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾ ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتصدية ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « عَجِبَ رَبَّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ : رَجُلٍ تَارَى مِنْ عِلَاقِهِ وَجِلَافِهِ مِنْ يَدَيْنِ جِيءَ وَأَهْلِيهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَقَقَهُ بِمَا عِنْدِي ، وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فَأَنْهَزُوا قَلْبَهُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْغَزَا وَمَا لَهُ فِي الرَّجُوعِ فَرَجَعُ حَتَّى أَهْرَقَ دَمَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَقَقَهُ بِمَا عِنْدِي ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِلْمَلَائِكَةِ : انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أَهْرَقَ دَمَهُ » (١) .

وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير فقلت :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٦/١) والبيهقي في السنن (١٦٤/٩) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٥٥/٢) .

يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة وياعدني من النار قال : « لَقَدْ مَنَّاكَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَشْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ وَتَصُنَّ ، وَتُحْجُ الْبَيْتَ » ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ - ثُمَّ قَرَأَ - « تَنَجَّاهُ جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَالِجِ » حَتَّى بَلَغَ « جَنَّةَهُ بِمَا كَانُوا يَسْعَوْنَ » ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ » فَقُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ : « رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أَخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلُّهُ ؟ » فَقُلْتُ : بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ : « كُفَّ عَنْكَ هَذَا » . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : « كَيْفَ لَكَ أَمَّا يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ - أَوْ قَالَ : عَلَى مَنَاجِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِلُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ » ^(١) .

وعن معاذ أيضًا عن النبي ﷺ في قوله تعالى : « تَنَجَّاهُ جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَالِجِ » قَالَ : « قِيَامُ الْعَبِيدِ مِنَ اللَّيْلِ » ^(٢) . وعن معاذ بن جبل قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقَالَ : « إِنْ شِئْتُ نَبِّأُكَ بِأَبْوَابِ الْخَيْرِ : الصَّوْمُ جَنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ ، وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ » . ثُمَّ تلا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَنَجَّاهُ جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَالِجِ » ^(٣) . الآية .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ حَمَادٌ : أَحْسِبُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَتَمَتَّعُ لَا يَبْئَاسُ لَا تُبْطِلُ نِيَّتَهُ ، وَلَا يَفْتَنُ شَيْئًا ، فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ » ^(٤) .

وعن سهل بن سعد الساعدي ؓ قَالَ : شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُجْلِسًا وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ حَتَّى انْتَهَى . ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ : « فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ » . ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ : « تَنَجَّاهُ جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَالِجِ » - إِلَى قَوْلِهِ - « يَمْلَأُونَ » ^(٥) .

وعن الشعبي يخبر عن المخيرة بن شعبة قَالَ : سَمِعْتُهُ عَلَى الْمَنِيرِ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ ﷻ ، مَا أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يُقَالُ لَهُ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ أَخَذَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخْلَاقَهُمْ ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ : رَضِيتُ رَبِّي فَيَقُولُ : هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ ، وَلَكَ مَا اشْتَهَيْتَ نَفْسَكَ وَلَذْتَ عَيْنَكَ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّي قَالَ : رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتَ ، غُرِسَتْ كَرَامَتُهُمْ بِيَدِي وَخُصِمَتْ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنَ وَلَمْ تَسْمَعْ أَذْنَ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ . قَالَ : وَمَصْدَقُهُ مِنْ كِتَابِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣١/٥) والترمذي في الترغيب والترهيب (٥١٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (٩٠/٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١٦٦) وأحمد في مسنده (٢٥٧/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في (الجنة) (٢١) أحمد في مسنده (٣٦٩/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٤/٥) .

اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ قَسَمٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية (١). وعن ابن عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال : « يُؤْتَى بِحَسَنَاتِ الْعَبْدِ وَسَيِّئَاتِهِ يُقَاسُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ بَقِيََتْ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ وَشِعْءٌ لِلَّهِ لَهُ فِي الْجَنَّةِ » قال : فدخلت على يرداد فحدثت بمثل هذا الحديث . قال : قتلته فأين ذهب الحسنة قال : ﴿ أَوَلَمْ تَكُنْ أَلَّا تَنْقَلِبْ عَنْهُمْ لَتَمَنَّ مَا يَفْعَلُونَ وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الآية . قلت : قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ قَسَمٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ قال العبد يعمل سرًا أسره إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة قرّة أعين (٢) .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ ١ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ النَّارَيْنِ تَرَىٰ مِنْهَا كَأَنَّهُمْ يُدْخِلُونَ ٢ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمْ النَّارُ كَمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُرُّوا عَذَابَ النَّارِ أَلَيْسَ أَلَدَىٰ كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ٣ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ ذُرِّيَّتُهُ ثُمَّ وَكُنْتُ بِتَوْبِهِ قَرِينًا ٥ وَإِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ لَشَائِعُونَ ٦ .

يخبر تعالى عن عذله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنًا بآياته متبعًا لرسوله بمن كان فاسقًا أي خارجًا عن طاعة ربه مكذبًا لرسول الله إليه . كما قال تعالى : ﴿ لَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ابْتَعَرُوا الشَّيَاطِينَ أَن يَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً عِندَ رَبِّكَ مَا يَكْفُرُونَ ﴾ . ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ . أي : عند الله يوم القيامة ، وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط ، ولهذا فصل حكمهم فقال : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : صلدت قلوبهم بآيات الله ، وعملوا بمقتضاها وهي : الصالحات ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ النَّارَيْنِ ﴾ أي : التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ تَرَىٰ مِنْهَا كَأَنَّهُمْ يُدْخِلُونَ كِرَامًا ﴾ أي : ضيافة وكرامة ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أي : خرجوا عن الطاعة ﴿ فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كَمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ كقوله : ﴿ كَمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا يَنصَرِفُونَ ﴾ الآية . قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموتقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة ترفعهم . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُرُّوا عَذَابَ النَّارِ أَلَيْسَ أَلَدَىٰ كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريبًا وتوبيخًا . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ . قال ابن عباس : يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأقسامها وأفاتها وما يحل بأهلها مما يتلى الله به من عبادته ليتوبوا إليه ، وقال في رواية عنه : يعني به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب : يعني به عذاب القبر ، وعن عبد الله ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قال : سنون أصابهم . وقال أبي بن كعب في هذه الآية : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ . قال : القمر والدخان قد مضيا والبطشة والزام (٣) . وقال عبد الله بن مسعود في رواية عنه : العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر ، قال السدي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرما ومنهم من جمع له الأمران . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ ذُرِّيَّتُهُ ثُمَّ وَكُنْتُ بِتَوْبِهِ قَرِينًا ٥ ﴾

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٧/٢١) .

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣١٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٨/٥) .

عَنْهَا ﴿ أَي : لا أظلم من ذكره الله بآياته وبينها له ووضوحها ، ثم بعد ذلك تركها وجدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها . قال قتادة : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة ، وأعوز أشد العوز وعظم من أعظم الذنوب . ولهذا قال تعالى متهددا لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنْ آتِمِّينَ شَقِيقُونَ ﴾ أي : سأنقم من فعل ذلك أشد الانقام .

﴿ وَلَقَدْ مَلَأْنَا مَوْئِيَّ الْكِتَابِ فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِنْ لِقَائِهِ . وَصَلَّيْنَاهُ هَذِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْنُ بِمَنْزِلِهِ ﴾ أي : لقد مملأنا كتابنا من ذكره وأمرنا أن نتبعه ، فلا تكن في ريب من لقائه . وصلى الله عليه وسلم في إلهامه إسماعيل عليه السلام ، وصلى الله عليه وسلم في إلهامه إسماعيل عليه السلام ، وصلى الله عليه وسلم في إلهامه إسماعيل عليه السلام .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى عليه السلام : ﴿ أَنَّهُ آتَاهُ الْكِتَابَ ۚ وَهُوَ التَّوْرَةُ . وقوله تعالى ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ قال قتادة : يعني به ليلة الإسراء . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَرَبُّ لَيْلَةٍ أَشْرَى بِِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ رَجُلًا آدَمَ طَوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَتْوَةٍ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْخَمْرَةِ وَالتَّبْيَاضِ سَبْطُ الرَّأْسِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالْجُحَامِ » (١) ؟ أي آيات أراه الله إياه ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به .

وعن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَصَلَّيْنَاهُ هَذِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْنُ بِمَنْزِلِهِ ﴾ قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل . وفي قوله : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ قال : من لقاء موسى ربه صلى الله عليه وسلم . وقال تعالى : ﴿ وَصَلَّيْنَاهُ ﴾ أي : الكتاب الذي آتينا به ﴿ هَذِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْنُ بِمَنْزِلِهِ ﴾ قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَمَلَأْنَا مَوْئِيَّ الْكِتَابِ وَصَلَّيْنَاهُ هَذِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْنُ بِمَنْزِلِهِ ﴾ أي : لم نملأنا كتابنا من ذكره إلا تنبيها من دون وصيكا . وقوله تعالى : ﴿ وَصَلَّيْنَاهُ هَذِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْنُ بِمَنْزِلِهِ ﴾ أي : لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجه وتصديق رسله كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحا ولا اعتقادا صحيحا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَلَأْنَا مَوْئِيَّ الْكِتَابِ ﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح قال سفيان : هكلنا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماما يقتدى به حتى يتحمى عن الدنيا ، قال وكيع قال سفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز . وسئل سفيان عن قول علي عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَصَلَّيْنَاهُ هَذِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْنُ بِمَنْزِلِهِ ﴾ . قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسا . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تال الإمامة في الدين . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَلَأْنَا مَوْئِيَّ الْكِتَابِ ﴾ أي : لم نملأنا كتابنا من ذكره إلا تنبيها من دون وصيكا . وقال تعالى : ﴿ وَمَلَأْنَا مَوْئِيَّ الْكِتَابِ ﴾ أي : لم نملأنا كتابنا من ذكره إلا تنبيها من دون وصيكا . وقال تعالى : ﴿ وَمَلَأْنَا مَوْئِيَّ الْكِتَابِ ﴾ أي : لم نملأنا كتابنا من ذكره إلا تنبيها من دون وصيكا .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَنْتَ إِذَا يَسْمَعُونَ ﴾
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَخَّرْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ .

يقول تعالى : أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبليهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم لإياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ؟ هل تحس يمتهم من آخر أو سمع لهم وكذا ؟ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ ﴾ أي : وهؤلاء المكذبين يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها ؟ كان لهم ينزلوا فيها ؟ كما قال : ﴿ فَنَالَتْ يَوْمَهُمْ خَاوِيَةٌ يَأْسُ طَلَمُوا ﴾ وقال : ﴿ فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَعْرِى عُمَلَكُوهَا وَنَصْبِي مُشِيدٌ - إلى قوله - وَلَكِنْ تَتَّبِعُونَ آلَهُ فِي السُّبْحِ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبرا ومواعظ ودلائل متناظرة . ﴿ أَوَلَمْ يَسْمَعُوا ﴾ أي : أخبار من تقدم كيف كان أمرهم . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَخَّرْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ ﴾ بين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء ، إما من السماء ، أو من السبح وهو ما تحمله الأنهار ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ ﴾ وهي التي لا نبات فيها . كما قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ لَنَا صَبِيحًا جُرَيْرًا ﴾ أي : يسألا لا تنبت شيئا ، وليس المراد من قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود . وإن مثل بها كثير من المفسرين ، فليست هي المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء مالو نزل عليها مطرا لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحملة من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء وذلك الطين أيضا لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد مطبور في غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبدا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَخَّرْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْنَ فِي عُلُوِّهِمْ أَكَا مَسَّيْنَا إِلَهُ صَبَا ﴾ الآية . ولهذا قال ها هنا : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ ﴾ قال : هي التي لا تمطر إلا مطرا لا يغيي عنها شيئا إلا ما يأتيها من السيول ، وعن ابن عباس ومجاهد : هي أرض باليمن ، وقال الحسن بن علي : هي قرى فيما بين اليمن والشام : وقال عكرمة : وابن زيد : الأرض الجرز التي لا نبات فيها وهي مغبرة ، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَبَاقِيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ النَّبَتُ أَخْضَرُهَا ﴾ الآية . ﴿ وَيُؤْتُونَكَ مِنْ هَذَا الْقَتَنِ إِذْ حُكِّنْتُمْ مَكِيدِينَ ﴾ قل يوم القتج لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ سَخَطُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن استعجال الكفار ، ووقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم استبعادا وتكديبا وعنادا : ﴿ وَيُؤْتُونَكَ مِنْ هَذَا الْقَتَنِ ﴾ أي : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما نزع أن لك وقتا تدال علينا ويتنقم لك منا فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين

سورة الأحزاب

عن زر قال : قال لي أبي بن كعب : كآين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كآين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية ، فقال : قط ، لقد رأيتها وأنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُفْلِحُوا الْكَافِرِينَ إِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ حَسْرَةً ﴾ ١ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلا يأمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْلِحُوا الْكَافِرِينَ إِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ حَسْرَةً ﴾ أي : لا تسمع منهم ولا تستشروهم ﴿ إِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ حَسْرَةً ﴾ أي : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ مَا يُؤْتِيكُمُ الْإِلَهِ مِنْ نِعْمَةٍ ﴾ أي : من قرآن وسنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَسْمَعُونَ حَسْرَةً ﴾ . أي : فلا تخفى عليه خافية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : في جميع أمورك وأحوالك ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي : وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأتاب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِنَ الْقَبِيلِ فِي جُوفِهِمْ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْفِي تَطْهَرُونَ مِنْهُمْ أَنْتَهُمْ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَنْتَهُمْ دَلِيلَكُمْ قَوْلَكُمْ وَأَفْوَاحَكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ ٢ ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَسْمَاءَهُمْ فَلْيُدْعَوْكُمْ فِي الْإِيمَانِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْلَقْتَهُمْ وَلَكِنْ مَّا تَمَسَّكَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى موطئا قبل المقصود المعنوي أمرا معروفا حسيا ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصوير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت علي كظهر أمي إنما له ، كذلك لا يصير الدرعي ولدا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنا له فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِنَ الْقَبِيلِ فِي جُوفِهِمْ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْفِي تَطْهَرُونَ مِنْهُمْ أَنْتَهُمْ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَنْتَهُمْ دَلِيلَكُمْ قَوْلَكُمْ وَأَفْوَاحَكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ ٢ ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَسْمَاءَهُمْ فَلْيُدْعَوْكُمْ فِي الْإِيمَانِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْلَقْتَهُمْ وَلَكِنْ مَّا تَمَسَّكَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِنَ الْقَبِيلِ فِي جُوفِهِمْ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْفِي تَطْهَرُونَ مِنْهُمْ أَنْتَهُمْ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَنْتَهُمْ دَلِيلَكُمْ قَوْلَكُمْ وَأَفْوَاحَكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ ٢ ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَسْمَاءَهُمْ فَلْيُدْعَوْكُمْ فِي الْإِيمَانِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْلَقْتَهُمْ وَلَكِنْ مَّا تَمَسَّكَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

كان النبي ﷺ ، قبل النبوة ، فكان يقال : له زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ تِلْكَ أَرْوَاحُكُمْ وَأَفْوَاحُكُمْ ﴾ يعني : تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنا حقيقيا ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر . فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان . ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٧/٥) .

وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ . قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ الْحَقُّ ﴾ أي : العدل ، وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أي : الصراط المستقيم ، وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : ذو القليلين ، وأنه كان يزعم أن له قلابين كل منهما بعقل وافر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردًا عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وعن قابوس بن أبي ظبيان قال : إن أباه حدثه قال : قلت لابن عباس : رأيت قول الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلَيْنِ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ما عني بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلابين ؟ قلاباً معكم وقلاباً معهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلَيْنِ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ^(١) . وعن معمر الزهري في قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلَيْنِ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل : يقول ليس ابن رجل آخر ابنك .

وقوله ﷺ : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأديعاء ، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر .

وعن عبد الله بن عمر قال : إن زيد بن حارثة ﷺ مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ^(٢) . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالهارم وغير ذلك . ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة ؓ : يا رسول الله كنا ندعو سالمًا ابنًا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل علي ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً ، فقال ﷺ : « أَوْضِعِيهِ تَحْرِمِي عَلَيْهِ » ^(٣) ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش ، مطلقة زيد بن حارثة ﷺ ، وقال ﷺ : ﴿ لَيْسَ لَكَ بِكَوْنٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا بِهِمْ ذَمًّا وَمَعْرَافًا ﴾ . وقال تبارك وتعالى في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ ﴾ احترازًا عن زوجة الدعي ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة فمنزول منزلة ابن الصلب شرعًا بقوله ﷺ في الصحيحين : « حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ الشَّهْبِ » ^(٤) . فأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبب فليس مما نهى عنه في هذه الآية بدليل ما رواه ابن عباس ؓ قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغليمة بني عبد المطلب على جمرات لنا من جمع ، فنجعل يبلطخ أفخاذنا ويقول : « ابْنَتِي لَا تَزُومُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ » ^(٥) . قال أبو عبيدة وغيره : أنتهي تصغير ابني وهذا ظاهر الدلالة . فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر .

وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ ﴾ في شأن زيد بن حارثة ﷺ ، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٧/١) والترمذي في مسنده (٣١٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٦٢) والترمذي في مسنده (٣٢٠٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع (٢٧ ، ٢٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٠١/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥١١١) ومسلم في الرضاع (٥) والإمام أحمد في مسنده (٧٢/٦) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٢/١) وابن ماجه في مسنده (٣٠٢٥) .

وأيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا بَنِيَّ » ^(١) ، وقوله ﷺ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلْيَرْحَمُوا فِي الْإِيمَانِ وَمَوَالِيَهُمْ ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأعداء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضاً عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء ، وتبعهم ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي : يا عم ، يا عم ، فأخذها علي رضي الله عنه وقال لفاطمة رضي الله عنها : دونك ابنة عمك ، فاحتلمها فاحتصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنه في أبهم يكفلها فكل أدلى بحجة . فقال علي رضي الله عنه : أنا أحق بها وهي ابنة عمي ، وقال زيد : ابنة أخي ، وقال جعفر بن أبي طالب : ابنة عمي وخالتها تحتي ، يعني أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها ، وقال : « الْحَالَةُ بِمَثَلَةِ الْأُمِّ » وقال لملي رضي الله عنه : « أَنْتَ وَمِثِّي وَأَنَا وَمِثْلُكَ » ، وقال لجعفر رضي الله عنه : « أَشْهَبَتْ خَلْقِي وَخُلُقِي » . وقال لزيد رضي الله عنه : « أَنْتَ أَخُوْنَا وَمَوْلَانَا » ^(٢) . ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه ﷺ ، حكم بالحق وأرضى كلًّا من المتنازعين وقال لزيد رضي الله عنه : « أَنْتَ أَخُوْنَا وَمَوْلَانَا » ، كما قال تعالى : ﴿ فَلْيَرْحَمُوا فِي الْإِيمَانِ وَمَوَالِيَهُمْ ﴾ . وقد جاء في الحديث « لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يُعْلِمُهُ إِلَّا كَفَرَ » ^(٣) . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَتَرْفِئُونَ لِأَسْبَاطِهِمْ حُوطًا لِمَآءٍ أَنفُسِهِمْ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلْيَرْحَمُوا فِي الْإِيمَانِ وَمَوَالِيَهُمْ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ دِيمًا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ . إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع . فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى أمراً عباده أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَايِدُنَا إِنْ كُنَّا بِآثِمِينَ كَمَا كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ . وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : قَدْ قُلْتُ » ^(٤) وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » ^(٥) وفي الحديث الآخر : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنَّا أَيْمُنِي : الْخَطَأَ وَالشَّيْئَانَ وَالْأَمْرَ الَّذِي يَكْرَهُونَ عَلَيْهِ » ^(٦) . وقال تبارك وتعالى ها هنا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ دِيمًا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَسَدَّدْتُمْ وَلَكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا رَحِيمًا ﴾ أي : وإنما الإثم على من تعدد الباطل ، وفي القرآن المنسوخ : فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آباءكم . وفي الحديث : « ثَلَاثٌ فِي النَّاسِ تُحْفَرُ : الطُّغْيَانُ فِي النَّسَبِ ، وَالْبَيَاضَةُ عَلَى الْمَيْتِ ، وَالْإِسْتِشْقَاءُ بِالشُّجُومِ » ^(٧) .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمُؤْمِنِينَ وَبِآلِهِمْ وَلَزَجِدُوا فِيهِمْ أَبَوَاءً أَوْ إِخْوَانًا أَوْ عَشِيرَةً أَوْ حِزْبًا ﴾ في كتاب الله من المؤمنين والمؤمنين ، إلا أن تعلموا أن أوليائكم مقرباً كانت ذلك في الكتاب مستوراً .

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته وتصبحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ،

(١) أخرجه مسلم في الآداب (٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٩) والإمام أحمد في مسنده (١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠) والترمذي في سننه (٣٧١٦ ، ٣٧٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في اللقاب (٣٥٠٨) ومسلم في الإيمان (١١٢) والإمام أحمد في مسنده (١٦٦/٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٠) .

(٥) أخرجه البخاري في الإحصاء (٧٣٥٢) ومسلم في الأضحية (١٥) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٦) والبيهقي في السنن (٣٥٦/٧) والحاكم في المستدرک (١٩٨/٢) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٢/٥) .

وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُوكَ حَتَّىٰ يُحْكِمَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . وفي الصحيح : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَوَالِدِهِ وَنَفْسِهِ وَأَجْمَعِينَ » ^(١) . وفي الصحيح أيضاً : أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَأْخُذُكَ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » فقال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الْآنَ يَا عُمَرُ » ^(٢) . ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿ النَّبِيُّ أَوْكَرَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ . وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَفَرَأَوْا إِنْ شِئْتُمْ ﴾ النَّبِيُّ أَوْكَرَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَا لَا فَلَئِنَّهُ غَضَبُهُ مِنْ كَانُوا ، وَإِنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ حَتِيحًا فَلْيَأْتِنِي فَلَأَنَا مَوْلَاهُ » ^(٣) ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْزُقْنَاهُ أَتْلُفْنَاهُمْ ﴾ أي : في الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام والعظام ، ولكن لا يجوز الخلوة بهن ولا يتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وإن سمي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين . كما هو منصوص الشافعي رحمته الله في المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم ، وهل يقال لمعاوية وأمثلة خال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء رحمهم الله ونص الشافعي رحمته الله على أنه لا يقال ذلك ، وهل لهن أمهات المؤمنات ، وهل يقال له صلى الله عليه وسلم : أبو المؤمنين ، فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليظاً ؟ فيه قولان ، صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لا يقال ذلك ، وهذا أصبح الوجهين في مذهب الشافعي رحمته الله . وقد روي عن أبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهما قرأ (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) . وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن ، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي رحمته الله . واستأنسوا عليه بالحدث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ ، أَعْلَمُكُمْ ، فَوَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ الْغَائِقُ فَلَا يَسْتَقْبِلُ الْقَبِيلَةَ وَلَا يَسْتَدِيرُهَا وَلَا يَسْتَطْبِعُ بَيْعَتَهُ ، وَكَانَ يَأْمُرُ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ وَيَنْهَى عَنِ الرُّوثِ وَالرِّمَةِ » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بِشَتْمِهِمْ أَوْكَرَ يَبْتَغِي فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : في حكم الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين والمؤمنين رحمهم الله أي : القرباب أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلوف والمواخاة التي كانت بينهم . كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قربائه وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : أنزل الله تعالى علينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بِشَتْمِهِمْ أَوْكَرَ يَبْتَغِي ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ، ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في الإيمان (٦٩) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣٥٣/٦ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨١) والإمام أحمد في مسنده (٣٣٤/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٨) .

والريح تسفي كل شيء ، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ قال : فما يلوي أحد منهم عنقه ، قال : وكان معي ترس لي ، فكانت الريح تضربه علي ، وكان فيه حديد قال : فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي ، فأبعدتها إلى الأرض ^(١) .

وقوله : ﴿ وَحِذُّوكُم مِّنْ رَّيْبِكُمْ ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف . فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إلي ، فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء ، لما ألقى الله ﷻ في قلوبهم من الرعب .

وقال محمد بن كعب القرظي : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان ﷺ : يا أبا عبد الله رأيت رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخي قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد ، قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة ﷺ : يا ابن أخي والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالهندق وصلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل ثم التفت فقال : « مَن رَّجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ؟ - يشترط له النبي ﷺ أن يرجع - أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . قال : فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَن يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ، - يشترط له رسول الله الرجعة - أَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَيْبِي فِي الْجَنَّةِ » ، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يبق أحد دعاني رسول الله ﷺ ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال ﷺ : « يَا حَذِيفَةُ أَذْهَبْ فَأَدْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانظُرْ مَا يَفْعَلُونَ وَلَا تُحَدِّثْ شَيْئاً حَتَّى يَأْتِيَنَا » قال : فذهبت فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله ﷻ تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قراوا ولا نارا ولا بناء فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جلسه . قال حذيفة ﷺ : فأخذت بيد الرجل الذي إلي جنبي فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أن لا أحدث شيئا حتى تأتيني لو شئت لقتلته بسهم ، قال حذيفة ﷺ : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل ، فلما رأيته أدخلني بين رجله وطرح علي طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم ^(٢) .

وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان ﷺ فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت ، فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة

(٢) سيرة ابن هشام (٢٤٧/٣ - ٢٤٤) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥٣/٢١) .

الأحزاب ، في ليلة ذات ريح شديدة وقر ، فقال رسول الله ﷺ : « أَلَا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَيْرٍ الْقَوْمِ يَكُونُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله ثم قال ﷺ : « يَا حَذِيقَةُ قُمْ فَأَيُّمَا بِخَيْرٍ مِنَ الْقَوْمِ » فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : « انتهي بخير القوم وَلَا تُذْعِرُوهُمْ عَلَيَّ » . قال : فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالثر ، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : « لَا تُذْعِرُوهُمْ عَلَيَّ » ولو رميته لأصعبته قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت ، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قُمْ يَا نَوَافُ » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ أي : الأحزاب ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ تقدم عن حذيفة أنهم بنو قريظة ﴿ وَبِذَاقِ الْكَاسِ وَالْبَقِيعِ وَالْقَلْهَطِ الْحَسْبُ ﴾ . أي : من شدة الخوف والفرع ﴿ وَنُظِّلُوا بِأَسْفَلِ الْقُلُوبِ ﴾ قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك . وقال محمد بن إسحاق : ظن المؤمنون كل ظن ونجم التفاق حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقبصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط ، وقال الحسن في قوله ﷺ : ﴿ وَنُظِّلُوا بِأَسْفَلِ الْقُلُوبِ ﴾ ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وعن أبي سعيد : قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله : هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر . قال ﷺ : « نَعَمْ ، قُولُوا : اللَّهُمَّ اشْرُ عَزَّوَجَلَّتَا ، وَأَمْرٌ زَوْجَاتِنَا » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح ^(٢) .

﴿ هُنَالِكَ أَتَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَزْلَوْا وَقَالُوا شَيْئاً ﴾ ^(٣) وإذ يقول المشركون ، الذي ذكره قلوبهم من ما وعدنا الله ورسوله . إلا عَزَّوَجَلَّتَا وإذ قالت طائفة منهم يتأذل بأمر لا أمام لهم فارتجفوا واستخفوا وبق منهم الذين يقولون إن هِيَوَاتِنَا عِزٌّ وَمَا هِيَ بِعِزٍّ لَنَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا فِرَارٌ .

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غابة الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم اجتلوا واختبروا وزلزلوا زلزلاً شديداً . فحينئذ ظهر التفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمَشْغُوفُونَ بِالْأَيْمَانِ فَبِأَنفُسِهِمْ مَرْشٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أما المنافق فنجم نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حسكة ضعف حاله فتفلس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْتِلُ الْغَيْبُ ﴾ يعني : للمدينة كما جاء في الصحيح : « أُرِيبَتْ فِي التَّامِّ دَارٍ هِجَرَتُكُمْ أَرْضَ بَيْنَ حَوْثَيْنِ ، فَذَهَبَ وَعَلَيَّ أَنَّهَا هِجَرٌ فَإِذَا هِيَ يَثْرِبُ » ^(٤) . وفي لفظ : المدينة ، ويقال : إنما كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق

(١) أخرجه مسلم في المجلد (٩٩) والبيهقي في سننه (١٤٨/٩) . (٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأضرار (٥٤) والإمام أحمد في مسنده (١٩٨/٦) .

أي : استقبلوكم ، وقال قتادة : أما عند الغنمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق ، وهم مع ذلك أشح على الخير أي : ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر :

أَفِي السِّلْمِ أَغْيَاثُ جَفَاءَ وَغِلْظَةُ وَفِي الْحَرْبِ أَغْنَالُ النَّسَاءِ الْعَوَارِكِ

أي في حال المسالمة كأنهم الحمر ، والأعيار جمع عير وهو الحمار ، وفي الحرب كأنهم النساء الحيض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَا يُمِشُّوا فَلَاحِظَ اللَّهِ ائْتِكُمْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَبِيراً ﴾ أي سهلاً هيناً عنده . ﴿ يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَتَنَبَّهُونَ عَنْ أَهْلِيهِمْ وَكَؤُودُكُمْ فَكُلُّوهُمْ أَوْ لَا فُلْكَ ﴾ .

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف ﴿ يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ بل هم قريب منهم وإن لهم عردة إليهم ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَتَنَبَّهُونَ عَنْ أَهْلِيهِمْ ﴾ أي : ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة ، بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ وَكَؤُودُكُمْ فَكُلُّوهُمْ أَوْ لَا فُلْكَ ﴾ أي : ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله أعلم بالعالم بهم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَكَرِهَ اللَّهُ كِبَرًا ﴾ ولما رآنا المؤمنين الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا ابتلاءً وعلماً .

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسى برسول الله ﷺ ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه ﷻ ، ولهذا قال تعالى للذين تغفلوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَكَرِهَ اللَّهُ كِبَرًا ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة . فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَالْآخِرَةُ ﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعنون قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْبَيْتَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَتَّبِعِيهِمْ أُخْرَجُوا وَنَجَّوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَجَوْا بَعْدَ ذَلِكَ أَلَا إِنَّ نَجْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ أي : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم كما قال جمهور الأمة : إنه يزيد وينقص ، ومعنى قوله جلّت عظمتهم : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أي : ذلك الحال والضييق والشدة ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ بالله ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أي انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ .

﴿ يَنْ أَلْمُؤْمِنِينَ يَدْعُوا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنَ قَضَىٰ حَيْثُ مَنَ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ يجزي الله الصديقين ويمدحهم ويؤدب المنافقين إن شك أو وثب عليهم إن الله كان غفولاً رحيماً .

لما ذكر ﷻ عن المنافقين أنهم تقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأعداء ، وصف

المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿ سَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْتَهُمْ مَن قَضَىٰ صَبْرُهُ ﴾ قال بعضهم : أجله وقال البخاري : عهده وهو يرجع إلى الأول ﴿ وَبَيْنَهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ أي : وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه ^(١) ، وروي عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزينة بن ثابت الأنصاري ﷺ الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿ يَنَ الْتَوَيْنَ يَبَالُ سَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ^(٢) . وقال أنس بن مالك ﷺ نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر ﷺ ﴿ يَنَ الْتَوَيْنَ يَبَالُ سَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ الآية ^(٣) .

قال أنس : عني أنس بن النضر ﷺ سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله تعالى مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ﷻ ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد . فاستقبل سعد بن معاذ ﷺ فقال له أنس ﷺ : يا أبا عمرو أين واثما لريح الجنة إني أجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل ﷺ . قال : فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا بيناته . قال فنزلت هذه الآية : ﴿ يَنَ الْتَوَيْنَ يَبَالُ سَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْتَهُمْ مَن قَضَىٰ صَبْرُهُ وَبَيْنَهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه ﷺ ^(٤) . قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَيَنْتَهُمْ مَن قَضَىٰ صَبْرُهُ ﴾ : يعني : عهده ﴿ وَبَيْنَهُمْ مَن يَنْتَظِرُ ﴾ قال : يومًا فيه القتال فيصدق في اللقاء . وقال الحسن ﴿ فَيَنْتَهُمْ مَن قَضَىٰ صَبْرُهُ ﴾ يعني موته على الصدق والوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبدلًا . وقال بعضهم : تحبه ندره .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ أي : وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ يُوَدُّنَا مَوَدَّةً وَمَا مِنَّ يَمُودُنَ إِن تُرِيدُنَا إِلَّا فِرَارًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَاذَبُوا عَهْدَهُمْ إِذْ يُبَايِعُ لِمَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : إما يختبر عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم . كما قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُمْ حَتَّى تَمُوتَ الْمُجْرِمِينَ سَنًا وَالصَّادِقِينَ وَبَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ . فهذا علم بالشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده ، ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أي : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظةهم عليه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم ، بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل

(١) ذكره البخاري في صحيحه (تفسير القرآن) في تفسير سورة الأحزاب باب ٣ ﴿ فَيَنْتَهُمْ مَن قَضَىٰ صَبْرُهُ وَبَيْنَهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٤) وهرملي في سننه (٣١٠٤) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٨) والإمام أحمد في مسنده (١٩٣/٤) .

الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوْتًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد ، ولكن قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا اللَّهُ يَمْزِجُهُمْ فِيَّكُمْ ﴾ فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أغلاط من قبائل شتى أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغضهم وحنفهم ، ولم ينالوا خيراً لا في الدنيا بما كان في أنفسهم من الظفر والمنعم ، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعدواة ومحهم بقتله واستتصال جيشه ، ومن هم بشيء وصدق هم بفعله ، فهو في الحقيقة كفاحه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أي : لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ؛ بل كفى الله وحده ونصر عبده وأعز جنده . ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « لا إله إلا الله وخُذْهُ ، صِدْقٌ وَعِدَةٌ ، وَنَصْرٌ عِندَهُ ، وَأَعَزُّ جُنْدُهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابُ وَخُذْهُ ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ » ^(١) وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللَّهُمَّ فَتْرَ الْكِتَابِ ، سَرِيعَ الْحِسَابِ ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْنَاهُمْ وَزَلِّلْنَاهُمْ » ^(٢) . وفي قوله ﷺ : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها لم يهزمهم المشركون . بل غزاهم المسلمون في بلادهم . عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « الْآنَ نَقُزُّهُمْ وَلَا تَقْزُونَا » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ فَوْتًا عَظِيمًا ﴾ أي : بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَغَاوُوا أَفَكَيْتُمْ أَفَعَسَاؤُكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ ^(٤) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْفِئْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى سَمْعٍ عَظِيمًا .

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة تقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري - لعنه الله - دخل حصنهم ولم يزل يسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال : ويحك قد جئتكم بمر الدهر ، أتيتك بقريش وأحايشها وغطفان وأباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه . فقال له كعب : بل والله أتيتني بذل الدهر . ويحك يا حيي إنك مشؤوم فلم يزل يفتل في الدروة والغراب حتى أجابه ، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن فيكون له أسوتهم ، فلما تقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٦٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/٢ ، ٣٤١ ، ٤٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٣٣) ومسلم في الجهاد (٢٠ - ٢٢) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٣/٤ ، ٣٥٥) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٠) والإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/٤) .

وشق عليه وعلى المسلمين جدًا ، فلما أيده الله تعالى ونصره وكيت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيدًا منصورًا ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله ﷺ يتنسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة ﷺ إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجزًا بعمامة من استبرق على بقة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم » قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعي من طلب القوم . ثم قال : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة .

وفي رواية فقال له : عذرك من مقاتل أوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » قال : لكننا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء . قال ﷺ : « أئز ؟ » قال : بني قريظة ، فإن الله تعالى أمرني أن أنزلهم عليهم ، فنهض رسول الله ﷺ من فوره وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر . وقال ﷺ : « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَيْتِي قُرَيْظَةَ » ^(١) . فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصلها إلا في بني قريظة فلم يعنف واحدًا من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ؓ وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب ؓ . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصره خمسًا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ؓ ، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسب إليهم في ذلك كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواله بني قينقاع حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعدًا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك . ولم يعلموا أن سعدًا ؓ كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد ؓ فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ، ولا تمتني حتى تفر عيني من بني قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبًا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهز راكب على جمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرققونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال ﷺ : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « قُومُوا إِلَيَّ سَيِّدُكُمْ » فقام إليه المسلمون فأنزلوه إعظامًا وإكرامًا واحترامًا له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إِنَّ هَؤُلَاءِ - وأشار إليهم - قَدْ نَزَّلُوا عَلَيَّ حُكْمَكَ فَأَحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ » . فقال ﷺ : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال ﷺ : « نعم » قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » قال : وعلى من ها هنا وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ ، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكرامًا وإعظامًا ، فقال له رسول الله ﷺ :

(١) أخرجه البخاري بحدوده في المنهازي (٤١١٧) ، (٤/١٩) .

«تَعْمَ» فقال ﷺ: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذريتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَوْيِ سَبَبَةِ أَرْقَمَةَ». ثم أمر رسول الله ﷺ بالأحاديث فحدثت في الأرض. ووجيء بهم مكثفين فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمئة إلى الثمانمئة، ومسي من لم يثبت منهم مع النساء وأموالهم^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ﴾ أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿فَبَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل أبائهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا حَقَرُوهُ﴾ فعليلهم لعنة الله.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني حصونهم. ومنه سمي صياصي البقر، وهي قرونها، لأنها أعلى شيء فيها ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو: الخوف لأنهم كانوا مالووا المشركين على حرب النبي ﷺ، وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوهم في الدنيا فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم القتال، انشمر المشركون، ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا وأرادوا استئصال المسلمين فاستوصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الحاسرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَرِيبًا قَتَلْتُمُوهُمْ وَيَتْرَكُ قَرِيبًا﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الأصاغر والنساء، عن عطية القرظي قال: عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكروا فبي فأمر النبي ﷺ أن ينظروا هل أنبت بعد فنظروني فلم يجدوني أنبت، فخلى عني وأخفني بالسبي^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمُ الْأَمْثَالَ وَبَيَّرَكُمُ وَأَوْرَثَكُمُ أَيَّ جَعَلَهَا لَكُمْ مِنْ قَتْلِكُمْ لَهُمْ﴾ وَأَوْرَثَكُمْ تَقْوِيًّا قيل: خير، وقيل مكة. وقيل: فارس والروم، وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الْبَقِيَّةَ كُلَّ بَدْرٍ﴾ إن كُنْتُمْ تُدْرِكُونَ الْبَيْتَ الذِّيْنَ وَزِينَتَهَا فَتَأْتُوا بِنِجْمَةٍ وَأَنْتُمْ كَرِيمُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُدْرِكُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَلَا تَذَكَّرُونَ فَالْآخِرَةُ لَإِنَّ اللَّهَ أَنْتَ لِلْمُتَحَيِّتِينَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخبر نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: إن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخبر أزواجه قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَثَرًا فَلَا غَلِيظَ لَكَ لَا تَشْتَقِي حَتَّى تَحْتَابِرِي أَبَوَيْكَ» وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفرقه، قالت: ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ الْبَقِيَّةَ كُلَّ بَدْرٍ﴾ إِلَى تَمَامِ الْبَقِيَّةِ فَقُلْتُ لَهُ: فَبِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمَرُ أَبَوِي؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ^(٣). وعن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها فذكره

(١) النظر السيرة النبوية لابن كثير (٢٢٣/٣ - ٢٢٤) وسيرة ابن هشام (٢٤٤ - ٢٥٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٣/٤)، (٣١١/٥) وأخرج أبو طهود نحوه في سننه (٤٤٠٠).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٥).

منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش .

﴿ يَكُنَّ اللَّيْلُ لِنِسَاءٍ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا تَحْضَعْنَ قُلُوبَكُمْ وَلَا تَقْنَطْنَ فِي سُبُوتِكُمْ وَلَا تَنَزَّجْنَ تَبَاجُؤَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقْسَنَ الضَّالَّاتِ وَمَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا يُرِيدَ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ تَزْوَاجَكُمْ ۚ وَأَذْكَرُونَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾ .

هذه آداب أمر تعالى بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهن في ذلك فقال تعالى مخاطباتاً لنساء النبي ﷺ ، بأنهن إذا اتقين الله ﷻ كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء . ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة . ثم قال تعالى : ﴿ فَلَا تَقْنَطْنَ قُلُوبَكُمْ ﴾ قال السدي وغيره : يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَيُطْلَعُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ نِسَاءٍ ﴾ دخل ﴿ وَفَلَنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ قال ابن زيد : قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير ، ومعنى هذا أنها تتخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيخ أي : لا تتخاطب المرأة الأجانب كما تتخاطب زوجها . وقوله تعالى : ﴿ وَفَلَنَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ أي : الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ : « لَا تَخْتَفُوا إِتَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ ، وَلِيُخْرِجَنَّ مِنْكُمْ قِبَلَاتُكُمْ » (١) . وفي رواية : « وَيُؤَيِّدَنَّ خَيْرَ لَهْفٍ » (٢) . وعن أنس رضي الله عنه قال : جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والمجاهد في سبيل الله تعالى ، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَعَدَتْ - أو كلمة نحوها - يُكْرَمُ فِي بَيْتِهَا فَلْيُنْهَا تَدْرُكُ عَمَلُ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى » (٣) .

وعن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ وَأَقْرَبُ مَا تُكُونُ بِرُوحَةٍ رَّبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا » (٤) وعن النبي ﷺ : « صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي مَنْحَدِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا وَصَلَاتُهَا فِي بَيْتِهَا ، أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا » (٥) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَزَّجْنَ تَبَاجُؤَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : ﴿ وَلَا تَنَزَّجْنَ تَبَاجُؤَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ يقول إذا خرجن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتفتخ ففهي الله تعالى عن ذلك ، وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وَلَا تَنَزَّجْنَ تَبَاجُؤَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ والتبرج أنها تلقي الحمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : تلا هذه الآية : ﴿ وَلَا تَنَزَّجْنَ تَبَاجُؤَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ قال : كانت فيما بين نوح وإدريس

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٠) ومسلم في الصلاة (١٣٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٣) وأبو داود في سننه (١٥٥/١) .

(٣) أورده السيوطي في الدرر (١٩٧/٥) .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١١٢٣) وابن جرير في صحيحه (١٦٨٥) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (١٥٧/١) والترمذي في سننه (١٦٩٠) .

وكانت ألف سنة . وإن بطين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان رجال الجبل صباحا وفي النساء دمامة . وكان نساء السهل صباحا وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس لعنه الله أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام فأجر نفسه منه فكان يخدمه . فاتخذ إبليس شيئا من مثل الذي يمر فيه الرعاء فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حوله فأتواهم يسمعون إليه ، واتخذوا عهدا يجمعون إليه في السنة فيتبرج النساء للرجال . قال : ويترين الرجال لهم وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك ، فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فحولوا إليهن فنزلوا معهن ، وظهرت الفاحشة فيهن فهو قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الَّذِينَ الْأُولَى ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ رَأَيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَمْرُؤَاتٍ الْمَكَاتِ وَالزَّكَاةَ وَالْيَمِينَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ﴾ نهاهن أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإطاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿ وَالْيَمِينَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ها هنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية . وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح . وروي عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة ^(٢) . فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر ، فإنه وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

عن أنس بن مالك ؓ قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ؓ ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصَّلَاةُ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » ^(٣) .

وعن عطاء بن أبي رباح ، حدثني من سمع أم سلمة ؓ تذكر أن النبي ﷺ ، كان في بيتها فأتته فاطمة ؓ بمرمة فيها خزيرة فدخلت عليه بها . فقال ﷺ لها : « ادْعِي زَوْجَكَ وَابْنِكَ » قالت : فجاء علي وحسن وحسين ؓ فدخلوا عليه ، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له ، وكان تحته ﷺ كساء خيبري قالت : وأنا في الحجرة أصلي فأنزل الله ﷻ هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . قالت ﷺ : فأخذ ﷺ فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال : « اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا » قالت : فأدخلت رأسي البيت فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ ، إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ » ^(٤) .

وعن يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة إلى زيد بن أرقم ؓ فلما

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧/٢٢) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٢٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٩/٣) ، والترمذي في سننه (٣٢٠٦) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٩٨/٥) .

جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً . حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ قال : « يا ابن أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثكم فاقبلوا وما فلا تكلفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : « أَمَا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَبْتِغِي رَسُولَ رَبِّي فَأَجِبْ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ قَلِيلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ . فحث على كتاب الله ﷻ ورغب فيه ثم قال : « وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي » ثلاثاً فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ ليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ؑ . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال : نعم ^(١) .

وروي عن زيد بن أرقم بنحو ما تقدم وفيه فقلت له : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا واهم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . هكذا وقع في هذه الرواية والأولى أولى والأخذ بها أخرى . وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه ، وإنما المراد بهم آل الذين حرموا الصدقة أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آل ، وهذا الاحتمال أرجح جمعا بينها وبين الرواية التي قبلها ، وجمعا أيضا بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صححت ، فإن في بعض أسانيدنا نظرا والله أعلم . ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ فإن سياق الكلام معهن ، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشُكُّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ بَيْنَاتِ اللَّهِ وَالْبَشَرَةِ ﴾ أي : واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة . قاله قتادة وغير واحد . واذكرن هذه النعمة التي خصصن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق ؓ أولاهن بهذه النعمة وأصحابهن بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة العظيمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها . كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء ؒ : لأنه لم يتزوج بكرا سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ وﷺ فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العالية ، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقربته أحق بهذه التسمية . كما تقدم في الحديث : « وَأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ » وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال : « هُوَ مَسْجِدِي هَذَا » ^(٢) . فهذا من هذا

(١) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة) (٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٥١٤) وأحمد في مسنده (٨/٣) والترمذي في مسنده (٣٠٩٩) .

يُكَثِّرُ وَيُخْتَصِبُ دَمَا لَكَانَ الذَّاكِرُونَ اللَّهُ تَعَالَى أَفْضَلَ مِنْهُ ^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فأتى على جمندان فقال : «عَذَا جَعَدَانِ سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ» قالوا : وما المفردون ؟ قال ﷺ : «الذَّاكِرُونَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ». ثم قال ﷺ : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُخَلِّقِينَ» قالوا : والمقصرون ؟ قال ﷺ : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُخَلِّقِينَ» قالوا : والمقصرين قال : «وَالْمُقْصِرِينَ» ^(٢). وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مَا عَمِلَ أَحَدٌ عَمَلًا قَطَّ أَجْنَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ» ^(٣). وعن سهل ابن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : إن رجلاً سأله فقال : أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال ﷺ : «أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى ذِكْرًا» قال : فأي الصالحين أكثر أجراً ؟ قال ﷺ : «أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا» ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول رسول الله ﷺ : «أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا» فقال أبو بكر لمعر رضي الله عنه : ذهب الذَّاكِرُونَ بكل خير فقال رسول الله ﷺ : «أَجَل» ^(٤). وقوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أي : أن الله تعالى قد أعد لهم ، أي هيا لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجراً عظيماً وهو الجنة . ﴿ وَمَا كَانَ لِنُفُوسٍ وَلَا مَوْجِدَةٍ إِنْ أَقْبَضَ اللَّهُ رُسُلَهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ لِحَافَةٌ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَمَسَّ اللَّهَ رُسُلَهُ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلًا مُبِينًا ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنُفُوسٍ وَلَا مَوْجِدَةٍ ﴾ الآية : وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها فقالت : لست بناكحته . فقال رسول الله ﷺ : «بَلَى فَاذْكُحِيهِ» قالت : يا رسول الله أوامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ لِنُفُوسٍ وَلَا مَوْجِدَةٍ إِنْ أَقْبَضَ اللَّهُ رُسُلَهُ أَمْرًا ﴾ الآية . قالت : قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ : «نَعَمْ» قالت : إذا لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي ^(٥) . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها وكانت أول من هاجر من النساء - يعني بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال : قد قبلت فروجها زيد بن حارثة رضي الله عنه يعني - والله أعلم - بعد فراقه زينب فسخطت هي وأخوها وقالوا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فروجنا عبده قال : فنزل القرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِنُفُوسٍ وَلَا مَوْجِدَةٍ إِنْ أَقْبَضَ اللَّهُ رُسُلَهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية . قال : وجاء أمر أجمع من هذا ﴿ أَلَيْسَ أُولَئِكَ بِالْمُتَكِبِينَ بَيْنَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ قال : فذاك خاص وهذا أجمع .

وقال أبو برزة الأسلمي : إن جليبيبا كان أمراً يدخل على النساء يمرنهن ويلاعبهن ، فقلت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .

(٢) أخرجه مسلم بنحوه في (الذكر والدعاء) (٤) وأحمد في مسنده (٤١١/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٣) وأبو داود في مجمع الزوائد (٧٤/١٠) .

(٥) أورده ابن الجوزي في زاد المسير (٣٨٥/٦) .

لامرأى : لا تدخلن عليكن جليبيبا فإنه إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا ، فقال النبي ﷺ : لرجل من الأنصار : « زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ » قال : نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين ، فقال ﷺ : « إِنِّي لَشَتُّ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي » قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لجلييب » فقال : يا رسول الله أشاور أمها ، فأنتى أمها ، فقال : رسول الله ﷺ يخطب ابنتك ، فقالت : نعم ونعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجلييب فقالت : أجلييب ابنه ، أجلييب ابنه ؟ لا لعمر الله لا تزوجه ، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها . قالت الجارية : من خطبني إليكم ؟ فأخبرتها أمها ، قالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ ادفعوني إليه فإنه لن يضيعني . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : شأنك بها فزوجها جليبيبا قال : فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه : « هَلْ تَقْعِدُونَ مِنْ أَحَدٍ » قالوا : نفقد فلائنا ونفقد فلائنا ، قال ﷺ : « أَنْظِرُوا هَلْ تَقْعِدُونَ مِنْ أَحَدٍ » قالوا : لا ، قال ﷺ : « لِكَيْتَنِي أَتَقْعِدَ جَلِييبَا » قال ﷺ : فاطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ، ثم قتلوه . فقالوا : يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه فقال : « قَتَلَ سَبْعَةً وَقَتَلُوهُ ، هَذَا يَمْنِي وَأَنَا بِئْسَ مَرْتِنٌ أَوْ فُلَانٌ » ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له ، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ ثم وضعه في قبره ولم يذكر أنه غسله . قال ثابت : « فما كان في الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد الله ابن أبي طلحة ثابثا ، هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال : « اللَّهُمَّ صُبْ عَلَيهَا الْخَيْرَ صَبًا ، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا » . وكذا كان فما كان في الأنصار أيم أنفق منها ^(١) .

وقال طاووس : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه . وقرأ ابن عباس : « وَمَا كَانَ يُشِيرُونَ وَلَا مُؤْمِنَةً إِذَا فَتَى اللَّهُ رَسُولَهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ لِقَائُهُ مِنْ أَمْرِهِمْ » فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأي ولا قول كما قال تبارك وتعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » وفي الحديث : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ نَيْمًا لِمَا جُشْتُ بِهِ » ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال : « وَبِمَنْ يَحْيَى اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ شَتْلًا مُبِينًا » كقوله تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .
« وَإِذْ قَوْلُ الَّذِينَ آمَنُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَتَمَّتْ عَلَيْهِ أَمْرُهُمْ عَلَيْكَ رَدِّكَ وَإِنِّي اللَّهُ وَخَيْتُ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَفَى النَّاسُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ تَخْشَهُ قَلْبًا فَضَلَّ رَدِّدًا بَيْنًا وَطَرًا وَخَشَنَّا لَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَمْرًا بِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة : « وهو الذي أنعم الله عليه ، أي بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ : « وَأَتَمَّتْ عَلَيْهِ » أي : بالعق من الرق وكان سيدًا كبير الشأن جليل القدر حييا إلى النبي ﷺ يقال له : الحب ، ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . قالت عائشة : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ »

ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه ^(١) . وقال عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال : حدثني أسامة بن زيد رضي الله عنه قال : كنت في المسجد فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالا : يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ ، قال : فأتيتهما رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت : علي والعباس يستأذنان ، فقال رضي الله عنه : « أَتَدْرِي مَا حَاجَتُهُمَا ؟ » قلت : لا يا رسول الله . قال رضي الله عنه : « لِكَيْتِي أَذْرِي » ، قال : فأذن لهما ، قال : يا رسول الله جئناك لتخبرنا أي أهلك أحب إليك ؟ قال رضي الله عنه : « أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ » . قال : يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة ، قال رضي الله عنه : « فَأَسَأَلُكَ بِنَّ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْهِ » . وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها وأما أممية بنت عبد المطلب ، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمسا ومئقة ودرهما وخمسين مئدا من طعام وعشرة أمداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان ، فمكنت عنده قريبا من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أَتَمْسِكُ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِيَ اللَّهَ » . قال الله تعالى : ﴿ وَتَحْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَيُخْفِي النَّاسُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ تَخْفَيْهِ ﴾ . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنه ^(٢) . وروي عن السدي قال فيها : قد أخبرتك أبي مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لو كنتم محمد ﷺ شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكنتم ﴿ وَتَحْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَيُخْفِي النَّاسُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ تَخْفَيْهِ ﴾ ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ الوطر : هو الحاجة والأرب أي : لما فرغ منها وفارقها زوجها كانا ، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ . بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر . فعن أنس رضي الله عنه قال : لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذْهَبْ فَأَذْكُرْنَا عَلَيَّ » فانطلق حتى أتاهما وهي تخمر عجينها قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول : إن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت : يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي ﷻ ، فقامت إلى مسجدتها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ وأتبعته فجعل ﷺ يتبع حجر نساءه يسلم عليهن ويقبل : يا رسول الله كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه ، فالتقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُدْعَى لَكُمْ ﴾ الآية كلها ^(٤) . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول : زوجكن أهاليكن وزوجني

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/٦) .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨/٢٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٣) والسيوطي في الدر المنثور (٢٠١/٥) .

(٤) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٨٧) .

الله تعالى من فوق سبع سموات ^(١) ، وعن عبد الله بن جحش قال : فتفاحت زينب وعائشة عليهما السلام فقالت زينب عليها السلام : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة عليها السلام : أنا التي نزل علدي من السماء فاعترفت لها زينب عليها السلام . وقال الشعبي : كانت زينب عليها السلام تقول للنبي ﷺ : إني لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدي وجدك واحد ، وإني أنكحنيك الله ﷻ من السماء ، وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ لِيَكُنْ لَكَ بَؤْرٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرَبِغِ أَدْعِيَائِهِمْ إِنَّا فَضَّرْنَا عَنْتَهُمْ وَكَرَّأً ﴾ أي : إنما أبخنا لك تزويجها ، فعلنا ذلك ؛ فلما بقي حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء . وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تنهى زيد بن حارثة رضي الله عنه فكان يقال له : زيد بن محمد ، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَفْصَحَ لَكُمْ إِلَهُكُمْ ﴾ ٥ أَدْعَيْتُمْ لِأَبْنَائِهِمْ هُوَ أَفْصَحُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ثم زاد بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولهذا قال تعالى في آية التحريم : ﴿ وَسَلِّطْ أَيْتَانِيكُمُ الْأُولَىٰ بَيْنَ أَكْبَرِكُمُ ﴾ ليحترز من الابن الدعي ، فإن ذلك كان كثيراً فيهم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ أي : كان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله مستصير من أزواج النبي ﷺ .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدراً مُّقَدَّرًا ﴾ . يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أي : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج . وهذا رد عن من توهم من المنافقين نقضاً في تزويج امرأة زيد مولاة ودعيه الذي قد تنهى رضي الله عنه . ﴿ مَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ أي : وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه . ولا معدل ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتَهُ أَلَهٌ وَنَشْتَوْنَ وَلَا يَشْعُونَ أَلَهًا إِلَّا اللَّهُ وَهِيَ بَالِقَةٌ خَالِيَةً ﴾ ٥ مَا تَأْتِي مِنْهُمْ أَلَهٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخِصَّةٌ الْأَنْبِيَاءِ وَكَانَ اللَّهُ يَكْفُلُ شَيْئَهُمْ عَلَيْهِمْ .

مجدح تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتَهُ ﴾ أي : إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها رضي الله عنهم ونشتونهم أي : يخافونه ولا يخافون أحداً سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﷻ ولكن بالله . ﴿ وَهِيَ بَالِقَةٌ خَالِيَةً ﴾ أي : وكفى بالله ناصراً ومعيناً ، وسيد الناس في المقام ، بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة ، وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بني آدم . وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبي قبله إنما يعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عريهم وعجمهم ﴿ قُلْ يَكْفُلُهَا اللَّهُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِحَيْثُ ﴾ ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم . بلغوا عنه كما أمرهم به ، ففي جميع أقواله وأفعاله وأحواله في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/٢٢) .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٠) .

وعلايته ، فرضي الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فينورهم يقتدي المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموقنون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « لَا يَخُونُ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لَهُ فِيهِ مَقَالٌ ، ثُمَّ لَا يَقُولُهُ يَقُولُ اللَّهُ : مَا يَمْتَنِكُ أَنْ تَقُولَ بِهِ ؟ » فَيَقُولُ : رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ ، فَيَقُولُ : فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخَشَى ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّبَالِكُمْ ﴾ نهي أن يقال بعد هذا : زيد بن محمد ، أي : لم يكن أباه - وإن كان قد تبناه - فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والظاهر من خديجة رضي الله عنها فماتوا صغاراً ، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية فمات أيضاً رضيعاً ، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهن أجمعين فمات في حياته ﷺ ثلاث ، وتأخرت فاطمة رضي الله عنها حتى أصيبت به ﷺ ، ثم ماتت بعده لسته أشهر . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ كقوله ﷺ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا يعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، قال أبي ابن كعب عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَتَلَيْ فِي النَّبِيِّ كَمَتَلٍ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ لَمْ يَضَعْهَا ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطْلُقُونَ بِالْبَيْنَانِ وَيُغْجِبُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ : لَوْ تَمَّ مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبَنَةِ ؟ فَأَنَا فِي النَّبِيِّ مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبَنَةِ » ^(٢) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرِّسَالََةَ وَالنَّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيٍّ » . قال : فشق ذلك على الناس . فقال : « وَلَكِنَّ الْمُبَشِّرَاتِ » قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : « رُؤْيَا الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ وَهِيَ جُزْءٌ مِّنْ أَجْزَاءِ النَّبُوَّةِ » ^(٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَيْتٌ : أُعْطِيتُ جَوَائِزَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرَّغْبِ ، وَأُجِلْتُ لِي النَّكَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كُلِّفَةً ، وَخُتِمَ بِي الْيُؤُونَ » ^(٤) .

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ لِي أَسْمَاءً : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمُجُّوهُ اللَّهُ تَعَالَى بِي الْكَفَرُ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ » ^(٥) . وقال عبد الله بن عمرو : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/٣) وابن ماجه في سننه (٤٠٠٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٥) والترمذي في سننه (٣٦١٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٣) والترمذي في سننه (٢٢٧٢) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في الكبرى (٢١٣/١) .

(٥) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤) .

كالمودع فقال : « أَنَا مُحَقَّقٌ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ - ثَلَاثًا - وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي ، أَوْتَيْتُ فَوَاحِشَ الْكَلِمِ وَجَوَامِعَهُ وَخَوَائِمَهُ ، وَعِلْمَتِ كَمِّ خَزَنَةِ النَّارِ وَحِمْلَةِ الْعَرْشِ ، وَتَجَمُّدِ بِي ، وَغُرُوفِثْ وَغُوفِثْ أُتْمِي ، فَاسْتَعْمُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَجْلُوا حَلَالَهُ وَخَرَمُوا حَرَامَهُ » (١) .

والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد ، إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه : لا نبي بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والতিরنجيات فكلها محال وضلال عند أولي الألباب . كما أجرى الله ﷻ على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهم كاذبان ضالان لهنما الله . وكذلك كل مدعٍ لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه . فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرؤن بمعروف ، ولا ينهاؤن عن المنكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره . ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ ۖ تَنَزَّلُ عَلَىٰ أَهْلِ الْبَيْتِ ﴾ الآية . وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ، ويأمرؤن به وينهاؤن عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات . فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات .

﴿ بَنِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ۝ وَسَبِّحْهُ بَكْرًا وَأَصِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَنْكُمْ وَلَكُمْ كُتُبٌ يُفْرَسُ مِنْهَا الْفُتُوحَاتُ إِلَى الْفُتُوحَاتِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ يَتَخَفَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝ .

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن لما لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . فمن أبي الدرداء ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ أَغْنِيَكُمْ وَأَزْكَاكُمْ عَنْدَ مُلْكِكُمْ ، وَأَوْفِيكُمْ فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرَ لَّكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ ، وَخَيْرَ لَّكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَغْنَاءَهُمْ وَتَضْرِبُوا أَغْنَاءَهُمْ ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ذِكْرُ اللَّهِ ﷻ » (٢) .

وعن عبد الله بن بشر قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال ﷺ : « مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَخَسَنَ عَمَلُهُ » . وقال الآخر : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فمروني بأمر أتشبث به قال ﷺ : « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى » (٣) . وعن أبي سعيد الخدري ؓ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَقُولُوا مَجْثُورُونَ » (٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٥) والترمذي في مسنده (٣٣٧٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٣ : ٧١) .

عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن . ﴿ يَأْتِيَا آلَ هَارَانَ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحررنا للأمين أنت عهدي ورسولي ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العرجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميًا ، وآذانًا صمًا ، وقلوبًا غلفًا ^(١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ يَأْتِيَا آلَ هَارَانَ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وقد كان أمر عليًا ومعاذًا رضي الله عنه أن يسيرا إلى اليمن فقال : « انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، وبشرا ولا تعسرا ، إنه قد أنزل علي : ﴿ يَأْتِيَا آلَ هَارَانَ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ » ^(٢) . وفي رواية قال في آخره : « فَإِنَّهُ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا عَلَى أَهْلِكَ وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ وَدَاعِيًا إِلَى سَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا بِالْقُرْآنِ » ^(٣) . فقله تعالى : ﴿ شَهِيدًا ﴾ أي لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا كقولهم : ﴿ لَيَكُونَنَّ شَهِيدًا عَلَى الْكَافِرِينَ وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ ، وقوله ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين بهزيل الثواب ونذيرًا للكافرين من وبيل العقاب . وقوله جئت عظمتهم : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أي : داعيًا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ أي : وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجمدها إلا معاند . وقوله جل وعلا : ﴿ وَلَا تُلْقِ الْكَلِمَاتِ الْكَافِرَاتِ وَالْمُنْفِيَاتِ وَذَعْ أَذْنَهُمْ ﴾ أي : لا تطعمهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ وَذَعْ أَذْنَهُمْ ﴾ أي : اصفع ونجماز عنهم وكل أمرهم إلى الله تعالى ، فإن فيه كفاية لهم ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ يَأْتِيَا آلَ هَارَانَ عَامِرًا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَيْنٍ تَنْهَوْنَهُنَّ فَيَتَوَكَّلْنَ عَلَى اللَّهِ وَنَجِيحًا ﴾ .

هذه الآية فيها أحكام كثيرة ، منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء أو فيها ؟ على ثلاثة أقوال : واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خرج محرج الغالب ؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكثابية في ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن المسيب وغيرهما بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله ، وهذا مذهب

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٢) . (٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠١/٤) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١٦/١١) والبيهقي في جميع الزوائد (٩٢/٧) .

الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى ، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه ، واختلفا فيما إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة رحمهما الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه . فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كُفِّرُوا كُفْرًا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ آيَاتُهَا أَنْ يَحْذَرُوا لَهَا وَذَكَرَتْ لَهُمْ جَانِبَ ذُنُوبِهِمْ أَنْ لَا يَمَسُّوا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَخْلُوا مِنْهَا فَخُورًا ﴾ . وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا طَلَّاقَ لِأَنْزَلِ أَدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ » ^(١) وعن علي والمصور بن مخزومة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا طَلَّاقَ قَبْلَ النِّكَاحِ » ^(٢) . وقوله ﷺ : ﴿ قَدْ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ ذَنْبٍ مَعْدُومٍ ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فذهب فتزوج في فورها من شأته . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنه تعدد منه أربعة أشهر وعشراً وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ فَتَيَوَّمُونَ وَيَتَوَقَّوْنَ سِرَاجًا بِجَيْلٍ ﴾ ^(٣) المتعة ها هنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة ، إن لم يكن قد سمي لها . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرْصَةً فَيَصِفْ مَا قَرَضْتُمْ ﴾ . وقال ﷺ : « لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ الزَّوْجَةَ مَا تَمَّ قَسَمُوهُنَّ أَوْ قَرَّبْتُمَا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَيَتَوَقَّوْنَ عَلَى الْوَبْعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْفَقْرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » . وعن سهل بن سعد قال : إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين ^(٤) . قال علي بن أبي طلحة رضي الله عنه : إن كان سمي لها صداقاً ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمي لها صداقاً أمتعتها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَنْزَلَكَ إِلَيْهَا فَاتَّخِذْ أَجُورَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَكَاحَ عَلَيْكَ وَنَكَاحَ عَمَلِكَ وَنَكَاحَ خَلْقِكَ إِلَيْهَا فَجَزَى مَلَكَ وَلَكِ فَرْصَةٌ إِنْ وَهَبْتَ قَسَمًا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْتُمْ عَلَيْهِمْ فِي أَنْزُلِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهرهن وهي : الأجور ها هنا . كما قاله مجاهد وغير واحد . وقد كان مهر لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشر وهو نصف أوقية فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار ، وإلا صافية بنت حبي ، فإنه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم اعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها - رضي الله عنهم أجمعين - وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩/٢) وابن ماجه في سننه (٢٠٤٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٨ ، ٢٠٤٩) .

(٣) أخرجه البخاري في (الطلاق) (٥٢٦٦) أحمد في مسنده (٤٩٨/٣) .

وأباح لك التسري مما أخذت من المفاتيح ، وقد ملك صفية وجورية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القطبية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام وكانت من السراي التي . وقوله تعالى : ﴿ وَنَبَاتٌ عَمَكٌ وَنَبَاتٌ خَثِيبٌ وَنَبَاتٌ خَالِكٌ وَنَبَاتٌ خَذْيِيكٌ ﴾ الآية . هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الحلال والحالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع . وإنما قال : ﴿ وَنَبَاتٌ عَمَكٌ وَنَبَاتٌ عَمِيكٌ وَنَبَاتٌ خَالِكٌ وَنَبَاتٌ خَذْيِيكٌ ﴾ . فوجد لفظ الذكر لشرفه وجمع الإناث لنقصهن كقوله : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ حَاجِرٌ مَعَكَ ﴾ عن أم هانئ قالت : خطبني رسول الله ﷺ فاعتلرت إليه فعذرني ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَرْوَاجَكَ الَّتِي نَهَيْتَ أَبْوَارَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَبَاتٌ عَمَكٌ وَنَبَاتٌ عَمِيكٌ وَنَبَاتٌ خَالِكٌ وَنَبَاتٌ خَذْيِيكٌ أَلَيْسَ حَاجِرٌ مَعَكَ ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ولم أكن ممن هاجر معه كنت من الطلقاء ^(١) . وهكذا قال أبو رزين وقادة : إن المراد من هاجر معه إلى المدينة . وفي رواية عن قتادة : ﴿ أَلَيْسَ حَاجِرٌ مَعَكَ ﴾ أي : أسلمن ، وقال الضحاك : قرأ ابن مسعود (واللائي هاجرن معك) .

﴿ وَكَأَنَّهُ تَفُؤْمَنُ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَكَ لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَكَ خَالِسَةً لَكَ ﴾ الآية . أي : ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان كقوله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ لَا تَبْتَغُوا نِسَاءً إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تُصْبِحَ لَكُمْ أُنْثَىٰ فَذَرُوا أَمْوَالَكُمْ أَلَمْ تُدْرِكُوا أَن يَبْسُفَ بِكُمْ مَالُكُمْ ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ وَكَأَنَّهُ تَفُؤْمَنُ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَكَ لِلنَّبِيِّ ﴾ الآية . عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك فقامت قياتاً طويلاً ، فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ : « هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصَدِّقُهَا بِهَا ؟ » فقال : ما عندي إلا إزارِي هذا ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَغْلَقْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ فَالتَّمِشْ شَيْئًا » فقال : لا أجد شيئاً ، فقال : « التَّمِشْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَلِيدٍ » فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبي ﷺ : « هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ ؟ » قال نعم سورة كذا وسورة كذا - السور يسميها - فقال له النبي ﷺ : « زَوِّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ » ^(٢) .

وقال أنس : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله هل لك في حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها ، فقال : « هِيَ خَيْرٌ مِلْكٍ رَغِبْتَ فِي النَّبِيِّ فَغَرَضْتَ عَلَيْهِ نَفْسَهَا » ^(٣) . وعن أنس بن مالك أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ابنة لي كذا وكذا فذكرت من حسننها وجمالها فأقرتكم بها فقال : « قَدْ قَبِلْتُهَا » فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئاً قط

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٢٠/٢) ، (٥٣/٤) والطبري في تفسيره (٢٧/٢٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (فضائل القرآن) (٥١٢٦) ومسلم في النكاح (٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٢٠) وأحمد في مسنده (٢٦٨/٢) .

فقال : « لَا حَاجَةَ لِي فِي ابْنَيْكَ » ^(١) . وعن عائشة قالت : التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم . وقال هشام بن عروة عن أبيه : إن خولة بنت حكيم بن الأرقص من بني سليم كانت من اللاتي وهبت أنفسهن لرسول الله ﷺ . وفي رواية عن هشام عن أبيه كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت لرسول الله ﷺ وكانت امرأة صالحة . فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم أو هي امرأة أخرى . وقال محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله بن عبيدة : تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ؛ ستما من قريش : خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وثلاثا من بني عامر بن صعصعة ، وامرأتين من بني هلال بن عامر : ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وزينب أم المساكين ، وامرأة من بني بكر بن كلاب من القرظيات وهي التي اختارت الدنيا ، وامرأة من بني الجون وهي التي استعازت منه ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتين صفية بنت حيي بن أخطب وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية ، وقال ابن عباس ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَجَّهْتَ نَفْسَكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴾ قال : هي ميمونة بنت الحارث فيه انقطاع هذا مرسل والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي : زينب بنت خزيمة الأنصاري ، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته قاله أعلم . والفرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير ، كما ورد عن عائشة قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أنهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى : ﴿ تَرَى مِنْ قُلُوبِهِمْ يَتَوَجَّعُونَ إِلَيْهِ مَنْ قُلَّةٌ وَمَنْ أُنْثَى وَمَنْ عَزَّزَتْ وَمَنْ لَهَا جَنَاحٌ مِثْلَ طَيْرِ الْوَيْلِ ﴾ قلت : ما أرى ربه إلا يسارع في هواك ^(٢) . وقد قال سماك بن عكرمة عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له ^(٣) أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن ذلك مباحا له ومخصوصا ؛ لأنه مردود إلى مشيئته كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ كَرِهَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُسْكِنَكَ ﴾ أي : إن اختار ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ دُؤُنِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة : أي لا تحمل الموهوبة لغريك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحمل له حتى يعطيها شيئا . وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها . كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها . والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ ، وأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء لو دخل بها ؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها . ولهذا قال قتادة في قوله : ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ دُؤُنِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ إِذْ أَرْسَلْنَاهُمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ قال أبي بن كعب أي : من حصرهم في أربع نسوة حرائر وما شاعوا من الإماء واشترط الولي والمهر والشهود عليهم وهم الأمة . وقد رخصنا لك في ذلك نوجب عليك شيئا منه ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/٣) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٨) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/٢٢) (٢١٧٨٩) .

﴿ تَرَى مِنْ نَفْسِهِ يَتَوَقَّى إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَنْ أَلْفَيْتَ مَعَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ آيَاتِهِمْ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضِيتَ بِمَا آتَيْنَهُمْ كُفَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ .

قال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأقول الله تعالى : ﴿ تَرَى مِنْ نَفْسِهِ يَتَوَقَّى إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِهِ ﴾ الآية . قالت : إني أرى ربك يسارع لك في هواك ^(١) . فدل هذا على أن المراد بقوله : ﴿ تَرَى ﴾ أي : تؤخر ﴿ مَنْ نَفْسَهُ يَتَوَقَّى ﴾ أي : من الواهيات ﴿ وَتَوَقَّى إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِهِ ﴾ أي : من شئت قبلتها ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضا بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فأوليها ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ أَلْفَيْتَ مَعَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قال عامر الشعبي في قوله تعالى : ﴿ تَرَى مِنْ نَفْسِهِ يَتَوَقَّى ﴾ الآية . كن نساءا وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ، فدخل بعضهم وأرجأ بعضهم لم يتكهن بعده ، منهم أم شريك . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تَرَى مِنْ نَفْسِهِ يَتَوَقَّى ﴾ الآية . أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجمع من شئت ، وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن ، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبا عليه ﷺ واحتجوا بهذه الآية الكريمة . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ : كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تَرَى مِنْ نَفْسِهِ يَتَوَقَّى إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَنْ أَلْفَيْتَ مَعَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلي ، فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحدا ^(٢) . فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم . وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهيات . ومن ها هنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهيات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي وفيه جمع بين الأحاديث : ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ آيَاتِهِمْ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضِيتَ بِمَا آتَيْنَهُمْ كُفَّهُنَّ ﴾ أي : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت ، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختيارا منك ، لا أنه على سبيل الوجوب فرحن بذلك ، واستبشرن به ، وحملن جميلك في ذلك ، واعتزبن بمتك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : من الميل إلى بعضهن دون بعض لما لا يمكن دفعه . كما في الحديث عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا فِغْلِي فِيمَا أَتَمَّلْتُ فَلَا تَلْغِنِي فِيمَا تَمَّلْتُ وَلَا أَمْلِكُ » ^(٣) . ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَحَسْبَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أي بضمائر السرائر ﴿ حَلِيمًا ﴾ أي يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَدَنٍ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨/٣) . (٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٨٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٦) والترمذي في مسنده (١١٤٠) وابن ماجه في مسنده (١٩٧١) .

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٢﴾ .

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن على حسن صنعيهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ . كما تقدم في الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإمام والسراي فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء ^(١) . وعن أم سلمة إنها قالت : لم يميت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم . وذلك قول الله تعالى : ﴿ تَرَى مِنْ نِكَاحٍ يُغْنِيكَ ﴾ الآية . فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها والله أعلم ، وقال آخرون : بل معنى الآية : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحلنا لك من نسائك اللاتي أتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعمة والخال والخالات والواهة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك ، وهذا ما روي عن أبي بن كعب ومجاهد في رواية عنه وعكرمة والضحاك في رواية . وعن زياد عن رجل من الأنصار قال : قلت لأبي بن كعب : رأيت لو أن أزواج النبي ﷺ توفين أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قلت : قول الله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ فقال : إنما أحل الله له ضرباً من النساء . فقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الْكُفْرُ إِلَّا حَلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ . ثم قيل له : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ وعن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَنْكِحَ مِنْ أَزْوَاجِكِ ذُلَّ أَصْحَابِكَ حَسْبُكَ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ فأحل الله فتياتكم المؤمنات ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي . وحرم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الْكُفْرُ إِلَّا حَلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ - إِلَى قَوْلِهِ - حَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء . وقال مجاهد : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد ما سمي لك لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة . وقال أبو صالح : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عرية ويتزوج بعد من نساء تهامة وما شاء من بنات العم والعمة والخال والحالة إن شاء ثلاثمائة . وقال عكرمة : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي : التي سمي الله ، واختار ابن جرير أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً ، وهذا الذي قاله جيد . ولعله مراد كثير من حكيما عنه من السلف ، فإن كثيراً منهم روي عنه هذا وهذا ، ولا منافاة والله أعلم . ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٢١٦) والبيهقي في سننه (٥٤/٧) .

أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى : ﴿ لَا يَجْلُ فِىَ الثَّيِّبَةِ مِنْ بَعْدِ لَا أَنْ يَبْدَلَ مِنْ أَنْزِلَ ﴾ الآية . وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح . ولكن لا يحتاج إلى ذلك ، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يخرج من عدا اللواتي في عصمته ، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال فالله أعلم . فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وهي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَأَيْتُمْ خَافَتْ مِنْ بَيْتِهَا شُرُوكًا أَوْ إِخْرَاسًا فَلَا يَجْعَلُ حَتِّبًا أَنْ يَخْلُصَ بِهَا سُلَاسًا ﴾ الآية ^(١) . وأما قضية حفصة فروي عن ابن عباس وعن عمر : أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ، ثم راجعها ^(٢) . وعن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهي تبكي فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ، وإنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي ، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْ يَبْدَلَ مِنْ أَنْزِلَ ﴾ الآية دلت على أن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَأَيْتُمْ خَافَتْ مِنْ بَيْتِهَا شُرُوكًا أَوْ إِخْرَاسًا فَلَا يَجْعَلُ حَتِّبًا أَنْ يَخْلُصَ بِهَا سُلَاسًا ﴾ فيها عن الزيادة عليهم إن طلق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه .

﴿ يَكْتَلِبُ الْيَمِينَ مِمَّا لَا تَدْعُوا بِثَوْتِ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يَبْذُرَ لَكُمْ إِنْ كَانَ لَكُمْ مِنْ نَبِيِّكُمْ أَنْ يَبْذُرَ النَّبِيَّ فَسَبَّحْهُ . وَمَنْعَكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِي . مِنْ الْخَلْقِ وَإِنْ سَأَلْتُمُوهُ مِمَّا كَانَتْ تَلَاوُفٌ مِنْ رِثَةِ حَبَابٍ ذَلِكُمْ أَهْلُ الْفُلُوكِمْ وَفُلُوهُنَّ وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُوْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝ إِنْ تَبَدَّلَا مِمَّا أَوْ تَحْفَظُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكْفِي قِتْمَهُ حِلْمًا ۝ .

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب ؓ كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . قلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتن فأنزل الله آية الحجاب . قلت لأزواج النبي ﷺ لما قالن عليه في الغيرة ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُمْ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ ﴾ فنزلت كذلك ^(٤) . عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ^(٥) . وكان ذلك في ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما ، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث فالله أعلم . وعن أنس ابن مالك ؓ قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم ، فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتبعها للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٢) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٠) .

(٤) ذكره أبو يعلى الموصلي في مسنده (١٧٢/١) .

(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٠) .

إنهم قاموا فانطلقوا فبحث فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل . فذهبت أدخل فالتقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبَاتِيٍّ إِنَّهُ بَيْنَكُمْ فَاذًا طَوِيلٌ فَأَنْصِتُوا ﴾ الآية (١) . وعن أنس بن مالك قال : بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون . ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه فقلت : يا رسول الله ما أجد أحدا أدعوه قال : « اذْفَعُوا طَعَامَكُمْ » وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » قالت : وعليك السلام ورحمة الله وكيف وجدت أهلك يا رسول الله بارك الله لك ؟ فقري حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لمائشة ، ويقن له كما قالت عائشة . ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون وكان النبي ﷺ شديد الحياء فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه وأنزل آية الحجاب (٢) .

وعن عروة عن عائشة قالت : إن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب - وهو صعيد أبيح - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ : احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ وكانت امرأة طويلة فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب ، قالت : فأنزل الله الحجاب (٣) . وهكذا وقع في الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت سودة بعد ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين . قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليعشى وفي يده عرق . فدخلت فقالت : يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال : « إِنَّهُ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ » (٤) . فقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن . كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك . وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إِنَّا كُنَّا مِنَ النَّسَاءِ » الحديث (٥) . ثم استثنى من ذلك فقال تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبَاتِيٍّ إِنَّهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي غير متحنيين فضجه واستواؤه أي : لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩١) ومسلم في النكاح (٨٧ ، ٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤٦) ومسلم في السلام (١٨) وصعيد أبيح أي مكان متسع .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٥) ومسلم في السلام (١٧) واللفظ البخاري .

(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٢) أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه وهذا دليل على تحريم التطفيل . وهو الذي تسميه العرب الضيفين .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ إِنَّا دُعِيتُمْ فَادْعُوا فَإِنَّا لَكَبِيرَةٌ فَاذْكُرُوا ﴾ . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا دُعَا أَعْدَاكُمْ أَحَاهُ فَلْيَجِبْ ، غُرْمًا كَانَ أَوْ غَيْرُهُ » ^(١) وفي الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ : « لَوْ دُعِيتُمْ إِلَى ذِرَاعٍ لَجَبْتُمْ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كِرَاعٌ لَقَبَيْتُمْ ، فَإِذَا فَرَعْتُمْ مِنَ الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ فَحَقُّقُوا عَنْ أَهْلِ الْمَثَرِ وَالْتَشِيرُوا فِي الْأَرْضِ » ^(٢) . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا فَتَنَاسِينَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكُمْ مَسْكَانَ يُؤَدَّى إِلَيْهِ فَيَنصَحِي مَنِ احْتَسَبَ ﴾ وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به . ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه السلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي . وَنَ الْبَشَرُ ﴾ أي : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أي : وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنتظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب . ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقَابُوهُمْ وَقُلُوبُهُمْ ﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُقَدِّرُوا رَسُولَ اللَّهِ . وَلَا أَنْ تُنْكِبُوا أَرْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ إِهْنًا إِنَّ ذِكْرَكُمْ كَانَ بِنَدِ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ عن ابن عباس قال : نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده ، قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك ، وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله ﷺ حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده ، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره ، وبالحالة هذه ، نزاغًا ، والله أعلم .

وعن عامر أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة بنت الأشعث - يعني ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة فقال له عمر : يا خليفة رسول الله ، إنها ليست من نسائه إنها لم يخبرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها ، قال : فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن ^(٣) . وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد

(١) أخرجه مسلم في التكاثر (١٠٠) وأحمد في مسنده (١٤٦/٣) وأبو حنبل في مسنده (٣٧٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في (البهية وفضله) (٢٥٦٨) وأحمد في مسنده (٤٧٩/٢) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٠/٢٢) (٢١٨٤١) .

فيه ، وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ تَبَدَّلَا شَيْئًا أَوْ تَغْتَرَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي : مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرالركم ، فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يَسْمَعُ عَائِنَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ .
 ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَى الَّذِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَلَا أَتْيَاهُمْ وَلَا يُخْرَجُونَ وَلَا لَكُمْ يُخْرَجُونَ وَلَا أَجْسَلُ لَمُخْرَجِينَ وَلَا يَسَاءِلُوهُمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَيْنَ اللَّهُ إِلَهُكَ اللَّهُ كَانَتْ عَلَى كُلِّ فِتْنَةٍ شَهِيدًا ﴾ .

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ شُرَكَاءَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ أَتْيَاهُمْ غَيْرَ أُولَى الْأَرْوَاحِ بَيْنَ الرَّجَالِ أَوْ الْبَيْتِ الْأَيْمَنِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ عَزْرٌ إِلَّا سَلَامٌ ﴾ .
 وفيها زيادات على هذه وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقد سأل بعض السلف فقال : لم لم يذكر العم والحال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما قد بصفا ذلك لنبهنا ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسَاءِلُوهُمْ ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء للمؤمنات ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعني به أرقاعهن من الذكور والإناث . كما تقدم التنبيه عليه ، وإيراد الحديث فيه ، قال سعيد بن المسيب : إنما يعني به الإمام فقط . وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَ اللَّهُ إِلَهُكَ اللَّهُ كَانَتْ عَلَى كُلِّ فِتْنَةٍ شَهِيدًا ﴾ أي : وأخشيته في الحلوة والعلاية فإنه شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية فراقين الرقيب .
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَصُورُونَ عَلَى الْآيَةِ بِكَاتِبٍ أَلِيمٍ مَاسِرًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ﴾ .

قال أبو العالية : صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، وقال ابن عباس : يصلون يركعون ^(٢) ؛ وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار . وعن عطاء بن أبي رباح ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَصُورُونَ عَلَى الْآيَةِ ﴾ قال : صلاته تبارك وتعالى سبح قدوس سبقت رحمتي غضبي . والمقصود من هذه الآية أن الله ﷻ ، أخبر عباده بمنزلة عبده ونبهه عنده في الملأ الأعلى بأنه يشي عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلي عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا ، وعن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا لموسى ﷺ : هل يصلي ربك ؟ فناداه ربه ﷻ : يا موسى سألوكم هل يصلي ربك فقل : نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي ، فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَصُورُونَ عَلَى الْآيَةِ بِكَاتِبٍ أَلِيمٍ مَاسِرًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ﴾ وقد أخبر ﷻ بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُ اللَّهِ يَصُورُونَ عَلَى مَنَابِتِ الصُّفُوفِ ﴾ ^(٣) .

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٢/٢٢) (٢١٨٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ، تفسير سورة الأحزاب ، قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَصُورُونَ ﴾ الآية .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٦٧٦) وابن ماجه في سننه (١٠٠٥) .

وفي الحديث الآخر : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » ^(١) . وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر والله المستعان .
فمن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة ؟ قال : « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » ^(٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رحمه الله قال : قلنا : يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ وَوَسَّوْلِكَ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ » قال أبو صالح عن الليث : علي محمد وعلي آل محمد كما باركت علي آل إبراهيم ^(٣) .

وعن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرو بن سليم أنه قال : أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ قال : « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » ^(٤) .

وعن أبي مسعود الأنصاري قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادَةَ فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تخمينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ » ^(٥) .

وعن محمد بن إبراهيم التيمي ومحمد بن عبد الله أبي مسعود البصري أنهم قالوا : يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا ؟ فقال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ » ^(٦) . ومن ها هنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير فإن تركه لم تصح صلاته . وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة ، ويزعم أنه تفرد بذلك . وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والحطايي وغيرهم فيما نقله القاضي عياض عنهم ، وقد تصسف هذا القائل في رده على الشافعي وتكلف في دعواه الإجماع في ذلك ، وقال ما لم يحط به علما .

(١) أخرجه البخاري في الفهرست (٦٣٣٢) ومسلم في (الزكاة) (١٧٦) .

(٢) أخرجه البخاري في أسانيد الأئبياء (٣٣٧٠) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٨) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤/٥) وأبو داود في مسنده (٩٧٩ ، ٩٨٠) .

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة (٦٥) وأحمد في مسنده (٢٧٤/٥) والترمذي في مسنده (٤٨٣) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) .

فإننا قد رويناه وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة ، كما هو ظاهر الآية ، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البصري وجابر ابن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبي وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضًا ، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيرًا فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي به ، وبه قال إسحاق بن راهويه والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي رحمهم الله . حتى أن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ ، كما علمهم أن يقولوا لما سألوهم وحتى أن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على آله فيما حكاه البندنجي وسليم الرازي وصاحبه نصر ابن إبراهيم المقدسي ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولًا عن الشافعي . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه وحكوا الإجماع على خلافه وللقول بوجوبه ظواهر الحديث والله أعلم . والغرض أن الشافعي رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفًا وخلفًا ، كما تقدم والله الحمد والمنة ، فلا إجماع على خلافه في المسألة لا قديمًا ولا حديثًا والله أعلم . وما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذي رواه فضالة بن عبيد رحمه الله قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله ولم يصل على النبي ، فقال رسول الله ﷺ : « عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صليت أخذتكم قلائدًا يتعجّد الله ﷻ والثناء عليه ثم ليصل على النبي ﷺ ثم يذبح بعد يمينًا شاة » (١) . وعن عبد الله بن مسعود رحمه الله قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه قال : فقالوا له : علمنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابهه مقامًا محمودًا ينضيه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد (٢) .

وقال أبو إسرائيل عن يونس بن خباب : خطبنا بفارس فقال : ﴿ إِنْ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ وَلَيْتَكُمْ يَصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَكُنْ لَكُمْ الْيَوْمَ مَسَاحُورٌ مَسَاحُورٌ عَلَيْهِ وَسَيَسْأَلُكُمْ تَسْلِيمًا ﴾ فقال : أنبأني من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل ، فقلنا أو قالوا : يا رسول الله علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ كَمَا رَحَّمْتَ آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ كما هو قول الجمهور وبعضه حديث الأعرابي الذي قال : اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ حَجَّزْتُ وَأَسِيقَا » (٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨/٦) والترمذي في سننه (٢٤٧٧) وأبو طود في سننه (١٤٨١) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٩٠٦) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٥٤/٢٢) .

وعن عامر بن ربيعة : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا صَلَّيَ عَلَيَّ فَلْيَقِلْ غَيْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ يُكْثِرْ » ^(١).

وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « أَوَّلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً » ^(٢).

عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ اذْكُرُوا اللَّهَ ، جَاءَتِ الرَّاجِعَةُ فَتُجْعَلُ الزَّادَةُ ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ . » قال أبي : قلت : يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « مَا شِئْتَ » قلت : الربع ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قلت : فالنصف ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قلت : فالثلثين ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » . قلت : أجعل لك صلاتي كلها قال : « إِذْ ذُنُوكُمُي هَمَلَكُ وَيَغْفِرُ لَكَ ذَنْبَكَ » ^(٣).

وعن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه : أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه فقالوا : يا رسول الله إنا نرى السرور في وجهك ؟ فقال : « إِنَّهُ أَتَانِي الْمَلَكُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نُرِيهِكَ أَنَّ رِجْلَكَ تَبْكُ قَالَ : إِنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ؟ قُلْتُ : بَلَى » ^(٤).

وعن أبي طلحة الأنصاري قال : أصبح رسول الله ﷺ يومًا طيب النفس يرى في وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر . قال : « أَجَلُ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَكَانَ فَقَالَ : مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَمَخَا عَشْرَ عَشْرَ سَجَّاتٍ ، وَزَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ ، وَزَدَ عَلَيْهِ مِثْلَهَا » ^(٥).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهَا زَكَاةٌ لَكُمْ وَسَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي أَشْأَى الْجَنَّةِ وَلَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ ، وَأَزْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ » ^(٦).

وعن علي بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « البخل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي » ^(٧) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ثُمَّ اتَّسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَذْرَكَ عِذَّةَ أَبَوَيْهِ الْكَبِيرَ فَلَمْ يُدْخِلْهُ الْجَنَّةَ » ^(٨) . وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٥/٣) وابن ماجه في مسنده (٩٠٧/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في مسنده (٤٨٤) . (٣) ذكره للثوري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/٤) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٤) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٢) والبيهقي في جمع الزوائد (٣٣٢/١) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/١) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٤/٢) ، والحاكم في المستدرک (٥٤٩/١) .

كما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَبِيَّ الصَّلَاةِ عَلَيَّ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ » ^(١) . وذهب آخرون إلى وجوب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة ويتأيد ذلك بحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَيَّ نَبِيَّهُمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تَرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبْتُهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرْتُ لَهُمْ » ^(٢) . وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية . ثم هي مستحبة في كل حال ، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة . قال : وقد حكى الطبري أن محمل الآية على الندب وادعى فيه الإجماع ، قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب فيه مرة كالشهادة له بالنبوة وما زاد على ذلك فمندوب ومرغب فيه من سان الإسلام وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه . فمنه بعد النداء للصلاة : لحديث : « إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذَّنًا قُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ صَلُّوا اللَّهُ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَثْرُةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْتَهِي إِلَّا لِيَبْدِيَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَزْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ » ^(٣) .

وفي الحديث : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَقَالَ : اللَّهُمَّ أَنْزِلْهُ الْمَقْعَدَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي » ^(٤) .

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه ؛ للحديث الذي روي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ » وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ » ^(٥) . وقال علي بن أبي طالب ﷺ : إذا مررت بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ .

وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة . فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير ، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء : منهم الشافعي رحمه الله وأحمد ، وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولاً واحداً وهل تستحب ؟ على قولين للشافعي ، ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنائز فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفي الثانية : أن يصلي على النبي ﷺ ، وفي الثالثة : يدعو

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٩٠٨) والبيهقي في سننه (٢٨٦/٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٨٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥) وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) وأبو داود في سننه (٥٢٣) والترمذي في سننه (٣٦١٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٦٣/١٠) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/٦) وابن ماجه في سننه (٧٧١) .

للميت ، وفي الرابعة : يقول اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده . قال الشافعي رحمته : حدثنا مطرف ابن مازن عن معمر عن الزهري أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سؤا في نفسه ، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويخلص الدعاء للجنازة ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ثم يسلم سؤا في نفسه . وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عمر والشعبي ، ومن ذلك في صلاة العيد عن علقمة أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوما قبل العيد فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فكبير تكبيرة تفتتح بها الصلاة وتحمد ربك وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تدعو وتكبر وتغفل مثل ذلك ، ثم تكبر وتغفل مثل ذلك ، ثم تكبر وتغفل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم تقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تدعو وتكبر وتغفل مثل ذلك ، ثم تركع ، فقال حذيفة وأبو موسى صدق : أبو عبد الرحمن . ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، وعن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك ^(١) . وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَتَبَارَكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَفِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَا يَدُلُّ مِنْ وَالَيْتَ ، وَلَا يَعُزُّ مَنْ عَادَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ » ^(٢) ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة .

وعن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مِنْ أَفْضَلِ آيَاتِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ قُبُضَ ، وَفِيهِ النُّفْخَةُ وَفِيهِ الصُّفْعَةُ فَأَكْبَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ ، فَإِنْ صَلَّاتُكُمْ مَعْرُوضَةً عَلَيَّ » قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أُرمت ؟ - يعني وقد بليت - قال : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْأَرْضَ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ » ^(٣) .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها عبادة ، وذكر الله شرط فيها فوجب ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله . ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره صلى الله عليه وسلم فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » ^(٤) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي عَيْدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ إِنْ صَلَّاتُكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ » ^(٥) . وعن

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/١) والحاكم في المستدرک (١٧٢/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٤) وابن ماجه في سننه (١٠٨٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٠٤١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢) وأبو داود في سننه (٢٠٤٢) .

الحسن بن الحسين بن علي قال : رأى قوماً عند قوماً عند القبر فنهاهم وقال : إن النبي ﷺ قال : « لَا تُجْهِدُوا قَبْرِي عَيْلًا وَلَا تَجْهَدُوا بُيُوتَكُمْ فَجُورًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ عَيْتًا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي » ^(١) . ففعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة فنهاهم . وقد روي أنه رأى رجلاً ينتاب القبر فقال : يا هذا ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء . أي : الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ لِلَّهِ مَلَائِكَةٌ مُنَاجِيْنَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ » ^(٢) . وقد قيل : إنه ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تليته أن يصلي على النبي ﷺ ؛ لما روي عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تليته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال ، وعن وهب بن الأجدع قال : سمعت عمر الخطاب رضي الله عنه يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم اتوا الصفا ، فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع مرات تكبيراً بين حمد الله وثناء عليه وصلاة على النبي ﷺ ومسألة لنفسك ، وعلى المروءة مثل ذلك .

قالوا : ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح ، واستأنسوا بقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَكَ بِذِكْرِكَ ﴾ قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : لا أذكر إلا ذكرت معي . وخالفهم في ذلك الجمهور ، وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى . كما عند الأكل والدخول والوقاع وغير ذلك . مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ .

مسألة : وقد استحبه أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه [الجامع لأدب الراوي والسامع] قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة قال : وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً .

فصل : وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث : اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته فهذا جائز بالإجماع . وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم فقال قائلون : يجوز ذلك واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ . ويقولون : ﴿ عَزَّ مِنْ أَنْزَلْتُمْ صَدَقَةٌ فَطَهَّرْتُمْ وَزَكَّيْتُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ الآية . وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ : إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ » . فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » ^(٣) . قال الجمهور من العلماء : لا يجوز لإفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم فلا يقال : قال أبو بكر صلى الله عليه ، أو : قال علي صلى الله عليه ، وإن كان المعنى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢) والبيهقي في مجمع الزوائد (٤/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/١ ، ٤٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري في اللغات (٦٣٣٢) ومسلم في الزكاة (١٧٦) .

صحيحاً . كما لا يقال : قال محمد ﷺ ، وإن كان عزيزاً جليلاً ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ﷻ ، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى ولا لغيره ، وهذا مسلك حسن . وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم في ذلك والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك هل هو من باب التحريم أو الكراهة التنزيهية أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلف بالأنبياء ، كما أن قولنا ﷺ مخصوص بالله تعالى ، فكما لا يقال محمد ﷺ وإن كان عزيزاً جليلاً لا يقال أبو بكر أو علي صلى الله عليه ، هذا لفظ بحرEFE ، قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا : هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال علي ﷺ وسواء في هذا الأحياء والأموات . وأما الحاضر فيخاطب به فيقال : سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره .

قلت : وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي ﷺ بأن يقال ﷺ من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه ، وهذا وإن كان معناه صحيحاً لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك ، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه ﷺ أجمعين . قال ابن عباس : لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة . وقال جعفر بن برقان : كتب عمر بن عبد العزيز ﷺ : أما بعد فإن ناساً من الناس قد اتسموا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القضاة قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ . فإذا جاعك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ، ودعائهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك .

فرع : قال النووي : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما ، فلا يقول صلى الله عليه فقط ولا ﷺ فقط ، وهذا الذي قاله منترع من هذه الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ فالأولى أن يقال ﷺ تسليماً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَنَنَازِلُهُنَّ اللَّهُ فِي الشَّجَرَةِ الْآخِرَةِ لَعَذَابٌ كَبِيرٌ ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا ظَاهِرًا فَحَبِطُوا فِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَنَنَازِلُهُنَّ اللَّهُ فِي الشَّجَرَةِ الْآخِرَةِ لَعَذَابٌ كَبِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى متهدداً ومتوعداً من أذنه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله بعبث أو تنقص - عياناً بالله من ذلك - قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ نزلت في المصوريين . وفي الصحيحين عنه ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ : يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ ، يَسِيبُ

الدَّهْرُ وَأَنَا الدَّهْرُ ، أَقْلَبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ » ^(١) . ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا ، فيسندون أفعال الله إلى الدهر ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَهَ الْإِنْسَانِ يُوَدِّعُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه شيء ومن آذاه فقد آذى الله . كما أن من أطاعه فقد أطاع الله . كما قال عبد الله بن المغفل المزني : قال رسول الله ﷺ : « الله الله في أصحابي ، لا تتخلوهم غرضا بغدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أي : ينسبون إليهم ما هم براء منه ولم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فَقَدْ أَسْأَلُوا بِهِنَّ وَأَنَّهُنَّ كَيْفًا ﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتقصص لهم . ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد براهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ، فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم وهؤلاء الجهة الأعياء يسبونهم وينقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون المدحوحين ويمدحون اللذومين . وعن أبي هريرة أنه قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَيْبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ » (١) . وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَيُّ الرِّبَا أَرَى عِنْدَ اللَّهِ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَرَى الرِّبَا عِنْدَ اللَّهِ اسْتِغْلَالُ عِرْضِ إِخْوَانِي مُشْلِمٌ » ثم قرأ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَسْأَلُوا بِهِنَّ وَأَنَّهُنَّ كَيْفًا ﴾ (٢) .

[illegible]

يقول تعالى أمرًا ورسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلاييهن ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء ، والجلاباب هو الرداء فوق الحمار . قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة وغير واحد ، وهو بمنزلة الإزار اليوم . قال الجوهري :

(١) أخرجه البخاري في التفسير (١٨٢٦) ومسلم في الألقاظ من الأدب وغيرها (٣، ٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٥ ، ٥٧) والترمذي في مسنده (٣٨٦٢) .

(۳) أخرجه أحمد في مسنده (۳۸۴/۲۰ ، ۳۸۶) وأبو داود في سننه (۴۸۷۴) والترمذي في سننه (۱۹۳۴) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/١) .

الجلباب : الملحفة ، قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدن عينا واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله ﷻ : ﴿ يَذْكُرْكَ عَلَيْنَ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدينه عليها . وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يَذْكُرْكَ عَلَيْنَ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسهن . وقال يونس بن يزيد : وسألناه - يعني الزهري - هل على الوليدة خمار متروجة أو غير متروجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متروجة وتنبهى عن الجلباب ؛ لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّكَ أُنْثَىٰ تَلَذُّكِ يَكَادُ الْفَرْسُ يَدُوكَ أَلْيَنَ مِنَ الْوَلَدِ الرَّحِيمِ إِذْ يَمِيزُ الْيَهُودَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْ لَا يَمِيزُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي شَيْءٍ وَلَئِنْ أُنْثِيَ مِنْكُمْ فَرْعٌ فَلَا يَكْفُرْ بِهِ فِي الْأَرْحَامِ لِلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ . وقاله : ﴿ ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَسْخَرَكُ فُلَا يَذَّيْنِ ﴾ أي : إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر ، لسن إماء ولا عواهر . قال السدي في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّكَ أُنْثَىٰ تَلَذُّكِ يَكَادُ الْفَرْسُ يَدُوكَ أَلْيَنَ مِنَ الْوَلَدِ الرَّحِيمِ إِذْ يَمِيزُ الْيَهُودَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْ لَا يَمِيزُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ : كان ناس من فساد أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة فيعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة فكفوا عنها ، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا : هذه أمة فوثبوا عليها . وقال مجاهد : يتجلبن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا رية . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي : لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ، ثم قال تعالى متوعدا للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره : هم الزناة ها هنا ﴿ وَالْمَرْجُوفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعني : الذين يقولون : جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافترء لهن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُفْرِنَنَّكَ بِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أي لنسلطبك عليهم . وقال قتادة : لنحرقنك بهم ، وقال السدي : لنعلمنك بهم . ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُنَّ فِيكَ فِئًا ﴾ أي : في المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ تَلْمُزِينَ ﴿ حَالٌ مِنْهُمْ فِي إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ مَدَّةَ قَرِيبةَ مطرودين مبعدين ﴾ أَيْ كَمَا تُفْعَلُونَ : أي : وجدوا ﴿ أَيْدُوا ﴾ لذلتهم وقتلتهم ﴿ وَفُتِلُوا قَرِيبةً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ سُبْحَةَ اللَّهِ فِي الْأَنْفُسِ عُلُوًّا مِنْ قَبْلِ ﴾ أي : هذه سته في المنافقين إذا تردوا على نفاقهم وكفروهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبِيلًا ﴾ أي : وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْأَلُ النَّاسُ عَنْ الشَّعْءِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا بِدُرُكٍ لَعَلَّ الشَّعْءَ تَكُونُ كَرِيحًا ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَسَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿ خَالِفِينَ فِيهَا أَيْدًا لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يَمَّ نَقَلَتْ جُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَنْتَنَّا أَلَمَنَّا اللَّهُ وَأَلَمَنَّا أَرْسُلَا ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَلَمْنَا سَادَنَّا وَكُفِّرْنَا فَاغْلِبْنَا السَّيْلَا ﴿ رَبَّنَا تَنَاهَيْتُمْ ضَعْفَيْنِ يَوْمَ الْمَدَائِدِ وَالْمَتَّعْتُمْ لَنَا كَيْدًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله ﷻ . كما قال تعالى في سورة الأعراف وهي مكية وهذه مدنية فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها ، لكن أخيره أنها قرية بقوله : ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَمَلْ أَنْشَأَ نَحْوَكَ قَرْيَةً ۚ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ أَفَدَّرِينَ السَّاعَةَ أَلَمْ نَشَأْ الْقَوْمَ ۚ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكَافِرِينَ ۚ ﴾ أي : أهدمهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۚ ﴾ أي : في الدار الآخرة ﴿ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ﴾ أي : ما كتبن مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿ لَا يَجِدُونَ فِيهَا سَعِيرًا ۚ ﴾ أي : وليس لهم مغيب ولا معين ينقلدهم مما هم فيه ثم قال : ﴿ يَوْمَ تَقُفُّ أَيْدِيهِمْ فِي الْآثَارِ يَقُولُونَ بِإِذْنِنَا آلَمَنَّا اللَّهُ وَأَلْمَنَّا أُرْسُولًا ۚ ﴾ . أي : يسحبون في النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون ، وهم كذلك يحنون لو أن كانوا في الدار الدنيا من أطاع الله وأطاع الرسول . كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله : ﴿ وَبِمِثْلِ الْقَالِمِ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَبْكِي أَفَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَرْسُولَ سَبِيلًا ۚ ﴾ يَبْكِي كَيْتِي لَوْ أَخَذْتُ قَلَامًا خَلِيلًا ۚ ﴿ لَقَدْ أَهْبَأَنِي مِنَ الْكِسْفِ يَوْمَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَتِ الْغَيْمُ لِلْإِنْسَانِ غُطَا ۚ ﴾ . وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاتَنَا فَاغْوَيْنَا سُبُلَنَا ۚ ﴾ . وقال طاوس : سادتنا يعني : الأشراف ، وكبرائنا يعني العلماء ، أي : اتبعنا السادة - وهم الأمراء والكبراء من المشيخة - وخالقنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً وأنهم على شيء ، فإذا هم ليسوا على شيء . ﴿ رَبَّنَا أَنْتَ إِلَهُنَّ يَضَعْنَ بِكِ الْأَكْبَابَ ۚ ﴾ أي : بكفرهم واغواهم إيانا . ﴿ وَاللَّهُمَّ لَمَّا كَبُرَ ۚ ﴾ قرأ بعض القراء بالياء الموحدة ، وقرأ آخرون بالياء المثلثة ^(١) وهما قريباً المعنى كما في حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول الله : علمني دعاء أدعوه في صلاتي قال : ﴿ قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا تَغْفِرُ الذَّلُوتَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۚ ﴾ ^(٢) . يروى كثيراً وكثيراً وكلاهما بمعنى صحيح واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه ، وفي ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة وهذا تارة . كما أن القارئ مخير بين القراءة أيتهما قرأ أحسن وليس له الجمع بينهما والله أعلم .

﴿ يَتَأْتِيَ آلِهَتُهُنَّ الْمَآثِرُ لَا كَوْنُهُنَّ كَالَّذِينَ كَانُوا يُدْعَوْنَ فَدَعَا اللَّهُ مِنْهَا قَالُوا وَمَا لَكُمْ إِذْ دُعِيتُمْ بِهِ ۚ ﴾ .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ مَوْتَى ﷻ كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَيِّئًا لَا يَمُرُّ مِنْ جُلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاهُ مِنْهُ . فَأَذَاهُ مَنْ أَكَاهُ مِنْ نَبِيٍّ إِشْرَافِيٍّ قَالُوا : مَا يَسْتَشْرُفُ هَذَا التَّسْرِ إِلَّا مَنْ غِيبَ فِي جُلْدِهِ إِثْمًا يَرْتَضِ وَإِثْمًا أَدْرَأَ وَإِثْمًا آثَرَهُ . وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَهُ بِمَا قَالُوا لِمَوْسَى ﷻ فَخَلَعَ ثِيَابًا وَخَدَعَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ ، أَقْبَلَ عَلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَذَا يُقْبِوهُ ، فَأَخَذَ مَوْسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ : تَوْبِي حَجَرٌ ، تَوْبِي حَجَرٌ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ نَبِيٍّ

(١) قرأ عاصم ﴿ كَبُرَ ۚ ﴾ بالياء وقرأ الباقون ﴿ كَبُرَ ۚ ﴾ بالياء انظر حجة القراءات ص ٥٨٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٨) .

إِسْرَائِيلَ قَرَأُوهُ غَزِيًّا نَا أَحْمَسَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ وَأَبْرَاهُ إِمَّا يَقُولُونَ ، وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ نُوحٌ فَلَيْسَهُ وَطَقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْضُهُ قَوْلَهُ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَمْرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا - قال - فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آمَدُوا مَوْتَهُمْ فَبَرَّاهُ اللَّهُ ﷻ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَبِيهَا ۝ ^(١) .

وعن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله : ﴿ فَبَرَّاهُ اللَّهُ ﷻ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون ﷺ فقال بنو إسرائيل لموسى ﷺ : أنت قتلتهم كان ألين لنا منك وأشد حياء فأذوه من ذلك ، فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم . قال ابن جرير : وجائر أن يكون هذا هو المراد بالأذى . وجائر أن يكون الأول هو المراد . فلا قول أولى من قول الله ﷻ . قلت : يحتمل أن يكون الكل مرادًا وأن يكون معه غيره . والله أعلم ^(٢) .

وعن شقيق عن عبد الله قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يومًا قسمًا فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال : قلت : يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : « رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَبِيهَا ۝ ^(١) . أي له وجاعة وجاهه عند ربه ﷻ . قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال بعضهم : من وجاعته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله معه فأجاب الله ﷻ سؤاله فقال : ﴿ وَوَقَّيْنَا لَهُ مِنْ رَبِّهِ إِنَّا هُودَيْنَا نَبِيًّا ۝ ^(٢) .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَاتُوا نَفْسًا اللَّهُ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ ^(٣) صَبِّحْ لَكُمْ أَسْلَدُكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ ﷻ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ^(٤) .

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كانه يراه ، وأن يقولوا قولًا سديدًا أي مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أتابهم عليه بأن يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ ﷻ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ^(٥) وذلك أنه يجاز من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم .

عن أبو موسى الأشعري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أَمُرْكُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » ثم أتى النساء فقال : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَمُرْكُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » ^(٦) . وعن ابن عباس موقوفًا قال : من سره أن يكون أكرم الناس فليقت الله ، قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله . وقال غيره : السديد الصديق ، وقال مجاهد : هو السلد ، وقال غيره : هو الثواب ، والكل حق .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٠٤) والكتب كالأثر وزكا ومسنى .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٦٥/٧٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٩) ومسلم في الزكاة (١٤٠ ، ١٤١) .

(٤) أخرجه البخاري في (الغزاة) (٤٢٣٥) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٠/١) .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُتَوَّصِينَ وَالْمُتَوَّصَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ﴾ .

قال العوفي عن ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها فهل أنت تأخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ ﴾ . وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أتأبهم وإن ضيعوها عذبهم ، ففكروها ذلك واشفقوا عليه من غير معصية ولكن تعظيماً لدين الله لا أن يقوموا بها . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ ﴾ يعني غرأ بأمر الله . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة . قال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد : إن الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة . وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن المرأة أؤتمنت على فرجها . وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود ، وقال بعضهم : الغسل من الجنابة ، وقال زيد بن أسلم : الأمانة ثلاثة : الصلاة والصوم والاختصاص من الجنابة ، وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو : أنه إن قام بذلك أتيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان . .

قال عون بن عمر يحدث عن الحسن - يعني البصري - أنه تلا هذه الآية ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قال : عرضها على السبع الطياق الطرائق التي زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التي شددت بالأوتاد ، وذلك بالمهاد ، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب قال : قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنسان والجن والسموات والأرض والجبال ، فبدا بالسموات فعرض عليها الأمانة وهي الطاعة فقال لها : أتحملي هذه الأمانة ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة ؟ فقلن : يا رب إنا لا نستطيع هذا الأمر وليس بنا قوة ولكننا لك مطيعين ، ثم عرض الأمانة على الأرضين فقال لها : أتحملي هذه الأمانة وتقبلني مني وأعطيني الفضل والكرامة في الدنيا ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطق ، ولكننا لك سامعين مطيعين

قال : ثم أخذ حصي فدرجته على رجله قال - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلدته وأظرفه وأعقله وما في قلبه حجة خردل من إيمان ، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه علي دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه علي ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلاناً وفلاناً^(١) . وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَرْبَعٌ إِذَا كُرِّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاثَقَّ مِنْ الدُّنْيَا : حِفْظُ أَمَانَةٍ وَصِدْقُ حَدِيثٍ وَحُشْنُ خَلِيقَةٍ وَعِفَّةُ طَعْمَةٍ »^(٢) . وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة فعن أبي إسحاق الشيباني عن خناس بن سحيم أو قال جبلة بن سحيم : قال : أقبلت مع زياد بن حدير من الجابية ، فقلت في كلامي : لا والأمانة ، فجعل زياد ييكي ويكي فظننت أنني أوتيت أمراً عظيماً فقلت له : أكان يكره هذا ؟ قال : نعم ، كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع عن ابن بريدة عن أبيه ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ خَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا »^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ لَيَذَٰبَ اللَّهُ السَّافِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أي : إنما حمل بني آدم الأمانة ، وهي التكليف ، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويضطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ وهم : الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي : وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في (الفتن) (٧٠٨٦) ومسلم في الإيمان (٢٣٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٣/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٧/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٢/٥) وأبو داود في سننه (٣٢٥٣) .

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمَسَدٌ يَلَهُ الْآلِيُّ لَمْ يَأْمُرْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَا الْمَسَدُ وَلَا الْآخِرَةُ وَمَا لِكَيْفُكَ لَكَيْفُ ۝ يَتْلُمَ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ سَمَاءٍ وَمَا يَنْصَبُ فِيهَا وَمَا الْيَسِيرُ الْقَعْدُ ۝﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ إِلَّا هُوَ لَهُ الْمَسَدُ فِي الْأَرْضِ وَالْآخِرَةُ وَلَا الشُّكُّ وَلِلَّهِ رُشْدُكُمْ ۝ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مَا هُنَا : ﴿ لَمَسَدٌ يَلَهُ الْآلِيُّ لَمْ يَأْمُرْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝ أَي : الجميع ملكه وعبيده ونعت تصرفه وقهره كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَخْفَوْهُ بِالْأُولَى ۝ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا الْمَسَدُ فِي الْآخِرَةِ ۝ فَهُوَ الْمَعْبُودُ أَبَدًا ، الْحَمْدُ عَلَى طَوْلِ الْمَدَى وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لِكَيْفُكَ ۝ أَي : في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ لَكَيْفُ ۝ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَقَالَ الزَّهْرِيُّ : خَيْرٌ بِخَلْقِهِ حَكِيمٌ بِأَمْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتْلُمَ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ۝ أَي : يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض والحب الملبور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنْ سَمَاءٍ ۝ أَي : من قطر وورق ۝ ، ﴿ وَمَا يَنْصَبُ فِيهَا ۝ أَي : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ وَمَا الْيَسِيرُ الْقَعْدُ ۝ أَي : الرحيم بعباده فلا يحاجل عصائهم بالعقوبة ، الغفور عن الذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الْآلِيُّ كَذَرًا لَا تَأْتِيكَ النَّسَافَةُ قُلْ بَلْ وَدَّيْتُ لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَيْهِ الْقَيْبُ لَا يَمُوتُ عَنْهُ يَمُوتُ دَرُّ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْبَحُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَصْبَحُ إِلَّا فِي كِتَابِ شَيْبٍ ۝ لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُوا الصَّالِحِينَ أُولَئِكَ لَمْ تَنْفِرْ وَرَزَقَ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَمَوْا فِي مَائِيكَ مَعْجِينَ أُولَئِكَ لَمْ تَكُنْ مِنْ رِجْزٍ أَيْسَرُ ۝ وَرَى الَّذِينَ أَوْفَرُوا إِلَيْكَ الْوَيْلَ أَفَرَلْ إِلَيْكَ مِنْ رَيْبِكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِيكَ إِلَى صِرَاطِ الْمُبِينِ الْحَمِيدُ ۝﴾ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لها من أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فأحداهم في سورة يونس ﷻ وهي قوله تعالى : ﴿ يَسْتَأْذِنُكَ أَحَدٌ هُوَ قُلْ إِنْ رَزَقْتُكُمْ لَمْ يَكُنْ وَمَا أَشَدُّ يَمْتَعِينَ ۝ وَالثَّانِيَةُ هَذِهِ ، وَالثَّالِثَةُ فِي سُورَةِ النَّعَانِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَذَرُوا أَنْ كُنْ يَمُوتُ قُلْ بَلْ وَدَّيْتُ لَتَكُونَنَّ يَمُوتُ عَذَابٌ وَكَذَلِكَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ ۝ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ بَلْ وَدَّيْتُ لَتَأْتِيَنَّكُمْ ۝ ثُمَّ وَصَفَهُ بِمَا يُوَكِّدُ ذَلِكَ وَيَقْرره فقال : ﴿ عَلَيْهِ الْقَيْبُ لَا يَمُوتُ عَنْهُ يَمُوتُ دَرُّ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْبَحُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَصْبَحُ إِلَّا فِي كِتَابِ شَيْبٍ ۝ . قَالَ مُجَاهِدٌ وَتَقَادَرُ : لَا يَمُوتُ عَنْهُ ۝ : لَا يَغِيبُ عَنْهُ ، أَي الْجَمِيعُ مَنْدَرَجٌ تَحْتَ عِلْمِهِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَالْعِظَامُ ، وَإِنْ تَلَا شِئْتَ وَتَفَرَّقَتْ وَتَفَرَّقَتْ ، فَهُوَ عَالِمُ أَيْنَ ذَهَبَتْ وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ ، ثُمَّ يَعِيدُهَا كَمَا بَدَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَإِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ثُمَّ بَيَّنَّ حِكْمَتَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُوا الصَّالِحِينَ أُولَئِكَ لَمْ تَنْفِرْ وَرَزَقَ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَمَوْا فِي مَائِيكَ مَعْجِينَ ۝ أَي : سعوا في الصَّدَقَاتِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَكْذِيبِ رِسَالِهِ . ﴿ أُولَئِكَ لَمْ تَكُنْ مِنْ رِجْزٍ أَيْسَرُ ۝ أَي : ليعلم السعداء من المؤمنين ويعذب

﴿ وَلَقَدْ مَاتْنَا دَاوُدَ مِنَّا مَهْلًا فَجَعَلْنَا آدَمَ مِنَّا خَلِيفَةً ۖ وَأَلَّاهُ الْكَلِيمَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَةً وَاقِظِي فِي السُّرُورِ ۖ وَاعْمَلُوا صَبِيحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ ۖ

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك التحمك ، والجنود ذوي العدة والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبغ به تسبغ معه الجبال الراسيات الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجابه بأشكال اللغات . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري عليه السلام يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ : « لَقَدْ أَوْتِيَ هَذَا مِرْغَازًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » ^(١) . وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنج ولا وتر يربط ولا أحسن من صوت أبي موسى الأشعري عليه السلام ومعنى قوله تعالى : ﴿ آدَمَ ۝١٠ أَي : سبِغِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَلَّاهُ الْكَلِيمَ ۝١٠ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَالْأَعْمَشُ وَغَيْرُهُمْ : كَانَ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَدْخُلَهُ نَارًا وَلَا يُضْرَبَ بِمِطْرَةٍ بَلْ كَانَ يَفْتَلُهُ يَدُهُ مِثْلَ الْخِيوطِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِ اعْمَلْ سَابِغَةً ۝١٠ وَهِيَ الدَّرُوعُ . قَالَ قَتَادَةُ : وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَهَا مِنَ الْخَلْقِ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ صَفَاحٌ ، وَعَنْ ابْنِ شَوْذَبٍ قَالَ : كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرْفَعُ فِي كُلِّ يَوْمٍ دَرْعًا فِيهِمَا بَسْطَةُ آلَافٍ دَرَاهِمُ أَفْنَيْنِ لَهُ وَلَأُفْلَهُ ، وَأَرْبَعَةُ آلَافٍ دَرَاهِمُ يَطْعَمُ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ خِزَرِ الْخَوَارِجِ ۝١٠ وَقَفَزَ فِي السُّرُورِ ۝١٠ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَعْلِيمِهِ صِنْعَةَ الدَّرُوعِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَفَزَ فِي السُّرُورِ ۝١٠ لَا تَدُقُ الْمِسْمَارُ فَيَقْلُقُ فِي الْحَلْقَةِ وَلَا تَغْلُظُهُ فَيَقْضِمُهَا وَاجْمَلُهُ بِقَدَرٍ ، وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ عَيِّنَةَ : لَا تَغْلُظُهُ فَيَقْضِمُ وَلَا تَدْفَقُ فَيَقْلُقُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْمَلُوا صَبِيحًا ۝١١ أَي : فِي الَّذِي أَعْطَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النِّعَمِ ۝١١ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ أَي : مُرَاقِبٌ لَكُمْ بِصِيرٍ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ .

﴿ وَإِسْلَافَيْنِ الْآرِيحِ غَدَاً شَهْرٌ وَفَلَحَهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسْلَنَّا لَهُ حِينَ الْفَطْرِ وَنَ الْيَمِّ مَن يَصْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يِلَازُنَ رِيحَهُ ۖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِهِ نُفَقِّهِ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْنُوبٍ وَتَتَّبِعِلَّ وَحَلَّانِ كَلْبُوبٍ وَتَقْدِيرَ ذَايَسَدٍ أَعْمَلُوا حَالَهُ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ لَهُ يَكُونُ الشُّكْرُ ۝١٣ ۖ

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له تحمل بأساطه غدوها شهر ورواحها شهر . وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْلَنَّا لَهُ حِينَ الْفَطْرِ ۝١٢ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ۝١٢ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءُ الْخُرْسَانِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : الْفَطْرُ النَّحَاسُ . قَالَ قَتَادَةُ : وَكَانَتْ بِالْيَمَنِ فَكُلُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ مَا أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ السُّدِّيُّ : وَإِنَّمَا أُسِيلَتْ لَهُ ثَلَاثَةُ أَهْلَامٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِهِ نُفَقِّهِ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢ أَي : وَسَخَرْنَا لَهُ الْجِنَّ يَعْمَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ يِلَازُنَ رَبَّهُ ، أَي : بِقُدْرَتِهِ وَتَسْخِيرِهِ لَهُمْ بِمَشِيتِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْبَنَائِيَّاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ۝١٢ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِهِ ۝١٢ أَي : وَمَنْ يَبْغُلُ وَيُخْرِجُ مِنْهُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ۝١٢ نُفَقِّهِ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢ وَهُوَ : الْحَرِيقُ . وَقَالَ ابْنُ أَنُوعٍ : الْجِنُّ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ ، صَنَفٌ لَهُمُ الثَّوَابُ وَعَلَيْهِمُ الْعِقَابُ ، وَصَنَفٌ طَيَّارُونَ فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَصَنَفٌ حَيَاتٌ وَكَلَابُ . قَالَ بَكْرٌ : وَلَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنَّهُ حَدَّثَنِي ، أَنَّ الْإِنْسَانَ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ ،

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم في صلاة المسافرين (٣٦) .

صنف يظلمهم الله بظل عرشه يوم القيامة ، وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين . عن الحسن قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ، ومن هؤلاء مؤمنون وهم شركاء في الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله تعالى ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ يَتَمَنَّوْنَ لَكَ مَا يَشَاءُ مِنْ خَيْرٍ وَيَخْتَفُونَ ﴾ أما المخاريب فهي البناء الحسن ، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره . وقال مجاهد : المخاريب ببيان دون القصور . وقال الضحاک : هي المساجد . وقال قتادة : هي القصور والمساجد . وقال ابن زيد : هي المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفي : التماثيل الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا كَلْبَكُفَّيْكَ وَكَذَّوْبَ رَبِّكَ ﴾ الجواب : جمع جانية ، وهي الخوض الذي يجيى فيه الماء . وعن ابن عباس ؓ : ﴿ كَلْبُوفَ ﴾ أي كالجوبة من الأرض وقال العوفي عنه : كالحياض ، والقذور الراسيات أي : الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما : وقال عكرمة : أثافيا منها . وقوله تعالى : ﴿ أَصْنَعُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ أي : قلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا ، وشكراً مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر والصيام شكر وكل خير عمله لله ﷻ شكر ، وأفضل الشكر الحمد . وعن محمد بن كعب القرطبي قال : الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح . وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل . وقد كان آل داود ﷺ كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً . وعن ثابت البناني قال : كان داود ﷺ قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية : ﴿ أَصْنَعُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ لَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ أَشْكُرُ ﴾ . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ أَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ ، كَانَ يَتِمُّ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ شُدُنُهُ ، وَأَحَبُّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيَقْطَعُ يَوْمًا ، وَلَا يَبْرَأُ إِذَا لَأَمَى » ^(١) . عن جابر ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بِنْتُ دَاوُدَ ﷺ لِإِسْلِيمَانَ : يَا بَنِي لَا تُكْثِرِ التَّوَمَ بِاللَّيْلِ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ التَّوَمِ بِاللَّيْلِ تَنْوُكُ الرَّجُلَ قَبِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٢) . وقال فضيل في قوله تعالى : ﴿ أَصْنَعُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ قال داود : يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك ؟ قال : الْآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ النِّعْمَةَ مِنِّي . وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ أَشْكُرُ ﴾ إخبار عن الواقع . ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمَ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجُنُودُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْقَتِيلَ مَا لَوْحُوا فِي أَثْنَابِ الْيَوْمِينَ ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ﷺ ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له في

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٣٢) .

الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكفاً على عصاه وهي منسأته . كما قال ابن عباس ؓ ومجاهد وغير واحد : مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض - وهي الأرضة - ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وتبينت الجن والإنس أبعثاً أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ مَاءٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ عَزَّوَجَلَّ ۖ فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سِيلَ الْغَمِّ وَبَلَّغْنَاهُمْ مَحْضَتَهُمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْشَلٍ حَمَاطٍ دَأْبُهَا وَثَقُومٌ مِّنْ سِنْدٍ قَلِيلٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِيهِ إِلَّا الْكَفُورَ ۚ ۝﴾ .

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فوقعوا بإرسال السيل والفرق في البلاد أيدي سبأ شنر مذر . عن عبد الرحمن بن وعله قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال ﷺ : « بَلَى هُوَ رَجُلٌ وَلَيْلَةٌ لَهُ عَشْرَةٌ ، فَتَكُنُ الْيَمَنُ مِنْهُمْ بَيْتُهُ وَالشَّامُ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ فَعَلَجِيحٌ وَكَلْدَةٌ وَالْأَزْدُ الْأَشْجَرِيُّونَ وَالْمَأَزُّ وَجِشْيَرٌ ، وَأَمَّا الشَّامِيُّ فَلَخْمٌ وَجَذَامٌ وَعَمَالَةُ وَعَشَائُ » (١) .

قال علماء النسب - منهم محمد بن إسحاق - اسم سبأ عبد الشمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وإنما سمي سبأ ؛ لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له : الرائش لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه فسمي الرائش ، والعرب تسمي المال ريشاً ورياشاً . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم وقال في ذلك شعراً :

سَيَبْلُوكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا	نَبِيٍّ لَا يُرْعَصُ فِي الْحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلْكُوكُ	يُدْبِئُونَ الْقِيَادَ بِكُلِّ دَائِي
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِثْلُ مُلْكُوكُ	يَصِيرُ الْمُلْكُ بَيْنَا بِإِثْتِمَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٍّ	تَقِي مَخِيتَ غَيْرِ الْأَتَامِ
يُصْعَى أَحَعْدًا يَا لَيْتَ أَتَى	أَعْلُو بَعْدَ مَجْعِيهِ بِغَامِ
فَأَغْضَبُهُ وَأَحْبَبُهُ يَنْضَرِي	بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ زَامِ
مَتَى يَظْهَرُ فَكُونُوا نَاصِرِيهِ	وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغْهُ سَلَامِي

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال : أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح . واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاثة طرائق . والثاني : أنه من سلالة عابر ، وهو هود عليه الصلاة والسلام واختلفوا أيضاً في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً . والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن

إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري رحمته الله في كتابه المسمى - الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه - ومعنى قوله عليه السلام : « كَانَ رَجُلًا مِّنَ الْقَرْبِ » يعني : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح ، وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم والله أعلم . ولكن في صحيح البخاري أن رسول الله عليه السلام مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال : « اِزْمُوا بَيْنِي إِشْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ زَالِيًا » ^(١) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا يثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عليه السلام عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، ولما قيل لهم : غسان بماء نزلوا عليه باليمن ، وقيل : إنه قريب من المشلل كما قال حسان بن ثابت عليه السلام :

إِنَّمَا سَأَلْتُ قَبِيلًا مَعَشَرًا حُجِبَ الْأَزْدُ يَسْتَسْبِئُنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

ومعنى قوله عليه السلام : « وَإِلَّا لَهُ عَشْرَةٌ مِّنَ الْقَرْبِ » أي : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر . كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب . ومعنى قوله عليه السلام : « فَتَيَأْتَرْنَ مِنْهُمْ سَيْتًا وَتَشَاعِمْنَ مِنْهُمْ آزِمَةً » . أي : بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزع عنها إلى غيرها . وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقدام فبنوا بينهما سدًا عظيمًا محكمًا حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين . فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن . كما ذكر غير واحد من السلف منهم فتادة أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكنل أو زنبيل - وهو الذي تخترف فيه الثمار - فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرة ونضجه واستوائه . وكان هذا السد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب ، وذكر آخرون : أنه لم يكن يبldهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحده ويعبده كما قال تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِهِمْ آيَةً ﴾ ثم فسرها بقوله عليه السلام : ﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أي : من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كَلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَانْكُرُوا لِمَ بَلَدَ بَيْتِهِ ﴾ و﴿ غَفُورٌ ﴾ أي : غفور لكم إن استمرتم على التوحيد . وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : عن توحيد الله وعبادته الله وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَارْسَلْنَا عَلَىٰ قَرْيَةٍ مِّنَ الْأَرَمِ ﴾ المراد بالعرم المياه ، وقيل : الوادي . وقيل : الجرذ . وقيل : الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز ، حكى ذلك السهلي . وذكر غير واحد منهم ابن عباس أن الله عليه السلام لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها : الجرذ نقيبته . قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون في كتبهم أن

(١) أخرجه البخاري في الملقاب (٣٥٠٧) والمحاكم في المستدرک (٩٤/٢) .

سبب خراب هذا السد هو الجرد ، فكانوا يرصدون عنده السنانيير برهة من الزمان ، فلما جاء القلدر غلبت الفأر السنانيير وولجت إلى السد فتقته فانهار عليهم . وقال قتادة وغيره : الجرد : هو الخلد نقت أسافله حتى إذا ضعف ووهي ، وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال ، فبيست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار للشجرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَيَذْلِكُمْ بِحَبْنَتِهِمْ حَبْنَتِي ذَوَاتِي أَكْكَلِي حَمَلِي ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم : وهو الأراك وأكلة البربر ﴿ وَأَنْلِي ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : هو الطرفاء وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء وقيل : هو السمر والله أعلم . وقوله : ﴿ وَتَقْتَوِيْنَ سِتْرِيْ قَلِيْلٍ ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر ﴿ وَأَنْلِيْ وَتَقْتَوِيْنَ سِتْرِيْ قَلِيْلٍ ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الباطل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْبِرُونَ عَلَى الْكَفْرِ ﴾ أي : عاقبتهم بكفرهم . قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصري : صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاووس : لا يناقش إلا الكفور . وقال ابن خيرة وكان من أصحاب علي عليه : جزاء المصيبة الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والتعسر في اللغة قيل : وما التعسر في اللغة ؟ قال : لا يصادف للذة حلال إلا جاءه من ينغصه لهاها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَةً ظَهْرَهُمْ وَفَعَلْنَا فِيهَا لِسَانِي وَلَيْسَ مَا بَيْنَهُمْ قَرْيَةً بَلَدٌ بَيْنَ أَصْفَارِيْ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَسْلَافًا وَتَرَكْنَاهُمْ كُلَّ مَتَرَفٍ لَّذِي فِي ذَلِكَ تَكْرِيبٌ لِّكُلِّ حَسْبَارٍ فَكُفِّرْ ﴾ . يذكر ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافريهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ، ويقيل في قرية ويبست في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ قال وهب ابن منبه : هي قرى بصنعاء ، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبيرة وغيرهم : يعني : قرى الشام ، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة . وقال ابن عباس : القرى التي باركنا فيها بيت المقدس ، وقال العوفي عنه أيضًا : هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿ قَرْيَ ظَهْرَهُمْ ﴾ أي : بينة واضحة يعرفها المسافرون يقولون في واحدة ويبستون في أخرى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَفَعَلْنَا فِيهَا لِسَانِي ﴾ أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سِتْرِيْ فِيهَا لِسَانِي وَلَيْسَ مَا بَيْنَهُمْ قَرْيَةً ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهارًا ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَلِّغْ بَيْنَ أَصْفَارِيْ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وقرأ آخرون (يُفَكِّدُ بَيْنَ أَصْفَارِنَا) ^(١) وذلك أنهم بطروا هذه النعمة . كما قال ابن عباس وغير واحد . وأجروا مغاوير ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والخفاف ، كما طلب بنو إسرائيل

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (يُفَكِّدُ) بالشديد والباطون بالألف (باعد) (حجة القرايات ص ٥٨٨) .

من موسى ، أن يخرج الله لهم مما تبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مِثْلٍ وسلوى وما يشتهون من مأكَل ومشارب وملابس مرتفعة . ولهذا قال لهم : ﴿ تَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ كَارِهُونَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَنْ قَدْ مَضَىٰ أَمْرُهُمْ ﴾ . وقال تعالى في حق هؤلاء : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَنِيَّائِنَا أَفَكْرًا وَعَدُوًّا لَنَا ﴾ . أي : بكفرهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ لِمَا يُكَفِّرُونَ عَنْهُمْ مِرَّةً ﴾ . أي : جعلناهم حديقًا للناس وسمروا يتحدثون به من خيرهم . وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء ، تفرقوا في البلاد ها هنا وها هنا . ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبأ وأبادي سبأ ، وتفرقوا شلر منر .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشهاده بإرسال العرم عليهم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثني به أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذًا يحقر في سد مأرب الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن ، وكاد قومه ، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو : لا أنهم يبلد لطم وجهي فيها أصغر ولدي وعرض أمواله . فقال أشرف من أشرف اليمن : اغتموا غنبيّة عمرو فاشترؤا منه أمواله ، وانتقل هو في ولده وولد ولده ، وقالت الأسد : لا تتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يترادون البلدان فحاربهم عك وكانت حربهم سجالاً ، ففي ذلك يقول عباس بن مراد السلمي ؓ :

وَعَكَ بُنْ عَدَنَانَ الَّذِينَ تَلَعَّبُوا بِغَمَّائِهِمْ حَتَّى طُرِدُوا كُلَّ مَطَرِدٍ

وهذا البيت من قصيدة له . قال : ثم ارتحلوا عنهم ، فتفرقوا في البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو ابن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مؤا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان عمان ، ثم أرسل الله على السد السيل ، فهدمه . وفي ذلك أنزل الله ﷻ هذه الآيات . وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو ما ذكر محمد بن إسحاق إلا أنه قال : فأمر ابن أخيه مكان ابنه - إلى قوله - فباع ماله وارتحل بأهله فتفرقوا . وقال ابن جرير : عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر - وهو عم القوم - كان كاهنًا قرأ في كهاتمه أن قومه سيمزقون وياعد بين أسفارهم . فقال لهم : إني قد علمت أنكم ستمزقون فمن كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد ، ومزاد حديد ، فليلق بكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هم مدن ، وأمر دعن ، فليلق بأرض شن ، فكانت عوف بن عمرو وهم الذين يقال لهم : بارق ، ومن كان منكم يريد عيشًا آتيا ، وحرما أمنا فليلق بالأرزين فكانت خزاعة ، ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، والمطعمات في الحبل ، فليلق يثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيطان من الأنصار ، ومن كان منكم يريد خمرا وخميرا وذهبا وحريرا ، وملكا وتاميرا ، فليلق بكوثي وبصرى ، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام ومن كان منهم بالعراق . قال ابن

إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر ، وكانت كاهنة فرأت في كهانتها ذلك ، قاله أعلم أي ذلك كان ^(١) . وقال سعيد عن قتادة عن الشعبي : أما غسان فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا ببشر ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم الله كل ممزق .

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَكِنِّي لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النعمة والعداب وتبديل النعمة ، وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام ، لمبرة ودلالة لكل عبد صابر على المصائب شكور على النعم . قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ خَيْرٌ حِمْدُ رَبِّهِ وَشُكْرُ ، وَإِنْ أَصَابَهُ مُصِيبَةٌ حَمْدُ رَبِّهِ وَصَبْرٌ . يُؤْخِرُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللَّعْنَةِ يُدْفَعَهَا إِلَى فِي امْرِئَاتِهِ » ^(٢) .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) وَكَانَ لَهُمْ مِنْ شُلِّينَ إِلَى سُلْطَانٍ مِّنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَمِنْهَا فِي شُلِّكَ وَرَيْكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَاطٌّ ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم من أتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنه : وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام . ثم قال : ﴿ أَنبَأَكَ هَذَا الْأَوَّلَى كَحَرَمَتْ عَلَى كَيْفَ لَمْ تُفَرِّقْ إِنْ يَدْرِي الْيَوْمَ لَأُخَوِّدَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا فَرِيقًا ﴾ . وقال الحسن البصري : لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما وقال : إذا أصبت من الأيوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ، وكان ذلك ظناً من إبليس فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح أعده وأمينه وأخذه ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يفرغ بالموت ، ولا يدعوني إلا أجيته ، ولا يسألني إلا أعطيته ، ولا يستغفرني إلا غفرت له ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَانَ لَهُمْ مِنْ شُلِّينَ إِلَى سُلْطَانٍ مِّنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَمِنْهَا فِي شُلِّكَ وَرَيْكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَاطٌّ ﴾ أي من حجة . وقال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرهم على شيء . وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه . وقوله ﷻ : ﴿ إِلَّا سُلْطَانٌ مِّنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَمِنْهَا فِي شُلِّكَ وَرَيْكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَاطٌّ ﴾ أي : إنما سلطاناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالأخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة ربه ﷻ في الدنيا ممن هو منها في شل .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَيْكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَاطٌّ ﴾ أي : ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظة وكلامته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلْ أَتَدْعُوا إِلَيْكَ رِصْمًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِنَّ مِنْ شِئْءٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ ^(٤) وَلَا تَنْتَفِعُ النَّفْعَةَ عَنْهُ إِلَّا لِمَنْ آتَاكَ لَهُ حَقٌّ إِنَّا نَحْنُ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَائِلُونَ مَا كَانَا

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠٥/٢٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٣/١) والبيهقي في جميع الزوائد (٢٠٩/٧) .

قَالَ رَبِّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

بين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض . فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا إِلَهُكُم مِّمَّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : الألهة التي عبدت من دونه ﴿ لَا يَسْتَعِينُونَ ﴾ يُقَالُ دَعَّرَ رَبَّ السَّحَابِ وَيَدْعُوهُ رَبِّي الْأَكْبَرُ . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعِيرٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ . أي : لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة . ﴿ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ ظَعِيرٍ ﴾ أي : وليس لله من هذه الأنناد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه ، قال قتادة في قوله ﴿ قُلْ ﴾ : ﴿ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ ظَعِيرٍ ﴾ من عون يعينه بشيء . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ ﴾ أي : لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ، كما قال ﴿ قُلْ ﴾ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ولهذا ثبت عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شافع عند الله تعالى - أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء قال : « فَأَسْجُدْ لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فَهَدَّعَنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي ، وَيَشْفَعَنِي عَلَيَّ بِتَحَايِدٍ لَا أَحْصِيهَا الْآنَ ، ثُمَّ يَقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تَشْفَعُ ، وَسَلْ تُقْطَعُ ، وَاشْفَعُ تُشْفَعُ » (١) . الحديث بتمامه .

وقوله تعالى : ﴿ حَقَّ لَنَا فَزَعٌ عَنِ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي . قاله ابن مسعود رحمه الله ومسروق وغيرهما . ﴿ حَقَّ لَنَا فَزَعٌ عَنِ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : زال الفزع عنها . قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما وقادة : في قوله ﴿ قُلْ ﴾ : ﴿ حَقَّ لَنَا فَزَعٌ عَنِ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ يقول : خلى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ، وجاء مرفوعاً (إذا فرغ) بالغين المعجمة ويرجع إلى الأول ، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يولونهم ، ثم الذين يولونهم لمن تحبهم حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ أي : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ . وقال آخرون : بل معنى قوله تعالى : ﴿ حَقَّ لَنَا فَزَعٌ عَنِ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني المشركين عند الاحضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا : ماذا قال ربكم ؟ ف قيل لهم : الحق وأخبروا به بما كانوا عنه لا همين في الدنيا ، قال مجاهد : ﴿ حَقَّ لَنَا فَزَعٌ عَنِ قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة ، وقال الحسن : يعني : ما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : ما فيها من الشك قال : فرغ الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانهم وما كان يضلهم . ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا في بني آدم هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار . وقد اختار ابن جرير القول الأول ، وأن الضمير عائذ على الملائكة ، وهذا هو الحق الذي لا مزية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار ولندكر منها طرفاً يدل على غيره .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٢) .

رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَفَنَزَّلْنَاهُ مِنْ سِدْرٍ مَعْدَنٍ عَنْ الْمَكَاتِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِأَلْ كُتُبٍ مُجْرِبِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَحْمِلَ ثَقْلَ أَثْمَارِهِ أَسْمَاءً وَأَسْمَارًا الْكِبَارَةَ لَنَا رَأَوُا الْعَذَابَ وَبَعَثْنَا الْأَقْنَادَ فِي أَصْنَافٍ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُعْزِرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَسْمُونُ ﴿٣٣﴾ .

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم ، وبما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ تُوْفَىٰ بِعَهْدِ الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ . قال الله ﷻ متهددا لهم ومتوعدا ومحيرا عن مواقفهم الدلية بين يديه في حال تخصصهم وتماحجهم ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا ﴾ وهم الأنبياء ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ منهم وهم قاداتهم وساداتهم ، ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لولا أنتم تصدونا لكانا اتبعنا الرسل وأما بما جاؤوا به ، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا ﴿ أَفَنَزَّلْنَاهُ مِنْ سِدْرٍ مَعْدَنٍ عَنْ الْمَكَاتِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ؟ ﴾ أي : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أننا دعوناكم فاتبعتونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُتُبُ الْمُجْرِبِينَ ﴾ وقال الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿ أَي : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا وتفرون وتمنون وتخبرونا أنا على هدى ، وأنا على شيء ، فإذا جمع ذلك باطل وكذب ومين . قال قتادة وابن زيد : ﴿ بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار ، وكذا قال زيد بن أسلم . ﴿ لَوْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَحْمِلَ ثَقْلَ أَثْمَارِهِ ﴾ أي نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شياها وأشياء من المحال تضلون بها ﴿ وَأَسْمَارًا الْكِبَارَةَ لَنَا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي : الجميع من السادة والأنبياء كل ندم على ما سلف منه ﴿ وَبَعَثْنَا الْأَقْنَادَ فِي أَصْنَافٍ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهي : السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هَلْ يُعْزِرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَسْمُونُ ﴾ أي : إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم وللأنبياء بحسبهم . ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا فَتُؤْمَرُ ﴾ .

وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ جَهَنَّمَ لَأُيَبِّقُ إِلَيْهَا أَهْلُهَا تَلْقَاهُمْ لَهَايِبًا ثُمَّ لَفَعْتَهُمْ لَفْعَةً فَلَمْ يَبْقَ لَحْمٌ إِلَّا شَقِطٌ عَلَى الْغُرُوبِ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَتْرُوفًا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَذِبُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَيْنَا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ قل إِنَّ رَبِّي بِبَيْتِ الْإِزْقِ لَعَيْنٌ يَبْصُرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رَجُلًا فِي قَرْيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ هُمُ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ بِمَا عَمِلُوا وَمَنْ فِي الْقَرْيَةِ كَايِسُونَ ﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي غَايَتَيْ مُدْجِرَيْنِ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُتَصِفُونَ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي بِبَيْتِ الْإِزْقِ لَعَيْنٌ يَبْصُرُ مَا تَكَاوَدُ وَيُقَدِّرُ لَمْ وَمَا أَتَقَفْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ بِحِلْسِهِمْ وَمَوْ حَبْرُ الْإِزْقِ ﴾ .

يقول تعالى مسلينا لنبيه ﷺ وأمرأ له بالناسي بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه متروفا واتبه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ أَتُؤْتِينَا لَكَ دَلِيلًا وَالَّذِينَ كَذَبُوا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُؤْمِرِينَ لِيَسْكُنُوا فِيهَا ﴾ . وقال جل

(١) أخرجه الطبري في الغريب والفرج (٤٨٨/٤) .

وعلاها هنا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ أي : نبي أو رسول ﴿ إِلَّا قَالُوا مَرْثُومًا ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة . قال قتادة : هم جبابرهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر . ﴿ إِنْ يَأْتِ أُرْسِلَتْهُمْ بِرَدٍّ كَثِيرٍ ﴾ أي : لا تؤمن به ولا تتبعه . عن أبي زرين قال : كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل . فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلني عليه قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب . قال : فأتى النبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : « أدعوني كذا وكذا » قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ : « وَمَا عَلَيْكَ بِذَلِكَ ؟ » قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا قَالُوا مَرْثُومًا إِنْ يَأْتِ أُرْسِلَتْهُمْ بِرَدٍّ كَثِيرٍ ﴾ الآية . قال : فأرسل إليه النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ قَدْ أَنْزَلَ تَصْدِيقًا مَا قُلْتَ » وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها : وسألتك : أضغاث الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فرعمت بل ضغافهم ، وهم أتباع الرسل . وقال تبارك وتعالى إخباراً عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُحْذَرِينَ ﴾ أي : افنخوا بكثرة الأموال والأولاد واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتناؤه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله تعالى : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ أَنْزَلْنَاهُ وَلَا تَأْتِلُكُمْ إِلَّا شَرٌّ لَّكُمْ يُخْلِسُكُمْ فِيهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَذَرَفَتْ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكَاذِبُونَ ﴾ .

وقد أخبر الله ﷻ عن صاحب تنك الجنتين أنه : كان ذا مال وشر وولد ثم لم يخن عنه شيئاً . بل سلب ذلك في الدنيا قبل الآخرة ، ولهذا قال ﷻ ها هنا : ﴿ قُلْ إِنْ رَدَّ يَسْطُرْ أَرَيْتَ لِمَن يَنْشَأُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا وَلَا أَوْلَدْنَا بِأَلِيٍّ قَرْيَةً مِّنَّا زَلَّيْ ﴾ أي : ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتناكم بكم . وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورَتِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنَّ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ^(١) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي : إنما يقر بكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح . ﴿ فَأُولَئِكَ نَمُجِّدُهُمْ جَزَاءً لِّمَا عَمِلُوا ﴾ أي : تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . ﴿ وَفَمَن يَفِرَّ مِّنَ الْقَرْيَةِ آمِنًا ﴾ أي : في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شيء يحلر منه . وعن علي ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَكُرْسِيًّا تَرَى ظُهُورَهَا مِنْ بَطُونِهَا وَبَطُونَهَا مِنْ ظُهُورِهَا » فقال أعرابي : لمن هي ؟ قال ﷺ : « لِمَن طَلَبَ الْكَلَامَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » ^(٢) . ﴿ وَالَّذِينَ يَسْتَوْنَ فِي مَكَانِنَا مُتَجِدِينَ ﴾ أي : يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته . ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُتَضَرِّينَ ﴾ أي : جميعهم مجزون بأعمالهم فيها بحسبهم .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٢) ، وابن ماجه في سننه (٤١٤٢) والإمام مسلم في البر الوصية (٣٤) من حديث كثيرين هشام عن جعفر بن برقان ٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥٢٧) والإمام أحمد في مسنده (١٥٦/١) .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَأْتِيَنَّكَ الرِّزْقُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَقْدِرَ لَكَ ﴾ أي : بحسب ماله في ذلك من الحكمة يسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ، ويقتصر على هذا رزقه جدا . وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَتَرَى كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمُ عَلَى الْآخِرَةِ أَكْبَرُ نَدْبَتِ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أي : كما هم متفاوتون في الدنيا . هذا فقير مدقع ، وهذا غني موسع عليه . فكل ذلك هم في الآخرة ، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات ، وهذا في الغمرات في أسفل الدرجات ، وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا وَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي : مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت في الحديث : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَتُفْنِ أَتُفْنِي عَلَيْكَ ﴾ (٢) . وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكا تلقا ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا (٣) . وقال رسول الله ﷺ : ﴿ أَتُفْنِي بِلَا وَلَا تُخْشِي مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا ﴾ (٤) . وقال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه ، فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَسْأَلُهُمْ جِبْرًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبْرَآكُرُ كَانُوا يَسْتَدِينُونَ ﴾ قالوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ مُؤْنِهِمْ بَلْ كَانُوا يَسْتَدِينُونَ الْجِبْرُ أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ تُنْفَخُونَ ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَتَكَبَّرُ فِيهِمُ مَنُفَرِّقٌ لَكُمْ يَسْعَى لِيُخْرِجَكُمْ وَيَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ آثَارِ آلِي نُوحٍ يَمْ كَذَّبْتُمْ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربهم إلى الله زلفى فيقول للملائكة : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِبْرَآكُرُ كَانُوا يَسْتَدِينُونَ ﴾ أي : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم . كما قال تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ مَا أَتَى النَّاسَ الْغَيْبُ وَأَنَا الْغَيْبُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُولَى مَا يَكُونُ لِي بِشَيْءٍ ﴾ وهكذا تقول الملائكة ﴿ سُبْحَنَكَ ﴾ أي : تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ مُؤْنِهِمْ ﴾ أي : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿ بَلْ كَانُوا يَسْتَدِينُونَ الْجِبْرُ ﴾ يعنون : الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلواهم ﴿ أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ تُنْفَخُونَ ﴾ . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِيهِ إِلَّا إِنْ شَاءَ رَبُّنَا لَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمْ نَفَعٌ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَ تَرْجُوْنَ نَفْعَهُ الْيَوْمَ مِنَ الْأَوْتَانِ الَّتِي ادَّخَرْتُمْ عِبَادَتَهَا لَشِدَادَتِكُمْ وَكِرْبِكُمْ ، الْيَوْمَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿ وَهُمْ الْمَشْرُكُونَ ﴾ ذُوقُوا عَذَابَ آثَارِ آلِي نُوحٍ يَمْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي : يقال لهم ذلك ترميقا ونوبيحا .

﴿ وَكَانَ ثَقُلَ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ كَيْفَ أَخَذُوا مَا هَذَا إِلَّا حَسْرَتُ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَصُدَّقُوا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ وَكَانُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْ شَاءَ الْمُفَرِّقُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا جَاءَهُمْ مِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُؤْتَمِرٌ ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/٢ ، ١٧٣) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤) ومسلم في الزكاة (٣٦ ، ٣٧) .

(٣) أخرجه البخاري في (الزكاة) (١٤٤٢) ومسلم في الزكاة (٥٧) .

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الروايات (١٢٦/٣ ، ٢٤١/١٠) .

لَا يَمُنُّ بِكَ مِنْ نَجِيرٍ ﴿٤٣﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا وَعْدَكَ مَا عَاقَبْتَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَذَّبَ كَانَ نَكِيرٌ .
 يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تولى عليهم آياته بينات يسمعونها غصبة طرية من لسان رسول الله ﷺ ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ دِينِ آبَائِكُمْ ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ، عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى . ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّا عَفَى ﴾ يعنون : القرآن ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ رَبِّنَا لَسَاءَ لَنَا بَلَاءُهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عَاقَبْتَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ أي : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكانا أهدى من غيرنا ، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من الأمم ﴿ وَمَا بَلَّغُوا وَعْدَكَ مَا عَاقَبْتَهُمْ ﴾ قال ابن عباس ؓ : أي : من القوة في الدنيا . كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا فِي الْأَرْضِ قَبْلَهُمْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ أي : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَذَّبَ كَانَ نَكِيرٌ ﴾ أي : فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي .
 ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِطْتُكُمْ بَرْكَتِي أَنْ تَقُولُوا بِمِثْقَلٍ ذَرَّةٍ مِمَّنْ تَفْكَرُونَ مَا يَصْلِحُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿ إِنَّمَا أَعِطْتُكُمْ بَرْكَتِي ﴾ أي : إنما أمركم بواحدة وهي : ﴿ أَنْ تَقُولُوا بِمِثْقَلٍ ذَرَّةٍ مِمَّنْ تَفْكَرُونَ مَا يَصْلِحُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ أي : تقولوا قياتما خالصا لله من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فيصبح بعضكم بعضا ﴿ تَفْكَرُونَ ﴾ أي : ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويفكر في ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا بِمِثْقَلٍ ذَرَّةٍ مِمَّنْ تَفْكَرُونَ مَا يَصْلِحُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ هذا معنى ما ذكره مجاهد والسدي وقادة وغيرهم . وهذا هو المراد من الآية .
 وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ عن ابن عباس ؓ أنه قال : صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَذْرَ مُضْجِعُكُمْ أَوْ يَمْسِكُكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي » قالوا : بلى ؟ قال ﷺ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » . فقال أبو لهب : تبأ لك الهذا جمعتنا . فأنزل الله ﷻ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (١) . وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه ؓ قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ تَذَرُونَنَا مَتَلَيْ وَمَتَلَيْكُمْ ؟ » قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم ، قال ﷺ : « إِنَّمَا مَتَلَيْ وَمَتَلَيْكُمْ مَتَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَذْرًا يَأْتِيهِمْ فَيَقْتُلُونَ رِجَالًا فَتَرَاهُمْ فِيهِمَا هُوَ كَذَلِكَ أَبْصَرَ الْعَذْرُ قَائِلُ لِيُنْذِرَهُمْ وَخَشِيَ أَنْ يُنْذِرَهُ الْعَذْرُ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ فَأَهْوَى بِقَوْمِهِ ،

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٠١) ومسلم في الإيمان (٣٥٥٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٨١/١) .

أَيُّهَا الثَّامِسُ أُوتِشْتُمْ ، أَيُّهَا الثَّامِسُ أُوتِشْتُمْ « ثلاث مرات ، قال رسول الله ﷺ : « يُعْثُثُ آتَا وَالشَّاعَةُ جَمِيعًا إِنْ كَذَبْتَ لَفَسْفِي » ^(١) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهَوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْفُؤَادِ ﴾ ﴿ قُلْ جَاءَ لَكُمْ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُبِيدُ ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرِيدُ إِلَهِي رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهَوَ لَكُمْ ﴾ أي : لا أريد منكم جعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله ﷻ إليكم ، ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله . ﴿ إِنْ أَجَرَى ﴾ أي : إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه . وقوله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْفُؤَادِ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ نَفْسِهِ ﴾ أي : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ لَكُمْ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُبِيدُ ﴾ . أي : جاء الحق من الله والشرع العظيم وذهب الباطل ، وزحق واضمحل ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِنَّمَا هُوَ زَائِقٌ ﴾ . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطمئن الصنم منها بسية قوسه ويقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ^(٢) . ﴿ قُلْ جَاءَ لَكُمْ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُبِيدُ ﴾ . أي : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة ، وزعم قتادة والسدي : أن المراد بالباطل ها هنا إبليس أي : أنه لا يخلق أحداً ولا يمهده ولا يقدر على ذلك ، وهذا وإن كان حقاً ولكن ليس هو المراد ها هنا والله أعلم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرِيدُ إِلَهِي رَبِّيَ ﴾ أي : الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله ﷻ من الرحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فليأثم بضل من تلقاء نفسه . كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده قريب يجب دعوة الداعي إذا دعاه . وفي الصحيحين : « إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا مُجِيبًا » ^(٣) .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ دُعُوا فَلَا مُؤْتَى وَيُخْلَدُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ﴿ وَكَأَلَا أَمَانًا بِهِ وَأَنَّ لَهُمُ الْكُفْرَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَنْزِفُونَ بِالْقَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿ وَجِئِلَ يَتَّبِعُهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُوتِلَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُبِينٍ ﴾ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الظالم (٢٤٧٨) ومسلم في الجهاد (٨٤ ، ٨٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٧٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤ ، ٤٥) .

يقول تبارك وتعالى ولو ترى يا محمد إذا فرغ هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿فَلَا تَرَوْكَ﴾ أي : فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ . ﴿وَلْيُذْخِرُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي : لم يمكنوا أن يجمعوا في الهرب ، بل أخذوا من أول هولة . والمراد بذلك يوم القيامة وهو الطامة العظمى ، ﴿وَكَاذِبًا مَّا نَسَا بِهِ﴾ أي : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله . كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الشُّعْرَاءُ تَاكِيهُنَّ أَكْبَرُ مِنْهُمْ وَعِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَمُنَّ بِمَا نُنَادِيكَ إِنَّا كُنَّا ثَمُورًا﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَكُمْ الْخَبْرَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي : وكيف لهم تعاطي الإيمان ، وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، لا دار الابتلاء فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان . كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . قال مجاهد : ﴿وَأَنَّىٰ لَكُمْ الْخَبْرَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال : تناولوا لذلك . وقال الزهري : تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا ، وقال الحسن البصري : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والقوة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة . وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة ؟ وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل ﴿وَيَقُولُونَ بِالْقَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿وَيَقُولُونَ بِالْقَيْبِ﴾ قال : بالظن ، قلت : كما قال تعالى : ﴿رَبَّنَا بِالْقَيْبِ﴾ فتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : كاهن ، وتارة يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : مجنون ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد ﴿إِنْ ظَنُّوا إِلَّا ظَنًّا وَمَا لَكُنَّ بِمُحْسِنِينَ﴾ قال قتادة ومجاهد : يرجمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله تعالى : ﴿وَجِبِلٌ بَيْنَهُمْ وَيَبِينٌ مَّا يَشْتَبُونَ﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما : يعني : الإيمان . وقال السدي : ﴿وَجِبِلٌ بَيْنَهُمْ وَيَبِينٌ مَّا يَشْتَبُونَ﴾ وهي : التوبة ، وقال مجاهد ﴿وَجِبِلٌ بَيْنَهُمْ وَيَبِينٌ مَّا يَشْتَبُونَ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فجمعوا منه . وقوله تعالى : ﴿كَاذِبًا مَّا نَسَا بِهِمْ﴾ أي : كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا مَانَا بِاللَّهِ وَنَسَوْنَ مَا كُفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مَشْرِكِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا يَكُنْ لَهُمْ لَبَاسٌ جَدِيدٌ قَالُوا مَانَا بِاللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ قَدْ كُنَّا فِي غَبَاةٍ فَفُتْنَا﴾ (١) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿لَهُمْ كَاذِبًا فِي مَكِّ ثَمُودٌ﴾ أي : كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يقبل منهم الإيمان عند معاناة العذاب : قال قتادة : لإياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمَسَدٌ قَدِ فَاتَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَابِلُ السَّعْيَةِ رَمَلَ أَرَىٰ أُخِيضَ مَتْنٌ وَتَكَتَ رِيْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَنَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنه : كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بحر فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتهما أي : بدأتهما . وقال ابن عباس رضي الله عنه أيضا : ﴿ فَاتَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : بديع السماوات والأرض . وقال الضحاك : كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض ، فهو خالق السماوات والأرض . وقوله تعالى : ﴿ جَابِلُ السَّعْيَةِ رَمَلَ ﴾ أي : بينه وبين أنبيائه ﴿ أَرَىٰ أُخِيضَ ﴾ أي : يطرون بها ليلغوا ما أمروا به سريعا . ﴿ مَتْنٌ وَتَكَتَ رِيْعٌ ﴾ أي : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك . كما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء ، وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَنَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال السدي : يزيد في الأجنة وخلقه ما يشاء . وقال الزهري وابن جريج في قوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَنَاءُ ﴾ يعني : حسن الصوت .

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرِيلَ لَهُ مِنْ بَدِيدٍ وَهُوَ الْغَرِيُّ لَكَلِيمٌ ۝﴾ .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سَجَّعَ اللَّهُ لِي سَحْمَةَ اللَّهِ لَهْمُ رَمَلًا لَكَ الْحَمْدُ مِلءُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَمِثْلُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ ، اللَّهُمَّ أَهْلَ النَّاءِ وَالْجِدِّ ، أَخَقِّ مَا قَالَ الْقَبْدُ وَكُلُّكَ لَكَ عَبْدٌ . اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ وَلَا تَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » ^(١) وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَسْكِرْ اللَّهُ بِمُتَرَفٍ فَكَرَّكَتْ لَهُ إِلَّا هُوَ وَلَئِنْ يُرِيدْ بِمُتَرَفٍ فَلَا رَادَّ لِفَتْحِهِ ﴾ . ولها نظائر كثيرة . وقال الإمام مالك رحمه الله عليه : كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول : مطرونا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرِيلَ لَهُ مِنْ بَدِيدٍ وَهُوَ الْغَرِيُّ لَكَلِيمٌ ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَكْثَرُ مَا يَسْتَعِزُّ بِاللَّهِ عِبَادُهُ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ أَلْسِنَةٍ وَالْأَرْضُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَالِقَ ثَوْبِكُمْ ۝﴾ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراذ العبادة له . كما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك فليفرز بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَالِقَ ثَوْبِكُمْ ۝﴾ أي : فكيف توفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ، والله أعلم .

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ وَلِلَّهِ أَنَّهُ تَجِبَ الْأَمْرُ ﴾ ١ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَضْكُمْ لَلنَّبِيِّ الْأَنْبِيَاءُ وَلَا يَفْرَقْكُمْ يَأْتِي النَّاسُ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَضْكُمْ لَلنَّبِيِّ الْأَنْبِيَاءُ .

يقول تبارك وتعالى : وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركين بالله ، وبخالفوك فيما جتهدت به من التوحيد فلنك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ، فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمرهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴾ أي : وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء . ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أي : للمعاد كائن لا محالة . ﴿ فَلَا تَعْرَضْكُمْ لَلنَّبِيِّ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ أي : العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم ، فلا تلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية . ﴿ وَلَا يَفْرَقْكُمْ يَأْتِي النَّبِيُّ ﴾ وهو الشيطان ، قاله ابن عباس رضي الله عنه : أي : لا يفتنكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصدق كلماته ، فإنه غرار كذاب أفك ، وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان . ﴿ فَلَا تَعْرَضْكُمْ لَلنَّبِيِّ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا يَفْرَقْكُمْ يَأْتِي النَّبِيُّ ﴾ . وقال زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ يَتَّبِعُهُمْ الشَّيْطَانُ يَوْمَ ذَلِكَ بِكُلِّ قَوْمٍ مَّتَابِعَةٌ ﴾ ينسب إليهم سوء لهم بأنهم كانوا في الدنيا مع الكفرة والظالمين من يسلو الكذاب ﴿ يَتَذَكَّرُ أَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ قَالُوا بَلَى وَكُنَّا نَكْفُرُ فَفَتَنَّا أَفْسُسَهُمْ وَرَبَّيْنَاهُمْ فَفَرَّقْنَاهُمْ الْأَمْثَلُ حَقًّا جَاءَ أَنَّهُ اللَّهُ وَفَرَّقْنَاهُمْ يَأْتِي النَّبِيُّ ﴾ . ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ عَدُوٌّ ﴾ أي : هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يفرمكم به . ﴿ إِنَّا يَدْعُوا يَزِيدُ يَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين نسال الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتاب الله ، والافتقار بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ٢ أَفَنُؤِنُّ لَمْ نَكُنْ مَعَهُمْ قَوْمًا حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُبْدِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

لما ذكر تعالى أن اتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ . أي : لما كان منهم من ذنب ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ على ما عملوه من خير . ثم قال تعالى : ﴿ أَفَنُؤِنُّ لَمْ نَكُنْ مَعَهُمْ قَوْمًا حَسَنًا ﴾ يعني : كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة ، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أي : أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُبْدِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : بقدره كان ذلك ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أي : لا تأسف على ذلك ، فإن الله الحكيم في قدره إما يضل من يضل ويهدي من يهدي ، لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وعن عبد الله بن الدلمي قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، وهو في حائط بالطائف يقال له : الوهط قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَعَنَ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يُؤْمِنُ فَقَدْ اغْتَدَى ، وَمَنْ أَضَلَّاهُ مِنْهُ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَعَلَ الْقَلَمُ عَلَى مَا عَلِمَ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم ﴾ (١) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٦/٢) ، والحاكم في المستدرک (٣٠/٨) .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ مِمَّا فَتَقَتَهُ إِنْ بَلَغَتْ مَيِّتًا فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُتُورُ ٩ مَن كَانَ يُرِيدُ الْإِزَّةَ لِلدِّينِ جِمْعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الْكَلْبُ وَالْمَعْلُ الصَّلْبُ بَرَقَعُهُ وَالَّذِينَ يَسْكُرُونَ السُّكَاتِ هُمْ عَنَابُ شَدِيدٌ وَنَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُلِّ آلٍ بِرَبِّهِ ١٠ وَاللَّهُ عَظِيمٌ مِّن تَرَابٍ مَّن يَنْفَلِقَهُ ثُمَّ جَعَلْنَا بَرَقًا وَفَا تَحِيلُ مِّنْ أُنثَىٰ وَلَا تَسْعُ إِلَّا بِإِيجَابِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١١ ﴾ .

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، كما في أول سورة الحج بنبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء ، وأنزلها عليها ﴿ اَهْتَرَّتْ وَبَرَّتْ وَكِتَّتْ مِنْ كَلْبٍ رَّجْعَ بَهِيحٍ ﴾ . كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعا ، ونبتت الأجساد في قبورها ، كما نبتت الحبة في الأرض . ولهذا جاء في الصحيح : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَتَلَيَّ إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ ، يَتَلَيَّ خَلْقَ وَمِثْلَهُ يُرَكَّبُ » ^(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَتُذَكِّرُ ﴾ . وتقدم في الحج حديث أبي رزين قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ : « يَا أَبَا رَزِينٍ أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ ثُمَّ حُلَا ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَرُ خَضِرًا ؟ » قلت : بلى ، قال ﷺ : « فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْإِزَّةَ لِلدِّينِ جِمْعًا ٩ ﴾ . أي : من كان يحب أن يكون عزيزا في الدنيا والآخرة ، فليأمر طاعة الله تعالى ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعا . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَخْرُجُ قَوْلُهُمْ إِنْ أَلْسِنَةٌ جِمْعًا ﴾ . قال مجاهد : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْإِزَّةَ ٩ ﴾ عبادة الأوثان ؛ فَإِنَّ الْإِزَّةَ لِلدِّينِ جِمْعًا ﴾ . وقال قتادة : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْإِزَّةَ لِلدِّينِ جِمْعًا ٩ ﴾ أي : فليتمتع بطاعة الله ﷻ . وقيل : من كان يريد علم العزة لمن هي ﴿ فَإِنَّ الْإِزَّةَ لِلدِّينِ جِمْعًا ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الْكَلْبُ ﴾ يعني : الذكر والتلاوة والدعاء ؛ قاله غير واحد من السلف ، وعن الخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله هو ابن مسعود ﷺ : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى ، إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تبارك الله . أخذ من ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقاتلهن حتى يجيء بهن وجه الله ﷻ . ثم قرأ عبد الله ﷺ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الْكَلْبُ وَالْمَعْلُ الصَّلْبُ بَرَقَعُهُ ﴾ ^(٣) وعن النعمان بن بشير ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَهْلِيلِهِ يَتَمَاطِفُونَ حَوْلَ الْعَرْشِ لَهُنَّ دَرَجَتَانِ كَدَوِيَّ التَّحْلِيلِ يُذَكَّرُونَ بِصَاحِبِهِنَّ ، أَلَا يُحِبُّ أَنْ تُذَكَّرَ أَنْ لَا يُزَالُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ شَيْءٌ يُذَكَّرُ بِهِ » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْمَعْلُ الصَّلْبُ بَرَقَعُهُ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ : الكلام الطيب ذكر الله تعالى يُصعد به إلى الله ﷻ ، والعمل الصالح أداء الفريضة . فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله ﷻ . ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به . وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وقال إياس

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٨/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢/٤) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٤/٢٢) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٨/٤) .

ابن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن وقادة : لا يقبل قول إلا بعمل .
 وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ النَّاصِيَاتِ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب : هم
 المراءون بأعمالهم ، يعني : يمحرون بالناس يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله تعالى
 يراءون بأعمالهم ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد : هم المشركون ، والصحيح
 أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ لِّمَن كَانَ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾
 أي : يفسد ويطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي ، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله
 تعالى على صفحات وجهه وفلمات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداها إن خيرا فخير
 وإن شرا فشر ، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غيبي ، أما المؤمنون المتفلسون فلا يروج ذلك عليهم ،
 بل ينكشف لهم عن قريب وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ
 تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثٍ ﴾ أي : اجنأ خلق أياكم آدم من تراب ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ﴿ ثُمَّ
 جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي : ذكرنا وأنثى لطفًا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجًا من جنسكم لتسكنوا إليها . وقوله
 ﴿ وَمَا يَحْمِلُ مِنْ أَثْقٍ وَلَا تَقْبَعُ إِلَّا يُبَالِغُ ﴾ أي : هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل
 ﴿ وَمَا تَسْأَلُ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا يَكْتَسِبْهَا وَلَا حَبْرَ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ وَلَا يُكْتَبُ إِلَّا فِي كِتَابٍ عَمِيمٍ ﴾ .

وقوله ﴿ وَمَا يَحْمِلُ مِنْ أَثْقٍ وَلَا تَقْبَعُ إِلَّا يُبَالِغُ ﴾ أي : ما يعطي بعض اللطف من
 العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول . ﴿ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُثْرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس
 لا على العين ؛ لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير
 على الجنس . قال ابن جرير : وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه أي ونصف ثوب آخر . عن ابن
 عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَحْمِلُ مِنْ أَثْقٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُثْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ يقول :
 ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له فإمّا
 ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة يبالغ
 العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُثْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ
 إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . يقول : كل ذلك في كتاب عنده . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن
 أبيه ﴿ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُثْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام ، وقال عبد
 الرحمن في تفسيرها : ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .
 وقال قتادة : والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد : ﴿ وَمَا يَحْمِلُ مِنْ
 أَثْقٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُثْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أي : في بطن أمه يكتب له ذلك . لم يخلق الخلق على عمر
 واحد ، بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ . وقال
 بعضهم : بل معناه ﴿ وَمَا يَحْمِلُ مِنْ أَثْقٍ ﴾ أي : ما يكتب من الأجل . ﴿ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُثْرِهِ ﴾ وهو
 ذهابه قليلًا قليلًا ، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهرًا بعد شهر ، وجمعه بعد جمعة ،
 ويومًا بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه ^(١) . واختار ابن جرير

الأول ، وهو كما قال ، وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سَرَهُ أَنْ يُسَمَّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْشَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَتَهُ » ^(١) . وقوله **لَهُ** : ﴿ إِنَّ ذِكْرَكَ عَلَى اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ أي : سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبفضيله في جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَالُغٌ لَبَاحٌ ﴾ وَيَنْ كُلُّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيكًا وَتَسْتَفْرِخُونَ فِيهِ تَلْسُونَهَا وَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَلِيرٌ يُبْتَنُونَ مِنْ قَبْرِهِ وَلَكُمْ تَفْكَرُونَ .

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصاير ، والعمران والبراري والقفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك . ﴿ وَهَذَا يَالُغٌ لَبَاحٌ ﴾ أي : مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زعاقا مرة ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَنْ كُلُّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيكًا ﴾ يعني : السمك ﴿ وَتَسْتَفْرِخُونَ فِيهِ تَلْسُونَهَا ﴾ كما قال **لَهُ** : ﴿ يَبْرُجُ بَيْنَهُمَا الْأَنْهَارُ وَأَلْهَمَ الْإِنسَانُ مَاءَ الْوَيْحِ نَزَحًا يَكُونُ فِيهِ مَوَلِيرٌ ﴾ أي : تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جوجو الطير وهو صدره . وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ولا يخر الريح من السفن إلا العظام . وقوله جل وعلا : ﴿ يُبْتَنُونَ مِنْ قَبْرِهِ ﴾ أي : بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ﴿ وَلَكُمْ تَفْكَرُونَ ﴾ أي : تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تنصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ، من فضله ورحمته . ﴿ يُولِغُ الْإِنْسَانُ فِي الْفُكَارِ يُؤَلِّغُ الْآلِهَ فِي الْإِلِّ وَسَخَّرَ الْفُكَارَ وَالْفُكَارَ كَلَّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسْئَرٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۝ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَهُمْ كَمَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ يَكَارُونَ بِذُرِّيَّتِكُمْ وَلَا يَنْتَهِكَ بِمِثْلِ خَيْرٍ ۝

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضياءه ، وبأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا . ثم يتقارضان صيفا وشتاء ﴿ وَسَخَّرَ الْفُكَارَ وَالْفُكَارَ ﴾ أي : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السماوات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديرًا من عزيز عليهم . ﴿ كَلَّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسْئَرٍ ﴾ أي : إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره . ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين . ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وعكرمة وغيرهم : القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة أي : لا يملكون من السماوات والأرض شيئًا ولا بمقدار هذا القطمير . ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ ﴾ يعني : الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها . ﴿ وَهُمْ كَمَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ يَكَارُونَ بِذُرِّيَّتِكُمْ وَلَا يَنْتَهِكَ بِمِثْلِ خَيْرٍ ۝

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٦٧) ومسلم في البر والصلة (٢٠) .

أَسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴿١٥﴾ أي : لا يقدرُونَ على شيء مما تطلبون منها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْلَفُونَ بِشَرِّكُمْ ﴾ أي : يبرؤون منكم . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَسْبَغَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا نُحَرِّقُ الْنَاسَ كَالْعُشْبِ الْكَاهِنِ كَمَا كُنْتُمْ تُصَلُّونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْتَعِبُ مِنْهُ ﴾ أي : ولا يعجبك بوقائع الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَنْتَعِبُ الْإِنْسَانُ أَشْرَ الْفِرَقَةِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِغُلَامٍ جَدِيدٍ ﴾ ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَكَانَ ثَقُلُ الْإِنْجِيلِ إِنْ جِئِلَهَا إِلَّا يَحْمِلُ عَنْهُ ثَمَرُهَا وَلَوْ كَانَ دَا فَرِيقًا ﴾ ﴿ إِنَّمَا نُزِّلُ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ رَحْمَةً بِالْقَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمِنْ تَرَكُوا فَلَيْتَمَا يَسْتَرْكُوا لَقَدْ كُنْتُمْ تَلْقَوْنَ اللَّهَ الْغَنِيُّ ﴾ . يخبر تعالى بغضائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه ، فقال تعالى : ﴿ يَنْتَعِبُ الْإِنْسَانُ أَشْرَ الْفِرَقَةِ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغني عنهم بالذات ؛ ولهذا قال ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره وبشرعه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِغُلَامٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : لو شاء لأذهبكم أبها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ، ولا يمنع ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ وَكَانَ ثَقُلُ الْإِنْجِيلِ إِنْ جِئِلَهَا ﴾ أي : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضها ﴿ لَا يَحْمِلُ عَنْهُ ثَمَرُهَا وَلَوْ كَانَ دَا فَرِيقًا ﴾ أي : وإن كان فريقا إليها حتى ولو كان أبهاها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ثَقُلُ الْإِنْجِيلِ إِنْ جِئِلَهَا ﴾ الآية : هو الجار يتعلق بجواره يوم القيامة فيقول : يا رب سل هذا لم كان يخلق بابه دوني ، وإن الكافر ليرتبط بالمؤمن يوم القيامة فيقول : يا مؤمن إن لي عندك يدا ، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم ، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو في النار ، وإن الوالد ليرتبط بولده يوم القيامة فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ ففتني خيرا فيقول له : يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكنني أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ، أو يا هذه أي زوج كنت لك ؟ فتفتني خيرا فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهيبها لي لملي أنجو بها مما ترين ، قال : فنقول : ما أيسر ما طلبت ولكنني لا أطيق أن أعطيك شيئا إني أتخوف مثل الذي تتخوف ، يقول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ ثَقُلُ الْإِنْجِيلِ إِنْ جِئِلَهَا ﴾ الآية . ويقول تبارك وتعالى : ﴿ لَا يَجِزُ وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَىٰ هُوَ كَإِخْوَانِهِ وَلَا وَلِيٌّ ﴾ ﴿ ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴾ ﴿ إِنَّمَا نُزِّلُ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ رَحْمَةً بِالْقَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي : إنما ينطق بما جرت به أولو البصائر والنهي ، الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به . ﴿ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَسْتَرْكُ الْغَنِيُّ ﴾ أي : ومن عمل صالحا ، وإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَّا اللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أي : وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب . وسيجزي كل عامل بعمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِ الْأَنْجَاءُ وَلَا

وَحَمْرٌ مِّنْ غَضَبِكَ أَنزَلْنَاكَ أَي : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضًا من بيض وحمرة ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جلة مختلفة الألوان أيضًا . قال ابن عباس : الجدد الطرائق ، وكذا قال أبو مالك والحسن وقادة والسدي . ومنها ﴿ وَغَرِيْبٌ سَوْدٌ ﴾ قال عكرمة : الغريب الجبال الطوال السود . وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود قالوا : أسود غريب . ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى : ﴿ وَغَرِيْبٌ سَوْدٌ ﴾ أي : سود غريب وفيما قاله نظر . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْكَ النَّاسُ وَالْأَنْدَادُ وَالْأَنْدَادُ تَحْتِلُ أَوْتَهُ كَذَلِكَ ﴾ أي : كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام ، كذلك هي مختلفة أيضًا ، فالناس منهم بربر وجبوش وطماطم في غاية السواد ، وصقالبة وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهند دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَكَأَنِّي أَخْبَرْتُكُمْ وَأَنْزَلْتُ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَذَكِّرِينَ ﴾ . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبيض فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فبإذن الله أحسن الخالقين . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أبصغ ريك ، قال صلى الله عليه وسلم : « نَتَمَّ صَبِيغًا لَا يَتَقَشُّ ، أَحْمَرُ وَأَصْفَرُ وَأَبْيَضٌ » ^(١) . ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقُونَ ﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم التقدير العلم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقُونَ ﴾ قال ابن عباس : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير . وقال عكرمة عن ابن عباس : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئًا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبيرة : الخشية : هي التي تحول بينك وبين معصية الله صلى الله عليه وسلم . وقال الحسن البصري : العالم من خشية الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه . ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ . وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية . وعن ابن وهب عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد بن صالح المصري : معناه أن الخشية لا تترك بكثرة الرواية ، وإنما العلم الذي فرض الله صلى الله عليه وسلم أن يتبع ؛ فإما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين . فهذا لا يدرك إلا بالرواية ، ويكون تأويل قوله : نور يريد به فهم العلم ومعرفة معانيه . وقال أبو حيان التميمي عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة ؛ عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ، ويعلم الحدود والفرائض ، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض ، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله صلى الله عليه وسلم .

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨/٥) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ كِبْرًا ۖ لَّيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠ ﴾ .

يخير تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً سراً وعلانية ، ﴿ يَرْجُونَ تَجَارَةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ كِبْرًا ۖ ﴾ أي : يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله ، كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : إن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَّيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ أي : ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ إِنَّهُمْ غَفُورٌ ﴾ أي : لذنوبهم ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم . قال قتادة : كان مطرف رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا رَضِيَ عَنِ الْعَبْدِ أَتَى عَلَيْهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ مِّنَ الْخَيْرِ لَمْ يَقْمَلْهُ ، وَإِذَا سَخَطَ عَلَى الْعَبْدِ أَتَى عَلَيْهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ مِّنَ الشَّرِّ لَمْ يَقْمَلْهُ » ^(١) .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم مَّن ذَكَرُوا آلَهُم بآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسَبِّحُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَصْنَعُونَ خَبِيرٌ ۝٣١ ﴾ .
يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم مَّن ذَكَرُوا آلَهُم بآيَاتِنَا ﴾ يا محمد من الكتاب ؛ وهو القرآن ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هي له بالتبوية وأنه منزل من رب العالمين . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَصْنَعُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي : هو خير بهم بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه ؛ ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات . وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .
﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي بِلَاذِ اللَّهِ ذَلِيلًا ۚ هُوَ الْقَبُولُ الْكَبِيرُ ۝٣٢ ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائلين بالكتب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفتينا من عبادنا وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو المؤدب للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات . ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي بِلَاذِ اللَّهِ ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ووثمهم الله تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : « شَقَاتُنِي لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِي » ^(٢) . قال ابن عباس رضي الله عنه : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعته محمد ﷺ . وكذا روي عن غير

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/٣) وقال عنه ابن كثير : غريب جداً .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٢/٣) وأبو داود في مسنده (٤٧٢٩) والترمذي في مسنده (٢٤٣٩) والطبراني في الكبير (٢٣٢٧/١) .

واحد من السلف ، أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارئين للكتاب .

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ فَيَنْهَرُ ظَالِرًا لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هو الكافر . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَيَنْهَرُ ظَالِرًا لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة . وقال مالك عن زيد بن أسلم والحسن وقادة : هو المنافق . ثم قد قال ابن عباس والحسن وقادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها ، والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير . كما هو ظاهر الآية . وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق يشد بعضها بعضاً .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَيَنْهَرُ ظَالِرًا لِنَفْسِهِ . وَيَنْهَرُ مُقْتَصِدًا وَيَنْهَرُ سَائِقًا وَالْخَبَرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ . فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأَوْرَثُوا لَهُ الْكِتَابَ يَكُونُونَ فِيهِ حِسَابًا ، وَأَمَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوَلَّيْنَا الَّذِينَ يُحَاسِبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَوْرَثُوا الَّذِينَ يُحِبُّونَ فِي طُولِ الْحَشْرِ ثُمَّ هُمُ الَّذِينَ تَلَاغَاهُمْ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ فَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ : ﴿ لَعَسَ اللَّهُ الْخَبْرَ آتَاهُمْ بَعْدَ الْحَرِّ إِسَاءَةً كَالْحَرِّ ﴾ أَلَيْسَ لَنَا بِمَنْعَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَآلَيْسَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ » (١) .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ﴿ فَيَنْهَرُ ظَالِرًا لِنَفْسِهِ وَيَنْهَرُ مُقْتَصِدًا وَيَنْهَرُ سَائِقًا وَالْخَبَرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ » (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن هذه الأمة ثلاث ثلاث يوم القيامة ، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يعجزون بذنوب عظام حتى يقول الله تعالى : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً ، فيقول الرب تعالى : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي . وتلا عبد الله رضي الله عنه هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية .

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال : سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَيَنْهَرُ ظَالِرًا لِنَفْسِهِ ﴾ الآية . فقالت لي : يا بني هؤلاء في الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم قال : فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وقال عبد الله بن المبارك رحمته الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَيَنْهَرُ ظَالِرًا لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هي لأهل بلدونا ومقتصدنا أهل حضرنا وسابقنا أهل الجهاد . فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا قرر هذا ، فإن الآية عامة في

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٨/٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١/١) والبيهقي في مجمع الزوائد (٩٦/٧) .

جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة ، وعن قيس ابن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو يدمشق فقال : ما أتمدك أي أخي ؟ قال حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لحاجة ، قال : لا ؟ ، قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال ﷺ : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهَا عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لَطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ لِعَالَمٍ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى يَحِثَّ الْخَيْطَانُ فِي الْمَاءِ ، وَفَضَّلَ الْعَالَمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضَّلَ الْقَمَرَ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ . إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِيْنَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَبْطٍ وَابِرٍ » ^(١) .

وعن ثعلبة بن الحكم رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْعُلَمَاءِ : إِنِّي لَمْ أَصْغِ عِلْمِي وَجِئْتُكُمْ فِيكُمْ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَى مَا كَانَتْ مِنْكُمْ وَلَا أَتَابِي » ^(٢) .
 ﴿ جَنَّتٌ عَنْدَ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ وَقَالُوا لَكَئِدْنا إِلَيْكَ أَخْبَرْنَا عَنْكَ الْكَذِبَ إِنَّكَ رَجُلٌ كَاذِبٌ ۝ أَلَيْسَ لَكُنَا بِكَافِرِينَ ۝ أَلَيْسَ لَكُنَا بِكَافِرِينَ مِنْ قَبْلِهِ لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّ فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ .

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أوتوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن ، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله ﷻ : ﴿ يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ . كما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ » ^(٣) . ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ولهذا كان محظورًا عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ : « مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ » ^(٤) .
 وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن أبا أمامة رضي الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلي أهل الجنة فقال : « مُسَوَّوْنَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مُكَلَّلَةً بِالذَّرِّ أَكَالِيلُ مِنْ ذُرٍّ وَيَأْقُوبُ مَتَوَاصِلَةً ، وَعَلَيْهِمْ تَابِعُ كَتَاثِ الْمُلُوكِ ، شَبَابُ جِرْدٍ مَرْدٌ مُكْحَلُونَ » ^(٥) . ﴿ وَقَالُوا لَكَئِدْنا إِلَيْكَ أَخْبَرْنَا عَنْكَ الْكَذِبَ ۝ وَهُوَ الْخَوْفُ مِنَ الْخَوْفِ أَزَاحَهُ عَنَّا وَأَرْاحَنَا مَا كُنَّا نَتَخَوَفُهُ وَنَحْذَرُهُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات .
 ﴿ أَلَيْسَ لَكُنَا بِكَافِرِينَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ . يقولون الذي أعطانا هذه المنزل ، وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لَنْ يُدْخِلَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٦/٥) وأبو داود في سننه (٣٦٤١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٣٥٠/١) والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٨٦٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٧١/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٤) ومسلم في اللباس (٢١ ، ٢٢) .

(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠ ، ٣٣٣) والعلاني في الترهيب والترهيب (٤١٦/٢) .

أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَحَدَّثَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » ^(١) . « لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَفْسٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَفْسٌ » أي : لا يسئس فيها عناء . والنصب والغروب كل منهما يستعمل في التعب ، وكان المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يدينون أنفسهم في العبادة في الدنيا . فسقط عنهم التكليف بدخولها وصاروا في راحة دائمة مستمرة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كُنَّا وَآخِرُهُا حَبِيبًا بِمَا اسْتَلَقْتُمْ فِي آيَاتِهِ الْخَالِيَةَ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاثِبٍ ﴾ ^(٢) وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فَيَدْرَأْكُمْ إِلَىٰ ذُنُوبِكُمْ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّذِينَ قَدْ أَفْلَحُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ ﴾ .

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأسقياء فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ . ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أَمَا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَاهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ » ^(٣) . وقال ﷺ : ﴿ وَكَأَنَّهُمْ يَنْفَخُونَ فِيهِمْ نَارًا قَالُوا لَكُمُ تَرْكُوتُ ﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك . قال الله تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ . كما قال ﷺ : ﴿ قَدْ وَدَّوْا أَنْ يُرِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاثِبٍ ﴾ . أي : هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق . وقوله جلّت عظمته : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا ﴾ أي : ينادون فيها بجأرون إلى الله ﷻ بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي : يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فَيَدْرَأْكُمْ إِلَىٰ ذُنُوبِكُمْ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّذِينَ قَدْ أَفْلَحُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ ﴾ أي : أو ما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لاتفتحتم به في مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا . فروي عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعملوا أن طول العمر حجة فعوذ بالله أن نغير بطول العمر . قد نزلت هذه الآية ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فَيَدْرَأْكُمْ إِلَىٰ ذُنُوبِكُمْ ﴾ وإن فيهم لابن ثمانين عشرة سنة . وقال وهب بن منبه في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فَيَدْرَأْكُمْ إِلَىٰ ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال : عشرين سنة . وقال الحسن : أربعين سنة ، وقال مسروق : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله ﷻ ، وعن ابن عباس عليه السلام : قال : العمر الذي أعلن الله تعالى لابن آدم ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فَيَدْرَأْكُمْ إِلَىٰ ذُنُوبِكُمْ ﴾ : أربعون سنة ^(٤) ؟ . وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس عليه السلام : قال : ستون سنة . فهذه الرواية أصبح عن ابن عباس عليه السلام وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا . لما ثبت في ذلك من الحديث . كما سنورده لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك ؛ لأن في

(١) أخرجه البخاري في الرضى (٥٦٧٣) ومسلم في (صفت المفلحين) (٧٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٦) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٩/٢٢) .

إسناده من يجب التثبت في أمره .

وقد روى أصبغ بن نباته عن علي ؑ أنه قال : ستون سنة .

وعن أبي هريرة ؑ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَغْلَزَ اللَّهُ ﷻ إِلَى إِثْرِي أُخْرَ عُمُوهُ حَتَّى بَلَغَ بَيَّتَيْنِ سَنَةً » ^(١) .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهزم كما قال الشاعر :

إِذَا بَلَغَ الْفَتَى بَيَّتَيْنِ عِلْمًا فَقَدْ ذَهَبَ الْمَسْرُوءُ وَالْفَقَاءُ

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به ويبرح به عنهم الملل . كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة . كما ورد بذلك الحديث . فعن أبي هريرة ؑ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَغْمَاؤُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السَّتِينِ إِلَى الشَّبَعَيْنِ وَأَقْلَهُنَّ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ » ^(٢) .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثًا وستين سنة ^(٣) ، وقيل : ستين . وقيل : خمسًا وستين . والمشهور الأول والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَكْثَرُكُمْ أَسَدِي ﴾ روي عن ابن عباس ؓ وعكرمة وأبي جعفر الباقر ؑ وقادة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا : يعني الشيب . وقال السدي : يعني به رسول الله ﷺ ، وقرأ ابن زيد ﴿ هَكَذَا تَزَيَّرَ ابْنُ الْكَلْبِ الْأُولَى ﴾ وهذا الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسول ، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر . لقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَنْكِبُونَ ﴾ يعني عينا ذلك قال ابن كثير ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ بِشَيْءٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : لقد بينا لكم الحق على السنة الرسالية وأبقيتم وخالفتم . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا كَذَابَ الْفُلُجِيِّينَ مِنْ نَجِيمٍ ﴾ أي : فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم . فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ مَن كَثُرَ فَلَبَّى كَثْرَهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا . يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر ، وما تنطوي عليه الضمائر . وسيجازي كل عامل بعمله . ثم قال ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : يخلف قوم لآخرين قبلهم وجبل لحبل قبلهم . كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ . ﴿ مَن كَثُرَ فَلَبَّى كَثْرَهُ ﴾ أي : فإما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أي : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين ، فإنهم كلما طال عمر أحدهم ، وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزله في الجنة ، وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٠٠) وابن ماجه في سننه (٤٢٣٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (١١٤ ، ١١٥) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَّعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ مَالِهِمْ كُنُوزٌ خَالِدَةٌ عَلَى يَدِ الْأَعْلَى لَوْ عَلِمُوا إِلاَّ غُرُورًا ۝١٠ إِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ الشَّقَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَ وَلَئِنْ رَأَوْا إِذْ أَنْشَأَهُمْ مِنْ تَحْتِهَا يَوْمَئِذٍ لَئِنْ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝١١ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَّعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۝١٠ . أي : من الأصنام والأنداد ﴾ ﴿ لَوْ عَلِمُوا مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۝١١ : أي : ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير . وقوله : ﴿ أَمْ مَالِهِمْ كُنُوزٌ خَالِدَةٌ عَلَى يَدِ الْأَعْلَى ۝١٠ : أي : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ يَدَ الْأَعْلَى بِيَدِهِمْ بَعْضًا إِنْ أَزِيدُوا ۝١١ ﴾ . أي : بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وأراءهم وأمانيتهم التي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور ، ثم أنكر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ الشَّقَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَ ۝١١ : أي : أن تضطربا عن أماكنهما . كما قال ﷻ : ﴿ يَسْخِطُ الْكَلَمَةَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ لَازِبَةٌ ۝١١ ﴾ . ﴿ وَلَئِنْ رَأَوْا إِذْ أَنْشَأَهُمْ مِنْ تَحْتِهَا يَوْمَئِذٍ لَئِنْ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝١١ : أي : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حلِيم غفور أي : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يجعل ، ويستتر آخرين ويغفر . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝١١ ﴾ وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَأَمَّلُ وَلَا يُتَفَكَّرُ لَهُ أَنْ يَتَأَمَّلَ ، يُخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ الثُّورُ أَوْ الثَّارُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَجَتْ مَسَاحَاتُ وَجْهِهِ مَا كَتَبَتْهُ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (١) .

وعن أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله هو ابن مسعود ؓ فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا قال : ما حدثك ؟ قال : حدثني أن السماوات تدور على منكب ملك ، قال : أفصدقته أو كذبه ؟ قال : ما صدقته ولا كذبه ، قال : لوددت أنك اتخذت من رحلتك إليه براحتك ورحلتك كذب كعب . إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ الشَّقَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَ وَلَئِنْ رَأَوْا إِذْ أَنْشَأَهُمْ مِنْ تَحْتِهَا يَوْمَئِذٍ لَئِنْ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝١١ ﴾ (٢) .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِسْدَى الْأُنثَىٰ لَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ عُتُورًا ۝١٢ أَسْبَغَ إِحْزَانًا يَوْمَئِذٍ إِلَى الْأَرْضِ وَنَكَرَ النَّاسُ وَلَا يُعِيقُ الْكُفْرَ النَّاسُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سَاعَتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يُغَادِ بِسْطِ الْأَرْضِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝١٣ ﴾ .

يخبر تعالى عن قرش والعرب أنهم أقسموا بالله جهداً أي ما بينهم من إيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِسْدَى الْأُنثَىٰ ۝١٢ : أي : من جميع الأم الذين أرسل إليهم الرسل ، قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَزْوَاجُ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِينَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلَتٌ ۝١٣ ﴾ أَر تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْ أَهْلِهَا فَقَدْ جَاءَهُمْ سَبْعٌ مِنْ نَبِيِّنَا وَمَكِّيٌّ وَرَحِمَهُمْ هَؤُلَاءِ أَهْلُهُ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤ ، ٢٩٥) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٥/٤) وابن ماجه في سننه (١٩٥ ، ١٩٦) .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٣/٢٢) .

وَمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِكَ فَآتِ بِهِ مَا تُرِيدُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَنَنَزِّلُكَ بِمَا تَدَّعَىٰ ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ﴿ نَا زَادَعُمَ إِلَّا مُنْزَرًا ﴾ أي : ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم ثم بين ذلك بقوله : ﴿ أَسْتَخِيرُكَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ وَمَكَّرَ الْأَشْجَ ﴾ أي : ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿ وَلَا يَصِيبُ الْكَفْرَ الْأَشْجَ إِلَّا بِأَمْرٍ ﴾ أي : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . وقال محمد بن كعب القرظي : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به مكر أو بغى أو نكت وتصدقها في كتاب الله تعالى : ﴿ وَلَا يَصِيبُ الْكَفْرَ الْأَشْجَ إِلَّا بِأَمْرٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا يَتَّبِعُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، ﴿ مَنْ تَكَتَّ فَكُنَّا بَيْنَكَ مَلَكًا نَقِصُودُ ﴾ وقوله ﴿ فَكُنْ : فَهَلْ يَنْظُرُكَ إِلَّا سَكَنَ الْأَرْضِينَ ﴾ يعني : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره . ﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسَانَ اللَّهِ بِتَبِيلًا ﴾ أي : لا تغير ولا تبدل ، بل هي جارية كذلك في كل مكان مكذب ﴿ وَلَنْ نَجِدَ لِسَانَ اللَّهِ بِتَبِيلًا ﴾ أي : ﴿ وَلَئِنَّا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ويحولهم عنهم أحد والله أعلم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَكَانُوا أَمْتًا بِمِثْلِهِ قَوْمًا كَانَتْ اللَّهُ يُعْذِرُ مِنْ قَوْمٍ فِي الْأَشْجَرِينَ وَلَا فِي الْأَرْضِينَ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِيكَ مِنْ دَابَّةٍ وَلَيْسَ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا لَأَمَلِ نَسْتُ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا تَكُنْ اللَّهُ كَانَ يُعْذِرُ . يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جنتهم به من الرسالة : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة ، وكثرة الأموال والأولاد فما أغنى ذلك شيئًا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ، لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السماوات والأرض . ﴿ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أي : عليم بجميع الكائنات قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِيكَ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي : لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض وما يملكونه من دواب وأزواق . وعن أبي الأحوص عن عبد الله قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بلذنب ابن آدم ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِيكَ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ . وقال سعيد ابن جبيرة والسدي : أي : لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب . ﴿ وَلَيْسَ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا لَأَمَلِ نَسْتُ ﴾ أي : ولكن ينظرون إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ، ويوفي كل عامل بعمله فيجازي بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية . ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا تَكُنْ اللَّهُ كَانَ يُعْذِرُ .

سورة يس

روي عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ يَسَ فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ ، وَمَنْ قَرَأَ حَمَّ الَّذِي يُذَكِّرُ فِيهَا الدُّخَانَ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ » (١) .

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « الْبَقَرَةُ سِتَاءُ الْقُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، وَاسْتَخْرَجَتْ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ فَوَصَلَتْ بِهَا أَوْ فَوَصَلَتْ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ - وَيَسَ قَلْبُ الْقُرْآنِ لَا يَفْرُغُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا عَفَرَ لَهُ ، وَافْرُزُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ » (٢) . ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى ، وكان قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح ، والله تعالى أعلم . وعن صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت - يعني يس - عند الميت خفف الله عنه بها (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَس ١ وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٢ إِنَّكَ لَنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى سِرَطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنزِيلَ الْكِتَابِ ٥ نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْحَكِيمِ ٦ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَوْا بِمَب_ؤُومَةٍ ٧ فَهُمْ يَغْفُلُونَ ٨ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُحْشِرُونَ ٩ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة . وروي عن ابن عباس رضي الله عنه وعكرمة والضحاك : أن يس بمعنى يا إنسان ، وقال سعيد بن جبیر : وهو كذلك في لغة الحبشة ، وقال زيد ابن أسلم : هو اسم من أسماء الله تعالى ﴿ وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴾ أي : الحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ﴿ إِنَّكَ ﴾ أي : يا محمد ﴿ لَنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ ﴾ عَلَى سِرَطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ أي : على منهج ودين قوم وشرع مستقيم ﴾ تَنزِيلَ الْكِتَابِ الْكِتَابِ ﴿ أي : هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ وَإِلَـٰكَ نَتَقِدُ ۖ إِنَّكَ سِرَطٌ مَسْتَقِيمٌ ٤ ﴾ سِرَطٌ هُوَ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السُّكُوتِ وَمَا فِي الْأَكْثَرِ إِلَّا أَنَّهُ قَبِيلُ الْأُمُورِ ٦ . وقوله تعالى : ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَوْا بِمَب_ؤُومَةٍ ٧ فَهُمْ يَغْفُلُونَ ٨ ﴾ يعني بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِحَقِّ مَآبِ ٩ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَ أَكْثَرِهِمْ ٨ ﴾ . قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حسم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ فَهُمْ لَا يُحْشِرُونَ ٩ ﴾ بالله ولا يصدقون رسله (٤) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ لَمَلًا فَلَمَّا نَفَىٰ إِلَى الْأَنْفَالِ فَهُمْ يَغْفُلُونَ ١٠ وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَبَآءً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَبَآءً فَأَقْبَصَتْ أَبْصَارُهُمْ ١١ وَوَسَّوْا عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَلَّا تَزِلَّ زَلِيلُهُمْ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ ١٢ إِنَّا شَدِيدُ مَن_أَعَبَ ١٣

(١) ذكره الدرر في الغريب والرهيب (٤٤٨/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣١١/٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٠٥/٤) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٠/٢٢) .

الْكَسَرَ وَخَيَّرَ الرَّحْمَنَ بِالْقَيْبِ قَبِيرَهُ يَمْنَعُهُ وَأَجْرَ كَبِيرِهِ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَنْشُكُ مَا قَدَّمُوا وَنُلَاقُهُمْ وَإِلَى مَوْجِ أَنْصَبْتَهُ فِي إِمَارٍ شَيْنٍ .

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحجوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نُنْشِئُهُ ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه ، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين كما قال الشاعر :

فَمَا أَفْرِي إِذَا تَمَسَّكَتْ أَرْضَا أُرِيدُ الْحَيَرَ أَلْهَعَا يَلِينِي
الْحَيَرُ الَّذِي أَنَا أَتَمُّهُمُ أَمِ الشُّرُّ الَّذِي لَا يَمُتُّ لِيْنِي

فاكتفى بذكر الحير عن ذكر الشر لما دل الكلام والسياق عليه . وهكذا هذا لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق اكتفى بذكر العنق عن اليدين . وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعِقِهِمْ أَفْئَلًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ قال : هو كقوله ذاك : ﴿ وَلَا يَجْعَلْ لَكَ مِثْلَهُ لَئِنْ لَمْ تُؤْمَرْ بِهِ لَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ يعني : بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يسطوها بخير . وقال مجاهد : ﴿ فَبِمَا نُنْشِئُهُ ﴾ قال : رافعي رؤوسهم وأيديهم موضوعة على ألوأهم ، فهم مغلولون عن كل خير . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَكَا ﴾ قال مجاهد : عن الحق . ﴿ وَبَيْنَ خَلْفَيْهِمْ سَكَا ﴾ قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون . وقال قتادة : في الضلالات .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْيَيْنَاهُمْ ﴾ أي : أعطينا أبصارهم عن الحق ﴿ فَبِمَا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه ، قال ابن جرير : وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقرأ (فأعطيناهم) بالعين المهملة من العشا وهو داء في العين ، وقال عبد الرحمن بن زيد : جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه . وقرأ : ﴿ إِنَّ الْأَوَّلَ حَقٌّ عَلَيْنَ كَلِمَاتٍ رَبِّكَ لَا يَوْمِيُونَ ﴾ ﴿ وَوَجَّهْنَاهُمْ كُلًّا مَالِهِ حَقٌّ يَوْمَ الْمَكَاذِبِ الْأَوَّلِ ﴾ ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع ^(١) . وقال عكرمة : قال أبو جهل : لمن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن . فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعِقِهِمْ أَفْئَلًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَكَا وَبَيْنَ خَلْفَيْهِمْ سَكَا فَأَعْيَيْنَاهُمْ فَهُم لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . قال : وكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو أين هو ؟ لا يبصره ^(٢) . وعن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتوه كنتم ملوكا ، فإذا تم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنات خير من جنات الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها ، وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يلزها على رؤوسهم وقرأ : ﴿ بَنِي ۖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَكَا وَبَيْنَ خَلْفَيْهِمْ سَكَا فَأَعْيَيْنَاهُمْ فَهُم لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصدا على يابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمدا ، قال : قد خرج عليكم فما بقي منكم من رجل إلا

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٦/٢٢) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٦/٢٢) .

وضعه على رأسه تراثاً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي جهل فقال : « وأنا أقول ذلك إن لهم ميتاً لأخذهم » ^(١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَسُورَةُ الْحَمْدِ الْمَدِيدَةُ لَمْ تَكُنْ تُنْذِرُهُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به . ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أي : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ﴿ وَخِشِيَ الرَّجُلُ الرَّحْمَنَ بِالْقَبِيحِ ﴾ أي : حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل . ﴿ فَيُثَرِّقُ يَمِينَهُ ﴾ أي : لذنوبه ﴿ وَاجْبَرُ كَيْبَرَهُ ﴾ أي : كثير واسع حسن جميل . ثم قال ﷺ : ﴿ إِنَّمَا تَحْنُ شَيْءُ الْوَيْفِ ﴾ . أي يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهدبهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ تَلَمَّذُوا أَنَّهُ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَنَكُتُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أي : من الأعمال : وفي قوله تعالى : ﴿ وَنَاكُرُهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم وآثارهم التي أوروها من بعدهم فنجزبهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شَيْئاً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْزَائِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شَيْئاً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْزَائِهِمْ شَيْئاً » ^(٢) .

وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا نَأَتْ ابْنُ آدَمَ اقْطَعْتَ عَمَلَهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : مِنْ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ » ^(٣) . وقال سفيان الثوري : عن أبي سعيد ؓ قال : سمعت مجاهداً يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَحْنُ شَيْءُ الْوَيْفِ وَنَكُتُ مَا قَدَّمُوا وَنَاكُرُهُمْ ﴾ : ما أورثوا من الضلالة . وقال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَنَكُتُ مَا قَدَّمُوا وَنَاكُرُهُمْ ﴾ : يعني : ما أوروها ، يقول : ما سنوا من سنة فعمل بها قوم من بعد موتهم ، فإن كانت خيراً فلهم مثل أجورهم لا ينقص من أجر من عمل به شيئاً ، وإن كانت شراً فلهم مثل أوزارهم ولا ينقص من أوزار من عمل بها شيئاً .

والقول الثاني : إن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية ، قال مجاهد : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ : أعمالهم ﴿ وَنَاكُرُهُمْ ﴾ : قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقادة : ﴿ وَنَاكُرُهُمْ ﴾ : يعني : خطاهم . وقال قتادة : لو كان الله ﷻ مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى ، أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليعمل . وقد وردت في هذا المعنى أحاديث :

عن جابر بن عبد الله ؓ قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن يتنقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إِنَّهُ بَلَعَنِي أَلْكُمُ ثَرِيذُونَ أَنْ تَتَنَقَّلُوا قُرْبَ

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في مجمع الروايات (٧٨/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٧/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والعدة (١٣) والترمذي في مسنده (١٣٧٦) .

وستعملون لمن تكون عاقبة الدار . كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِأَقْبَىٰ بَيْتِي وَيَتَكَبَّرُ عَلَيْهِمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْبِيَاءِ مَا أَشْرَأُ بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِأَقْبَىٰ أَوْلِيَّائِهِمْ الْكَافِرُونَ ﴾ . ﴿ وَنَا عَلَيْنَا إِلَّا الْإِلَهُ الْغَيْبُ ﴾ . يقولون : إنما علينا أن نبهكم ما أرسلنا به إليكم ، فإذا أطلعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة ، وإن لم تهيبوا فستعملون غيب ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا ظَنَرْنَا بِكُمْ لَمَن لَّرْ تَنْهَوْنَا لَتَرْجِعَنَّوْنَا عَيْنًا عَذَابَ آيَةٍ ۖ قَالُوا عَلَيْكُمْ نَكَمٌ إِنْ دُخِرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴾ .

فبعد ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا ظَنَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي : لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا . وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فلما هو من أجلكم . وقال مجاهد : يقولون لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿ لَمَن لَّرْ تَنْهَوْنَا لَتَرْجِعَنَّوْنَا ﴾ قال قتادة : بالجملة ، وقال مجاهد : بالشم . ﴿ وَلَيَسْئَلَنَّ عَيْنَا عَذَابَ آيَةٍ ﴾ أي : عقوبة شديدة ، وقالت لهم رسلهم : ﴿ عَلَيْكُمْ مَكْنَمٌ ﴾ أي : مردود عليكم ، كقوله تعالى في قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ مُّسَبِّحَةُ الْمَسْجِدِ قَالُوا لَآ خَلِيلٌ وَلَآ نَصِيرٌ سَبِّحَةُ يَطْلُبُونَا بِمُؤَنِّ وَنَمْنَمُ آتَا إِنَّا نَلْعَنُكُمْ عِندَ آفُوْا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنْ دُخِرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴾ أي : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العباد له قابضونا بهذا الكلام وتوعدتونا وتهددتونا ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴾ . وقال قتادة : أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم منا بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ رَجَعْنَا بَيْنَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٍ يَسْعَىٰ قَالَ يَغْيُرُ أَكْثَرُ الْمُرْسِلِينَ ۖ أَكْثَرُ مَا نَ لَا يَسْتَلْجُوا لَيْلًا رَّعْمَ هُنْتُؤْنَ ۖ وَمَا لِي لَا أَقْبُدُ إِلَىٰ فَلَئِنْ رَّجَعْنَا رَّجَعْنَا ۖ مَالَيْدٌ بَيْنَ دُونِهِ مَالَيْدٌ إِنْ يُرِيدِ الْآخِزْنَ يَغْيُرُ لَا تَقْنِي عَقَبَ شَقَعَتْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُبْقِدُونَ ۖ إِنْ إِلَىٰ لَأَنْ يَسْكَوْا لَيْلِي ۖ لَئِنْ مَآسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْتَوْقُوا ۖ ﴾ .

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس ؓ وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى أي لينصرهم من قومه . قالوا : وهو حبيب وكان يحمل الحمر وهو الهباك ، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجلد ، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة ، وقال السدي : كان قصاراً . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافاً . وقال قتادة : كان يتعبد في غار هناك ﴿ قَالَ يَغْيُرُ أَكْثَرُ الْمُرْسِلِينَ ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ أَكْثَرُ مَا نَ لَا يَسْتَلْجُوا لَيْلًا ﴾ أي : على إبلاغ الرسالة ﴿ رَّعْمَ هُنْتُؤْنَ ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ وَمَا لِي لَا أَقْبُدُ إِلَىٰ فَلَئِنْ رَّجَعْنَا رَّجَعْنَا ۖ ﴾ أي : وما يمنعني من إخلاص العباد للذي خلقتني وحده لا شريك له ﴿ رَّجَعْنَا رَّجَعْنَا ۖ ﴾ أي : يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ﴿ مَالَيْدٌ بَيْنَ دُونِهِ مَالَيْدٌ ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقرع ﴿ إِنْ يُرِيدِ الْآخِزْنَ يَغْيُرُ لَا تَقْنِي عَقَبَ شَقَعَتْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُبْقِدُونَ ﴾ أي : هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً . فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿ فَلَا كَافٍ لَّهُ إِلَّا هُوَ ﴾ وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ولا ينقذوني مما فيه ﴿ إِنْ إِلَىٰ لَأَنْ يَسْكَوْا لَيْلِي ۖ ﴾ أي : إن اتخذتها آلهة من دون الله ، وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ مَآسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْتَوْقُوا ﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس ؓ وكعب ووهب يقول لقومه : ﴿ لَئِنْ مَآسَتْ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذي كفرتم به

﴿ فَاسْمَعُوا قَوْلِي ، وَيَحْمِلْ أَنْ يَكُونَ خُطَابُهُ لِلرَّسْلِ يَقُولُهُ : ﴿ إِنَّتِ بَاسَتْ بِرَبِّكَ ﴾ ﴾ أي الذي أرسلكم ﴾ فَاسْمَعُوا ﴾ أي : فاشهدوا لي بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم : اسمعوا قولي تشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي : إني آمنت بربكم واتبعتكم وهذا القول الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى والله أعلم .
﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَكَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ وَمَا أَرْزَلْنَا عَنْ قَوْمِهِ مِنْ بَقِيَّةٍ مِنْ جُنْدٍ يَرِيئُ الشَّكْلَ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود ؓ : إنهم وطفوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره ، وقال الله له : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ فدخلها فهو يريزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا ورحنها ونصبتها . وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار ، ادخل الجنة ، وذلك أنه قتل فوجيت له فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَكَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشياً . لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى ﴿ قَالَ يَكَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه . وقال ابن عباس : نصبح قومه في حياته بقوله : ﴿ يَتَقَوَّى كَثِيرًا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وبعد مماته في قوله : ﴿ يَكَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ قال عاصم الأحول عن أبي مجلز ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ : يا إيماني بري وتصديقي المرسلين ، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضي عنه ، فلقد كان حريصاً على هداية قومه . قال عروة بن مسعود الثقفي ؓ للنبي ﷺ : ابغني إلى قومي أدعهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « إني أخاف أن يقتلوك » فقال : لو وجدوني نائماً ما أيقظوني ، فقال له رسول الله ﷺ : « انطلق » فانطلق فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غداً بما يسوؤك فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف إن اللات لا لات ، وإن العزى لا عزى أسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات أسلموا تسلموا ، قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هَذَا مَثَلُ كَثَلٍ صَاحِبِ يَسَ » ، ﴿ قَالَ يَكَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ ^(١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْزَلْنَا عَنْ قَوْمِهِ مِنْ بَقِيَّةٍ مِنْ جُنْدٍ يَرِيئُ الشَّكْلَ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه ، وبذكر ﷺ أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قال ابن مسعود أي : ما كثرتناهم بالجموع ، والأمر كان أيسر علينا من ذلك .

﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ قال : فأهلك الله تعالى ذلك الملك الجبار ، وأهلك أهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية . وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أي : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم . وقيل : المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْزَلْنَا عَنْ قَوْمِهِ مِنْ بَقِيَّةٍ مِنْ جُنْدٍ يَرِيئُ الشَّكْلَ ﴾ أي : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقاتة ، قال

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٦١٥/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (٣٨٦/٩) .

قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله . ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا حَبِيبَةً وَجِدَّةً فَإِنَّا هُمْ حَكِيمُونَ ﴾ . قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جنذا ^(١) . قال المفسرون : بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم ثم صاح بهم بصيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم لم يبق بهم روح تتردد في جسد . وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلًا من عند المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام . كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره . وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا كذبوا رسل الله ﷺ ، لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتِّخِذُوا مِنَّا صُفْرًا فَصَرَّفْنَا فِي آلِهِ لَنَمَكِّنْكُمْ حِمْلًا بَعِيرًا ﴾ - إلى أن قالوا - ﴿ رَبَّنَا بِمَنْزِلِ إِلَهِكُمْ لَنُرْسِلُنَّ ﴾ ﴿ وَبِمَا عَصَيْنَا أَلَّا نَبْلُغَ الثَّوِيثَ ﴾ . ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام والله تعالى أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَشَرُّ إِلَهِكُمْ يَتَّقُوا ﴾ .

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصراني إحدى للدنان الأربعة اللاتي فيهن بئرارة ، وهن : القدس ؛ لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية ؛ لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية ؛ لأن فيها اصطالحوا على اتخاذ البئرارة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والراهبين . ثم رومية ؛ لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده ، ولما انتهى القسطنطينية نقلوا البتركة من رومية إليها . كما ذكره غير واحد من ذكر تواربهم ، كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أحمدهم ، والله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري عليه السلام وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يعيجه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكروه عند قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ مَا آهَلَكْنَا الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضًا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في اللغة النصرانية ولا قبل ذلك . والله ﷻ أعلم .

﴿ يَتَحَصَّرُ عَلَى أَيْبَاءٍ مَا يَلْبِثُونَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿ أَتَرَى بِرَحْمَةٍ أُنَادِيكَ بِقَلْبِكَ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَتَحَصَّرُ عَلَى أَيْبَاءٍ ﴾ أي : يا ويل العباد . وقال قتادة : أي : يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله ، وفي بعض القراءات - يا حسرة العباد على أنفسهم - ومعنى هذا يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف كذبوا

رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي يكذبونه ويستهزئون به ويحسدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ أَتَذْكُرُوا كَرَّمَلَكُنَا بِأَنَّهُمْ قَرَّبُوا الْقُرُونُ لَهُمْ أَلَيْسَ لَئِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي : ألم تعلموا بمن أهلك قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلهم وفجرتهم من قولهم : ﴿ إِنَّ مِنْ آلَائِنَا أَنْتَقِيَا نَكُوتُ وَنَحْيَا ﴾ . وهم القائلون بالدور من الدهرية وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا ، كما كانوا فيها ، فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم فقال تبارك وتعالى : ﴿ أَتَذْكُرُوا كَرَّمَلَكُنَا بِأَنَّهُمْ قَرَّبُوا الْقُرُونُ لَهُمْ أَلَيْسَ لَئِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ . وقوله ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَنَا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مَحْشُورُونَ ﴾ أي : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرا وشرها ، ومعنى هذا كقوله جل وعلا : ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَنَا لَيُفْرِغُنَّ مِنْكُمْ رَبُّكَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف فمنهم من قرأ ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَنَا ﴾ بالتخفيف فعنده أن ﴿ وَإِنْ ﴾ للإثبات ومنهم من شدد ﴿ لَنَا ﴾ وجعل إن نافية و ﴿ لَنَا ﴾ بمعنى لا ، تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون ، ومعنى القراءتين واحد ، والله أعلم .

﴿ وَبِآيَةِ نَّمُ الْأَرْضِ الَّتِي تَحْمِلُهَا وَأَفْرَجَتَا بَيْنَهَا فَيْتَةً بِأَكْثَرُونَ ﴾ ﴿ وَنَحْنُ فِيهَا جَنَّاتٌ مِنْ تَحْتِهَا وَأَنْتُمْ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْمَعِينِ ﴾ ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ الْأَرْضَ كَلْهَا وَمَا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَنِ أَنْشَيْتَ رَمَآ لَا يَمْلَكُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَبِآيَةِ نَّمُ ﴾ أي : دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة ، وإحيائه الموتى ﴿ الْأَرْضِ الَّتِي ﴾ أي : إذا كانت ميتة هامة لا شيء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهترت ورتت وأنبئت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمْحِينَهَا وَأَفْرَجَتَا بَيْنَهَا فَيْتَةً بِأَكْثَرُونَ ﴾ أي : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ، ﴿ وَنَحْنُ فِيهَا جَنَّاتٌ مِنْ تَحْتِهَا وَأَنْتُمْ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْمَعِينِ ﴾ أي : جعلنا فيها أنهارا سارحة في أمكنة يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره : لما امن على خلقه لإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها . وقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس رضي الله عنه : ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : فهلا يشكروه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ، واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا - أن ما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ معنى الذي تقديره : لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أي : غرسه ونصبوه ، قال : وهي كذلك في قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ الْأَرْضَ كَلْهَا وَمَا تُثْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ . أي من زروع وثمار ونبات ﴿ وَنِ أَنْشَيْتَ ﴾ فجعلهم ذكرا وأنثى ﴿ وَرَمَآ لَا يَمْلَكُونَ ﴾ أي : من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلست عظمته : ﴿ وَنِ كَلِّ قُوَّةً خَلَقْنَا لَكُمْ ذَكَرَكُمْ ﴾ .

﴿ وَبِآيَةِ لَّهُمُ الْيَلِّ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُنْظِلُونَ ﴾ ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوَةِ الْقَدِيرِ ﴾ لا الشمس ينبت لها أن تدرك القمر ولا الليل

سَائِلُ النَّهَارِ كُلِّ فِي فَلَقٍ يُسَبِّحُ ﴿١﴾ .

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه ، وهذا بضياؤه ، وجعلهما يتعاقبان بيجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال تعالى : ﴿ يَتَّبِعُ الْإِلَّهَ الْكَهْرُ بَلْبَلُهُ حِينًا ﴾ ولهذا قال ﷻ ها هنا : ﴿ وَمَا يَكُنْ لَهُمُ الْإِلَّهَ سَلْبُ مِنْهُ النَّهَارِ ﴾ أي : نصبره منه فيذهب فيقبل الليل ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنَّا هُمْ مُنْظِلُونَ ﴾ . كما جاء في الحديث : ﴿ إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا ، وَأَذْبَرَ النَّهَارَ مِنْ هَا هُنَا ، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرِ الصَّائِغُ ﴾ ^(١) . هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : ﴿ يُؤَلِّجُ الْكَلْبَ فِي التَّكْبَارِ وَيُؤَلِّجُ الْكَلْبَ فِي الْإِلَّهِ ﴾ وقد ضعف ابن جرير قول قتادة ها هنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج الأخذ من هذا في هذا . وليس هذا مرادًا في هذه الآية ^(٢) ، وهذا الذي قاله ابن جرير حق . وقوله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الرَّزِيزِ الْغَلِيْبِ ﴾ في معنى قوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قولان أحدهما : أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أبنما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون إلى العرش ، فحينئذ تسجد وتستأنذ في الطلوع . كما جاءت بذلك الأحاديث . فمن أبي ذر ﷻ قال : كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا ذُرُّ أُتْرَى أَفْنِ تَقْرُبُ الشَّمْسُ ؟ ﴾ قلت : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : ﴿ فَإِنَّمَا تَنْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الرَّزِيزِ الْغَلِيْبِ ﴾ ^(٣) . وعن أبي ذر ﷻ ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قال ﷺ : ﴿ مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ ﴾ ^(٤) .

القول الثاني : إن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة يبطل سيرها ، وتسكن حركتها وتكور ، وينتهي هذا العالم إلى غايته وهذا هو مستقرها الزماني . قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ لوقتها ولأجل لا تعدوه ، وقيل : المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها . ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو ﷻ . وقرأ ابن مسعود وابن عباس ﷻ : (والشمس تجري لا مستقر لها) أي : لا قرار لها ولا مسكون ، بل هي سائرة ليلاً ونهارًا لا تفر ولا تقف . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ السَّيْفَ وَالْقَمَرَ تَلَابُثًا ﴾ . أي : لا يفران ولا يبقان إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الرَّزِيزِ ﴾ أي : الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿ الْغَلِيْبِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدر ذلك ووقته ذلك على منوال لا اختلاف فيه ولا تماكس .

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٤) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٠/٤) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٨ ، ٧/٢٣) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٢) والترمذي في سننه (٢١٨٦) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٣) وسلم في الإيكان (٢٥١) .

ثم قال جل وعلا : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أي : جعلناه يسير سيرا آخر يستدل به على مضي
الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار . كما قال ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً
وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ يَعْلَمُونَ عَذَابَ النَّارِ وَالْجَنَّةِ ﴾ الآية . وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ
مَآبِئِينَ فَسَوَّيْنَا أَلِيلَ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ النَّهَارِ مَبِيعَةً لِّتُنْفِقُوا فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُنْفِقًا فَسُجِّدْ لَهُ وَكَانَ شَعْرُهُ
مُقَبِّلَةً فَصَبِّحْ ﴾ فجعل الشمس لها ضوء يخصها والقمر له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ،
فالشَّمْسُ تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفا
وشتاء يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار
فهي كوكب نهاري ، وأما القمر فقدَره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضعيلا قليل النور ، ثم يزداد
نورا في الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ثم كلما ارتفع ازداد ضياء وإن كان مقتبسا من الشمس حتى
يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالمرجون
القديم . قال ابن عباس ؓ : وهو أصل العنق . وقال مجاهد : المرجون القديم أي : العنق اليابس .
يعني ابن عباس ؓ ، أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويس وانحنى .

وكذا قال غيرهما ، ثم بعد هذا بيده الله تعالى جديدنا في أول الشهر الآخر ، والعرب تسمي
كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول : غرر ، واللواتي بعدها : نقل
واللواتي بعدها : تسع ؛ لأن آخرهن التاسعة فاللواتي بعدها : عشر ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتي
بعدها : البيض ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتي بعدهن : درع جمع درعاء ؛ لأن
أولهن أسود لتأخر القمر في أولهن منه . ومنه الشاة الدرعاء وهي التي رأسها أسود ، وبعدهن ثلاث
ظلم ، ثم ثلاث حنادس ، وثلاث دادي ، وثلاث محاق لاحتحاق القمر أول الشهر فيهن ، وكان أبو
عبدة ؓ ينكر التسع والعشر . وكذا قال : في كتاب غريب المصنف .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ . قال مجاهد : لكل منهما حد لا
يعدوه ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ، وعن
الحسن في قوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال . وقال أبو صالح :
لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا . وقال عكرمة : يعني أن لكل منهما سلطانا فلا ينبغي
للشمس أن تطلع بالليل . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَلِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان الليل أن
يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل . وقال الضحاك : لا
يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا وأوماً بيده إلى المشرق . وقال مجاهد : ﴿ وَلَا أَلِيلُ
سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ يطلبان حيثين يسلم أحدهما من الآخر . والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار بل
كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطلبان طلبا حثيثا . وقوله تبارك
وتعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعني : الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أي : يدورون في
فلك السماء . وقال ابن عباس ؓ وغير واحد من السلف : في فلكة كفلكة المغزل ، وقال مجاهد :
الفلك كحديدة الرحي ، أو كفلكة المغزل لا تدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به .

﴿وَمَا لَهُمْ لَمْ يَأْتُواهُمْ بِالدَّلِيلِ الْأَشْعُونِ ﴿١٠﴾ وَرَفَعْنَا لَهُمْ مَن مِّنْ مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١١﴾ وَلَيْسَ خَشَاةُ نَارِهِمْ فَلَا يُصْرَعُونَ ﴿١٢﴾ وَلَا هُمْ يُقْلِقُونَ ﴿١٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤﴾﴾

يقول تبارك وتعالى : ودلالة لهم أيضًا على قدرته تبارك وتعالى ، تسخير البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام التي أجاه الله تعالى فيها بن معه من المؤمنين الذين هم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم ؛ ولهذا قال ﷺ : ﴿ وَمَا كُنَّا نَأْتِي حَتَّىٰ نَرِيَّيْتُمْ ﴾ أي : أبائهم ﴿ فِي الْفُلَيْنِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي في السفينة المملوغة من الأمتعة والحيوانات التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، قال ابن عباس ؓ : المشحون الموقر ، وقال الضحاك وقادة وابن زيد : وهي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام . وقوله جل وعلا : ﴿ وَنَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ مَا يَكُونُ ﴾ قال ابن عباس ؓ : يعني بذلك الإبل فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبوها . قال السدي في رواية : هي الأنعام . وعن ابن عباس ؓ قال : أتدرون ما قوله تعالى : ﴿ وَنَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ مَا يَكُونُ ﴾ ؟ قلنا : لا ، قال : هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على مثلها . ويقوي هذا المذهب في المعنى قوله جل وعلا : ﴿ إِنَّ لَنَا لَلْكَافَّةَ جَنْدًا مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ لاجتماع لذكر نكدة ونسب أئمة وصية . وقوله ﷺ : ﴿ إِنَّ لَنَا نَسْأَ تَرْقِيَهُمْ ﴾ يعني الذين في السفن فلا صريح لكم ؟ أي : فلا مغيث لهم هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴾ أي : مما أصابهم ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ وهذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ، ونسلمكم إلى أجل مسمى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنَسْتَأْذِنُ إِلَىٰ عَيْنٍ ﴾ أي : إلى وقت معلوم عند الله ﷻ .

﴿ وَلَئِنْ قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٥٥ ﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ مَاءٍ مِنْ مَاءٍ مِنْ مَكَائِدَ رِيحِهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ٥٦ وَلَئِنْ قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ فَكَفَى اللَّهُ فَالَ الْبَيْنَ كَعَمَلُوا الْبَيْنَ كَانُوا اتَّقُوا اللَّهَ لَمَّا تَوَلَّوْا إِلَهُهُمُ . إِنَّ أَشَدَّ إِلَّا فِي صَلَاتِي يُجِيبُ .

[illegible]

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/٢٣) .

﴿ وَيُثْبِتُونَ رَبَّهُمْ مَقَرِّ هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٤٨ مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ ﴿ ٤٩ ﴾ فَلَا يَسْتَعِيضُونَ بِشَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَلِهِيهِمْ بِرَحْمَتٍ ۝

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم : ﴿ مَقَرِّ هَذَا الْوَعْدِ ﴾ قال الله ﷻ : ﴿ مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ ﴾ أي : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة . وهذه والله أعلم نفخة الفزع . ينفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعاشهم يختصمون ويشتاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله ﷻ إسرائيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أضحى ليثاً ورفع ليثاً ، وهي صفحة المنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَعِيضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ أي : على ما يملكونه ، الأمر أعم من ذلك ﴿ وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَلِهِيهِمْ بِرَحْمَتٍ ﴾ وقد وردت ها هنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر ، ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَمَّا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ٥٠ قَالُوا يَا بَوَلَّا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿ ٥١ ﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَلَمَّا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿ ٥٢ ﴾ قَالَتِمْ لَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝

هذه هي النفخة الثالثة ، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ والنسلان هو المشي السريع . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُخْرِجُنَا مِنْ الْأَجْدَاثِ رَبُّكَ عَلِيمٌ نَقُصُّ إِلَيْكُمْ نُسْرًا وَمَقَرًّا ﴾ ﴿ قَالُوا يَا بَوَلَّا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يحضرون منها ، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ، ﴿ قَالُوا يَا بَوَلَّا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد . وقال أبي بن كعب ؓ ومجاهد والحسن وهادة : ينامون نومة قبل البعث . قال قتادة : وذلك بين النفتين ، فلذلك يقولون : من بعثنا من مرقدنا . فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وقال الحسن : إما يجيبهم بذلك الملائكة ، ولا منافاة إذا الجمع ممكن والله ﷻ أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار . ﴿ يَا بَوَلَّا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ . نقله ابن جرير واختار الأول وهو أصح .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَلَمَّا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ . كقوله ﷻ : ﴿ قَالُوا يَا بَوَلَّا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ . وقال جل جلاله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَتَقُولُ أَنْ لَيْسَ إِلَهُكُمُ إِلَّا أَنَا فَتَعْلَمُ أَنَّكَ كَذَبُوكُمْ ﴾ . أي : من عملها ﴿ وَلَا تُحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنْ أَسْحَبَ الْجَنَّةُ الْيَوْمَ فِي سُحُلٍ فَبَشِّرْهُنَّ ﴾ ٥٣ ثُمَّ لَا تَجِدُنَّ فِي ظُلُمٍ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِئِينَ ﴿ ٥٤ ﴾ لَنْ يَمَسُّنَّ فِيهَا نَارًا وَلَا سَبِيحًا وَلَا يَفْخَرُونَ ﴿ ٥٥ ﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ۝

يخبر تعالى عن أهل الجنة . أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في رياضات الجنات

أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفرز العظيم . قال الحسن البصري وإسماعيل ابن أبي خالد : في شغل عما فيه أهل النار من العذاب . وقال مجاهد : ﴿ فِي شُغْلٍ فَتُحْيَوْنَ ﴾ أي : في نعيم معجبون أي به ، وكلنا قال قتادة : وقال ابن عباس ؓ : ﴿ فَتُحْيَوْنَ ﴾ أي فرحون ، قال عبد الله بن مسعود وابن عباس ؓ وسعيد بن المسيب وغيرهم : شغلهم اقتضاض الأيكار وقوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ يُزْجِرُ ﴾ قال مجاهد : حالهم ﴿ فِي ظُلُلٍ ﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿ عَلَى الْأَرْبَابِ مُكَيَّدُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والسدي وخصيف : ﴿ الْأَرْبَابِ ﴾ هي : السرر تحت الحجال قلت : نظيره في الدنيا هذه النخوت تحت البشائخ والله ﷻ أعلم . وقوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ فِيهَا فَتَكِيَةٌ ﴾ أي : من جميع أنواعها ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشَاءُونَ ﴾ : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

عن أسامة بن زيد ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا خُلْ مُشْمَرٌ إِلَى الْجَنَّةِ إِنْ أَلِجْتَ لَا خَطَرَ لَهَا ، هِيَ زَرْبُ الْكَفَرَةِ نُورٌ كُلُّهَا يَلْأَلُ ، وَزَهْرَانَةٌ تَهْتَرُ ، وَقَصْرٌ مُشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَرِدٌ ، وَثَمَرَةٌ تُضِيحُ ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ وَخَلْلٌ كَبِيرٌ ، وَمَقَامٌ فِي آتِيٍّ فِي قَارِ سَلَامَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ خَضِرَةٌ ، وَغَيْرُ وَفِيهِ نِعْمَةٌ فِي مَحَلَّةٍ غَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ » . قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال ﷺ : « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فقال القوم : إن شاء الله ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّي رَجِيوْا ﴾ قال ابن عباس ؓ في قوله تعالى : ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّي رَجِيوْا ﴾ فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة . وهذا الذي قاله ابن عباس ؓ كقوله تعالى : ﴿ يَسْتَهْتَهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَ سَلَمًا ﴾ .

﴿ وَاتَّبَعُوا الْيَوْمَ الْيَوْمَ الْمُتَمَرِّضِينَ ﴾ ﴿ أَلَمْ أَهْدِ إِلَيْكُمْ يَتَبِعْ عَادَمٌ أَنْ لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿ وَإِنْ أَتَيْتُمْ هَذَا يَوْمَ تَكُونُ جِبَالٌ كَدِيمًا أَلَمْ تَكُونُوا تَقُولُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى : يتميزون عن المؤمنين في موقفهم كقوله تعالى : ﴿ وَبِمَنْ تَقُومُ السَّاعَةُ يُوقِظُكُمْ ﴾ ﴿ يُوقِظُكُمْ بِصَلَواتِهِمْ ﴾ أي : يصيرون صديقين فرقتين ﴿ كَانَتْهُمَا إِلَيْنِ كَلِمَاتٌ وَلَازِمَتَهُمْ وَمَا كُنَّا بِمُخَذِّئِينَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ لَقَدْ قُلْتُمْ إِنَّهُمْ لَبُغْيٌ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَهْدِ إِلَيْكُمْ يَتَبِعْ عَادَمٌ أَنْ لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ هذا ترويع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان ، وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَتَيْتُمْ هَذَا يَوْمَ تَكُونُ جِبَالٌ كَدِيمًا ﴾ أي : قد أمرتكم في دار الدنيا بعبادة الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي . وهذا هو الصراط المستقيم فسلكتكم غير ذلك واتبعت الشيطان فيما أمركم به . ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَسْأَلُ مِنْكُمْ جِبَالًا كَدِيمًا ﴾ يقال : جبلاً بكسر الجيم وتشديد اللام ، ويقال : جبلاً بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، ومنهم من يسكن الباء والمراد بذلك الخلق الكثير ^(٢) . قاله مجاهد وقتادة والسدي . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُونُوا

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٣٧) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٦/١) ، (١٨٧/٢) .

(٢) قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿ جِبَالًا ﴾ بضم الجيم وسكون الباء ، وابن كثير وحزمه والكسائي ﴿ جِبَالًا ﴾ بضمين ، والباطون ﴿ جِبَالًا ﴾ (انظر : حجة القراءات ص ٦٠٢) .

تَقُولُ: أَيُّ أَمَّا كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ فِي مَخَالَفَةِ رَبِّكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَعَدُولَكُمْ إِلَى آتَابَعِ الشَّيْطَانِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِجَهَنَّمَ فَيُخْرَجُ مِنْهَا عَقْقُ سَاطِعٍ مُظْلَمٌ يَقُولُ : ﴿ أَلَمْ أَهْدِكُمْ سَبِيلَكُمْ بِرَبِّي عَادِمٌ أَلَمْ لَا تَقْبُدُوا الْقَيْلَتَيْنِ إِنَّهُ لَكُمُ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) وَإِنِّي لَتَقْبُدُنِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٢) وَلَقَدْ أَهْمَلْتُ وَتَوَكَّلْتُ كَثِيرًا أَقَامْتُ تَكْوُلًا تَقُولُ (٣) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . ﴿ وَاسْتَمَرُّوا إِلَيْهَا الْمَجْرُورَةُ (٤) فَيُعْزِمُ النَّاسَ وَيَجْعَلُونَ ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَرَبِّي قَالَ أَفَضَرُّ لَكُمْ مِنْهُ لَبِئْسَ الْيَوْمُ عَاقِبَةً ﴾ (٥) كَلَّمْتُمْ مَقُولُونَ . ﴿

﴿ فَلْيَوَدُّهُمْ إِلَى كَثْرَةِ رُءُوسِهِمْ ۖ آمَلُوا أَيَّامَهُمْ ﴾ ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مُخِلُونَ ﴾ ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ۖ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ۖ وَنَنصِتُ إِلَىٰ أَرْجُلِهِمْ ۚ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْتُمُ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ۖ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْتُمُ عَلَىٰ مَكَائِلِهِمْ ۖ فَمَا اسْتَمْلَعُوا مِنْ طَعْنٍ وَلَا جُنُوعٍ ﴾ .

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقريرا وتوبيخا : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي : هذه التي حذرتمكم الرسل فكذبتموه ﴿ آمَنَّا بِمَا آتَاكَ رَبُّكَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُغْلَقُ أَسْبَابُهَا وَمَا كَانُوا لِيُخْبِرُونَ ﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجتمروه في الدنيا ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت .

فمن أي هجرة ﷺ عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل قال فيه : « ثُمَّ يَأْتِي الثَّالِثُ يَقُولُ : مَا أَنْتَ ؟ يَقُولُ : أَنَا عَبْدُكَ أَمْسَتْ بِكَ وَبَيَّتُكَ وَبَكَتُكَ ، وَصُمْتُ وَصَلَّيْتُ وَتَصَدَّقْتُ ، وَبَشِيَ بِخَيْرٍ مَا اسْتَمَاعَ » قال - يَقُولُ لَهُ : أَلَا نَبَعْتُ عَلَيْكَ شَاهِدًا ؟ - قَالَ : فَيَعْزُو فِي نَفْسِهِ مِنَ الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيْهِ ، فَيُحْمَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخْزِهِ : انطَلقي ، قال : « فَتَلْبِثُ فَوْضَهُ وَلَحْمَهُ وَعِظَامَهُ بَيْنَا سَرَانٍ يَتَعَمَلُ . وَذَلِكَ الشَّافِقُ ، وَذَلِكَ لِيَعْلَمَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْحَطُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ » (٢) .

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَوَّلَ عَظَمٍ مِنَ الْإِنْسَانِ يَمُوتُ يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَى الْأَنْوَاءِ فَيُخَذُ مِنَ الرَّجُلِ الْقِسْرَى » ^(١) . وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف فيقول : نعم أي رب عملت عملت عملت قال : فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويمسره منها ، قال : فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئا وتبدو حسنته فرد أن الناس كلهم يورثونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ويقول : أي رب : وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك أي رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه . قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى . ثم تلا : ﴿ أَتَيْتُمْ تَوْبَتَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكُلَّمَا أَدْبَرْتُمْ وَجْهَكُمْ لَهَا كُنْتُمْ مِنَ الْآخِثِينَ فِيهَا ﴾ ^(٢) .

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/٢٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

(٣) الخرجه أحمد في مسئله (١٥١/٤) .

(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٠/٢٣) .

ولكن تبينوا لقلوب أصحابه ﷺ فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون :

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصْنَعْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتْ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا
إِنْ الْأُولَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أُنْبِئْنَا
ويرفع ﷺ صوته بقوله : أَيْنَا وَبَعْدَهَا ^(١) . وقد روي هذا بزحاف أيضًا ، وكذا ثبت أنه ﷺ قال
يوم جنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ^(٢)
لكن قالوا : هذا وقع اتفاقًا من غير قصد لوزن شعر بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .
وكذلك ما ثبت عن جندب بن عبد الله ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غار فنكبت أصبعه
فقال ﷺ :

هَلْ آتَيْتَ إِلَّا بِضَبْعٍ دَمِيَّتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ ^(٣)
وسأني عند قوله تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ إنشاد :
إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَسْمًا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا ^(٤)

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعرا وما ينبغي له ، فإن الله تعالى إما علمه القرآن العظيم
﴿ لَا يَأْتِيهِ الْكَلِمُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَيْكَةِ مَّجِيدٍ ﴾ وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من
جبهة كفار قريش ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وأراء
الجهال . وقد كانت سمجته ﷺ تأمل صناعة الشعر طبعا وشرعا ، كما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه
قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا أَهْلِي مَا أُؤْتِيَتْ إِنْ أَنَا مَرِئْتُ زَيْنًا قَا ، أَوْ تَعَلَّقْتُ تَحِيمةً ، أَوْ
قُلْتُ الشَّعْرَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي » ^(٥) .

على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين الذين كان يتعاطاه شعراء الإسلام كحسان
ابن ثابت ﷺ . وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم ﷺ أجمعين . ومنه ما فيه
حكم ومواظ وآداب . كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية . ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي
قال فيه رسول الله ﷺ : « آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ » ^(٦) . وقد أنشد بعض الصحابة ﷺ للنبي ﷺ مائة
بيت يقول ﷺ عقب كل بيت : « هيه » ^(٧) . يعني : يستطيعه فيزيده من ذلك . وقد روى أبو

(١) أخرجه البخاري في اللغزي (٤١٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في اللغزي (٤٣١٥ ، ٤٣١٦) ومسلم في الجهاد والسير (٧٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٢) ومسلم في الجهاد (١١٢) والترمذي في سننه (٣٣٤٥) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٦٩/٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٦٩) والبيهقي في السنن (٣٥٥/٩) .

(٦) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٢٤١) .

(٧) أخرجه مسلم في الشعر (١) وابن ماجه في سننه (٣٧٥٨) والبيهقي في الكبرى (٢٢٧/١٠) .

داود من حديث أبي بن كعب وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إِنَّ مِنَ النَّبِيِّينَ سِخْرًا ، وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حِكْمًا** » ^(١) . ولهذا قال : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ** ﴾ يعني محمداً ﷺ ما علمه الشعر ﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ لَدَا** ﴾ أي : وما يصلح له ﴿ **إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ** ﴾ أي : ما هذا الذي علمناه ﴿ **إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ** ﴾ أي : بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **يَسْتَنْذِرُ مَنْ كَانَ خَبِيرًا** ﴾ أي : لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض . وإنما يتنفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة . كما قال قتادة : حي القلب حي البصر . وقال الضحاك : يعني : عاقلاً ﴿ **يَخَيِّرُ الْقَوْلَ هَلْ السَّخِرِينَ** ﴾ أي : هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

﴿ **أَنزَلْنَا بِرُؤْيَا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ وَمَا عَلِمْتَ أَلَيْسَ أَنُمِسًا فَهَمْ لَهَا سَالِكُونَ** ﴾ ^(٢) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ^(٣) وَكَمْ فِيهَا مَنَاقِبٌ وَسُورَةٌ أَفْكَاشُكُمْ ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ **فَهَمْ لَهَا سَالِكُونَ** ﴾ قال قتادة : مطبقون أي : جعلهم يقهرونها . وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذلك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع يسير الصغير . وقوله تعالى : ﴿ **فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ** ﴾ أي : منها ما يركبون في الأسفار ، ويحملون عليه الانتقال إلى سائر الجهات والأقطار ﴿ **وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ** ﴾ إذا شاعوا نحرروا واجتزروا ﴿ **وَكَمْ فِيهَا مَنَاقِبٌ** ﴾ أي : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿ **وَسُورَةٌ** ﴾ أي : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿ **أَفْكَاشُكُمْ** ﴾ أي : أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

﴿ **وَالْمُتَّخِذِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَلَاقَةً لِّمُلْكِهِمْ لِيُضَرُّوهُمُ بِضُرٍّ بَاطِنٍ** ﴾ ^(٤) لَا يَسْتَغِيثُونَ تَضَرَّعُوا وَهُمْ لَمْ يَجِدْ مُجْتَبَرُونَ ^(٥) فَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ إِنْآ تَنَالِكُمْ مَا يُبْرَأُونَ وَمَا يُؤْتُونَ .

يقول تعالى منكرًا على اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يتفنون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى ، قال الله تعالى : ﴿ **لَا يَسْتَغِيثُونَ تَضَرَّعُوا** ﴾ أي : لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ولا الانتقام من أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَهُمْ لَمْ يَجِدْ مُجْتَبَرُونَ** ﴾ قال مجاهد : يعني عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم . وقال قتادة : ﴿ **لَا يَسْتَغِيثُونَ تَضَرَّعُوا** ﴾ يعني : الآلهة ﴿ **وَهُمْ لَمْ يَجِدْ مُجْتَبَرُونَ** ﴾ والمشركون يقضون الآلهة في الدنيا ، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً ، وإنما هي أصنام ، وهكذا قال الحسن البصري ، وهذا القول : حسن وهو اختيار ابن جرير رحمته الله . وقوله تعالى ﴿ **فَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ** ﴾ أي : تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿ **إِنْآ تَنَالِكُمْ مَا يُبْرَأُونَ وَمَا يُؤْتُونَ** ﴾ أي : نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزئهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٩/١) وأبو طود في مسنده (٥٠١١ ، ٥٠١٢) .

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَذَرَبْنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّا خَلْقَهُ قَالَ مَن يُبَيِّنُ أَلْفَظًا مِنِّي رَيْبٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَبَ يَنْتَبِهَةٌ تُلْقَوْنَ ۝ ﴾ .

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة : جاء أبي بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم ، وهو يفته ويلبره في الهواء وهو يقول : يا محمد أترغم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نَعَمْ يُحْيِيكَ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يَمُوتُكَ ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ » ^(١) . ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخرهن .

والألف واللام في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث ﴿ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة . فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال ﷺ : ﴿ آتَى خَلْقَكَ مِنْ تَلَوْنِ ۝ فَجَعَلْتَهُ فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ ۝ إِنَّكَ قَدَرٌ تَلَوِي ۝ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي : من نطفة من أخلاط متفرقة فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما قال بشر بن جحاش : إن رسول الله ﷺ بصق يوما في كفه فوضع عليها إصبعه . ثم قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا آدَمُ أَتَى تُحْيِيُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَّيْتُكَ مَتَّيْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ وَالْأَرْضِ مِثْلَكَ وَلَيْدٌ فَجَعَلْتُ وَمَتَّعْتُ ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتُ : أَتَصَدَّقُ ، وَأَلَيَّ أَوَانُ الصُّدْقَةِ ؟ » ^(٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَذَرَبْنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّا خَلْقَهُ قَالَ مَن يُبَيِّنُ أَلْفَظًا مِنِّي رَيْبٌ ﴾ . أي : استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض للأجساد والعظام الرمية ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعدته وأنكره وجحدته . ولهذا قال ﷺ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت . فمن عبد الملك ابن عمير عن ربه قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله عنه : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فقال : سمعته ﷺ يقول : « إِنَّ رَجُلًا حَضَرَ الْمَوْتَ ، فَلَمَّا أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ إِذَا أَنَا مِثُّ فَاجْتَمِعُوا لِي عَطَلِيَا تَحْيِيَا جِزَلًا ، ثُمَّ أَوْقَبُوا فِيهِ نَارًا ، حَتَّى إِذَا أَكَلْتُ لَحْمِي وَخَلَصْتُ إِلَى عَظْمِي فَأَتَشَجِّشْتُ ، فَحُذِلُوا فَعَلُّوهُمَا فَعَزُّوهُمَا فِي الْيَمِّ ، فَفَعَلُوا ، فَجَعَلَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ ، فَغَفَرَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك . وكان نباشا ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَبَ يَنْتَبِهَةٌ تُلْقَوْنَ ﴾ أي : الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرا ذا ثمر ومنع ثم أعاده إلى أن صار يبسا تودع به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء . قال قتادة في قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَبَ يَنْتَبِهَةٌ تُلْقَوْنَ ﴾

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٠/٤) .

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤٠٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الألباء (٣٤٥٢) ومسلم في الإمارة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٥) .

الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَبَتْهُ تُوفِّيْتُونَ ﴿٨١﴾ يقول : الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه . وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفراب ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ويقده أحدهما بالآخر فتولد النار من بينهما كالزناد سواء . وروي هذا عن ابن عباس ؓ ، وفي المثل : لكل شجر نار واستمجد المرخ والعفراب ، وقال الحكماء : في كل شجر نار إلا العناب .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَّ أَنْ يَخْلُقَ يَتْلُهُمْ بَلَّ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٣﴾ فَسَبِّحْ لِلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَلِذِي تُرْسُونَ ﴿٨٤﴾ .

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة على خلق السماوات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والنواب ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك . ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة . كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ وقال ﷻ ها هنا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَّ أَنْ يَخْلُقَ يَتْلُهُمْ ﴾ أي : مثل البشر فيعدهم كما بدأهم ، قاله ابن جرير ، وهذه الآية الكريمة كقوله ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا يَتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ يَكُونُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وقال تبارك وتعالى ها هنا : ﴿ بَلَّ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٣﴾ أي : إنما يأمر بالشئ أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار وتأكيده .

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ شَيْئًا قَالُوا يَسْأَلُ لَهْ كُنْ قَوْلُهُ فَيَكُونُ
وعن أبي ذر ؓ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ ، إِنِّي بِجَوَادٍ مَاجِدٍ وَاجِدٍ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ ، عَطَائِي كَلَامٌ ، وَعَذَابِي كَلَامٌ ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا قُلْتُ أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ لِلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَلِذِي تُرْسُونَ ﴾ أي : تنزيه وتقديس وتبرئة من سوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المفضل . ومعنى قوله ﷻ : ﴿ فَسَبِّحْ لِلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت ورهبة ورهوبت وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح . والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .
وعن حذيفة ؓ ، أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي من الليل وكان يقول : « اللَّهُ أَكْبَرُ - ثلاثاً - ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبُوتِ وَالْكَبِيرِ وَالْعَظِيمِ » . ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه ، وكان يقول في ركوعه : « شَيْخَانِ رَبِّي الْعَظِيمِ » ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من ركوعه ، وكان يقول في قيامه : « لِرَبِّي الْحَقُّ » ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه ، وكان

يقول في سجوده : " شَبَّحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى " ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجودتين نحوًا من سجوده وكان يقول : " رَبِّ اغْفِرْ لِي ، رَبِّ اغْفِرْ لِي " فصلّى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة أو الأنعام - شك شعبة ^(١) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٩٨/٥) وأبو داود في مسنده (٨٧٤) والنسائي في مسنده (٢٣٩/٢) .

وقال سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى ، والصحيح قول مجاهد ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ عَلَيْهَا يَكْفُرُ ﴾ قال مجاهد : لا تلعب عقولهم ، وقال ابن عباس : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله خمر الجنة فزهرها عن هذه الخصال . وقوله تعالى : ﴿ وَنَعَيْتُمْ الْفَجْرَةَ الْكَلْبَ ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ عَيْنٌ ﴾ أي حسان الأعين وهي النجلاء العيناء ؛ ولهذا قال ﴿ وَنَعَيْتُمْ الْفَجْرَةَ الْكَلْبَ ﴾ .

وقوله ﴿ كَأَنَّهُنَّ يَمْشِيْنَ كَمَشْيِكُمْ ﴾ وصفهن بترافه الأبدان بأحسن الأكران ، قال ابن عباس ﴿ كَأَنَّهُنَّ يَمْشِيْنَ كَمَشْيِكُمْ ﴾ أي اللؤلؤ المكنون .

وقال الحسن : يعني محصون لم تمسه الأيدي ، وقال السدي : يياض البيض حين نزع قشرته ، واختاره ابن جرير قال : والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتناولها الأيدي بخلاف داخلها ، والله أعلم . وعن أم سلمة ؓ قالت : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﴿ وَخَوَّرَهُ عَيْنٌ ﴾ قال : « العين : الضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﴿ كَأَنَّهُنَّ يَمْشِيْنَ كَمَشْيِكُمْ ﴾ قال : « رقتهم كركة الجملدة التي رأسها في داخل البيضة التي تلي القشر وهي الفَرْقُ » (١) .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَكْتُمُونَ ﴾ قَالَ قَائِلٌ يَتِيمٌ إِلَى كَذَّابٍ قَرِينٍ ﴿ يَبُولُ لَهْكَ لَيْنَ الْمَسِيَّةِ ﴾ لَوْكَ وَمَنَا وَكَذَا وَنَحْنُ وَنَحْنُ لَكُنَّا لَتَيْدُونَ ﴿ قَالَ حَلَّ أَشْرُ ثَمَلِيُونَ ﴾ فَأَقْبَلَ قَرْنَةً فِي سَرِّهِ الْجَرِيرِ ﴿ قَالَ تَأَقَّهِ إِن كَيْدٌ لَّتُؤَيِّنَ ﴾ وَذَلِكَ بِمَنْعَةِ رَبِّ لَكُنَّ مِنَ الْمُتَحَرِّينَ ﴿ أَنَا نَحْنُ بِمَنْعِيْنَ ﴾ إِلَّا مَوَلَّتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَلَّمِينَ ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْفَرْقُ الْعَلِيمُ ﴾ لِيُثِلَ هَذَا قَلْبَهُ لِيَكْتُمِلَ الْكَيْدُ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساعلون ، أي عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ قَالَ قَائِلٌ يَتِيمٌ إِلَى كَذَّابٍ قَرِينٍ ﴾ قال مجاهد : يعني شيطاناً . وعن ابن عباس : هو الرجل للمشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا ، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس ؓ ؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان وكلاماً يتعاونان ، وكل منهما يوسوس ، ولهذا ﴿ قَالَ قَائِلٌ يَتِيمٌ إِلَى كَذَّابٍ قَرِينٍ ﴾ يَبُولُ لَهْكَ لَيْنَ الْمَسِيَّةِ ﴿ أي : أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ، والكفر والعناد ﴿ لَوْكَ وَمَنَا وَنَحْنُ لَكُنَّا لَتَيْدُونَ ﴾ قَالَ مجاهد والسدي : لحاسبون . وقال ابن عباس : لمجزئون بأعمالنا ، وكلاهما صحيح . قال تعالى : ﴿ قَالَ حَلَّ أَشْرُ ثَمَلِيُونَ ﴾ أي مشرفون ، ﴿ فَأَقْبَلَ قَرْنَةً فِي سَرِّهِ الْجَرِيرِ ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقادة والسدي : يعني في وسط الجحيم ، وقال الحسن

البصري : في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد ، وقال قتادة : ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي ، ﴿ قَالَ تَأْتِيهِمْ فِي أَيَّامٍ مَّكْتُومَةٍ ﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر : والله إن كدت لتهلكني لوأطعك ﴿ وَتَأْتِيَهُمْ رَبِّكَ لَكُفَّتْ يَدَا الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي ولولا فضل الله علي لكثت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت محضر معك في العذاب ولكنه تفضل علي ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ بِمَبِينٍ ﴾ إِلَّا مَوْلَانَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ هَذَا مِنْ كَلَامِ الْمُؤْمِنِ مَغْبُطاً نَفْسَهُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْخَلْدِ فِي الْجَنَّةِ وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ بَلَا مَوْتَ فِيهَا وَلَا عَذَابَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ رَبُّكَ : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴾ . وقال الحسن البصري : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا : ﴿ إِنَّا نَحْنُ بِمَبِينٍ ﴾ إِلَّا مَوْلَانَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ قِيلَ : لَا ، قَالُوا : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴾ وقوله رَبُّكَ : ﴿ لِيُثِلَّ هَذَا قَلْبَ عَمَلِ الْفَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة ، وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ومعناه : لئلا هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ، ليصيروا إليه في الآخرة وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة ، قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره : إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة ، فقال الذي له حرفة للآخر : ليس عندك حرفة ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك ، فقامسه ، وفارقه ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت للملك مات ، فدعا صاحبه فأراه فقال : كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار ؟ قال : ما أحسنها ، فلما خرج قال : اللهم إن صاحبي هذا ابتاع هذه الدار بألف دينار ، وإني أسألك داراً من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار فدعاه وصنع له طعاماً ، فلما أتاه قال : إني تزوجت هذه المرأة بألف دينار ، قال : ما أحسن هذا ، فلما انصرف قال : يارب إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار ، وإني أسألك امرأة من الحور العين ، فتصدق بألف دينار ، ثم إنه مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ، ثم اشترى بستانين بألفي دينار ثم دعاه فأراه فقال : إني ابتعت هذين البستانين بألفي دينار . فقال : ما أحسن هذا ، فلما خرج قال : يا رب إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار وأنا أسألك بستانين في الجنة ، فتصدق بألفي دينار ، ثم أن الملك أتاهما فخوفاهما ، ثم انطلق بهذا المتصدق فأدخله داراً تعجبه ، وإذا بامرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسننها ، ثم أدخله بستانين وشيخاً الله به عليم ، فقال عند ذلك : ما أشبه هذا برجل كان من أمرة كذا وكذا ، قال : فإنه ذاك ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة ، قال : فإنه كان لي صاحب يقول : ﴿ أَلَيْكَ لَيْنَ الْمُصْطَفِينَ ﴾ قيل له : فإنه في الجحيم ، ﴿ قَالَ هَلْ أَشْهُ مُطْلِقُونَ فَكَلَّمَ قُرَيْشٌ فِي سَرِّهِ الْجَبِيرَ ﴾ فقال عند ذلك : ﴿ تَأْتِيهِمْ رَبِّكَ لَكُفَّتْ يَدَا الْمُجْرِمِينَ ﴾ وقال قتادة : ﴿ وَتَأْتِيَهُمْ رَبِّكَ لَكُفَّتْ يَدَا الْمُجْرِمِينَ ﴾ الآية ^(١) قال ابن جرير : وهذا يقوي قراءة من قرأ ﴿ أَلَيْكَ لَيْنَ الْمُصْطَفِينَ ﴾ بالتشديد ^(٢) .

﴿ أَلَيْكَ لَيْنَ الْمُصْطَفِينَ ﴾ تَعْرِىَ تَوَلَّى أَمْ سَجَرَةٍ لَزْزَمَ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ إِنَّا سَجَرَةً تَخْرُجُ فِي أَسْفَلِ الْجَبْرِ ﴿ طَائِفَتَا كَانَتْ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ ﴾ طَائِفَتَا كَانَتْ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ مِمَّا فَسَّادُونَ مِمَّا الْبَاطُونَ ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَازًا بَيْنَ حَيْمٍ ﴾ ثُمَّ إِنَّ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧٠/٢٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (٩/٧) وعزه لسميد بن منصور .

(٢) وهي قراءة حمزة (الطبري : الدر المنثور ٥٩/٦) والقرطبي (٨٢/١٥) .

مَرَجَعَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ ﴿٦٢﴾ إِنَّهُمْ أَقْبَرُوا عَذَابَهُمْ فَصَلَّيْنَا ﴿٦٣﴾ فَهُمْ عَلَى عَذَابِهِمْ مُرْسَوْنَ .

يقول الله تعالى أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مأكول ومشرب ومناجح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿٦٢﴾ أَمْ شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ ﴿٦٣﴾ التي في جهنم ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة ، كما قال بعضهم : إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم ، كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم . وقوله ﴿٦٣﴾ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا يُشْنَعَةً لِّلْكَافِرِينَ ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينفكم أن في النار شجرة والنار تاكل الشجر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ فِي أَسْبَلِ الْجَنَّةِ ﴾ غذيت من النار ومنها خلقت .

قلت : ومعنى الآية : إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختصاراً نخبر به الناس من يصدق منهم من يكذب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ فِي أَسْبَلِ الْجَنَّةِ ﴾ أي أصل متبته في قرار النار ﴿ طَلْمُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّجَرَاتِ ﴾ تشيع لها وتكره لذكرها . قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برؤوس الشياطين - وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين - لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وقيل : المراد بذلك ضرب من الحيات رؤوسها بشعة المنظر .

وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا لِّلْكَافِرِينَ مِنَّا طَائِفَةٌ مِّنَّا الْكَاذِبُونَ ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ؛ فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها ؛ لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها ، كما قال تعالى : ﴿ لَئِنْ لَّمْ يَكُفَّ اللَّهُ عَنَّا لَرَأَيْنَا أَشَدَّ حَرًّا ﴾ لا يسكن ولا يقي ين جحيم ﴿ وعن ابن عباس ﴾ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَكَاهِنٌ عَنَّا لَنُؤَنِّقَنَّهُمْ لَسِيلًا سَائِجًا مِّمَّا يَشْتَبُونَ ﴾ يعني شرب الحميم على الزقوم ، وقال غيره : يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم . وعن سعيد بن جبيرة قال : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاغتسلت جلود وجوههم ، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم ، لعرفهم بوجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيقاتلون بماء كالمهل ، وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أنفوسهم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم وتساقط جلودهم ثم يضرئون بمقامع من حديد ، فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثور . وقوله ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَكَاهِنٌ عَنَّا لَنُؤَنِّقَنَّهُمْ لَسِيلًا سَائِجًا مِّمَّا يَشْتَبُونَ ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل إلى نار تتأجج وحجيم تنوقد وسعير تنوهج ، فتارة في هذا ، وتارة في هذا .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَقْبَرُوا عَذَابَهُمْ فَصَلَّيْنَا ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك ؛ لأنهم وجدوا آبايهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ عَلَى عَذَابِهِمْ مُرْسَوْنَ ﴾ قال مجاهد : شبيهة بالهرولة ، وقال سعيد بن جبيرة : يسفهن .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٧/٢) ، والترمذي في السنن (٢٥٨٥) .

﴿ وَلَقَدْ سَلَّمْنَا إِلَهُمُ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ٧١ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ٧٢ ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ٧٣
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منلرين ينزلونهم بأس الله ، ويحلزونهم سطوته ونقسته ممن كفر به وعبد غيره ، وأنهم تمادوا على مخالفة رسالهم وتكذيبهم ، فأهلك الله للمكذبين ودمرهم ، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ٧٢ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .
﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَمْلِكْ لِلْجَبِينِ ﴾ ٧٣ ﴿ وَنَحْنُ وَأَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ٧٤ ﴿ وَنَحْنُ ذُرِّيَّتُهُ مَرْبُوبِينَ ﴾ ٧٥ ﴿ وَفَرَّقْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ٧٦ ﴿ سَلَّمَ عَنْ نُوْحٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ٧٧ ﴿ إِنَّا كُنَّا نَبْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٧٨ ﴿ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٧٩ ﴿ ثُمَّ أَفَرَّقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ ٨٠ .
لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع بين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً - عليه الصلاة والسلام - وما لقي من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ﴿ فَنَدَا رَبَّهُ إِنِّي مُنْذِرُ قَوْمِي ﴾ فغضب الله تعالى لغضبه عليهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَمْلِكْ لِلْجَبِينِ ﴾ ٧٣ ﴿ وَنَحْنُ وَأَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو التكذيب والأذى ﴿ وَنَحْنُ ذُرِّيَّتُهُ مَرْبُوبِينَ ﴾ ٧٤ ﴿ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴾ : لم تبق إلا ذرية نوح ﷺ (١) . وعن سمرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ ذُرِّيَّتُهُ مَرْبُوبِينَ ﴾ ٧٤ : قال : « سام ، وحام ، ويافث » (٢) . وعنه أيضاً أن نبي الله ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » (٣) والمراد بالروم ههنا هم الروم الأول ، وهم اليونان المتسبون إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَفَرَّقْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ٧٩ قال ابن عباس ﷺ : يذكر بخير ، وقال مجاهد : يعني لسان صدق للأنبياء كلهم ، وقال قتادة والسدي : أبقي الله عليه النناء الحسن في الآخرين . وقوله تعالى : ﴿ سَلَّمَ عَنْ نُوْحٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ مفسر لما أبقي عليه الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿ إِنَّا كُنَّا نَبْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى ونجمل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ ثُمَّ أَفَرَّقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ أي أهلكتهم فلم يبق منهم عين تطرف ، ولا ذكر ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .
﴿ وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ لَئِيْزِيْسَ ﴾ ٨١ ﴿ إِذْ جَاءَهُ زَيْدٌ وَقَتْلَى سَلِيْمَ ﴾ ٨٢ ﴿ إِذْ قَالَ لَئِيْزٌ يَا بُوَ قَتْلَى مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ٨٣ ﴿ أَفَتَكْفُرُ بِنِالِهِ دُونَهُ أَفَرُيْدُونَ ﴾ ٨٤ ﴿ قَالَا لَكُمُورٌ يَمِينُ الْغُلَبِينَ ﴾ ٨٥ .

قال ابن عباس : ﴿ وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ لَئِيْزِيْسَ ﴾ أي من أهل دينه ، وقال مجاهد : علي منهاجه وسنته ﴿ إِذْ جَاءَهُ زَيْدٌ وَقَتْلَى سَلِيْمَ ﴾ قال ابن عباس : يعني شهادة أن لا إله إلا الله . سأل عوف محمد

(١) ذكره السيوطي في الدر اللخير (٩٩/٧) ونسبه إلى ابن المنلو وابن جرير .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٣٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٢٣١) وأحمد في مسنده (٩/٥) والطبراني في الكبير (٢٥٤/٧) .

ابن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حي وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وقال الحسن : سليم من الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِبُيُوتِهِمْ وَيُحْيِيهِمْ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ؛ ولهذا قال ﷺ : ﴿ أَيُنَافِقُ عَلَيْهِمْ دَهُنُ اللَّهِ يُحْيُونَ ﴾ ﴿ ١٧٧ ﴾ فما ظنكم ببيت آلتيه ؟ قال قتادة : يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره .

﴿ فَظَنَرَ ظَنْرَةً فِي الشَّجَرِ ۖ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ ۙ قَوْلًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ ۖ فَرَأَى إِلَاهُ مَلَأَهُمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ ۝ فَرَأَى عَلَيْهِمْ مَرَدًّا بِالْأَيْدِي ۖ فَأَنبَأَا إِلَيْهِ بِمِيقَاتِهِمْ ۖ قَالَ أَتَعْبُدُونِ مَا تَخْلَعُونَ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا ابْتَدَأَ الْقَوْمَ فِي الْجَمْعِ ۖ فَأَدْبَأُوهُ بِذِكْرِهِمْ فَجَعَلَهُمْ السَّمْكَانَ ۖ ۝

إِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ ذَلِكَ ؛ لَقِيمٌ فِي الْبَلَدِ إِذَا ذَهَبُوا إِلَى عِيْدِهِمْ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أُرْفَ خُرُوجِهِمْ إِلَى عِيْدِ لَهُمْ ، فَأَحْبَبَ أَنْ يَخْتَلِيَ بِأَلْقَتِهِمْ لِيَكْسِرَهَا ، فَقَالَ لَهُمْ كَلَامًا حَوْقَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَهَمُّوا مِنْهُ أَنَّهُ سَقِيمٌ عَلَى مَقْتَضَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ ﴿ قَتَلُوا عَنْهُ نَبِيَّهُ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : وَالْعَرَبُ يَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ : نَظَرَ فِي الْحُجُومِ ، يَعْنِي قَتَادَةُ : أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ مُتَفَكِّرًا فِيمَا بِهِمُ بِهِ ﴿ قَتَلَ إِبْنِي سَيْبٍ ﴾ أَيُّ ضَعِيفٍ . وَقَالَ سَفِيَانٌ : يَعْنِي طَعْمِينَ ، وَكَانُوا يَفْرُونَ مِنَ الْمُطْعُونِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَخْلُو بِأَلْقَتِهِمْ . وَقِيلَ : أَرَادَ ﴿ إِبْنِي سَيْبٍ ﴾ أَيُّ مَرِيضِ الْقَلْبِ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْأَوْتَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَتَلُوا عَنْهُ نَبِيَّهُ ﴾ أَيُّ ذَهَبَ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا خَرَجُوا فِي سُرْعَةٍ وَاخْتِفَاءٍ ، ﴿ قَتَلَ آلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ طَعَامًا قَرِيبًا لِيَتَوَكَّلُوا لَهُمْ فِيهِ .

وقوله تعالى: ﴿ قَرَأَ عَلَيْهِمْ هُتَّى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قال القراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين . وقال قتادة والحوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين . وإنما ضربهم باليمين : لأنها أشد وأنكى ، ولهذا تركهم جنداً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . وقوله ﴿ فَأَتَيْنَا الْإِنِّيَ يَرْفُونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أي يسرعون ، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة متى فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا ، فعرفوا أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - هو الذي فعل ذلك . فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبتهم فقال: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَدْرَجُونَ ﴾ أي تعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تتسحتونها وتجعلونها بأيديكم ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَحْمِلُونَ ﴾ يحتمل أن تكون ما مصدرية فيكون تقدير الكلام : خلقكم وعلمكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي تقديره : والله خلقكم والذي تعملونه ، وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر لما رواه حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال : « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعه » ^(١) فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهقروا فقالوا : ﴿ إِنَّا لَمُ بَنَاتُكَ أَفْكَوْهُ فِي الْجَبْرِ ﴾ فنجاه الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُ بِهِ كَيْدَ لَعَنَتُهُمُ الْآسَفِينَ .

[illegible]

(١) ذكره الألباني في الصحيحة (١٦٧٣).

الْمُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَتَزَكَّىٰ يَنْتَظِرُ يَتَّخِذُ مِنَ الْمُتَلَذِّثِينَ ﴿١٠٠﴾ وَتَزَكَّىٰ عَلَيْهِ وَتَزَكَّىٰ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا عَقِيبٌ وَتِلْكَ لَمِيزَاتُ ﴿٩٩﴾ .
 يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وأسس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة ، هاجر من بين أظهرهم وقال : ﴿ إِنْ ذَا بَأْسَ إِنْ رَبِّي مُبْتَليُّ ﴾ ﴿٩٩﴾ وَتَزَكَّىٰ عَلَيْهِ وَتَزَكَّىٰ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا عَقِيبٌ ﴿١٠٠﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق للمسلمين وأهل الكتاب ؛ بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحده ، وفي نسخة أخرى : بكره فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً إسحاق ، ولا يجوز هذا ؛ لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق ؛ لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب ، فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وَجِئَكَ بِمَعْنَى الذي ليس عندك غيره ، فإن إسماعيل كان قد ذهب به وبأمه إلى مكة ، وهو تأويل وتحريف باطل ؛ فإنه لا يقال : وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذيحه أبلغ في الابتلاء والاختبار . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم ، وأيضاً ، وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك ثلثي إلا عن أبحار أهل الكتاب ، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ؛ فإنه ذكر الإشارة بغلام حلیم وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَتَزَكَّىٰ يَنْتَظِرُ يَتَّخِذُ مِنَ الْمُتَلَذِّثِينَ ﴾ ﴿١٠٠﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : ﴿ إِنْ أَنْتَ بِبَشِيرٍ مِّنْ عِندِ رَبِّكَ ﴾ ﴿١٠١﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ دُونِهِ إِسْحَاقَ يَتَقَرَّبُ ﴾ أي يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل ، وقد قلنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذيحه وهو صغير ؛ لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذيحه صغيراً ؟ وإسماعيل وصف ههنا بالحلیم ؛ لأنه مناسب لهذا المقام .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَتَهُ السَّعْيَ ﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويعشي معه . ﴿ فَكَانَ يَتَخَذُ مِنَ الْمُتَلَذِّثِينَ ﴾ ﴿١٠٢﴾ أَتَىٰ أَهْلَهُ فَأَقْبَرَ أَبَاهُ فَأَنْتَ بَشِيرٌ ﴿١٠٣﴾ . قال رسول الله ﷺ : « رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمَنَامِ وَحْيٌ » (١) . وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿ قَالَ بَلَغَتْ أَهْلَهُ مَا تُؤْتِي ﴾ أي امض لما أمرك الله من ذبيحي ﴿ سَتَجِدُنِي إِِنْ كُنَّ اللَّهُ مِنَ الْمُتَذَكِّرِينَ ﴾ أي سأصبر وأحسب ذلك عند الله تعالى ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَيْنَاهُ وَسَخَّرْنَا لَدُنَّ آبَائِهِمُ السَّخَرَةَ ﴾ أي فلما تشهدا وذكرنا الله تعالى ، إبراهيم على الذبيح والولد شهادة الموت ، وقيل : ﴿ أَسْلَمًا ﴾ يعني استسلما وانقادا ، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى ، وإسماعيل طاعة لله ولأبيه ، ومعنى ﴿ وَتَزَكَّىٰ يَنْتَظِرُ ﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه . قال ابن عباس ومجاهد

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٢٩/١) والذهبي في مجمع الزوائد (١٧٦/٧) وعزاه للطبراني في الكبير ، وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .

والضحك : ﴿ وَتَمَّ لَيْلَيْنِ ﴾ أكبه على وجهه . وقال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناكس عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات ، ثم ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفني فيه فخلعه ليخلعه فنودي من خلفه ﴿ إِنَّ يَكْفِيكَ ﴾ قَدْ سَفَتَ الرَّؤْيَا ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش ^(١) ، وروي أن أبا هريرة وكعب اجتمعا ففعل أبو هريرة ﷺ يحدث عن النبي ﷺ فجعل كعب يحدث عن الكتب ، فقال أبو هريرة ﷺ قال النبي ﷺ : « إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وإنني قد خيأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » ^(٢) ، فقال له كعب : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : فذاك أمي وأمي - أو فداء أمي وأمي - أفلا أتحرك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؟ إنه لما أرى ذُبَحَ ابني إسحاق قال الشيطان : إن لم أقتن هؤلاء عند هذه لم أقتنهم أبداً ، فخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام بائنه ليذبحه ، فذهب الشيطان فدخل على سارة فقال : أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : غدا به لبعض حاجته ، قال : فإنه لم يعد به حاجة ، إنما ذهب به ليذبحه ، قالت : ولم يذبحه ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك ، قالت : فقد أحسن أن يطع ربه ، فذهب الشيطان في أثرهما فقال للغلام : أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لبعض حاجته ، قال : فإنه لا يذهب بك حاجة ولكنه يذهب بك ليذبحك ، قال : ولم يذبحني ؟ قال : يزعم أن ربه أمره بذلك ، قال : فوالله لمن كان الله تعالى أمره بذلك ليفعلن ، قال : فيس منه فكره ولحق إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال : أين غدوت بابنك ؟ قال : لحاجة ، قال : فإنك لم تغد به حاجة وإنما غدوت به لتذبحه ، قال : ولم أذبحه ؟ قال : تزعم أن ربك أمرك بذلك ، قال : فوالله لمن كان الله تعالى أمرني بذلك لأفعلن ، قال : فكره ويس أن يطاع ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰبَتْهُ أُمُّ يَكْفِيكَ ﴾ قَدْ سَفَتَ الرَّؤْيَا ﴾ أي قد حصل المقصود من رؤياك لإضجاعك ولذالك للذبح ، وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئا ، بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿ قَدْ سَفَتَ الرَّؤْيَا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَّبْنَا بِرَبِّكَ الْفَتْنَيْنِ ﴾ أي هكذا نصرف عن أطاعنا المكارة والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا كما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ وَرَوَّعَهُ رَبُّكَ عَنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّبِعِ عَلَىٰ أَفْوٍ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافاً لطائفة من المعتزلة . والدلالة من هذه ظاهرة ؛ لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً : إثابة الخليل على الصبر على

(١) أنورجده أحمد في مستند (٢٩٧/١) .

(٢) أُنْجِزَ أَحْمَدُ فِي مَسْأَلَةِ (١٢٦/٢) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٨/٧) وعزاه إلى عبد الرزاق في مصنفه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي.

ذبح ولده وعزمه على ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَكَادُ كَفُورٌ يُبَدِّلُ الْيَتِيمَ ﴾ أي الاختصار الواضح الجلي ؛ حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله تعالى متقادا لطاقته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَرَيْهِمْ أَلَيْهِ يَكُونُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ﴾ بكش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا . وعن صفية بنت شيبة قالت : أخبرني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا ، أرسل رسول الله ﷺ إلي عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، وقالت مرة : إنها سألت عثمان لم دعاك النبي ﷺ ؟ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن أمرك أن تخمرهما ، فخمرهما ، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » ^(١) قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا ، وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ ، والله أعلم .

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو :

ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام : قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رضي الله عنه قال : قال يوسف عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه : ترغب أن تأكل معي وأنا - والله - يوسف بن يعقوب ، نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ^(٢) .

ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به : عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : المفدي إسماعيل رضي الله عنه وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود ، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : الذبيح إسماعيل ، وقال الشعبي : هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة . عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك ، أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل رضي الله عنه ، قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول : إن الذي أمر الله تعالى إسماعيل عليه الصلاة والسلام أن يذبحه من ابنه إسماعيل ، وأنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ الْكِتَابَ أَنْ يَكُونُ ذَاقًا لِلْعَذَابِ ﴾ ويقول الله تعالى : ﴿ يَذْكُرْنَاهَا بِمَنْزِلَةٍ وَسَيُحْكِيَنَّ لَهُمْ تَأْوِيلَ ذَلِكَ وَيَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴾ يقول : باين وابن ابن ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل . وذكر محمد بن كعب القرظي ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة فقال : إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك ، قال محمد بن كعب : وأنا عند عمر بن عبد العزيز ، فقال له عمر : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن يهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبروا لما أمر به ، فهم يمحذون ذلك ويؤمنون أنه إسحاق ؛ لأن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٤) .

(٢) ذكرت روايات عديدة أن الذبيح هو إسحاق رضي الله عنه ، ولكن جميع هذه الأقوال لا يرقى إلى درجة الحديث الصحيح ، وكلها مأخوذة عن كتب الأخبار ؛ لذا أقرنا عدم ذكرها نظرا لما فيها من الإسرائيليات .

إسحاق : أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل . وقال زيد بن أسلم : هو اسم صنم كان يعبد أهل مدينة يقال لها : بعلبك غربي دمشق ، وقوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بِمَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال الله تعالى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِمْ فَمَسَّرْنَاهُ ﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع من مثبت . وقوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي ثناء جميلاً ﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ كما يقال في إسماعيل وإسماعيل وهي لغة بني أسد .

وقرأ آخرون ﴿ سلام على إسماعيل ﴾ وهي قرلة ابن مسعود رضي الله عنه ، وقرأ آخرون ﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(١) يعني آل محمد عليهم السلام .

﴿ وَإِلَّا عَجُوزًا ﴾ أي العجوزين . ﴿ ثُمَّ دَرَسُوا الْآخِرِينَ ﴾ وقرأ ﴿ وَرَزَقْنَاهُ ﴾ أي العجوزين . ﴿ وَرَزَقْنَاهُ ﴾ أي العجوزين .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعث إلى قومه فكذبوه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها ، فإن الله تعالى أهلهم بأنواع من العقوبات وجعل محلهم من الأرض بحيرة منتنة قيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهاراً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُ ﴾ أي العجوزين . ﴿ وَرَزَقْنَاهُ ﴾ أي العجوزين . ﴿ وَرَزَقْنَاهُ ﴾ أي العجوزين .

﴿ وَإِلَّا عَجُوزًا ﴾ أي العجوزين . ﴿ ثُمَّ دَرَسُوا الْآخِرِينَ ﴾ وقرأ ﴿ وَرَزَقْنَاهُ ﴾ أي العجوزين . ﴿ وَرَزَقْنَاهُ ﴾ أي العجوزين . ﴿ وَرَزَقْنَاهُ ﴾ أي العجوزين .

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ونسبه إلى أمه ^(١) . وفي رواية « إلى أبيه » وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : هو الموقر أي المملوء بالامعة ﴿ تَسَاقَمَ ﴾ أي قارع ﴿ الْفُلْكَ مِنَ الْمَشْحُونِ ﴾ أي المملوءين ، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الفرق ، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر لتخفف بهم السفينة ، فوقمت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات ، وهم يضمنون به أن يلقي من بينهم فنجد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوثاً من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام ، فلا يهشم له لحماً ولا يكسر له عظماً ، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه ، فالتقمه الحوت وذهب به طفاف به البحار كلها . ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي ، واختلطوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت قليل : ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة ، وقيل : أربعين يوماً ، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك .

(١) قرأ نافع وابن عامر ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ بفتح الألف وكسر اللام ، وقرأ الباقون ﴿ ياسين ﴾ بكسر الألف ساكنة اللام (انظر : حجة القراءات ص ٦١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في أسعادت الأنبياء (٣٤١٣) وأبو حنيفة في السنن (٤٦٦٩) وأحمد في مسنده (٤٥٠٢) .

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١﴾ لَآبَتْ فِي بَلْعِيزِ إِنْ يُورِ يَسْتَوْنَ﴾ قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء، واختاره ابن جرير وفي حديث ابن عباس «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» (١). وقيل: المراد ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله ﴿فَلَوْلَا﴾ في قوله ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾. فاستجبت له وتحيته من الغنى وكذلك شغى المؤمنين.

عن أنس بن مالك ؓ - ولا أعلم أنما إلا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش، قالت الملائكة: يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة، فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب ومن هو؟ قال ﷺ: عبيدي يونس، قالوا: عبيدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة، قالوا: يا رب أولاً ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتجنيه في البلاء، قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه بالراء (٢).

قال تعالى: ﴿بَنَّاكَ﴾ أي ألقيناه ﴿بِالْمَرْءِ﴾ قال ابن عباس ؓ وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء، قيل: على جانب دجلة وقيل: بأرض اليمن فالله أعلم ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُكَ﴾ أي ضعيف البدن، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَبْدَكَ شَجَرَةً تَنْ يُقْلِعُ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ؓ وغيرهما: البقطن هو القرع. وقال سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لها فهي من البقطن، وفي رواية عنه: كل شجرة تهلك من عاصمها فهي من البقطن، وذكر بعضهم في القرع فوائد منها: سرعة ناته، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيقاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء ويتبعه من نواحي الصحفة (٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ إِذْ يَادُّكَ آلُيَّ أَنْزِلُكَ﴾ عن ابن عباس ؓ أنه قال: إما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعدها نبذه الحوت عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. (قلت) ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم وآمنوا به، وحكى البغوي: أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون وقوله تعالى: ﴿أَنْزِلُكَ﴾ قال ابن عباس ؓ: بل يزيدون.

وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. عن أبي بن كعب ؓ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ إِذْ يَادُّكَ آلُيَّ أَنْزِلُكَ﴾ قال: «يزيدون عشرين ألفاً؟» (٤) قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة ألف أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. وقوله تعالى: ﴿فَتَنَّاكَ﴾ أي فأمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه الصلاة والسلام جميعهم ﴿فَنَسَخْنَاهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي إلى وقت آجالهم، كقولهم جلبت عظمتهم: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَثَقَمَهَا يَسْتَبِيحُوا إِلَّا قَوْمٌ يَمُوتُ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غُطَّاءَ الْبَرْزِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَحْنُ أَكْبَرُ﴾.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٠/١).

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٥٥٧٦) والسيوطي في الدر المنثور (٣٣٤/٤) والطبري في تفسيره (٦٤/٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في الأمثلة (٥٤٣٣) وسلم في الأمثلة (٢١) والداري في الأمثلة (١٦).

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٢٩).

أي إنما ينقاد لمقاتلتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هواضل منكم من خرى للنار فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا نَرَىٰ قُلُوبَهُمْ غَافِلِينَ ۚ يُوَلِّدُكُمْ مِّنْهُ مَنَافِقَ ۚ أَيُّ إِنَّمَا يَضِلُّ بِهِ مِنْهُ هُوَ مَأْفُوكٌ وَمَبْطُلٌ ۚ ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْهَا لِلْمَلَائِكَةِ مِمَّا نَسَبُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِمْ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ ۚ ﴿ وَنَا يَٰٓأَيُّهَا لَمْ يَمُوتْ مَلَكٌ ۚ ﴾ أي له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزها ولا يتعداه فمن العلاء بن سعد - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائها : « أطلت السماء وحق لها أن تظلم ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راجع أو ساجد » ثم ﴿ وَنَا يَٰٓأَيُّهَا لَمْ يَمُوتْ مَلَكٌ ۚ ﴾ ﴿ وَنَا لَتَنَزَّلَنَّ السَّكَاوَةُ ۚ ﴾ (١) .

﴿ وَنَا لَتَنَزَّلَنَّ السَّكَاوَةُ ۚ ﴾ أي نغف صفوفاً في الطاعة ، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال : كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت ﴿ وَنَا لَتَنَزَّلَنَّ السَّكَاوَةُ ۚ ﴾ فصفوا : وقال أبو نضرة : كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استووا قبالاً ، يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة ثم يقول : ﴿ وَنَا لَتَنَزَّلَنَّ السَّكَاوَةُ ۚ ﴾ تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر (٢) . وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وترجها طهوراً (٣) . ﴿ وَنَا لَتَنَزَّلَنَّ السَّكَاوَةُ ۚ ﴾ أي نصطف ، فنسبح الرب ونمجده ونقدسده ونزجها عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد : ﴿ وَنَا يَٰٓأَيُّهَا لَمْ يَمُوتْ مَلَكٌ ۚ ﴾ الملائكة ﴿ وَنَا لَتَنَزَّلَنَّ السَّكَاوَةُ ۚ ﴾ الملائكة ﴿ وَنَا لَتَنَزَّلَنَّ السَّكَاوَةُ ۚ ﴾ الملائكة تسبح الله ﷻ . وقوله جل وعلا : ﴿ رَبِّكَ كُنُوزًا يَّهْوَىٰ ۚ لَوْ أَنَّ عِندَنا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۚ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَخَطَ اللَّهِ وَلَنُؤَذِّبَنَّهُمْ ۚ ﴾ أي قد كانوا يمتنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال ﷺ : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِأَنَّهُمْ جَهْدَ لَيْسَتِهِمْ لَيْتَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ نَذِيرٌ ۚ فَكُنَّا بِهَدْيِهِمْ نَذِيرٌ ۚ مَا زَادَهُمْ إِلَّا غَوًى ۚ ﴾ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ ذَكَّرْنَا بِهِمْ سَوَاقٍ يَبْلُغُونَ ۚ وَعِيدُ أَكِيدُ وَتَهْدِيدُ شَدِيدٌ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِهِمْ ﷻ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ ﷺ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ سَبَّحْتَ كَلِمَاتًا لِّبَيِّنَاتِ الْتَرْسِيلِ ۚ ﴾ ﴿ إِنَّمَا كُنَّ السَّكَاوَةُ ۚ ﴾ ﴿ رَبِّكَ جُنَّةٌ لِّمَنَ الْتَقِيُونَ ۚ ﴾ ﴿ قَوْلُ مَنَّهُمْ حَتَّىٰ جِئَ وَيُؤْتِيَهُمْ سَوَاقٍ يَّبْلُغُونَ ۚ ﴾ ﴿ إِنَّمَا نَزَّلَ الْبَيِّنَاتِ سَبَّحَ الْتَقِيُونَ ۚ ﴾ ﴿ وَقَوْلُ مَنَّهُمْ حَتَّىٰ جِئَ وَيُؤْتِيَهُمْ سَوَاقٍ يَّبْلُغُونَ ۚ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَبَّحْتَ كَلِمَاتًا لِّبَيِّنَاتِ الْتَرْسِيلِ ۚ ﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأُولَٰئِكَ أَنَا مُشْرِكٌ بِكَ اللَّهُ فَوْقَ حَرْبٍ ۚ وَلِهَذَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٥) ، والترمذي في الزهد (٢٣١٢) وابن ماجه في السنن (٤٩٠) والألباني : صوت الألفاظ ؛ أي كثره للملائكة في السلام قد أطلها حتى أطلت ، وهذا كناية عن كثرة الملائكة ، أريد بها تقرير عظمة الله تعالى .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٣٥/٢) ، وعزه أحمد بن نصر اللوزي وابن جرير وابن مردويه وابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (٢١٣/١) ، وابن خزيمة في صحيحه (٢٦٤) .

قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِأُولَئِكَ الْفَرِيقِ ۚ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم من كذبيهم وخالفهم ، كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين ﴿ وَنَا جُنْدًا لَهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي تكون لهم العاقبة . وقوله جل وعلا : ﴿ قَوْلِ عَنَّهُمْ هَبْ ۖ هَبْ ۖ أَيَّ صَبْرٍ عَلَىٰ أَذَاهُم لَكَ ، وَانْتَظِرْ إِلَىٰ وَاقْتِ مُوَجِّلٍ فَإِنَّا سَنَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ النَّصْرَةَ وَالظَّفَرَ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ : نَسَأُ ذَلِكَ إِلَىٰ يَوْمٍ بَدْرٍ وَمَا بَعْدَهَا أَيْضًا فِي مَعْنَاهَا ، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَتَصَيَّرَ قَسْوَقَ يُبَيِّرُونَ ﴾ أي أنظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعْدِ ﴿ قَسْوَقَ يُبَيِّرُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ أَفَمَلِكُنَا يَسْتَفْتِلُونَ ﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضَبُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَجْعَلُ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ ، وَمَعَ هَذَا أَيْضًا كَانُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَعِتَادِهِمْ يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ وَالْعُقُوبَةَ . قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَإِنَّا نَزَّلُ يُسَلِّتُهُمْ مَكَّةَ صَبَاحَ النَّصْرِ ۚ ﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلهم فهبس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صَبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبِيرٌ ، فَلَمَّا خَرَجُوا بِغُفُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ وَرَأَوْا الْجَيْشَ رَجَعُوا وَهُمْ يَقُولُونَ : مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ ، مُحَمَّدٌ وَالْحَمِيسُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَبِيرٌ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَنَسَاءُ صَبَاحِ الْمُنْفِرِينَ » ^(١) ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَزَّلَ عَنْهُمْ حَقَّ جَهَنَّمَ ۚ ﴾ تَصَيَّرَ قَسْوَقَ يُبَيِّرُونَ ﴿ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ .

﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ وَسُبْحَانَكَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ رَبِّي بِالْحَقِّ ۚ ﴾ .

ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدمها ويربها عما يقول الظالمون المكدون المعتدون ، تَعَالَى وَتَزَهَّ وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفسرين ﴿ وَسُبْحَانَكَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ فِي رِيهِمْ وَصِحَّتِهِ وَحَقِيقَتِهِ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ رَبِّي بِالْحَقِّ ﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال ، وَلَمَّا كَانَ التَّسْبِيحُ يَتَضَمَّنُ التَّنْزِيهَ وَالتَّوْبَةَ مِنَ النِّقْصِ بِدَلَالَةِ الْمَطَابَقَةِ ، وَيَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ الْكَمَالِ ، كَمَا أَنَّ الْحَمْدَ يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ مَطَابَقَةً ، وَيَسْتَلْزِمُ التَّنْزِيهَ مِنَ النِّقْصِ قَرْنَ بَيْنَهُمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ وَسُبْحَانَكَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ رَبِّي بِالْحَقِّ ﴾ ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ فَمَلُّوا عَلَى الْمُرْسَلِينَ ؛ فَإِنَّمَا أَنَا رَسُولُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » ^(٢) .

عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال دبر كل صلاة : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ وَسُبْحَانَكَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ رَبِّي بِالْحَقِّ ﴾ ثلاث مرات ؛ فقد اكْتَالَ بِالْغَرِيبِ الْأَوْفَى مِنَ الْأَجْرِ » ^(٣) وقد وردت أحاديث في كفاية المجلس : سبحانهك اللهم وبمحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (٩٤٧) ومسلم في الجهاد والسير (١٢٠) والنسائي في السنن (١٣٢/٦) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٩/٢٣) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٤٠/٧) ، وعزه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منذر .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٩٢٦) والبخاري في الرغبة والرهبة (٤٥٤/٢) والهيتمي (١٠٢/١٠) .

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٥٨) والنسائي في السنن (٢٢٣/٢) .

بمخاض الساعة ، وأهل اللغة يقولون : النص التأخر والبوص التقدم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَجِدُ جِنَّةً سَائِسَةً﴾ أي ليس الحين حين فرار ولا ذهاب .

﴿وَنَجِئْنَا أَنْ يَبْلُغَهُمْ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ وَقَالَ الْكُفَرِيُّ هَذَا سَجَرٌ كَذَّابٌ ﴿١﴾ لَجَلَّ الْآيَةُ إِلَهًا وَجِدًا إِلَى هَذَا لَقْنُهُ جَبَابٌ ﴿٢﴾ وَأَطْلَقَ الْكَلَامَ يَنْهَى لِي أَتَشَاءُ وَأَسِيرُوا عَنْ آلِهَتِكُمْ إِلَى هَذَا لَقْنُهُ يَرَادُ ﴿٣﴾ مَا يَمَعًا يَمَعًا إِلَى الْآيَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا لَا أَنْتَلِيقُ ﴿٤﴾ أَمْزِلَ عَلَيْهِ الْإِذْرَاءَ مِنْ يَمِينًا بَلْ قَمْ فِي سَفْوَةٍ وَنَ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْخُلُوا عَذَابٌ ﴿٥﴾ أَرِ عِندَهُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ أَرِ كَهْرُ ذَلِكَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْيَاسِ وَمَا يَبْتَهِنُ عَلَى عَصَا فِي الْأَسْتَكْبِ ﴿٧﴾ جُنْدٌ مَا هَكَائِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً : ﴿وَنَجِئْنَا أَنْ يَبْلُغَهُمْ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي بشر مثلهم ، ﴿وَقَالَ الْكُفَرِيُّ هَذَا سَجَرٌ كَذَّابٌ﴾ لَجَلَّ الْآيَةُ إِلَهًا وَجِدًا ﴿١﴾ أي أزعجهم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى ، وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشرته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلق ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : ﴿لَجَلَّ الْآيَةُ إِلَهًا وَجِدًا إِلَى هَذَا لَقْنُهُ جَبَابٌ﴾ وَأَطْلَقَ الْكَلَامَ يَنْهَى ﴿٢﴾ وَنَجِئْنَا أَنْ يَبْلُغَهُمْ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿٣﴾ أي استمروا على دينكم ﴿وَأَسِيرُوا عَنْ آلِهَتِكُمْ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَقْنُهُ يَرَادُ﴾ قال ابن جرير : إن هذا الذي يدعون إلى محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولنا نجيته إليه .

ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريكات : قال السدي : إن ناشاً من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام والعباس بن وائل والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينبصنا منه فليكيف عن شتم آلهمنا وندعه وإلهه الذي بعده ، فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء ، ففعلنا به العرب يقولون : تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه ؟ فبعثوا رجلاً منهم يقال له : المطلب ، فاستأذن لهم على أبي طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك وسرايتهم يستأذنون عليك ، قال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصصنا من ابن أخيك فمره فليكيف عن شتم آلهمنا وندعه وإلهه ، قال : فبعث إليهم أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسرايتهم وقد سألتك أن تكف عن شتم آلهمنا ، ويدعوك وإلهك قال ﷺ : يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ ، قال : وإلام تدعوهم ؟ قال ﷺ : أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم ، فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم : ما هي وأبيك لنعتينكها وعشراً أمثالها ، قال ﷺ : تقولون لا إله إلا الله ، فنفروا وقالوا : سلنا غيرها : قال ﷺ : لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها ، فقاموا من عنده غضاباً وقالوا : والله لنشتعنك ، وإلهك الذي أمرك بهذا ﴿وَأَطْلَقَ الْكَلَامَ يَنْهَى لِي أَتَشَاءُ وَأَسِيرُوا عَنْ آلِهَتِكُمْ إِلَى هَذَا لَقْنُهُ يَرَادُ﴾ فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول لا إله إلا الله فأبى وقال : بل على دين الأشياخ ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (١) .

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٢٢) وأحمد في مسنده (٣٦٢/١) كلاهما بنحوه ، والطبري في تفسيره (١٥٢/٢٢) بالنظر .

وقولهم : ﴿ مَا يَمْنَعُ يَكْفًا فِي آيَةِ الْآخِرَةِ ﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة .

قال مجاهد وقتادة وأبو زيد : يعنون دين قريش ، وقال ابن عباس ؓ : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة يعني النصرانية قالوا : لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصاري ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا آتِلَانُ ﴾ قال مجاهد وقتادة : كذب وقال ابن عباس : تخرص . وقولهم : ﴿ لَنْزِلَ عَلَيْكَ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقولهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ لَكُمْ يَذَرُؤُا عَذَابٌ ﴾ أي إنما يقولون هذا ؛ لأنهم ماذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته ، سيعلمون غيب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دُعَا . ثم قال تعالى مبيّناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ، ويختم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر ، وليس إليهم من التصرف في الملك ولا انتقال ذرة وما يملكون من قطمير . ولهذا قال تعالى منكراً عليهم ﴿ أَرَأَيْتُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكَ يُنْزِلُ الْأَمْثَالَ ﴾ أي العزيز الذي لا يرام جناحه الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد .

وقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ أَكْفَرْتُمْ وَالْأَرْضَ وَنَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَأُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب . قال ابن عباس ؓ ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم : يعني طرق السماء ، وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة .

ثم قال ﷻ : ﴿ جُنْدًا مَا هُنَاكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكتبون كما كتبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين .

﴿ كَذَّبَتْ قَالَهُمْ قَوْمٌ بُعِدَ وَوَعْدُ ذُو الْأَوْدَادِ ① وَكُفِرُوا وَقَوْمٌ لُوِيْهُ وَأَخَصَّتْ لِيَنْجُوْا أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ② إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ③ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَلَاحٍ ④ وَقَالُوا رَبَّنَا جِئْنَاكَ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ⑤ اسْتَجِبْ عَلَيْنَا مَا يَقُولُونَ ⑥ .

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد تقدمت قصصهم مبسطة في أماكن متعددة ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَلَاحٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : أي ليس لها مشنوية ، أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، أي فقد اقتربت ودنت وأزفت ، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسماعيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من استثنى الله ﷻ . وقوله ﷻ : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا جِئْنَاكَ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ هذا

والرسل ، أو قال : المؤمنون والصالحون ، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد أيضًا : هو الفصل في الكلام وفي الحكم وهذا يشمل هذا كله وهو المراد واختاره ابن جرير ، وعن أبي موسى عليه السلام قال : أول من قال : أما بعد داود عليه السلام ، وهو فصل الخطاب ^(١) .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصَمِ إِذْ سَأَلُوا إِلَهَهُمْ رَبَّهُمْ لِمَ لَا نَكُفُّ عَنْ حَصَانَيْنِ يَبَئِضَانِ عَلَيْنَا بَعْضُنَا لِلْآخَرَيْنِ كَيْدٌ وَالْآخَرُونَ لِلَّذِينَ الْأُولَى حِمَى لَبِيطُ الَّذِينَ الْأُولَى مَانُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَكَذَلِكَ نَأْتِيكُم مِّنْ دُونِهِمْ مَّوْجًا فَاصْطَفَى بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَذِي فَتْنَةٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) قَالَ قَدْ ظَلَمْتُ سُؤَالَ نَبِيِّكَ إِنَّ الْغُلَاظَ لَيَنِي لِلْغُلَاظِ لَيَنِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَكَذَلِكَ نَأْتِيكُم مِّنْ دُونِهِمْ مَّوْجًا فَاصْطَفَى بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَذِي فَتْنَةٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) فَفَرَّقَا ثُمَّ ذَكَرَ لَّهِمَا مَكَاتٍ .

وقوله تعالى : ﴿ فَفَرَّقَا بَيْنَهُمَا ﴾ ^(٤) ، إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه ، وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب ، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما . وقوله عليه السلام : ﴿ وَغَزَىٰ فِي لَبِيطٍ ﴾ أي غلبني . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ دَاوُدُ إِذْ قَالَ فَفَرَّقَا بَيْنَهُمَا ﴾ ^(٥) قال ابن عباس عليه السلام : أي اختبرناه . وقوله تعالى ﴿ وَبَرَّكَ رُكْعًا ﴾ أي ساجدًا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ويحتمل أنه ركع أولًا ثم سجد بعد ذلك ، ﴿ فَفَرَّقَا لَمْ يَزَلْ ﴾ أي ما كان منه مما يقال : فيه إن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقد اختلف الأئمة في سجدة ﴿ مَرَّ ﴾ هل هي من عزائم السجود؟ على قولين : الجليلي من مذهب الشافعي عليه السلام أنها ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر ، والدليل على ذلك ما روي عن ابن عباس عليه السلام قال : السجدة في ﴿ مَرَّ ﴾ ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها ^(٦) . عن ابن عباس عليه السلام قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿ مَرَّ ﴾ وقال : « سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكر » ^(٧) وعن ابن عباس عليه السلام قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت ، فسجدت الشجرة يسجدودي فسمعتها تقول وهي ساجدة : اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا ، واجعلها لي عندك ذخيرًا ، وضع بها عني وزرًا ، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس عليه السلام : فأرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قام فقرأ السجدة ثم سجد ، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة ^(٨) . عن العولم قال : سألت مجاهدًا عن سجدة ﴿ مَرَّ ﴾ فقال : سألت ابن عباس عليه السلام : من أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ ﴿ وَبَرَّكَ رُكْعًا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُحَدِّثُهُمْ أَقْسَدَهُ ﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يقتدي به فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٩)

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٧/١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في مسجد القرآن (١٠٦٩) والترمذي في الصلاة (٥٧٧) وأبو داود في الصلاة (١٤٠٩) . وقال الحافظ في التلخيص (٤٥٦/٢) والبراد بالوزن ما وردت الهمزة على فله كصيغة الأمر مثلاً .

(٣) أخرجه الساجي في السنن (١٥٩/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٥٧٩) والحاكم في المستدرک (٢١٩/١) وابن خزيمة في صحيحه (٥٦٢٠) .

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢١) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر **﴿ مَنَّ ﴾** ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال **﴿ مَنَّ ﴾** : **﴿ إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةٌ نَبِيٍّ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشْرُقُونَ ﴾** فزول وسجد ^(١) .

وقوله تعالى : **﴿ وَإِنَّ لَكُمْ لَعِندَنَا رَبًّا مَنَّابًا ﴾** أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح : **«المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ؛ الذين يقسطون في أهلهم وما أولوا»** ^(٢) وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : **« إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأفهمهم منه مجلسا : إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر »** ^(٣) .

﴿ يَنْدَادُوا إِنَّا جَعَلْنَاهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَلَمْ يَأْتِ الْيَقِينَ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الْيَقِينَ يَمِيلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كُفَرُوا ﴾ .

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . وعن أبي زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له : أبحاسب الخليفة ؟ فقلت قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ، قلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قلت : يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ، إن الله تعالى جمع له التوبة والخلافة ، ثم توعدته في كتابه فقال تعالى : **﴿ يَنْدَادُوا إِنَّا جَعَلْنَاهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَلَمْ يَأْتِ الْيَقِينَ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الْيَقِينَ يَمِيلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾** وقال عكرمة **﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كُفَرُوا بِمَنْ لِحَسَابٍ ﴾** هذا من المقدم والمؤخر ، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا ، وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا يوم الحساب وهذا القول أمشى على ظاهر الآية والله ﷻ الموفق للصواب .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا النَّاسَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَحَلًّا لَّكَ غُلُّ الْيَقِينَ كَفَرُوا قَوْلَ الْيَقِينَ كَفَرُوا بِرَبِّ الْيَقِينَ ﴾ ^(٤) **﴿ أَمْ يَحْمِلُ الْيَقِينَ مَاسِكُوا وَصَلُّوا الصَّلَاةَ كَالْفَتِيرِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَحْمِلُ السَّيِّئِينَ كَالْعَبَادِ ﴾** ^(٥) **﴿ كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِنُكَفِّرَ عَنْ مَاسِكُوا وَنَتَشْكُرَ أَوْلَادُ الْيَقِينَ ﴾** .

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحده ، ثم يجمعهم يوم الجمع فيشيب المطيع ويعذب الكافر ؛ ولذا قال تبارك وتعالى : **﴿ وَمَا خَلَقْنَا النَّاسَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَحَلًّا لَّكَ غُلُّ الْيَقِينَ كَفَرُوا ﴾** أي الذين لا يرون بئنا ولا معادًا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط **﴿ قَوْلَ الْيَقِينَ كَفَرُوا بِرَبِّ الْيَقِينَ ﴾** أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم ، ثم بين تعالى أنه ﷻ من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى : **﴿ أَمْ يَحْمِلُ الْيَقِينَ مَاسِكُوا وَصَلُّوا الصَّلَاةَ كَالْفَتِيرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾** .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٤١٠) وابن ماجه في السنن (١٩٩٨) والحاكم في المستدرک (٢٨٤/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٤٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) ومسلم في الإملاء (١٨) والشافعي في السنن (٢٢١/٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٢٩) وأحمد في مسنده (٢٢/٣) ، والبيهقي في السنن (٨٨/١٠) .

أَمْ يَحْسَبُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَيُّ لَّا فَعَلَ ذَلِكَ وَلَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بَدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى يَثَابُ فِيهَا هَذَا الْمُطْع وَيُعَاقَبُ فِيهَا هَذَا الْفَاجِرُ ، وَهَذَا الْإِرْشَادُ يَدُلُّ الْعُقُولَ السَّليمةَ وَالْفُطْرَ الْمُسْتَقِيمَةَ عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ مُعَادٍ وَجْزَاءٍ ، فَإِنَّا نَرَى الظَّالِمَ الْبَاغِيَ يَزِيدُ مَا لَهُ وَلَوْلَهُ وَنِعْمُهُ وَيَمُوتُ كَذَلِكَ ، وَنَرَى الْمُطْعَ الْمَظْلُومَ يَمُوتُ بِكُفْرِهِ ، فَلَا بَدَّ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْعَادِلِ الَّذِي لَا يَظْلَمُ مِقْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِنْصَافٍ هَذَا مِنْ هَذَا ، وَإِذَا لَمْ يَقْعْ هَذَا فِي هَذِهِ الدَّارِ ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَى لِهَذَا الْجَزَاءِ وَالْمُوَاسَاةِ . وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ يَرِشِدُ إِلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَأْخِذِ الْعَقْلِيَّةِ الصَّرِيحَةِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُ أَنزَلْتُهُ إِلَيْكَ مِيزَانًا مَبِينًا لِيُذَكَّرَ عَلَيْهِمْ وَلِيُنْذَرَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ذُوو الْعُقُولِ ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : وَاللَّهُ مَا تَدِيرُهُ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ حَتَّى أَنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ : قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مَا يَرَى لَهُ الْقُرْآنُ فِي خَلْقٍ وَلَا عَمَلٍ ؟ .

﴿ وَهَئِنَّا لِإِسْرَافِهِمْ لَشَائِدُونَ ﴾ يَتِمُّ الْعَبْدُ إِلَهُهُ أَوَّلًا ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴾ فَقَالَ إِنَّهُ أَجَبْتُ حُبَّ الْغَنِيِّ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى قَوَّيْتُ بِالْجَنَابِ ﴿ رُدُّوهُنَّ عَلَى فَلَاحِكٍ مُسْتَا بِالشَّرَفِ وَالْأَعْنَافِ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لدَاوُدَ سليمان أي نبياً كما قال ﷺ : ﴿ وَرَبِّي سَتِئْنَ تَأْوَدُ ﴾ ، أي في النبوة . وقوله تعالى : ﴿ يَتِمُّ الْعَبْدُ إِلَهُهُ أَوَّلًا ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإجابة إلى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴾ أي إِذْ عَرَضَ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَالِ مَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الْخَفِيِّ الصَّافِيَّاتِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : وَهِيَ الَّتِي تَقِفُ عَلَى ثَلَاثِ وَطَرَفٍ حَافِرِ الرَّابِعَةِ ، وَالْجِهَادِ السَّرَاعِ وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ . وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْرٍ وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ ، فَهَبَتِ الرِّيحُ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، لَعِبَ ، فَقَالَ ﷺ : « مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ ؟ » قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : بَنَاتِي ، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرْسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ فَقَالَ ﷺ : « مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ ؟ » قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فَرَسٌ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ ؟ » قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : جَنَاحَانِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ ؟ » قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَتْ لَهُ خَيْلٌ لَهَا أَجْنَحَةٌ ؟ قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فَضَحَكْتُ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ ^(١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَقَالَ إِنَّهُ أَجَبْتُ حُبَّ الْغَنِيِّ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى قَوَّيْتُ بِالْجَنَابِ ﴾ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ اشْتَغَلَ بِعَرْضِهَا حَتَّى فَاتَتْ وَقْتُ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، وَالَّذِي يَقْطَعُ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتْرَكْهَا عَمْدًا بَلْ نَسِيَانًا كَمَا شَغَلَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى صَلَاها بَعْدَ الْغُرُوبِ ، عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : جَاءَ عُمَرُ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَمَا غَرِبَ الشَّمْسُ ، فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفْرًا قَرِيشَ وَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا كَدْتُ أَصْلِي الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَغْرِبُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا » فَقَالَ : فَقَعْنَا إِلَى بَطْحَانَ فَنُوضِئُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا ، فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرِبَ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا لِلْمَغْرِبِ ^(٢) وَيَحْتَمَلُ أَنَّهُ كَانَ سَائِقًا فِي مَلْتَمِهِمْ تَأْخِيرَ الصَّلَاةِ لَعَذَرِ الْغَزْوِ

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٣٢) « وسهوتها » أي الصغر المتحد لليل في الأرض .

(٢) أخرجه البخاري في الواقيت (٥٩٦) والترمذي في السنن (١٨٠) وبطحان : ولد بالمدينة وهو أحد أوديعها الثلاث وهي : الحقيق ، وبطحان ، وقفة .

شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يديك قال ﷺ : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك لعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أن أخذه ، والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة ^(١) . وعن ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلملي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وهو في حائط له بالطائف يقال له : الوهط وهو محاصر فتى من قريش يزني ويشرب الخمر ، فقلت : بلغني عنك حديث أنه من شرب شربة من الخمر لم يقبل الله تعالى له توبة أربعين صباحاً ، وأن الشقي من شقي في بطن أمه ، وأنه أتى بيت المقدس لا تنهزه إلا الصلاة فيه ، خرج من خطيبته مثل يوم ولدته أمه ، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق ، فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : إني لأحل لأحد أن يقول علي ما لم أقل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب من الخمر شربة لا تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه » قال : فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال : « فإن عاد كان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من طينة الخيل يوم القيامة » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله تعالى » ^(٢) وسمعت رسول الله يقول : « إن سليمان عليه السلام سأله الله تعالى ثلاثاً فأعطاه اثنين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة ، سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله ملكاً لا ينهي لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل يخرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيبته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياه » ^(٣) .

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ دعا إلا استفتحته : « سبحان الله ربي العلي الأعلى الوهاب » ^(٤) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَتَحَرَّأَ لَكَ الْيَجُّ بِأَمْرِ لَيْلَةٍ حَيْثُ أَسَافَ ﴾ قال الحسن البصري رضي الله عنه : لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله تعالى عرضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر .

وقوله جل وعلا : ﴿ حَيْثُ أَسَافَ ﴾ أي حيث أراد من البلاد . وقوله ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ كُلُّ بَنُوهُمْ عَرَضُونَ ﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محارب وثمانيل وجفان كالجواب وقصور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿ وَيَكْفُرِينَ مَكْرَهُمْ فِي الْأَشْقَادِ ﴾ أي موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى .

وقوله ﷻ : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسלטان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت ، وأحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي مهما فعلت فهو جائز

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٣/٣) ومسلم في المساجد (٤٠) والبيهقي في السنن (٢٦٤/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٢) ، ١٩٧ .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٢) والنسائي في السنن (٤٣/٢) وابن ماجه في السنن (١٤٠٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٤) .

لك ، احكم بما شئت فهو صواب . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خیر بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال له : تواضع فاختار المنزلة الأولى ؛ لأنها أرفع قدراً عند الله ﷻ وأعلى منزلة في المعاد ، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة ، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبي تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً فقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَوْلَا أَنَّكَ لَتَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي في الدار الآخرة . ﴿ وَكَذَلِكَ عَدْنَا يُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّلْمَ وَأَنَا أَصْدَقُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) ﴿ لَوْ كُنَّ بِحُكْمِ رَبِّكَ فَهْلًا مَقْتَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (٢) ﴿ وَوَعَدْنَا اللَّهُ آلَهُمْ وَيَعْقُوبَ نِعْمَ بَرٌّ لَّوْنُ الْآلِطِينَ ﴾ (٣) ﴿ وَجَعَلْنَاهُ سَبِيحًا يَمُودُ ﴾ (٤) ﴿ وَوَعَدْنَا آلَهُمْ الْوَيْلَ ﴾ (٥) .

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق في جسده مفرز إبرة سليماً سوى قلبه ، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده ؛ لإيمانها بالله تعالى ورسوله ؛ فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة في الدنيا ، فسلم جميع ذلك ، عن أنس بن مالك ؓ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يقدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام : لا أحري ما تقول غير أن الله ﷻ يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق ، قال : وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿ لَوْ كُنَّ بِحُكْمِ رَبِّكَ فَهْلًا مَقْتَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (٦) ثم فاستمطأته فالتفت تنظر فأقبل عليها وقد أذهب الله مابه من البلاء وهو على أحسن ما كان ، فلما رآته قالت : أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبلى ، فوالله التقدير على ذلك مارأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً ، قال : فإني أنا هو ، قال : وكان له أندران (٧) أنذر للقمح وأنذر للشعير ، فبعث الله تعالى مسحبين ، فلما كانت إحداهما على أنذر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أنذر الشعير حتى فاض (٨) .

وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يقتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه فناداه ربه ﷻ : يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال عليه الصلاة والسلام : بلى يارب ولكن لا غنى بي عن بركتك » (٩) ، ولهذا قال

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٩٩/٢٣) .

(٢) الأندلس : البئر من القمح خاصة .

(٣) أنسجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩١) وأحمد في مسنده (٣١٤/٢) والبيهقي في السنن (١٩٨/١) .

تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا غَيْرَ الْمَبْذُورِ﴾ قال الحسن وقادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم .

وقوله ﷻ: ﴿تَجَنَّبْ يَمَّنْ﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿وَذَكِّرْ لِلْأُولَى﴾ الْآلَتَيْنِ ﴿أَيِ الَّذِي الْعُقُولَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ الْفَرْجَ وَالْخُرْجَ وَالرَّاحَةَ . وقوله جلّت عظمتها: ﴿وَلَقَدْ يَمَنَّا بِكَ يَمَنُوكَ فَأَضْرِبْ يَدَكَ وَكَانَ حَتَمًا﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ماكان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فأضاه الله ﷻ أن يأخذ ضغنا وهو الشمرخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه وخرج من حثته ووفى ببلده ، وهذا من الفرج والخروج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه ، ولهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّا نَبْدُكُمُ سَائِرًا يَمَّ تَلْبِثَ إِلَهُهُ لَأَكْبَبْ﴾ أي رجاء منيب .

﴿وَلَذَكَّرَ عَيْنًا لِإِبْرَاهِيمَ وَاسْمُكَ وَأُزَى الْآيَةِ وَالْأَنْصَرِ﴾ إِنَّا لَنُفَصِّلُنَّ بَيِّنَاتٍ لِّكَ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ ﴿وَلَذَكَّرَ عَيْنًا لِإِبْرَاهِيمَ وَاسْمُكَ وَأُزَى الْآيَةِ وَالْأَنْصَرِ﴾ هَذَا ذِكْرٌ .

يقول تبارك وتعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ﴿وَلَذَكَّرَ عَيْنًا لِإِبْرَاهِيمَ وَاسْمُكَ وَأُزَى الْآيَةِ وَالْأَنْصَرِ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة . قال ابن عباس ؓ: ﴿أُزَى الْآيَةِ﴾ أُولَى الْقُوَّةِ ﴿وَالْأَنْصَرِ﴾ يقول: الفقه في الدين . وقال مجاهد: ﴿أُزَى الْآيَةِ﴾ يعني القوة في طاعة الله تعالى ﴿وَالْأَنْصَرِ﴾ يعني البصر في الحق .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَنُفَصِّلُنَّ بَيِّنَاتٍ لِّكَ الْآيَاتِ﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم هم غيرها . وقال مالك بن دينار: نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها .

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَمَنَّا بِكَ يَمَنُوكَ فَأَضْرِبْ يَدَكَ وَكَانَ حَتَمًا﴾ أي لمن المختارين المحبين الأخيار فهم أخيار مختارون . وقوله تعالى: ﴿وَلَذَكَّرَ عَيْنًا لِإِبْرَاهِيمَ وَاسْمُكَ وَأُزَى الْآيَةِ وَالْأَنْصَرِ﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته ههنا .

وقوله ﷻ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر ، قال السدي: يعني القرآن العظيم . ﴿وَلَقَدْ يَمَنَّا بِكَ يَمَنُوكَ فَأَضْرِبْ يَدَكَ وَكَانَ حَتَمًا﴾ جَاءَتْ عَيْنٌ فَتَمَّتْ لَمْ الْإِزْ . مُكَيِّنٌ يَمَّا يَمَنُّونَ يَمَّا يَمَنُّونَ كَفَرٌ ذَكَّرَ وَكَرَبَ . وَبَدَّ قَصِيرٌ أَكْرَبَ أَرَابَ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ يَزُورُ الْحِسَابَ . هَذَا هَذَا لَوْ زُفْنَا مَا لَمْ يَنْ تَقَا .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في النار الآخرة لحسن مأب وهو المرجع والمقلب ، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿جَاءَتْ عَيْنٌ﴾ أي جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب أي إذا جاءوها ففتحت لهم أبوابها ، عن عبد الله بن عمرو ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة قصيرا يقال له: عدن حوله البروج والمروج ، له خمسة آلاف باب عند كل باب ، خمسة آلاف حبرة ، لا يدخله - أو لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل (١) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٧/٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ مَكِّيَّنَ يَمَّا ﴾ قيل : مترعين على سرر تحت الحجال ﴿ يَتَعَنَ فِيهَا يُفَكِّمَهُمْ سَكِينَةً ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا وأحضر كما أرادوا ﴿ وَكَرِبَ ﴾ أي من أي أنواعه شافوا أنهم به الخدام ﴿ وَيَتَنَفَّرُ فِيهِمُ الْكَرِيْبُ ﴾ أي عن غير أزواجهم ، فلا يلتفتن إلى غير بعولهن ﴿ الْكَرْبُ ﴾ أي متساويات في السن والعمر ، هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ﴿ هَذَا مَا تَوَعَّدُنَّ يُبَيِّرُ كَيْسَابَ ﴾ أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدها لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار . ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَرْزَقُنَا مَا لَمْ يَنْفَدِ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ مَا يَنْفَدُ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ .

﴿ هَذَا لِرَبِّكَ الْكَافِرِينَ لَنَرَّ مَنَابٍ ﴾ ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلَّتْهَا قُلُوبُ الْيَهُدِ ﴾ ﴿ هَذَا قَلْبُدْفُوْهُ حَيْبَرٍ وَشَقَّاقِ ﴾ ﴿ وَيَتَأَخَّرُ مِنْ شَكْوَاهِ أَرْوَجٍ ﴾ ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَدِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا يَوْمَ يُهَيَّجُ يَوْمَ يَسْأَلُوا الْعَارَ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرْجَا يَوْمَ يَكْفُرُ لَقَدَّمْتَهُمْ لَنَا يَفْتَنُ الْفِتْرَاءُ ﴾ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَلَيْنَا جِثْمًا فِي الْآثَارِ ﴾ ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا تَرَى بِسَالَا كُنَّا نَدْعُمُ بَيْنَ الْأَشْرَارِ ﴾ ﴿ أَفَقَدْظَهُمْ سِخْرِيًا لَمْ زَلَفَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَرُ ﴾ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَخَبْرٌ غَشَاكُمْ أَهْلُ الْآثَارِ ﴾ .

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء نرى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال ﷻ : ﴿ هَذَا لِرَبِّكَ الْكَافِرِينَ ﴾ ، وهم الخارجون عن طاعة الله ﷻ المخالفون لرسول الله ﷺ ﴿ لَنَرَّ مَنَابٍ ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع . ثم فسره بقوله جل وعلا : ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلَّتْهَا ﴾ أي يدخلونها فضرهم من جميع جوانبهم ﴿ قُلُوبُ الْيَهُدِ ﴾ ﴿ هَذَا قَلْبُدْفُوْهُ حَيْبَرٍ وَشَقَّاقِ ﴾ أما الحميم : فهو الحار الذي قد انتهى حره ، وأما الفساق : فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المولم .

ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَيَتَأَخَّرُ مِنْ شَكْوَاهِ أَرْوَجٍ ﴾ أي وأشياء من هذا القبيل : الشيء وضده يعاقبون بها . عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : « لو أن دولاً من غساق يهرق في الدنيا لأتبن أهل الدنيا »^(١) . وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَأَخَّرُ مِنْ شَكْوَاهِ أَرْوَجٍ ﴾ ألوان من المذاب ، وقال غيره : كالزمهرير والسوم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه .

وقوله ﷻ : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَدِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا يَوْمَ يُهَيَّجُ يَوْمَ يَسْأَلُوا الْعَارَ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا نَحْنُ أَكْثَرُ مُغْتَابًا ﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون . ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخونة من الزبانية : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَدِمٌ ﴾ أي داخل ﴿ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا يَوْمَ يُهَيَّجُ يَوْمَ يَسْأَلُوا الْعَارَ ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم ﴿ قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرْجَا يَوْمَ يَكْفُرُ لَقَدَّمْتَهُمْ لَنَا يَفْتَنُ الْفِتْرَاءُ ﴾ أي فيفسد المنزل والمستقر والمصير ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَلَيْنَا جِثْمًا فِي الْآثَارِ ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ قَالَتْ أَهْرَبُهُمْ لَأُولَئِهِمْ رَبَّنَا عَذَابٌ أَعْوَلُوا فَنَاتَمَّ مَذَلًا يَتَمَقَّ بَيْنَ الْآثَارِ قَالَ يَكْفُرُ يَتَمَقَّ وَلَكِنْ لَّا تَلْمِزُونَ ﴾ أي لكل منكم عذاب بحسبه ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا تَرَى بِسَالَا كُنَّا نَدْعُمُ بَيْنَ الْأَشْرَارِ ﴾ ﴿ أَفَقَدْظَهُمْ سِخْرِيًا لَمْ زَلَفَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَرُ ﴾ . هذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والهرملي في السنن (٢٥٨٤) والللري في الترهيب والترهيب (٤٧٨/٤) .

إخبار عن الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم ، قالوا : مالنا لا نراهم معنا في النار ؟ قال مجاهد : هذا قول أبي جهل يقول : مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً ، وهذا ضرب مثل ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم ، فقالوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ١٥ أَتُخَذَتُهُمْ سَخِرًا ١٦ ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ أَمْ رَأَيْتَ لَهُمْ الْآيَاتِ ١٧ ﴾ يسألون أنفسهم بالحال ، يقولون : أو لعلمهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم ، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَخُبْرٌ عَظِيمٌ ١٨ ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به بامحمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحن لا مرية فيه ولا شك .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَإِنِّي إِذْ أَتَيْتُ رَبِّيَ لَأُخْبِرُهُ ١٩ ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿ رَبُّ الشَّجَرِ وَالْأَنْبِيَاءِ ٢٠ ﴾ قُلْ هُوَ تَبَوَّأَ عِظِيمٌ ٢١ لَقَدْ عَنَّا مَثَرَتُهُ ٢٢ ﴾ أي خبر عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿ لَقَدْ عَنَّا مَثَرَتُهُ ٢٣ ﴾ أي غافلون ، قال مجاهد وشرح القاضي والسدي في قوله ﴿ قُلْ هُوَ تَبَوَّأَ عِظِيمٌ ٢٤ ﴾ يعني القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْآتِ ٢٥ ﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحااجة ربه في تفضيله عليه . فأما الحديث الذي رواه معاذ ؓ قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نراعى قرن الشمس ، فخرج ﷺ فثوب بالصلاة ، فصلى ونجوز في صلاته ، فلما سلم قال ﷺ : « كما أتم » ثم أقبل إلينا فقال : « إني قمت من الليل ففصلت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي ﷻ في أحسن صورة ، فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ، قلت : لا أدري يارب - أعادها ثلاثاً - فأبته وضع كفه بين كفتي حتى وجدت برد أنامله بين صدرتي ، فنبأني لي كل شيء وعرفت فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام في الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الحيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة بقوم تفوتي غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك - وقال رسول الله عليه ﷺ : « إنها حق فادرسوها وتعلموها » (١) فهو حديث النام المشهور ، ومن جعله يظلة فقد غلط .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْأَعْلَى ٢٦ ﴾ لَئِنَّا سَمِعْتُمْ وَقَعَتْ فِيهِ مِنْ دُجَىٰ فَعَرُّوا ثُمَّ سِجْدُوا ٢٧ فَسَجَدَ لِلْكَرْبَةِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٢/٥) والترمذي في السنن (٣٢٣٥) والبرقاني في إرواء الغليل (١٤٨/٣) .

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧١﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ تَبٰئِيْطُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْمَتِكَ اسْتَكْبَرْتَ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٣﴾ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْكَ خَلَقْتَنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٤﴾ قَالَ فَخَرَجْنِيْ مِنْهَا فَإِنِّيْكَ رَجِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيْ اِنْ يُّوْمَ الْكَلْبِ ﴿٧٦﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِيْ اِلَى يَوْمٍ مَّيْيُوْنٍ ﴿٧٧﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ النَّظِيْرِ ﴿٧٨﴾ اِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَيَرْكَبُكَ اَلْفُيُوْتَةُ أَجْمَعِيْنَ ﴿٨٠﴾ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِيْنَ ﴿٨١﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُوْلُ ﴿٨٢﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴿٨٣﴾ .

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة وهي أن الله ﷻ أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له لإكرامنا وإعظاما واحتراما وامثالاً لأمر الله ﷻ فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنسا . كان من الجن فخانته طبعه وجبلته أخرج ماكان إليه فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه ﷻ فيه وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وادم خلق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبغده الله ﷻ وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموماً مدحورا إلى الأرض ، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذي لايعجل على من عساه . فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة ترمد وطنى وقال : ﴿ فَيَرْكَبُكَ اَلْفُيُوْتَةُ أَجْمَعِيْنَ ﴾ ﴿٨٠﴾ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِيْنَ ﴿٨١﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ اِنَّ عِبَادِيْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ وَّكَوْنُكَ يَوْمَكَ رَصِيْدًا ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُوْلُ ﴾ ﴿٨٢﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴿٨٣﴾ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد يرفع الحق الأول وفسره مجاهد بأن معناه : أنا الحق والحق أقول ، وفي رواية عنه : الحق مني وأقول الحق ، وقرأ آخرون بنصبهما ، قال السدي هو قسم أقسم الله به ^(١) (قلت) وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَلٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّيْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ ﴾ .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ وَّآءَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِيْنَ ﴾ ﴿٨٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِيْنَ ﴿٨٥﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَتٰمَ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٦﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصيح أجرا تعطونه من عرض الحياة الدنيا ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِيْنَ ﴾ أي وما أريد على ما أرسلي الله تعالى به ولا أتبعي زيادة عليه ؛ بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أتبعي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة ، قال مسروق : أتينا عبد الله بن مسعود ﷺ فقال : يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لا ما لا يعلم : الله أعلم ؟ فإن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ وَّآءَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِيْنَ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِيْنَ ﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين به من الإنس والجن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَتٰمَ ﴾ أي خبره وصدقه ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أي عن قريب ، قال قتادة : بعد لموت ، وقال عكرمة : يعني يوم القيامة ؟ ولا منافاة بين القولين ؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة .

(١) قرأ عاصم وحذرة ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ ﴾ بالضم ﴿ وَالْحَقُّ ﴾ بالنصب وقرأ الباقون بالنصب فيها . انظر حجة القراءات ص ٦١٨ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٩) .

إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه ، ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة ، والمعادنون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى ؛ فقال تبارك وتعالى : ﴿ لَوْ أَنَّهُ أَهْلُ عِلْمٍ لَّسَخَّطْنَا لَكُمُ الْوَيْلَ لَمَّا تَبَيَّنَ مَا يَشْكُرُ ﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ؛ بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه .
وقوله تعالى : ﴿ مَسْكَنَتُهُ هُوَ اللَّهُ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت ، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْمَوتِ بِكَوْنِ الْيَلِ عَلَى الْبَهِرِ وَيَكُونُ الْهَكَرَ عَلَى الْيَلِ وَسَخَّرَ السَّمْنَ وَالْقَسْرَ كُلَّ بِحَرٍ لِجَبْرِ فُسْئُ لَا هُوَ الْفَرِيزُ الْقَدْرُ ٥ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَآتَى لَكُمْ مِنَ الْأَنْفَرِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بَطُونٍ أَسْهَنِيكُمْ خَلْقًا مِنْ بَدِيدِ خَلْقِي فِي طَلَسْتِي تَلْدِي ذَلِكَ اللَّهُ رَحِيمٌ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا صُرُوفَ ٦ .

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء ، وبأنه مالك للملك المتصرف فيه بقلب ليله ونهاره ﴿ يَكُونُ الْيَلِ عَلَى الْبَهِرِ وَيَكُونُ الْهَكَرَ عَلَى الْيَلِ ﴾ أي سخرهما بغيران متعاقبين لا يفتران كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا . وقوله ﴿ وَسَخَّرَ السَّمْنَ وَالْقَسْرَ كُلَّ بِحَرٍ لِجَبْرِ فُسْئُ ﴾ ، أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى ؛ ثم ينقضي يوم القيامة ﴿ لَا هُوَ الْفَرِيزُ الْقَدْرُ ﴾ ، أي مع عرته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه .

وقوله جلّت عظمته ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألستكم والوانكم من نفس واحدة وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حواء عَلَيْهِ السَّلَام ، كقوله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَيْنَهُمَا رَحْمَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ ذُو الْعَرْشِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَآتَى لَكُمْ مِنَ الْأَنْفَرِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أي خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام ، ثمانية أزواج : من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين . وقوله ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بَطُونٍ أَسْهَنِيكُمْ ﴾ أي قدركم في بطون أمهاتكم ﴿ خَلْقًا مِنْ بَدِيدِ خَلْقِي ﴾ ، يكون أحدكم أولا نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروفا وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر ﴿ فَتَنَّاكُمُ اللَّهُ فِتْنَةً لِكُلِّ قَبِيلَةٍ ٦ .

وقوله جل وعلا : ﴿ فِي طَلَسْتِي تَلْدِي ﴾ يعني في ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن . وقوله ﴿ ذَلِكَ اللَّهُ رَحِيمٌ ﴾ أي هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم ، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿ فَاتَّقُوا صُرُوفَ ﴾ أي فكيف تعبدون معه غيره ؟ وأين يلذهب بقولكم ؟ .

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَلَيْسَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مِمَّنْ مَرَّكُمْ فَبَيَّنْتُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٧ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ مَنْ دَنَا بِهِ رَبُّهُ

مُنِيْبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ مُتِمِّةً بَيْنَهُ يَوْمَ مَا كَانَ يَدْعُوْنَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَتَدَاكَ لِيُخْلِفَ عَنْ سَيِّدِيْلَهُ قُلْ تَتَمَتَّ بِكَفَرِكُمْ قَلِيْلًا إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ أَهْلِ النَّارِ ۝

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه : أنه الغني عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِن تَحْكُمُوا أَنْتُمْ وَبَيْنَ فِي الْأَرْضِ جِيْمًا لِّكَ اللَّهُ لَنُفِيْ حِيْمًا ۝ وفي صحيح مسلم : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزِنُ لِيَبَادُو الْكَفَرُ ۝ أَي لَا يَجْه ولا يَأْمُر به ﴾ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْزُقْكُمْ ۝ أَي يَجْه لكم ويزدكم من فضله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۝ أَي لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا بَلْ كُلٌّ مُطَالِبٌ بِأَمْرِ نَفْسِهِ ۝ ثُمَّ إِنَّ زَكْرًا مَّرِيضًا كُنْتُمْ يَتَّبِعُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّكُمْ عَلَيْكُمْ لَشِدَا الْقُصْدِ ۝ أَي فلا تخفى عليه خافية .

وقوله ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّ الْإِنْسَانُ شُرَّ مَا رَزَقَهُ مُنِيْبًا إِلَيْهِ ۝ أَي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ مُتِمِّةً بَيْنَهُ يَوْمَ مَا كَانَ يَدْعُوْنَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ۝ أَي في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع كما قال ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّ الْإِنْسَانُ الْغُرَّ ذَكَرًا لِيُجِيبَهُ أَوْ قَائِمًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُشْرَهُ مَرَّ كَاَنَّهُ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى شُرِّ مَا كُنْتُمْ ۝

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَتَدَاكَ لِيُخْلِفَ عَنْ سَيِّدِيْلَهُ ۝ أَي في حال العافية يشرك بالله ويجعل له أنداداً ﴾ قُلْ تَتَمَتَّ بِكَفَرِكُمْ قَلِيْلًا إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ أَهْلِ النَّارِ ۝ أَي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه تتمتع بكفرك قليلاً وهو تهديد شديد ووعد أكيد كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَتَمَتَّ فَإِنَّ مَصِيْرَكُمْ إِلَى الْكَافِرِ ۝

﴿ أَتَنْ هُوَ قَتِيْتُ عَالَمَةَ الْبَلِّ سَلِيْدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَتَّقُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ يَكْفُرُ أَوَّلًا الْأَكْثَرُ ۝

يقول ﷻ : أئمن هذه صفة كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ، لا يستون عند الله كما قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عَالَمَةَ الْبَلِّ وَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وقال تبارك وتعالى ههنا ﴿ أَتَنْ هُوَ قَتِيْتُ عَالَمَةَ الْبَلِّ سَلِيْدًا وَقَائِمًا ۝ أَي في حال سجوده وفي حال قيامه ولهذا استدلل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة ، ليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون . وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال : القنات المطيع لله ﷻ ولرسوله ﷺ . وقال ابن عباس ﷺ والحسن والسدي : ﴿ آتَاءَ اللَّيْلِ ۝ جوف الليل . وقوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ ۝ أَي في حال عبادته خائف راج ، ولا بد في العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ ۝ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . وعن أنس ﷺ قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له : « كيف تجملك ؟ » فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموضع إلا أعطاه الله ﷻ الذي يرجو وأمنه الذي يخافه » (٢) . وشمع ابن

(١) أخرجه مسلم في البر والعبادة (٥٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٩٨٢) وابن ماجه في السنن (٤٦٦١) .

عمر عليه السلام يقرأ ﴿ أَمِنْ هُوَ قَدِيتْ عَائِلَةً أَلَيْلَ سَلِيمًا وَقَابَمَا يَحْدُرُ الْآخِرَةَ وَرَبُّهُمَا رَحْمَةٌ رَؤُوفٌ ﴾ قال ابن عمر : ذلك عثمان بن عفان عليه السلام وإنما قال ابن عمر عليه السلام ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان عليه السلام بالليل وقراءته حتى أنه ربما قرأ القرآن في ركعة ، وعن تميم الداري عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بمائة آية في ليلة ؛ كتب له قنوت ليلة ^(١) » . قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ لَا يَتْلُونَهُ ﴾ أي هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل أندادًا لفضل عن سبيله ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل ، والله أعلم .

﴿ قُلْ يَتَجَبَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا آمَنُوا رَبُّكُمْ إِلَيْنِ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضَى اللَّهُ وَبِعْدَةً إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قُلْ إِلَهِي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ عَظِيمًا لَهُ إِلَهِي ^(١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَتَجَبَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا آمَنُوا رَبُّكُمْ إِلَيْنِ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي من أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياههم وأخراهم ، وقوله ﴿ وَأَرْضَى اللَّهُ وَبِعْدَةً ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان ، وقال عطاء في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَرْضَى اللَّهُ وَبِعْدَةً ﴾ : إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَبِعْدَةً كُتِبَ عَلَيْهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الأوزاعي : ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يعرف لهم غرقًا ، وقال ابن جريج : بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن يزدون على ذلك . وقوله ﴿ قُلْ إِلَهِي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ عَظِيمًا لَهُ إِلَهِي ﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال السدي : يعني من أمته ﷺ .

﴿ قُلْ إِلَهِي لَأَكْفُلُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قُلْ اللَّهُ أَكْبَدُ عَظِيمًا لَمْ يَبْنِ ^(١) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ لِلْكَافِرِينَ فِي خَيْرِيَا أَنْفُسَهُمْ وَأَجْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفِتْنَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكْسِرُونَ ^(٢) لَمْ يَنْ يَنْ يَوْفَهُمْ غُلَّالٌ يَنْ الْفَارِ زُونَ تَحْمِيَهُمْ غُلَّالٌ ذَلِكَ يَحْزَنُ اللَّهُ يَوْمَ يَكْفُرُ يَتَجَبَّأُوا فَأَلْهَمُوا .

يقول تعالى : قل يا محمد وأنت رسول الله ﴿ إِلَهِي لَأَكْفُلُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأخرى ﴿ قُلْ اللَّهُ أَكْبَدُ عَظِيمًا لَمْ يَبْنِ ^(١) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ وهذا أيضًا تهديد وتبرؤ منهم ﴿ قُلْ إِلَهِي لَأَكْفُلُ فِي الْخَسْرَانِ ﴾ الَّذِينَ خَيْرِيَا أَنْفُسَهُمْ وَأَجْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَي تفرقوا فلا التقاء لهم أبدًا وسواء ذهب أهلهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفِتْنَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكْسِرُونَ ﴾ أي هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح ثم وصف حالهم في النار فقال : ﴿ لَمْ يَنْ يَنْ يَوْفَهُمْ غُلَّالٌ يَنْ الْفَارِ زُونَ تَحْمِيَهُمْ غُلَّالٌ ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ لَمْ يَنْ يَنْ جَهَنَّمَ يَهَادُ وَيَنْ يَوْفَهُمْ غُلَّالٌ فَكَيْفَ تَكْفُرُ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ يَحْزَنُ اللَّهُ يَوْمَ يَكْفُرُ يَتَجَبَّأُوا فَأَلْهَمُوا ﴾ أي إنما يقص خير هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمأثم . وقوله تعالى : ﴿ يَتَجَبَّأُوا فَأَلْهَمُوا ﴾ أي اخشوا بأسني وسطرتي وعدائي ونقمتي . ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغْيَاتِ أَنْ يَسْبُطُوها وَلَقَبُوا إِلَى اللَّهِ لَمْ يَكُنْ الْبَشَرُ فَبَيَّرَ عِبَادُ ^(١) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَبْتُغُوا ﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم ، والصحيح أنها شاملة لهم وغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأتأب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشري ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم قال ﷺ : ﴿ يَتَّبِعُ رَبَّكَ ﴾ ① الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿ أي يفهمونه ويعملون بما فيه ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴿ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴾ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿ أي ذور العقول الصحيحة والفطر المستقيمة .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كِتَابُ الْكِتَابِ أَفَافَتْ تَوْبَتُهُ مَنْ فِي النَّارِ ② لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْهُمْ كُفْرًا قَدْ خَرَفُوا قُرْفًا تَبَيَّنَتْ نَجْرُهُ يَنْجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَكْثَرُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ الْبَيْعَ ﴾ .

يقول تعالى : أفمن كذب الله أنه شقي ، أقدر أن تنقذه عما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضل الله فلا هادي له ، ومن يهده فلا مضل له . ثم أخبر ﷺ عن عباده السعداء أن لهم غرقاً في الجنة وهي القصور أي الشاهقة ﴿ يَنْفِرُهَا غُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ ﴾ طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات . عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرقاً يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها » فقال أعرابي : لمن هي يارسلو الله ؟ قال ﷺ : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام » ① .

عن أبي اللدله مولى أم المؤمنين رضي الله عنها أنه سمع أبا هريرة عليه السلام يقول : قلنا : يا رسول الله إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشمنا النساء والأولاد ، قال ﷺ : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذبوا ، لجاء الله ﷻ بقوم يذنبون كي يغفر لهم » قلنا : يارسلو الله حدثنا عن الجنة وما بناؤها ؟ قال ﷺ : « لبنة ذهب ولينة فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السموات ويقول الرب تبارك وتعالى : وعزتي لأنصرك ، ولو بعد حين » ② ﴿ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما يشاءوا وأين أرادوا ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ ﴾ أي هذا الذي ذكرناه وعده الله عباده المؤمنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُفُ الْبَيْعَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا حُمْلًا أَنْزَلْنَاهُ ثُمَّ يُوجِبُ بِهِ حَبًّا مُمْسِكًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حَبْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ③ أَفَمَنْ مَرَّ عَلَى سِدْرٍ لَّهُ شِدَارٌ فَإِنْ تَوَلَّى تَوَلَّى ﴾ بين زَيْدٍ قَوْلَهُ لِلْقَيْسِيَّةِ قُلْتُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي سَبِيلِ مَبْنِيَّةٍ .

يعبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال ﷺ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُهَيَّأً ﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيوناً ما

① أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/١) والترمذي في السنن (٢٥٢٧) والحاكم في المستدرک (٨٠/١) والبيهقي في السنن (٣٠١/٤) .

② أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٢) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) والطيبراني في الكبير (١٣/٤) والكناني في الصحیح (١٩٩) .

ورجاء ومحبة وفهم وعلم . قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا بِحَاجَتِهِمْ أَعْيَنَ مُخْرَجَهُمْ قَدْ كَفَرُوا بِهَا أُولَئِكَ صَاحِبُ السَّعِيرِ ﴾ أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهمذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم .

الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ فتشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله . لم يكونوا يتصارعون ولا يتكلفون بما ليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والحشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك ؛ ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة . قال معمر : تلا فتادة رحمه الله ﴿ تَقْشَرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله ﷻ بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان .

وقال السدي : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي إلى وعد الله ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عَبْدِهِ ﴾ أي هذه صفة من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك فهو من أضله الله ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

﴿ أَفَنَنْتَبِهُ بِسُوءِ مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۖ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ الْغَيْبِيَّ وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۚ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَنَنْتَبِهُ بِسُوءِ مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۖ ﴾ كمن يأتي أمثا يوم القيامة كما قال ﷻ : ﴿ أَفَنَنْتَبِهُ بِسُوءِ مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۖ ﴾ .

وقوله جلت عظمته : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكتهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، وقوله جل وعلا : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ الْغَيْبِيَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب والنعكال وتشفي المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك ، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ والذي أعده الله ﷻ لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۚ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۚ ﴾ ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجْظٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۚ ﴾ ﴿ صَرَّفْنَا اللَّهُ مَثَلًا لِمَثَلٍ فِيهِ شَرَكَاةٌ مُتَشَابِهَةٌ وَبِمَثَلٍ سَلَامًا لِمَثَلٍ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا لِمَثَلٍ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۚ ﴾ ﴿ إِنَّكَ مَعَهُ رَبِّي وَسَيِّدِي فَاتَّقِ اللَّهَ ۚ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى : ﴿ صَرَّفْنَا لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ۚ ﴾ أي تعلمون من أنفسكم ، وقال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَلَمْتُ لِلنَّاسِ الْفِتْنَةَ وَمَا تَقُولُوا إِلَّا تَكْفُورُونَ ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجْظٍ ﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا عوجاج فيه ولا انحراف ولا لباس بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جمعه الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك

﴿لَتَأْتُنَّ بِثَنُونٍ﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد . ثم قال : ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ثَمَلًا فِيهِ ثُلَّةٌ مَّتَّكِبُونَ﴾ أي يتنازعون في ذلك العيد المشترك بينهم ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أي سلمًا ﴿يَرْبُطُ﴾ أي خالصًا لا يملكه أحد غيره ﴿حَلَّ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ؟ أي لا يستوي هذا وهذا . كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له . فأين هذا من هذا ؟ قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وغير واحد : هذه الآية ضربت مثالًا للمشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثل ظاهرًا بينًا جليًا قال : ﴿لَتَحْدُثَنَّ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلهذا يشركون بالله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّكَ يَتَنَبَّؤُنَّ وَإِنَّهُمْ مُنْتَبِئُونَ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق عليه السلام عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته ، ومعنى هذه الآية : أنكم ستقولون من هذه الدار لامحالة ، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتح العليم ، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين . ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين . ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة ؛ فإنها شاملة لكل المتنازعين في الدنيا ؛ فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة .

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّكَ يَتَنَبَّؤُنَّ وَإِنَّهُمْ مُنْتَبِئُونَ﴾ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون . قال الزبير رضي الله عنه : أي رسول الله أكرهر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال ﷺ : « نعم ، ليكرهن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه » قال الزبير رضي الله عنه : والله إن الأمر لشديد ^(١) . وعن عتبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول الخصمين يوم القيامة جاران » ^(٢) وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : رأى رسول الله ﷺ شاتين يتطحان فقال : « أتدري فيهم يتطحان يا أبا ذر ؟ » قلت : لا ، قال ﷺ : « لكن الله يدري وميحكم بينهما » ^(٣) وقال ابن عباس رضي الله عنه : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر ، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال : قلنا : من نخاصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة ، فمن نخاصم ؟ حتى وقعت الفتنة ، فقال ابن عمر رضي الله عنه : هذا الذي وعدنا ربنا ﷻ نخصم فيه .

﴿فَمَنْ ظَلَمَ مِّنْ كَذِبٍ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثَلًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ والآية جَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَصَدَّقَ بِهَا أَوَّلِيكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿فَمَنْ مَّا يَشْكُرُكَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿

يقول ﷻ مخاطبًا للمشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولدًا تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولهذا قال ﷻ : ﴿فَمَنْ ظَلَمَ مِّنْ كَذِبٍ عَلَى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٥) .

اللَّهُ وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِذْ جَاءَهُ ﴿١﴾ أَيُّ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا ؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ طَرَفِي الْبَاطِلِ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ رَسُولَ اللَّهِ ، قَالُوا الْبَاطِلُ وَرَدُّوا الْحَقَّ وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ : ﴿٢﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِكُتُبَيْدٍ ﴿٣﴾ وَهُمْ الْجَاهِدُونَ الْمَكْذِبُونَ . ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿٤﴾ وَلَأَنِّي جَاءَهُ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ بِهِ ﴿٥﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَابْنُ زَيْدٍ : الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿٦﴾ وَصَدَّقَ بِهِ ﴿٧﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : ﴿٨﴾ وَلَأَنِّي جَاءَهُ بِالْحَقِّ مِنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿٩﴾ وَصَدَّقَ بِهِ ﴿١٠﴾ يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . قَالَ مُجَاهِدٌ أَصْحَابُ الْقُرْآنِ الْمُؤْمِنُونَ يَجِئُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ : هَذَا مَا أُعْطِينَا فَعَمَلْنَا فِيهِ بِمَا أُمِرْنَا . وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ مُجَاهِدٍ شَمَلَ كُلَّ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ ، وَالرَّسُولُ ﷺ أَوَّلَى النَّاسِ بِالْخُذُولِ فِي هَذِهِ آيَةِ عَلِيٍّ هَذَا التفسير ؛ فَإِنَّهُ جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ وَأَمَّنَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . ﴿١١﴾ أَوَّلَيْكَ هُمْ أَلْتَفَقُوا ﴿١٢﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : اتَّفَقُوا الشُّرْكَ ﴿١٣﴾ لَمْ تَأْمُرْهُمْ بِإِيمَانٍ بِعَيْنِهِمْ . يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ مَعَهُمَا طُغْلُوبًا وَجِدُوا ﴿١٤﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ يَكْفُرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْمَاءُ أَلَّتِي عَمِلُوا فِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ .

﴿١٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّدُكَ بِالْأَيْدِ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٨﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَظِيمٍ ذِي أَنْفِقٍ ﴿١٩﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِشَيْءٍ هَلْ هُنَّ كَافِفَتُ ضَرِرَّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَلَى مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَلَى مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٢٣﴾ .

يقول تعالى ﴿٢٤﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴿٢٥﴾ وقرأ بعضهم ﴿٢٦﴾ عبادته ﴿٢٧﴾ يعني أنه تعالى يكفي مَنْ عِبْدَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ . وَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « أَفْلَحَ مَنْ هَدَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كِفَافًا وَقَعَّ بِهِ » ﴿٢٨﴾ وَيُخَوِّدُكَ بِالْأَيْدِ مِنْ دُونِهِ ﴿٢٩﴾ يَعْنِي الْمَشْرِكِينَ يَخَوْفُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَيُجْعِلُونَهُ بِأَصْنَامِهِمْ وَالْهَيْمَةَ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ جَهْلًا مِنْهُمْ وَضَلَالًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ : ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَظِيمٍ ذِي أَنْفِقٍ أَيُّ مَنْعِ الْجَنَابِ لَا يُضَامُ مِنْ اسْتِنْدَ إِلَى جَنَابِهِ وَلَجَأَ إِلَى بَابِهِ ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا أَعَزَّ مِنْهُ وَلَا أَشَدَّ انْقِطَاعًا مِنْهُ مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَأَشْرَكَ وَعَانَدَ رَسُولَهُ ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿٣٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٣٣﴾ يَعْنِي الْمَشْرِكِينَ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، وَمَعَ هَذَا يَمُودُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ بِمَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿٣٤﴾ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِشَيْءٍ هَلْ هُنَّ كَافِفَتُ ضَرِرَّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ﴿٣٥﴾ أَيُّ لَاسْتَطَاعَ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظُكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدَهُ تُجَاهَكَ ، تَعَوِّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْزِمَكَ »

(١) قرأ حمزة والكسائي ﴿عباده﴾ بالألف ، وقرأ الباقون ﴿عبده﴾ . (نظر حجة الترايات ٦٢٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٢٢/٤) والطبرانی في الكبير (٣٠٥/١٨) .

في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ماتركه خيرا كثيرا . وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ^(١) ﴿ قَدْ خَسِئَ اللَّهُ ﴾ أي الله كافي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس ؛ فليتوكل على الله تعالى ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس ؛ فليكن بما في يد الله ﷻ أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس ؛ فليقل لله ﷻ » وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ أَتَعْلَمُونَ مَا كَانَتْكُمْ ﴾ أي على طريقتكم وهذا تهديد ووعد ﴿ إِنِّي عَلِيمٌ ﴾ أي على طريقتي ومنهجي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ستعلمون غيب ذلك ووباله ﴿ مَنْ يَلْبِسْ عَدَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَيَجْعَلْ عَلَيْهِ عَذَابَ يُنِيمُ ﴾ أي دائم مستمر لامحيد له عنه وذلك يوم القيامة ، أعاذنا الله منها .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَتَمِنَ الْمُتَّقُونَ ﴾ فَمِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ أَتَعْلَمُونَ مَا كَانَتْكُمْ ﴾ أي فاما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ وَمَنْ سَلَ قَلْبًا يَبْذُلْ عَلَيْهَا ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿ وَمَنْ أَنْتَ عَلَيْهِمْ يَوَكِّلُ ﴾ أي بموكل أن يهتدوا ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ تُنِيرُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ . ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء وأنه يوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام ﴿ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْأَنْفُسَ مِنْ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَتَابَعَتِهَا فَيُمْسِكُ الْآلِي فَتَنَ عَلَيْهَا الْآلَمُوتَ وَيُرِيهِمْ الْأَخْرَجَ إِلَهُ أَجَلُ مُسْتَقَرٍّ ﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملائ الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقبضه بذاخله إزاره ؛ فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقُل : باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » ^(٢) . وقال بعض السلف : تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿ فَيُمْسِكُ الْآلِي فَتَنَ عَلَيْهَا الْآلَمُوتَ ﴾ التي قد ماتت ﴿ وَيُرِيهِمْ الْأَخْرَجَ إِلَهُ أَجَلُ مُسْتَقَرٍّ ﴾ قال السدي : إلى بقية أجلها ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٦) وأحمد في مسنده (٢٩٣/١) والحاكم في المستدرک (٥٤١/٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٧٠/٤) بسنده وابن عدي في الضعفاء (١٨٢/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٤) وأبو داود في السنن (٥٠٥٠) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٢) .

﴿ أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفْعَةً قُلْ أُولَئِكَ سَكَنُوا لَا يَتْلُونَ حَسْبًا وَلَا يَمْلِكُونَ ﴾ ٤٣ قُلْ لِلَّهِ الشُّفْعَةُ جَمِيعًا لَمْ تَكُنْ الشُّفْعَاتِ وَالْأَرْضِينَ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٤٤ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ٤٥ .

يقول تعالى دائماً للمشركين قمي اتخذاهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداثهم على ذلك ، وهي لا تملك شيئاً من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به ؛ بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير ، ثم قال : ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى ، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿ لَمْ تَكُنْ الشُّفْعَاتِ وَالْأَرْضِينَ ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعبده ويجزي كلأ بعمله ، ثم قال تعالى دائماً للمشركين أيضاً ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أي إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ قال مجاهد : اشمأزت : انقبضت ، وقال السدي : نفرت ، وقال قتادة : كفرت واستكبرت ، قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي يفرحون ويسرون .

﴿ قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالْكَافَّةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ٤٦ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ حِجَابًا مِثْلَ لِفَاتِنَا يَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمَ الْيَوْمَ وَيَكُونُ يَوْمَئِذٍ ٤٧ وَيَكُونُ يَوْمَئِذٍ ٤٨ .

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في جهم الشرك ونفرتهم عن التوحيد ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالْكَافَّةِ ﴾ أي ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وفطرها ، أي جعلها على غير مثال سبق ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالْكَافَّةِ ﴾ أي السر والعلاية ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي في دنياهم مستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم . عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة رضي الله عنها : بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » (١) . وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « من قال اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هذه الدنيا أنني أشهد أن لا إله إلا أنت ، وحكك لا شريك لك ، وأن محمداً عبداً ورسولك ، فإنك إن تكلمي إلى نفسي تقرني من الشر وتباعدي من الخير ، وإني لا أتق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً توفي به يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، إلا قال ﷺ للملائكة يوم القيامة : إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة » (٢) .

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٠) والسنائي في السنن (٢١٣/٣) والترمذي في السنن (٣٤٢٠) والحاكم في المستدرک (٦٢٢/٣) وأحمد في المسند (٦١/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/١) والترمذي في السنن (٣٥٢٩) وأبو داود في السنن (٥٠٨٣) .

عن أبي راشد الحبراني قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه فقلت له : حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة فقال : هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ فظفرت فيها ، فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، أن اقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم » ^(١) . وقوله ﷻ : ﴿ وَأَوَّازٌ أَنْ لَّيْلِيكَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَتَّ ﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿ لَأَفْنَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة ، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَبَنَّا لَهُمْ رِيبَ نَارٍ ﴾ أي ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم ﴿ وَبَنَّا لَهُمْ سِنِينَ مَاتَ كَسْبُوا ﴾ أي وظهر لهم النكال بهم ما لم يكن في الدار الدنيا من الحارم والمأثم ﴿ وَسَاقَ بِهِمْ تَابُؤُهُمْ ﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهترون به في الدار الدنيا .

﴿ فَإِذَا سَسَّ الْإِنْسَانُ شَرًّا دَعَا نَحْمًا إِذَا حَزَلْتَهُ يَتَمَتَّ مَتًا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ مِنْ فَتْنَةٍ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ نَحْمًا أَفَقَرَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ^(٣) فَأَسَابَتْهُمْ سِنِينَ مَاتَ كَسْبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُجِيبُهُمْ سِنِينَ مَاتَ كَسْبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ^(٤) أَوَلَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ بِسُوطِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَتَنَاءَمُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ .

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله ﷻ وينيب إليه ويدعوه ، وإذا خوله نعمة منه بنى وطني وقال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقه له ، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني هذا ، ﴿ بَلْ مِنْ فَتْنَةٍ ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أطيع أم يعصي مع علمنا المتقدم بذلك ، فهي فتنة أي اختبار ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ﴿ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير من سلف من الأمم ﴿ فَأَسَابَتْهُمْ سِنِينَ مَاتَ كَسْبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ أي من المخاطبين ﴿ سَيُجِيبُهُمْ سِنِينَ مَاتَ كَسْبُوا ﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَكَانُوا هُمْ أَكْثَرُ أَهْلًا وَأَوْلَكَا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ بِسُوطِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَتَنَاءَمُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ أي ليعبروا وحججاً .

﴿ قُلْ يَبَيِّنَاتٍ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٥) وَيَذَرُوا إِلَى يَوْمِكُمْ وَاسْتَلِمُوا إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ^(٦) وَالْجَمْعُ أَهْشَنُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رِيبِكُمْ يَنْ قَبْلِي أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَكَاثُ بَشَرَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ^(٧) أَنْ تَقُولَ نَحْنُ بِمَحْسَرَةٍ عَلَى مَا

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٢٩) وأحمد في مسنده (١٩٦/٢) .

قَرَأْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ التَّائِبِينَ ﴿٥٣﴾ أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٤﴾ أَوْ تَقُولُ
يَعْنِي تَرَى الْمَلَائِكَةَ لَوْ أَنَّكَ فِي كَعْبَةٍ فَلَا تُكُونُ مِنَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٥﴾ بَلَى قَدْ جَاءَكَ نَصَرَةٌ مِنَّا وَكُنْتُ بِهَا رَسُولًا مُبِينًا
وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِينَ ﴿٥٦﴾ .

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة ؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه . عن ابن عباس رضي الله عنه أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ ونزل ﴿قُلْ يَكَيْفَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ ^(١) وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يدعم على عصاه له فقال : يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات ، فهل يغفر لي ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «أأنت تشهد أن لا إله إلا الله» قال : بلى ، وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : «قد غفر لك كذراتك وفجراتك» ^(٢) .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم ندم وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل هل له من توبة ، فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة ، ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة ، فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها ، فقصدها فأثاء الموت في أثناء الطريق فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأمر الله تعالى أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير ، فقبضته ملائكة الرحمة ، وذكر أنه نأى بصدده عند الموت ، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الحيرة أن تقرب وأمر تلك البلدة أن تتباعد ^(٣) ، وعن سنيذ بن شكيل أنه قال : سمعت ابن مسعود يقول أن أعظم آية في كتاب الله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وإن أكثر آية في القرآن فرحاً في سورة الزمر ﴿قُلْ يَكَيْفَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وأن أشد آية في كتاب الله تفويضاً ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَنُفِقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فقال له مسروق : صدقت .

[ذكر أحاديث فيها نفي القنوط]

عن حسن السدوسي قال : دخلت على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم ، والذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده لو لم تخطئوا ؛ جاء الله تعالى بكم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم» ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/٤) وقد ورد في هذا المعنى الكثير من الآيات التي تؤدي إلى نفس المعنى .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٦/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٣) وذكره الألباني في الصحيحة (١٩٥١) .

عصارة أهل النار ومن طينة الخيال^(١) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَنَحْنُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّفَقُوا بِمَقَالَتِهِمْ ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لَا يَسْتَهُمُ الشُّعْرَةَ ﴾ ، أي يوم القيامة ﴿ وَلَا هُمْ يَمْرُؤُونَ ﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فرع مزحجون عن كل شر نائلون كل خير .
﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ﴿ لَّهُ مَقَالِدُ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّيْلِ كَقُرْوَائِهِمَا يَتَكَبَّرُ اللَّهُ أَوْلَيْكَ هُمُ الْخَشِيرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أَفَتَعْبِرُونَ اللَّهَ تَأْمُرُونَهُ أَفْعَدَ إِلَيْنَا لِمُجْهَلُونَ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَالَّذِينَ يَنْبَغِيكَ لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَسْبِغَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿ بَلِ اللَّهُ قَاتِلُهُمْ وَكَانَ يَتَرَكُ الشُّكَّيْنَةَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمصرف فيها ، وكل تحت تديره وقهره وكلاسته ، وقوله ﴿ لَّهُ مَقَالِدُ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : المقاليد هي المفاتيح بالفارسية ، وقال السدي : ﴿ لَّهُ مَقَالِدُ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خزائن السموات والأرض ، والمعنى على كلا القولين أن أزمنة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَكَبَّرُونَ ﴾ أي حججه وبراهينه ﴿ أَوْلَيْكَ هُمُ الْخَشِيرُونَ ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَفَتَعْبِرُونَ اللَّهَ تَأْمُرُونَهُ أَفْعَدَ إِلَيْنَا لِمُجْهَلُونَ ﴾ ذكروا في سبب نزولها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت ﴿ قُلْ أَفَتَعْبِرُونَ اللَّهَ تَأْمُرُونَهُ أَفْعَدَ إِلَيْنَا لِمُجْهَلُونَ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَالَّذِينَ يَنْبَغِيكَ لَيْسَ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَكَوْنُوا أَعْيُنَ عَمَلِهِمْ نَارًا كَانُوا يَمْسَلُونَ ﴾ .
﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَبِينُ بَيْنَهُمْ شَجُنُهُنَّ وَتَسْتَكِلْنَ عَنَّا يَأْتِرُكُون ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته ، قال مجاهد : نزلت في قريش ، وقال السدي : ما عظموه حق تعظيمه ، وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوا ، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرته الله عليهم . فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك ، فلم يقدر الله حق قدره وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تحريف . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله ﻻ يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصدقاً لقول الخبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ عنه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ الآية^(٢) وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٩٥/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٤) وسلم في المواقين (١٩) والترمذي في السنن (٣٢٣٨) وأحمد في مسنده (٤٢٩/١) .

« يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء يمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ » ^(١) .
 ﴿ وَيُنْفِخُ فِي الْسُّورِ فَصَوِقَ مَنْ فِي السَّمَكِوتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي سَاءٍ يَنْظُرُونَ ٥ وَأَمَرَتِ الْأَرْضُ بُيُوتَ رِبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَبَلَغَ الْإِنشِقَاقُ وَالشَّجَرُ لَا يَقْنَطُ أَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ وَالْأَشْيَاقُ لَا يُغْنَوْنَ عَنْهُمْ وَلَا يُغْنَوْنَ عَنْهُمْ ٦ وَأُوتِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَتْلُونَ ٧ ۝ » .

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقله تعالى : ﴿ وَيُنْفِخُ فِي الْسُّورِ فَصَوِقَ مَنْ فِي السَّمَكِوتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفخ الحى القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ويقول : ﴿ لَيْنَ الْكَلَامِ الْيَوْمَ ۝ ﴾ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ وَهُوَ الرَّبُّ الْقَهَّارُ ﴾ أنا الذي كنت وحدي ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحيي أول من يحيي إسرائيل ويأمره أن ينفخ في الصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث ، قال الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي سَاءٍ يَنْظُرُونَ ٥ ﴾ أي أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أموال يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ كَفَّارًا هِيَ بُعِثَ فِيهَا ٥ فَإِذَا هُمْ وَالْآخِرَةُ ۝ ﴾ . ورد أن رجلاً قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه : إنك تقول : الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، قال : لقد هممت أن لا أحدثكم شيئاً ، إنما قلت : سترون بعد قليل أمراً عظيماً ، ثم قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمي فيمكث فيهم أربعين لا أدري أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً ، أو أربعين ليلة ؛ فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بين مسعود الثقفي ، فيظهر فيه لك الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعمائة ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى أن لو كان أحدهم كان في كبد جبل لدخلت فيه » قال : سمعتها من رسول الله ﷺ : « ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكراً ، قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستحيون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدها ؛ وهم في ذلك ذائرة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليثاً ، ورفع ليثاً ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صُبح ، ثم يرسل الله تعالى أو ينزل الله ﷻ مطراً كأنه الطل - أو الظل شك نعمان - فتبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وَفُتِحَتْ بَابُ يُسُورُونَ ٥ ﴾ قال : ثم يقال : أخرجوا بعث النار قال : فيقال : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فيومئذ تبعث الولدان شبيهاً ، ويومئذ يكشف عن ساق » ^(٢) .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه يحدث عن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون » قالوا : يا

(١) أخرجه مسلم في صفات المؤمنين (٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٢) والدارمي في السنن (٣٢٥/٢) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الفن (١١٦) وأحمد في مسنده (١٦٦/٢) والحاكم في المستدرک (٥٠٠/٤) .

أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال رضي الله تعالى عنه : آيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : آيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : آيت ، وبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه ، فيه يركب الخلق (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سألت جبريل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية ﴿ وَيُنْفِخُ فِي الشُّبُورِ فَاصْبِرْ مَنْ فِي الْأَشْكَاتِ وَيَنْفِخُ فِي الْأَنْفُسِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ من الذين لم يشأ الله تعالى أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء ، يقتلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت تمارها ألين من الحرير ، مد خطاها مد أبصار الرجال يسيرون في الجنة يقولون عند طول النزهة : انطلقوا بنا إلى ربنا لننظر كيف يقضي بين خلقه ، يضحك إليهم الهي ، وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه » (٢) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بَشْرًا زَهْرًا ﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿ وَيُضَيِّعُ الْكِتَابَ ﴾ قال قتادة : كتاب الأعمال ﴿ وَجَاءَتْ بِالْأَنْبِيَاءِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهم : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ﴿ وَالْأَشْكَاتِ ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وَفُتِحَ بَيْنَهُمُ الْبَقَى ﴾ أي بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَفُتِحَ الْبُيُوتُ لِقَائِهِمْ أَلَيْسَ فَاةً لَكُمْ فُلْطَمَ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَهُ كَذَاتٍ يَنْفَكُالْ حَسْبُو مِنْ حَرَدٍ لِيَأْتِيَنَا بِهَا وَكَلْنِ بِنَا حَسْبِيَتِ ﴾ ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَفُتِحَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي من خيراو شر ﴿ وَفُتِحَ أَقْلَمٌ يَمَّا يَظُنُّونَ ﴾ .

﴿ وَيُوقِظُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ رُشْدًا حَقًّا إِذَا جَاءَتْهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكُمْ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كُفْرَتُنَا وَلَكُنَّا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝١٣ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كُفَرْتُمْ لَسْتُمْ فِيهَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار وإنما يساقون سوقاً عنيفاً يزرع وتهديد ووعيد وهم عطاش ظماء وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي ، منهم من يمشي على وجهه ﴿ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَذَابٌ رَّيًّا وَهُمْ سَوَّىٰ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ اسْمُتُ أَبْوَابُهَا ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها ففتحت لهم أبوابها سريعا لتعجل لهم العقوبة ، ثم يقول لهم خزناتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ أي من جنسكم تصمكون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ بَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ وَيُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي قد جاعونا وأندرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كُفْرَتُنَا وَلَكُنَّا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي ولكن كذبتهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ؛ بل أطلقه ليدل

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن (١٤١) .

(٢) ذكره الهندي في كثر المال (١١١١١) والطبري في تفسيره (١٤٧٠) .

على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به ؛ ولهذا قال جل وعلا : ﴿ قِيلَ ادْعُوا آلِيَكُمْ فَمَنْ يَزِيدْكُمْ مِنْهُمْ فَأُولَئِكَ يَبِغُونَكُمْ بِلَا حِسَابٍ وَمَنْ يَنْقُصْكُمْ مِنْهُمْ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَقِيلُ ﴾ أي ما كُتِبَ فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها ﴿ فَمَنْ يَنْقُصْكُمْ مِنْهُمْ فَاصْبِرْ ﴾ أي فليس المصير وبس القيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا ولإيائكم عن اتباع الحق ؛ فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه ، فليس الحال وبس المال .

﴿ وَيَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا فِي الْجَنَّةِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَمُّ بِحَمْدِ الْعَلِيِّينَ .

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة زمرًا ، أي جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضًا ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حسوساً على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقصص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هدبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ولا يتفلون ، ولا يتخطون ، أمشاطهم الذهب ، وورشهم المنك ، ومجارهم الآلوة ، وأزواجهم الخمر العن ، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء » ^(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « ويدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً قضى وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال ﷺ : اللهم اجعله منهم . ثم قام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم . فقال ﷺ : « سبقك بها عكاشة » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا فِي الْجَنَّةِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره : حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً وتلقفهم الملائكة الخزنة بالبخارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالشراب والتأنيب ، فقدريه : إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب ذهن كل مذهب في الرجاء والأمل ، ومن زعم أن الراوي في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وأو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزاع ، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة ، وللجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٢٢٤٦) ومسلم في الجنة وصفتها (١٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٢) وأحمد في مسنده (٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨١١) ومسلم في الإيمان (٣٦٧) . (٢٠٤٢) .

من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان » فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ما على أحد من ضرورة دعي من أيها دعي ، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » ^(١) عن سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون » ^(٢) عن عمر بن الخطاب ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ، أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » ^(٣) .

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها

عن أبي هريرة ؓ في حديث الشفاعة الطويل : « ... فيقول الله تعالى : يا محمد أدخل من أحساب عليه من أمتك من الباب الأيمن وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر ، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصرعين من مصارع الجنة ما بين عضادتي الباب لكما من مكة ومهجر - أو مهجر ومكة - وفي رواية - مكة وبصرى ^(٤) عن أبي سعيد ؓ عن رسول الله ﷺ قال : « إن ما بين مصرعين في الجنة مسيرة أربعين سنة » ^(٥) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُ خِزْنَتُهَا سَكُنْ عَلَيْهِمْ يَبْنَؤُا ﴾ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم ، وقوله : ﴿ فَأَدْخَلْنَاهَا خَلَائِفِينَ ﴾ أي ماكنين فيها أبداً لا يغفون عنها حولا ﴿ وَقَالُوا الْحَسْبُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَنَعَدُكُمْ ﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والمطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك : ﴿ الْحَسْبُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَنَعَدُكُمْ ﴾ أي الذي كان وعدنا على أسنة رسله الكرام ﴿ وَقَالُوا الْحَسْبُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا يَتَّبِعُونَ إِلَّا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جِئْتُمْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ ﴾ وقولهم : ﴿ وَوَدَّعْنَا الْأَرْضَ نَذْرًا مِنْهُ الْجَنَّةُ حَيْثُ نَشَاءُ فَيَمُوتُ كَيْفَ الْمَكِيلِينَ ﴾ قال أبو العالية وأبو صالح قتادة والسدي وابن زيد : أي أرض الجنة ، و ﴿ نَذْرًا مِنْهُ الْجَنَّةُ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرتنا على عملنا .

عن أبي سعيد ؓ قال : إن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة فقال : در مكة يبضاء مسك خالص ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق » ^(٦) .

﴿ وَرَى الْمَلَكَةُ حَالِكَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤَيِّنُ بَيْنَهُمْ وَالْمَلَكُ وَقِيلَ الْحَسْبُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له ، وهو العادل في ذلك الذي لا يجوز ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش الجليل يسبحون

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) والترمذي في السنن (٣٦٧٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٦) ومسلم في الصوم (١٦٦) والبيهقي في السنن (٣٠٥/٤) جميعهم بحمد .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٧) وأحمد في مسنده (١٥٢/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٢) ومسلم في الإيمان (٢٢٧) وأحمد في مسنده (٤٣٦/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٥) . (٦) أخرجه مسلم في الفتن (٩٣) .

يحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدمونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضي الأمر ، وحكم بالعدل ولهذا ، قال ﷻ : ﴿ وَخِيعَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الخلائق ﴿ بِالْبَاقِي ﴾ . ثم قال : ﴿ وَقِيلَ لَتَسُدُّ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي نطق الكون أجمعه ، ناطقه وبهيمة لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل ، بل أطلقه ؛ فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

سورة غافر

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه آل حم دياج القرآن . وقال ابن عباس رضي الله عنه : إن لكل شيء لبابا ، وللباب القرآن آل حم أو قال : الخواميم . وقال مسعر بن كدام : كان يقال لبين العرائس ، وروي أن رجلا رأى أبا الدرداء رضي الله عنه بيني مسجدًا فقال له : ما هذا ؟ فقال : أبنيه من أجل آل حم ، وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء رضي الله عنه هو للمسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق ، وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ماوضع له ، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات « إن يثيب الليلة فقولوا : حم ، لا ينصرون - وفي رواية - لا تنصرون » ^(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن ، عصم ذلك اليوم من كل سوء » ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقُرْآنِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا وقد قيل إن ﴿ حَمْدٌ ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ وأنشدوا في ذلك بيتا :

يذكرني حم والرمح شاجر فهلا تلا حم قبل التقدّم ^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنباه ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه . وقوله ﷻ ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه ويخضع لديه . وقوله جل وعلا : ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أي لمن تمرد وطفى وآثر الحياة الدنيا وعنا عن أوامر الله تعالى وبغى . وقوله تعالى ﴿ ذِي الْقُرْآنِ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنه : يعني السنعة والغنى ، وقال يزيد بن الأصم : ذي الطول يعني الخير الكثير . وقال عكرمة : ﴿ ذِي الْقُرْآنِ ﴾ ذي المن . وقال قتادة : ذي النعم والفواضل ، والمعنى أنه المتفضل على عباده المخطول عليهم بما هم فيه من المن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها . وقوله جلّت عظمته : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿ إِلَهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي المراجع والمائب فيجازي كل عامل بعمله .

عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقدته عمر فقال : ما فعل فلان ابن فلان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين نتابع في هذا الشراب . قال فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب : من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٥٩٧) والترمذي في سننه (١٦٨٢) وأحمد في مسنده (٦٥/٤) .

(٢) ذكره النووي في الأذكار (١٠٢) .

(٣) البهت للشرح بن أولى العيسى وهو من شواهد أبي عبيد في مجاز القرآن (١٩٣/٢) وشواهد الكشف ص : ٢٦١ .

إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير . ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخذكُم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه ، فلما بلغ الرجل كتاب عمر عليه السلام جعل يقرؤه ويردده ويقول : ﴿ غَافِرُ الذَّنْبِ وَأَكْبَرُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ، قد حلزني عقوبته وععدني أن يغفر لي . وزاد : فلم يزل يرددُها على نفسه ثم بكى ، ثم نزع فأحسن النزع ، فلما بلغ عمر خبره قال : هكنا فاصنعوا إذا رأيتمُ أخا لكم زل زلة فسدوده ووثقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعرافا للشيطان عليه .

﴿ مَا يَنْدِيلُ فِي يَدَيْكَ اللَّهُ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْزِلُ قَسَبُهُمْ فِي الْيَدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَنْزَابُ مِنْ بَنِيهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوا بِالْبِطْلِ لِيَذْبَحُوا بِهِ لِقَاءَ فَالْعَذَابِ فَكَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ عِقَابُ ۝ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ رَيْبُكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ ﴾ .

يقول تعالى ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي الجاحلون بآيات الله وحججه وبراهينه ﴿ فَلَا يَنْزِلُ قَسَبُهُمْ فِي الْيَدِ ﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهرتها ، ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد عليه السلام في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿ وَالْأَنْزَابُ مِنْ بَنِيهِمْ ﴾ أي من كل أمة ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوا ﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله ﴿ وَجَعَلُوا بِالْبِطْلِ لِيَذْبَحُوا بِهِ لِقَاءَ ﴾ أي محالوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي . عن ابن عباس عليه السلام عن النبي عليه السلام قال : « من أعان باطلاً ليدحض به حقاً ، فقد يربث منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله عليه السلام » ^(١) وقوله جلّت عظمتهم ﴿ فَالْعَذَابُ ﴾ أي أهلكهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿ فَكَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ عِقَابُ ﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم قد كان شديداً موجعاً مؤلماً . قال قتادة كان شديداً والله . وقوله ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ رَيْبُكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى ، لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك ، والله أعلم .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّارَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّعْيَاتِ وَمَنْ فِي السَّعْيَاتِ يَأْخُذْ فَقَدْ رَجَعْتُمْ وَرَأُوكَ هُوَ الْقَوَدُ الْمَطِيطُ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى عن الملائكة المقرّين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة الكرويين بأنهم يسبحون بحمد ربهم أي يقرنون بين التسييح الدال على نفي النقص والتحميد المقتضي للإثبات صفات المدح ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي من أهل الأرض ممن آمنوا بالغيب قبيض الله تعالى ملائكته المقرّين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولما

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٠٠/٤) والطبرانی في الكبير (٢١٦/١١) .

وبالها ممن وقعت منه ﴿وَمَنْ تَتَّبِعَ الْهَوَىَٰ يَزِيدْ لَهُ سُلُوكًا فِي الْغَلَاةِ﴾ أي يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَجَعْتُمْ﴾ أي لطفتم به ونجيتهم من العقوبة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

﴿إِنَّ إِلَٰهَ الْأَوَّلِينَ كَثُرُوا يَتَذَكَّرُ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْعَدِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِنْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ قالوا ربنا أئمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتان فأعترفنا بذنوبنا فهل إلّا خروج بين سبيل ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَٰكِنْ يَشْرِكُ بِهِ أَتُّهَمُ مَا فَلَحَكُمْ إِلَٰهُ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿فَادْعُوا اللَّهَ حَتَّىٰ تَخْلُصُوا لَهُ الْإِيمَانَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يظنون ، وذلك عندما يباشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً ، نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المذنبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة . قال قتادة في قوله تعالى : ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْعَدِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِنْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فزكوه وأبو أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عابوا عذاب الله يوم القيامة . وقوله : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أئمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتان﴾ عن ابن مسعود ؓ : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتْرَابًا فَاصْبِرْ لِمَ يُلَاحِظُكُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وكذا قال ابن عباس والضحاك وقاتدة وأبو مالك وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية . والمقصود من هذا أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ﷻ في عرصات القيامة كما قال ﷻ : ﴿لَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَرِّبِينَ نَاصِبًا لَا يُفَتِّشُونَ عَنْهُمْ رُؤُوسُهُمْ يَدْعُونَ رَبَّنَا أَصْرًا ثَقِيلًا فَانْجَبْنَا عَنْهُمْ كَيْفَ نَسْلُكُ مَا يَمْنَنُ﴾ .

فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعابوها وقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والهلاك سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجابون ، فإذا دخلوا النار وذاقوا مشها وحسبها ومقامها وأغلغلها ؛ كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم وتلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم : ﴿رَبَّنَا أئمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتان﴾ أي قدرتك عظيمة ؛ فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا ثم أئمتنا ثم أحييتنا ، فأنت قادر على ما نشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿فَهَلْ إلّا خُرُوجٌ بَيْنَ سَبِيلٍ﴾ أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون ، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سبحانه لا يقبل الحق ولا تقضيه بل تمجده وتنفيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَٰكِنْ يَشْرِكُ بِهِ أَتُّهَمُ مَا فَلَحَكُمْ إِلَٰهُ الْعَالَمِينَ﴾ أي أنتم هكذا تكونون وإن زددتم إلى الدار الدنيا : ﴿فَلَنُفَكِّمَنَّ لِلَّهِ الْعَالَمِينَ الْكَبِيرِ﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجوز فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، لا إله إلا هو .

وقوله ﷻ : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي يظهر قدرته خلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

يَذَقُّ ۖ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والشمار ماهو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه ورواحه وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿ وَنَا يَنْذَكُرُ ۖ ﴾ أي يعتبر ويفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿ إِلَّا مَنْ يَبْسُ ۖ ﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى : وقوله ﴿ قَادِرُوا اللَّهَ غُلَبِينَ لَهُ الْيَقِينُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكتهم ومذهبهم .

وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » ^(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » ^(٢) .

﴿ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يُنْزِلُ الْفَلَقَ ۝ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرُهُمْ هَٰذَا يَوْمَ هُمْ كَالْفَلَاقِ ۝ لَمْ يَكُنِ الْمَلَأُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَيْدُ الْقَهَّارُ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف ، وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوته حمراء ، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يُنْزِلُ الْفَلَقَ ۝ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرُهُمْ هَٰذَا يَوْمَ هُمْ كَالْفَلَاقِ ۝ لَمْ يَكُنِ الْمَلَأُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَيْدُ الْقَهَّارُ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرُهُمْ هَٰذَا يَوْمَ هُمْ كَالْفَلَاقِ ۝ لَمْ يَكُنِ الْمَلَأُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَيْدُ الْقَهَّارُ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾ أي ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يستترهم ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرُهُمْ هَٰذَا يَوْمَ هُمْ كَالْفَلَاقِ ۝ لَمْ يَكُنِ الْمَلَأُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَيْدُ الْقَهَّارُ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾ أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات ، قال : ويترنل الله ﷻ إلى السماء الدنيا ويقول : ﴿ لَمْ يَكُنِ الْمَلَأُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَيْدُ الْقَهَّارُ ۝ لَمْ يَكُنِ الْمَلَأُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَيْدُ الْقَهَّارُ ۝ ﴾ أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٣٧٣) ومسلم في الحج (١٤٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٤٣٧٩) .

(٣) ذكره الهندي في كبرل المال (١٥/٩٥) والسيوطي في الدر المنثور (٢٩٧/٣) .

عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسبقة واحدة ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ لَا ظُلْمَ أَلَيْسَ ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ^(١) وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي يحاسب الخلاق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة .

﴿ وَأَنْذَرْتُمْ يَوْمَ الْأَرْثِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْمَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيٍّ وَلَا شَيْعٍ يَلْعَابُ ﴾ يتلَمَّ عِلْمَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الشُّدُورُ ^(٢) وَاللَّهُ يَقْنُي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

﴿ يَوْمَ الْأَرْثِ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاعترابها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْمَنَاجِرِ كَظِيمٍ ﴾ أي ساكنين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، وقال ابن جريج : ﴿ كَظِيمٍ ﴾ أي باكين . وقوله ﷻ : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيٍّ وَلَا شَيْعٍ يَلْعَابُ ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . وقوله تعالى : ﴿ يَتْلَمَّ عِلْمَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الشُّدُورُ ﴾ يخبر ﷻ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليها وحقيها ، صغرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ، ويراقبه مراقبة من يعلم أنه يراه ، فإنه ﷻ يعلم العيون الخائنة وإن أهدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ يَتْلَمَّ عِلْمَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الشُّدُورُ ﴾ : هو الرجل يدخل على أهل البيت بينهم وفيهم المرأة الحسنة ، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض . وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . وقال الضحاك : ﴿ عِلْمَةُ الْأَعْيُنِ ﴾ هو الغمز . وقول الرجل : رأيت ولم ير . أو : لم أر وقد رأى . وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِي الشُّدُورُ ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي : ﴿ وَمَا تُخْفِي الشُّدُورُ ﴾ أي من الوسوسة .

وقوله ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ يَقْنُي بِالْحَقِّ ﴾ أي يحكم بالعدل . وقال ابن عباس : قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسبقة السبقة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنه هذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَيُنَازِلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ . وقاله جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ لَا يَخْتَصِمُونَ لَهُ شَيْئاً ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَبْرأُوا فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قَوْلًا وَأَبْدَارًا فِي الْآرْضِ فَاحْذَرُوا اللَّهَ يَذَرُوكُمْ وَإِن كَانُوا لَهُمْ يَنْبَغُ مِنْ اللَّهِ يَنْبَغُ يَذَرُوكُمْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ يَأْتِيهِمْ فَكْفَرُوا

(١) أخرجه مسلم في البر والصلوة (٥٥) وأحمد في المسند (١٦٠/٥) .

فَلَنَعْنَدَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامِ شَيْدٌ أَوْ قَوْىٌ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿ وَكَثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أثروا في الأرض من البنيات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه ، أي مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسولهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ رَاقٍ ﴾ أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق ، ثم ذكر علة أخذهم إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿ فَكَذَّبُوا ﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿ فَلَنَعْنَدَ اللَّهُ ﴾ تعالى أي أهلكنهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها ﴿ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شِيدٌ أَوْ قَوْىٌ ﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد وهو ﴿ شَيْدٌ أَوْ قَوْىٌ ﴾ أي عقابه أليم شديد وجيع ، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝١١ إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَنْعَدَنَ وَمَنْعَدَنَ فَقَالُوا سَدِجْرٌ كَذَّابٌ ۝١٢ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٣ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝١٤ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ .

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات . والدلائل الواضحات . ولهذا قال تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿ إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَنْعَدَنَ ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿ وَمَنْعَدَنَ ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿ وَمَنْعَدَنَ ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿ فَقَالُوا سَدِجْرٌ كَذَّابٌ ﴾ أي كذبه وجعلوه ساحراً مجنوناً موهماً كذاباً في أن الله أرسله ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله ﷻ أرسله إليهم ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون يقتل ذكور بني إسرائيل . أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ؟ وأما الأمر الثاني فللملة الثانية وإهانة هذا الشعب ولكي يتشاعروا بموسى عليه السلام قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي وما مكروهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ وهذا عزم من فرعون - لعنه الله تعالى - على قتل موسى عليه الصلاة والسلام أي قال لقومه : دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أي لا أبالي منه . وهذا في غاية الجحد والتجهم والعناد .

وقوله قبحه الله ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ يعني موسى ، وهذا كما يقال في المثل : صار فرعون مذكراً ؛ يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام . وقرأ الأكثرون (أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد) وقرأ الآخرون (أن يبدل دينكم أو أن

يظهر في الأرض الفساد) وقرأ بعضهم (يظهر في الأرض الفساد) بالضم ^(١) وقال موسى إني عدت يدي ورجلي بين كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ قال موسى عليه السلام : استجرت بالله وعدت به من شره وشر أمثاله ؛ ولهذا قال : ﴿ إني عدت يدي ورجلي ﴾ أيها المخاطبون ﴿ بَيْنَ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي عن الحق مجرماً ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندراً بك في نحورهم » ^(٢) .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وإن يك كذباً فعليه كذبهم وإن يك صديقاً فيصحبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ^(٣) يقول لكم تلك اليوم ظهري في الأرض فمن يصرفنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيلاً أرشاداً .

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ويقال : إنه الذي نجى مع موسى عليه الصلاة والسلام . واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً ؛ لأن فرعون انفعَلَ لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأرسل أن يعاجل بالعقوبة ؛ لأنه منهم . وعن ابن عباس عليه السلام : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون . والذي قال : ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ أي كتم ما يشره به يكذبهم وإن يك صديقاً فيصحبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ^(٣) يقول لكم تلك اليوم ظهري في الأرض فمن يصرفنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيلاً أرشاداً .

كلمة عدل عند سلطان جائر ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ . وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص عليه السلام : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر عليه السلام فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٤) وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول : ربي الله وقد أقام لكم البرهان علي صدق ما جاءكم به من الحق . ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَلَيْتَهُ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام الحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ؛ فإن يك كاذباً فإن الله عز وجل سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقاً وقد آتيتموه يصيبكم بعض الذي يعدكم ؛ فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً ؛ فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومته

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٤/٤) والطبراني في الصغير (٨٤/٩) .

(٢) قرأ عاصم وحيدة والكسائي ﴿ لَوْ أَنَّ يَهْدُونَكَ إِلَى مَاءٍ حَلَالٍ فَغَلَغْ ﴾ وقرأ الباقون ﴿ وَأَنْ يَهْدِيَكَ إِلَى مَاءٍ حَلَالٍ فَغَلَغْ ﴾ . وقرأ اللخمي وأبو عمر وحفص ﴿ يَهْدُونَكَ إِلَى مَاءٍ حَلَالٍ فَغَلَغْ ﴾ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٥) .

يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله ﷻ عن موسى ﷻ أنه طلب من فرعون وقومه المواعدة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ تَنَبَّأْتَهُمْ بِكُلِّ مَوْعِدٍ فَجَعَلُوا فِرْعَوْنَ وَكِبْرَهُمْ رَسُولَ كَرِيمٍ ۝١٠ أَنْ أَتَاكَ إِكْبَادُ اللَّهِ إِيَّاكَ لَکَرُّ رُسُلٍ ۝١١ ﴾ وَأَنْ لَا تَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ يَغْيِرُ سُلْطَانِي ثَمِينٍ ۝١٢ فَإِنِّي حَدَّثْتُ بِرَبِّي زَيْدًا أَنْ يَقُولُونَ ۝١٣ بَلْ لَمْ يَكُنْ لِي قَاعِدٌ ۝١٤ وَهَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لفرعش أن يتركوه يدعوه إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسه بسوء ، وبصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذنيه ، قال الله ﷻ : ﴿ عُلِّمَ لَكَ أَسْمَاءُ عَلَى لِسَانٍ إِلَّا الْكُفْرَ فِي الْفِرْقَةِ ۝١٥ أَيُّ أَنْ لَا تُوْذَنِي فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ ، فَلَا تُؤْذُونِي وَتَتْرَكُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ . وَعَلَى هَذَا وَقَعَتِ الْهَدَنَةُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَكَانَ فَتْحًا مَبِينًا . وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِئٌ كَذَّابٌ ۝١٦ ﴾ أَيُّ لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ كَاذِبًا كَمَا تَزْعُمُونَ لَكَانَ أَمْرُهُ بَيِّنًا يَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ فَكَانَتْ تَكُونُ فِي غَايَةِ الْاِخْتِلَافِ وَالْاضْطِرَابِ ، وَهَذَا نَرَى أَمْرَهُ سَدِيدًا وَمُهْجَةً مُسْتَقِيمًا ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْكَذَّابِينَ لَمَا هَدَاهُ اللَّهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا تَرُونَ مِنْ انْتِظَامِ أَمْرِهِ وَفَعْلِهِ ؟ ثُمَّ قَالَ لِلْمُؤْمِنِ مُحَلِّمًا قَوْمَهُ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَنْهُمْ وَحُلُولِ نِقْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ : ﴿ يَقْوِي لَكُمْ الْمُلْكَ الْآلِيَمَ ظَهْرِيَّ فِي الْأَرْضِ ۝١٧ ﴾ أَيُّ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْمُلْكِ وَالظُّهُورِ فِي الْأَرْضِ بِالْكَلِمَةِ الْنَافِذَةِ وَالْجَاهِ الْعَرِضِ فَرَاغُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَصَدِيقِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللَّهِ إِنْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَهُ ﴿ فَمَنْ يَضْرِبْكَ بِرَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَهُ ۝١٨ ﴾ أَيُّ لَا تَغْنِي عَنْكُمْ هَذِهِ الْجُنُودُ وَهَذِهِ الْعَسَاكِرُ وَلَا تَرُدُّ عَنَّا شَيْئًا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنَا بِسُوءٍ ، قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ رَادًّا عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْبَارِ الرَّاشِدُ الَّذِي كَانَ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ۝١٩ ﴾ أَيُّ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي وَقَدْ كَذَبَ فِرْعَوْنُ فَإِنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ صِدْقُ مُوسَى ﷻ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ، فَقَوْلُهُ ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ۝٢٠ ﴾ كَذِبٌ فِيهِ وَافْتِرَاءٌ وَخَانَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ وَرِعِيَّتُهُ فَغَشَّاهُمْ وَمَا نَصَحَهُمْ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّجْسِ ۝٢١ ﴾ أَيُّ وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرُّشْدِ ، وَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ قَدْ أَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوهُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَشْرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٢٢ ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ « مَا مِنْ إِمَامٍ يَمُوتُ يَوْمَ مَيُوتُ وَهُوَ غَاشٍ لِرِعِيَّتِهِ ، إِلَّا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدَ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ » (١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِتَقْوَى اللَّهِ إِيَّاكَ لَتَكُنَّ عَلَيْنَا يَوْمَ الْحَرْبِ ۝٢٣ ﴾ يَتْلُو تَابِ قَوْمِهِ نُوْجَ وَقَالُوا وَمُوسَى وَالَّذِينَ مِنْ بَنِيهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّهِمْ فَلَمَّا لَبَّيْكَ ۝٢٤ وَيَقُولُونَ إِيَّاكَ لَتَكُنَّ عَلَيْنَا يَوْمَ الْحَرْبِ ۝٢٥ يَوْمَ تَوَلَّيْنَا مَثَرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ حَاسِبٍ وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٢٦ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْيَاقِينِ فَكَذَّبْتُمْ فَهَذَا يَكُونُ ۝٢٧ وَإِذَا هَلَكُ الْقَوْمُ أَنْ يَبْسُطَ اللَّهُ مِنْ بَدْوِهِمْ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِئٌ مُرْتَابٍ ۝٢٨ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي ذِمَّتِ اللَّهِ ذِمَّتَ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَذِبًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَلْبِغُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ جَبَّارٍ ۝٢٩ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ يَقْوِي لَكُمْ الْمُلْكَ الْآلِيَمَ ظَهْرِيَّ فِي الْأَرْضِ ۝١٧ ﴾ أَيُّ الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُلَ اللَّهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ كَيْفَ حَلَّ بِهِمْ بَأْسُ اللَّهِ وَمَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادًّا وَلَا

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٥١) ومسلم في الإيمان (٢٢٧) .

يقول المؤمن لقومه ممن ترمد وطني وأثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم : ﴿ يَنْفَرُوا أَنْفُسُهُمْ أَنْفُسُهُمْ سَبِيلَ الرَّسَادِ ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله : ﴿ وَمَا أَهْبَيْتُكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّسَادِ ﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد أثروها على الأخرى وصدّتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ يَكْفُرُ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتْنٌ ﴾ أي قليلة زائلة فانية عن قريب تنهب وتضمحل ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ خَيْرٌ كُلِّ الْخَيْرِ ﴾ أي الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظمن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ولهذا قال جلّت عظمتها : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا يَنْفَرًا ﴾ أي واحدة مثلها ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَقَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرَدُّونَ فِيهَا فَيَكْتُمُ جَنَابٌ ﴾ أي لا يقدر بجزء بل يشبه الله تلك ثوابا كثيرا لا انتقضاء له ولا نفاذ .

﴿ وَيَنْفَرُوا مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ وَيَنْفَرُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ تنفرون إلى كفر بالله وأثرك به ما ليس في به . علم وأنما تدعوهم إلى التمييز الفكري لا جرة أنما تدعون إلى ليس لكم دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأنما مردنا إلى الله وأنت الشرفين هم أصحبت النار ﴿ سَتَلَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَلْفُ أَمْشَرَتْ إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْغُيُوبِ ﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُهُمْ وَكَفَّ بِالْآخِرَةِ سَوَاءُ الْمَكْرِ ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ عَذَابًا وَعَذَابًا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

يقول لهم المؤمن : ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿ وَيَنْفَرُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ تنفرون إلى كفر بالله وأثرك به ما ليس في به . علم أي على جهل بلا دليل ﴿ وَأَنَّمَا تَدْعُوهُمْ إِلَى التَّمْيِيزِ الْفَكْرِي ﴾ أي هو في عزه وكبريائه يفرّ ذنب من تاب إليه ﴿ لَا جَرَّةَ إِنَّمَا تَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ قال السدي وابن جرير : معنى قوله ﴿ لَا جَرَّةَ ﴾ حقًا ، وقال الضحاك : لا كذب ، ﴿ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ قال السدي : لا يوجب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة وقوله : ﴿ وَإِنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي في الدار الآخرة فيجازي كلّ بعمله ولهذا قال : ﴿ وَأَنَّمَا الشَّرِيفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي خالدين فيها يأسرهم وهو شركهم بالله ﴿ سَتَلَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم وتذكرونها وتندمون حيث لا يتفكركم الندم ﴿ وَأَلْفُ أَمْشَرَتْ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه وأقطعكم وأباعدكم ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْغُيُوبِ ﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُهُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام وأما في الآخرة فالنجاة ﴿ وَسَاءَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سَوَاءُ الْمَكْرِ ﴾ وهو الفرق في الهم ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أي أشدّ ألمًا وأعظمه نكالًا ، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ عَذَابًا وَعَذَابًا .

ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلو بها على عذاب القبر في البرزخ

فمن عائشة عليها السلام أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة عليها السلام إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية وذاك الله عذاب القبر قالت عائشة عليها السلام : فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت : يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال ﷺ : لا ، من زعم ذلك ؟ قالت : هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت : وذاك الله عذاب القبر ، قال ﷺ : كذبت يهود وهم على الله أكذب لا عذاب دون يوم القيامة ، ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بشوبه محمرة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته : « القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتكم كثيراً وضحكتم قليلاً ، أيها الناس استعينوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق » ^(١) . فيقال : فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟ والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوًا وعشيًا في البرزخ وليس فيها دلالة على اتصال تأملها بأجسادها في القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها . وقد يقال إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنوب .

وقد يقال أن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها فلما أوحى إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه استعاذ منه ، وعن عائشة عليها السلام أن يهودية دخلت عليها فقالت : نعوذ بالله من عذاب القبر ، فسألت عائشة عليها السلام رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة عليها السلام : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر ^(٢) . فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر وقرر عليه . وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ عَذْرَاقَتَيْنِ ﴾ صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا ، يقال لهم : يا آل فرعون هذه منازلكم ، تويصنا ونقمة وصغارا لهم ، وقال ابن زيد : هم فيها اليوم يندى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة . وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أتاه الله تعالى » قال : قلنا : يا رسول الله ما إثابة الله للكافر ؟ فقال : « إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أتاه الله تبارك وتعالى للمال والولد والصحة وأشبه ذلك » قلنا : فما إثابته في الآخرة ؟ قال ﷺ : عذاباً دون العذاب » وقرأ ﴿ أَتُخَلِّوْنَ تَالٍ رِجْزٍ أَنْتُمْ أَتَذَابُ ﴾ ^(٣) .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحذركم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله ﷻ إليه يوم القيامة » ^(٤) .

﴿ وَلَئِنْ يَتَمَنَّوْنَ فِي النَّارِ يَقُولُوا أَهْلُ الْجَنَّةِ لَمَنَ لَّيْلَتُنَا لَسَكُنَّا لَكُم تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنَوْنَ عَنَّْا ضَيْبًا يَوْمَ النَّارِ ۚ قَالَ الَّذِينَ لَسَكُنَّا لَكُم إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْبَاقِي ۚ وَقَالَ الَّذِينَ فِي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الجاه (١٣٧٢) والشافعي في السنن (١٣٠٨) وأحمد في مسنده (١٧٤/٦) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٥٣/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الجاه (١٣٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٥) وأحمد في مسنده (١١٣/٢) .

أَتَارِ يَحْزَنَةً جَهَنَّمَ أَذْهَبُوا رَبِّكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٥٦﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَكَاذِبُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا دَعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٨﴾ .

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم ، و فرعون وقومه من جملتهم ، فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي أطلعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ قَهْلَ أَشْرَ تُشْفَوْنَ عَنَّْاَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ أي قسطًا تتحملونه عنا ، ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَسْتَكَذِبُونَ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أي لا تحمل عنكم شيئًا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إِنْكَ أَفْهَقُ حَكَمَ بَيْنَ الْيَسَادِ ﴾ أي قسم بينا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَحْزَنَةً جَهَنَّمَ أَذْهَبُوا رَبِّكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ لما علموا أن الله ﷻ لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال ﴿ لَسْتُوَا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ سألوا الحزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعو لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب ، فقالت لهم الحزنة رادين عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَكَاذِبُونَ ﴾ أي أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم برآء ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ، ولا يخفف عنكم ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا دَعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمِ الْأَشْهَادِ ﴾ ﴿٥٦﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِفَتُهُمْ وَهُمْ فِي الْعَذَابِ وَلَهُمْ مَّوَدَّةُ النَّارِ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٨﴾ هَذَى وَصَحْنِي بِالْأُولَى الْآخِرِ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ حَتَّىٰ وَاسْتَقِيرَ لِذُنُوبِكُمْ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي مَآسِكِ اللَّهِ بِحَسْرَتِهِمْ سُلْطَانِ اتَّخَذُوا فِي مَثَدِهِمْ إِلَّا حِكْمَةً قَالُوا هُمْ يَحْلِلُونَهُ فَاسْتَوْدَعُوا

أورد ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ سؤالاً فقال : قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتلوه قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرين كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا ، ثم أجاب عن ذلك بجوابين : أحدهما : أن يكون الخير خرج عائداً والمراد به البعض ، قال : وهذا سائق في اللغة : الثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم من آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضورتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتله يحيى وزكريا وشعيا ، سلب عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دمايعهم ، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح ﷺ من اليهود ؛ فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذللوهم وأظهروهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً ؛ فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام ، وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر

وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم من آذاهم ^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب » ^(٢) ولهذا أهلك الله ﷻ قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباهم وأضرابهم من كذب الرسل وخالف الحق . وأنهى الله تعالى من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحداً ، وعذب الكافرين فلم يقلت منهم أحداً ، قال السدي : لم يعث الله ﷻ رسولاً قط إلى قوم فيقتلونهم أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم من فعل ذلك بهم في الدنيا قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصرون فيها . وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه ، فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم ، وأسر سرائرهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قرية فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف العظيم ، فأثقت الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكاملها ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فلبوا عنه دين الله ﷻ ، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وضحوا البلاد والرسائق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة الحميدة في مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ أي يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل ، قال مجاهد : الأَشْهُدُ : الأَشْهَادُ لِلْمَلَكَةِ . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِذُهُمْ ﴾ بدل من قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه فسر به ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ وهم المشركون ﴿ مَعْرِذُهُمْ ﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ وَلَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي الإبعاد والطرود من الرحمة ﴿ وَلَهُمْ سَوْءُ النَّارِ ﴾ وهي النار . وعن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ وَلَهُمْ سَوْءُ النَّارِ ﴾ أي سوء العاقبة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ وهو ما بعث الله ﷻ به من الهدى والنور ﴿ وَأَوْفَقْنَا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ وَكُلُوبَ ﴾ أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿ هُنَا نَبْذُرُكَ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة . وقوله ﷻ ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أي يا محمد ﴿ إِنَّكَ وَتَدَّ إِلَهُكَ ﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولن اتبعك والله لا يخلف الميعاد ، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ هذا تهيب للامة على الاستغفار ﴿ وَسَيَحْيِي حَيَاتِكَ بِالسَّيِّئِ ﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿ وَالْإِكْرَارِ ﴾

(١) تفسير الطبري (٩٢ / ٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٣٥٠٢) .

وهي أوائل النهار وأواخر الليل . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْتَرِبُونَ سُلْطَانَهُمْ ﴾ أي يدفعون الحق بالباطل ، ويدعون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿ إِنَّ فِي سُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا شَاءَ لَهُمْ يَكْبِلُونَهُ ﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يروونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم ؛ بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو للموضوع ﴿ فَاسْتَوِذْ بِأَقْدَرِ ﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿ إِنَّكُمْ هُمْ السَّيِّئُ الْقَوَائِدُ ﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان ^(١) .

﴿ لَمَّا نَسُوا اللَّهَ أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ لَا يَزِلُّوا السُّبُلَ وَلَا الْمُسْتَضِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى منها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدءاً وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى فلهمنا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يمترونها بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ لَا يَزِلُّوا السُّبُلَ وَلَا الْمُسْتَضِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ؛ بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَا رَيْبَ فِيهَا لَكَاثَةُ وَاوَّاقَةٍ ﴾ لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ أي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ اتَّقُوا اسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيُسْأَلُونَ عَنْهُمْ ذَلِكَ ﴾ . هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول : يا من أحب عباده إليه من سألته فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يا رب . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله ويُنِّي آدم حين يُسأل يغضب

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه ﷻ قال : « أربع خصال وأحدة منهن لي ، وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين عبادي ، فأما التي لي : فتعبدني لا تشرك بي شيئاً ، وأما التي لك علي : فما عملت من خير جزيتك به ، وأما التي بيني وبينك ، فمفك الدعاء وعلي الإجابة ، وأما التي بينك وبين عبادي : فارض لهم ما ترضي لنفسك » ^(٢) . وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ اتَّقُوا اسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ

(١) تفسير الطبري (٩٧/٢٤) .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٧٥٧/٥) والمجروحين لابن حبان (٣٧٢/١) والحديث إسناده ضعيف .

نظير له ولا عدیل له ﴿ فَكَادَهُوَ يَغْتَابُ لَكُمُ الْيَقِينُ ﴾ أي موحدین له مقربین بأنه لا إله إلا هو ﴿ لَتَسُدَّ لَكُمُ رِيبُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .

قال ابن جریر : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال : لا إله إلا الله أن يتبعها بالحمد لله رب العالمین عملاً بهذه الآية .

وعن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلا الله فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمین ^(١) .
عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن بدر المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . قال : وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة ^(٢) .

﴿ قُلْ إِنِّي نُبَشِّرُكَ أَنْ تَعْبُدَ إِلَهَكَ مَعَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَكَ جَنَّاتُ الْيَمِينِ مِنْ رَبِّي وَأُورِثُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّي الْمَلَائِكَةَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُنْفِخُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ يُسَلِّتُكُمْ أَشْهُكُمْ ثُمَّ يُنْكِحُوا شُرَبِيًّا وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْكَلُ مِنْ قَبْلِ وَلَدْنَاهُ لَكُلًّا مَسَىٰ وَلَمَلَكُمْ تَقَارُوسٌ ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا ضَعُوهُ أُنْزِلَ فَأَيُّهَا يَقُولُ لَمْ يَكُنْ يَكُونُ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الله ﷻ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان ، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلّت عظمتُهُ : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُنْفِخُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ يُسَلِّتُكُمْ أَشْهُكُمْ ثُمَّ يُنْكِحُوا شُرَبِيًّا ﴾ أي هو الذي يخلقكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له ، وعن أمره وتدييره وتقديره يكون ذلك كله ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْكَلُ مِنْ قَبْلِ ﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطاً ، ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة كقوله تعالى : ﴿ لَنُيَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُؤَيِّرُ فِي الْأَرْصَادِ مَا فَتَكَ إِلَهُ أَجَلٍ مُسَيَّءٍ ﴾ وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَلَبَلَّوْا لَبْكَ مُسَيَّءٍ وَلَمَلَكُمْ تَقَارُوسٌ ﴾ ، قال ابن جرير : تذكرون البعث ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ فَإِذَا ضَعُوهُ أُنْزِلَ فَأَيُّهَا يَقُولُ لَمْ يَكُنْ يَكُونُ ﴾ أي لا يخالف ولا يمانع بل ماشاء كان لا محالة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَصُدُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَصْرُوهَ ﴿١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْحَقِّ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا سَتَواتٍ يَمَكُونُ ﴿٢﴾ إِذِ الْغُلَظَّاءُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَتَحَفَرُونَ ﴿٣﴾ فِي اللَّعِينَةِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَأْكُولٌ مِمَّا كَفَرْتُمْ ﴿٥﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَوْ كُنْ تَعْلَمُونَ مِنْ قَبْلِ سَيْئِكُمْ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ فَلَيْسَ بِمَا كَفَرْتُمْ تَرْحَمُونَ فِي الْأَرْضِ يَمُرُّ لَيْلَىٰ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمُرُّونَ ﴿٧﴾ أَسْأَلُوكَ الْغَنَىٰ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيمَا قِيلَ مَتَى الْمُنْكَرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بأيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٠٢/٢٤) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٩) وقوله : يهل به : أي يرفع صوته بذلك الكلمات .

تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَبِأَنزِلَاتِنَا﴾ ، أي من الهدى والبيان ﴿سَوَّوْا يَدَهُمْ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعد أكيد ، من الرب ﷻ لهؤلاء ، وقوله ﷻ ﴿إِذْ أَقْبَلْنَا فِي مَجْنَنِهِمْ وَالسَّكِينِ﴾ ، أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسجونهم على وجوههم تارة إلى الحميم ، وتارة إلى الحميم ، ولهذا قال تعالى : ﴿يَسْتَحْيُونَ﴾ في التَّحْيِيَةِ لَرَّ فِي أَثَرِ يَسْتَحْيُونَ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُذِّبَ بِهَا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بطُورِهِ يَتَنَبَّهُونَ بِحَيْثُ مَا وَءٍ وَبِأَنزِلَاتِنَا ، وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم ﴿ثُمَّ إِنَّ تَرْجُفَهُمْ لَإِلَ الْكَيْسِ﴾ عن يعلى بن منه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « ينشئ الله ﷻ سحابة لأهل النار سوداء مظلمة ويقال : يا أهل النار أي شيء تطلبون ؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون : نسأل بارد الشراب فمطرهم أغلالاً تريد في أغلالهم ، وسلاسل تزيد في سلاسلهم ، وجموا يلهب النار عليهم » (١) . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ين دون آله ، أي قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ، هل ينصرونكم اليوم ؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوا ﴿بَلْ لَرَّ كُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ مِنَّا﴾ أي جحدوا عبادتهم كقوله جلَّتْ عظمته : ﴿لَرَّ لَرَّ كُنْ يَنْتَلِهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا شُرَكَاءَ﴾ ، ولهذا قال ﷻ : ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ . وقوله : ﴿فَلَيْكُم مِمَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ في الأرض يَمْنَحُ لَكُمْ وَمِمَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ، أي تقول لهم المملوكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بشير حق ومرحكم وأشركم وبطركم ﴿أَتُوبُ إِلَهُكُمْ﴾ أي توبوا من الكفر إلى الله ، أي فليس متوب التَّوْبَةُ ، أي فليس المنزل والمقبل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه ، والله أعلم .

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ كَمَا تَرَىٰ أَنَّكَ بِحَقِّ آيَاتِنَا لَا يَدْرِي قَوْلَهُمْ﴾ ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَيُفْصِحْ لَكَ فَيُقْضَىٰ وَمَنْ لَكَ حَتَّىٰ تَكْتَلِمَ﴾ .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ، فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك وجعل العاقبة لك ولئن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿كَمَا تَرَىٰ أَنَّكَ بِحَقِّ آيَاتِنَا لَا يَدْرِي قَوْلَهُمْ﴾ ، أي في الدنيا ، وكذلك وقع ، فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظماهم ؛ أيدوا في يوم بدر ، ثم فتح الله عليه مكة ومسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ . وقوله ﷻ : ﴿أَوْ تَوَكَّلْ عَلَىٰ آيَاتِنَا يَرْجُونَ﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة ، ثم قال تعالى مسلينا له ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم ، مع قومهم كيف كذبوهم ، ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثر من ذكر بأضعاف أضعاف . وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِرَّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للمعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيبدله ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿فَيُفْصِحْ لَكَ﴾ فينجي المؤمنين ، ويهلك الكافرين ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿وَحَيْرَ هَٰذَا لَكِ الْمَبِطَلُونَ﴾ .

(١) ذكره الطبري في التفسير والقرطبي (٤٧٧/٤) والسيوطي في الدر المنثور (٣٥٧/٥) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِيَرْكَبُهَا بَيْنَ يَدَيْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ٨٥ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ فَاتَّخِذُوا عَلَيْهَا حَبْلَةً فِي أَوْسَادِهِمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴾ ٨٦ ﴿ وَرَبِّكُمْ عَلَيْهَا فَاقَى مَا كَذَّبَ اللَّهُ تَنْكِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممثلاً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم فعنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تركب وتؤكل وتحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها ؛ فيتخذ منها الأثاث والسياب والأمتعة ؛ ولذا قال ﴿ لِيَرْكَبُهَا بَيْنَ يَدَيْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ٨٥ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ فَاتَّخِذُوا عَلَيْهَا حَبْلَةً فِي أَوْسَادِهِمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴾ ٨٦ وقوله جل وعلا ﴿ وَرَبِّكُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فَاقَى مَا كَذَّبَ اللَّهُ تَنْكِرُونَ ﴾ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا فِي الْأَرْضِ قَبْلُهَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ يَوْمَهُم مِّنْ آدَمَ وَنَاةٍ فِي الْأَرْضِ مِمَّا أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ٨٦ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا يَدُوسُونَ ﴾ ٨٧ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلُوهَ اللَّهَ الْكُفْرَ ﴾ ٨٨ .

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال ، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله ؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم ، واستغفروا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل . قال مجاهد : قالوا : نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب ، وقال السدي : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم ، فاتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا يَدُوسُونَ ﴾ أي يكذبون ويستعدون وقوعه ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا يَدُوسُونَ ﴾ أي وحدوا الله ﴿ وَكَفَرُوا بِالطَّاغُوتِ ﴾ ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع الملعنة ، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الفرق ﴿ آمَنْتُ أَنَّمَا آلَاءُ اللَّهِ إِلَّا آلَاءُ الْفُتُورِ ﴾ ٨٦ ﴿ قَالَ اللَّهُ تبارك وتعالى : ﴿ فَالَّذِينَ يَدُوسُونَ ﴾ أي فلم يقبل الله منه ؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه حين قال : ﴿ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ٨٦ ﴿ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاناة العذاب أنه لا يقبل ، ولهذا جاء في الحديث : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغفر » ^(١) أي فإذا غفر وبلغت الروح الخنجره وعان الملك فلا توبة حيثئذ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٣٧) وأحمد في مسنده (٤٢٥/٣) والحاكم في المستدرک (٢٥٧/٤) .

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَرَفٌ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنْ كُنَّا لَبَيْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَمِلُونَ ٥ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ حَرَفٌ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي بينت معانيه وأحكامه ﴿ كِتَابًا عَرَبِيًّا ﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًّا بينًا واضحًا فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشككة أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي تارة يشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئًا مع بيانه ووضوحه ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنْ كُنَّا لَبَيْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَمِلُونَ ﴾ .

عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدًا - قال يومًا وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ؓ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مألًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مألًا ، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا تقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربحًا تراه لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبترئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاسمع مني » قال : أفعل . قال ﴿ يَسْمَعُ أَهْلُ الْكِتَابِ الْخَبْرَ ٦ حَرَفٌ ٧ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٨ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٩ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٠ وَنَذِيرًا ١١ ﴾ فيها وهو يقرأها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذلك » فقام

أَنبَأْنَا ۖ أَيُّ نَظَرَاءَ وَأَمَثَلًا تَعْبُدُونَهَا مَعَهُ ۖ ذَٰلِكَ رَبُّ الْكَافِرِينَ ۝ أَيُّ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ . وَهَذَا الْمَكَانُ فِيهِ تَفْصِيلُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ۖ فَفَصَّلَ بَيْنَهُمَا مَا يَخْتَصُ بِالْأَرْضِ ۖ مَا اخْتَصَّ بِالسَّمَاءِ فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْأَرْضَ أَوَّلًا لِأَنَّهَا كَالْأَسَاسِ ، وَالْأَصْلُ أَنْ يَبْدَأَ بِالْأَسَاسِ ثُمَّ بَعْدَهُ بِالسَّقْفِ . عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ لِّابْنِ عَبَّاسٍ ۖ إِنَّنِي لَأَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ ، قَالَ : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ يَتَنَهَّرُ بِوَيْهَرٍ وَلَا يَسْتَلُون ۖ ﴾ ، ﴿ وَلاَ يَسْتَلُّ عَلَى بَيْتٍ يَسْتَلُّونَ ۖ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَيْدِيكَ ۖ ﴾ ، ﴿ وَلاَ أَنْسَابَ مَا سَمَّا مَشْرِكِينَ ۖ ﴾ فَقَدْ كَتَبُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ خَلْقٌ كَرِيمٌ ۖ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَالْأَرْضَ بِمَدَّةٍ ذِكِّكَ كَتَمْنَا ۖ ﴾ فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَتَكْتُمُونَ لَكَ كُفْرُونَ ۖ بِأَلَيْهِ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ۖ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ طَائِفِينَ ۖ ﴾ فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ قَالَ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ ﴾ ، ﴿ عَرِيجًا حَكِيمًا ۖ ﴾ ، ﴿ نِيمًا بَيِّنًا ۖ ﴾ فَكَانَهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ۖ ﴿ فَلَا أَنْسَابَ يَتَنَهَّرُ بِوَيْهَرٍ وَلَا يَسْتَلُون ۖ ﴾ فِي النَفْخَةِ الْأُولَى ، ثُمَّ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَكِينَ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ كَتَمَ اللَّهُ ۖ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا تَسَابِعُونَ ، ثُمَّ فِي النَفْخَةِ الْآخَرَى ۖ ﴿ وَلاَ يَسْتَلُّ عَلَى بَيْتٍ يَسْتَلُّونَ ۖ ﴾ وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ مَا سَمَّا مَشْرِكِينَ ۖ ﴾ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَيْدِيكَ ۖ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ فَيَقُولُ لِلْمَشْرُوكِينَ : تَعَالَوْا نَقُولَ : لَمْ نَكُنْ مَشْرُوكِينَ ، فَيُخْذَمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَتَنْطَلِقُ أَيْدِيهِمْ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَحْكُمُ حَدِيثًا ، وَعِنْدَهُ ﴿ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ ﴾ الْآيَةُ ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرِينَ ، ثُمَّ دَحَى الْأَرْضَ ، وَدَحَاهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالرَّمَالَ وَالْجُمَادِ وَالْأَكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرِينَ ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَتَمْنَا ۖ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ۖ ﴾ فَخَلَقَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ سَمِيَ نَفْسُهُ بِذَلِكَ وَذَلِكَ قَوْلُهُ ؛ أَيُّ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ ، فَلَا يَخْتَلِفُنَّ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ؛ فَإِنْ كَلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ ﴿ ١ 〉 . وَقَوْلُهُ ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ۖ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْأَحَدِ وَيَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ۖ ﴿ وَتَحَلَّلَ فِيهَا رُحُومٌ مِنْ قَوْفِهِا وَذَكَرَ فِيهَا ۖ ﴾ أَيُّ جَعَلَهَا مَبَارَكَةً قَابِلَةً لِلْخَيْرِ وَالْبُشْرِ وَالْفِرَاسِ ۖ ﴿ وَكَفَّرَ فِيهَا أَقْوَمًا ۖ ﴾ وَهُوَ مَا يَحْتَاجُ أَهْلُهَا إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَمَاقِنِ الَّتِي تَزْرَعُ وَتَغْرَسُ يَعْنِي يَوْمَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَةِ فَهِيَ مَعَ الْيَوْمَيْنِ السَّابِقَيْنِ أَرْبَعَةٌ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فِي آيَتِهِ آيَاتٌ لِّلَّذِينَ يَتْلُونَ ۖ ﴾ أَيُّ لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ لِيَعْلَمَهُ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ ۖ ﴿ وَكَفَّرَ فِيهَا أَقْوَمًا ۖ ﴾ جَعَلَ فِي كُلِّ أَرْضٍ مَا لَا يَصْلُحُ فِي غَيْرِهَا وَمِنَ الْعَصَبِ بِالْيَمَنِ ، وَالسَّابُورِيِّ بِسَابُورٍ ، وَالطَّيَالِسَةِ بِالرِّيِّ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَتَقَاتَدَ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَوَّاهُنَّ لِّلَّذِينَ يَتْلُونَ ۖ ﴾ أَيُّ لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ ۖ ﴾ وَهُوَ بِخَارِ الْمَاءِ الْمُتَصَاعِدِ مِنْ حِينَ خَلَقَتْ الْأَرْضَ ۖ ﴿ فَقَالَ لَهَا فَالْأَرْضُ أَتَيْنَا ۖ طَرَفًا أَوْ كَرِهًا ۖ ﴾ أَيُّ اسْتَجِيبًا لِأَمْرِي وَانْفِعَالًا لِفِعْلِي طَائِفَتَيْنِ أَوْ مَكْرَهَتَيْنِ ۖ ﴿ فَالَّذِينَ أَتَيْنَا ۖ طَائِفَتَيْنِ ۖ ﴾ أَيُّ بَلِّ نَسْتَجِيبُ لَكَ مَطْعِينَ بِمَا فِينَا مَا تَرِيدُ خَلْقَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَمِيعًا

وَكَيْفَ آتَيْنَاهُ خُشُوعًا ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ آبَادَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَاتَّصَلَ بِهِمْ نِجَازِ الدُّنْيَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿لِيُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخُلُوعِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ حَرًّا لَّهُمْ﴾ أي أشد حَرًّا لَّهُمْ ﴿وَمَنْ لَا يُصِرِّعْ﴾ أي في الآخرة كما لم يصبروا في الدنيا ، وما كان لهم من الله من واق يقبهم العذاب ويدراً عنهم النكال ، وقوله ﴿لَئِنْ﴾ : ﴿وَلَئِنْ كُنْتُمْ فَهَذِهِتُمْ﴾ قال ابن عباس وقادة والسدي وغيرهم : بينا لهم ، وقال الثوري : دعوانهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْمَوْتَ عَلَى الْكُفْرِ﴾ أي بصرانهم وبيننا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿فَلَعَنَهُمُ صَافِقَةُ الْمَلَكِ الْمَوْنِ﴾ أي بهت الله عليهم صبيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعدلاً ونكالا ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي من التكذيب والجمود ﴿وَكَيْفَ آتَيْنَاهُمُ الْإِسْرَ﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسه سوء ولا نالهم من ذلك ضرر ؛ بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم بقواهم الله ﴿٢٠﴾ .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢١﴾ حَتَّىٰ لَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَأَوَّلُ مَرَّةٍ يَمَّا كَانُوا يُكْفَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لِمَ يُؤْذِنُكُمُ اللَّهُ إِنَّا لَنَنظِرُكُمْ أَيُّ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ تَرْجِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَفِيدُونَ أَن يُنذِرَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَمَسُّكُمْ كَيْفًا يَوْمَ تَمْلِكُونَ ﴿٢٤﴾ وَلِكُلِّ ظُلْمٍ لَّيْلٌ لَّنْظَرٌ لِّذُنُكُمُ فَاصْبِرْ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٥﴾ لَّيْنٌ بِمَسِيرِهِمْ فَاتَّبَعُوا مَتَّى وَلَمَّا يَنْتَفِعُوا قَدْ مَاتَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار يوزعون أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم . وقوله ﴿حَتَّىٰ لَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي وقفوا عليها ﴿نَذِيرٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَأَوَّلُ مَرَّةٍ يَمَّا كَانُوا يُكْفَرُونَ﴾ أي بأعمالهم بما قدموه وأخروه لا يكتفون منه حرف ﴿وَقَالُوا لِمَ يُؤْذِنُكُمُ اللَّهُ إِنَّا لَنَنظِرُكُمْ أَيُّ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون .

عن أنس بن مالك ؓ قال : ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال ﷺ : «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكتم ؟» قالوا : يا رسول الله عن أي شيء ضحكتم ؟ قال ﷺ : «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول : أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال : بلى ، فيقول : فإني لا أقبل علي شاهداً إلا من نفسي ، فيقول الله تبارك وتعالى : أو ليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال : فيردد هذا الكلام مراراً - قال : فيختم علي فيه وتكلم أركانها بما كان يعمل ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً ، عنكن كنت أجادل» ^(١) . وعن جابر بن عبد الله ؓ قال : لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال : «ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟» فقال فتية منهم : بلى يا رسول الله ، بينما نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهايينهم تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ، ثم دفعها فخرت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/١) والحاكم في المستدرک (٦٠١/٤) والطبراني في الكبير (٤٧/٨) .

لهم أعمالهم في الماضي والمستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى : ﴿ وَنَنْتَقِمُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيصٌ لِّمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ لَمْ يَسْئَلْكُمْ عَنْ الْبَيْتِ لِتُحْشَرُوا بِهِمْ ثُمَّ نُفِثُوا بِهِمْ عَنْ شَرِّ ذَلِكُمْ الَّذِي سَبَّحْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَطَعَنُوكُمُ فِي دِينِكُمْ وَاللَّهُ يُبْغِضُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَرَحَى عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ ﴾ أي كلمة العذاب ، كما حق على أمم قد خلت من قبلهم من فعل كنعلمهم من الجن والإنس ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَبِيرِينَ ﴾ أي استوا هم وليهم في الخسار والدمار . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره ﴿ وَالْقَوْمَ فِيهِ ﴾ أي إذا تلي لا تسموا له كما قال مجاهد ﴿ وَالْقَوْمَ فِيهِ ﴾ يعني بالمكاء والصغير والتحليط في المنطق على رمول الله إذا قرأ القرآن ، ثم قال ﴿ فَاتَّبِعُوا مَن تَنَاصَرُوا ﴾ متصفا للقرآن ومتصفا من عاداه من أهل الكفران ﴿ تَنَاصَرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي في مقابلة ما اعتملوه في القرآن وعند سماعه ﴿ وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَارُ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بشر أعمالهم وسيئ أفعالهم ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْعَدُوِّ وَالَّذِينَ كَانُوا يَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ مَقَامًا فَكَانُوا بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابا منا ، ولهذا قالوا ﴿ يَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَحْنُلُكُمْ فَمَا نَسْأَلُكُمْ فِي الْأَمْرِ شَيْئًا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) . وقولهم : ﴿ جَعَلْنَا نَحْنُ أَهْلَ الْكِتَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابا منا ، ولهذا قالوا ﴿ يَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا ﴾ أي أخلصوا العمل لله وعملا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم ، وعن أنس بن مالك ؓ قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا ﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها (٢) ، وعن سعيد بن عمران قال : قرأت عند أبي بكر الصديق ؓ هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا ﴾ قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئا (٣) . وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس ؓ : أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله .

وعن ابن عباس ؓ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا ﴾ على أدله فرائضه ، وكذا قال قتادة . قال : وكان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزنا الاستقامة ، وقال أبو العالية : ﴿ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا ﴾ أخلصوا له الدين والعمل .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥) ومسلم في القسامة (٢٧) وأحمد في مسنده (٢٨٣/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٠٠) . (٣) أورده الطبري في تفسيره (١٤٢/٢٤) .

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ، قال ﷺ : « قل ربي الله ثم استقم » قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله ﷺ : بطرف لسان نفسه ثم قال : « هذا » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ تَنْتَظِرُ لَهُمْ تِلْكَ لُجَّةٌ ﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم : وابنه ، يعني عند الموت قائلين ﴿ أَلَا تَحْشَرُونَ ﴾ أي ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما خلقتهم من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين ؛ فإننا نخلفكم فيه ﴿ وَابْتَهِرُوا لِمَلَكَةِ آدَمَ كُتُبُهُ تَوَعَّدُونَ ﴾ فيشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير . وهذا كما جاء في حديث البراء ﷺ قال : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان » ^(٢) وقيل : إن الملائكة تنتزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم . وقال زيد بن أسلم : يشرونه عند موته وفي قبره حين يعث ، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ تَحَنَّنْ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْأَخِرَةِ ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم في الحياة الدنيا نسدكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجازيكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس وتقر به العيون ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿ وَلَا يَنْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنبكم رحيم بكم رءوف ؛ حيث غفر وستر ورحم ولطف . عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة ﷺ فقال أبو هريرة ﷺ : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أوفيهما سوق ؟ فقال : نعم ، أخبرنا رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها ونزلوا بفضل أعمالهم ، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله ﷻ ، ويرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، ويوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من باقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أديانهم وما فيهم دنيء على كتيان المسك والكافور ما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً . قال أبو هريرة ﷺ : قلت : يا رسول الله وهل نرى ربنا ؟ قال ﷺ : « نعم ، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ » قلنا : لا . قال ﷺ : « فكذا لا تمارون في رؤية ربكم تعالى ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة ، حتى إنه ليقول للرجل منهم : يا فلان ابن فلان أتذكر يوم عملت كذا وكذا ؟ - يذكره ببعض غلراته في الدنيا - فيقول : أي رب أفلم تغفر لي ؟ فيقول : بلى ، فبسة مغفرتي بلغت منزلتك هذه » قال : « فينما هم على ذلك ؛ غشيتهم صحابة من فوقهم فأمرت عليهم طيئاً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط » قال : « ثم يقول ربنا ﷻ : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة وخلوا ما اشتبهتم » قال : « فتأتي سوقاً قد حفت به الملائكة ، فيها ما لم تخطر

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٢) وأحمد في مسنده (٤١٣/٣) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٥٥/٧) .

العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، قال : فيحمل لنا ما اشتبهنا ليس بياح فيه شيء ولا يشتري ، وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضاً . قال : فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هو دونه وما فيهم ديني ، فيروعه ما يرى عليه من اللباس ، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ؛ وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا ، فيتلقانا أزواجنا فيقبلن : مرحباً وأهلاً بحبيبتنا ، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار تبارك وتعالى ، وبحقنا أن نقبل بمثل ما انقلبنا به ^(١) .

﴿ وَتَنَاصَرْتُمْ قَوْلًا وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَجِلَ صَلَاتِهِ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَا تَسْتَوِي السُّعْيَةُ وَالْبَيْتَةُ أَدْعَىٰ بِأَلْفٍ مِّنْ أَحْسَنَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَكٌۭ حَبِيرٌ ۝ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَدَقُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرٌّۭ حَظٍّ عَظِيمٌ ۝ وَلَئِن يَرَوْكَ مِنَ الْمَشْجَنِ نَزَعٌ فَلَسْتُ بِإِلَهِ إِلَّا هُوَ السَّيِّغُ الْقَلِيلُ ۝ ﴾ .

يقول ﷺ : ﴿ وَتَنَاصَرْتُمْ قَوْلًا وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وَعَجِلَ صَلَاتِهِ ﴾ أي عجل من الدين بين المسلمين ﴿ أَي هُوَ فِي نَفْسِهِ مَهْتَدٌ بِمَا يَقُولُهُ فَفَعَلَ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ لَازِمٌ وَمَتَّعٌ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الدِّينِ بِأَمْرٍ مَّعْرُوفٍ وَلَا يَأْتُونَهُ وَيَهْوُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَأْتُونَهُ ؛ بَلْ يَأْتُرُ بِالْخَيْرِ وَيَتْرَكُ الشَّرَّ وَيَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الْخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَهَذِهِ عَامَةٌ فِي كُلِّ مَنْ دَعَا إِلَى خَيْرٍ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَهْتَدٌ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلِي النَّاسِ بِذَلِكَ ، وَقِيلَ : لِمَرَادُ بِهَا الْمُؤَذِّنُونَ الصَّلَاةَ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : « الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٢) . وَفِي السَّنَنِ مَرْفُوعًا : « الْإِمَامُ ضَامِنٌ ، وَالْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ ، فَأَرْشَدَ اللَّهُ الْأُمَمَةَ ، وَغَفَرَ لِلْمُؤَذِّنِينَ » ^(٣) . وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : سَهَامُ الْمُؤَذِّنِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَسَهَامِ الْمُجَاهِدِينَ وَهُوَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ كَالْمُتَشَحِّطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي دَمِهِ . قَالَ : وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ : لَوْ كُنْتُ مُؤَذِّنًا مَا بَالَيْتُ أَنْ لَا أَحْجُ وَلَا أَتَمُرَ وَلَا أَجَاهِدَ ، قَالَ : وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ : لَوْ كُنْتُ مُؤَذِّنًا لَكُنْتُ أَمْرِي ، وَمَا بَالَيْتُ أَنْ لَا أَتَصَبَّ لِقِيَامِ اللَّيْلِ ، وَلَا لَصِيَامِ النَّهَارِ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ » ثَلَاثًا ، قَالَ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرَكْنَا وَنَحْنُ مُجْتَلِدُونَ عَلَى الْأَذَانِ بِالسُّيُوفِ ، قَالَ ﷺ : « كَلَّا يَا عُمَرُ ، إِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتْرَكُونَ الْأَذَانَ عَلَى ضَعْفَائِهِمْ ، وَتَلْكُ لَحُومُ حَرَمِهَا اللَّهُ ﷻ عَلَى النَّارِ لَحُومَ الْمُؤَذِّنِينَ » ^(٤) . قَالَ : وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَجِلَ صَلَاتِهِ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » ، قَالَتْ : فَهُوَ الْمُؤَذِّنُ إِذَا قَالَ : حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ؛ فَقَدْ دَعَا إِلَى اللَّهِ . وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَتَجِدَنَّ صَلَاتَكَ ﴾ بِعَنِي صَلَاةَ رَكْعَتَيْنِ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ ^(٥) . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : - قَالَ الثَّوْرِيُّ : لَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ - : « الدَّعَاءُ لَا يَرُدُّ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ » ^(٦) . وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَةٌ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٣٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤) وابن ماجه في السنن (٧٢٥) والبيهقي في السنن (٤٣٣١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٢) .

(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٣١٥٨) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٧٦٨) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٩٤) وأحمد في مسنده (١١٩/٣) .

(٦) أخرجه الترمذي في مسنده (٣٥٩٤ ، ٣٥٩٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٩/٣) .

في المؤذنين وفي غيرهم فأما حال نزول هذه الآية : فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية ؛ لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن عبد ربه الأنصاري ﷺ في منامه قصصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال ﷺ فإنه أُنْدى صوتاً كما هو مقرر في موضعه ، فالصحيح إذن أنها عامة ﴿ وَتَنصَحُكُمْ فَلَا تَمَنَّ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَحُدُودَ صُلُوحٍ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا الْقَبِيحَةُ ﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي جَاءَ بِكَ مِنْ أَسَاءِ إِلَيْكَ فَادْفَعْهُ عَنْكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ﴾ كما قال عمر ﷺ : ما عاقبت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وقوله ﷻ : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَكَيْ حَبِيبٌ ﴾ وهو الصديق إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْإِنُّنُ صَبْرًا ﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يشق على النفوس ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُرٌّ حَبْلٍ غَظِيظٍ ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك ؛ عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا يَرْفَعُكَ مِنَ الْقَبْرِ نَتَّبِعُكَ فَأَسْتَحْيِدُ بِإِلَهِ ﴾ أي إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والنجاة إليه ؛ كفه عنك ورد كيده ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » (١) .

﴿ وَتَمَّيْنِيهِ أَيْلُ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ إن كنتم إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿ فَإِنَّ اسْتَعِذَّ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَبِالْأَيْلِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَا يَنْفَعُونَ شَيْئاً ﴾ ﴿ وَتَمَّيْنِيهِ أَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ أي ما يشاء قادر ﴿ وَتَمَّيْنِيهِ أَيْلُ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالْقَمَرُ ﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضياءه وهما متعاقبان لا يفتران ، والشمس ونورها وإشراقها ، والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه واختلاف سيره في سماءه ؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار ، والجمع والشهور والأعوام ، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات . ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي ، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبادان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ إن كنتم إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿ أي ولا تتركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ؛ فإنه لا يغفر أن يشرك به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ اسْتَعِذَّ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَبِالْأَيْلِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَا يَنْفَعُونَ شَيْئاً ﴾ يعني اللاتكئة ﴿ يَسْجُدُونَ لَهُ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ وَبِالْأَيْلِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : لا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٣) والبيهقي في السنن (٣٤/٢) .

تسبوا الليل ولا النهار ، ولا الشمس ولا القمر ، ولا الرياح ؛ فإنها ترسل رحمة لقوم وعداباً لقوم . (١) .

قوله ﴿ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿ لَكَ تَوَكَّلْ الْيَتِيمَ ﴾ أي هامة لا نبات فيها بل هي مجة ﴿ فَإِذَا تَنَفَّسْتُمْ فَلِلَّهِ الْمَلَكُ انْفَضَّتْ وَرَيْتَ ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاكُمْ لَعَلَى الْوَعْدِ لَهُمْ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ عُقْرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلَاحِظُونَ فِي عَافِيَةٍ لَا يُحِثُّونَ عَافِيَتَهُمْ أَفَنُ يُلَاقُوا فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّمْ مِّنْ يَّاتِيَهُمْ عَذَابُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَهْتَلُوا مَا يَشْتُمُونَ بِمَا تَمَلَّكُونَهُمْ ﴾ ١٠ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيهِمْ لُغَاةُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ لِكِتَابٌ عَرَبِيٌّ ١١ لَا يَأْتِيهِمُ النَّجَاسُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِمْ تَرْجَمُونَ مِنْ حِكْمِهِمْ جَمِيعًا ١٢ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَأَكْثَرُ مَنْفُورًا وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلَاحِظُونَ فِي عَافِيَةٍ ﴾ قال ابن عباس : الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه . وقال قتادة وغيره : هو الكفر والعناد . وقوله ١٠ : ﴿ لَا يُحِثُّونَ عَافِيَتَهُمْ ﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد ، أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته ومسجبه على ذلك بالعقوبة والذكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَنُ يُلَاقُوا فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّمْ مِّنْ يَّاتِيَهُمْ عَذَابُهُمْ ﴾ أي أوسطي هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال ١١ : ﴿ تَمَلَّكُونَهُمْ لِلْكَفَرَةِ ﴾ : ﴿ أَهْتَلُوا مَا يَشْتُمُونَ ﴾ أي من خير أو شر إنه عالم بهم وبصير بأعمالكم ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَسْتَمُونَ نَجَاسَاتٍ ﴾ ثم قال ١٢ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيهِمْ لُغَاةُ جَهَنَّمَ ﴾ قال الضحاك والسدي وقاتدة : وهو القرآن ﴿ وَلَهُمْ لِكِتَابٌ عَرَبِيٌّ ﴾ أي منبع الحساب لا يروم أن يأتي أحد بمثله ﴿ لَا يَأْتِيهِمُ النَّجَاسُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل ، لأنه منزل من رب العالمين ، ولهذا قال : ﴿ تَرْجَمُونَ مِنْ حِكْمِهِمْ جَمِيعًا ﴾ أي حكمهم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عقابه وغاياته . ثم قال ١٣ : ﴿ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما : ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك ، فكما كذبت كذبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم ، فاصبر أنت على أذى قومك لك . وهذا اختيار ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَأَكْثَرُ مَنْفُورًا ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقته ومخالفته .

﴿ وَرَوَّاهُ قُرْآنًا فَهَيْكَلًا لَمَّا لَوْ لَا فُصِّلَتْ لَمَشَتْهُ مِنْ حَمْرٍ مُبِينٍ ﴿١٠٠﴾ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَى ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آفَاتِهِمْ وَقَرْ وَهْمٌ عَلَيْهِمْ عَمَى ۚ أُولَٰئِكَ يَكُونُونَ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ ۖ ﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون ، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعتت وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعتت والعداء ﴿لَوْلَا فَحِشْتُ الْإِسْلَامَ بِالْعَجَمِيِّ وَرَقِي﴾ أي لقالوا هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب ولأنكروا ذلك فقالوا : أعجمي وعربي ، أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ؟ وقيل : المراد بقولهم : ﴿لَوْلَا فَحِشْتُ الْإِسْلَامَ بِالْعَجَمِيِّ وَرَقِي﴾ أي هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي ؟ هذا قول الحسن البصري وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله أعجمي وهو رواية عن سعيد بن جبير (٢) ، وهو في

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢١٩٢) بلفظه ، والترمذي في السنن (٢٢٥٣) بضمه .

(٧) فراء حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿أعجمي﴾ بهزتين ، وقرأ القواس ﴿أعجمي﴾ بهزرة واحدة على وجه الخبر لا على معنى الاستفهام ، وقرأ الباقون ﴿أعجمي﴾ بهزرة واحدة ومد . انظر حجة القراءات ص ٦٣٧ .

يقول تعالى : لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك ؛ فإن منه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿ فَيَقُولُ قَسْوَمًا ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير ﴿ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا يَوْمَ يَقُولُ لِقَوْلِنَا فَكُلَا ﴾ أي إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿ وَمَا آتَيْنَا لَكَ نِعْمَةً إِلَّا رِزْقًا يَدَّ إِلَيْنَا لِنَحْشُرَ ﴾ أي يكفر بقيام الساعة أي لأجل أنه خول نعمة يطر ويفخر ويكفر ﴿ وَلَكِنْ نَحْشُرُكَ إِلَيْنَا يَوْمَ يَقُولُ لِقَوْلِنَا فَكُلَا ﴾ أي ولكن كان ثم معاد فليحسن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار ، يمتنى على الله ﷻ مع إساءته العمل وعدم اليقين ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَنَنبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَوَّلُوا وَنَكْذِبُهُمْ فِي عَذَابٍ مُّضَاعَفٍ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالمقاب والنتكال . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْنَأْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَاضَ رَبَّنَا بِمَا يَأْتِيهِمْ ﴾ أي أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﷻ ﴿ وَلَقَدْ مَسَّ الْإِنْسَانَ أَيُّ الشَّدَةِ ﴾ فَوَدَّ دَعَاكَ غِيصٌ ﴾ أي يطول المسألة في الشيء الواحد ؛ فالكلام المريض ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ يَوْمَ يَعِدُكُمُ اللَّهُ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَثَرِ مَتْنٍ هُوَ فِي شِقَاقِ بَيِّنَةٍ ﴾ سُرِّيهِمْ مَائِنَتَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ بَيِّنٌ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ فِي رِزْقِهِمْ يَوْمَ رَزَقَهُمُ الْآيَةُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّخْبِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال ﷻ : ﴿ مَنْ أَضَلَّ مَتْنٌ هُوَ فِي شِقَاقِ بَيِّنَةٍ ﴾ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى ثم قال ﷻ : ﴿ سُرِّيهِمْ مَائِنَتَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقًا منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ فِي الْآفَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ، قال مجاهد والحسن والسدي : ودلائل في أنفسهم قالوا : وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمدًا ﷺ وصحبه وخلد فيها الباطل وحزبه .

وقوله تعالى : ﴿ حَقٌّ بَيِّنٌ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي كفى بالله شهيدًا على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمدًا ﷺ صادق فيما أخبر به عنه كما قال : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَنْهَاهُ يَمَّا أَتَى إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِرِسَالَتِهِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ فِي رِزْقِهِمْ يَوْمَ رَزَقَهُمُ الْآيَةُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّخْبِرُونَ ﴾ أي في شك من قيام الساعة ، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه ؛ بل هو عندهم هدر لا يعبأون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه . عن سعيد الأنصاري قال : إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ؛ أيها الناس فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون ، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحق والمكذب به هالك ، ثم نزل . ومعنى قوله ﷻ : إن المصدق به أحق ؛ أي لأنه لا يعمل له عمل مثله ، ولا يحذر منه ، ولا يخاف من هوله ، وهو مع ذلك مصدق به موثق

بوقوعه ، وهو مع ذلك يتمادى في لجه وغفلته وشهواته وذنوبه ، فهو أحق بهذا الاعتبار ، والأحق في اللغة ضعيف العقل ، وقوله : والمكذب به هالك ، هذا واضح ، والله أعلم . ثم قال تعالى مقرراً أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أي الخلقوات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن لا إله إلا هو .

سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ۝ عَسَى ۝ كَذَلِكَ يُخَوِّثُ إِلَيْكَ وَالْآلِينَ ۝ وَالْآلِينَ ۝ قِيلَ اللَّهُ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ۝ لَمْ يَأْتِ الْكُفُورَ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ۝ تَكَاذُبُ الْكُفُورَ يَنْتَظِرُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۝ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۝ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ . قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقوله ﴿ كَذَلِكَ يُخَوِّثُ إِلَيْكَ وَالْآلِينَ ۝ قِيلَ اللَّهُ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ۝ ﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن ، كذلك أنزل الكتب والصحف ، على الأنبياء قبلك . وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الْغَفُورُ ۝ ﴾ أي في انتقامه ﴿ الْكَرِيمُ ۝ ﴾ في أقواله وأفعاله .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني الملك مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : فأنزل رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليَتَفَصَّدُ عَرَقًا ^(١) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَمْ يَأْتِ الْكُفُورَ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝ كَذَلِكَ يُخَوِّثُ إِلَيْكَ وَالْآلِينَ ۝ قِيلَ اللَّهُ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ۝ ﴾ . وقوله ﴿ تَكَاذُبُ الْكُفُورَ يَنْتَظِرُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۝ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۝ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾ . وقوله ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۝ ﴾ أي الجامع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ۝ ﴾ . وقوله ﴿ تَكَاذُبُ الْكُفُورَ يَنْتَظِرُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۝ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۝ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾ . وقوله ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۝ ﴾ يعني للمشركين ﴿ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ۝ ﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويمدحها عداً ، ويسجزهم بها أوفر الجزاء ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ ﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل .

﴿ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَرِيقًا فَرِيقًا لِنُذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُذِرَ يَوْمَ الْبَيْتِ لِقَاءِ رَبِّهِمْ فَرِيقٌ فِي الْحَشَّةِ وَفَرِيقٌ فِي الشَّجَرَةِ ۝ وَكَذَلِكَ اللَّهُ يَجْلَسُكُمْ أُمَّةً وَبَدَةً وَلَكِنَّ يَتَذَكَّرُ مَنْ يَشَاءُ ۝ وَكَذَلِكَ يَنْزِلُ الْوَحْيُ ۝ ﴾ . يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَرِيقًا فَرِيقًا ۝ ﴾ أي واضمحاً جليلاً بينا ﴿ لِنُذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ۝ ﴾ وهي مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ۝ ﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً ، وسميت مكة أم القرى ؛ لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها ، ومن أوجز ذلك وأدله ما قال عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » ^(٢) . وقوله ﴿ وَكَذَلِكَ يَنْزِلُ الْوَحْيُ ۝ ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد . قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ۝ ﴾ أي لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة ، وقوله جل

(١) أخرجه البخاري في هذه الحلق (٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٤) والترمذي في السنن (٣٩٢٥) والحاكم في المستدرک (٧/٣) والترمذي في السنن (٢٣٩/٢) .

وعلا : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ رَبُّكَ يُسَبِّحُ لِلْحَمْدِ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي يغني أهل الجنة أهل النار ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » قلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله . قال ﷺ للذي في يمينه : « هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم - ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » - ثم قال ﷺ للذي في يساره : « هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه ؟ قال رسول الله ﷺ : سدودوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يخدم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يخدم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أي عمل » ثم قال ﷺ بيده فقبضها ثم قال : « فرغ ربكم ﷻ من العباد » - ثم قال باليمين فنذب بها فقال - « فريق في الجنة - ونذب باليسرى وقال - فريق في السعير » ^(١) وعن أبي نضرة قال : إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له : أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يبكي ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ : « خذ من شاربك ثم أفره حتى تلقاني ؟ » قال : بلى ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى قبض يمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى قال : هذه لهله ، وهذه لهله ولأهالي » فلا أدري في أي القبضتين أنا ^(٢) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَوْنَتْ سَكَنًا لَّكُمْ وَرَبُّكُمْ أَنَّهُ رِيحٌ ﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة ، ولكنه تعالى فاوت بينهم ، فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ الْبَيْتِ مَنْ يَشَاءُ وَالَّذِينَ يَخِلَفُوا مَا لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَا يُصِيرُ ﴾ .

عن ابن حجرية أنه بلغه أن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب خلقتك ، الدين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار ، لوما أدخلتهم كلهم الجنة ؟ فقال : يا موسى ارفع درعك ، فرفع ، قال : قد رفعت ، قال : ارفع ، فرفع ، فلم يترك شيئاً ، قال : يا رب قد رفعت ، قال : ارفع ، قال : قد رفعت إلا ما لا خير فيه ، قال : كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه ^(٣) .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ مِنْ دُونِهِ آيَةً فَآلَهُ هُوَ الْحَكِيمُ وَهُوَ يَحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠ وَبَا أَسْأَلُكُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَهَكَذَا هُوَ اللَّهُ رَبُّكُمْ إِلَهُكُمْ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١١ قَابِطُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَمَلٌ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا مِمَّنْ الْأَمْثَلُ أَنْزَلَكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَيْفِيهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١٢ لَمْ يَمْلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ يَسْطَرُ السَّمَاءَ لَئِنْ يَشَاءُ لَنَمْسَسَنَّ السَّمَاءَ بِدُخَانٍ ثُمَّ يَكُونُ غُيُومًا ١٣ ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ومخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنفي العبادة إلا له وحده ، فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير . ثم قال ﷻ : ﴿ وَبَا أَسْأَلُكُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَهَكَذَا هُوَ اللَّهُ رَبُّكُمْ إِلَهُكُمْ ﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عالم في جميع الأشياء ﴿ فَهَكَذَا هُوَ اللَّهُ رَبُّكُمْ إِلَهُكُمْ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٢) وإبراهيم في السنن (٢١٤١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٤) والألباني في الصحيحة (٤٧) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٢٥) .

إِلَى اللَّهِ ﴿ أَيُّهُوَ الْحَاكِمُ فِيهِ بَكَايَاهُ وَسِنَةُ نَبِيِّهِ ﷺ ﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي ﴿ أَيُّ الْحَاكِمِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿ أَيُّ أَرْجِعُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ قَالُوا السَّعَاتُ وَالْآزِنُ ﴾ أَيُّ خَالِقَهُمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أَيُّ مِنْ جَنْسِكُمْ وَشَكْلِكُمْ مِّنْ عَلَيْكُمْ وَتَفَضُّلاً جَعَلَ مِنْ جَنْسِكُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿ وَمِنَ الْآلَتِمْ أَزْوَاجًا ﴾ أَيُّ وَخَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ يَذَرُكُمْ فِيهِ ﴾ أَيُّ يَخْلُقُكُمْ فِيهِ أَيُّ فِي ذَلِكَ الْخَلْقِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَزَالُ يَدْرُكُمْ فِيهِ ذَكَرًا وَإِنَاثًا خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَنَسْلًا بَعْدَ نَسْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ ﴿ لَيْسَ كَيْفِيهِ شَيْءٌ ﴾ أَيُّ لَيْسَ كَخَالِقِ الْأَزْوَاجِ كُلِّهَا شَيْءٌ ؛ لِأَنَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ﴿ وَمَنْ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَلِدْ أَلَمْ يَكُنْ وَالْآزِنُ ﴾ الْمَخْصَرُفُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا ﴿ يَسْطُرُ الزَّيْفَ لِمَنْ يَكْفُرُ ﴾ أَيُّ يُوسِعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيَضِيقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ التَّامُ ﴿ إِنَّهُ يَكْنِى شَيْءٌ عَظِيمٌ .

﴿ تَرَجَّعَ لَكُمْ مِّنَ الْإِنْيَا مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ كَذَّبَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَنْ أُبْلِغَ مُدَّتُهُمْ دَينَهُمْ وَلَئِنْ لَّمْ يَرَوْا آيَاتِنَا أَنْ يَكْتُبَ مِنْ بَيْنِهِمْ لَبَيِّنَاتٌ مِّنْ رَبِّكَ وَمَا يَشَاءُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

يقول تعالى لهذه الأمة أن أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم وهو محمد ﷺ . ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم : وهم إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم . وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة والدين والذي جاء به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال ﷻ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُفِذَ إِلَيْهِ مَا لَهُ إِلَّا أَنْ يَفْعَلُ مَا يُلَاحِظُونَ ﴾ . وفي الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد ، » (١) أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ كَذَّبَ عَلَى الْإِنْيَا الَّذِينَ لَا تَنْفَرُوا فِيهِ ﴾ أَيُّ وَصَّى اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْإِتِّلَافِ وَالْجَمَاعَةِ . وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِفْتِرَاقِ وَالْإِخْتِلَافِ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ كَذَّبَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أَيُّ شَقَّ عَلَيْهِمْ وَأَنْكَبُوا مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ مِنَ التَّوْحِيدِ . ثم قال ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ الْهَدَايَةَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَيَكْتَسِبُ الضَّلَاةَ عَلَى مَنْ أَثَرَا عَلَى طَرِيقِ الرُّشْدِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أَيُّ إِنَّمَا كَانَ مَخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ بَعْدَ بَلَاغِهِ الْبَيِّنِ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ وَالْعِنَادُ وَالْمَشَاقَّةُ . ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَنْ أُبْلِغَ مُدَّتُهُمْ دَينَهُمْ ﴾ أَيُّ لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِإِنظَارِ الْعِبَادِ بِإِقَامَةِ حَسَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَعَجَلُ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا سَرِيعًا . وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهَا : ﴿ وَلَئِنْ لَّمْ يَرَوْا آيَاتِنَا أَنْ يَكْتُبَ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ يَعْنِي الْجِيلَ الْتَّخِرُ بَعْدَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمَكْذُوبِ لِلْحَقِّ ﴿ لَبَيِّنَاتٌ مِّنْ رَبِّكَ وَمَا يَشَاءُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أَيُّ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَإِنَّمَا هُمْ مَقْلُدُونَ لِأَبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَهُمْ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَشَكٍّ مَّرِيبٍ وَشَقَاقٍ بَعِيدٍ .

﴿ فَبَيِّنَاتٍ قَادِحٌ وَأَسْتَفْتَمُ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَلْبِغُ أَعْرَافَهُمْ وَقُلْ مَا نَسْتُمْ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُثِرَتْ لِأَقْوَالِ

الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام ، لعنه الله وقبحه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ ﴾ أي لموجلوا بالعقوبة لولا ما تقدم من الإنذار إلى يوم المعاد ﴿ وَإِنَّ الْقَائِلِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي شديد موجه في جهنم وفي المصير . ثم قال تعالى : ﴿ تَرَى الْقَائِلِينَ مُتَشَفِّعِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وَرَوَّافِينَ بِهِمْ ﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لامحالة هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الحرف والوجل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ وَفِيهِمْ نَجْوَاهُمْ ﴾ فإين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في العرصات في النل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه من هو في روضات الجنات فيما يشاء من مأكول ومشارب وملابس ومسكن ومناظر ومناجح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابقة الشاملة العامة .

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَشْتَكُ عَلَيْهِ كَيْفَ إِلَّا السَّوْدَةَ فِي الْقُرْآنِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ أَيْنَ شَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَكُورٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَحْمِلِ عَلَى قَلْبِكَ وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُبَدِّلْ مِنْهُ وَيُخَيِّرْ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الشَّيْءَ ۝ ﴾ .

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لامحالة بيشارة الله تعالى لهم به . وقوله ﴿ قُلْ لَا أَشْتَكُ عَلَيْهِ كَيْفَ إِلَّا السَّوْدَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطوني ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتنبؤوني بأبلغ رسالات ربي إن لم تنصروني ، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . عن ابن عباس ؓ أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا السَّوْدَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ فقال سعيد بن جبير : قري آل محمد ، فقال ابن عباس : عجبت ، إن النبي ﷺ : لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : « إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة » ^(١) .

وعن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال : « لا أسألكم على ما آتيتكم من البيئات والهدى أجراً إلا أن تودوا الله تعالى ، وأن تقرروا إليه بطاعته » ^(٢) .

وعن أبي الدلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين ؓ أسيراً فأقيم على درج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة ، فقال له علي بن الحسين ؓ : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم ، قال : أقرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم ؟ قال : ما قرأت ؟ قال : لا أَشْتَكُ عَلَيْهِ كَيْفَ إِلَّا السَّوْدَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴿ قال : وإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم . عن ابن عباس ؓ قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا ، وكأنهم فخرنا ، فقال ابن عباس أو العباس ؓ - شك عبد السلام - : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال : « يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذنل فاعزكم الله بي ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال ﷺ : ألم

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨/٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨/١) والحاكم في المستدرک (٤٤٤/٢) والطبراني في الكبير (٩١/١) .

تكونوا ضلّالاً فهذاكم الله بي ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال ﷺ : « أفلا تحييونني ؟ » قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : « ألا تقولون ألم يخرجكم قومك فأوينك ، أولم يكذبوك فصدقنا ؟ أولم يخذلوك فصرناك ؟ » قال : « فما زال ﷺ يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا في أيدينا لله ولرسوله ، قال : فنزلت ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نَقُولُ فِي الْغَيْبِ ﴾ (١) .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض » (٢) . وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، إن قريباً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم يبشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ، قال : فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال : « والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحكيكم لله ورسوله » (٣) .

عن ابن عمر رضيهما عن أبي بكر - هو الصديق - ﷺ قال : اربقوا محمداً ﷺ في أهل بيته (٤) . وفي الصحيح : أن الصديق ﷺ قال لعلي ﷺ : والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي (٥) . وقال عمر بن الخطاب للعباس رضيهما : والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن إسلامك كان أحب إلي رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . فقال الشيعين رضيهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين رضيهما وعن سائر الصحابة أجمعين .

وعن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم رضيهما ، فلما جلسنا إليه قال حصين : لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه ، لقد رأيت يازيد خيراً كثيراً ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ ، فقال : يا ابن أخي لقد كبرسني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوه ، وما لا فلا تكلفوني ، ثم قال ﷺ : قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فبنا بما يدعى خُفّاً بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ ، ثم قال ﷺ : « أما بعد ، أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ، وقال ﷺ : « وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي فقال له حصين : ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : إن نساءه لسن من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس رضيهما ، قال : أكل هؤلاء حرم عليه الصدقة ؟ قال : نعم (٦) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٣/٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) وأحمد في مسنده (١٧/٣) وإمام في المشترك (١٤٨/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٧/١) وهرملي في السنن (٣٧٥٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٨/١) .

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) وأحمد في مسنده (٣٦٧/٤) والبيهقي في السنن (١٤٨/٢) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٦/٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَفْقَرِ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ بِهَا حَسَنًا ﴾ أي ومن يعمل حسنة نزل له فيها حسنة أي أجراً وثواباً ، وقال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها .
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ذَكُورٌ ﴾ أي يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر ، وقوله جل وعلا : ﴿ لَمْ يَقُولُوا لَقَدْ قَالَ اللَّهُ كَذِبًا إِنَّ بَنِيَّ اللَّهُ يُحِبُّونَ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أي لو افترت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يُحِبُّونَ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أي يطبع على قلبك ، وسليك ما كان آتاك من القرآن .

وقوله جل عظمته : ﴿ وَسَمِعَ اللَّهُ أُنْثِيلَ ﴾ ليس معطوفاً على قوله ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ فيكون مجزوماً بل هو مرفوع على الابتداء ، قاله ابن جرير ، قال : وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام ، كما حذفت في قوله : ﴿ سَمِعَ الْأُنْثِيلَ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَيُحِبُّ لَمْ يَكُنْ يَكُونُ ﴾ معطوف على ﴿ وَسَمِعَ اللَّهُ أُنْثِيلَ ﴾ يُحِبُّ لَمْ يَكُنْ أي يحققة وبشته وبينه ويوضحه بكلماته ، أي بحججه وبراهينه ﴿ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَّابِ السُّدُورِ ﴾ أي بما تكنه الضمائر وتطوي عليه السرائر .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْمَلُ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿ وَتَسْتَجِيبُ الَّذِينَ دَعَاوُا وَغَمَلُوا الْفَتِيلَةَ وَيَرْبِطُهُمْ بَيْنَ قَتْلِهِمْ وَالْكَافِرُونَ لَمْ يَكُنْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿ وَكَوْنُ سَمِعَ اللَّهُ الْأَرْزَاقَ لِيَكُونُوا لِقَا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ يَقْدِرُ مَا يَفْتَهُ اللَّهُ لِيَكُونُوا حَيْرٌ بِيَوْمِهِ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ سَمَاءٍ مَا تَحْتَلُونَ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيلُ الْحَمِيدُ ﴾ .

يقول تعالى ممثلاً على عبادته بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه : أنه من كرمه وحلمه أن يغفر ويصفح ويستتر ويغفر ، وقد ثبت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لله تعالى أشد فرحاً بعودة عبده حين يوتب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأثى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » ^(١) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَتَقَرُّوا عَنِ الْفِتَنِ ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ، ويغفر عن السيئات في الماضي ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتهم وقتلتم ومع هذا يوتب على من تاب إليه .
وقوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَجِيبُ الَّذِينَ دَعَاوُا وَغَمَلُوا الْفَتِيلَةَ ﴾ قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم ، وحكاها عن بعض النحاة ، عن سلمة بن سبرة قال : خطبنا معاذ ﷺ بالشام ، فقال : أتمتم المؤمنون وأتمم أهل الجنة ، والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة ؛ وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدهم عملاً - قال : أحسنت رحمك الله ، أحسنت بارك الله فيك ، ثم قرأ ﴿ وَتَسْتَجِيبُ الَّذِينَ دَعَاوُا وَغَمَلُوا الْفَتِيلَةَ وَيَرْبِطُهُمْ بَيْنَ قَتْلِهِمْ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَمْ يَكُنْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لما ذكر المؤمنين ومآلهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين ومآلهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم .
وقوله تعالى : ﴿ وَكَوْنُ سَمِعَ اللَّهُ الْأَرْزَاقَ لِيَكُونُوا لِقَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً . وقال قتادة : كان يقال خير

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢) وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .

العيش مالا يلهيك ولا يبطيك . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَكِنْ يَوَدُّ بَقْدَرُ مَا يَسْأَلُكُمْ فِيهِ الْبَاطِلُ بَعِيدٌ ﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر ، كما جاء في الحديث المروي : « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْقَيْتَ مِنْ بَيْنِ مَا قُنُطُوا ﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه . وقوله ﷻ : ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً قال لعمرو بن الخطاب ﷺ : يا أمير المؤمنين قحط المطر وقط الناس . فقال عمر ﷺ : مطرتم ، ثم قرأ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْقَيْتَ مِنْ بَيْنِ مَا قُنُطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ وهو المتصرف لخلقها بما ينفعهم في دنياهم وأخرهم ، وهو الحمد العاقبة في جميع ما قدره ويفعله .

﴿ وَزَيْنَ الْعَالَمِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ كَلْبٍ وَهُوَ عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذَا يَسْأَلُ قَدِيرٌ ﴾ وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ كَيْفَا كَسَبَتْ آفِيدَتُكُمْ وَيَعْلَمُ عَنْ كَبِيرِ ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْآلَمِينَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ آفَاتِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَزَيْنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الدالة على عظمتها وقدرته العظيمة وسلطانها القاهر ﷻ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا أي ذرأ فيهما أي في السموات والأرض ﷻ من كَلْبٍ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وقد فرفهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﷻ وَهُوَ ﷻ ، مع هذا كله ﷻ عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذَا يَسْأَلُ قَدِيرٌ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ كَيْفَا كَسَبَتْ آفِيدَتُكُمْ ﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم ﷻ وَيَعْلَمُ عَنْ كَبِيرِ ﷻ أي من السيئات ، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﷻ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِكُمْ مِنْ دَابَّةٍ وفي الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياهم حتى الشوكة يشاكها » (٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها » (٣) .

وعن الضحاك قال : ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بلذنب ، ثم قرأ الضحاك ﷻ وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ كَيْفَا كَسَبَتْ آفِيدَتُكُمْ وَيَعْلَمُ عَنْ كَبِيرِ ﷻ ثم يقول الضحاك : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

(١) ذكره ابن أبي حاتم في حل الحديث ٣٢/١ .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤١) وسلم في البر (٥٢) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والوصف والرجوع اللازم الثابت ،

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٦) .

والنصب : الصب .

ليتساعدوا بأرأئهم في مثل الحروب وما جرى مجراها ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ، ليطيب بذلك قلوبهم ، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضيه الله الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم : عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم رضي الله عنهم ﴿ وَبِمَا نَنْهَيْتُم بِئُتُوهُ ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب .

وقوله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ ثُمَّ يُتَّبِعُونَ ﴾ أي فيهم قوة الانتصار من ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالمعجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام من بنى عليهم ، فإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته ﴿ لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الذِّمَّ بِتَفْهُرٍ إِنَّهُ كُتِّمٌ ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام ، وكذلك عفوه ﷺ عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اختلط سيفه وهو نائم فاستيقظ ﷺ وهو في يده مصلاً فاتتهره ، فوضعه من يده وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه ^(١) ، وكذلك عفا ﷺ عن لبيد ابن الأعصم الذي سحره ﷺ ، مع قدرته عليه ، وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الحيري الذي قتله محمود بن مسلمة - التي سمت الذراع يوم خيبر - فأنشبه الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال ﷺ : « ما حملك على ذلك ؟ » قالت : أردت إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك ، فأطلقها عليه الصلاة والسلام ولكن لما مات منه بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به ^(٢) ، والأحاديث والأثار في هذا كثيرة جداً .

﴿ وَكَرَّوْا سَيْتَرَ سَيِّئَةٍ نَّهَلْنَا عَنْكَ فَلَمَّا جَاءَهُ عَلَى نَفْسٍ لَّا يَحِيبُ الْغَلِيلِينَ ۝ وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عَلَيْكُمْ زَيْنُ سَيْدِلٍ ۝ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الَّذِينَ يَتْلُونَ الْكَافِرَ وَيَتَوَقَّؤْنَ فِي الْأَرْضِ وَيَمْنَعُونَ الْحَقَّ أَتُؤْتِيهِمْ لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَكِنْ صَبَرُوا وَعَفَى رَبُّكَ إِنَّ ذَلِكَ كَيْدٌ عَصَى الْكَاذِبِ ۝ ﴾ .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَرَّوْا سَيْتَرَ سَيِّئَةٍ نَّهَلْنَا عَنْكَ فَلَمَّا جَاءَهُ عَلَى نَفْسٍ لَّا يَحِيبُ الْغَلِيلِينَ ۝ وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عَلَيْكُمْ زَيْنُ سَيْدِلٍ ۝ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الَّذِينَ يَتْلُونَ الْكَافِرَ وَيَتَوَقَّؤْنَ فِي الْأَرْضِ وَيَمْنَعُونَ الْحَقَّ أَتُؤْتِيهِمْ لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَكِنْ صَبَرُوا وَعَفَى رَبُّكَ إِنَّ ذَلِكَ كَيْدٌ عَصَى الْكَاذِبِ ۝ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ فَتَنَّا عَنْ يَمِينِهِمْ فَيَسْأَلُهُمْ أَلَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عَلَيْكُمْ زَيْنُ سَيْدِلٍ ۝ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الَّذِينَ يَتْلُونَ الْكَافِرَ وَيَتَوَقَّؤْنَ فِي الْأَرْضِ وَيَمْنَعُونَ الْحَقَّ أَتُؤْتِيهِمْ لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَكِنْ صَبَرُوا وَعَفَى رَبُّكَ إِنَّ ذَلِكَ كَيْدٌ عَصَى الْكَاذِبِ ۝ ﴾ .

ثم قال جل وعلا : ﴿ وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عَلَيْكُمْ زَيْنُ سَيْدِلٍ ۝ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الَّذِينَ يَتْلُونَ الْكَافِرَ وَيَتَوَقَّؤْنَ فِي الْأَرْضِ وَيَمْنَعُونَ الْحَقَّ أَتُؤْتِيهِمْ لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَكِنْ صَبَرُوا وَعَفَى رَبُّكَ إِنَّ ذَلِكَ كَيْدٌ عَصَى الْكَاذِبِ ۝ ﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار من ظلمهم . عن عروة ، قال : قالت عائشة رضي الله عنها : ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبي ، ثم قالت لرسول الله ﷺ : حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها ، ثم أقبلت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١١/٣) والبيهقي في السنن (٣١٩/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/١) وإمام في المستدرک (٤٨٢/١) وابن ماجه في السنن (٢٠٦٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٢٩) ومالك في الموطأ (١٢) وأحمد في مسنده (٢٨٩/٢) .

علي فأعرضت عنها ، حتى قال النبي ﷺ : « دونك فانتصري » فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قد يس في فمها ماترد علي شيئا ، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه ^(١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » ^(٢) . وقوله ﷺ : ﴿ إِنَّا التَّائِبُونَ ﴾ أي إنما الحرج والعنت ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَتْلُونَ آتَانَ وَيَتَوَنُّونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُهُمُ الْغَوْ ﴾ أي يبدعون الناس بالظلم ، كما جاء في الحديث الصحيح : « المستبان ما قالا ، فعلى البادئ ما لم يمتد للظلم » ^(٣) ﴿ أَوَلَيْسَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي شديد موجه .

ثم إن الله تعالى ، لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص ، قال نادبا إلى العفو والصفح : ﴿ وَكَانَ صَبْرًا وَتَوَكَّلْ ﴾ أي صبر على الأذى ، وستر السيرة ، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَئِنْ عَزَّرَ الْأَمْرُ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها ، أي لمن الأمور المشكورة ، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل ، وثناء جميل .

قال الفضيل بن عياض : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلا ، فقل : يا أخي اعف عنه ؛ فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال : لا يحتمل قلني العفو ، ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ ، فقل له : إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو ؛ فإنه باب واسع ؛ فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينال على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلا شتم أبا بكر ﷺ والنبي ﷺ جالس ، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتعجب ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي وقام ، فلاحقه أبو بكر ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال : « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان - ثم قال : « يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق : ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله ؛ إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فزع رجل باب عطية يريد بها صلة ؛ إلا زاده الله بها كثرة ، وما فزع رجل باب مسألة يريد بها كثرة ؛ إلا زاده الله ﷻ بها قلة » ^(٤) .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُ يَجْعَلُ لِّلْمُضِلِّينَ لُكْمًا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مَرَّةٌ مِّنْ سَعِيدٍ ۝ وَرَبُّهُمْ يُمَرِّضُونَهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ خَبَرُهُمْ مِنَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْهُمْ وَكَانَ الَّذِينَ كَانُوا بِإِنَّ الْقَبْرِ الَّذِينَ خَيْرًا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا لَئِنْ أَلْفَلَكِيَّيْنَ فِي عَذَابٍ مُّضِيِّ ۝ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُصْرِعُهُمْ يَوْمَ دُحْرِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ ۝ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولأراد له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ، ومن يضل الله فلا هادي له ، ثم قال ﷻ مخبرا عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿ لَّئِنَّا رَأَاكَ الْعَذَابِ ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مَرَّةٌ مِّنْ سَعِيدٍ ۝ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٣/٦) وابن ماجه في السنن (١٩٨١) والأياني في المصحفة (١٨٦٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٥٢) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٨) وأبو داود في السنن (٤٨٩٤) وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) والترمذي في السنن (١٩٨١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٦/٢) وأبو داود في السنن (٤٨٩٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ النَّبِيِّينَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ۱ ۝ وَإِلَهُ فِي أُولَى الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَمَلِكٌ ۝ حَكِيمٌ ۝ ۲ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَافِحًا أَمْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا نُنَزِّلُ ۝ ۳ ۝ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّهِ ۝ ۴ ۝ فَالْمَلَكُ أَشَدُّ بِطَانًا ۝ وَمَعْنَى مَثَلِ الْأَوَّلِينَ ۝ ۵ ۝ .

يقول تعالى : ﴿ حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ النَّبِيِّينَ ۝ ﴾ أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ۝ ۱ ۝ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۝ ۲ ۝ ﴾ أي بلغة العرب فصيحًا واضحًا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تفهمونه وتندبرونه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُ فِي أُولَى الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَمَلِكٌ ۝ ۳ ۝ ﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض ، فقال تعالى : ﴿ وَإِلَهُ ۝ ۴ ۝ ﴾ أي القرآن ﴿ فِي أُولَى الْكِتَابِ ۝ ۵ ۝ ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ۝ ۶ ۝ ﴾ أي عندنا ، ﴿ لَمَلِكٌ ۝ ۷ ۝ ﴾ أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ﴿ حَكِيمٌ ۝ ۸ ۝ ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ . وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُ لَنَزَّاهٌ ۝ ۹ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ ۱۰ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ ۱۱ ۝ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَّبَ ۝ ۱۲ ۝ أَتَى ۝ ۱۳ ۝ قُلُوبَهُمْ ۝ ۱۴ ۝ مِمَّنْ ثَمَّةٌ كَلِمَةٍ ۝ ۱۵ ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ ۱۶ ۝ رُفُوفٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ ۱۷ ۝ يُبَيِّنُ سِرَّهُ ۝ ۱۸ ۝ كَرِيمٌ ۝ ۱۹ ۝ ﴾ ولهذا استنبط العلماء من هاتين الآيتين ان المحدث لا يمس المصحف كما ورد به الحديث إن صح ، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى ، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى ؛ لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم ، والانقياد له بالقبول والتسليم ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُ فِي أُولَى الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَمَلِكٌ ۝ حَكِيمٌ ۝ ۲ ۝ .

وقوله ﴿ ۱۰ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَافِحًا أَمْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا نُنَزِّلُ ۝ ۱۱ ۝ ﴾ : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَافِحًا ۝ ۱۰ ۝ ﴾ : اختلج المفسرون في معناها ، فقيل : معناها المحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير ، وقال قتادة : والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائده ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو مائتين من ذلك ، وقول قتادة لطيف المعنى جدًا ، وحاصله أنه يقول في معناه : أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن ، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدي به من قدر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته .

ثم قال جل وعلا مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه وأمرًا له بالصبر عليهم ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍِّّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ ۱ ۝ ﴾ أي في شيع الأولين ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍِّّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ ۲ ۝ ﴾ أي يكذبونه ويسخرون به . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَالْمَلَكُ أَشَدُّ بِطَانًا ۝ ۳ ۝ ﴾ أي فأهلنا المكذبين بالرسول ، وقد كانوا أشد بطشًا من هؤلاء المكذبين لك يا محمد .

وقوله ﴿ ۴ ۝ وَمَعْنَى مَثَلِ الْأَوَّلِينَ ۝ ۵ ۝ ﴾ قال مجاهد : ستمهم . وقال قتادة : عقوبتهم .

﴿ وَلَيْسَ سَأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ① ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَمْ تَكُنْ لَكُمْ سُبُلًا لَمْ تَكُنْ تَهْتَدُونَ ② ﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهُنَّ ③ ﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَالِكِ الْآفَتِينَ مَا تَرْجُونَ ④ ﴾ لَيْسُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ شئٌ تَذْكُرُونَهَا يَتَمَتَّعُونَ فِيكُمْ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ وَيَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ⑤ ﴾ وَلَئِن لَّا يَدْعُوا لَنَا لَسَفِيلُونَ ⑥ .

يقول تعالى : ولئن سألت يامحمد هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ مَن خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يبدلون معه غيره من الأصنام والأنداد . ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي فرأشا قرارًا ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتنصرفون ، مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجهال فلا تميد هكذا ولا هكذا ﴿ وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي طرقًا بين الجبال والأودية ﴿ لَمْ تَكُنْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي في سيركم من بلد الى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ ﴾ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا ﴾ أي أرضًا ميتة ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، فقال : ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُوهُنَّ ﴾ ثم قال ﴿ كَذَلِكَ ﴾ : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك . ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَالِكِ الْآفَتِينَ ﴾ أي السفن ﴿ وَالْآفَتِينَ مَا تَرْجُونَ ﴾ أي ذلها لكم وسخرها ويسرها لأللكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ لَيْسُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ شئٌ تَذْكُرُونَهَا ﴾ أي لستوا متمكنين مرتفعين ﴿ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ﴿ شئٌ تَذْكُرُونَهَا ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ وَيَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مقامين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه . قال ابن عباس وقادة والسدي : مقربين ، أي مطبقين ﴿ وَلَئِن لَّا يَدْعُوا لَنَا لَسَفِيلُونَ ﴾ أي لصاقرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الديوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَرُوا قُلُوبَهُمْ حَتَّىٰ اتَّوَاكُفُّوا ﴾ وبالبلايا الديوي على الأخروي في قوله تعالى : ﴿ وَبَدَّأُوا قُلُوبَهُمْ حَتَّىٰ اتَّوَاكُفُّوا ﴾ .

ذكر الاحاديث الواردة عند ركوب الدابة : عن عبد الله بن عباس ؓ ، قال : إن رسول الله ﷺ أُرِدَّه على دابته ، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثًا ، وحمد ثلاثًا ، وسبح ثلاثًا ، وهلل واحدة . ثم استلقى عليه وضحك ، ثم أقبل عليه فقال : « ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت ، إلا أقبل الله ﷻ عليه ، فضحك إليه كما ضحكك إليك » (١) .

وعن عبد الله بن عمر ؓ قال : إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثًا ثم قال : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ⑤ ﴾ وَلَئِن لَّا يَدْعُوا لَنَا لَسَفِيلُونَ ﴾ ثم يقول : « اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا السفر واطو لنا البعيد ،

اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ، اللَّهُمَّ اصْبِرْنَا فِي سَفَرِنَا وَاخْلُقْنَا فِي أَهْلِنَا .
وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : « أَيُّون تَأْتِيُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ » (١) .

عن أبي لاس الخزاعي قال : حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج ، فقلنا : يا رسول الله ما نرى أن تحملنا هذه ، فقال له ﷺ : « ما من بعير إلا في ذروته شيطان ، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتوها كما أمركم ، ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله ﷻ » (٢) .

﴿ وَصَلُّوا لَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ جَزَاءً لِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِكُلِّ نَبِيٍّ ۝ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ مِنَّا مِثْلُ بَنَاتٍ وَأَصْنَعْنَا كَمَا بَيِّنُونَ ۝ وَإِذَا بُرِّرَ أُحَدِّثُ كَمَا يُصْرَبُ لِلرَّحْمَنِ مِثْلًا كُلَّ وَجْهٍ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَلِيمٌ ۝ أَوَلَمْ يَنْتَظِرُوا فِي الْآيَةِ وَعَوِي لِقَاصِرٍ غَيْرِ مُبِينٍ ۝ وَصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّكَ الَّذِي هُمْ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّا شَهِدْنَا خَلَقْنَاهُمْ سَكَتًا سَمِعَتْهُمْ نَفْسُهُمْ وَتَسْتَوُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله تعالى ، وكذلك جعلوا له في قسمة البنات والبنين أحسهما وأردأهما وهو البنات ، كما قال تعالى : ﴿ أَنْتُمْ الْأَكْثَرُ وَالْأَلْفُ ۝ يَلَقَ إِنَّا نَسْنَأُ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ وقال جل وعلا ههنا ﴿ وَصَلُّوا لَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ جَزَاءً لِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ ثم قال جل وعلا : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ مِنَّا مِثْلَ بَنَاتٍ وَأَصْنَعْنَا كَمَا بَيِّنُونَ ﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار . ثم ذكر تمام الإنكار ، فقال جلّت عظمته : ﴿ وَإِذَا بُرِّرَ أُحَدِّثُ كَمَا يُصْرَبُ لِلرَّحْمَنِ مِثْلًا كُلَّ وَجْهٍ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَلِيمٌ ﴾ أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات بأنفس من ذلك غاية الألفه ، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به ، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك ، يقول تبارك وتعالى : فكيف تافنون أنتم من ذلك وتسيبونه إلى الله ﷻ . ثم قال ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَنْتَظِرُوا فِي الْآيَةِ وَعَوِي لِقَاصِرٍ غَيْرِ مُبِينٍ ﴾ أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة ، وإذا خاصمت فلا عبارة لها ، بل هي عاجزة عيبة ، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّكَ الَّذِي هُمْ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّا ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك ، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال : ﴿ أَشْهَدُوا خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أي شاهدهوه وقد خلقهم الله إنائاً ﴿ سَكَتًا سَمِعَتْهُمْ نَفْسُهُمْ وَتَسْتَوُونَ ﴾ أي بذلك ﴿ وَتَسْتَوُونَ ﴾ عن ذلك يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد ووعد أكيد ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ أي لو أراد الله لخال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله ، فإنه عالم بذلك ، وهو يقررنا عليه ، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ : أحدها : جعلهم لله تعالى ولداً ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً .

الثاني : دعواهم أنه اصططفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنائاً .
الثالث : عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ﷻ ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخيوط في الجاهلية الجهلاء .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٤٧) وأبو داود في السنن (٢٥٩٩) والطبري في السنن (٢٨٧/٢) وأحمد في مسنده (١٤٤/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١/٤) والحاكم في المستدرک (٤٤٤/١) وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٤٣) .

وَمَا تَسْجُدُونَ ۝ إِلَّا لِلَّهِ فَكُنْ لَهُ مَسْجُودِينَ ۝ وَتَسْلِمُهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيْدِهِ ۝ أَي هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَيُخَلِّعُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْتَانِ ، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَي جَعَلَهَا دَائِمَةً فِي ذُرِّيَّتِهِ يَقْتَدِي بِهَا فِيهَا مِنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿ تَلْمِزُهُمْ بِحُجَّتِهِ ﴾ أَي إِلَيْهَا . قَالَ عِكْرَمَةُ وَمَجَاهِدُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَتَسْلِمُهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيْدِهِ ﴾ بِعَنِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَزَالُ فِي ذُرِّيَّتِهِ مِنْ يَقُولُهَا ، ثُمَّ قَالَ جُلُّ وَعَلَا : ﴿ بَلْ مَتَّعَتْ هَذِهِ ﴾ بِعَنِي الْمَشْرِكِينَ ﴿ وَتَابَعَتْهُمْ ﴾ أَي : فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعَمْرُ فِي ضَلَالِهِمْ ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْخُلُقُ وَرَسُولٌ ثَبِيثٌ ﴾ أَي بَيْنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْخُلُقُ قَالُوا هَذَا يَحَرُّ وَلَا يَنْبَغُ كَيْفَ يُؤْتَى ﴾ أَي كَابُرُهُ وَعَانِدُهُ وَدَفَعُوا بِالصَّدُورِ وَالرَّاحِ كَفْرًا وَحَسَدًا وَغِيًّا ﴿ وَقَالُوا ﴾ أَي كَالْمُعْضِرِينَ عَلَى الَّذِي أَنْزَلَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْكُتُبُ الْكُتُبُ عَنْ نَبِيِّنَا لَكُنَّا أَفْهَمِينَ عَظِيمٌ ﴾ أَي هَلْ كَانَ أَنْزَالَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الْقَرِيبِينَ ؟ يَعْنُونُ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : لَأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ وَعُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِي . وَعَنْ مَجَاهِدٍ : يَعْنُونُ عَمِيرَ بْنَ عَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِي . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : جَبَّارًا مِنْ جَبَابِرَةِ قُرَيْشَ ، وَعَنْهُ أَنَّهُمْ يَعْنُونُ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ وَحَبِيبَ بْنَ عَمْرِو بْنِ عَمِيرِ الثَّقَفِي ، وَعَنْ مَجَاهِدٍ : يَعْنُونُ عَتَبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ بِمَكَّةَ وَابْنَ عَبْدِ يَالِيلَ بِالطَّائِفِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَرَادَهُمْ رَجُلًا كَبِيرًا مِنْ أَيِّ الْبَلَدَتَيْنِ كَانَ . قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَاثًا عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْإِعْتِرَاضِ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ يَتَذَكَّرُ ﴾ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ مُرَدُّوًا إِلَيْهِمْ . بَلْ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْزِلُهَا إِلَّا عَلَى أَزْكَى الْخَلْقِ قَلْبًا وَنَفْسًا ، وَأَشْرَفِهِمْ بَيْتًا ، وَأَطْهَرِهِمْ أَصْلًا .

ثُمَّ قَالَ ﷻ مِثْلًا أَنَّهُ قَدْ فَاوَتْ بَيْنَ خَلْقِهِ فِيمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، قَالَ : ﴿ عَن قَسَمَاتِنَا يَنْتَهِي مَيْشَرُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ ﴿ لَنَجْذِبَهُمْ إِلَيْنَا سَخِرًا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ لَيَسْخَرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فِي الْأَعْمَالِ لِاحْتِيَاجِ هَذَا إِلَى هَذَا ، وَهَذَا إِلَى هَذَا . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ وَرَبَّمَتْ رَبُّكَ حَيْرًا مِمَّا يَجْتُمِعُونَ ﴾ أَي رَحِمَهُ اللَّهُ بِخَلْقِهِ خَيْرَ لَهُمْ مِمَّا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا أَنَّهُ يَكُونُ أَنْفَاشُ أُمَّةٍ وَجِدَّةٍ ﴾ أَي لَوْلَا أَنَّهُ يُعْتَقَدُ كَثِيرِينَ مِنَ النَّاسِ الْجَهْلَةَ أَنَّ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ دَلِيلٌ عَلَى مُحِبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكَفْرِ لِأَجْلِ الْمَالِ ﴿ لَنَمْلِكَنَّ لِنَنْتَكِرَ بِالْإِنْسَانِ لِيُؤْتِيَهُمْ سَفَاقًا مِمَّنْ يَفْضَحُ وَمَتَاعًا ﴾ أَي سَلَامًا وَدَرْجًا مِنْ فَضْةٍ ﴿ عَلَيْنَا يَنْظُرُونَ ﴾ أَي يَصْعَدُونَ ﴿ وَيُؤْتِيَهُمْ آيَاتِنَا ﴾ أَي أَغْلَاقًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ ﴿ وَنُرِيكَ عَلَيْنَا يَنْظُرُونَ ﴾ أَي جَمِيعَ ذَلِكَ يَكُونُ فَضْةً ﴿ وَنُشْرَفًا ﴾ أَي وَهْجًا .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَنْ صُكِّلَ ذَلِكَ لَنَا مَتَّعَ لِمَتَّعَ الدُّنْيَا ﴾ أَي إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، أَي يَجْعَلُ لَهُمْ بِحَسَنَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مَأْكَلٌ وَمَشَارِبٌ لِيُؤَفِّقُوا الْآخِرَةَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَسَنَةٌ يَجْزِيهِمْ بِهَا . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي هِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ لَا يَشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَعِدَ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ الْمَشْرُبَةِ لَمَّا كَلَى ﷺ مِنْ نَسَائِهِ فَرَأَهُ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ قَدْ أَثَرُ بِجَنْبِهِ ، فَاجْتَلَسَتْ عَيْنَاهُ بِالْبُكَاءِ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كَسْرِي وَيَقْصُرُ فِيمَا هُمَا فِيهِ ، وَأَنْتَ صَفْوَةٌ

الله من خلقه ، وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس وقال : « أوفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ » ثم قال ﷺ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ^(١) . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ؛ ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا ^(٢) » .

﴿ وَنَ يَسْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ قَرِينٌ ﴾ ^(٣) وَأَنْتُمْ لَصَادِقُونَ عَنْ السَّبِيلِ وَتَحْسَبُونَ أَنْتُمْ مُهُتَدُونَ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَكُمَا قَالَ يَلَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بِنْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنَ الْقَرِينُ ﴿ وَلَنْ يَفْعَلَهُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَكْثَرَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكِينَ ﴿ أَفَأَنْتُمْ شَنِيعُ الْفَسَادِ أَمْ تَهْدِي السَّمْعَ وَنَ كَانَتْ فِي صَدْرِكَ شَيْبَةٌ ﴿ فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ تُنْفِقُونَ ﴿ أَوْ يُرْسِلَ إِلَيْنَا وَعَدَّتْهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْنَهُمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿ فَاسْتَسْيِكَ بِالَّذِي أَجَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَائِكَ وَسَوْفَ تُنْشَرُونَ ﴿ وَسَقَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهُهُ يُسَبِّحُونَ .

يقول تعالى : ﴿ وَنَ يَسْ ﴾ أي يتعاضى ويتغافل ويعرض ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ والعشا في العين ضعف بصرها ، والمراد ههنا عشا البصيرة ﴿ نَقِيضٌ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ قَرِينٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَتَهَوَّاهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَنَا خَلَقَهُمْ ﴾ الآية ، ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا : ﴿ وَأَنْتُمْ لَصَادِقُونَ عَنْ السَّبِيلِ فَتَحْسَبُونَ أَنْتُمْ مُهُتَدُونَ ﴾ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَكُمَا ﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى تفيض له من الشياطين من يضلّه ويهديه إلى صراط الحميم . فإذا وافى الله ﷻ يوم القيامة يقرم بالشیطان الذي وكل به ، فقال : ﴿ يَلَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بِنْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنَ الْقَرِينُ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَكُمَا ﴾ يعني القرين والمقارن . والمراد بالمشرقين ها هنا هو ما بين المشرق والمغرب ، وإنما استعمل ها هنا تغليظا كما يقال : القمران والعمران والأبوان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَفْعَلَهُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَكْثَرَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكِينَ ﴾ أي لا ينبغي عنكم اجتماعكم في النار واشتراكم في العذاب الأليم . وقوله جلت عظمته ﴿ أَفَأَنْتُمْ شَنِيعُ الْفَسَادِ أَمْ تَهْدِي السَّمْعَ وَنَ كَانَتْ فِي صَدْرِكَ شَيْبَةٌ ﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ تُنْفِقُونَ ﴾ أي لا يد أن نتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ﴿ أَوْ يُرْسِلَ إِلَيْنَا وَعَدَّتْهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْنَهُمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ، ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصبيهم ، وملكه ما تضمنته صياهم .

وفي الحديث : « والنجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون » ^(٤) ثم قال ﷻ : ﴿ فَاسْتَسْيِكَ بِالَّذِي أَجَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم للوصول إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم .

ثم قال ﷻ : ﴿ وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَائِكَ ﴾ قيل : معناه لشرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس ومجاهد ،

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٣) وأحمد في مسنده (١٤٠/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٢٠) والألباني في الصحيحة (٦٨٦) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٧) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٤) والحاكم في المستدرک (٤٥٧/٣) ومعنى الحديث : أن النجوم مدامات باقية في السماء فإن السماء باقية ، فإذا اكثرت النجوم وتناثرت في السماء وهت السماء فانفطرت وانشتت وهتبت .

وقوله : ﴿ أَزْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ قال السدي : يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين ، وهكذا قال بعض نحاة البصرة : أن أم ههنا بمعنى بل ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها (أما أنا خير من هذا الذي هو مهين) قال ابن جرير : ولو صحت هذه القراءة لكان معناها واضحا ولكنها خلاف قراءة الأمصار فإنهم قرأوا ﴿ أَزْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ على الاستفهام . قلت : وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذب في قوله هذا كذبا بيّنا ، واضحا فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ويعني بقوله مهين كما قال سفيان : حقير ، وقال قتادة والسدي : يعني ضعيف . وقال ابن جرير : يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ ﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عي حصر . قال السدي : ﴿ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ ﴾ أي لا يكاد يفهم . وقال قتادة والسدي وابن جرير : يعني عبي اللسان ، وقال سفيان : يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير ، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق ، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى ﷺ من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يهر أبصار ذوي الألباب .

وقوله : ﴿ مَهِينٌ ﴾ كذب ، بل هو المهين الحقير خلقة وخلقا ودينا ، وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد . وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ ﴾ افتراء أيضا فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل الله ﷻ أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله : ﴿ قَدْ أَنْبَتَ شَوْتُكَ يَهُودِيَّ ﴾ ويتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته ، كما قاله الحسن البصري ، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإربالغ والإفهام ، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها ، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل ، فهو يدري هذا ، وإنما أراد الترويج على رعيته ، فإنهم كانوا جهلة أغبياء ، وهكذا قوله : ﴿ فَكُلُّوا نَفْسًا مِنْ دَنَابٍ ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي ﴿ أَوْ جَذَةً مِنْ دَنَابٍ ﴾ أي يكتفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه ، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْتَحَفَّ ثَوْبَهُ ظُلُمَاتُ الْمَقَابِرِ ﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿ لَأَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَاثِقُوا أَنْفُسَهُمْ فَنُفِثَتْ فَانْفَضَّتْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ عن ابن عباس : ﴿ عَاثِقُوا ﴾ أسخطونا .

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استلراج منه له » ثم تلا ﴿ فَلَمَّا عَاثِقُوا أَنْفُسَهُمْ فَنُفِثَتْ فَانْفَضَّتْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) . وقوله ﷻ : ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ سَفَكًا وَنَكَلًا لِالْآخِرِينَ ﴾ قال أبو مجلز : سلفا لمثل من عمل بعملهم . وقال مجاهد : ﴿ وَنَكَلًا ﴾ أي عبرة لمن بعدهم .

﴿ وَلَمَّا شَرِبَ إِنَّ مَرْيَمَ نَكَلًا إِذَا قَوْمُكُ مِنْهُ يُبْلِغُونَ ﴾ وقالوا ما ألبسنا خيرا إذ هو ما صرّفوك لك إلا جلا بل هو قوم خصمون ٥ إن هو إلا عبد أقمنا عليه صلاتك نكلا لبيبي إسكوبيل ٥ ولو نشاء لجعلنا نكرا

مَلِكِكُمْ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّ لِيَأْمَ لِفَسَافَةٍ فَلَا تَمْنَعُكُم بِهَا وَالْمُؤْمِنُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ لَكُمُ عَدُوٌّ خَبِيرٌ ﴿٥٩﴾ وَلَكِنَّ جَلَّةَ بَاسٍ يَاسِينَ بِالْأَيْتِيبِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُنْذِرَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
تَعْتَذِرُونَ فَبُذِّلُوا قَالُوا اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْكَافِرُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَتَنفَلَتِ الْأَعْرَابُ مِنْ
بَيْتِهِمْ قَوْلًا لِيُؤْذِنَ طَلَبًا مِنْ مَكَايِدِهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْفُجَاءُ ﴿٦١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل ﴿ وَلَكِنَّ صَرِيبَ ابْنِ مَرْيَمَ
مَثَلًا إِنَّا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّوكَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك : يضحكون
أي أعجبوا بذلك ، وقال قتادة : يجزعون ويضحكون . وقال إبراهيم النخعي : يعرضون ، وكان
السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله ﷺ ، فيما
بلغني ، يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي
الجلس غير واحد من رجال قريش ، فكلّم رسول الله ﷺ ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلّمه
رسول الله ﷺ حتى أقعّمه ، ثم تلا عليه ﴿ إِنَّا نَعْبُدُكَ يَا دُونُ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَتَنُورُ
لَهَا وَكَذُوبُكَ ﴾ الآيات . ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبير التميمي حتى جلس ،
فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم
محمد أنا وما نعيد من ألهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله الزبيرى : أما والله لو وجدت
لخصمته ، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعيد الملائكة
واليهود تعبد عزيزاً ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في
الجلس من قول عبد الله بن الزبيرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ
فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إما يعبدون الشيطان ومن
أمرهم بعبادته » فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَ الْإِنسَانِ سَبَّحَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ سَنُعَذِّبُهُمْ ، أَيْ عِيسَى
وعزير ومن عبد معهما من الأحرار والرهبان ، الذين مضوا على طاعة الله ﷻ ، فاتخذهم من بعدهم
من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله
﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِصْيَانُهُمْ لِمَا كُرِهَتْ ﴾ الآيات . ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه
الصلاة والسلام ، وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته ﴿ وَلَكِنَّ
صَرِيبَ ابْنِ مَرْيَمَ مَثَلًا إِنَّا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّوكَ ﴾ أي يصلون عن أمرك بذلك من قوله . ثم ذكر عيسى
عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ اتَّخَذْتُمُوهُ كَلِيبًا يَتَّبِعُهُ مَلَكٌ إِنِّي إِسْمَاعِيلُ ﴾ وَكَوْنُكَ لَنَا
مِنْكُمْ مَلِكِكُمْ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّ لِيَأْمَ لِفَسَافَةٍ ﴿٥٨﴾ أَي ما وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى
وإبراء الأسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول : ﴿ فَلَا تَمْنَعُكُم بِهَا وَالْمُؤْمِنُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

وقوله ﴿ وَقَالُوا مَا إِلَهُهُنَّ إِلَّا خَيْرٌ أَرَّ هُوَ ﴾ قال قتادة : يقولون ألهتنا خير منه .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ مَا ضَرُّهُمْ لَكَ إِلَّا بَدَلًا ﴾ أي مرء ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية ،
لأنها لا ما يعقل ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَعْبُدُكَ يَا دُونُ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴾ ثم هي
خطاب لقريش ، وهم إما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يورده ،

فصبر أن مقاتلتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ مَا سَرُّهُمْ أَنَّ إِلَهَ جَبَلٍ لَّنْ مُّزٍ قَوْمٌ حَصِيدُونَ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْءِدَ الْأَعْدَاءِ لَأَبَدٌ ﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام . ما هو إلا عيد من عباد الله ﷻ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿ وَنَعَلْنَاهُ نَعْلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَمَعْنَاهُ لِنَبِّنَا ﴾ أي بذلكما ﴿ فِي الْأَنْزِيلِ يَنخُلُونَ ﴾ قال السدي : يخلفونكم فيها ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : يخلف بعضهم بعضا كما يخلف بعضهم بعضا ، وهذا القول يستلزم الأول .

وقوله ﷻ : ﴿ وَإِنَّهُ لَيَوْمٌ لِّقَاتِنَا ﴾ أي أمانة ودليل على وقوع الساعة . قال مجاهد : ﴿ وَإِنَّهُ لَيَوْمٌ لِّقَاتِنَا ﴾ أي آية الساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وغيرهم ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماما عادلا وحكما مقسطا .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا مَنَآءَ ﴾ أي لا تشكوا فيها أنها واقعة وكائنه لا محالة ﴿ وَالْأَشْيُرِ ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿ هَكَذَا يَصِرُ الظَّالِمِينَ ﴾ ولا يصدنكم الشيطان أ أي عن اتباع الحق ﴿ إِنَّهُ لَكُرْ عَذُوبٌ عَنِيبٌ ﴾ وَلَئِن جَاءَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بِالْحَقِّ قَدِ جَعَلْنَا بِالْحَقِّ أَهْلًا بِالْبُتْهِ ﴿ أَي بالنبوة ﴾ ﴿ وَلَئِن لَّكُمْ بَعْضُ الْأَمْرِ فَتَعَالَوْا فِيَّ ﴾ قال ابن جرير : يعني من الأمور الدنيوية لا الدنيوية . وقوله ﷻ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ وَتَلَايُونَ ﴾ فيما جتكم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَكَذَا صِرَتُ شَيْئِينَ ﴾ أي أنا وأنتم عبيد له فقرأه إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿ هَكَذَا صِرَتُ شَيْئِينَ ﴾ أي هذا الذي جتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده . وقوله ﷻ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي اخففت الفرق وصاروا شيئا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله . تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ قَالُوا بَيْنَ يَدَيْ يَوْمٍ آلِهِ ﴾ .

﴿ حُلْ يَطْرُقُونَ إِلَّا أَلَمَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَشَرَةٌ مِّمَّنْ لَا يَصْغُرُونَ ﴾ ^(٢) الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُهُمْ بَعْضُهُمْ عَذَابُ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ^(٣) يَتَّبِعُوا لَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا أَشْرَ عَصْرُونَ ^(٤) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا يَعْلَمُونَ ^(٥) أَخْلَوْا الْجَنَّةَ أَشْرَ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ^(٦) تِلْكَ عَلَيْهِمْ بِسْمَلٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَقْلَابٍ وَفِيهَا تَنْتَهِيهِمُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَشْرَ فِيهَا كُرْسِيُّ اللَّهِ ^(٧) وَإِلَى الْجَنَّةِ الْبَابُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ^(٨) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ^(٩) .

يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول ﴿ إِلَّا أَلَمَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَشَرَةٌ مِّمَّنْ لَا يَصْغُرُونَ ﴾ أي فإنها كائنه لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم ، وقوله تعالى : ﴿ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُهُمْ بَعْضُهُمْ عَذَابُ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ أي كل صداقة وصحابة لغير الله فانها تنقلب يوم القيامة علوة ، إلا ما كان لله ﷻ فإنه دائم بدوامه . عن علي رضي الله عنه : ﴿ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُهُمْ بَعْضُهُمْ عَذَابُ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/٢) والترمذي في السنن (٣٢٥٣) والحاكم في المستدرک (٤٤٧/٢) .

يَسْتَضِيءُ سِرَّوْنَ إِلَى اللَّائِيَتِ ﴿٦٦﴾ قال : خليلان مؤمنان و خليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة ، فذكر خليله فقال : اللهم إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أنني ملائكتك ، اللهم فلا تضلني بعدي حتى تريه مثل ما أرئيتي ، وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له : اذهب فلو تعلم ماله عندني لضحككت كثيراً وبكيت قليلاً ، قال : ثم يموت الآخر فتجتمع أرواحهما فيقال : لئيش أحدكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل . وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك . ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويخبرني أنني غير ملائكتك . اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أرئيتي ، وتسخط عليه كما سخطت علي قال : فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : لئيش كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بس الأخ وبس الصاحب وبس الخليل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَتَّبِعُونَ لَكَ لَبَنَاتُ مَائِيَّةٍ وَلَا أَتَتْ حَرْزُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ ثم بشرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ مَاتُوا بِإِيمَانٍ وَكَانُوا مُتَّبِعِينَ ﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم ، قال المحرم بن سليمان عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فرع فينادي مناد ﴿ يَتَّبِعُونَ لَكَ لَبَنَاتُ مَائِيَّةٍ وَلَا أَتَتْ حَرْزُونَ ﴾ فيرجوها الناس كلهم ، قال : فيبعثها ﴿ الَّذِينَ مَاتُوا بِإِيمَانٍ وَكَانُوا مُتَّبِعِينَ ﴾ قال : فيأمن الناس منها غير المؤمنين . ﴿ أَتَتْهُمْ لَبَنَاتُ مَائِيَّةٍ ﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿ أَتَتْهُمْ لَبَنَاتُ مَائِيَّةٍ ﴾ أي نظرواؤكم ﴿ حَرْزُونَ ﴾ أي تتعمون وتسعدون ﴿ يَتَّبِعُونَ لَكَ لَبَنَاتُ مَائِيَّةٍ ﴾ أي زبدي آنية الطعام ﴿ وَكَانُوا مُتَّبِعِينَ ﴾ وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿ وَفِيهَا مَا تشتهي الْأَنْفُسُ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ تشتهي الأنفس ﴾ ^(١) . ﴿ وَتَذُوقُ الْأَعْيُنُ ﴾ أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة من له سبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة ، وإن له ثلثمائة خادم ، ويفدى عليه وبزاح كل يوم بثلمائة صحفة - ولا أعلمه إلا قال : من ذهب ، في كل صحفة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، ومن الأشربة لثلثمائة إناء في كل إناء لون ليس في الآخر ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، وإنه ليقول : يارب ، لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم ، لم ينقص مما عندني شيء ، وإن له من الخور العين لاثنتين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا ، وإن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَتْهُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ حَرْزُونَ ﴾ ، أي لا يخرجون منها ولا يبعثون عنها حولاً . ثم قيل لهم على وجه التفضيل والامتنان ﴿ وَتَذُوقُ لَبَنَاتُ مَائِيَّةٍ كَثِيرَةً تَمَلُّونَ ﴾ ، أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إليكم ، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿ وفيها ما تشتهي ﴾ بإظهار الهاء بعد الياء وقرأ الباقون بحذف الهاء (حجة القرطبي ص ٦٥٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣١١) والترمذي في السنن (٢٥٥٣) وأحمد في مسنده ٢٧/٣ .

﴿ ١ ﴾ : كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة ، فيكون له يقول : ﴿ تَوَّابٌ أَلَمْ يَكُنْ يَنْتَظِرْ ﴾ ، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول : ﴿ وَمَا كُنَّا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا أَنْ هَدَّانا اللَّهُ ﴾ ، فيكون له شكراً^(١) قال : وقال رسول الله ﷺ : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار . والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة »^(٢) . وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ لَئِنَّ الْآلِهَةَ أُرْسِلُوا بِمَا كُفَرْتُمْ تَسْمَوْنَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا لَذَّةٌ ﴾ أي من جميع الأنواع ﴿ فِيهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي مهما اخترتم وأردتم . ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

﴿ إِنَّ الشَّجَرِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَخِلِفِينَ ﴾ لا يَفُتَّر عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُورُونَ ﴿ ٢ ﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ أَتَّكِلُونَ ﴿ ٣ ﴾ وَكَانُوا يَنْكِيهِ يَنْفُسَ عَيْنَا رَبِّكَ قَالِ إِنَّكُمْ تَكِيدُونَ ﴿ ٤ ﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِلَمَاقٍ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَيْسَ بِعَقِلٍ كَرِيمُونَ ﴿ ٥ ﴾ أَمْ أَرَبُّوْا أَشْرًا لَّيْلًا مَّيْمُونُونَ ﴿ ٦ ﴾ أَمْ يَسْتَسْرِئُونَ نَارًا لَا تَسْمَعُ بَرَزُهُمْ وَيَقُولُهُمْ بَلْ زُرُّنَاكَ لَتَمِيْمٍ يَكْفُلُونَ ﴿ ٧ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال : ﴿ إِنَّ الشَّجَرِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَخِلِفِينَ ﴾ لا يَفُتَّرُ ، أي ساعة واحدة ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُورُونَ ﴾ أي آيسون من كل خير ﴿ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ أَتَّكِلُونَ ﴾ أي بأعماهم السيفة بعد قيام الحججة عليهم . وإرسال الرسل إليهم ، فكذبوا وعصوا فخرجوا بذلك جزاءً وفاقاً ومبارك بظلام للعبيد ﴿ وَكَانُوا يَنْكِيهِ ﴾ وهو خزان النار . عن صفوان ابن يحيى عن أبيه عليه السلام قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر : ﴿ وَكَانُوا يَنْكِيهِ يَنْفُسَ عَيْنَا رَبِّكَ ﴾^(٣) ، أي يقبض أرواحنا فيريحنا لما نحن فيه فإنهم كما قال تعالى : ﴿ لَا يَضُنُّ صَاحِبُهُمْ فِيمَا رَكِبُوا وَلَا يَحْضَرُهُمْ مِنْ مَّكَائِبِهِمْ ﴾ فلما سألو أن يموتوا أجابهم مالكا ﴿ قَالِ إِنَّكُمْ تَكِيدُونَ ﴾ أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ، ثم ذكر سبب شقوتهم ، وهو مخالفتهم للحق ومعادنتهم له فقال ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ بِلَمَاقٍ ﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَيْسَ بِعَقِلٍ كَرِيمٍ ﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله ، فعبدوا على أنفسهم بالملامة . واندموا حيث لا تنفعكم الندامة ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ أَرَبُّوْا أَشْرًا لَّيْلًا مَّيْمُونُونَ ﴾ قال مجاهد : أرادوا كيد شر ، فكذبناهم ؛ وذلك لأن المشركين كانوا يتحولون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم ، ولهذا قال : ﴿ أَمْ يَسْتَسْرِئُونَ نَارًا لَا تَسْمَعُ بَرَزُهُمْ وَيَقُولُهُمْ ﴾ أي سرهم وعلانياتهم ﴿ بَلْ زُرُّنَاكَ لَتَمِيْمٍ يَكْفُلُونَ ﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِزُلَّةٍ رَأْيٌ فَلَمَّا كُنَّا الْأَنْبِيَاءَ ﴾ مَتَّبِعِينَ رَبِّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَرْضِينَ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿ ٨ ﴾ فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَتَسْبَحُوا حَتَّى يَنْفَعُوا يَوْمَهُمُ الْآلِي يَوْمَهُدِينَ ﴿ ٩ ﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ لَكُمُ الْكَافِي الْعَلِيمُ ﴿ ١٠ ﴾ وَيَكِيدُ الْآلِي لَكُمْ مَكَائِلَ النَّفْسِينَ وَالْأَرْضِينَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَيَعْنِدُ عِلْمَ الْكَافَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ ١١ ﴾ وَلَا يَسْئَلُ الْآلِيكَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ نَسِيَ وَاللَّيْقَ وَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴿ ١٢ ﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُونَ اللَّهُ قَالَ يُؤْتِكُونَ ﴿ ١٣ ﴾ وَيُسَلِّمُهُ يَكْرِتُ إِنْ هَذَا كَلَامٌ قِيمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ١٤ ﴾ فَاصْبِرْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَسْمَعُونَ ﴿ ١٥ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥١٢/٢ ، والحاكم في المستدرک ٤٣٥/٢ يقدم أهل النار على أهل الجنة .

(٢) ذكره السيوطي في الفهر للثور (٢٢/٦) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٩) .

وتعالى : ﴿ تَسْمَعُ يَرْهَقُمْ وَيَعْبَرُهُمْ ﴾ والثاني : أن يقدر فعل وقال : قيله ، والثانية : الحفص^(١) وقيله عطفًا على قوله : ﴿ وَعِنْدُ عِلْمِ السَّاعَةِ ﴾ وتقديره وعلم قيله . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ عَنْهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ وَقَالَ سَلَّمَ ﴾ ، أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً ﴿ فَسَوَّى يَكْمُورَ ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وانتشر الاسلام في المشارق والمغارب والله اعلم .

(١) قرأ حاصم وحمنة ﴿ وقيله يا رب ﴾ بكسر اللام ، والباثون بالنصب (حجة للترايات ص : ٦٥٥) .

سورة الدخان

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حم الدخان في ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » ^(١) .

وعن زيد بن حارثة أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد : « إني قد خبأت خبأ فما هو ؟ » وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان ، فقال : هو الدخ . فقال : « أخسأ ما شاء الله » ثم انصرف ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ۝ وَلَقَدْ كَتَبْنَا الْإِنشِينَ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَتٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ ﴾ ﴿ فِيهَا يَقْرَأُ كُلُّ أُمَرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا يُزَيِّنُ عَنِيذًا ۝ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ۝ ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۝ رُبُّكُمْ رُبُّكُمْ وَرَبُّ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ ۝ رَبُّكُمْ ۝ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر وكان ذلك في شهر رمضان ، ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان : وقوله ﴿ ۝ ﴾ : « إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ » أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

وقوله : ﴿ فِيهَا يَقْرَأُ كُلُّ أُمَرٍ حَكِيمٍ ﴾ أي في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الأجال والأزاق وما يكون فيها إلى آخرها . وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف . وقوله جل رعلًا : ﴿ حَكِيمٍ ﴾ ، أي محكم لا يبدل ولا يغير ، ولهذا قال ﴿ ۝ ﴾ : « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » أي إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبینات ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ﴾ أي إن كنتم متحققين . ثم قال تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۝ رُبُّكُمْ وَرَبُّ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ ۝ رَبُّكُمْ ۝ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَهُ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۝ أَلَمْ تَلَوْا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۝ ﴾ الآية .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾ ﴿ زَكَاةً أَكْثَفَ عَنَّا الْمَذَاقِ ۝ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الَّذِينَ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُنْكَ لَمَخُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۝ إِنَّكُمْ عِنْدَنَا ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّاعَةُ الْكَبِيرَةُ ۝ إِنَّا مُنْذِرُونَ ۝ ﴾ .

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون ، أي : قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه . ويمترون ولا يصدقون به ، ثم قال ﴿ ۝ ﴾ متوعداً لهم ومهدداً : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ عن

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٨٨) بنحوه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٥) والطبراني في الكبير (١٦٢/١٢) .

يخاف دركاً ولا يخشى ، قال ابن عباس رضي الله عنه ﴿ وَأَرْزُقُوا الْبَحْرَ رَقَوًا ﴾ كهيته وامضه ، وقال مجاهد : ﴿ رَقَوًا ﴾ طريقاً يشا كهيته . يقول : لا تأمره يرجع ، اتركه حتى يرجع آخرهم ، ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَرْزُقُ مِنْ بَحْرَيْنِ ﴾ وهي البساتين ﴿ وَنَبْهِي ۝ وَنَزْجُ ۝ وَالرَّادُّ بَهَا الْأَنْهَارَ وَالْأَبَارَ ﴾ ومَقَارُ كَرِيرٍ ﴿ وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير ﴾ وَمَقَارُ كَرِيرٍ ﴿ للناظر ، وقال في قول الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَرْزُقُ مِنْ بَحْرَيْنِ وَنَبْهِي ۝ وَنَزْجُ ۝ وَمَقَارُ كَرِيرٍ ﴾ وَنَعْمُو كَانُوا فِيهَا فَذِكْرٌ ﴾ قال : كانت الجنان بحافتي نهر النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وكان له تسع خلج : خليج الأسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج سردوس ، وخليج منف ، وخليج الفيوم ، وخليج المنتهى ، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، وزرع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء ، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً لما قدروا ودبروا من قناترها وجسورها وخليجها .

﴿ وَنَعْمُو كَانُوا فِيهَا فَذِكْرٌ ﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاعوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية وتلك الخواصِل الفرعونية والممالك القطعية بنو إسرائيل كما قال تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَرْزُقْنَاهَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَسْخَبَ ۝ ﴾ .

وقال رحمته الله مهنا : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَرْزُقْنَاهَا قَرِيبًا مَلَكَيْنِ ﴾ وهم بنو إسرائيل كما تقدم . وقوله رحمته الله : ﴿ قَدْ بَكَتْ عَلَيْهِمُ أَسْمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على قتلهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبداً الله تعالى فيها فقدتهم ، فلعلنا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم إجرامهم وعوتهم وعنادهم . عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية ﴿ قَدْ بَكَتْ عَلَيْهِمُ أَسْمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ ^(١) . وذكر أنهم لم يكونوا يعملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح ، ففقدتهم فتبكي عليهم .

وعن عباد بن عبد الله قال : سأل رجلاً علياً رضي الله عنه : هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ علي رضي الله عنه ﴿ قَدْ بَكَتْ عَلَيْهِمُ أَسْمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴾ . وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحاً ، قال : فقلت له : أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يصرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسييحه فيها دوي كلوي النحل ؟

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَا بِكَ لَتًّا مِنْ الْأَكْثَرِ مِنَ الْغَافِقِينَ ﴾ ^(٢) من فرعون رضي الله عنه إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنْ الْأَشْرَفِينَ ﴿ بمن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون ولإذلاله لهم ،

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤١٣٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٠٥/٧) .

وتسخيره لإياهم في الأعمال المهينة الشاقة ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْعَتِكَ إِتْمَ كَذَّ عَلِيٍّ ﴾ أي مستكبراً جباراً عتيباً ﴿ يَنْ أَلْتَرِيحِينَ ﴾ أي مسرف في أمره مسخيف الرأي على نفسه . وقوله ﴿ كَثُرَ كَثْرَتُهُمْ عَلَى عِلْمِهِ عَلَى التَّكْوِينِ ﴾ قال مجاهد : على من هم بين ظهريه . وقال قتادة : اختبروا على أهل زمانهم ذلك ، وكان يقال : إن لكل زمان علماً ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَكُونُ لِي أَسْبَغْتُكَ عَلَى الْآثِينَ ﴾ أي أهل زمانه ذلك . وقوله ﴿ وَمَا لَيْتَهُمْ يَنْ الْآثِينَ ﴾ أي الحجيح والبراهين وخوارق العادات ﴿ مَا يَدِ بَلَكُوا ثِيْرٌ ﴾ أي اختبار ظاهر جلي لمن اهتمدى به .

﴿ إِنَّ مَوْلَاهُ لَيُفْلِحُونَ ﴾ ٣٤ : إِنَّ مِنْ أَلَا مَوْلَانَا الْآدَمَ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ٣٥ : فَأَنَّا وَتَأَكَّلْنَا لَنْ كَثُرَ سَدِيقِينَ ٣٦ : أَمَّ حَيَّرَ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاطِبِينَ .

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد ، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ، ويحتجون بأبائهم للماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، فإن كان البعث حقاً ﴿ فَأَنَّا وَتَأَكَّلْنَا لَنْ كَثُرَ سَدِيقِينَ ﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، ثم قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع ، وهم سبأ ، حيث أهلكهم الله ﷻ وخرب بلادهم وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر ، كما تقدم ذلك في سورة سبأ وهي مصدرة بإنكار المشركين للمعاد ، وكذلك ههنا شبههم بأولئك وقد كانوا عرباً من قحطان ، كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وقد كانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تبناً ، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، وقبصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر كافراً ، والنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس .

ولكن اتفق أن بعض تابعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه ، واتسعت مملكته وكثرت رعاياه وهو الذي مصر الحيرة ، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقتلوه بالنهار ، وجعلوا يقرؤنه بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم ، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان ، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهاه عن ذلك أيضاً وأخبراه بعظمة هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان ، فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحجر ، ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى اليهود معه ، وكان إذا ذك دين موسى عليه الصلاة والسلام فيه من يكون من الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فهدو معه عامة أهل اليمن ، وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة ^(١) ، وقال سعيد بن جبير : كسا تبع الكعبة وكان سعيد ينهى عن سبه ، وتبع هذا

هو تبع الأوسط ، واسمه أسعد أبو كريب بن مليكرب اليماني ، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة ، ولم يكن في حمير أطول مدة منه ، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة سنة . وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبي في آخر الزمان اسمه أحمد ، قال في ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة ، فكانوا يتوارثونه ويروونه خلقا عن سلف ، وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن يزيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره وهو :

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره لكنت وزيرا له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه وفرجت عن صدره كل غم

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حفر قبر بصنعاء في الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صبيحتين ، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : هذا قبر حيي وتميس ، وروي أن حيي وتماضر ابنتي تبع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئا ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لا تسبوا تبعًا فإنه قد كان رجلا صالحا . وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا تبعًا ، فإنه قد كان أسلم » (١) .

﴿ وَنَا خَلَقْنَا الشُّعْرَىٰ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ ۖ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ يَبْقَىٰ نُفُوسُهُمْ أَجْمُوعٌ ۝ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْمَنْزُورُ الرَّجِيمُ ۝ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عدله وتزنيه نفسه عن اللعب والعبث والباطل كقوله جل وعلا : ﴿ وَنَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِحِلَالٍ ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ الَّذِي كَرَّمَا قَوْلَ لَئِيلَىٰ كَرَّمَا مِنْ الْكُفْرِ ۝ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ۝ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ يَبْقَىٰ نُفُوسُهُمْ أَجْمُوعٌ ۝ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق ، فيعذب الكافرين ويشيب المؤمنين . وقوله ﴿ يَبْقَىٰ نُفُوسُهُمْ أَجْمُوعٌ ۝ ﴾ ، أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا ۝ أي لا ينفع قريب قريبا . وقوله جل وعلا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ أي لا ينصر القريب قريبا ولا يأتيه نصره من خارج ، ثم قال : ﴿ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ ۝ أي لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله ﷻ بخلقه ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْمَنْزُورُ الرَّجِيمُ ۝ أي هو عزيز ذو رحمة واسعة .

﴿ إِنَّكَ شَجَرَتُ الرَّزْزَاقِ ۝ تَلَامُ الْأَشْيَرِ ۝ كَالْهَيْلِ يَتَلَّىٰ فِي الْبُطُونِ ۝ كَتَلَى الْحَبِيرِ ۝ خُدُّ قَاتِلُهُ إِلَىٰ سَرَّةِ الْحَبِيرِ ۝ ثُمَّ شَبَّاقُ قَوْقُ زَأْبِيهِ مِنْ مَكَايِ الْحَبِيرِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْمَنْزُورُ الْكَافِرُ ۝ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُنذَرُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما يعذب به الكافرين الجاحدين لقلائه ﴿ إِنَّكَ شَجَرَتُ الرَّزْزَاقِ ۝ تَلَامُ الْأَشْيَرِ ۝ الأثيم أي في قوله وفعله ، وهو الكافر ، وذكر غير واحد أنه أبو جهل ، ولا شك في دخوله في هذه الآية ، ولكن ليست خاصة به . وقوله : ﴿ كَالْهَيْلِ ۝ قالوا : كعكر الزيت ﴾ ﴿ يَتَلَّىٰ فِي الْبُطُونِ ۝ كَتَلَى الْحَبِيرِ ۝

الْحَبِيرِ ﴿٥١﴾ أي من حرارتها ودرأعتها ، وقوله : ﴿ خُدُّوْهُ ﴾ أي الكافر ، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية خذوه ابتدره سبعون ألفاً منهم . وقوله : ﴿ فَاتَّبِعُوْهُ ﴾ أي سوقوه سحقاً ودفقا في ظهره ، قال مجاهد : أي خذوه فادفعوه ﴿ إِلَآ سَوَآءَ الْحَبِيرِ ﴾ أي وسطها ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَرْقَ رَأْسِهِ بَيْنَ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴾ وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمة من حديد ، فتفتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فيزل في بدنه ، فيلس ما في بطنه من أمعائه حتى تفرق من كعبه ، أعادنا الله تعالى من ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَذِيْرُ الْكَرِيْمُ ﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه : أي لست بعزير ولا كريم . عن عكرمة قال : لقي رسول الله ﷺ أبا جهل لعنه الله فقال : « إن الله تعالى أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » قال : فزعر ثوبه من يده وقال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، ولقد علمت أنني أ منع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، قال : فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وصيره بكلمته وأنزل ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَذِيْرُ الْكَرِيْمُ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُشْرِكُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَدْرِي السَّاعِدُ أَلَيْ كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ^(١) أَيْحَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

﴿ إِنَّ السَّاعِدِينَ فِي مَقَادِرِ آيِينَ ﴾ ^(٢) في جَنَّاتٍ وَشُجُرٍ ^(٣) يَلْبَسُونَ مِنْ شَدِيدٍ وَاسْتَبَقُوا شُرَكَائِيكَ ^(٤) كَذَلِكَ وَزَجَنَّهُمْ وَسُورِ ^(٥) يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا يَكُلُ فَاكِهَةٍ كَأَيِّنَ ^(٦) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْخَبِيرِ ^(٧) فَصَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْغَوْزُ الْأُطْيَسُ ^(٨) فَاكُلَا مِنْ رِزْقِهِ بِإِذْنِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ^(٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنََّّهُمُ مَّفْرَقُونَ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني ، فقال : ﴿ إِنَّ السَّاعِدِينَ ﴾ أي لله في الدنيا ﴿ فِي مَقَادِرِ آيِينَ ﴾ أي في الآخرة وهو الجنة ، قد آمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيدِه وسائر الآفات والمصائب ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَشُجُرٍ ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم . وقوله تعالى : ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ شَدِيدٍ ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿ وَاسْتَبَقُوا ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿ مُتَّقِينَ ﴾ أي على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره . وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَزَجَنَّهُمْ وَسُورِ ﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي ﴿ لَرَّ يَلْبَسْنَ مِنْ رِزْقِهِ وَلَا يَبْئُتْنَ ﴾ ﴿ كَأَيِّنَ الْكُلُوفُ وَالشَّيْبَانِ ﴾ ﴿ كُلَّ جَزْأَةٍ الْيَمِينِ إِلَّا الْإِيسِينَ ﴾ عن أنس رضي الله عنه رفعه قال : لو أن حوراء برقت في بحر لحي لغذب ذلك الماء لعذوبة ريقها ^(١) .

وقوله ﷻ : ﴿ يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا يَكُلُ فَاكِهَةٍ كَأَيِّنَ ﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أضمر لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ؛ بل يحضر إليهم كلما أرادوا . وقوله : ﴿ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ هذا استثناء يؤكد النفي فإنه استثناء منقطع ، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » ^(٢) وعن

(١) أخرجه المنذري في الترهيب والترهيب ٥٣٥/٤ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣٠) وأحمد في مسنده (٢٦١/٢) وإسحاق في المستدرک (٨٣/١) .

أيي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالوا : قال رسول الله ﷺ : « يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصبحوا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا » ^(١) وعن جابر رضي الله عنه قال : سئل نبي الله ﷺ : أينام أهل الجنة ؟ فقال ﷺ : « النوم أئحو الموت ، وأهل الجنة لا ينامون » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَقَّعْتُمْ مَعَدَّةَ الْجَنَّةِ ﴾ أي مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في حركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَضَلَّ بَيْنَ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحدًا لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَرَفَعُ بِلِسَانِكَ تَلْمِذُهُ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بينًا جليًا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلها ﴿ تَلْمِذُهُ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ أي يتفهمون ويعلمون .

ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلطًا له وواعدًا له بالنصر ، ومتوعدًا لمن كذبه بالمعطب والهلاك : ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ أي انتظر ﴿ إِلَهُكُمْ تُرْتَفَعُونَ ﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأُولَئِكَ لَنَا نُصْرَةٌ ﴾ الآية .

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٢) والترمذي في التفسير (٣٣٤٦) وأحمد في مسنده (٣٨/٣) .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٢٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (٤١٥/١٠) والاكبادي في الصحيحة (١٠٨٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤) ومسلم في صفات المنافقين (٧١) وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) جميعهم بنحوه .

﴿ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا لُكَ الْقُرْآنَ عَظِيمًا ﴾ ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ هَذَا هَدًى ﴾ يعني القرآن ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ رِيثَهُمْ ثُمَّ إِنَّهُمْ رِيثُهُ لَبُئِي ﴾ وهو المولم المجمع .

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْتَرِي الْفُلُوكَ فِيهِ بَأْسُهُمْ وَتَلْتَمِشُوا فِيهِ قَبُولَهُمْ وَلَقَدْ سَخَّرْنَاكُمْ آيَاتٍ أَنْ تُبْصِرُوا وَلَقَدْ سَخَّرْنَاكُمْ آيَاتٍ أَنْ تُبْصِرُوا وَلَقَدْ سَخَّرْنَاكُمْ آيَاتٍ أَنْ تُبْصِرُوا وَلَقَدْ سَخَّرْنَاكُمْ آيَاتٍ أَنْ تُبْصِرُوا ﴾ قُلِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَجْرُهُمْ يَبْدُو لَهُمْ كَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُجْزَوْنَ أَجْرًا اللَّهُ يَجْزِي قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ مَن حَمَلَ صِغِيرًا فَلْيُنْسِهِ وَنَاسًا فَصَلِّبًا ثُمَّ إِنَّ رَبَّهُمْ لَشَدِيدُونَ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿ لِتَجْتَرِي الْفُلُوكَ فِيهِ بَأْسُهُمْ وَتَلْتَمِشُوا فِيهِ قَبُولَهُمْ ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ وَتَلْتَمِشُوا فِيهِ قَبُولَهُمْ ﴾ أي في الخارج والمكاسب ﴿ وَلَقَدْ سَخَّرْنَاكُمْ آيَاتٍ أَنْ تُبْصِرُوا ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة من الأقاليم النائية والأفاق القاصية ، ثم قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْبَحْرِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار ، وجميع ما تنفعون به أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ولهذا قال ﴿ جِيئَا بِنَهْ ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَجْرُهُمْ يَبْدُو لَهُمْ كَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُجْزَوْنَ أَجْرًا ﴾ أي ليصفحوا عنهم ويتحملون الأذى منهم ، وكان هذا في ابتداء الإسلام ، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ؛ ليكون ذلك كالتأليف لهم ، ثم لما أسروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجهاد والجهاد . هكذا روي عن ابن عباس ؓ وقادة ، وقال مجاهد : لا يتناول نعم الله تعالى ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِتَجْتَرِي قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله تعالى مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن حَمَلَ صِغِيرًا فَلْيُنْسِهِ وَنَاسًا فَصَلِّبًا ثُمَّ إِنَّ رَبَّهُمْ لَشَدِيدُونَ ﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة فمعرضون بأعمالكم عليه فيجزىكم بأعمالكم خيرها وشرها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَاتَ بَنُو إِسْرَءِيلَ الْكَتَبَ وَلَكُمُ الْوَيْبَةُ وَرَفَعْتُمْ بَنِي الْهِنْدِ وَرَفَعْتُمْ عَلَى الْفُلِيِّينَ ﴿ وَمَاتَتْهُمْ بَنَاتُ بَنِي الْأَمْرِ مِمَّا كَانَتْهُمْ أَلِيَّةٌ بَيْنًا بَيْنَهُمْ إِنْ رَفَعْتَ يَدَيْكَ يَفْقَهُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ثُمَّ جَعَلْتَ عَلَى شَرِيحَةٍ بَيْنَ الْأَمْرِ فَاتَّيَعَهَا وَلَا تَنْجِ أَعْوَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ إِنَّمَا لَنُيَسِّرُنَا غَدًا مِنْ لَدُنَّا شَيْئًا وَلَئِنْ أَقْبَلِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَلَئِنْ لَفَتْنَا نَفْسًا وَوَدَعْنَا لِقَوْمٍ يُفْقِرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إزال الكتب عليهم ورسل الرسل إليهم وجعله الملك فيهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَاتَ بَنُو إِسْرَءِيلَ الْكَتَبَ وَلَكُمُ الْوَيْبَةُ وَرَفَعْتُمْ بَنِي الْهِنْدِ وَرَفَعْتُمْ عَلَى الْفُلِيِّينَ ﴾ أي من المأكول والمشرب ﴿ وَرَفَعْتُمْ عَلَى الْفُلِيِّينَ ﴾ أي في زمانهم ﴿ وَمَاتَتْهُمْ بَنَاتُ بَنِي الْأَمْرِ ﴾ أي حججنا وبراهين وأدلة قاطعات ، فقامت عليهم الحجج ، ثم اختلوا بعد ذلك من بعد قيام الحجج ، وإنما كان ذلك بغيثا منهم على بعضهم بعضا ﴿ إِنْ رَفَعْتَ يَدَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ يَفْقَهُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل ، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ثُمَّ جَعَلْتَ عَلَى شَرِيحَةٍ بَيْنَ الْأَمْرِ فَاتَّيَعَهَا ﴾ أي اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ، وقال الله : ﴿ وَلَا تَنْجِ أَعْوَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إِنَّمَا لَنُيَسِّرُنَا غَدًا مِنْ لَدُنَّا شَيْئًا وَلَئِنْ أَقْبَلِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي وماذا تنفي عنهم ولا يهتم لبعضهم

يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب ليله ونهاره ^(١) وفي رواية : « لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر » ^(٢) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : استقرضت عبيدي فلم يعطني وسبني عبيدي ، يقول : وادهره ، وأنا الدهر » ^(٣) قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله ﷻ ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد ، والله أعلم ، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنی أخذاً من هذا الحديث .

وقوله تعالى : ﴿ زَكَاتُ الَّذِينَ عَلَيْكُمْ مَكْنُوتًا يَتَنَزَّلُ ﴾ أي إذا استدلل عليهم وبين لهم الحق ، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِتَأْيِيدِنَا إِنْ كُنْتُمْ مُبْتَدِعِينَ ﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً . قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُثَبِّتُ الْأَمْثَالَ يُخْرِجُكُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَى الْوُجُودِ ﴾ أي فالذي قدر على الهداية قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ﴿ وَفَوَّ الْأَمْرَ يُبَدِّلُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَفَرَّغَتْ أَمْرُهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَبْسُطُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَبَاسًا ﴾ أي إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لا يبعدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿ اقْتُلُوا بِتَأْيِيدِنَا إِنْ كُنْتُمْ مُبْتَدِعِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَبْسُطُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَبَاسًا ﴾ أي لا شك فيه ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْتَفُونَ ﴾ أي يرون وقوعه بعيداً والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً . ﴿ وَلَوْ أَنَّكَ اسْتَمِعْتَ مِنَ الْوَالِدِ وَالْزَوْجِ وَنَفْسٍ مِّنْكُمْ شَيْئًا فَتَبِعْتَهُمْ لَآتَيْنَكَ مِنَ الْمَالِ أَكْثَرَ مِمَّا يُحْسِبُونَ ﴾ ﴿ وَفَوَّ الْأَمْرَ يُبَدِّلُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَفَرَّغَتْ أَمْرُهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَبْسُطُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَبَاسًا ﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْتَفُونَ ﴾ .

يخير تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يَنْسُخُ السَّيْلُوتِ ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات والبينات والدلائل الواضحات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَفَوَّ الْأَمْرَ يُبَدِّلُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَفَرَّغَتْ أَمْرُهُ ﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة ، ويقال إن هذا إذا جيء بهجتهم فإنها تزفر زفرة ، لا يبقى أحد إلا جثا لركبته ، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ويقول : نفسي نفسي نفسي لا أسألك اليوم إلا نفسي . وحتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول : لا أسألك اليوم إلا نفسي ، لا أسألك مريم التي ولدتني . وعن عبد الله بن باباه أن رسول الله ﷺ قال : « كائني أراكم جاثين بالكموم دون جهنم » ^(٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ نَّصْنَعُ إِلَىٰ كَيْفَتِهِ ﴾ يعني كتاب أعمالها ولهذا قال ﷻ : ﴿ أَلَيْسَ خَيْرٌ مَّا كُنْتُمْ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩١) وأحمد في مسنده (٢٧٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الأدب (٥) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/٢) والحاكم في المستدرک (٤٩١/٢) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٧٢/٤) .

تَمَلُّوْا ﴿١﴾ أَي تَجَازِوْنَ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا وَشَرَهَا وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ ﴿٢﴾ مَدَا كَيْفَا يَبْلُغُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴿٣﴾ أَي يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ . وَقَوْلُهُ ﴿٤﴾ إِنَّا كُنَّا تَسْتَنْبِغُ مَا كُنْتُمْ تَمَلُّوْا ﴿٥﴾ أَي إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ الْحَافِظَةَ أَنْ تَكْتُبَ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْكُمْ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رحمتهما وَغَيْرُهُ : تَكْتُبُ الْمَلَائِكَةُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ ثُمَّ تَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَيَقَابِلُونَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ فِي دِيْوَانِ الْأَعْمَالِ عَلَى مَا بِيَدِي الْكِتَابَةِ ، مَا قَدْ أَهْرَظَ لَهُمْ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْضُوفِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قَدَرٌ ، مَا كَتَبَهُ اللَّهُ فِي الْقَدَمِ عَلَى الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ فَلَا يَزِيدُ حَرْفًا وَلَا يَنْقُصُ حَرْفًا ثُمَّ قَرَأَ ﴿٦﴾ إِنَّا كُنَّا تَسْتَنْبِغُ مَا كُنْتُمْ تَمَلُّوْا ﴿٧﴾ .

﴿٨﴾ قَالَا أَلَيْسَ آمَنَّا بِالنَّبِيِّينَ فَفَذَلُكُنَّ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي ﴿٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ عَلَيْهِمْ تَنَازُلًا فَتَنَكِّرْهُمْ نَقْمًا فَجَرِمِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّا قَدِ ابْنًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَكَاشَفَهُ لَا رَبَّ بَيْنَا فَلَمْ يَأْتِ قَوْمًا مَا آتَاهُ إِلَّا تَنَزُّلًا وَلَا عَمَّا يُصْنَوْنَ ﴿١١﴾ وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَزِينَ ﴿١٢﴾ وَمَا كُنَّا لَهُمْ بِمُشِيرِينَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ تَنَسَّكُوا كَمَا يَسْتَشِيرُ إِلَهُهُ يَوْمَكَ هَذَا وَبَلَّغْنَاكُمْ الْبَارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَبِيِّينَ ﴿١٤﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ أَقْبَدْتُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفَهُمْ أَلَا يَسْتَشِيرُونَ ﴿١٥﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَانُوا لَا يَتَدَبَّرُونَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَلَا لَدُنْهُمْ أَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٧﴾ .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿٨﴾ قَالَا أَلَيْسَ آمَنَّا بِالنَّبِيِّينَ فَفَذَلُكُنَّ لَهُمْ أَي : أَمِنْتُ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ وَهِيَ الْخَالِصَةُ الْمُوَافِقَةُ لِلشَّرْعِ ﴿٩﴾ فَيَذَلُكُنَّ لَهُمْ فِي رَحْمَةٍ فِي رَحْمَتِهِ ﴿١٠﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَسْأَلِ ﴿١١﴾ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي﴾ أَي الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿١٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ عَلَيْهِمْ تَنَازُلًا فَتَنَكِّرْهُمْ نَقْمًا فَجَرِمِينَ أَي يَقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيبًا وَتَوْبِيحًا : أَمَا قَرَأْتُمْ عَلَيْكُمْ آيَاتَ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ اتِّبَاعِهَا ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ سَمَاعِهَا ، وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ فِي أَعْمَالِكُمْ مَعَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ ؟ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا قَدِ ابْنًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَكَاشَفَهُ لَا رَبَّ بَيْنَا ، أَي إِذْ قَالَ لَكُمْ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ ﴿١٤﴾ فَلَمْ يَأْتِ قَوْمًا مَا آتَاهُ إِلَّا تَنَزُّلًا وَلَا عَمَّا يُصْنَوْنَ أَي لَانْعَرَفَهَا ؟ أَي لَانْعَرَفَهَا ؟ أَي إِنْ تَرَوْهُمْ وَقَوْعَهَا إِلَّا تَرَوْهَا أَي مَرْجُوحًا وَلِهَذَا قَالَ : ﴿١٥﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَشِيرِينَ أَي بِمُتَحَقِّقِينَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿١٦﴾ وَمَا كُنَّا لَهُمْ بِمُشِيرِينَ أَي عَايِلًا أَي وَظَهَرَ لَهُمْ عَقُوبَةُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ﴿١٧﴾ وَنَاقٍ بِهِمْ أَي أَحَاطَ بِهِمْ ﴿١٨﴾ مَا كُنَّا لَهُمْ بِمُشِيرِينَ أَي مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿١٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ تَنَسَّكُوا أَي تَعَامَلْتُمْ مَعَ النَّاسِ لَكُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿٢٠﴾ كَمَا يَسْتَشِيرُ إِلَهُهُ يَوْمَكَ أَي فَلَمْ تَعْمَلُوا لَهُ لِأَنْكُمْ لَمْ تَصْدُقُوا بِهِ ﴿٢١﴾ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَبِيِّينَ ؟ أَي قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِبَعْضِ الْعِبِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَأَلَمْ أُزَوِّجْكُمْ ؟ أَلَمْ أَكْرَمْكُمْ ؟ أَلَمْ أَسْخَرْ لَكُمُ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكُمْ رَأْسَ وَتَرَبَّعَ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى يَا رَبِّ . فَيَقُولُ : أَفَنُظِنْتُ أَنْكَ مَلَاقِي ؟ فَيَقُولُ : لَا . فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : فَالْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتِي ﴿٢٢﴾ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿٢٣﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ أَقْبَدْتُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفَهُمْ أَلَا يَسْتَشِيرُونَ أَي إِذَا جَازَيْنَاكُمْ هَذَا الْجَزَاءَ لِأَنْكُمْ اتَّخَذْتُمْ حُجَجَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ سَفَرِيًا تَسْخَرُونَ وَتَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ﴿٢٤﴾ وَفَرَّكَ لَمِيْرًا أَلَدِيًّا أَي خَدَعْتُمْكُمْ فَاطْمَأْنَنْتُمْ

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٤) وأحمد في مسنده (٢٧٦/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٥) .

إليها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ تَالْيَوْمَ لَا يُفْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي من النار ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا يطلب منهم العتق بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين ، قال ﴿ فَبَيْنَهُمَا الْحِسْءُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ ﴾ أي المالك لهما وما فيهما ، ولهذا قال : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ ﴾ ثم قال جل وعلا ﴿ وَرَبِّ الْكَوْكَبَاتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : يعني السلطان أي هو العظيم للمجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه . وقد ورد في الحديث الصحيح « يقول الله تعالى : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي فمن ، نازعني واحدا منهما أسكتته ناري »^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَفَرَّ الْفَاسِقُ ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٢) ولحاكم في المستدرک (١٦/١) .

يَذْكُرُ الْأَرْضُ وَمَا آتَتْهَا مِمَّا يُقْلَلُ فِي وَلَا يَكْثُرُ إِنَّ آتِجَ الْإِنِّ مَا يُحْتَجُّ لَكَ وَمَا لَنَا إِلَّا نَذِيرٌ شَيْئٌ .

يقول ﷺ مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم : إنهم إذا تلى عليهم آيات الله بينات ، أي في حال بيناتها ووضوحها وجلالاتها ، يقولون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ شَيْئٌ ﴾ أي سحر واضح وقد كذبوا وافترؤا وضلوا وكفروا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ ﴾ يعنون محمد ﷺ قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ أَفَرَنْتُمْ فَلَا تَسْكُوتُ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم ، أن يجيرني منه ، ﴿ قُلْ إِنْ أَفَرَنْتُمْ فَلَا تَسْكُوتُ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْسِدُونَ فِيهِ ﴾ كفى به شجباً بيني وبينكم ﴿ هذا تهديد لهم ووعد أكيد وترهيب شديد .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَمَنْ أَلْفَقُوا الرَّجْمُ ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة ، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم وغفر ورحم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِذِكْرِ الْأَرْضِ ﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لا نظهر له حتى تستنكروا وتستبعدون بعثي إليكم ؛ فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِذِكْرِ الْأَرْضِ ﴾ ما أنا بأول رسول .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَتْهَا مِمَّا يُقْلَلُ فِي وَلَا يَكْثُرُ ﴾ قال ابن عباس ﷺ في هذه الآية : نزل بعدها ﴿ يَتَفَرَّقُ لَكَ اللَّهُ مَا فَتَحَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَلَخَّرَ ﴾ ، وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة : والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله فما لنا ؟ فأنزل الله ﷻ هذه الآية . وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَتْهَا مِمَّا يُقْلَلُ فِي وَلَا يَكْثُرُ ﴾ قال : أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن أتبعه ، وأما في الدنيا ؛ فلم يدرك ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا ، يؤمنون أم يكفرون ، فيعذبون فيستأصلون بكفرهم .

روي عن أم العلاء وكانت بايعت رسول الله ﷺ قالت : طار لهم في السكبي حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون ﷺ فاشتكى عثمان ﷺ عندنا فمرضناه ، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك أن الله تعالى أكرمهم ؟ » فقلت : لا أدري بأبي أنت وأمي ، فقال رسول الله ﷺ : « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنني لأرجوه للخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » . قالت : والله لا أركي أحداً بعده أبداً وأحزنتني ذلك فتمت فرأيت لعثمان ﷺ عينا تجري ، فنجت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك عمله » (١) .

وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وأبن سلام والعميصاء وبلال وسراقة ، وعبد الله بن عمرو ابن حرام والد جابر ، والقراء السبعين

(١) أخرجه البخاري في الجناز (١٢٤٣) .

الذين قتلوا بغير معونة ، وزيد بن حارثة وجعفر بن رواحة وما أشبه هؤلاء ﷺ . وقوله ﴿ إِنَّ أَلْبَنَىٰ إِلَٰهًا مَا يُرِجَىٰ إِلَيْكَ ﴾ . أي إنما اتبع ما ينزله الله علي من الوحي ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بين النذارة أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل ، والله أعلم .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَخَشَعَ سُلَيْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَأَمَّا زَكْرِيَّا فَتَمَنَّاهُ أَنْ نَبْعَثَ أَبْنَاهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ خَيْرًا مِمَّا سَبَقُوا إِلَيْهِ وَقَدْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَبِّحُوا لَهُ هَذَا إِفْكٌ قَبِيضٌ ﴿١٠﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِنَّمَا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَكْتُبُ لِقَوْمٍ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُذَكِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا حَوَافٍ عَلَيْهِمْ وَلَا يُمِيزُهُمْ ﴿١٢﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أي ماظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جملككم به قد أنزل علي لأبلغكموه ، وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿ وَخَشَعَ سُلَيْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي ، بشرت به واخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به . وقوله ﴿ فَأَمَّا زَكْرِيَّا فَتَمَنَّاهُ ﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن اتباعه ، وقال مسروق : فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم ببيكم وكتابكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام ﷺ ، عن عامر ابن سعد عن أبيه قال : ماسمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام ﷺ ، قال : وفيه نزلت ﴿ وَخَشَعَ سُلَيْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مِمَّا سَبَقُوا إِلَيْهِ ﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن : خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه ، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخياطاً ﷺ ، وأشياهم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وماذا إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية ، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً وأخطأوا خطأ يئس ولهدأ قالوا : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مِمَّا سَبَقُوا إِلَيْهِ ﴾ وأما أهل السنة والجماعة ، فيقولون : في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة ﷺ هو بدعة ؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ فَسَبِّحُوا لَهُ هَذَا إِفْكٌ قَبِيضٌ ﴾ : أي كذب قديم ، أي مأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبير الذي قال رسول الله ﷺ : « بطل الحق ، وغمط الناس » ^(٢) . ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِنَّمَا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَكْتُبُ لِقَوْمٍ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُذَكِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي مشتغل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين ، وقوله

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٥٣٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٩٣) وأحمد في مسنده (٣٨٥١) .

تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا حَرْفَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلون ﴿ وَلَا هُمْ يَسْأَلُونَ ﴾ على ما خلفوا ﴿ أُولَئِكَ أَحْسَنُ لِمَنْتُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم ، والله أعلم .

﴿ وَوَعَدْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْنِهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهَا وَوَضَعَتْهُ كُرْهَا وَحَمَلَهُ وَضَعَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ اأَشَدَّ وَبَلَغَ اأَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَتِي وَأَنْ أَحْمَلَ ظَهْرًا وَمَنْعَكَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُدِئْتُ مِنْكَ وَلَئِي وَنَ السَّالِفِينَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ لِمَنْتُمْ وَعَدَ الْيَقِينِ الَّذِينَ كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ .

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله ﴿ وَوَعَدْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْنِهِ إِحْسَانًا ﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما عن سعد رضي الله عنه قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ؟ فلا أكل طعاما ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله تعالى ، فامتنت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا ونزلت هذه الآية ﴿ وَوَعَدْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْنِهِ إِحْسَانًا ﴾ الآية ^(١) . ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهَا ﴾ أي قاست بنسبه في حال حمل مشقة وتمنا من وحم وغشيان وثقل وكرب ، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهَا ﴾ أي بمشقة أيضا من الطلق وشدته ﴿ وَحَمَلَهُ وَضَعَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿ وَوَضَعْنَاهُ فِي كَهْنٍ ﴾ و قوله تبارك وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُضَعْنَ أَبْطُونَ حَالِيْنَ كَالْمِلْءِ لَمْ يَزِدْ لَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ إِلَّا نَقْرَةً ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي صحيح ، ووافق عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم .

وعن ابن عباس قال : إذا وضعت المرأة تسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرا ، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعت لسته أشهر فحولين كاملين ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ وَحَمَلَهُ وَضَعَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ اأَشَدَّ ﴾ أي قوي وشب وارتمج . ﴿ وَبَلَغَ اأَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي تنامي عقله وكمل فهمه وحلمه .. ويقال : إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين ، عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قلت لمسروق : متى يؤخذ الرجل بذنوبه ؟ قال : إذا بلغت الأربعين فخذ حذرَكَ .

عن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة ، خفف الله تعالى حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإجابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه الله تعالى في أهل بيته ؛ وكتب في السماء أسير الله في أرضه » ^(٢) وقد قال الحاجب بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق ، تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس ، ثم تركها حياء من الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي ألهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَتِي وَأَنْ أَحْمَلَ ظَهْرًا وَمَنْعَكَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُدِئْتُ مِنْكَ وَلَئِي وَنَ السَّالِفِينَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ لِمَنْتُمْ وَعَدَ الْيَقِينِ الَّذِينَ كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ .

بكر ﷺ أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه . عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبي سفيان ﷺ فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يباع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ شيئا ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة ﷺ فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا الذي أنزل فيه : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِاتَّبِعِيْنِي أَنِي لَكُنَّ عُتْدَاتٍ لِّأَن أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَى الْقُرُوبُ مِنِّي ﴾ فقالت عائشة ﷺ من وراء الحجاب : ما أنزل الله ﷻ فيها شيئا من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل علي (١) .

وقوله : ﴿ أَتَدْعِي أَنْ نَخْرُجَ ﴾ أي أبعت ﴿ وَقَدْ عَلَيَ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مختير ﴿ وَمَا يَسْتَعِجِلُ اللَّهُ ﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدكما ﴿ وَبَلَّغَ آمِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ يُؤْتَى مَا كُنَّا إِلَّا مَسْمُوعِينَ الْآخِثِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ أُوذِيَكَ الْيَتِيمَ حَقَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بِئِذَا كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَنْ لَيْتِي وَالْإِنِّ لَأَنْتُمْ كَمَا كُنَّا خَشِيعٌ ﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم ، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة . وقوله ﴿ أُوذِيَكَ ﴾ بعد قوله ﴿ وَالْأَوَّلَى قَالَتْ ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك . وقال الحسن وقتادة : هو الكافر الفاجر المارق لوالديه المكذب بالبعث .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله ﴿ وَلِيُذِيقَهُمْ أَثْمَهُمْ لَا يُفْلَكُونَ ﴾ أي لا يظلمهم ، من مثقال ذرة فما دونها . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات النار تذهب سفلاً ، ودرجات الجنة تذهب علواً . وقوله ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْكَافُرُونَ عَلَى آثَارِهِمْ لَنَنبِتُهُمْ فِيهَا حِجَابًا أَلْبِنًا وَأَسْتَنْتُمْ بِهَا ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً ، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طبقات المأكول والمشرب . وتنزه عنها ويقول : إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم ووبخهم وقرعهم . ﴿ أَذْهَبَتْ بِجَنَّةٍ فِي حِجَابٍ أَلْبِنًا وَأَسْتَنْتُمْ بِهَا ﴾ . وقال أبو مجاز : ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم : ﴿ أَذْهَبَتْ بِجَنَّةٍ فِي حِجَابٍ أَلْبِنًا ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ نَالُوا بِمَزْوَةٍ عَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَفَرُوا فَتَعْلَمُونَ فِي الْأَرْضِ جَنَّةَ النَّارِ وَبِمَا كُفَّمُ قَسْوُونَ ﴾ فنجوزوا من جنس عملهم ، فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق وتعاطوا الفسق والمعاصي ، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون ، وهو الإهانة والخزي والالام الموجهة والحسرات المتتابعة والمنازل في الدرجات المفضلة ، أجازنا الله ﷻ من ذلك كله .

وَأَذْكُرْ لِمَا كَانُوا إِذْ أُنذِرُوا قَوْمَهُمْ بِالْأَحْقَابِ وَقَدْ خَلَّى النُّجُومَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا مَرْجِعًا إِلَّاءَ إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَنَافٍ عَنِ الْعَالَمِ ۝ عَذَابٌ يَوْمَ فَاطِمَةَ ۝ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِآيَاتِكُمْ أَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَأَتَىكُمُ مَّا أَرْسَلْتُمْ بِهِ ۝ وَلَكِنَّكُمْ تَتَحَمَلُونَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْهُ كَارِهُينَ اسْتَقْبَلُوهُ أَنْفُسُهُمْ فَكُلُوا مِنْهُمَا كَالْفِطْرِ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ تَذَكَّرْتُ كُلَّ مُنْذِرٍ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَّا مَسْجُومِينَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُجْتَرِمِينَ ۝

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام ، بعثه الله ﷻ إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف ، جمع حقف وهو الجبل

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٢٧) .

من الرمل ، قال ابن زيد ، وقال عكرمة : الأحقاف الجبل والغار ، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : الأحقاف واد بحضرموت يدعى يرهوت تلقى فيه أرواح الكفار ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحمنا الله وأخا عاد » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَرِسَالَةً ﴾ يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين كقوله ﷻ : ﴿ كَانَ أَوَّلُ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ طُورَ مِصْرَ بِإِذْنِ رَبِّكَ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذَا ظَاهَرُوا فِي عُتُوٍّ وَجُوهٍ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ لَهُ الْكِتَابَ عَلَيْكَ فِي هَٰذِهِ الْمَدِينَةِ وَالْأَوَّلُ الْحَقُّ لَئِنْ لَمْ يَسْجُدُوا لِلَّهِ لَآتَيْنَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْوَحْيَ الْكَافِرَ وَأَوَّلُ مَا سَمَعْنَا مِنَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ أَن يَقُولُوا نَحْنُ قَوْمُ مَوْسَىٰ وَنَحْنُ الْمُسْلِمُونَ ﴾ أي قال لهم هود ذلك ، فأجابهم قومه قائلين ﴿ أَيْخَانَتَنَا بِإِيمَانِكُمْ مِنَ الْكَيْفِيَّةِ أَوْ لَمَّا مَسَّكُمْ ﴾ أي لتصدنا عن آلهتنا ﴿ فَأَلَمَّا يَمَّا تُولَدْنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ الْغَافِقِينَ ﴾ استمعجوا عذاب الله وعقوبته استمعجاء منهم وقوعه ﴿ قَالَ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيجعل ذلك بكم ، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿ وَلَٰكِنَّ أَزْوَاجَهُمْ قَوْمًا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا تعلمون ولا تفهمون .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أُنْدِيَّتِهِمْ ﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض مطر ، ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا محملين محتاجين إلى المطر . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ رَمَا مَسْتَجِبَتْ لَهُمْ يَمِينُهُمْ فِيهَا غَدَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي هو العذاب الذي قلم : فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿ تُذَكِّرُ ﴾ أي تخرب ﴿ كُلَّ مَثَلٍ ﴾ من بلادهم بما من شأنه الخراب ﴿ وَأَنزِلْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ فِي هَٰذِهِ الْمَدِينَةِ ﴾ أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم يبق لهم باقية ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلْعَالَمِينَ الْآيَاتِ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ هُمْ أَغْوَيْنَا أَنَّهُمْ كَذَٰبٌ كَذِبٌ ﴾ أي هذا حكمتنا فمن كذب رسلنا وخالف أمرنا . عن الحارث البكري قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ، فمررت بالريذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبغني إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت بها للمدينة ، فإذا المسجد غاص بأمله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال رضي الله عنه متقلدا السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يموت عمرو بن العاص رضي الله عنه وجها قال : فجلست فدخل منزله - أو قال : رحله - فاستأذنت عليه ، فإذا لي ، فدخلت فسلمت ، فقال ﷺ : « هل كان بينكم وبين تميم شيء ؟ » قلت : نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألته أن أحملها إليك فهاهي بالباب ، فأذن لها فدخلت فقلت : يا رسول الله إن رأيت إن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء ، فحميت العجوز واستوفرت وقالت : يا رسول الله فإني أين يضطر مضطرك ؟ قال : قلت : إن مثلي ما قال الأول معزى حملت حنقها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ، قال لي وما وافد عاد ؟ - وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطيعه - قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وقدأ لهم يقال له قيل ، فمر بجماوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللهم إنك تعلم أنني لم أجد مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأقاده ، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه ، فمرت به صحابات سود فنودي منها : اختر . فأومأ إلى صحابة منها سوداء فنودي منها ، خذها رمادا رمدا ، لا يقي

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٥٢) .

من عاد أحداً، قال : فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا قدر مايجري في خاتمي هذا حتى هلكوا، قال أبو وائل : وصلقت وكانت المرأة والرجل اذا بهثوا وافندا لهم قالوا : لا تكن كوفاد عاد ^(١) . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجعماً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتسم . وقالت : كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه . قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه مطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب وقالوا : هذا عارض ممطرنا » ^(٢) . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم في البدو إلى الحضر ، فلما رأها أهل الحضر قالوا : هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا ، وكان أهل البوادي فيها ، فالتقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا - قال - : عثت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب » ^(٣) .

﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ يُثَمَّا إِذْ تَنَّكُمْ يَوْمَ وَصَلَكُمْ لَكُمْ سَمًا وَابْسُرًا وَاقْبَدَ فَمَا أَفَقَ عَنْهُمْ مَعْمَهُمْ وَلَا ابْتَسَرُهُمْ وَلَا أَبْدَتْهُمْ مِنْ قَوْمٍ إِذْ كَانُوا يَجْمَدُونَ بِكَيِّتِ اللَّهِ وَتَأَقَّ يَوْمَ تَأْ كَانُوا يَوْمَ يَسْتَبْزُونَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْغَرِّينَ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَكُمْ يَحْزُونَ ﴾ ﴿ فَلَوْلَا صَبْرُكُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا لِّإِلَهِةٍ بَلْ سَلَوْا عَنْهُمُ وَذَلِكَ لِيُنْظَرَهُمْ وَمَا كَانُوا بِمَشْهُورَةٍ ﴾ .

يقول تعالى : ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما لم نمطكم مثله ولا قربنا منه ﴿ وَصَلَكُمْ لَكُمْ سَمًا وَابْسُرًا وَاقْبَدَ فَمَا أَفَقَ عَنْهُمْ مَعْمَهُمْ وَلَا ابْتَسَرُهُمْ وَلَا أَبْدَتْهُمْ مِنْ قَوْمٍ إِذْ كَانُوا يَجْمَدُونَ بِكَيِّتِ اللَّهِ وَتَأَقَّ يَوْمَ تَأْ كَانُوا يَوْمَ يَسْتَبْزُونَ ﴾ أي وأجاط بهم العذاب والذكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه ، أي فاحلروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْغَرِّينَ ﴾ يعني أهل مكة ، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد ، وكانوا بالأحقاف بحضرموث عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم ومجرهم إلى غرة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يبرون بها أيضاً . وقوله ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿ لَكُمْ يَحْزُونَ ﴾ ﴿ فَلَوْلَا صَبْرُكُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا لِّإِلَهِةٍ ﴾ أي فهل نصرورهم عند احتياجهم إليهم ؟ ﴿ بَلْ سَلَوْا عَنْهُمُ ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أخرج ما كانوا إليهم ﴿ وَذَلِكَ لِيُنْظَرَهُمْ ﴾ أي : كذبهم ﴿ وَمَا كَانُوا بِمَشْهُورَةٍ ﴾ أي وافترأهم في اتخاذهم إلهام آلهة وقد خابروا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها ، والله أعلم . ﴿ وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ قَلْبَكَ مِنَ الْبَازِئِرِ يَسْتَحْمُونَ الْفَرَّكَانَ فَلَمَّا خُصِرُوا قَالُوا أَسِيرُوا فَلَمَّا فَتِنُوا رَأَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُّذْذِرِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا يَنْقُصُونَ إِنَّا سَيِّئَاتٌ كَرِهْنَا لَنَا مِن دُونِ اللَّهِ مُصَافَاةً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْخَبَرِ وَإِنَّ طَرِيقَ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يَفْقَرُونَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٢/٣) والطبراني في الكبير (٢٨٨/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ومسلم في صلاة الاستسقاء (١٦) وأحمد في مسنده ٦٦/٦ ، ولهواه : جمع لهاته وهي اللحمة الحمراء للعلقة في أعلى الحلق .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٣/٧) .

بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً قوماً بعد قوم ، وفوجاً بعد فوج .

عن معن بن عبد الرحمن ، قال : سمعت أبي يقول : سألت مسروقاً من أذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني . أبوك - يعني ابن مسعود ﷺ - أنه أذنته بهم شجرة ^(١) ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ويكون إثباتاً مقلداً على نفي ابن عباس ﷺ ، ويحتمل أن يكون في الأولى ، ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى أذنته بهم الشجرة أي أعلمته باجتماعهم ، والله أعلم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات ، والله أعلم .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس ﷺ إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرههم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ كما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ .

ذكر الرواية عنه بذلك : عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود ﷺ : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحداً فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا : اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح - أو قال في السحر - : إذ نحن به يجيء من قبل حراء ، فقلنا : يا رسول الله ، فذكروا له الذي كانوا فيه فقال : إنه أتاني داعي الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم . قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، قال : قال الشعبي : سأله الزاد ، قال عامر : سأله بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال : كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل برة أو روثة علف لدوابكم . - قال - : فلا تستجروا بهما ، فإنهما زاد إخوانكم من الجن ^(٢) .

عن ابن عباس عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : إنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال رسول الله ﷺ : يا عبد الله أمعك ماء ؟ قال : معي نبيذ في إداوة . قال ﷺ : اصعب عليّ فتوضأ . فقال النبي ﷺ : يا عبد الله شراب وطهور ^(٣) . وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خط حوله ، فكان أحدهم مثل سواد النحل ، وقال : لا تبرح مكانك فأقرئهم كتاب الله ، فلما رأى المرعى قال : كأنهم هولاء وقال النبي ﷺ : أمعك ماء ؟ قلت : لا . قال : أمعك نبيذ ؟ قلت : نعم ، فتوضأ به ^(٤) .

وعن قتادة في قوله تعالى ﴿ وَذَٰلِكَ مَرْثَا إِلَٰهِكَ تَزَكَّىٰ يَنِ الْيَتِيمَ ﴾ قال : ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى وأن نبي الله ﷺ قال : إني أمرت أن أقرأ على الجن فأبكم يتبعني ؟ فاطرقوا ثم استمعهم ، فاطرقوا ثم استمعهم الثالثة ، فقال رجل : يا رسول الله إن ذلك لذنو ندبة ، فأتبعه ابن مسعود ﷺ أخو هذيل ، قال : فدخل النبي ﷺ شعباً يقال له : شعب الحمجون وخط عليه ، وخط على ابن مسعود ﷺ خطاً ليثبت به ذلك ، قال : فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشي في دفرنها ، وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ ، ثم تلا القرآن فلما رجع رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٥٩) ومسلم في الصلاة (١٥٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٢) والترمذي في السنن (٣٢٥٨) وأحمد في مسنده (٤٣٦/١) والبيهقي في السنن (١١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/١) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٥/١) .

ما اللفظ الذي سمعت ؟ قال ﷺ : « اختصموا في قتيل ، فقضي بينهم بالحق » ^(١) .
فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً ، فلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ
وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت ، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه
يقرأ القرآن لم يشعر بهم ، كما قال ابن عباس رضي الله عنه . ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه ،
وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان
بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، هذه طريقة
البيهقي ، وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره ، عن
سميد بن عمرو قال : كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بإدواة لوضوئه وحاجته ، فأدركه يوماً
فقال : « من هذا ؟ » قال : أنا أبو هريرة . قال ﷺ : « اتنني بأحجار استنج بها ، ولا تأتني بعظم
ولاروة » فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته ، فقلت : يا رسول الله ما
بال عظم والروثة ؟ قال ﷺ : « أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد ، فدعوت الله تعالى لهم أن
لا يمروا بروثة ولا عظم إلا وجدوه طعماً » ^(٢) فهذا يدل على ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك .
وقد روي عن ابن عباس غير ما روي عنه أولاً من وجه جيد ، في قوله تعالى : ﴿ وَادَّعَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ
تَبْكِرَ ۚ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَبْعِ نَفَرٍ مِّنْ أَهْلِ نَصِيبٍ ، فَجَعَلَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ رِشَالًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ .
فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ رَوَى الْقِصَّتَيْنِ .

عن ابن مسعود رضي الله عنه : كانوا تسعة أئدهم زوبعة ، أتوه من أصل نخلة ، وتقدم عنهم أنهم كانوا خمسة
عشر ، وفي رواية : أنهم كانوا على ستين راحلة ، وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان ، وقيل : كانوا لثلاثة ،
وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً ، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه رضي الله عنه ، وما
يدل على ذلك قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه : ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا إلا كان
كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس ، إذ مر به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظني - أو أن هذا
على دينه في الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم - علي بالرجل ، فدعني له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت
كاليوم استقبل به رجل مسلم ، قال : فإني أعزم عليك إلا ما أخبرني قال : كنت كاهنهم في الجاهلية قال :
فما أعجب ما جاءتك به جيتك ، قال : بينما أنا يوماً في السوق جاعتي أعرف فيها الفرع فقالت :

ألم تر الجن وإبلاها
ويأسها من بعد انكاسها
ولحقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر رضي الله عنه : صدق ، بينما أنا نائم عند آلهم ؛ إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ
لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول : يا جليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إله إلا الله
قال : فوثب القوم فقلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا ، ثم نادى : يا جليح ، أمر نجيح ، رجل
فصيح يقول : لا إله إلا الله ، فقمتم فما نشبنا أن قيل : هذا نبي ^(٣) .

(٢) أخرجه البخاري في مثالب الأنصار (٣٨٦٠) .

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٤١٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في مثالب الأنصار (٣٨٦٦) .

وعن البراء رضي الله عنه قال : بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخاطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس أففيكم سواد بن قارب ؟ قال : فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس أففيكم سواد بن قارب ؟ قال : فقلت : يا أمير المؤمنين وماسواد بن قارب ؟ قال : فقال له عمر رضي الله عنه : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ، قال : فبينما نحن كذلك ؛ إذ طلع سواد ابن قارب قال : فقال له عمر رضي الله عنه يا سواد حدثنا ببدا إسلامك كيف كان ؟ قال سواد رضي الله عنه : فإني كنت نازلاً بالهند وكان لي ربي من الجن ، قال : فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ جاءني في منامي ذلك ، قال : قم فافهم واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسول من لؤي بن غالب ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها	وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى	ما خير الجن كأنجاسها
فانهض إلى الصفوة من هاشم	واسم بعينك إلى رأسها

قال : ثم أنبهني فأقرعني وقال : يا سواد بن قارب ، إن الله ﷻ بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد ، فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها	وشدها العيس بأفتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى	ليس قدامها كأذنبها
فانهض إلى الصفوة من هاشم	واسم بعينك إلى قابها

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني ثم قال :

عجبت للجن وتخيارها	وشدها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى	ليس ذوو الشر كأخيارها
فانهض إلى الصفوة من هاشم	ما مؤمنو الجن ككفارها

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله ، قال : فانطلقت إلى رحلي فشدته على راحتي ، فما حللت تسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ فإذا هو بالمدينة يعني مكة ، والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رأيته النبي ﷺ قال : « مرحباً بك يا سواد بن قارب قد علمنا ما جاء بك ، قال : قلت : يا رسول الله قد قلت شعراً فاسمعه مني قال ﷺ : « قل يا سواد » فقلت :

أتاني ربي بعد ليل وهجرة	ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة :	أتاك رسول من لؤي بن غالب
فشمرت عن ساقى الإزار ووسطت	بي الدغلب الوجناء بين الشتاب
فأشهد أن الله لا رب غيره	وأنت مأمون على كل غائب
وأنت أدنى المرسلين وسيلة	إلى الله يا ابن الأكرمين الأطياب

فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل
وكن لي شفيعا يوم لاذو شفاعة
وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
سواك بمغن عن سواد بن قارب

قال : فضحك ، النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال لي : « أفلحت بأسواد » فقال له عمر رضي الله عنه : هل يأتيك ريثك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتي ، ونعم العوض كتاب الله ﷻ من الجن ^(١) .
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَذُكِّرْ صَرَفًا إِلَيْكَ تَفَرًّا يَنْ أَلَيْسَ ﴾ أي طائفة من الجن ﴿ يَسْتَعِينُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَصِبْتُ ﴾ أي استمعوا وهذا أدب منهم .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : « ما لي أراكم سكوتا ؟ للجن كانوا أحسن منكم ردا ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ يَأْتِي بَالَهُمْ ذِكْرُكَ أَكْثَرًا مِّنْ أَن يَأْتِيَنَّكَ ﴾ إلا قالوا : ولا بشيء من الآثك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ^(٢) . وقوله ﷻ ﴿ قُلْنَا أَفَرَأَيْتُمْ إِيَّاهُ إِذَا دُعِيَ إِلَى الْجَنِّ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ وَأَنذَرُوهُمْ مَا سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷻ وَقَدْ اسْتَدْلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَنَّهُ فِي الْجَنِّ نَذْرٌ وَلَيْسَ فِيهِمْ رَسَلٌ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَنِّ لَمْ يَحِثَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ رَسُولًا لِّقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَكَأَنَّا أَرْسَلْنَا قُرْآنَكَ بِاللُّغَةِ الْبَشَرِيَّةِ ثُمَّ نَبَّاهُ بِالنَّبِيِّ الْأَعْرَبِ ﴾ . وقال عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَبْنَاءَ وَالْكَنَزَ ﴾ فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلاته .

فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام : ﴿ يَمْتَسِرَ الْإِنسَانُ وَالْإِنْسِ أَمْرَ بَالِكُمْ رَمَلٌ يَنْتَكُم ﴾ فالمراد هنا مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنسان كقوله : ﴿ يَمْرُجُ مِنْهَا الْكُلُّ وَالْكَرْبُ ﴾ أي أحدهما ، ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبرا عنهم : ﴿ قَالُوا يَقُولُونَ إِنَّا سَمِعْنَا صَوْتًا أَنزَلَ مِنْ بَعْدِ مَوْسَى وَلَمْ يَذْكُرُوا عِيسَى لِأَنَّ عِيسَى ﷺ أَنزَلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلَ فِيهِ مَوَاعِظُ وَتَرْغِيبَاتُ وَقَلِيلٌ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْمَتَمِّ لَشَرْعَةِ التَّوْرَةِ فَالْعَمْدَةُ هُوَ التَّوْرَةُ ، فَلِهَذَا قَالُوا : أَنزَلَ مِنْ بَعْدِ مَوْسَى ، وَهَكَذَا قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ حِينَ أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقِصَّةِ نَزُولِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ : بَخ ! هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مَوْسَى ، يَأْتِيَنِي أَكُونُ فِيهِ جَدْعًا . ﴿ مَصْنُوعًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله . وقوله ﴿ يَتَوَدَّ إِلَى أَلْحَى ﴾ أي في الاعتقاد والإخبار ﴿ وَكَانَ طَرِيقُ مَسْتَقِيمٍ ﴾ في الأعمال ، فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب ، فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُ كَمَا نَزَّلْتُ إِلَيْكَ صِدْقًا وَتَذَكُّرًا ﴾ .

وهكذا قالت الجن ﴿ يَتَوَدَّ إِلَى أَلْحَى ﴾ في الاعتقادات ﴿ وَكَانَ طَرِيقُ مَسْتَقِيمٍ ﴾ أي في العمليات ﴿ يَقُولُونَ لِيُجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدا ﷺ إلى التقلين الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الغريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهي سورة الرحمن ولهذا قال : ﴿ لِيُجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَيَتَلَبَّسُوا بِهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَتَوَدَّ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ ﴾ قيل : إن من ههنا زائدة ، وفيه نظر ، لأن زيادتها في الإنبات قليل ، وقيل : إنها

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٥١/٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٧٣/٢) والبيهقي في دلائل النبوة (١٧/٢) .

وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ ، وقد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى ، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون ﴿يَنْ﴾ في قوله ﴿يَنْ أَرْسُلْ﴾ لبيان الجنس ، والله أعلم .

وعن مسروق قال : قالت لي عائشة رضي الله عنها : ظل رسول الله ﷺ صائما ثم طواه ، ثم ظل صائما ، ثم طواه ، ثم ظل صائما ثم قال : « يا عائشة إن الدنيا لاتنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروها والصبر على محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال : ﴿قَاصِرٌ كَمَا صَبَرِ أَوَّلُوا الْقُرْآنَ يَنْ أَرْسُلْ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله ^(١) ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لُنَّ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم . وقوله جل وعلا ﴿بَلِّغْ﴾ . قال ابن جرير : يحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون تقديره : وذلك لبث بلاغ ، والآخر : أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ . وقوله تعالى : ﴿فَهَلْ يَهْدِي إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أي لا يهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله ﷻ أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب ، والله أعلم .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٥/٦) .

الأسير ومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله . وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتيل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر . وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له : « ما عندك يا ثمامة ؟ » فقال إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمنن تمنن على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت ^(١) . وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضًا .

وقوله ﷺ : ﴿ حَتَّى تَنْتَحِلَ كَلِمَتَهُ أَوْزَارًا ﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وكأنه أخذه من قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » ^(٢) . عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : « إني سيئت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت : لا قتال ، فقال له النبي ﷺ : « الآن جاء القتال ، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس ، يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ، ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام ، والحليل معقود في نواصبيها الخير إلى يوم القيامة » ^(٣) .

وقال قتادة : ﴿ حَتَّى تَنْتَحِلَ كَلِمَتَهُ أَوْزَارًا ﴾ حتى لا يبقى شرك ، . ثم قال بعضهم : ﴿ حَتَّى تَنْتَحِلَ كَلِمَتَهُ أَوْزَارًا ﴾ أي أوزار المحاررين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله ﷻ ، وقيل : أوزار أهلها بأن يذبلوا الوسع في طاعة الله تعالى . وقوله ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَنِيعْبُدَنَّكَ أَنْفُسَهُمْ فَيَعْبُدُونَ غَيْرَكَ مِنْ دُونِكَ وَأَن يَتَّبِعُوا مِثْلَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ وَلَكِنْ يَبْتَغِي الْيَهُودُ بِمَنَاسِكِهِمْ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقاتل الأعداء ليخربكم ، ويذلو أخباركم ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤَلِّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ قَدْ يُثْبِتُ كَلِمَتَهُمْ ﴾ أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها وبضاعفها . ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه .

فمن المتقدمين بن معد يكرب الكندي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت ، والياقوت منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه » ^(٤) . وعن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين » ^(٥) . وقال أبو الدرداء ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » ^(٦) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ سَيِّئِينَ ﴾ أي إلى الجنة ﴿ يَصْلَحُ كَلِمَهُمْ ﴾ أي أمرهم وحالهم ﴿ وَيُؤْتِيَهُمْ

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٧٢) ومسلم في الجهاد (٥٩) وأحمد في مسنده (٤٥٢٢) وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٣) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢٤٨٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٩٢) وابن ماجه في السنن (٦) وأحمد في مسنده (٩٧/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسند (١٣١/٤) والبيهقي في جميع الروايات (٢٩٣/٥) .

(٥) أخرجه مسلم في الإمامة (١١٩) وأحمد في مسنده (٢٢٠/٢) والحاكم في المستدرک (١١٩/٢) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٢٥٢٢) والبيهقي في السنن (١٦٥/٩) .

الْجَنَّةَ عَرَفَهَا نَبِيُّ ﷺ أَي عرفهم بها وهداهم إليها . قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومسكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحد ، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له ، فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف للملك عنه . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار : يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا وتقوا ، أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزلة في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا » ^(١) .

﴿اللَّهُ يَبْدِئُ فِي الْأَرْضِ لِيُنظُرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَرَجَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ ۚ وَاللَّذِينَ آمَنُوا أَتْلُوهُ ۚ﴾ وَإِلَٰهُكُمْ اللَّهُ ۚ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا الْكُفَّاءُ لَا مَوْلَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَدِئُ الْإِنسَانِ وَأَوَّلَهُ وَأَخْلَقَ أَزْوَاجَهُ ۖ حَمَلَتْهُنَّ فَطَنَّاهُنَّ فَنَمَّوْنَ ۖ فَكُلَّوْا وَشَبَّوْا ۚ ثُمَّ نَبِّئْهُنَّ لِمَ كَفَرْنَ ۚ إِنَّهُنَّ يَسْتَكْبِرْنَ ۚ ثُمَّ تَجِبْنَ عَلَىٰ ذُكْرِ آلِهَتِهِنَّ ۚ ثُمَّ لَا يَخْشَوْنَ ۚ فَتَكْفُرْنَ ۚ

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٠) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/٤).

وفوقه عرش الرحمن (١).

وعن عاصم بن لقيط قال : إن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله فعلى ما تطلع من الجنة ؟ قال ﷺ على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من خمر مابها من صداع ولاندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة ، لعمر الهلك ما تعلمون ، وخير من مثله ، وأزواج مطهرة . قلت : يا رسول الله أولنا فيها أزواج مصلاحات ؟ قال الصالحات للصالحين ، تلذهن مثل لذاتكم في الدنيا ، ويلذونكم غير أن لا توالد (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ كقوله ﷺ ﴿ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ يُؤْبَى ﴾ وقوله ﷺ : ﴿ وَمَنْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي مع ذلك كله . وقوله ﷺ : ﴿ كَنْزٌ هُوَ خَيْرٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات . ﴿ رُسُلُوا مَاءً حَيًّا ﴾ أي حاراً شديد الحر لا يستطيع ﴿ فَنَقَعَ أَمَةً مَرَّةً ﴾ أي قطع مافي بطونهم من الأمعاء والأحشاء .

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَنًّا إِنْ خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَاذَا قَالَ عِندَ رَبِّكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ ١ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَتَسْوِئَةً فَبَشِّرْهُم بِقُرْبِهِمْ ٢ ﴿ قُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا الشَّعْءَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَانَهُمْ فَأَنْتَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يُلَاقُونَكَ وَلِتُنَبِّئَهُمْ لِذُنُوبِهِمْ وَلِتُنَبِّئَهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَنْ يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ ٣ .

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً فإذا خرجوا من عنده ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ من الصحابة ﷺ ﴿ مَاذَا قَالَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي الساعة . لا يعقلون مقال ولا يكثرثون له . قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْبَيْتُ مَطْبَعًا لِلَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح . ثم قال ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَتَسْوِئَةً فَبَشِّرْهُم بِقُرْبِهِمْ ﴾ أي ألهمهم رشدهم . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا الشَّعْءَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَانَهُمْ ﴾ أي أمارات اقترابها كقوله تبارك وتعالى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ٥ أَلَمْ يَكُنْ الْأَوَّلَةُ ﴾ فبغته رسول الله ﷺ من أشرار الساعة ؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحججة على العالمين .

وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراتها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله ، كما هو مبسوط في موضعه . وقال الحسن البصري : بغته محمد ﷺ من أشرار الساعة وهو كما قال ، ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ونبي الملحمة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليسى بعده نبي (٣) . وعن سهل بن منعد ﷺ قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٢) والبيهقي في السنن (١٥/٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤ ، ١٢٥) .

وقوله ﷺ : ﴿ قَهْلَ عَسَيْتُمْ إِنِ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿ أَنْ تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ، أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّهُمْ أَصْمَرَهُمْ ﴾ وهذا نهي عن الإسفاد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة ، عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « خلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن ﷻ فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك » قال أبو هريرة ؓ : أقرأوا إن شئتم ﴿ قَهْلَ عَسَيْتُمْ إِنِ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ^(١) .

وعن أبي بكر ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أحرى أن يسجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » ^(٢) . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إن لي ذوي أرحام ، أصل ويقطعون ، وأغفو ويظلمون ، وأحسن ويسبون ، أفأكافئهم ؟ قال ﷺ : « لا ، إذن تتركون جميعاً ، ولكن مجد بالفضل وصلهم ، فإنه لن يزال معك ظهير من الله ﷻ ما كنت على ذلك » ^(٣) .

وعن عبد الله بن عمرو ؓ قال : « قال رسول الله ﷺ : « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » ^(٤) .

وعن إبراهيم بن عبد الله بن فارض ، أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف ؓ وهو مريض ، فقال له عبد الرحمن ؓ : وصلتك رحم ، إن رسول الله ﷺ قال : قال الله ﷻ : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن يصلها أصله ، ومن يقطعها أقطعه فأبته » أو قال : « من أبها أبته » ^(٥) .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَارَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ^(١) إِنَّ الْفَرَارَاتِ أَنْتَبَذُوا عَلَى أَنْبَازِهِمْ مِنْ بَيْنَ مَا بَيْنَ لَهُمْ الْهُدَى الْخَبْلَانِ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ^(٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَلِيلُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَأَنَّهُ يَبْدُو سِرَّكُمْ إِسْرَارَكُمْ ^(٣) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يَتَذَكَّرُونَ وَيُخَفِّفُونَ وَأَذِيقْتُمْ ^(٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَالْحَبِطَ لَصْنُكُمْ ﴾ .

يقول تعالى أمراً بتدبر القرآن وتفهمه ونهاية عن الإعراض عنه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَارَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أي بل على قلوب أقفالها ، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه ، عن هشام بن

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠٢) ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٤) ومشي : « فاعطت بحقوي الرحمن » : أي استجارت واعصمت بالله تعالى .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٥) والترمذي في السنن (٢٥١١) والدرمي في السنن (٢٥٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٩) وأحمد في مسنده (١٦٣/٢) والبيهقي في السنن (٢٧٠/٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/١) .

عروة عن أبيه عليه السلام قال : تلا رسول الله ﷺ يوما ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاكَاتُ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب في نفس عمر عليه السلام حتى ولي فاستعان به ^(١) . ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ الْوَيْتُ انْبَدَلُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ يَوْمَ بَدَأَ مَا بَدَأَ لَهُمْ الْأَمْعَتُ ﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿ يَوْمَ بَدَأَ مَا بَدَأَ لَهُمْ الْأَمْعَتُ انْبَدَلُوا سَوْدَ لَهُمْ ﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿ وَأَنَّى لَهُمْ ﴾ أي غرهم وخدعهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَتْ آفَةُ سُحُطِصُفٍ فِي بَعْضِ الْأُمَمِ ﴾ أي مألؤهم وناصحوهم في الباطن على الباطل ، وهذا شأن المنافقين يظهرهم خلاف ما يظنون ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ وَأَنَّهُ يَسْأَلُ سِرَارَكُمْ ﴾ أي ما يسرون وما يخفون ، الله مطلع عليه وعالم به كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَّبَ إِذَا تَوَفَّتْهُ اللَّاتُكَةُ يَتَرْتَوَىٰ وَجُوهُهُمْ وَادْبَرْتُمْ ﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصبت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَلَّى الْيَتِيمَ كَفَرُوا اللَّاتُكَةُ يَتَرْتَوَىٰ وَجُوهُهُمْ وَادْبَرْتُمْ ﴾ الآية . ولهذا قال ههنا : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَانَهُمْ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرُوضٌ أَنْ لَنْ يَخْفَىٰ اللَّهُ أَسْمَانَهُمْ ﴾ ^(٢) وَلَوْ تَرَىٰ أَكْثَرَهُمْ قَلْبَهُمْ قَصَرْتَهُمْ يُبَيِّنُهُمْ وَتَتَبَلَّوْا لَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَهُمْ ^(٣) وَتَتَبَلَّوْا لَهُمْ حَتَّىٰ قَلَّ السَّجَّادِينَ بَيْنَكُمْ وَالْمُسِيءِينَ وَتَبَوَّأُوا أُمَمًا بَرَكَةً ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرُوضٌ أَنْ لَنْ يَخْفَىٰ اللَّهُ أَسْمَانَهُمْ ﴾ أي أعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فينبأ فيها فضائحهم ، وما يمتدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة . والأضيغان : جمع ضغن وهو مافي النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ أَكْثَرَهُمْ قَلْبَهُمْ قَصَرْتَهُمْ يُبَيِّنُهُمْ ﴾ يقول ﷻ : ولو نشاء يا محمد لأرى لك أشخاصهم فعرضهم عيانا ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه ، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة ، ورؤا للسرار إلى عالمها ﴿ وَتَتَبَلَّوْا لَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الخزين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وفي الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلابيها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر » ^(٤) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين فمن سميت قليم » - ثم قال : « قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان » حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً ثم قال : « إن فيكم - أو منكم - منافقين فاثقوا الله » قال فمر عمر رضي الله عنه برجل ممن سمي مقنع قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فجدته بما قال رسول الله ﷺ فقال : بعدًا لك

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧٥/٢٦) .

(٢) أخرجه الطبري في الكبير (١٨٤/٢) والبيهقي في جميع الروايات (٢٢٥/١٠) .

يقول تعالى تحقيرا لأمر الدنيا وتهويها لشأنها ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَمَلٌ وَلَهُوَ ﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قُضِيَ الْأَمْرُ لَكُمْ لَيُؤْتِيَنَّكُمْ أَمْثَلَهُمْ ﴾ أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئا وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم ، ثم قال ﷻ : ﴿ إِنْ يَتَكَلَّمْكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ يَتَخَلَّوْا ﴾ أي يخرجكم تبخلوا ﴿ وَيَتَرَبَّصَّ بَكُمُ ﴾ قال قتادة : قد علم الله تعالى إن في إخراج الأموال إخراج الأضيغان . وصدق قتادة ؛ فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه . وقوله تعالى : ﴿ هَآتَاكُمْ هَؤُلَاءِ تَذَكَّرْتُمْ لِيُفْقَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُنْفِقَكُمْ ﴾ أي لا يجيب إلى ذلك ﴿ وَمَنْ يَتَخَلَّ بِإِلَهِكُمْ يَتَخَلَّ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿ وَاللَّهُ الْتَقِيُّ ﴾ أي عن كل ماسواه وكل شيء فقير إليه دائما ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ﴾ أي بالذات إليه ، فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه . وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ تَتُوبَا ﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَرْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونَا أَمْثَلَكُمْ ﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . عن أبي هريرة ؓ قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ وَلَئِنْ تَتُوبَا يَسْتَبْدِلْ قَرْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونَا أَمْثَلَكُمْ ﴾ قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب يده على كف سلمان الفارسي ؓ ثم قال : « هذا وقومه ، ولو كان الدين عند الشريا لتناولوه رجال من الفرس » (١) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٧٦٠) والألباني في الصحيحة (١٠١٧) .

مسورة الفتح

عن عبد الله بن مغفل يقول : قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته ، فرجع فيها . قال معاوية : لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ وَحْدَهُ عَلَيْكَ بِرَحْمَتِهِ وَسَيُجَنَّبُكَ مِنَ الْمَغْتَابِ ﴿١٢﴾ وَيُصْرِّحَ اللَّهُ بِصُورٍ عَزِيزٍ ﴿١٣﴾﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه ، وحاولوا بينه وبين ذلك ثم مالوا الى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله ﷻ هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحا باعتبار ما فيه للمصلحة وما آل الأمر إليه ، وعن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر فزحناها ، فلم تترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاناها فجلس على شفيرها ثم دعا يافاناً من ماء فوضأ ، ثم غضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ، ثم أنها أبعدتنا ماشئنا ونحن وركائبنا ^(٧) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال : فسأله عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي ، قال : فقلت في نفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألححت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟ قال : فركبت راحتي فحركت بعيري فقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء ، قال : فإذا أنا بمجاد يا عمر ، قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء ، قال : فقال النبي ﷺ « نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها » **﴿ إِنَّا فَتَنَّاكَ فَتَمَّ ثَبِيَّتُكَ ۖ وَتَمَّ بِكَ الْوَعْدُ ۚ وَمَا تُخَاخَرُ ۚ ﴾** ^(٣) ، وعن مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه ، وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباهر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم **﴿ إِنَّا فَتَنَّاكَ فَتَمَّ ثَبِيَّتُكَ ۚ ﴾** قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : أي رسول الله أو فتح هو ؟ قال ﷺ : « إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » قسمت خيرير على أهل الحديبية ، لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهما . وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلثمائة

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (١٨٣٥) وأحمد في مسنده (٢٤/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٣) والترمذي في السنن (٣٢٦٢) كلاهما بنحوه ، وأحمد في مسنده (٣١/١) بالنقل .

فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الرجل سهماً^(١) .

وعن المغيرة بن شعبة يقول : كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماء ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ : « أفلا أكون عبداً شكوراً »^(٢) . قوله ﷺ : ﴿ إِنَّا فَتَقْنَاكَ فَمَا تَبْتَغِي ﴾ أي بيتاً وظاهراً ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جليل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُغَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تشريف لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال : حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الغيل » ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمت الله إلا أجبتهم إليها »^(٣) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له : ﴿ إِنَّا فَتَقْنَاكَ فَمَا تَبْتَغِي ﴾ لِيَبْلُغَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَبْشُرَنَّ بِفَتْحِكَ أَي في الدنيا والآخرة ﴿ وَيُبَشِّرَكَ بِمَكَرٍ مُّشْتَبِهٍ ﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم ﴿ وَيُبَشِّرَكَ اللَّهُ بُشْرًا مَّا تَبْتَغِي ﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله ﷻ يرفعك الله وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله ﷻ إلا رفعه الله تعالى »^(٤) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدُوا إِيْمَانَهُمْ مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَفَوْقَ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ لِيَبْلُغَ اللَّهُ لَكَ مَا تَبْتَغِي وَيُبَشِّرَكَ بِمَكَرٍ مُّشْتَبِهٍ مِنْ غَيْرِهَا الْفَتْحُ خَلِيلٌ فِيهَا وَيُشَكِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا ﴿ وَيُذَكِّرُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُتَّقَاتِ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَتَوْا أَشْرَءَ عَظِيمًا فَكَذَّبُوا عَنْهَا وَأَعْبَدُوهَا وَأَعَادُ لَهُمْ جَهَنَّمَ فَمَا تَبْتَغِي وَمَا تَكُنْ مِنْهَا مَحْشُورًا ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ أي جعل الطمأنينة ، قال ابن عباس ، الرحمة ، وقال قتادة : الوقار في قلوب المؤمنين ، وهم الصحابة يوم الحديبية الذين استجابوا لله ورسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم ، وقد استدلل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب ، ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال ﷺ : ﴿ وَفَوْقَ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحاجة القاطعة والبراهين الدامغة ، ولهذا قال جلّت عظمته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

ثم قال ﷻ : ﴿ لِيَبْلُغَ اللَّهُ لَكَ مَا تَبْتَغِي وَيُبَشِّرَكَ بِمَكَرٍ مُّشْتَبِهٍ مِنْ غَيْرِهَا الْفَتْحُ خَلِيلٌ فِيهَا ﴾ قد تقدم حديث أنس

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المجهّد (٤٨٣٦) ومسلم في صفات المنافقين (٧٦) وابن ماجه في السنن (١٤١٩) وأحمد في مسنده (١١٥/٦) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٩/٩) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) والمناقب في السنن (٣٥) ومالك في الموطأ (١٢) .

حين قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، هذا لك فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ خَيْرٌ مِنْ حَمِيلِهِمْ ﴾ أي ما كُنْ فيهما أبداً ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي أي خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها ، بل يغفر ويصفح ويستر ويرحم ويشكر ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مَنْ دَخَلَ الْكَلْبَ وَأَدْخَلَ الْجَسَدَ فَقَدْ قَاتَى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّى السَّيِّئَاتِ وَالشَّرِئِينَ وَالشَّرِئِينَ أَطْلَقَتْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْكَلْبَ ﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه ﷺ أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَكَتْ مَوْبِقاً ﴾ ، ثم قال ﷻ مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء ، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين : ﴿ رَوَّحُوا جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَكِيماً ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَيْخاً وَمُؤْتِئِراً ﴾ ١ ﴿ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُفِذُوا إِلَيْهِمْ أَمْرًا عَظِيماً ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَيْخاً ﴾ أي على الخلق ﴿ وَمُؤْتِئِراً ﴾ أي للمؤمنين ﴿ وَمُؤْتِئِراً ﴾ أي للكافرين ﴿ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُفِذُوا إِلَيْهِمْ أَمْرًا عَظِيماً ﴾ من التوفيق وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿ وَنُفِذُوا إِلَيْهِمْ أَمْرًا عَظِيماً ﴾ أي تسبحون الله ﴿ بَعَثْنَا رُسُلًا ﴾ أي أول النهار وآخره . ثم قال ﷻ لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً ﴿ إِنَّ إِلَهِكَ يَأْتِيكَ إِذَا يَمْشِي وَتَرْكَبُ أَهْلًا قَوْفَ آيَاتِهِمْ ﴾ أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ؛ فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ . عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله » ^(١) وعن ابن عباس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ في الحجرة : والله ليعتنه الله ﷻ يوم القيامة له عينان ينظر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد على من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّ إِلَهِكَ يَأْتِيكَ إِذَا يَمْشِي وَتَرْكَبُ أَهْلًا قَوْفَ آيَاتِهِمْ ﴾ ^(٢) . ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ مَنْ لَكَ لَأَمَّا بِنُكْتِ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أي إنما يعود وبأهل ذلك على الناكث والله غني عنه ﴿ وَمَنْ أَرَاكَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِمْ أَهْلًا عَظِيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً . وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية ، وكان الصحابة ؓ الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قبل ألفاً وثلاثمائة ، وقيل وأربعمائة ، وقيل وخمسمائة ، والأوسط أصح . ذكر الأحاديث الواردة في ذلك : عن جابر ؓ قال : كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى روي كلهم ، وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهماً من كنانته فوضعوه في بئر الحديبية ، فجاشت بالماء حتى كف عنهم فقيل لجابر ؓ : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفاً وأربعمائة ولو كنا مائة ألف لكفانا ^(٣) ، وعنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة ^(٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦١) .

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (١٠٤٨٩) وحوله لابن مردويه .

(٤) أخرجه البخاري في المغالب (٣٥٧٧) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٠) .

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ لبيعته إلى مكة ، ليلبغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعي ، وقد عرفت قريش عدائتي لهاها وغلظي عليها ، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان ﷺ ، نبيته إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظما لحرمته . فخرج عثمان ﷺ إلى مكة ، فلقبه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحملة بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان ﷺ حتى أتى أبا سفيان وعظماة قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان ﷺ حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطيف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان ﷺ قد قتل . قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله ابن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : « لا أبرح حتى نناجز القوم » (١) .

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله ﷺ يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ، ولكن بايعنا على أن لا نفر ، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجند بن قيس أخو بني سلمة ، فكان جابر ﷺ يقول : والله لكانني أنظر إليه لاصقاً يابط ناقته قد صبأ إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان ﷺ باطل ، وذكر عن عروة بن الزبير قريشاً من هذا السياق ، وزاد في سياقه أن قريشاً بعثوا - وعندهم عثمان ﷺ - سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ فيبينما هم عندهم ؛ إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقان كلاهما ، واورثن كل من الفريقين من عنده من الرسل ، ونادى منادي رسول الله ﷺ : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة ، فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوا ، فصار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على أن لا يفرؤا أبداً . فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ودعوا إلى المودة والصالح .

وعن نافع ﷺ قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر ﷺ أسلم قبل عمر وليس كذلك ، ولكن عمر ﷺ يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار ، أن يأتي به ، ليقاتل عليه ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة ، وعمر ﷺ لا يدري بذلك ، فبايعه عبد الله ﷺ ، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر ﷺ ، وعمر ﷺ يستلم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة ، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ وهي التي يتحدث عنها . الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر ﷺ (٢) .

(١) أخرجه البخاري في الفرائد (٤١٨٦) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد السير (٤٢٢/٧) .

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : لقد رأيته يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وسلم يبائع الناس ، وأنا رافع غصتنا من أغصانها على رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر ^(١) . وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال يزيد : قلت : يا أبا مسلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت ^(٢) .

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أيضاً قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا تروىها ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على جباها ، يعني الركي ، فلما دعا وإما بصق فيها فجاشت فسقينا واستقينا . قال : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى البيعة في أصل الشجرة ، فبايعته أول الناس ثم بايع وابعع حتى إذا كان في وسط الناس قال صلى الله عليه وسلم : « يا بايعي يا سلمة » قال : قلت : يا رسول الله : قد بايعتك في أول الناس قال صلى الله عليه وسلم : « وأيضاً » قال ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عزلاً فأعطاني حجة أو درقة ، ثم بايع ، حتى إذا كان في آخر الناس ، قال صلى الله عليه وسلم : « ألا تبايع يا سلمة ؟ » قال : قلت : يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « وأيضاً » فبايعته الثالثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا سلمة أين حجتك أو درقتك التي أعطيتك ؟ » قال : قلت : يا رسول الله لقيتني عامر عزلاً فأعطيتها إياه فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « إنك كالذي قال الأول اللهم ابغني حبيباً هو أحب إلي من نفسي » قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا . قال : وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أسقى فرسه وأجنبه وأكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله ، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا في بعض أتيت شجرة فكشحت شوكتها ، ثم اضطلجعت في أصلها - في ظلها - فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة ، فجلسوا يقعون في رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك ؛ إذ نادى مناد من أسفل الوادي : يا بالمهاجرين قتل ابن زعيم ، فاضطربت سيفي فشدت على أولئك الأربعة ، وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته ضيقاً في يدي ثم قلت : والذي كرم وجهه محمد صلى الله عليه وسلم لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ، قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وجاء عمي عامر يرجل من العيلات يقال له : مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثأؤه » فغفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله صلى الله عليه وسلم وفروا آلئذى كَفَّ لَبَائِهِمْ عَنْكُمْ وَأَيَّدِيكُمْ هَتَمَ يَطْنُ مَكَّةَ مِنْ بَدَا أَنْ أَطْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ^(٣) .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من يصعد الثنية ثنية المرار ، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » فكان أول من صعد خيل بني الخزرج ثم تباذر الناس بعد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » قلنا : تعال يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : والله لأن أجذب البالي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم ، فإذا هو رجل ينشد ضالة ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٠) . (٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٩) .

(٣) أخرجه مسلم في المهاد (١٣٢) وأحمد في مسنده (٥٤/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١٢) والحاكم في المستدرک (٨٣/٤) .

واختاره ابن جرير . وقال ابن جرير ﴿ يُؤَيِّنُكُمْ أَنْ يُدْخِلَكُمُ اللَّهُ فِي دِينِهِ ﴾ يعني بشيبتهم المسلمين عن الجهاد ﴿ فَإِنْ شِئْتُمْ بِمَا كُنَّا عَلَيْكُمْ ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿ فَتُؤَيِّنُكُمْ لِمَا يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ أي أن نشرحكم في المقاتل ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا عَلَيْهِ ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لانهم لهم .

﴿ قُلْ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْغُرَابِ مَثَلٌ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ أَنَّهُمْ مُّؤَيَّنُونَ ﴾ أي قوله أولي بأس شديد فقتلواهم أو يُؤَيِّنُونَ فَإِنْ شِئْتُمْ بِمَا كُنَّا عَلَيْكُمْ اللَّهُ أَفْرَأَ سَعْتًا وَإِنْ تَتُوبُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُؤَيِّنْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴿ أَلَيْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْفَاسِقِينَ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْفَاسِقِينَ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُؤَيِّنْهُ جَهَنَّمَ جَهَنَّمَ جَهَنَّمَ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُؤَيِّنْهُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ ﴾ .

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال أحدها ، أنهم هوازن ؟ الثاني : ثقيف . الثالث : بنو حنيفة . الرابع : هم أهل فارس وقال كعب الأحبار : هم الروم ، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقادة : هم فارس والروم ، وعن مجاهد : هم أهل الأوثان ، وعنه أيضًا : هم رجال أولو بأس شديد ، ولم يعين فرقة ، وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جرير . وعن الزهري في قوله تعالى : ﴿ سَتَجِدُونَ إِلَهُكُمْ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : لم يأت أولئك بعد .

عن أبي هريرة ؓ في قوله تعالى : ﴿ سَتَجِدُونَ إِلَهُكُمْ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : هم البارزون ، وعنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين ذل الأتوف ، كان وجوههم الجان المطرقة » ^(١) قال سفيان : هم الترك ، وقوله تعالى : ﴿ تَقَاتِلُوهُمْ أَوْ بُشِّرُوهُمْ ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقاتلهم ، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم ، ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار .

ثم قال ﷺ ﴿ فَإِنْ شِئْتُمْ بِمَا كُنَّا عَلَيْكُمْ ﴾ أي تستحيوا وتفروا في الجهاد وتودوا الذي عليكم فيه ﴿ يُؤَيِّنْكُمْ اللَّهُ أَفْرَأَ سَعْتًا وَإِنْ تَتُوبُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيت فخلعتم ﴿ يُؤَيِّنْكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ . ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر ، وعارض كالمريض الذي يطرأ أياها ثم يزول ، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ . ثم قال تبارك وتعالى مرغبا في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُؤَيِّنْهُ جَهَنَّمَ جَهَنَّمَ جَهَنَّمَ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُؤَيِّنْهُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ ﴾ ، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة النار ، والله تعالى أعلم .

﴿ لَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ إِلَىٰ عَبْدِهِ الْقُرْآنَ إِذْ يُخَاطَبُكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَلَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ عَلَيْكُمْ وَلَئِنْ هُمْ قَرِيبًا ﴾ ﴿ وَمَلَايَكُمُ كَثِيرًا يُفْتَدُونَ ﴾ وكان الله عزيزا حكيمًا .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، عن طارق أن عبد الرحمن ؓ قال : انطلقت حاججا فمررت بقوم يصلون فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٦٤) والترمذي في السنن (٢٢١٥) وابن ماجه في السنن (٤٠٩٦) وأحمد في مسنده (٣١/٣) .

عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم ، فأنتم أعلم (١) .
وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ تَأْتَا السَّكِينَةَ ﴾ وهي الطمأنينة ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَتَتْهُمْ فَتَا قَرِيبَا ﴾ وهو ما أجرى الله ﷻ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خير وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَقَارِئَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَارِبَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَسَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ وَكَفَّ لِيَدَيِ الْإِسْأَمِ عَنْكُمْ وَلَكُنْ مَالِيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَهَدَيْتُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿ وَأَقْرَبْتُمْ قُلُوبَهُمْ قَلِيلًا قَدْ لَمَسَ اللَّهُ يَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَن كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿ وَكَوْنَتْ لَكُمْ الْإِيمَانُ كَثْرًا لَوْ كُنَّا أَكْثَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ رِيسًا وَلَا نَصِيرًا ﴾ شَيْءٌ أَقْوَى أَلَيْ قَدْ خَلَّتْ بَيْنَ قَبْلٍ وَلَنْ يَجِدَ لِيَسْتَوْفَى أَقْوَى تَبْدِيلًا ﴿ وَفَرَّ أَلَيْ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَلِيَدِيَكُمْ مِنْهُمْ يَتَرَنَ مَكَّةَ مِنْ بَدَا أَنْ أَفْزَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَارِبَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا ﴾ هي جميع المغامرات إلى اليوم ﴿ فَسَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يعني فتح خير ، وررر العوفي عن ابن عباس ؓ ﴿ فَسَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يعني صلح الحديبية ﴿ وَكَفَّ لِيَدَيِ الْإِسْأَمِ عَنْكُمْ ﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من الحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحرهمكم ﴿ وَلَكُنْ مَالِيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يعتبرون بذلك ، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، ولعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بهواقب الأمور ، وأن الخير فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر كما قال ﷻ : ﴿ وَصَحَّ أَنْ تَكُونُوا حَكِيمًا وَفَرَّ حَرَّ لَكُمْ ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقْرَبْتُمْ قُلُوبَهُمْ قَلِيلًا قَدْ لَمَسَ اللَّهُ يَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَن كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ أي وغنمة أخرى وفتح آخر معينا لم تكونوا تقدرن عليها ، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون ، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنمة ما المراد بها ، فقال ابن عباس ؓ : هي خير ، وهذا على قوله في قوله ﷻ ﴿ فَسَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ إنها صلح الحديبية ، وقال قتادة : هي مكة واختاره ابن جرير ، وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري : هي فارس والروم ، وقال مجاهد : هي كل فتح وغنمة إلى يوم القيامة . عن ابن عباس قال : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم .
وقوله تعالى : ﴿ وَكَوْنَتْ لَكُمْ الْإِيمَانُ كَثْرًا لَوْ كُنَّا أَكْثَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ رِيسًا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يقول ﷻ مبشرا لعباده المؤمنين ، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله ﷻ رسولهم وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفر فارا مدبرا لا يجدون ريسا ولا نصيرا ؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولخبره المؤمنين . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ شَيْءٌ أَقْوَى أَلَيْ قَدْ خَلَّتْ بَيْنَ قَبْلٍ وَلَنْ يَجِدَ لِيَسْتَوْفَى أَقْوَى تَبْدِيلًا ﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيحصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر ورفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائهم من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم .

(١) أخرجه البخاري في الخلاص (٤٠٦٣) .

وقوله ﴿ وَرَأَى الْآلِيَ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَلِيَدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِتِلْكَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا . قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الآية ﴿ وَرَأَى الْآلِيَ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَلِيَدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِتِلْكَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(١) .

وعن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم ، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال : « اكتب باسميك اللهم » - وكتب - هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ إلى أهل مكة » فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » فبينما نحن كذلك ، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله تعالى بأسماهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهد أحد ؟ أو هل - جعل لكم أحد أماناً ؟ » فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْآلِيَ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَلِيَدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِتِلْكَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٢) الآية .

وعن ابن أبيزى قال : لما خرج النبي ﷺ بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمر رضي الله عنه : يا نبي الله ، تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ؟ قال : فيعت ﷺ إلى المدينة فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حملة ، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فصار حتى أتى منى ، فنزل بمنى فأتاه عيه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة ، فقال لخالد بن الوليد رضي الله عنه : « يا خالد هذا ابن عاتك قد أتاك في الخيل » فقال خالد رضي الله عنه : أنا سيف الله وسيف رسوله ، فيومئذ سمي سيف الله ، فقال : يا رسول الله ابعتني أين شئت ، فبهت على خيل فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْآلِيَ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَلِيَدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِتِلْكَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ - إلى قوله تعالى - عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال فكف الله ﷺ النبي ﷺ عنهم من بعد أن أظفروا عليهم لبقايا من المسلمين كانوا أبقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل ^(٣) .

﴿ مِمَّنْ أَلَيْسَ لَكُلُّهُمْ رِيسٌ شَرٌّ مِنَ الْمَدْيَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ بِمَا عَمَلُوا قَدِيرٌ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨/٣) والبيهقي في السنن (٢٢٠/٩) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣٣/٢٦) .

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ مَذَآبًا آيِسًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْيَهُودِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَعْلَاهَا وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِفُهُمْ حَمِيَّةَ

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ، ومن مالههم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿ وَصَدَّكُمْ عَنِ التَّسْبِيحِ الْخَرَابِ ﴾ أي أنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿ وَاللَّهُ تَعَالَى أَن يَبْلُغَ إِلَهُ ﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله ، وهذا من بنهم وعنادهم ، وكان الهدي سبعين بدنة ، وقوله ﴿ كَلِمَةَ ﴾ ﴿ وَكَلِمَةً يُنَادُّونَ مُؤْمِنِينَ ﴾ مؤمنين ﴿ أَي يَنْ أظهروهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، للمنا سلطانكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم حضراءهم ، ولكن بين أفتاتهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ أَن نَّكُلُوبُهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَزَاءً ﴾ أي إثم وغرامة ﴿ يَنْتَرِ عَيْلَهُمْ لِيُذِلَّ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، ويرجع كثير منهم إلى الإسلام ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ لَوْ تَسَوَّلُوا ﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي لسلطانكم عليهم لقتلتموهم وهم قتلاً ذريعاً . وعن عبد الله بن عمرو قال : سمعت جنيد بن سبيع يقول : قالت رسول الله ﷺ أول النهار كافروا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً ، وفيها نزلت ﴿ وَكَلِمَةً يُنَادُّونَ مُؤْمِنِينَ ﴾ قال : كنا تسعة نفر ، سبعة رجال وأمرأتين .

وقوله ﴿ كَلِمَةً ﴾ ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْيَهُودِ ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وأبوا أن يكتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ وهي قول : لا إله إلا الله فمن أبي بن كعب ؓ ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ ، قال « لا إله إلا الله » ^(١) .

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ﷻ » ^(٢) وأنزل الله ﷻ في كتابه وذكر قوما فقال : ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُكَ إِذْ أَلَّاهُ بَيْنَ يَدَيْ قَوْمٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وقال الله جل ثناؤه ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَعْلَاهَا ﴾ ، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها ، واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكانتهم رسول الله ﷺ على قضية المدة وقال مجاهد : كلمة التقوى الإخلاص ، وقال عطاء بن أبي رباح : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وعن عروة بن المسور : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وعن علي ؓ : لا إله إلا الله والله أكبر ، وعن سعيد بن جبير : لا إله إلا الله والجهاد في سبيله . ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَعْلَاهَا ﴾ ، كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِفُهُمْ حَمِيَّةَ عَيْلِهِمْ ﴾ أي هو عليهم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر ، عن أبي بن كعب ؓ أنه كان يقرأ ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٦٥) وذكره الطبري في تفسيره (١٣٥/٢٦) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده (١٣٨/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الإخصاص (٧٢٨٤) وسلم في الإيمان (٢٢) وأبو داود في السنن (١٥٥٦) والترمذي في السنن (٢٦٠٦) .

لَلَّيَّةَ حَيَّةَ الْبَيْتَةِ ﴿٢٥﴾ ولو حميتكم كما حقوا لفسد المسجد الحرام ، فبلغ ذلك عمرؓ فأغلظ له فقال : إنك لتعلم أنني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله تعالى ، فقال عمرؓ : بل أنت رجل عندك علم وقرآن ، فأقرأ وعلم مما علمك الله تعالى ورسوله .

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديدية وقصة الصلح

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، يصدر كل واحد منهما حديث صاحبه ، قالوا : خرج رسول الله ﷺ من الحديدية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة ، وبعث عينا من خزاعة ، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عيبه فقال : إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادوك ومانوك . فقال ﷺ : « أشيروا أيها الناس علي ، أترون أن نميل على عيالهم وذراعي هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ » في لفظ : « فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين ، وإن نجوا يكن عنقاً قطعها الله ﷻ . أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه » .

فقال أبو بكرؓ : يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتل أحد ولا حرباً ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : « فزوروا إذن » : حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : « إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين » فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وصار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء . فقال النبي ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ، ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يحطمون فيها حرمت الله تعالى إلا أعطيتهم أياها » . ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديدية على ثمد قليل الماء يترضه الناس تبرؤاً ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع ﷺ من كتانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ ، من أهل تهامة . فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عند مياه الحديدية ، معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا محترمين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، فأضرت بهم ، فإن شاعوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاعوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ولا فقد حموا ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره » . قال بديل : سأنابهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسعناهُ يقول قولاً ، فإن شئتم أن نرضه عليكم فعلنا ، فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء . وقال ذؤنم الرأي منهم : هات ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال : أي قوم ، أستم بالوالد ؟ قالوا : بلى ، قال : أولست بالولد ؟

قالوا : بلى ، قال : فهل تهموني ؟ قالوا : لا ، قال : أليست تعلمون أنني استفتت أهل عكاظ ، فلما يلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة . قالوا : آتته . فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء ، فقال عروة عند ذلك : أي محمد ، أرايت إن استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك ؟ وإن تلك الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً ، وإني لأرى أشواثاً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر ﷺ : امصص بظفر اللات ، أنتحن نفر وندعه ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجرك بها لأجبتك . قال : وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ ، وللمغيرة بن شعبة ﷺ قائم على رأس النبي ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفر ، وكلما أهوى عروة يده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بهنل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه وقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . قال : أي غدير أليست أسعى في غديرتك ؟ وكان المغيرة بن شعبة ﷺ صاحب قومًا في الجاهلية قتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ : « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء » . ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه قال : فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، فإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ ، فرجع عروة إلى أصحابه . فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقبصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

فقال رجل منهم من بني كنانة : دعوني آتة . فقالوا : آتته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ، قال النبي ﷺ : « هذا فلان ، وهومن قوم يعظمون البدن فابشروها له » . فبشت له واستقبله الناس يلبون . فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يمشوا عن البيت ، فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، فما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص ، فقال : دعوني آتة . فقالوا : آتته . فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : « هذا مكرز ، وهو رجل فاجر » فجعل يكلم النبي ﷺ ، فبينما هو يكلم ، إذ جاء سهيل بن عمرو ، وقال معمر : أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال : لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : « قد سُهِّلَ لكم من أمركم » . فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينك كتاباً . فدعا النبي ﷺ بعلي ﷺ وقال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل بن عمرو : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب . فقال للمسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ اكتب باسمك اللهم - ثم قال - هذا ما قاضى عليه

محمد رسول الله فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . فقال له النبي ﷺ : « والله إني لرسول الله وإن كذبتوني ، اكتب محمد بن عبد الله » قال الزهري : وذلك لقوله « والله لا يسألوني خطئة يعظمون فيها حرمت الله تعالى إلا أعطيتهم إياها » فقال له النبي ﷺ : « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله لا نتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون : سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ .

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرمس في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال : فوالله إذا لأصالحك على شيء أبداً ، فقال النبي ﷺ : « فأجزه لي » قال : ما أنا بجزير ذلك لك قال ﷺ : « بلى فافعل » قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله ﷻ . قال عمر ﷻ : فأتيته نبي الله ﷺ فقلت أأنت نبي الله حقاً ؟ قال ﷺ : « بلى » قلت : أألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ﷺ : « بلى » قلت فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا ؟ قال ﷺ : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ : « بلى أنا أخبرتك أنا تأتبه العام ؟ » . قلت : لا . قال ﷺ : « فإنك آتبه ومطوف به » قال : فأتيته فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : أألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس بعصبي ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق . قلت : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أنا أخبرك أنك تأتبه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك تأتبه وتطوف به .

قال الزهري : قال عمر ﷻ : فعملت لذلك أعمالاً . قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يبق منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت له أم سلمة رضي الله عنها : يا نبي الله أحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج رسول الله ﷺ ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا ، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأئذن الله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ فَتَىٰ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَتَرَوْا بِسْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فطلق عمر ﷻ يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحدىهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم ، فأرسلوا في طلبه ورجلين

فقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيذاً ، فاستلمه الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت منه ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه « لقد رأى هذا ذعراً » فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإني لأقول . فجاء أبو بصير فقال : يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم . فقال النبي ﷺ : « ويل أمه ششير حرب لو كان معه أحد » .

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، قال : وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلقح بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوه وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم وأنزل الله ﷻ ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْتَمَتْهُمُ الْيَأْسُ مِنْكُمْ ﴾ حتى بلغ - حِيَاةَ الْكَيْهَانَةِ ﴿ وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ مِنْهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ ^(١) . وعن حبيب بن أبي ثابت قال : أتيت أبا وائل أسأله ، فقال : كنا بصفين ، فقال رجل : ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله ، فقال علي بن أبي طالب ﷺ : نعم ، فقال سهل بن حنيف : اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ، ولو نرى قتالاً لقاتلنا ، فجاء عمر ﷺ فقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قاتلنا في الجنة وقتلهم في النار ؟ فقال : « بلى » . قال : فقيم نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا ؟ فقال ﷺ : « يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً » فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر ﷺ فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فقال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً ، فنزلت سورة الفتح ^(٢) .

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ إِذْ سَأَلُوهُ لَنُخَلَّيْنَا مِنَ الْكُفْرَانِ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ إِذْ سَأَلُوهُ لَنُخَلَّيْنَا مِنَ الْكُفْرَانِ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ إِذْ سَأَلُوهُ لَنُخَلَّيْنَا مِنَ الْكُفْرَانِ ﴾ .

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة ﷺ من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب ﷺ في ذلك فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونظوف به ؟ قال : « بلى أفأخبرت أنك تأتبه عامك هذا ؟ » قال : لا ، قال النبي ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٤) وسلم في الجهاد (٦٤) وأحمد في مسنده (٤٨٦/٣) .

« فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ » وبهذا أجاب الصديق ﷺ أيضًا حلو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى :
 ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْكَرِيمَ بِالنَّبِيِّ الَّذِي لَتَدْعُنَّ آلَكَ الْكِرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده
 وليس هذا من الاستثناء في شيء . وقوله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ أي في حال دخولكم ، وقوله :
 ﴿يَخْبِتُونَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ﴾ حال مقدرة ؛ لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محللين ومقصرين وإنما
 كان هذا في ثاني الحال . كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره ، وثبت أن رسول الله ﷺ قال
 « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا :
 والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ :
 « والمقصرين » في الثالثة أو الرابعة ^(١) . وقوله ﷺ : ﴿لَا تَحْزَنْهُمْ﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت
 لهم الأمن حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد ، وهذا
 كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة
 رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والحرم ونخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه بعضها عنوة
 وبعضها صلحا ، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على
 الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهد بها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة
 جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه ﷺ ، ولم يغيب منهم أحد ، قال ابن
 زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة .

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي
 الحليفة وساق معه الهدي ، قيل : كان ستين بدنة ، فلبى وسار أصحابه يلبون . فلما كان ﷺ قريبا من
 مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيول والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا ، وظنوا
 أن رسول الله ﷺ يذبحهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا
 فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث
 السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما
 شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق بعث قريش مركز بن حفص فقال : يا محمد ما عرفناك
 تنقض العهد ، فقال ﷺ : « وما ذلك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال : ﷺ :
 « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج » . فقال : بهذا عرفناك بالبر والوفاء ، وخرجت رؤوس الكفار من
 مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ﷺ غيظا وحنقا . وأما بقية أهل مكة من الرجال
 والنساء والولدان ، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه
 الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي
 كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول :

باسم الذي لا دين إلا دينه باسم الذي محمدٌ رسولُهُ

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تأويله

(١) أخرجه مسلم في الحج (٣١٦) وهرملي في السنن (٩١٣) وابن ماجه في السنن (٣٠٤٤) وأحمد في مسنده (١١٩٢) .

كما ضربناكم على تنزيله ضربا يُزيل الهام عن مقيله
ويُذهل الخليل عن خليله قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تُثقل على رسوله بأن خير القتل في سبيله
يارب إني مؤمن بقريله ^(١) .

عن البراء رضي الله عنه قال : اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة ، حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، قالوا : لا نفر بهذا ، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . قال ﷺ : « أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله » ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « امح رسول الله » قال ﷺ : لا والله لا أمحوك أبدا ، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القرب ، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها » . فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليا فقالوا : قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ فبعته ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي يا عم يا عم ، فتناولها علي رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لغامطة رضي الله عنه : دولك ابنة عمك فحملتها ، فاخصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنه فقال علي رضي الله عنه : أنا أخذتها وهي ابنة عمي . وقال جعفر رضي الله عنه : ابنة عمي وخالتها تحمي ، وقال زيد رضي الله عنه : ابنة أخي ، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال : « الحالة بمنزلة الأم » وقال لعلي رضي الله عنه : « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر رضي الله عنه : « أشبهت خلقتي وخلقي » وقال لزيد رضي الله عنه : « أنت أخونا ومولانا » قال علي رضي الله عنه : ألا تزوج ابنة حمزة ؟ قال ﷺ : « إنها ابنة أخي من الرضاة » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِمَ مَا لَمْ يَحْكُمُوا فَيَحْكُمُ بَيْنَ ذَلِكَ فَتَنَّا قُرَيْبًا ﴾ أي فلم الله ﷻ من الحيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ فَيَحْكُمُ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿ قَتَنَّا قُرَيْبًا ﴾ ، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين ، ثم قال تبارك وتعالى مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه ، وعلى سائر أهل الأرض ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي بالعلم النافع والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فأخباراتها حق وإنشاعاتها عدل ﴿ يُظَاهِرُ عَنِ الْإِيمَانِ كُلِّهٖ ﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومسلمين ومشركين ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره ، والله ﷻ أعلم .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ رِجَالًا يَنْصِبُونَ قُرْبَانًا لِلَّهِ وَرِضْوَانًا لِّسَيِّدَاتِهِمْ فِي وَجْهِهِمْ بَيْنَ أَيْدِي الشُّجُورِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْآخِرَةِ كَذَلِكَ لَنُخْرِجَنَّ عَنْكَ كَفْرًا تَخْشَوْنَ كَثْرَتَهُ قَاتِلًا فَتَسْتَرْجِعُونَ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٩) والبيهقي في السنن (٢٣٦/١٠) والطبراني في الكبير (٧٤/٧) .

سُورَةٍ يُحِبُّ الرِّزْقَ لِيَقِظَ يَوْمَ الْكُفَّارِ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال : ﴿ تَحْتَدُّ زَيْلُ اللَّهِ ﴾ وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثنى بالثناء على أصحابه ﷺ فقال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَلَيْسَ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَةٌ مِنْهُمْ ﴾ كما قال ﷺ : ﴿ مَرَّ عَلَى اللَّهِ يَقْرَأُ فِيهِمْ وَيُسَبِّحُهُمْ أُولَئِكَ عَلَى الْكُفَّارِ أَعْيُنُ عَنْ الْكُفَّارِ ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيقاً على الكفار ، رحيماً بآل أخبار ، غصوناً عيوناً في وجه الكافر ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر » ^(١) . وقال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وشبك ﷺ بين أصحابه » ^(٢) .

وقوله ﷺ : ﴿ تَرَبَّيْتُمْ كَمَا سُئِلَ بَيْنَهُمْ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرَضُوا ﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ والاحتساب عند الله تعالى بجزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ﷻ وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ، وهو أكثر من الأول وقوله ﷺ : ﴿ رِبَاكَمْ فِي دُجَاهِهِمْ بَيْنَ أَرَى الشَّيْءَ ﴾ عن ابن عباس : يعني السميت الحسن . وقال مجاهد وغير واحد : يعني الحشوع والتواضع . عن مجاهد قال : الحشوع . قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه . فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم ، وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » ^(٣) . وقال بعضهم : إن للحسنة نوراً في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس .

وقال أمير المؤمنين عثمان ﷺ : ما أسر أحد سريرة إلا أبداه الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله ﷻ ظاهره للناس ، وعن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لفرج عمله للناس كائناً ما كان » ^(٤) .

وعن ابن عباس ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة » ^(٥) ، فالصحابة ﷺ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديبهم . وقال مالك ﷺ : بلغني أن النصاري كانوا إذا رأوا الصحابة ﷺ الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من الحوارين فيما بلغنا ، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتدولة ، ولهذا قال ﷺ ههنا : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْآزْدِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِزْدِ كَرَجٍ أَمْرَجَ مَقَطَهُ ﴾ أي فراخه ﴿ فَكَأَنَّهُ ﴾ أي شدة

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) والترمذي في السنن (١٩٢٨) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٢/١) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٨/٣) والطبراني في الكبير (١٨٤/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/١) .

﴿ فَاسْتَفْظِلْ ﴾ أي شب وطال ﴿ فَاسْتَكْوَيْ عَلَى سُوقَيْهِ ﴾ يَدْبِثُ الزُّنَاجَ ﴿ أَي فَكَذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آزَرُوهُ وَأَيَّدُوهُ وَنَصَرُوهُ فَهُمْ مَعَهُ كَالشَّطْرِ مَعَ الزَّرْعِ ﴾ يَنْظِفُ يَوْمَ الْكَفَّارِ ﴿ .

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، في رواية عنه ، بتكفير الروافض الذين يعضون الصحابة ﷺ قال : لأنهم يعضونهم ومن غاظ الصحابة ﷺ فهو كافر لهذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء ﷺ على ذلك ، والأحاديث في فضل الصحابة ﷺ ، والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وَرَبُّهُ أَلَيْسَ مَأْمُونًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَنْتَهُم ﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿ تَتَفَرَّقُ ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وَاجْتَرَأَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ثوابًا . جزيلًا ورزقًا كريمًا . ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل ، وكل من اقتضى أثر الصحابة ﷺ فهو في حكمهم ، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ، ﷺ وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل . عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » (١) .

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٢) وأحمد في مسنده (٥٤/٣) والبيهقي في البصائر (٢٠٣/١٠) .

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا آيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالْحَدِّثِ بَيْنَ يَدَيْهِمْ ذَٰلِكُمْ يَسْتَعِجِلُ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ۖ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا آيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالْحَدِّثِ بَيْنَ يَدَيْهِمْ ذَٰلِكُمْ يَسْتَعِجِلُ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ۖ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين ، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا رَسُولَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ ﴾ أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ ؓ حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن « بم تحمك ؟ » قال : بكتاب الله تعالى ، قال ﷺ : « فإن لم تجد ؟ » قال : بهنة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : « فإن لم تجد ؟ » قال ﷺ : أجتهد رأيي ، فغضب في صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ » (١)

وعن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ بَنِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال العوفي عنه : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، وقال مجاهد : لا تفتتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه ، وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، وقال سفيان الثوري : بقول ولا فعل ، وقال الحسن البصري : لا تدعوا قبل الإمام ، وقال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا ، لو صح كذا ، فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي لأقوالكم ﴿ حَبِيبٌ ﴾ بنياتكم . وقوله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به

المؤمنين لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته ، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر ؓ . وعن ابن أبي مليكة ، قال : كاد الحارث أن يهلكا أبو بكر وعمر ؓ ، رفعاً أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس ؓ أخى بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، قال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر ؓ : ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما في ذلك فانزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن الزبير ؓ : فما كان عمر ؓ يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه (١) .

وعن أنس بن مالك ؓ ، أن النبي ﷺ اتفقد ثابت بن قيس ؓ فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجدته في بيته منكساً رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٢٧) وأحمد في مسنده (٢٣٦/٥) والنسفي في السنن (٦٠/١).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٥).

صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار ، فأثنى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكن من أهل الجنة » (١) .

وعنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ - إِلَى قَوْلِهِ - وَاتَّقُوا اللَّهَ لَا تَشْرَكْنَ ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، أنا من أهل النار حبط عملي ، وجلس في أهله حزينا ففقد رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول ، حبط عملي أنا من أهل النار ، فأثنا النبي ﷺ فأخبروه بما قال ، فقال النبي ﷺ : « بل هو من أهل الجنة » قال أنس ؓ : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفته فقال : بسمنا تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل ﷺ (٢) .

كذلك فقد نهى الله ﷻ عن رفع الأصوات بحضرة رسول ﷺ ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : أندريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قال : من أهل الطائف ، فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأرجعتكما ضربا . وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام ، لأنه محرم حيا وفي قبره ﷺ دائما ، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبة من عنده ، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَا يَجْمَعُوا دُخَانَ الْكَيْلِ يَتَّبِعَكُم كَذٰلِكَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أو أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ، خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه ، فيحبط عمل من أغضبه ، وهو لا يدري كما جاء في الصحيح : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض » (٣) ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك ، وأرشد إليه ، ورغب فيه فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضُرُّونَ أَعْمَالَهُمْ يَنْدُبُونَ إِلَيْكَ أَلَمْ تُدْعِ إِلَى الْفُتُورِ ﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلا ومحلا ﴿ لَهُمْ مَقْفُورٌ وَإِنَّهُ عَظِيمٌ ﴾ عن مجاهد قال : كتب إلي عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ، ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ، فكتب عمر ؓ : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلْفُتُورِ لَهُمْ مَقْفُورٌ وَاجْرُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَكَ يُدْعُونَ مِنْ دُونِ الْحَبِيرِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٧/٣) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) ، والحاكم في المستدرک (٤٦٩/١) ، والابن أبي عمير في الصحيح (٨٨٨) .

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نساءه ، كما يصنع أجلاف الأعراب فقال : ﴿ أَكْفَرْتُمْ لَا يَتَقَلَّبُونَ ﴾ ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال ﷺ : ﴿ وَارْتَوْ أَنْتُمْ صِدْقًا مِمَّنْ تَخْرُجُ إِلَيْهِمْ لَكَذِبٌ خَيْرٌ لَهُمْ ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة . ثم قال جل ثناؤه داعيًا لهم إلى التوبة والإنابة ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي ؓ فيما أورده غير واحد . عن الأقرع بن حابس ؓ ، أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد يا محمد ، وفي رواية : يا رسول الله ، فلم يجبه فقال : يا رسول الله إن حمدي لزين ، وإن ذمي لشين ، فقال ﷺ : « ذاك الله ﷻ » ^(١) وعن زيد بن أرقم ؓ قال : اجتمع أناس من العرب فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يك نبيًا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بهجانه . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد يا محمد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِذْ آلَ أَبِي سَلَمَةَ يَسْأَلُونَ رَسُولَهُ أَن يَأْتِيَهُمْ مِمَّنْ بَدَلَهُمْ فِي الْحَرْبِ مَالٌ كَمَا جَاءَهُمْ مِّنْ قَبْلُ ﴾ ^(٢) قال : فأخذ رسول الله ﷺ بأذني ، فمدها فجعل يقول : « لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد ، لقد صدق الله قولك يا زيد » ^(٣) .

﴿ يَأْتِيهِمُ الْيَقِينُ ، مَتَىٰ إِنْ جَاءَهُمْ قَارِعٌ أَوْ بَلَاءٌ أَوْ فِتْنَةٌ أَوْ كُنْتُمُ الْخَائِضِينَ ﴾ ^(٤) فَيُخْرِجُهُم مِّنْ أَسْوَاقِهِمْ إِلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ يَرْجُونَ فِتْنَتَهُمْ فَلْيَتَنَبَّهُوا عَلَيْهِمْ وَلْيُوقُوا زُلُمَتَهُمْ وَلْيُكَلِّمُوا الْوَسْوَاسَ الْخَافِيَّ إِنَّهُ يَكْنُزُ السَّيِّئَاتِ أَوْ يُخْدَعُونَ ﴿٥﴾ فَذَلِكُنَّ آلُ اللَّهِ وَبَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ .

يأمر تعالى بالثبوت في خبر الفاسق ليحتاط له فلا يحكم بقوله ، فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا ، فيكون الحاكم بقوله قد اقضى وراه ، وقد نهى الله ﷻ عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ؛ لأننا إنما أمرنا بالثبوت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ؛ لأنه مجهول الحال ، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق ^(٧) . وعن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي ؓ قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله أرجع إليهم فأدعهم إلى الاسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته . وترسل إلي يارسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه . فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتًا يرسل إلي رسولاً ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حيس رسول إلا من سخطه ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض . ما كان عنده مما جمع من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٨/٣) والترمذي في السنن (٣٢٦٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٠/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٠٨/٧) .

(٣) أسباب النزول للسياوري (ص ٢١٧) .

الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي خاف ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث ﷺ وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعه الزكاة وأردت قتله . قال ﷺ : لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأيته بته ولا أتاني .

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ » قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتسب علي رسول الله ﷺ ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله . قال فنزلت الحجرات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلى قوله ﴿ حِكْمٌ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنِّي فِيكُمْ رَسُولٌ اللَّهِ ﴾ أي اعلما أن بين أظهركم رسول الله ﷺ فاعلموا أنه هو الذي بعثهم به وقرؤوه وتادبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ أَلَيْسَ لَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال : ﴿ لَوْ كُنْتُمْ فِي كَيْفٍ مِّنَ الْآيَاتِ لَنُفِخَ فِي سُورَةٍ مِّنَ السَّمَاءِ جَمِيعٌ مَّا تُخَارُونَهُ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى عَذَابِكُمْ وَحَرَجِكُمْ ، وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ وَرَبُّكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي حبيه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » قال ثم يشير يده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول : « التقوى ههنا ، التقوى ههنا » (٢) ﴿ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالشُّوْقَ وَالْبَغْيَ ﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار ﴿ وَالْيَمِينَ ﴾ ، وهي جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ : « استوتوا حتى أتني على ربي ﷻ فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال ﷺ : « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لمن قربت . اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحيانا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (٥٢/١) .

ولا فتوتين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق ^(١) . ﴿ فَضَلَا مِنْ لَدُنْهِ حَدٌّ ﴾ أي هذا المعطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ وَكَانَ مَلَأَيْنَاكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفَنُتْلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَدَتْ إِحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرَيْنِ فَفَتِّلُوا إِلَى تَبَى حَتَّى تَفْتَنَ إِلَهُ أَمْرُ اللَّهِ فَإِنْ فَتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

يقول تعالى أمراً بالأصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ﴿ وَكَانَ مَلَأَيْنَاكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفَنُتْلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ فسماعهم مؤمنين مع الاعتقال ، وبهذا استدلل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم ، وهكذا ثبت عن أبي بكر رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ خطب يوماً ، ومعه علي المنبر الحسن بن علي رضي الله عنه ، فجعل ينظر إليه مرة ، وإلى الناس أخرى ويقول : « إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » ^(٢) . فكان كما قال ﷺ ، أصلى الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة ، والواقعات المهولة . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ بَدَتْ إِحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرَيْنِ فَفَتِّلُوا إِلَى تَبَى حَتَّى تَفْتَنَ إِلَهُ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله ، وتسمع للحق وتطيعه ، عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « انصبر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قلت : يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً ؟ قال ﷺ : « تمنعه من الظلم ؛ فذاك نصرتك لإياه » ^(٣) .

وروي أن أنسا رضي الله عنه قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ ، وركب حملاً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة ، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال : إليك عني ، فوالله لقد أذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك . قال : فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، قال : فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿ وَكَانَ مَلَأَيْنَاكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفَنُتْلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ^(٤) .

وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسيف والنعال ، فأُنزل الله تعالى هذه الآية فأمر بالصالح بينهما . وقوله ﷺ : ﴿ فَإِنْ فَتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « للمقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على مناير من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) والحاكم في المستدرک (٥٠٦/١) والطبراني في الكبير (٤٠/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٣٨/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في اللغة (٢٤٤٣) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٣) والترمذي في السنن (٢٢٥٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٣) .

نور على عيين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا» ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ أَخَوَةٌ ﴾ أي الجميع أخوة في الدين ، كما قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » ^(٢) وفي الصحيح « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » ^(٣) وفي الصحيح أيضاً « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك مثله » ^(٤) ، وفي الصحيح « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر » ^(٥) .

وقوله تعالى ﴿ فَاصْبِرُوا يَوْمَ الْآزْمَةِ ﴾ يعني الفتنين المقتتلين ، « وَاقْرَأُوا اللَّهَ » أي في جميع أموركم ﴿ لَمَّا كُنتُمْ تَرْمُونَ ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ لَا تَلْوِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ يَسْعَىٰ إِلَيْكُمْ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَرَئِىَ لَكُمْ فَأُولَٰئِكَ تُمَّ الْكَافِرُونَ ﴾ .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الكبر بطل الحق وغمص الناس » ويروى « وغمط الناس » ^(٦) والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم ، وهذا حرام فإنه قد يكون المحقر أعظم قدراً عند الله تعالى ، وأحب إليه من الساخر منه المحقر له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ . فنص على نهى الرجال ، وعطف بنهى النساء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَلْوِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي لا تلوزوا الناس . والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون والهمز بالفعل واللمز بالقول .

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقاعدة ومقاتل بن حيان ﴿ وَلَا تَلْوِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي لا يظلم بعضكم على بعض ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أي لا تداعوا بالألقاب ، وهي التي يسوء الشخص سماعها . عن أبي جبريرة بن الضحاك ، قال : فينا نزلت في بني سلمة ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء ، قالوا : يا رسول الله إنه يفضب من هذا ، فنزلت ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ ^(٧) . وقوله جل وعلا : ﴿ يَسْعَىٰ إِلَيْكُمْ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ أي بفس الصفة والاسم الفسوق ، وهو التنازع بالألقاب ، كما كان أهل الجاهلية يتنازعون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿ وَرَئِىَ لَكُمْ فَأُولَٰئِكَ تُمَّ الْكَافِرُونَ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا حِيَرًا يَوْمَ الْقِيَامِ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ لَا تَعْلَمُونَ وَلَا تَعْلَمُونَ بَعْضًا مِنْكُمْ ﴾ .

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس

- (١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والحاكم في المستدرک (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .
- (٢) أخرجه البخاري في اللطعة (٢٤٤٢) ومسلم في البر والصلة (٥٨) وأحمد في مسنده (٣١١/٢) .
- (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٧/٢) .
- (٤) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٣٤) .
- (٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) .
- (٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) والترمذي في السنن (١٩٩٩) .
- (٧) أخرجه أحمد في مسنده (٦٩/٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (١١١/٧) .

في غير محله ؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً ، فليجتنب كثيراً منه احتياطاً . وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً » ^(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لهاكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تمسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » ^(٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » ^(٣) . وعن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لازمت لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن » فقال الرجل : وما يذهبن يا رسول الله من هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » ^(٤) . وعن دجين كاتب عقبة قال : قلت لعقبة : إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظهم وتهدهم ، قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشرط فأتأخذهم ، فقال له عقبة : ويحك لا تفعل ؟ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موعودة من قبرها » ^(٥) وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » فقال أبو الرداءة رضي الله عنه : كلمة سمعها معاوية رضي الله عنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنعاه الله تعالى بها ^(٦) .

﴿ وَلَا تَحْسَبُوا ﴾ أي على بعضكم بعضاً والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس . وأما التجسس : فيكون غالباً في الخير كما قال صلى الله عليه وسلم إخباراً عن يعقوب أنه قال : ﴿ يَتَّبِعُ أَذْهَبًا فَتَحْسَبُوا مِنْ يُوْشَعٍ وَكَأَيُّوْ لَا تَأْتِيْكُمْ مِنْ رَّعَقِ الْوَدَّ ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تجسسوا ولا تمسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » ^(٧) وقال الأوزاعي : التجسس البحث عن الشيء . والتجسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يسمع على أبوابهم ، والتدابر : الصرم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم مَّبْعُثًا ﴾ فيه نهي عن الغيبة ، وقد فسرها الشارح كما جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » ^(٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم حسبك من

- (١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٩٣٢) والطبراني في الكبير (٣٧/١١) والبخاري في التلخيص (٢٩٤/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) ومالك في الموطأ (٩٠٨) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٠) والترمذي في السنن (١٩٣٥) وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) .
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٨/٣) والهيتمي في كثر المسال (٤٣٩٩) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٤) . (٦) أخرجه أبو حنود في السنن (٤٨٨٨) والطبراني في الكبير (٣٧٩/١٩) .
(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٩) .
(٨) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٣٤) وأبو داود في السنن (٤٨٧٤) والبيهقي في السنن (٤٧/١٠) .

صفيّة كذا وكذا . تعني قصيرة ، فقال ﷺ : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » قالت : وحُكيت له إنسانًا فقال : « ما أحب أني حكيت إنسانًا وإن لي كذا وكذا » ^(١) والغيبية محرمة بالاجماع ، ولا يستثنى من ذلك إلا من رجحت مصلحته ، كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها ، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » ^(٢) وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها على التحريم الشديد ، وقد ورد فيها الزجر الأكيد ، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال ﷺ : ﴿ أَيُّكُمْ أَلْكُرَ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ ﴾ أي كما تكرهون هذا طبعًا فأكروهوا ذاك شرعًا ، فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال ﷺ : « العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه » ^(٣) وثبت في الصحيح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » ^(٤) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ^(٥) وعن أبي بردة البلوي قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته » ^(٦) وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي مرت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، قلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » ^(٧) .

عن عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ ، وأن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ان ههنا امرأتين صامتا وإنهما كادتا تموتان من العطش ، أراه قال : بالهاجرة ، فأعرض عنه أو سكت عنه ، فقال : يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتتا تموتان ، فقال : ادعهما . فجاءتا قال : فجيء بقدرح أو عس ، فقال لإحداهما : قيئي . فقأت من قيح ودم وصديد حتى قأعت نصف القدرح ، ثم قال للأخرى : قيئي ، فقأت قيحًا ودمًا وصديدًا ولحمًا ودمًا عبيطًا وغيره حتى ملأت القدرح ، ثم قال : « إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس » ^(٨) .

وعن ابن عمر لأبي هريرة أن ماعزًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد زنت ، فأعرض عنه حتى قالها أربعًا ، فلما كان في الخامسة قال : « زنت ؟ » قال : نعم . قال : « وتدرى ما الزنا ؟ » قال : نعم أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا . قال : « ما تريد إلى هذا القول ؟ »

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٧٦) واللفهري في الترغيب والترهيب (٥٠٥/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٦) . (٣) أخرجه البخاري بضمه في الهبة (٢٦٢٢) .

(٤) أخرجه مسلم في المصنف (١٤٧) وأحمد في مسنده (٣٢٠/١) .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٢) والترمذي في السنن (١٩٢٧) وابن ماجه في السنن (٣٩٣٣) وأبو داود في السنن (٤٨٨٢) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٨٠) والبيهقي في السنن (٢٤٧/١٠) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٤/٣) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣١/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٧١/٣) .

قال : أريد أن تطهرني . قال : فقال رسول الله ﷺ : «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشا في البئر ؟ قال : نعم يا رسول الله قال : فأمر برجمه ، فرجم ؟ فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه ، فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : «أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلنا من جيفة هذا الحمار .» قالوا : غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : «ما نلتما من أخيكما أنفاً أشد أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها » ^(١) .

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة متنة . فقال رسول الله ﷺ : «أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يقتابون الناس » ^(٢) .

وقوله ﷺ : ﴿ وَاللَّهُ أَهْلُ عِلْمٍ ﴾ أي فيما أكرمكم به ونهاكم عنه فراقبه في ذلك واخشوا منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ أي تواب على من تاب إليه رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه . قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود ، وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع ، وأن يتحلل من الذي اغتابه . وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلل ؛ فإنه إذا علمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه ، فطريقه إذا أن ينهي عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها ، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته ، لتكون تلك بتلك ، وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﷺ قال : «من حمى مؤمناً من منافق يقتابه ، بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبه ، حبس الله تعالى على جسدهم حتى يخرج مما قال » ^(٣) وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري ﷺ قالوا : قال رسول الله ﷺ : «ما من امرئ يخلد امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة ويتنقص فيه من عرضه ، إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيها نصرته ، وما من امرئ ينصر امرأ مسلماً في موضع يتنقص فيه من عرضه ويتنقص فيه من حرمة إلا نصره الله ﷻ في موطن يحب فيها نصرته » ^(٤) .

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ١٣ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب آخر ، كالفصائل والعشائر والعماير والأفخاذ وغير ذلك ، وقيل : المراد بالشعوب بطون المعجم ، والقبائل بطون العرب ، كما أن الأبطال بطون بني إسرائيل ، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء ﷺ سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منبهاً على تساويهم في البشرية ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ١٣ ﴾ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥١/٣) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢٧/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/٣) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٨٤) وأحمد في مسنده (٣٠/٤) والترمذي في السنن (٢٤٣/١) .

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ، ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَتَىٰ ذَٰلَ تَمَّ قَوْلُنَا لَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَلَكِنَّا نَسْتَعِينُ فِي قُلُوبِنَا ۚ ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه . وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً ، فقال سعد رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً ، وهو مؤمن ، فقال النبي ﷺ : « أو مسلم ؟ » حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول : « أو مسلم ؟ » ثم قال النبي ﷺ : « إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلي منهم ، فلم أعطه شيئاً مخافة أن يكبو في النار على وجوههم » ^(١) . ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء ، ووجهه إلى ما هو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبروا في ذلك ، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنه وإبراهيم النخعي وقاعدة واختاره ابن جرير . وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمته الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك .

وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكِن قَوْلُنَا لَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ أي استسلمنا ، خوف القتل والسي . قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمه . وقال قتادة : نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ ، والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فأدبروا ، وأعلمهم أن ذلك لم يصلوا إليه بعد . ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة ، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً ﴿ ذَٰلَ تَمَّ قَوْلُنَا لَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ولكن قَوْلُنَا لَكُنَّا مُسْلِمِينَ لَكُنَّا مُسْلِمِينَ فِي قُلُوبِنَا ۚ ﴿ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تُلِيظُوا اللَّهَ دَرَسُوا لَكُمْ لَا يَلِيْكُمْ مِنْ أَعْيُنِكُمْ شَيْئًا ﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴾ أي لمن تاب إليه وأتاب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي إنما المؤمنون الكامل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض ﴿ وَتَحْمِلُوا أَمْرَهُمْ وَآَنُفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ أي في قولهم إذا قالوا أنهم مؤمنون ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : إن النبي ﷺ قال : « المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله ﷻ » ^(٢) وقوله ﷻ : ﴿ ذَٰلَ تَمَّ قَوْلُنَا لَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ أي أخبرونه بما في ضمائرهم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْشِ ﴾ أي لا يخفى عليه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/١) والشافعي في السنن (٤٩٩٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٣) .

مقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ وَاللَّهُ يَكْفِي عَنْهُمْ غِيظَهُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى آبٍ لَهُمْ أَشْجَاءُ فَلَا ظَنُّوا عَنْهُمْ ﴾ يعني الأعراب الذين يمشون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى ردًا عليهم ﴿ قُلْ لَا تَمْنُوا عَنْهُمْ ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ولله اللذة عليكم فيه ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمَنَّ عَنْهُمْ أَنْ هَدَيْتُمْ إِيَّاهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأَنْصَار يوم حنين « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالًا فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ » كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمر^(١) .

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَتَنَبَّأُ بِغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بَعِيرٌ بِمَا تَسْمَعُونَ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في اللغزي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (٣٩) وأحمد في مسنده (٥٧/٣) .

سورة ق

هذه السورة هي أول الحزب للمفصل على الصحيح وقيل : من الحجرات . وأما مايقوله العوام إنه من (عم) فلا أصل له ولم يقله أحد من العلماء رحمهم الله المتعبرين فيما نعلم . والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل مارواه أوس بن حذيفة قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المخيرة بن شعبة رضي الله عنه ، وأنزل الرسول ﷺ بني مالك في قبة له ، قال مسدد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف ، قال : كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد : قائمًا على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام ، فأكثر ما يحدثنا ﷺ ما لقي من قومه قريش ثم يقول ﷺ « لا أساء ، وكنا مستضعفين مستذلين » - قال مسدد : « بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاً بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا » فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت علينا الليلة ، قال ﷺ « إنه طرأ على حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أمته » قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث وخمسة وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة ، وحزب للمفصل وحده ^(١) .

إذا علم هذا فإذا عدت ثمانيا وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة ق . بيانه : ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء . وخمسة : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة . وسبع : يونس وهود ويوسف والزهد وإبراهيم والحجر والنحل . وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان . وإحدى عشرة : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وآل السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس . وثلاث عشرة : الصافات وص والزمر وغافر وحمل السجدة وحمل عسق والزخرف والدخان . والجنات والأحقاف والقتال والفتح والحجرات . ثم بعد ذلك الحزب للمفصل كما قاله الصحابة رضي الله عنهم . فنعين أن أوله سورة ق وهو الذي قلنا ولله الحمد والمنة . عن عبد الله بن عبيد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد ؟ قال : بقاف واقرئت ^(٢) .

وعن أم هشام بنت حارثة قالت : لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ ، وكان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس ^(٣) .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتغالها على ابتداء الخلق ، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٤٥) وأحمد في مسنده (٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٥/٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ١ بَلْ جَعَلْنَا آيَاتَهُمْ شُرُورًا يَنْهَوْنَ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَجْوَى بَعْثٌ ٢ لَوْ أَنَّا بَيْنَا وَكَأَنَّ رَبَّنَا لَكَ رَحْمَةً يَبِيدُ ٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَكِيمٌ ٤ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لَأَنَّا جَعَلْنَاهُمْ قُلُوبًا مَرِيضًا .

﴿ تَ ﴾ : حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور ، وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا : ق جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف ، وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي ﷺ وما بالمعهد من قدم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم وشرهم الخمر ، وتحريف علماءهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته ، وإثما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : « وحدثنوا عن بني إسرائيل ولا حرج » (١) فيما قد يجوزوه العقل ، فأما فيما تحمله العقول ويحكم فيه بالباطلان ويغلب على الظنون كذبه ؛ فليس من هذا القبيل ، والله أعلم .

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، عن ابن عباس ؓ في قوله ﷻ ﴿ تَ ﴾ هو اسم من أسماء الله ﷻ . والذي ثبت عن مجاهد أنه حرف من حروف الهجاء كقوله تعالى : (ص - ن - ح - طس - الم) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ أي الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد واختلفوا في جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَكِيمٌ ﴾ وفي هذا نظر بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه ، وإن لم يكن القسم يلتقي لفظاً ، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله : ﴿ مَ وَالْقُرْآنِ ذِي الْبَرِّ الْكَرِيمِ ﴾ ١ بَلِ الْبَرِّ كَثُرُوا فِي زَيْتُونَةٍ وَتَوَاتُرًا ٢ وَهَكَذَا قَالَ ههنا ﴿ تَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ١ بَلْ جَعَلْنَا آيَاتَهُمْ شُرُورًا يَنْهَوْنَ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَجْوَى بَعْثٌ ٢ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر .

ثم قال ﷻ مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ لَوْ أَنَّا بَيْنَا وَكَأَنَّ رَبَّنَا لَكَ رَحْمَةً يَبِيدُ ﴾ أي يقولون أئذا متنا وبلىنا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً ، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ ﴿ هَذَا نَجْوَى بَعْثٌ ﴾ أي بعيد الوقوع . والمعنى : أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه . قال الله تعالى راداً عليهم : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي ما تاكل من أجسادهم في البلى ، تعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَكِيمٌ ﴾ أي حافظ لذلك ؛ فالعلم شامل ، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) وأحمد في مسنده (٤٦٣) .

العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك . وقوله تعالى : ﴿ أَصْبَحْنَا بِالتَّلَاقِ الْأَوَّلِ ﴾ أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة ؟ ﴿ بَلْ هُمْ فِي آيَاتِنَا غَنِيّ ﴾ والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه كما قال ﷺ : ﴿ وَهُوَ الْآخِرُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُبِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَزِيزٌ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تَرْسُوسُ بِهِ . قَسَمٌ بِأَقْرَبٍ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (١) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ۚ تَأْتِيكُمُ الْيَقِينُ ۚ لَآ تَدْرِي لَدَيْهِ رَيْبٌ عَيْدٌ ۚ وَسِعَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۚ وَنُفِيعٌ فِي السُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ ۚ وَمَعْلَمٌ كُلُّ قَوْمٍ مِمَّا سَاءَ وَتَجِيدُ ۚ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَفَفْنَا عَنْكَ غِظْلَكَ فَصَرَّفَكَ الْيَوْمَ حَيِّدٌ ۚ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره ، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر . وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى يجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » (٢) وقوله ﷺ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد إليه ، ومن تأوله على العلم فإنما هو لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ كما قال في المحضر ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْشِرُونَ ﴾ يعني ملائكته ، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بأقدار الله جل وعلا لهم على ذلك . فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة ، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق (٣) ، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يعني الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان .

﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ۚ أَي مَرْتَبِدٌ ﴾ أي ابن آدم ﴿ مِنْ قَوْلِهِ ﴾ أي ما يتكلم بكلمة ﴿ لَآ تَدْرِي لَدَيْهِ رَيْبٌ عَيْدٌ ﴾ أي إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة . وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام ؟ وهو قول الحسن وقادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب ؟ كما هو قول ابن عباس ؓ . فعلى قولين وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ تَأْتِيكُمُ الْيَقِينُ مِنْ قَوْلِي لَآ تَدْرِي رَيْبٌ عَيْدٌ ﴾ . عن بلال بن الحارث المزني ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه ، فكان علقة يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث (٤) .

وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها .

وعن ابن عباس ؓ ﴿ تَأْتِيكُمُ الْيَقِينُ مِنْ قَوْلِي لَآ تَدْرِي رَيْبٌ عَيْدٌ ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم في الإيمان (٢٠١) والسنن في السنن (١٥٧/٦) وابن ماجه في السنن (٢٠٤٠) .

(٢) انظر أحمد في مسنده (١٥٩/٣) وابن ماجه في السنن (٥٦٥/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) والحاكم في المستدرک (٥٩٧/٤) والطبراني في الكبير (٣٥٤/١) .

شر حتى أنه ليكتب قوله : أكلت شربة ذهب جئت رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَسْمَعُوا اللَّهَ مَا يُكَلِّمُ وَيُسْمِعُ ۚ وَيَعْلَمُ أُمِّ الْكَيْبِ ﴾ وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فيبلغه عن طاروس أنه قال يكتب للملك كل شيء حتى الأئين ؛ فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَبَعَثَ سَكْرَةَ سَكْرَةُ النَّبِيِّ إِلَيْنَا ذِكْرًا مَّا كُنْتَ مِنْهُ نَجِيْدُ ۚ يَقُولُ يَحْيَىٰ ۚ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمترى فيه ﴿ ذِكْرًا مَّا كُنْتَ مِنْهُ نَجِيْدُ ﴾ أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا نكاح ولا خلاص .

وقد اختلف المفسرون في الخطاب بقوله ﴿وَبَدَّكَ شُكْرًا﴾ الآية يُلْقِي إِلَيْكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ جَدًّا ﴿﴾ فالصحيح أن الخطاب بذلك الإنسان من حيث هو ، وقيل : الكافر ، وقيل : غير ذلك . عن عائشة رضي الله عنها قالت : حضرت أبي عليه السلام وهو يموت ، وأنا جالسة عند رأسه فأخذته غشية ، فتمثلت ببيت من الشعر :
من لا يزال دمه مقننًا فإنه لا بد مرة مدفوق
قالت : رفع عليه السلام رأسه فقال : يا بنية ليس كذلك ، ولكن كما قال تعالى : ﴿وَبَدَّكَ شُكْرًا﴾ الآية يُلْقِي إِلَيْكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ جَدًّا ﴿﴾ .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تفشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول « سبحان الله إن للموت لسكرت » ^(١) . وفي قوله : ﴿ يَذَّكُّكَ مَا كُنْتَ تَعْبُدُ ﴾ قولان : أحدهما : أن ما ههنا موصولة أي الذي كنت منه تعبد بمعنى تبتعد وتتأذى وتفر ، قد حل بك ونزل بساحتك . والقول الثاني : أن ما نافية بمعنى ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ، ولا الحيد عنه . عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسمى حتى إذا أسي وأمسد دخل جحره ، وقالت له الأرض : يا ثعلب ديني ، فخرج وله حصاص ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات » ^(٢) ومضمون هذا المثل كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض ، كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ يَوْمَ الْقِيَامِ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التزم القرن وحتى جبهته وانقطر أن يؤذن له ؟ » قالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال ﷺ : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل ^(٣) ﴿ وَبَيَّنَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا سَأَلَتْ رَبَّهَا ﴾ أي ملك يسوقه إلى الحشر وملك يشهد عليه بأعماله . هذا هو الظاهر من الآية الكريمة . وهو اختيار ابن جرير . وعن يحيى بن رافع - مولى لثقيف - قال : سمعت عثمان بن عفان ؓ يخطب فقرا هذه الآية ﴿ وَبَيَّنَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا سَأَلَتْ رَبَّهَا ﴾ فقال : سائق يسوقها إلى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت . عن أبي هريرة ؓ قال : السائق ، الملك والشهيد العمل ، وعن ابن عباس ؓ : السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه ، يشهد على نفسه .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم (٢٦٨/٢) والهيثمى في مجمع الزوائد (٣٢٠/٢) والخصائص : شدة العلو .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٣١) والحاكم في المستدرک (٥٥٩/٤) وأحمد في مسنده (٧/٣).

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ عَنْكَ غَافِلِينَ﴾ أحدها: أن المراد بذلك الكافر . والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر ؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة ، والدنيا كالنم ، وهذا اختيار ابن جرير . والثالثة: أن الخطاب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه ، والمعنى على قولهما : لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإزالة إليك فبصرك اليوم حديد ، والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو ، والمراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يعني من هذا اليوم ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ عَنْكَ غَافِلِينَ﴾ فبصرك اليوم حديد أي قوي ؛ لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا ، يكونون يوم القيامة على الاستقامة ، لكن لا يفهم ذلك . قال الله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ يَوْمَ تَنْتَهِزُ يَمَّ يَأْتُونَنَا﴾ .

﴿وَقَالَ رَبُّنَا هَذَا مَا لَدَيْكَ عَيْنُ﴾ (١) ﴿أَيَّاهُ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ صَكَّارٍ عَيْنُ﴾ (٢) ﴿تَتَجَلَّوْا لَهَا فَتَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا مَا لَدَيْكَ رَبُّنَا مَا أَتَيْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٣) ﴿قَالَ لَا تَحْزَنُوا لَقَدْ رَفَعْنَاكُمْ إِلَى الْإِثْرِ الْكَبِيرِ﴾ (٤) ﴿مَا يَدُلُّ الْقَوْلَ لَقَدْ رَفَعْنَاكُمْ إِلَى الْإِثْرِ الْكَبِيرِ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم إنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَيْكَ عَيْنُ﴾ أي معتمد محضر بلا زيادة ولا نقصان . وقال مجاهد : هذا كلام الملك السائق ، يقول هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته ، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد ، وله اتجاه وقوة ، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليفة بالعدل فيقول: ﴿أَيَّاهُ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ صَكَّارٍ عَيْنُ﴾ وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿أَيَّاهُ﴾ فقال بعضهم : هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنية كما روي عن الحجاج أنه كان يقول : يا حرمي اضربا عنقه ، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد ، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب ، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم ، وبمس المصير ﴿أَيَّاهُ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ صَكَّارٍ عَيْنُ﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق عنيد معاند للحق ، معارض له بالباطل مع علمه بذلك ﴿تَتَجَلَّوْا لَهَا﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا يرفيه ولا صلة ولا صدقة ﴿تَتَجَلَّوْا لَهَا﴾ أي فيما ينفعه ويصرفه يتجاوز فيه الحد . وقال قتادة : معتمد في منطقته وسيره وأمره ﴿رُبِّي﴾ أي شاك في أمره مرعب لمن نظر في أمره ﴿أَيَّاهُ جَمَلٌ مَعَ اللَّهِ إِنَّهَا مَتَرٌ﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿تَتَجَلَّوْا لَهَا﴾ أي التكلب للثبوت ﴿عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه النبي ﷺ أنه قال : «يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله إلهاً آخراً ، ومن قتل نفساً بغير نفس ، فتتطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم» (١) .

﴿قَالَ رَبُّنَا﴾ قال ابن عباس (٢) ومجاهد وقاتدة وغيرهم : هو الشيطان الذي وكل به ﴿رَبَّنَا مَا أَتَيْنَاهُ﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً يتبرأ منه شيطانه فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَتَيْنَاهُ﴾ أي ما أضلته ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالاً قاهلاً للباطل معانداً للحق ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠/٣) والبخاري في الترمذي (٢٩٧/٣) والأباني في الصحيحة (٥١٣) . والمعنى : دابة وحشية أكبر من السمور وأصغر من الكلب .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَهُ لَا تَخْصِمُونَا لَنَكُنَّ ﴾ يقول الرب ﷻ للإنسي وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى ، فيقول الإنسي : يارب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، ويقول الشيطان : ﴿ رَبَّنَا مَا لَفَيْنَهُ لَئِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي عن منهج الحق ، فيقول الرب ﷻ لهما : ﴿ لَا تَخْصِمُونَا لَنَكُنَّ ﴾ أي عندي ﴿ وَقَدْ قُلْتُمْ إِنَّا بَرَاءٌ لِلرَّبِّدِ ﴾ أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبيّنات والبراهين ﴿ مَا يَبْدَأُ الْقَوْلَ لَنَكُنَّ ﴾ قال مجاهد : يعني قد قضيت ما أنا قاض ﴿ وَمَا لَنَا بِطَلْعِ قَتَادٍ ﴾ أي لست أعذب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ وَأَنذَرْتُ لَلْكَفَّةِ شَرِيكَ يَوْمَ ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَبِيطٍ ﴿ مَن حَسِبَ أَنَّ الْكُرْسِيَّ بَنِيَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامِ ﴾ كَسَلُوا بِسَلْوَةِ ذِكِّ يَوْمَ الْقِيَامِ ﴿ لَمْ يَأْتِكُمْ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

يخير تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة : ﴿ هَلِ امْتَلَأْتِ ﴾ ؟ وذلك لأنه تبارك وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو ﷻ يأمر من يأمر به إليها ويلقى وهي تقول : هل من مزيد أي هل بقي شيء تزيدوني ؟ هذا هو الظاهر في سياق الآية وعليه تدل الأحاديث . عن أنس بن مالك ؓ عن النبي ﷺ قال : ﴿ يلقي في النار وتقول : هل من مزيد ؟ ﴾ حتى يضع قدمه فتقول : قط قط ^(١) . وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوفرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ قال الله ﷻ للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تملأ حتى يضع رجله فيها فتقول : قط قط ، فهناك تملأ ويزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحداً ، وأما الجنة : فإن الله ﷻ ينشئ لها خلقاً آخر » ^(٢) .

عن أبي بن كعب ؓ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « يعرفني الله تعالى نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها عني ، ثم أمده مدحة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط مضروب بين ظهرائي جهنم ، فيمرون أسرع من الطرف والسهم وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو وهي الأعمال ، وجهنم تسأل المزيد حتى يضع فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط وأنا على الحوض » قيل : وما الحوض يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إن شربه أبغض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك ، وأنبه أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظلم أبداً ، ولا يصرف فيروى أبداً » ^(٣) وهذا القول هو اختيار ابن جرير .

وعن مجاهد يقول : لا يزال يقدف فيها حتى تقول : قد امتلأت فتقول : هل في مزيد فعند هؤلاء أن قوله تعالى ﴿ هَلِ امْتَلَأْتِ ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه فتنزوي وتقول حبيط : هل بقي في مزيد يسع شيئاً ؟ قال ابن عباس : وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذَرْتُ لَلْكَفَّةِ شَرِيكَ يَوْمَ الْقِيَامِ ﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٨) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٧) وأحمد في مسنده (٢٣٤/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٥) وأحمد في مسنده (٢١٤/٢) .

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٩١٩٦) وابن حجر في فتح الباري (٤٣٧/١١) والسيوطي في الدر المنثور (١٠٧/٦) .

يَبِيدُ ﴿١﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَأَبُو مَالِكٍ وَالسَّدي: ﴿وَأَزَلَّتْ﴾ أَدْنَيْتُ وَقَرِبتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿عَبْرَ بَيْدٍ﴾ وذلك يوم القيامة ، وليس بعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو أَدْنَى قَرِيب ﴿هَذَا مَا مَوْعِدُكُمْ لِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي رجاء تأثب مقلع ﴿حَنِيطٌ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكته ، وقال عبيد بن عمير : الأرواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلسا فيقوم حتى يستغفر الله ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّجَمَ بِالْغَيْبِ﴾ أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله ﴿كَقَوْلِهِ﴾ : «وَجَلَّ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى خَالِيًا ، ففاضت عيناه» ^(١) ﴿وَبَيَّضَ يَتْلُو شَيْئًا﴾ أي ولقي الله ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه ﴿أَدْعَاؤُكُمْ﴾ أي اللجنة ﴿وَسَكَّرَ﴾ قال قتادة : سلموا من عذاب الله ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ﴾ وقوله ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْفُتُورِ﴾ أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا ، ولا يظعنون أبدًا ولا يغيثون عنها حولًا ، وقوله جلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿كَمْ تَأْتِيكَمْ يَتًّا﴾ أي مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملائك طلبوا أحضر لهم . عن كثير بن مرة قال : من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ماذا تريدون ؟ فأمرطه لكم ؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم ، قال كثير : لئن أشهدني الله تعالى ذلك لأقولن : أمطرنا جوازي مزيّنات .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة» ^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هو كقوله ﴿لَكِنَّ أَسْأَلُ الْمُسْتَقْرَرَّ﴾ عن صهيب بن سنان الرومي : أنها النظر إلى وجه الله الكريم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال : يظهر لهم الرب ﷻ في كل جمعة . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتى جبرائيل عليه الصلاة والسلام بمرة يضاء فيها نكته إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «ما هذه» فقال : هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك ، فالتاس لك فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله تعالى فيها بخير إلا استجيب له وهو عندنا يوم المزيد . قال النبي ﷺ : «يا جبريل وما يوم المزيد ؟» قال ﷺ : «إن ربك تبارك وتعالى اتخذ في الفردوس وادياً أفبح فيه كتب المسك ، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله تعالى ما شاء من ملائكته ، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين ، وحفت تلك المنابر من ذهب ، مكللة بالياقوت والزبرجد عليها الشهداء والصديقون ، فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب ، فيقول الله ﷻ : أنا ربكم قد صدقتمكم وعدي ، فسلوني أعطكم ، فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : قد رضيت عنكم ولكم علي ما تمنيتم ولدي مزيد . فهم يحجون يوم الجمعة لما يعطوهم فيه ربه تبارك وتعالى من الخير ، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش ، وفيه خلق آدم ، وفيه تقوم الساعة» ^(٣) . وعن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «إن الرجل في الجنة ليتكئ في اللجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأة تضرب على منكبيه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرأة ، وإن أدق لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب ، فتسلم عليه فيرد السلام فيسألها من أنت فتقول : أنا من المزيد ، وإنه ليكون عليها سبعون حلة أدناها مثل التعمان من طوبى ، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها من التيجان ، إن أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب» ^(٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/٣) .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٩) .

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (١٠٤/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) والسيوطي في جمع الجوامع (٥٥٢٧) .

﴿ وَكَمْ أَعْلَمْنَا بِلَهُمْ مِنْ قَرِينٍ هُمْ أَشَدَّ بِنَهُمْ طَغَا فَعَبُّوا فِي الْيَلْدِ هَلْ مِنْ عَاجِلٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ آتَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسْكَنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبُرَ النُّجُومِ ۖ ﴿٤٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَعْلَمْنَا بِلَهُمْ ۖ قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمَكْدِينِ ۖ ﴾ مِنْ قَرِينٍ هُمْ أَشَدَّ بِنَهُمْ طَغَا ۖ أَي كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ فَعَبُّوا فِي الْيَلْدِ هَلْ مِنْ عَاجِلٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ؓ : أَثَرُوا فِيهَا . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ أَي سَارُوا فِيهَا يَتَغَوَّنَ الْأَرْزَاقَ وَالْمَتَاجِرَ وَالْمَكَاسِبَ أَكْثَرَ مِمَّا فَطَمَ بِهَا ، وَيَقَالُ لِمَنْ طَوَّفَ فِي الْبِلَادِ نَقَبَ فِيهَا .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ عَاجِلٍ ﴾ أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره ، وهل نفعهم ما جمعه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل ، فأنتم أيضًا لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص . وقوله ؓ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي لعبرة ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي لب يعي به . وقوله ؓ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسْكَنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ فيه تقرير للمعاد ؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأروى والأحرى ، وقال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - : خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزله الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وأثابوه ﴿ وَمَا مَسْكَنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب .

وقوله ؓ : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ يعني المكذبن أصبر عليهم وأهجرهم هجرًا جميلًا ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسرائئلتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجبًا على النبي ﷺ وعلى أمته حوله ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسرائئل بخمس صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . عن جرير بن عبد الله ؓ قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : «أما إنكم مستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي فصل له ﴿ وَادْبُرَ النُّجُومِ ﴾ عن ابن عباس ؓ : هو التسييح بعد الصلاة . يؤيد هذا ما ثبت عن أبي هريرة ؓ أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال النبي ﷺ : «وذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا تنصديق ، ويتقون ولا نعتق . قال ﷺ : «أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ » تسيحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين : قال : فقالوا : يا رسول

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٤) ومسلم في المساجد (٢١٢) والطبراني في الكبير (٣٢٧/٢) .

اللَّهُ سَمِعَ إِخْوَانَنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَعْمَلُوا مِثْلَهُ . فَقَالَ ﷺ : « ذَلِكَ فَضِلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ » ^(١) .
والقول الثاني : أن المراد بقول تعالى : ﴿ وَأَذْبَنَ الْشُّجْرَةَ ﴾ هما الركعتان بعد المغرب . عن
علي عليه السلام قال : كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر .
وقال عبد الرحمن : دبر كل صلاة ^(٢) .

﴿ رَأْسِيَّ يَوْمَ يَكُونُ النَّكَّادِينَ مَكَانَ فِيهِ ﴾ يَوْمَ يَتَمَتَّعُونَ النَّشِيطَةَ وَالْمَنَى ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿ إِذَا نَحْنُ نَحْنُ وَنُثِيبُ
وَلَيْسَ الْغَيْبُ ﴾ يَوْمَ نَشْفُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ يَرَاءُ ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَبِيرُ ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ
بِخَبِيرٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَيَعِذُّ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ رَأْسِيَّ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّكَّادِينَ مَكَانَ فِيهِ ﴾ قال قتادة : قال كعب الأحبار :
يا أمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس أيها العظام البالية والأوصال المتقطعة ، إن الله
تعالى يأمركن أن تهجمن لفصل القضاء ﴿ يَوْمَ يَتَمَتَّعُونَ النَّشِيطَةَ وَالْمَنَى ﴾ يعني النفع في الصور التي تأتي
بالحق الذي كان أكرهم فيه يموتون ﴿ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴾ أي من الأحداث ﴿ إِذَا نَحْنُ نَحْنُ وَنُثِيبُ ﴾ وَنُثِيبُ
النَّشِيطِ ﴿ أَيُّ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَعْلَمُ عَلَيْهِ وَآلِيهِ مَصِيرَ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ ، فيجازي كلًّا
بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَشْفُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ يَرَاءُ ﴾ وذلك إن الله ﷻ
ينزل مطرًا من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قهورها ، كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا
تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرائيل فينبغ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور ،
فإذا نفخ إسرائيل فيه خرجت الأرواح تنهض بين السماء والأرض ، فيقول الله ﷻ : وعزتي وجلالي
لأرجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تصمره ، فارجع كل روح إلى جسدها ، فندب فيه كما ندب
السم في اللدغ ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعًا مبادرين إلى أمر الله ﷻ
﴿ مُتَّطِيعِينَ إِلَى الْآلِ يَقُولُ الْكُفْرُوكَ كَمَا يَوْمَ عِيبَرِ ﴾ عن أنس عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من تنشق
عنه الأرض » ^(٣) . وقوله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَبِيرُ ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا ، يسيرة لدينا .

وقوله جل وعلا : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من
التكذيب فلا يهولك ذلك ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِخَبِيرٍ ﴾ أي ولست بالذي تجهز هؤلاء على الهدى ، وليس
ذلك مما كلفت به . وقال مجاهد وقاتدة والضحاك : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِخَبِيرٍ ﴾ أي لا تنهض عليهم ،
والقول الأول أولى ، ولو أراد ما قالوه لقال : ولا تكن جبارًا عليهم ، وإنما قال : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِخَبِيرٍ ﴾
بمعنى وما أنت بمجهزهم على الإيمان إنما أنت مبلغ ، قال الفراء : سمعت العرب تقول : جبر فلان فلانا
على كذا بمعنى أجبره ، ثم قال ﷻ : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَيَعِذُّ ﴾ أي بلغ أنت رسالة ربك فإما
يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ الْكَافِرُ الْكَلْبُ وَكَانَ الْإِنْسَانُ ﴾
وقوله ﷻ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّتٍ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في الإيمان (١٧٩) والترمذي في السنن (٧٣١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٤/١) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٤٨) وابن ماجه في السنن (٤٣٠٨) وأحمد في مسنده (٢٨١/١) والحاكم في المستدرک (٤٦٥/٢) .

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَلْيَلْجَأِي وَفَرَا ﴿٢﴾ فَلْيَلْجَأِي بَرًا ﴿٣﴾ فَلْيَلْجَأِي بَرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ ﴿٦﴾ وَاسْتَأْذَنَ الَّذِينَ ﴿٧﴾ إِذْ كُنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ قَوْلٌ مُخْتَلِفٌ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْيَقِينِ ﴿٩﴾ قِيلَ لَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا نَجْمٌ كَلْبٍ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١١﴾ ذُرِّيَّتَهُمْ هَكَذَا إِلَى كُفْرِهِمْ يَنْتَسِلُونَ ﴿١٢﴾ .

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ، ولا عن سنة عن رسول الله إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴾ قال علي عليه السلام : الريح ، قال : ﴿ فَلْيَلْجَأِي وَفَرَا ﴾ قال عليه السلام : السحاب ، قال : ﴿ فَلْيَلْجَأِي بَرًا ﴾ قال عليه السلام : السفن ، قال : ﴿ فَلْيَلْجَأِي بَرًا ﴾ قال عليه السلام : الملائكة .

وقال بعضهم : هي النجوم تجري يسرا في أفلاكها ليكون ذلك ترفيها من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه ، فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوقه كذلك ، والمقسمات أمرا : الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية ، وهذا قسم من الله ﷻ على وقوع المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴾ أي لحبر صدق ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ ﴾ وهو الحساب ﴿ لَيَكُنَّ ﴾ أي لكائن لا محالة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاسْتَأْذَنَ الَّذِينَ ﴾ قال ابن عباس عليه السلام : ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما : مثل تجمع الماء والرمل والزرع ، إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضا طرائق طرائق ، فذلك الحيك . عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من ورائكم الكذاب المضل ، وإن رأسه من ورائه حُبْكَا حُبْكَا » ^(١) يعني بالحيك المعودة . وعن أبي

صالح : ﴿ ذَاتِ لُكْبٍ ﴾ الشدة . وعن عبد الله بن عمرو عليه السلام : ﴿ وَاسْتَأْذَنَ الَّذِينَ ﴾ يعني السماء السابعة ، وكأنه والله أعلم أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة ، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع ، والله أعلم . وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس عليه السلام ، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء ، مكلفة بالنجوم الثوابت والسيارات ، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات . وقوله تعالى : ﴿ إِذْ كُنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ قَوْلٌ مُخْتَلِفٌ ﴾ أي إنكم أنبأتكم المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب لا يلهم ولا يجتمع ، وقال قتادة : إنكم لفي قول مختلف مابين مصدق بالقرآن ومكذب به . ﴿ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْيَقِينِ ﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه ، لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ، ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر لا فهم له قال ابن عباس عليه السلام : والسدي : ﴿ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْيَقِينِ ﴾ يضل عنه من ضل . وقال مجاهد : يؤفك عنه من أفر ، وقال الحسن البصري : يصرف عن هذا القرآن من كذب به . وقوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا نَجْمٌ كَلْبٍ ﴾ قال مجاهد : الكلابيون ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٠/٥) وذكره الطبري في تفسيره (٢٤٥/٢٦) .

قال : وهي مثل التي في عبس ﴿ قُلْ إِنِّي نَزَّاتُ أَفْرَءٌ ﴾ والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون . قال ابن عباس : أي لمن المرتابون . وهكذا كان معاذ ؓ يقول في خطبته . هلك المرتابون . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَرْبٍ سَاهُونَ ﴾ قال ابن عباس ؓ وغير واحد : في الكفر والشك غافلون لاهون ﴿ يَسْتَوُونَ لَيْلَةَ يَوْمِ الْاِزِينَ ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُنْتَوُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد : ﴿ يَنْتَوُونَ ﴾ يعذبون . قال مجاهد : كما يفتن الذهب على النار ، وقال جماعة آخرون : يحرقون ﴿ ذُرُوءًا يُنْتَكَرُ ﴾ قال مجاهد : حريقكم ، وقال غيره : عذابكم ﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك تفرقاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، والله أعلم .

﴿ إِذْ السُّيُوفُ بِدَنَاجَتٍ وَيُمُوتُونَ ﴾ ١٥ . كَيْفَ بِنَا مَا عَلَنَهُمْ رُءُوسُهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا يَنْ أَكَلِ مَا يَهْبَتُونَ ١٦ . وَإِلَّا تَحَارَىٰ هُمْ يَسْتَفْتُونَ ١٧ . وَفِي أَمْزَلِهِمْ حَقٌّ لِّتَأْتِلَ وَكَلْعَرِيرٍ ١٨ . وَفِي الْأَرْضِ مَكِيدٌ لِّتُوقِفِينَ ١٩ . وَفِي الشَّيْءِ أَفْكَارٌ يُفَكَّرُ وَفَا تَرْتَدُونَ ٢٠ . قَوْلِي أَتَمَّتْ الْأَرْضُ لِقَوْمِ الَّذِي كُنتُمْ تُبْذَلُونَ ٢١ .

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله ﷻ أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال . وقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ بِنَا مَا عَلَنَهُمْ رُءُوسُهُمْ ﴾ قال ابن جرير : أي عاملين بما اتهم الله من الفرائض ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا يَنْ أَكَلِ مَا يَهْبَتُونَ ﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً .

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا يَنْ أَكَلِ مَا يَهْبَتُونَ ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ كَيْفَ بِنَا ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ كُفَّا وَأَقْرَبُوا حِينِيَا يَمَّا اسْتَلَقْتُمْ فِي الْأَكْوَادِ لِلْاِزِينَ ﴾ ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا ﴿ كَانُوا قَلِيلًا يَنْ أَكَلِ مَا يَهْبَتُونَ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك على قولين : أحدهما ، أن ما نافية تقديره : كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه ، قال ابن عباس ؓ : لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيقاً ، وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله : قل ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله ﷻ ، إما من أولها وإما من أوسطها . وقال أنس بن مالك وأبو العالية : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . القول الثاني : أن ما مصدريه تقديره كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم ، واختاره ابن جرير .

وقال الحسن البصري : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا يَنْ أَكَلِ مَا يَهْبَتُونَ ﴾ كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الامتغفار بسحر . وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول : عرضت عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد باهتوا يومناً بعيداً ، إذا قوم لا يبلغ أعمالهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وعرضت عملي على عمل أهل النار ، فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله ، مكذبون بالبعث بعد الموت ، فقد وجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ، ذكر الله تعالى قوماً فقال : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا يَنْ أَكَلِ مَا يَهْبَتُونَ ﴾ ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم ، فقال له أبي ﷺ : طوبى لمن رقد إذا نسم وانقضى الله إذا استيقظ . وقال عبد الله ابن سلام ﷺ : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنكت فيمن انجفل ، فلما رأيت

وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، فكان أول ماسمعه ﷺ يقول : « يا أيها الناس أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » ^(١) .

وعن عبد الله بن عمر رضيه الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائما والناس نيام » ^(٢) .

وقوله ﷺ : ﴿ وَإِلَّا تَصَارَ تَمَّ يَسْتَفِرُّونَ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : يصلون . وقال آخرون : قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار كما قال تبارك وتعالى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن . وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر » ^(٣) وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب أنه قال لبيه : ﴿ سَوِّكَ أَسْتَفِرُّ لَكَ رَبِّ ﴾ قالوا : أخرجه إلى وقت المسحر .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ رَبِّ أَنْزِلْهُمْ حَتَّى لَسَّ لَيْلٌ وَلَلْحَرِيرُ ﴾ لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال : ﴿ رَبِّ أَنْزِلْهُمْ حَتَّى ﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم . أما السائل فمعروف وهو الذي يتدنى بالسؤال ، وله حق ، عن الحسين بن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « للسائل حق وإن جاء على فرس » ^(٤) وأما المحروم : فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ومجاهد : هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم ؛ يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها ، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه ، وقال الضحاك : هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله تعالى له ذلك . وقال قتادة والزهري : المحروم الذي لا يسأل الناس شيئا .

قال الزهري : وقد قال رسول الله ﷺ : « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمات ، والتمررة والتمرتان ؛ ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يقطن له فيتصدق عليه » ^(٥) ، وقوله ﷺ : ﴿ رَبِّ الْآنَ يُدْعَى الْيَتِيمَ ﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهم والحركات والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في الحلق الذي هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال ﷺ : ﴿ رَبِّ أَفْصَحُ أَتَلَا يُبَيِّنُ ﴾ قال قتادة :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٨٥) والحاكم في المستدرک (١٣١/٣) وأحمد في مسنده (٤٥١/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٣/٥) والحاكم في المستدرک (٣٧١/١) والبيهقي في السنن (٣٠١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/١) وأبو داود في السنن (١٦٦٦) والبيهقي في السنن (٢٣/٧) .

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٦) وسلم في الزكاة (١٠٢) وأبو داود في السنن (١٦٣٢) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٢) .

من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق وليست مفاصله للعبادة .

ثم قال تعالى : ﴿ فِي أَنفِهِ رُزْقٌ ﴾ يعني المطر ﴿ وَنَا نُزِّدُونَ ﴾ يعني الجنة ، قاله ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وغير واحد . وقال سفيان الثوري : قرأ واصل الأحلب هذه الآية ﴿ فِي أَنفِهِ رُزْقٌ وَنَا نُزِّدُونَ ﴾ فقال : ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فدخل خربة فمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً ، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخله من رطب ، وكان له أخ أحسن نية منه ، فدخل معه فصارنا دواخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت .

وقوله تعالى : ﴿ قَرَّبَ شِعْرَةَ الْكَرِيمِ وَالْكَرِيمِ إِنَّهُ لَمَنْ يَنْزِلُ مَا أَنتُمْ نَاطِقُونَ ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريم أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكروا فيه كما لا تشكروا في نطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه : إن هذا لحق كما أنك ههنا .

﴿ هَلْ أَتَاكَ نَبِيٌّ صَنِيفَ الْكُرْهِينَ ﴾ ١٠ إِذْ دَعَاؤُهُ عَلَيْهِ قَفَاؤُهُ سَلَكًا قَالَ سَلَّمَ قَرَّمَ شُكْرُونَ ١١ فَرَأَى إِلَهَ أَعْلِيهِ فَجَلَّةٌ يَجِبُ سَمِينٌ ١٢ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ١٣ فَأَوْبَسَ يَتَنَّهُمْ جَيْفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرْهُمْ بِشَيْءٍ طَيِّبٍ ١٤ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ فِي صَرٍّ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ حَبْرٌ عَقِيمٌ ١٥ قَالُوا كَذَّابٌ قَالَ زَيْبٌ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْقَلِيلُ ١٦ .

﴿ هَلْ أَتَاكَ نَبِيٌّ صَنِيفَ الْكُرْهِينَ ﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة ، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل ، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل . وقوله تعالى : ﴿ قَفَاؤُهُ سَلَكًا قَالَ سَلَّمَ ﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب ، فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى : ﴿ قَرَّمَ شُكْرُونَ ﴾ وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال : ﴿ قَرَّمَ شُكْرُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَرَأَى إِلَهَ أَعْلِيهِ ﴾ أي انسل خفية في سرعة ﴿ جَلَّةٌ يَجِبُ سَمِينٌ ﴾ أي من خيار ماله ﴿ قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي أدناه منهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ تلتطف في العبارة وعرض حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولاً فقال : تأتكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل في سمين مشوي ، فقربه إليهم لم يضعه وقال : اقربوا ، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل : اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْبَسَ يَتَنَّهُمْ جَيْفَةً ﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَحْدِلُ إِنْ يُدْعَوْ تُصَرِّفُهم وَأَوْبَسَ يَتَنَّهُمْ جَيْفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِنْ قَوْمُ لُوطٍ ١٧ وَأَنْزَلْنَاهُ قَالِمَةً فَفَصَحَكْتُ ١٨ أَيِ اسْتَبَشَرْتُ بِهَلَاكِهِمْ لِتَمْرُدِهِمْ وَعَتَوْهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿ قَالَتْ يَتَرَبَّعْنَ لَكُمْ رَأًنَا حَبْرٌ وَهَذَا بَشَرٌ سَمِينٌ إِنَّكَ هَذَا لَتَقْوٌ عَجِيبٌ ١٩ قَالُوا أَسْمِعِينَ مِن أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى أَمْوَرُكُمْ كَيْفَ أَهْلُ الْآيَةِ إِنَّهُ حَيْدٌ حَيْدٌ ٢٠ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ ٢١ ههنا ﴿ وَبَشِّرْهُمْ بِشَيْءٍ طَيِّبٍ ﴾ فالبشارة له هي بشارة لها . لأن الولد منهما فكل منهما بشر . وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ فِي صَرٍّ ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنه ، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم

والظاهر ان هذه كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا كُمُودٌ فَمِنْهُمْ قَسَتْ حُبُوا الْمَتَى عَلَى الْكَذِبِ فَطَعْنَهُمْ حَبِيقَةُ الْمَذَابِ الْكُورِ ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ وَفِي قَوْمٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ٥٨ قَمَتُوا عَنْ آيَةِ رَبِّهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ فَصَبَّغَهُ السَّيْفُ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار ﴿ فَمَا اسْتَغْنَوْا مِنْ يَمِينِ ﴾ أي من حرب ولا نهوض ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴾ أي لا يقدرון على أن يتصرفوا بما هم فيه . وقوله ﴿ وَفِي قَوْمٍ يُزَيَّنُ لَهُمْ قِيلٌ ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسولة في أماكن كثيرة من سور متعددة ، والله تعالى أعلم .

﴿ وَالشَّمْسُ بَدَّتْ غَابَتْ بِرَبِّهَا وَقَالُوا لِمُؤْمِنِينَ ٥٩ وَالْأَرْضُ فَرَشَتْهَا فَنَزَعَتِ الْمُنْهَدُونَ ٦٠ دُونَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجَعِينَ لِمَ أَكَلَكُمْ ذِكْرُنَا ٦١ فَنُفِثُوا إِلَىٰ آفَاقٍ لِّئَلَّا يُكْرِمَهُ بَيْنَهُ شَيْئٌ ٦٢ وَلَا يَحْمِلُوا مَعَ اللَّهِ لَيْلَهَا مَآخَرٌ لِّئَلَّا يُكْرِمَهُ بَيْنَهُ شَيْئٌ ٦٣ ﴾ .
يقول تعالى منهاها على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿ وَالشَّمْسُ بَدَّتْ ﴾ أي جعلناها سقفا محفوظا رفيعا ﴿ غَابَتْ بِرَبِّهَا ﴾ أي بقوة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقنادة والثوري وغير واحد ﴿ وَقَالُوا لِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي قد وسعنا أرجاءها فرفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي ﴿ وَالْأَرْضُ فَرَشَتْهَا ﴾ أي جعلناها فراشا للمخلوقات ﴿ فَنَزَعَتِ الْمُنْهَدُونَ ﴾ أي وجعلناها مهبطا لأهلها ﴿ دُونَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجَعِينَ ﴾ أي جميع المخلوقات أزواج سماء وأرض ، ليل ونهار ، وشمس وقمر ، وير وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات والنباتات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِمَ أَكَلَتْكُمْ ذِكْرُنَا ﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿ فَنُفِثُوا إِلَىٰ آفَاقٍ ﴾ أي الجأوا إليه واعتمدوا في أمرهم عليه ﴿ لِّئَلَّا يُكْرِمَهُ بَيْنَهُ شَيْئٌ ٦٢ وَلَا يَحْمِلُوا مَعَ اللَّهِ لَيْلَهَا مَآخَرٌ ﴾ أي لا تشركوا به شيئا ﴿ لِّئَلَّا يُكْرِمَهُ بَيْنَهُ شَيْئٌ ٦٣ ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ يَنْزِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِيرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ٦٤ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَافُونَ ٦٥ قَوْلَ عَنَّهُمْ نَمَّا أَنتَ بَشَرٌ مِّثْلُهم ٦٦ وَذَكَرَ فَإِنَّ الْإِنِّكَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ٦٧ وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدَكَ ٦٨ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ٦٩ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَّيُّنُ ٧٠ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا تَنْقُلُ ذُنُوبَ أَصْحَابِهَا فَكَذَلِكَ يُجْزَوْنَ ٧١ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ٧٢ ﴾ .

يقول تعالى مسلما لنبيه ﷺ وكما قال لك هؤلاء للمشركون قال المكذبون الأولون لرسلهم : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ يَنْزِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِيرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ قال الله ﷻ : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَافُونَ ﴾ أي لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم ، فقال متأخروهم كما قال مقدمهم . قال الله تعالى : ﴿ قَوْلَ عَنَّهُمْ ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد ﴿ نَمَّا أَنتَ بَشَرٌ مِّثْلُهم ﴾ يعني فما نولمك على ذلك ﴿ وَذَكَرَ فَإِنَّ الْإِنِّكَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إنما تنفع بها القلوب المؤمنة ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدَكَ ﴾ أي إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم . وقال ابن عباس ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدَكَ ﴾ أي لإيقروا بعبادتي طوعا أو كرها . وهذا اختيار ابن جرير . وقال ابن جريج : إلا ليعرفون ، وقال الربيع بن أنس : أي لإلا للعبادة ، وقال السدي : من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ أَسْمَآئَهُمْ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ هذا منهم عبادة وليس يفهمهم مع الشرك ، وقال الضحك : المراد بذلك المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ٦٩ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَّيُّنُ ﴾ عن

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أقرأني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين) ^(١) . ومعنى الآية : أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخير أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم . فهو خالقهم ورازقهم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « قال الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ؛ ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك » ^(٢) . وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فان وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فلتك فالتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنْبًا ﴾ أي نصيبًا من العذاب ﴿ يَنْتَلِ ذُنُوبَهُمْ ثَمَنًا فَمَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي فلا يستعجلون ذلك فإنه واقع لا محالة ﴿ قَوْلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي بَوَّعْتُهُ ﴾ يعني يوم القيامة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٤/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٨/٢) .

منه المطر ، الذي تحيا به الأجساد في قبرها يوم معادها ، وقال الجمهور ، هو هذا البحر ، واختلف في معنى قوله : ﴿ السَّجُورِ ﴾ ، فقال بعضهم : المراد أنه يوكد يوم القيامة نازا كقوله : ﴿ وَإِذَا أَلْمَأَزَّ شِجْرَتٌ ﴾ أي أضمرت قصير نازا تتأجج محيطه بأهل الموقف . وقال العلاء بن بدر : إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء ولا يسقى به زرع وكذلك البحار يوم القيامة . وقال قتادة : المسجور المملوء ، واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا فهو ممؤل . وقيل : المراد به الفارغ . وقيل : المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لتلا يغمرها فيغرق أهلها ، قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره ، وعليه يدل الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا البحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله تعالى أن ينفضح عليهم ، فيكشف الله ﷻ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَآتٍ ﴾ هذا هو المقسم عليه أي لواقع للكافرين كما قال في الآية الأخرى ﴿ تَأْتِيهِمْ مِنْ دُنَى ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك . عن جعفر بن زيد العبدي قال : خرج عمر يعس في المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائما يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ وَالطُّورِ ﴾ حتى إذا بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَآتٍ ﴾ (١) تألم من دافع . قال : قسم - ورب الكعبة - حق ، فنزل عن حماله واستند إلى حائط فمكث مليا ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهوا يعود الناس لا يدرون ما مرضه ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ الْكُتُبُ مُرْأً ﴾ قال ابن عباس و قتادة : تتحرك تحريكا . وقال مجاهد : تدور دورا ، وقال الضحاك : استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض . وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة ﴿ وَيَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تذهب قصير هباء منبثا وتنسف نسفا ﴿ قَوْمًا يَنْبَسُ الْكُذِبُ ﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَنْصَبُونَ ﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هروا ولعبا ﴿ يَوْمَ يَنْفُثُونَ ﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿ إِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ دُخَانًا ﴾ قال مجاهد والشعبي وغيرهما : يدفعون فيها دفعا ﴿ هَدْيَ النَّارِ أَلْفَى كُنْتُ بِهَا كُذِّبُونَ ﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقرعها وتوبيخها ﴿ أَفَيْسَرُ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تَبْصُرُونَ ﴾ (٢) استلوا أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ﴿ إِنَّا نَبْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ولا يظلم الله أحدا بل يجازي كلأ بعمله . ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ رِيسًا ﴾ فكيفهم يما ءاتتهم ريثم ووقفهم ريثم عذاب الجحيم ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا حَيْثُ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) مذكبين على مربر مصفوفين ووقفهم بحر عين .

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ رِيسًا ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال ﴿ فَكَيْفَ يَمَّا ءَاتَهُمْ رِيسًا ﴾ أي يتفكحون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملاس ومسكن ومراكب وغير ذلك ﴿ وَوقفهم ريثم عذاب الجحيم ﴾ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم أي وقد نجاهم من عذاب النار ، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حداثها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر

انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل وهورفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك ، أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد ، فقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ ﴾ أي مرتبه بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أباً أو ابناً وقوله ﴿ وَاسْتَنْدَبْتَهُمْ فَبَكَرُوا لَهُمْ وَنَأَوْوُا عَنْهُ ﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى . وقوله ﴿ يَنْتَهِزُونَ بِهَا كُنُفًا ﴾ أي يتعاطون فيها كُنُفًا أي من الحمر ، قاله الضحاك ﴿ لَا تَقُوفُوا بِهَا لَنُفٍ ﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان ولا لثم أي فحش كما يتكلم به الشرية من أهل الدنيا ، قال ابن عباس : اللغو الباطل والتأنيب الكذب ، وقال مجاهد : لا يستبون ولا يؤثمون . وقال قتادة : كان ذلك في الدنيا مع الشيطان ففزع الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، كما تقدم ، نفى عنها صلدع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل بالكلية ، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً ، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخيرها . وقوله تعالى : ﴿ رَتَبُوا لَهُمْ مَكَّيْنَهُمْ فَكَفَّ أُولَئِكَ لَمَّا كَانَتْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُوا رَبِّهِمْ ﴾ إخبار عن خدشهم وحشمهم في الجنة ، كأنهم لؤلؤ الرطب المكنون في حشمتهم وبهايتهم ونظافتهم وحسن ملبسهم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَكْبَلَتْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي أقبلوا يتحدثون ويتسألون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرايبهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ هَٰذَا أَعْمَىٰ مُتَقَبِّبِينَ ﴾ أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ﴿ فَمَرَّ أَفْئُتُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي فصدق علينا وأجارنا مما نخاف ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلَ تَقْدُورٍ ﴾ أي تنضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فبجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا فيتحدثان ، فيتكى هذا ويتكى هذا ، فيتحدثان بما كان في الدنيا ، فيقول أحدهما لصاحبه : يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا الله ﷻ فغفر لنا » ^(٢) وعن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿ فَمَرَّ أَفْئُتُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلَ تَقْدُورٍ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ فقالت : اللهم من علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم . قيل للأعمش : في الصلاة ؟ قال : نعم .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَتَىٰ يَمْعَتِ رَبِّكَ يَكْفُرُونَ وَلَا جُنُونَ ﴾ ٢١ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ كَلِيسَ تَقْرَأُ بِهِ رَبِّهِ السُّورُونَ ﴾ ٢٢ ﴿ قُلْ قَرَأُوا فَلَيْلٍ مَّعَكُمْ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ ٢٣ ﴿ أَمْ تَأْمُرُوا أَسْلَافَكُمْ بِذَٰلِكَ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَافُونَ ﴾ ٢٤ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقَرْنَا بَلْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ٢٥ ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحُجُوبٍ يَنْقُلِيهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى أمراً برسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَتَىٰ يَمْعَتِ رَبِّكَ يَكْفُرُونَ وَلَا جُنُونَ ﴾ أي لست

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٧٦) والبخاري في الترمذي والريثي (٩٩١) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢١/١٠) والبرزلي في مسنده (٣٥٥٣) .

بحمد الله بكاهن كما تقولوا الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبير السماء ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس . ثم قال تعالى منكرا عليهم في قولهم في الرسول ﷺ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَيْءٌ نَّرْصُهُ بِهِ رَبِّهِ الْأَتُونَ ﴾ أي قوارع الدهر ، والمنون الموت ، يقولون : ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي انتظروا فاني منتظر معكم ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة . عن ابن عباس ؓ : إن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم : احتبسوه في وثاق وتربصوا به ربب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَيْءٌ نَّرْصُهُ بِهِ رَبِّهِ الْأَتُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَنْتُمْ بِهَا ﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿ أَمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴾ أي ولكن هم قوم طاغوت ضلال معاندون ، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ قَوْلَهُ ﴾ أي اختلقه واقتراه من عند نفسه ، يعنون القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ لَا يَرْضَوْنَ ﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا سَادِقِينَ ﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم : نقولوا واقتراه ، فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ماجاموا بمثله ، ولا بعشر سور من مثله ، ولا بسورة من مثله .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِكُونَ ﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْهِتُونَ ﴾ أَمْ هُمُ سَاءُ مَسْتَوِرِينَ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْذَّيْبِ ﴾ أَمْ لَمْ يَكُنْ لَكَ الْبَتُّ وَلَكُمْ الْبُوءُ ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ أَمْ عَنْدهُمُ الْقِيَمُ يَكْفِيكَ ﴿ أَمْ يُبَدِّلُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أَمْ هُمْ إِلَهُ غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِكُونَ ﴾ أي أوجدوا من غير موجد ، أم هم أوجدوا أنفسهم ، أي لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذي حسبهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا . عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِكُونَ ﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْهِتُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير ^(١) . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركا ، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حملته على الدخول في الإسلام بعد ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي أهم خلقوا السموات والأرض ، وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله ، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له ، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك ﴿ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْهِتُونَ ﴾ أي هم يتصرفون في الملك ويبدعهم مفاتيح الخزائن ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصْهِتُونَ ﴾ أي المحاسبون للخلاقي ، ليس الأمر كذلك بل الله ﷻ هو الملك المتصرف الفعال لما يريد .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (١٨٥٣) وأحمد في مسنده (٢٩٠/٦) .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ الْغَدُوءِ ﴾ أي من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير ويتأيد هذا القول بما روي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال : « من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : رب اغفر لي - أو قال ثم دعا - استجيب له فإن عزم فتوضاً ثم صلى قبلت صلاته » (١) .

وقد وردت أحاديث مسندة من طرق يقوي بعضها بعضاً بذلك ، فمن ذلك حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمديك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ الْيَلِيلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل ، وقوله تعالى : ﴿ وَادِّعِ الزَّجُورَ ﴾ قد تقدم في حديث ابن عباس ، أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيبوبة . وقد روي عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا تدعوها وإن طردتك الخيل » يعني ركعتي الفجر (٣) . ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب أحمد القول بوجوبهما ، وهو ضعيف لحديث « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل علي غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » (٤) . وقد ثبت عن عائشة رضيها قالت : « لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر » (٥) .

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٤) وأحمد في مسنده (٣١٣/٥) والترمذي في السنن (٣٤١٤) وابن ماجه في السنن (٣٨٧٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٣٣) وأحمد في مسنده (٤٩٤/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٥٨) والبيهقي في السنن (٤٧١/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٨) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو داود في السنن (٣٩١) والنسائي في السنن (١١٨/٨) .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٩) .

سورة النجم

عن عبد الله قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة « والنجم » قال : فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفًا من تراب فسجد عليه ، فرأيت به بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا مَكَرَ سَابِغُهُ وَمَا عَدَىٰ ۝ وَنَا يُنْقِطُ عَنِ الصَّوْءِ ۝ إِنَّ مَوْزِعَهُ لَآ وَحْيٌ يُّحَىٰ ۝ ۞ ﴾ .

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق واختلف المفسرون في معنى قوله ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ ﴾ فقال مجاهد : يعني بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر ، وكذا روي عن ابن عباس وسفيان الثوري واختاره ابن جرير ، وزعم السدي أنها الزهرة وعن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ ﴾ يعني القرآن إذا نزل ، وقوله تعالى : ﴿ مَا مَكَرَ سَابِغُهُ وَمَا عَدَىٰ ۝ ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم ، والغاوي هو العالم بالحق ، العادل عنه قصداً إلى غيره ، فزه الله رسوله ﷺ عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود : وهي علم الشيء وكتمانها ، والعمل بخلافه ، بل هو صلاة الله وسلامه عليه وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والساد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنَا يُنْقِطُ عَنِ الصَّوْءِ ۝ ﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض ﴿ إِنَّ مَوْزِعَهُ لَآ وَحْيٌ يُّحَىٰ ۝ ﴾ أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان . عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ليدخل الجنة بشفاعتي رجل ليس بنبي مثل الحيين - أو مثل أحد الحيين - ربيعة ومضر » فقال رجل : يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر ؟ قال : « إنما أقول ما أقول » ^(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق » ^(٣) وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أقول إلا حقاً » قال بعض أصحابه : فإنك تداعينا يا رسول الله ، قال : « إني لا أقول إلا حقاً » ^(٤) .

﴿ عَلَّمَ شَبِيهَ النَّوْنِ ۝ ذُرِّيَّةً نَّاسِتُونَ ۝ وَهُوَ بِالْأُفْقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأُولَٰئِكَ كَلِمَاتٌ لِّبَيِّنَاتٍ ۝ مَّا كَلَّمَ الْقَوْمَ مَا رَأَىٰ ۝ فَتَوَسَّوْهُ عَلَىٰ مَا بَيَّنَّا ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ وَجَدَ سِدْرَهُ لَشَبَابٍ ۝ وَبَيْنَهُ جَنَّاتُ النَّارِ ۝ إِذْ يَتَنَبَّأُ الْغَيْثُ مَا يَنْتَنِي ۝ مَا كَلَّمَ الْبَصَرَ وَمَا كُنْ ۝ قَدْ رَأَىٰ مِنْ مَّيْمَنٍ رَيْدَ الْكَذِبِ ۝ ۞ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٠/٢) والترمذي في السنن (١٩٩٠) والبيهقي في السنن (٢٤٨/١٠) .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس ﴿ شَيْدُ الْقُرْآنِ ﴾ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام ، ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو قوة ، قاله مجاهد والحسن وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن وقال قتادة : ذو خلق قوي حسن ولا منافاة بين القولين فإنه ﷺ ذو منظر حسن وقوة شديدة . وقوله تعالى : ﴿ قَاسِمُونَ ﴾ يعني جبريل ﷺ ، ﴿ وَفَوْ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى ، قال عكرمة : والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح . وقال مجاهد : هو مطلع الشمس . وقال قتادة : هو الذي يأتي منه النهار ، وكذا قال ابن زيد وغيرهم .

وعن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين : أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته ففسد الأفق . وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فلذلك قوله : ﴿ وَفَوْ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴾ وقد قال ابن جرير ههنا قولاً لم أره لغيره ، ولا حكاؤه عن أحد ، وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى أي هذا الشديد القوي ذو المرة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى ، أي استويا جميعاً بالأفق الأعلى وذلك ليلة الإسراء ، كذا قال ، ولم يوافق أحد على ذلك ، ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية فقال وهو كقوله ﴿ أَوَدَا كُنَّا ذُرّاً وَمِنْ ثَوْبِهَا ﴾ فعطف بالآباء على المكنى في ﴿ كُنَّا ﴾ من غير إظهار نحن فكذلك قوله : ﴿ قَاسِمُونَ ﴾ وهو ، قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

ألم تر أن النبع يصبب عوده
ولا يستوي والخروج التشقصف

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها ، ورسول الله ﷺ في الأرض ، فهبط عليه جبريل ﷺ وتدلى إليه فاقرب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدره المنتهى يعني ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدما جاءه جبريل ﷺ أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ ، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مراراً ليرتدى من رؤوس الجبال ، فكلما هم بذلك ناداه جبريل من الهواء ، يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه ، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ بالأبطلح في صورته التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق ، فاقرب منه وأوحى إليه عن الله ﷻ ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة وجلالة قدره وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه .

عن عبد الله أنه قال : « رأى رسول الله ﷺ : جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدور والياقوت ما الله به عليم » ^(١) . وعن ابن عباس قال : سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال : ادع ربك ، فدعا الله ﷻ فطلع عليه سواد من قبل المشرق فجعل يرتفع ويتشرب ، فلما رآه النبي ﷺ صبق فأتاه فنفضه ومسح البزاق عن شدة ^(٢) .

وعن هناد بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ولأذنيه في ربه ﷻ ، فانطلق حتي أتى النبي ﷺ فقال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٥/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/١) .

يا محمد هو يكفر بالذي دنا فخلني فكان قاب قوسين أو أدنى ، فقال النبي ﷺ : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » ثم انصرف عنه فرجع الى أبيه فقال : يا بني ما قلت له ، فذكر له ما قاله ، فقال : فما قال لك ، قال : قال : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاؤه ، فسرنا حتى نزلنا أبوابا وهي في سدة ، ونزلنا إلى صومعة راهب فقال الراهب : يا معشر العرب ، ما أنزلكم هذه البلاد فإنها يسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم . فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي ، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة ، والله ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها ، ففعلنا فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبة فإذا هو فوق المتاع ، فشم وجهه ثم هزمه ، ففسخ رأسه ، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا تغفل عن دعوة محمد ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أي فاقرب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين ، أي بقدرهما إذا مدا ، قاله مجاهد وقطادة ، وقد قيل إن المراد بذلك بُعد ما بين وتر القوس إلى كيدها . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ : قال عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل له ستمائة جناح » ^(٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان أول شأن رسول الله ﷺ أنه رأى في منامه جبريل بأجياد ، ثم إنه خرج ليقتضي حاجته فصرخ به جبريل : يا محمد يا محمد ، فنظر رسول الله ﷺ يمينًا وشمالًا فلم ير أحدًا ثلاثا ، ثم رفع بصره فإذا هو ثاني إحدى رجله مع الأخرى على أفق السماء ، فقال : يا محمد جبريل جبريل يسكنه . فهرب النبي ﷺ حتى دخل في الناس ، فنظر فلم ير شيئا ، ثم خرج من الناس ثم نظر فراه فدخل في الناس فلم ير شيئا ، ثم خرج فنظر فراه ، فذلك قول الله ﷻ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ - إِلَى قَوْلِهِ - ثُمَّ دَا فَتَذَكَّرَ ﴾ ^(٣) يعني جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ويقولون : القاب نصف إصبع ، وقال بعضهم : ذراعين كان بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ^(٤) أَتَشْرُوهَ عَنْ مَا رَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : رَأَى بِفُؤَادِهِ مَرْتِينَ ، وَقَدْ خَالَفَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : أَنَّهُ أَطْلَقَ الرُّؤْيَا وَهِيَ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْمُقْبِدَةِ بِالْفُؤَادِ ، وَمَنْ رَوَى عَنْهُ بِالْبَصْرِ فَقَدْ أَغْرَبَ فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ عَنِ الصَّحَابَةِ .

عن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » وفي رواية « رأيت نورا » ^(٥) وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت لا ، فوضع يده على كففي حتى وجدت بردها بين ثديي - أو قال : نحري - فعلبت ما في السموات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : نعم ، يختصمون

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٣) وابن حجر في فتح الباري (٣٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/١) والطبراني في الكبير (١٢٤/١٠) .

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٢٣/٦) والطبراني في تفسيره (٦١/٢٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩١) والترمذي في السنن (٢٢٨٣) وأحمد في مسنده (١٧٥/٥) .

في الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات ؟ قال : قلت : ألمكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره ، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم إني أسألك فعل الحيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون ، وقال : والدرجات : بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلوة بالليل والناس نيام ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۚ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۚ عِنْدَ جَنَّةٍ لِلْكَوْكَبِ ۚ هَذِهِ الْمَرَّةُ الثَّانِيَةِ الَّتِي رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهَا جِبْرِيلُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ . وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۚ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۚ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتْمَائَةُ جَنَاحٍ يَنْشُرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاقِيلَ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ » ^(٢) .

وعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَلَهُ سِتْمَائَةُ جَنَاحٍ » ^(٣) . سَأَلْتُ عَاصِمًا عَنْ الْأَجْنَحَةِ فَأَمَّا أَنْ يُخْبِرَنِي ، قَالَ : فَأَخْبِرَنِي بَعْضَ أَصْحَابِهِ أَنَّ الْجَنَاحَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتَانِي جِبْرِيلُ ﷺ فِي حَصَرٍ مَعْلُوقٍ بِهِ الدَّرُّ » ^(٤) . وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقُلْتُ : أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْكَبِيرِ ۚ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۚ ﴾ ، فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا فَقَالَ : « إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ » لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ ، رَأَاهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ سَادًّا عَظَمَ خَلْقَهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَنْتَقِي الْوَيْدَةَ مَا يَنْتَقِنُ ۚ قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّهُ غَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ مِثْلَ الْغُرَبَانِ ، وَغَشِيَهَا نُورُ الرَّبِّ ، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ مَا أُدْرِي مَا هِيَ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ : لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتَتْهُ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَجْرَحُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ ، فَيَقْبِضُ مِنْهَا وَيُلَاقِيهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيَقْبِضُ مِنْهَا ﴿ إِذْ يَنْتَقِي الْوَيْدَةَ مَا يَنْتَقِنُ ۚ ﴾ قَالَ : فَرَأَاهُ مِنْ ذَهَبٍ . قَالَ : وَأَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا : أَعْطَانِي الصَّلَاةَ الْخَمْسَ ، وَأَعْطَانِي خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغَفَرَ لِمَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّةِ الْمُقَحَّمَاتِ ^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ الْكَبِيرُ رَبًّا لَكَ ۚ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ؓ : مَا ذَهَبُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ﴿ رَبًّا لَكَ ۚ ﴾ مَا جَاوَزَ مَا أَمْرُ بِهِ ، وَهَلْهُ صِفَةُ عَظِيمَةٍ فِي الثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّهُ مَا فَعَلَ إِلَّا مَا أَمْرُ بِهِ ، وَلَا سَأَلَ فَوْقَ مَا أَعْطَى ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ النَّازِمُ :

رَأَى جَنَّةَ الْمَأْوَى وَمَا فَوْقَهَا وَلَوْ رَأَى غَيْرَهُ مَا قَدَّرَ رَأَاهُ لَشَاهَا

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْكَوْكَبَ ۚ ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿ لَيْلَتِكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ الْكَوْكَبَ ۚ ﴾ أَيِ الدَّالَةِ عَلَى قُدْرَتِنَا وَعَظَمَتِنَا ، وَبِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْتَدْلُ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ أَنَّ الرُّؤْيَا تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ تَقَعْ ؛ لِأَنَّهُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٦/٤) وإبراهيم في السنن (٢٢٣٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦١/٦) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/١) .

قال : ﴿ قَدْ رَأَىٰ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ رَبَّهُ الْكَبِيرَ ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس ، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة سبحان .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَنَزَلَ الْغَالِثَةُ الْآخَرَىٰ ۝ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ إِنَّهَا إِذَا فَسَّتْ يُفْرِتُ ۝ إِذَا وَجَا ۝ إِلَّا أَسْمَاءُ سُبْحَتُهَا أُتْمَ وَمَعَهَا ذُكْرٌ مَّا آتَرَأَ اللَّهُ بِهَا مِنْ مُطَهَّرٍ ۝ إِن يُبَيِّنُ لَكُمْ إِلَّا الْفُتُورَ وَمَا أَفْهَمُ ۝ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْفَلَاحُ ۝ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ يَقُولُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۝ وَكَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي السَّعَاتِ لَا تُفْنِي سَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَدَلٍ ۚ إِنَّ يَدَ اللَّهِ لَإِمْنٌ يُشَكُّ ۝ وَرَبُّكَ ۝ ﴾ .

يقول تعالى مفرقا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ﴾ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف ، له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف من تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ، قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا : اللات ، يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا ﴿ اللات ﴾ بتشديد التاء ^(١) وفسروه بأنه كان رجلا يلت للحجيج في الجاهلية السوق ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . وعن ابن عباس عليه السلام في قوله ﴿ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ ﴾ قال : كان اللات رجلا يلت السوق سوق الحجاج ^(٢) ، قال ابن جرير : وكذا العزى من العزير ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخله ، وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ^(٣) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليصدق » ^(٤) فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك ، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من زمن الجاهلية ، وعن سعد بن أبي وقاص قال : حلفت باللات والعزى ، فقال لي أصحابي : بس ما قلت ا قلت هجرا . فأنتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وانفث عن شمائلك ثلاثا ، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم لا تعد » ^(٥) .

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة . وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفردهم بالذكر لأنها أشهر من غيرها . قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام

(١) قرأ روس ﴿ اللات ﴾ بتشديد التاء والباقون بحذفها (تقريب البشر ص : ١٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٩) . (٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٩) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٠) . (٥) أخرجه الترمذي في السنن (٨/٧) .

ومسجده : فكانت لقريش ولبنى كنانة العزى بنخلة ، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم ،
حلفاء بني هاشم ، قال : بعث إليها رسول ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :
يا عزى كفرانك لامسحانك إنني رأيت الله قد أهانك

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لتقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بني معتب . قلت :
وقد بعث إليها رسول الله ﷺ ، المغيرة بن شعبه ، وأبا سفيان صخر بن حرب ، فهدماها وجعلها
مكانها مسجداً بالطائف . قال ابن إسحاق : وكانت مئة للأوس والخزرج ومن دان بدنيهم من أهل
يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن
حرب فهدمها ، ويقال علي بن أبي طالب قال : وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن
كان يبلدهم من العرب بتالة . قلت : وكان يقال لها الكعبة اليمانية ، وللكعبة التي بمكة الكعبة
الشامية ، فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه ، قال : وكانت قيس لطي
ومن يليها بجبل طي بين سلمى وأجأ ، قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ
بعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه ، واصطفى منه سيفين : الرسوب والخزيم ، ففعله إياهما رسول
الله ﷺ فهما سيفا علي . قال ابن إسحاق : وكان لحميم وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام ،
وذكر أنه كان به كلب أسود وأن الحيرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجهما وقتلاه وهدما البيت . قال
ابن إسحاق : وكانت رضاء يثرب لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مئة بن تميم ، ولها يقول
المستور بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة ففركتها قفراً بقاع أسحما
قال ابن إسحاق : وكان ذو الكعبات ل بكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد ، وله يقول أعشى بن
قيس بن ثعلبة :

بين الحورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد (١)
ولهذا قال تعالى : ﴿ أَقْرَبَهُمُ اللَّاتُ وَالْعُزَّى ۝ وَنَزَّاتُ الْاُخْرَى ۝ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ اَلَكُمْ اَلْاَكْزَرُ
وَلَكُمُ الْاُكْثَرُ ﴾ أي أنتم لعلو له ولذا وتعملون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو اقتصم
أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي جورا باطلا ، فكيف تقاسمون ربحكم
هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها ، ثم قال تعالى منكرا عليهم فيما
ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ إِنَّ مِنْ اِلَآهَاتِهِمْ
مُشْرِكِينَ اَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أي من تلقاء أنفسكم ﴿ مَا اَرْسَلَ اِلَآهٌ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي من حجة ﴿ اِنَّ يَكْفُرُونَ
اِلَآ الْاَلَّهَ وَمَا تَهْوَى اَلْاَنفُسُ ﴾ أي ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك
الباطل قبلهم ، ولا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ
اَلْمُنْذَرُ ﴾ أي ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم
به ولا اتقادوا له .

(١) راجع السيرة لابن هشام (٨٧/١ - ٩١) .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا شَاءَ ﴾ أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا مَأْتِي ﴾ أحمل المكتوب : ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من ود شيئاً يحصل له . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى ، فإنه لا يدري ما يكتب له من أمينته » ^(١) وقوله : ﴿ يَوْمَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أي إنما الأمر كله لله مالك الدنيا والآخرة والمتصرف في الدنيا والآخرة ، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ وَكَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ أَلْسِنُوتٌ لَا تُفْنِي سَفْعَتَهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَدُونِ آذَنَ يَأْذَنُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ، وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه .

﴿ إِنَّ الْآلِينَ لَا يَخْلُقُونَ الْآخِرَةَ لَبِئْسَ لِلتَّحَكُّمِ شَرِيبَةً الْأَنفَى ﴾ ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخْلُقُونَ إِلَّا الْفَنُّ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ يَنْتَهِ الْآخِرَةُ إِلَّا الْآخِرَةُ الْأَنفَى ﴾ ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ حَذَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنف ، وجعلهم لها أنها بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي ليس لهم علم صحيح بصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور وإفراء وكفر شنيع . ﴿ إِنْ يَخْلُقُونَ إِلَّا الْفَنُّ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ يَنْتَهِ مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لهاكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّخِذْ مِنْ نَفْسِكَ عَنْ ذِكْرِكَا ﴾ أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره . وقوله : ﴿ وَكَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ أَلْسِنُوتٌ إِلَّا الْآخِرَةُ الْأَنفَى ﴾ أي أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا ، فذلك هو غاية مالا خير فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه . وقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » ^(٣) وفي الدعاء المأثور : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » ^(٤) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ حَذَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ أي هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبداً في شرعه ولا في قدره .

﴿ وَلَقَدْ مَا فِي السَّجُودِ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَنْفِ وَالْأَنْفِ وَالْأَنْفِ إِنَّ اللَّهَ لَإِنَّ رَبَّكَ وَبِيعَ الشَّفَعَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ أَنْتَ لَآتَى الْجَنَّةِ فِي بَطُونِ أَمْهَنِيكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغني عما سواه ، الحاكم في خلقه بالعدل وخلق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٦) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) وأحمد في مسنده (٢٤٥٠/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) واللفظي في الغريب والزهري (١٧٨/٤) .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) .

الخلق بالحق ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا يَا عِزُّوْا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَمْسَسُوا بِالْمَسْئَةِ﴾ أي يجازي كلا بعمله إن غيراً فخير وإن شراً فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال في الآية الأخرى ﴿إِنْ يَتَذَكَّرُوا كِبَارُهُ مَا تَكُونُ عَنْهُمْ تَكْوِيْرٌ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ كَرِيْمًا﴾ وقال ههنا ﴿الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ كَثِيْرًا الْإِنْتِهَاءَ وَالْقَوَاعِيْ إِلَّا إِلَهَ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لأن اللطم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال . عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللطم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى كتب على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » ^(١) .

وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال : سألت أبا هريرة عن قول الله ﴿إِلَّا إِلَهَ﴾ قال : القيلة والغمرة والنظرة والمباشرة ، فإذا مس الحلتان الحلتان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وعن مجاهد أنه قال : الذي يلم بالذنب ثم يدعه ، قال الشاعر :

إِنْ تَغْفِرَ إِلَهُهُمْ تَغْفِرَ جَمَاعَا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَا

عن الحسن في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ كَثِيْرًا الْإِنْتِهَاءَ وَالْقَوَاعِيْ إِلَّا إِلَهَ﴾ قال : اللطم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لا يعود إليه .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿إِلَّا إِلَهَ﴾ كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة ، تكفروه الصلوات فهو اللطم ، وهو دون كل موجب ، فأما حد الدنيا : فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة : فكل شيء ختمه الله بالنار وآخر عقوبته إلى الآخرة . وكذا قال عكرمة وقادة والضماك .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ وَحْدٌ مُّتَعَفِّفٌ﴾ أي رحمته وسعت كل شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها وقوله تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ يَكْرِزُ أَنْتَا كَرِيْمٌ الْكَرِيْمُ﴾ أي هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تستصدر عنكم ، وتقع منكم حين أنشأ أباكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال اللز ، ثم قسمهم فریقین : فریقاً للجنة و فریقاً للسعير . وكذا قوله ﴿وَإِذْ أَنتَرُ الْجَنَّةَ فِي بَطْنِ الْأُفُفِ﴾ قد كتب للملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ، قال مكحول : كنا أجنة في بطون أمهاتنا فمسط منا من سقط ، وكنا فيمن بقي ، ثم كنا مرضيع فهلک منا من هلک ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا يفعة فهلک منا من هلک ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شبانا فهلک منا من هلک ، وكنا فيمن بقي ثم صرنا شيوخاً لا أباً لك فماذا بعد هذا ننتظر ؟ .

وقوله تعالى : ﴿فَلَا تَرْكَبُوا أُنْثُسَكُمْ﴾ أي تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿هُوَ اللَّهُ يَتَنَبَّأُ﴾ عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سميت ابنتي برة ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمى : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم ، وسميت برة ، فقال رسول الله ﷺ : « ولا تركوا أنفسكم ، إن الله أعلم بأهل البر منكم » فقالوا : بم نسميها ، قال : « سموها زينب » ^(٢) وعن أبي بكره قال :

(١) أخرجه البخاري في الاسطوانات (٦٢٤٣) ومسلم في القدر (٢٠) وأحمد في مسند (٢٧٦/٢) وأبو داود في السنن (٢١٥٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الأدب (١٩) وأبو داود في السنن (٤٩٥٣) .

مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « بلك قطعت عنق صاحبك - مرازا - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلاناً واللّه حسيبه ولا أزرني على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك » (١) .

وعن همام بن الحارث قال : جاء رجل إلى عثمان فأتى عليه في وجهه قال : فجعل للمقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول : أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب (٢) .

﴿ أَذْرَيْتَ أَلْفَيْ نَفْسٍ ﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْتَفَى ﴿ أَعْيَنْتُمْ عِلْمَ الْغَيْبِ فَهَوَّ بَرِيحٌ ﴿ أَمْ لَمْ يَكُنْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ أَلْفَى وَكَفَى ﴿ أَلَا تَرَى زُرَّةً وَبَذْرَةً لِّأُنْثَى ﴿ وَإِنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَمِعْتُمْ سَوْفَ يَوْمٍ ﴿ ثُمَّ يُعْرِضُ الْبَرَّةَ الْأُخْرَى ﴾ .

يقول تعالى دائماً لمن تولى عن طاعة الله ﴿ فَلَا سَلْوَةَ وَلَا مَكْرَ ﴾ وَلَٰكِي كَذَبَ يَوْمَكَ ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْتَفَى ﴾ قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم قطعه ، وكذا قال مجاهد وغير واحد . قال عكرمة وسعيد : كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً ، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون أكدينا ، ويتركون العمل . وقوله تعالى : ﴿ أَعْيَنْتُمْ عِلْمَ الْغَيْبِ فَهَوَّ بَرِيحٌ ﴾ أي أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معرفه ، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده حتى قد أمسك عن معرفه فهو يرى ذلك عياناً ، أي ليس الأمر كذلك . وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً ، ولهذا جاء في الحديث : « أنفق بلائاً ولا تخش من ذي العرش إقللاً » (٣) وقد قال الله تعالى ﴿ وَمَا أَنتَقَرْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهَوَّ يَسِيْرُهُمْ وَهُوَ كَخَيْرِ الْكَرِّيْرَةِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَكُنْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ أَلْفَى وَكَفَى ﴾ قال سعيد بن جبير والثوري : أي بلغ جميع ما أمر به ، وقال ابن عباس : ﴿ وَكَفَى ﴾ لله بالبلاغ ، وقال سعيد بن جبير ﴿ وَكَفَى ﴾ ما أمر به ، وقال قتادة ﴿ وَكَفَى ﴾ طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، وهو يشمل الذي قبله ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَلَٰذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ نَذْرٌ يَّكْفُرُهُ فَأَتَاهُ قَالَ إِنِّي جَاءْتُكَ لِلْإِيمَانِ ﴿ فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله .

عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفي ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : ﴿ تَسْبِيْحَكَ أَتَوْجِبُ تَسْبِيْحَكَ وَتَسْبِيْحُكَ تَجْزِيْنِي تَسْبِيْحُكَ ﴾ » حتى ختم الآية (٤) .

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال : ﴿ أَلَا تَرَى زُرَّةً وَبَذْرَةً لِّأُنْثَى ﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فلما عليها وزرها لا يحملها عنها أحد ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢) وأحمد في مسنده (٤٦/٥) والبيهقي في السنن (٢٤٢/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٦) وسلم في الزهد (٦٨) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩٢/١٠) والسيوطي في جمع الجوامع (٤٥٨٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (١١٧/١٠) .

هو لنفسه ، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمته الله ومن اتبعه ، أن القراءة لا يصل إلهاء ثوابها إلى الموتي ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ولا حشهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إلقاء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » ^(١) فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله ، كما جاء في الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » ^(٢) والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ نَحْيِي الْمَوْتُ وَيَكْسِبُ مَا كَفَرُوا وَيَكْتُرُهُمْ ﴾ الآية . والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله ، وثبت في الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ سَخِرَ سَوْفَ يُرَى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُبْرَأُ الْجَوَارِ الْاُنْفِ ﴾ أي الأوفر .

﴿ وَأَنْ لَّكَ يَوْمَ التَّلَاسِ ﴾ ^(٤) وَأَنْتَ هُوَ أَسْمَكَ وَابِكُ ^(٥) وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَلَيْتَا ^(٦) وَأَنْتَ خَلَقَ الرَّبِّينَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ^(٧) بِنَافِلَةٍ ^(٨) إِنَّا شَئْنَا ^(٩) وَأَنْتَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ كَانُوا أَهْلًا لِّكَ ^(١٠) وَأَنْتَ هُوَ رَبُّ الْيَمِينِ ^(١١) وَأَنْتَ أَهْلَكَ عَالِمًا الْأَوَّلَ ^(١٢) وَنَدْبَارًا ^(١٣) لَمَّا أَتَى ^(١٤) وَلَمْ تَرُجْ يَنْ بَلَّ يَلَهُمْ كَانُوا أَهْلًا لِّكَ ^(١٥) وَالْمُؤَلَّفَةُ الْاَوَّلَى ^(١٦) فَفَشَلْنَا مَا عَشْنَا ^(١٧) فَأَيَّ مَالَةٍ تَبْكُ تَسْكَا ^(١٨) .

يقول تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّكَ يَوْمَ التَّلَاسِ ﴾ أي المعاد يوم القيامة . عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بني أود إنني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار . وعن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَأَنْ لَّكَ يَوْمَ التَّلَاسِ ﴾ قال : لا فكرة في الرب . قال البغوي : وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعا : « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق » فإنه لا تحيط به الفكرة ^(١٩) وكذا أورده وليس بمحفوظ بهذا اللفظ ، وإنما الذي في الصحيح « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله وليتبه » ^(٢٠) وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتَ هُوَ أَسْمَكَ وَابِكُ ﴾ أي خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿ وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَلَيْتَا ﴾ كقوله ﴿ الْاَوَّلَى خَلَقَ الرَّبَّ وَالْآخِرَى ﴾ ﴿ وَأَنْتَ خَلَقَ الرَّبِّينَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ﴾ بِنَافِلَةٍ ^(٢١) بِنَافِلَةٍ إِنَّا شَئْنَا ^(٢٢) كقوله ﴿ اَيَّسَبَّ الْاِنْسَانُ اَنْ يُرَدَّ شَتَّى ﴾ اَنْ يَرَدَّ تَلَفَةً يَنْ يَتَوَقَّعُ ^(٢٣) ثُمَّ كَذَّاهُ فَكَلَّمَ مَلَكُوتَهُ ^(٢٤) فَجَلَّ بَنُو الرَّبِّينِ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ^(٢٥) اَيَّسَ ذَلِكَ وَكَيْفَ عَلَّمَ اَنْ يُخَيَّرَ لِلْوَلَدِ ^(٢٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ عَجَبَ الشَّعَاةَ الْاَوَّلَى ﴾ أي كما خلق البداية هو قادر على الإعادة وهي النشأة

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) وأبو طرد في السنن (٢٨٨٠) والترمذي في السنن (١٣٧٦) والنسائي في السنن (٢٥١/٦) .

(٢) أخرجه السنائي في السنن (٢٤١/٧) وابن ماجه في السنن (٢١٣٧) وأحمد في مسنده (٢٣١/٦) والبيهقي في السنن (٤٨٠/٧) .

(٣) أخرجه مسلم في العلم (١٦) والترمذي في السنن (٢٦٧٤) وابن ماجه في السنن (٢٠٦) وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) .

(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٥٧٠٦) والسيوطي في الدر المنثور (١١٠/٢) والألباني في الصحيحة (١٧٨٨) بنحوه .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦) .

النذير هو الحذر لما يعين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم كما قال : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وفي الحديث « أنا النذير العريان » أي الذي أصجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئا ، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك فجاءهم عريانا مسرعا ، وهو مناسب لقوله : ﴿ لَيْسَ الْآزِفَةُ ﴾ أي اقتربت القرية يعني يوم القيامة . عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن واد ، فجاء ذا بعد و جاء ذا بعد حتى أنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » ^(١) وقال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام ثم قال « مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان » ^(٢) ثم قال : « مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة ، فلما خشي أن يسبق الألاح بثوبه أتيتم أتيتم » ثم يقول رسول الله ﷺ : « أنا ذلك » ^(٣) وله شواهد من وجوه آخر من صحاح وحسان .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) والطبراني في الكبير (٢٦١/١٠) والألباني في الصحيحة (٣٨٩) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٨٣٣٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٥) والهيتمي في مجمع الروايد (٢٢٨/١٠) .

عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .
ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فقال : ﴿ أَفْتَرَيْتَ النَّسَاءَ وَلَشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ^(١) وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد . فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ^(٢) .

وعن ابن عباس قال : انشق القمر في زمان النبي ﷺ ^(٣) . وعن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين ، حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » ^(٤) . وقوله تعالى ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَرَىٰ بَآئِكُمْ ﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿ يَرِثُوا ﴾ أي لا يتقادوا له بل يعرضون عنه ويركونه وراء ظهورهم ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعْتِرٌ ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجب سحر سحرنا به ومعنى ﴿ مُّسْتَعْتِرٌ ﴾ أي ذاهب ، وقال مجاهد وقادة وغيرهما : أي باطل مضمحل لا دوام له ﴿ وَكَذَٰلِكَ يُرَىٰ أَهْلُهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم .

وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَمَرَ مُّسْتَعْتِرٌ ﴾ قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير والشر واقع بأهل الشر ، وقال ابن جريج : مستقر بأهله ، وقال مجاهد : أي يوم القيامة ، وقال السدي : أي واقع ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا مِنْ آلِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسول وما حل بهم من العقاب والنكال والمذاب عما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ مَا فِيهِ مَرْذِيٌّ ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتماذي على التكذيب . وقوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا بَلَدَهُ بِلْدَةً ﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه واضلله لمن أضله ﴿ فَمَا تَتَنَزَّلُ الْأَنْدَادُ ﴾ يعني أي شيء تغني النذر عن كتب الله عليه الشقاوة وغتم على قلبه فمن الذي يهديه من بعد الله .

﴿ قَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَكْفُ الْأَنْبَاءُ إِلَىٰ مَتَىٰ تُعْصِرُ ﴾ ^(٥) حُتْمًا أَيْصَرُّهُمْ يَرْجِعُونَ بَيْنَ الْأَلْبَانِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّتَبَرِّجٌ ^(٦) مُّتَهَيِّينَ إِلَىٰ الْآلَاءِ يَقُولُ الْأَكْثَرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴿ .

يقول تعالى : فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستعمر ، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿ يَوْمَ يَكْفُ الْأَنْبَاءُ إِلَىٰ مَتَىٰ تُعْصِرُ ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بل والزلازل والأهوال ، ﴿ حُتْمًا أَيْصَرُّهُمْ ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ يَرْجِعُونَ بَيْنَ الْأَلْبَانِ ﴾ وهي القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّتَبَرِّجٌ ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق ، ولهذا قال ﴿ مُّتَهَيِّينَ ﴾ أي مسرعين ﴿ إِلَىٰ الْآلَاءِ ﴾ لا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٤) وأحمد في مسنده (٨١/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٦) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٤) وأحمد في مسنده (٣٧٧/١) .

يَخَالِفُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ ﴿ يَوْمَ الْكَفْرِ هَذَا يَوْمَ عَيْرٍ ﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطير .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ اعْتَكَبَ عَلَيْهِ سَيِّدُهُ إِذِ اعْتَكَبَ عَلَيْهِ سَيِّدُهُ إِذِ اعْتَكَبَ عَلَيْهِ سَيِّدُهُ إِذِ اعْتَكَبَ عَلَيْهِ سَيِّدُهُ ﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَمُوسَى فَخَرَجْنَا الْأَرْضَ عُورَةً لِلنَّاسِ أَمْشَتْ أَهْلُهَا وَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَمُوسَى فَخَرَجْنَا الْأَرْضَ عُورَةً لِلنَّاسِ أَمْشَتْ أَهْلُهَا وَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَمُوسَى فَخَرَجْنَا الْأَرْضَ عُورَةً لِلنَّاسِ أَمْشَتْ أَهْلُهَا وَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَمُوسَى فَخَرَجْنَا الْأَرْضَ عُورَةً لِلنَّاسِ أَمْشَتْ أَهْلُهَا

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُكَ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال مجاهد : واذا دجر . أي استطير جنونا ، وقيل : واذا دجر أي انتهره و زجره وتواضعه لمن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، قاله ابن زيد ، وهذا متوجه حسن ﴿ فَذَكَرْنَا رَبَّهُ إِذْ فِي مَلَأَبٍ مَأْتِيَةٍ ﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانصرفت أنت لدينك . قال الله تعالى : ﴿ فَذَمَّنا إِبرِئِمَ السَّعَةَ بِمَا عَمِلَ ﴾ قال السدي : وهو الكثير : ﴿ وَفَعَلْنَا الْأَرْضَ عِوَنًا ﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التناير التي هي محال النيران نبعت عيونا ، ﴿ فَأَلَقْنَا أَمْكًا ﴾ ، أي من السماء والأرض ﴿ عَنَّا أَمْ يَمْلِكُ قَدِ قُودِرَ ﴾ أي أمر مقدر .

وعن ابن عباس ﴿ فَتَنَحَّاتُ الْوَيْبَ السَّكَّةَ بِمَاؤِ ثَمْبِيرٍ ﴾ كثير لم تَطُر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب ، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ، ﴿ وَحَفَّتْهُ صَعْدَاتُ الْوَيْبِ دُمُورٍ ﴾ ، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقناة وابن زيد : هي المسامير ، واختاره ابن جرير ، قال : وواحدها دسار . وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذي يضرب به الموج . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها ، وقوله : ﴿ تَجَرَّى بِخَيْبِنَا ﴾ أي بأمرنا برأى منا ونحت حفظنا وكلاعتنا ﴿ بَرَكَةً لِّنَّ كَانَ كَثِيرٌ ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله وانصهارا لنوح عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَكَنَهَا تَارَةً ﴾ قال قتادة : أبقى الله سفينة نوح حتى أدرَكها أول هذه الأمة ، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَاقِيَ لَكُمْ إِنَّا جَمَعْنَا لَكُمْ فِيهِ نَذِيرَ ﴾ في ألفاظك المشهورين ﴿ وَنَلَقْنَاكُمْ مِنْ غَيْرِهِ مَا يُبْذَرُ ﴾ ، ولهذا قال ههنا ﴿ فَهَذِهِ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ أي فعل من يتذكر ويتعظ . وعن أبي إسحاق أنه سمع رجلاً يسأل الأسود : ﴿ فَهَذِهِ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ أو مذكر ؟ قال : سمعت عبد الله يقرأ ﴿ فَهَذِهِ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها ﴿ فَهَذِهِ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ ذلاً (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ذُكِّفَتْ كَانَ مَلَكًا وَيُنَادِي ﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ، ولم يتعظ بما جاءت به نذري ، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثار ﴿ وَلَقَدْ يَمُرُّ الْقُرْآنُ لِلذِّكْرِ ﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أُراده ليتذكر الناس ، وعن ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ ، قلت : ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » (١) وقوله ﴿ فَبَدَّلَ مِنْ ذُنُوبِهِ ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه ؟ ، وقال محمد ابن كعب القرظي : فهل من منزجر عن المعاصي :

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧١) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٩٢) .

من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مذابحهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ههنا ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُنَّ حِجَابًا ﴾ وهي الحجارة ﴿ إِنَّا عَالُوا بِمَا يُخْفِيَنَّ هُنَّ ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَجِّي مَن شَكَرَ ﴾ ولقد أنذرهم بطاعتنا ﴿ أَي وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ قَدْ أَنْذَرَهُمُ بَأْسَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ فَمَا اتَّفَعُوا إِلَى ذَلِكَ وَلَا أَصْغَوْا إِلَيْهِ ، بَلْ شَكُوا فِيهِ وَتَمَارَوْا بِهِ ﴾ وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ عَنْ شَيْبِهِمْ ، وذلك ليلة ورد عليه الملائكة في صور شباب مرد حسان محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعث امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّشْتَبِهٌ ﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ قَدْ رَفَأْنَا عَلَيْكَ ذِكْرَهُ ﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ يَنْذَكِّرُ ۖ .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ نَاثِرَ النَّذْرِ ﴾ كَلِمَاتُ يَكُونُ لَهَا طَعْنٌ لَمَّا عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ۖ أَكْثَرُ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ ثُمَّ لَكُمُ بَرَاءَةٌ فِي الْآيَةِ ۖ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ صِدِّيقٌ ۖ سَيُؤْتِيهِمُ الْبَشِيرُ وَيُؤْتُونَ الْآيَةَ ۖ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكُفَرُوا ۖ يَقُولُ تَعَالَى مَخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ : إِنَّهُمْ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونَ بِالْبَيِّنَاتِ إِنْ آمَنُوا ، وَالنَّذَارَةَ إِنْ كَفَرُوا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة فكذبها كلها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر أي فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر . ثم قال تعالى : ﴿ أَكْثَرُ ﴾ أي أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكتوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب ، أنتم خير من أولئك ، ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الْآيَةِ ﴾ أي أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ، ثم قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ صِدِّيقٌ مُّشْتَبِهٌ ﴾ أي يعتقدون أنهم يتناسرون بعضهم بعضاً ، وأن جمعهم يعني عنهم من أرادهم بسوء . قال الله تعالى : ﴿ سَيُؤْتِيهِمُ الْبَشِيرُ وَيُؤْتُونَ الْآيَةَ ﴾ أي سينفرك شملهم ويغلبون .

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تميد بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه يديه وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سَيُؤْتِيهِمُ الْبَشِيرُ وَيُؤْتُونَ الْآيَةَ ﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكُفَرُوا ۖ وَعَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهِكٍ قَالَ : إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ : نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بَمَكَّةَ وَإِنِّي لَجَارِيَةُ أَلْعَبُ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكُفَرُوا ۖ ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ الشَّعْرَيْنِ فِي سَكَنِ وَنُصْرٍ ﴾ يَوْمَ يُسْتَبْرَأُ فِي الْكَاوِ عَلَى شُرُوبِهِمْ نُورًا سَمَّ سَمَرٌ ۖ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُهُ بِقَدَرٍ ۖ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۖ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ يَنْصَحِرُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الْزُبُرِ ۖ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٧) والبيهقي في السنن (٤٦/٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٤/٢) .

وَكُلٌّ صَعِيدٌ كَبِيرٌ مُسْتَظَرٌّ ﴿٤٧﴾ إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ وَتَرَى ﴿٤٨﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلَكٍ مُّقَدِّمٍ ﴿٤٩﴾ .

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق ، وسر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومتدع من سائر الفرق ، ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْعَوْنَ فِي الْأَقْدَارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ أي كما كانوا في سر وشك وتردد ، أروهم ذلك النار ، وكما كانوا ضللاً يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقيماً وتوبيخاً ﴿ ذُرُّوا مَسَّ سَرُّ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَنَحْنُ كُلُّ شَيْءٍ قَدَرٌ تَقْدِيرٌ ﴾ ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برها ، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدسية ، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة .

عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر فنزلت ﴿ يَوْمَ يُسْعَوْنَ فِي الْأَقْدَارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُرُّوا مَسَّ سَرُّ ﴾ ﴿٤٧﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٨﴾ .^(١)

عن ابن زرارَةَ عن أبيه عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿ ذُرُّوا مَسَّ سَرُّ ﴾ ﴿٤٧﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٨﴾ قال : « نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله »^(٢) . وعن عبد الله بن عباس قال : قيل له أن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر ، فقال : دلوني عليه وهو أعشى ، قالوا : وما تصنع به يا أبا عباس ، قال : والذي نفسي بيده لمن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنقها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كاذب بنساء بني فهر يطفن بالحزرج تصطفن آلياتهن مشركات ، هذا أول شرك هذه الأمة ، والذي نفسي بيده ليتتهن بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيراً ، كما أخرجه من أن يكون قدر شراً »^(٣) .

وعن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه . فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر ، فأياك أن تكتب إلي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر »^(٤) وعن طاووس اليماني قال : سمعت ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس »^(٥) . وفي الحديث الصحيح : « استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر قتل ، قدر الله وما شاء فعل ، ولا تفل ، لو أني فعلت لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان »^(٦) وفي حديث ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال له : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك جفت الأقلام وطويت الصحف »^(٧) وعن عبد الله بن عمرو قال :

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٩) والترمذي في السنن (٣٢٩٠) وأحمد في مسنده (٤٤٤/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١٩/٥) والبيهقي في جميع الروايات (١١٧/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٠/١) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٩٠/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في القدر (٨) وأحمد في مسنده (١١٠/٢) .

(٦) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه في السنن (٧٩) والبيهقي في السنن (١٤٨/١) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/١) .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » زاد ابن وهب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَحْدَةً كَلَمْجٍ بِالنَّصْرِ ﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، كما أخير بنفوذ قدره فيهم فقال : ﴿ وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَحْدَةً ﴾ أي إنما تأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي تأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمراً
فإنما يقول له كن قوله فيكون
وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَعْلَمْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسول ﴿ فَهَلْ يَنْزِلُكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي فهل من منعظ بما أنزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ مَنَاقِبٍ فَفَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة ﷺ ﴿ وَكُلُّ صَيْغِرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أي من أعمالهم ﴿ سَتَطَّرُ ﴾ أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ وَبُتِرَ ﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم ، مع التوبيخ والتقريع والتهديد . وقوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿ عِنْدَ تَلِيلٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها . وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون . عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال : « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » ^(٣) .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٦٠/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٠/٦) والنسائي في السنن (٣٠٣/٢) والبيهقي في التمهيد والتحريم (٣١٢/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والحاكم في المستدرک (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .

سورة الرحمن

عن زر أن رجلاً قال : كيف تعرف هذا الحرف من ماء غير آمن أو أسن ، فقال : كل القرآن قد قرأت . قال : إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة ، فقال : أهذا كهذا الشعر لا أبالك ، قد علمت قرأت النبي ﷺ التي كان يقرن قريتين قريتين من أول المفصل ، وكان أول مفصل ابن مسعود ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ وَالنَّجْمُ بُحْبَانٍ ٦ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْبِزْكَاتَ ٧ أَلَّا تَقْلَعُوا فِي الْبِزْكَاتِ ٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْبِزْكَاتَ ٩ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَاءِ ١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ١٢ فَاثِقًا ١٣ بَالًا ١٤ رَفِيفًا ١٥ كَذِبًا ١٦ ﴾ .

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلق أنه أنزل على عباده القرآن ، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه فقال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ ﴾ قال الحسن : يعني النطق ، وقال الضحاك وقادة وغيرهما : يعني الخير والشر ، وقول الحسن ههنا أحسن وأقوى ، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق ، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجهما وأنواعها . وقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب . وعن عكرمة أنه قال : لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطيور في عيني عبد ، ثم كشف حجائب واحدًا من سبعين حجائبًا دون الشمس ، لما استطاع أن ينظر إليها . ونور الشمس جزء من سبعين جزءًا من نور الكرسي ، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءًا من نور العرش ، ونور العرش جزء من سبعين جزءًا من نور الستر . فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عيانًا . وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ قال ابن جرير : يختلف المفسرون في معنى قوله ﴿ وَالنَّجْمُ ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق ، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني من النبات وقد اختاره ابن جرير رضي الله عنه تعالى . وقال مجاهد : النجم الذي في السماء . وهذا القول هو الأظهر والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْبِزْكَاتَ ﴾ يعني العدل ﴿ أَلَّا تَقْلَعُوا فِي الْبِزْكَاتِ ﴾ أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْبِزْكَاتَ ﴾ أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَاءِ ﴾ أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهدا وأرأسها بالجبال الراسيات الشامخات ، لتستقر بما على وجهها من الأنعام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألستهم في سائر أقطارها وأرجائها .

كفى . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل : هو صغار اللؤلؤ ، وقيل : كباره وجيده ، وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون عن عبد الله قال : المرجان الحرز الأحمر . وعن ابن عباس قال : إذا أمطرت السماء فتمت الأصداف في البحر أفواهاها فما وقع فيها ، يعني من قطر فهو اللؤلؤ ولما كان اتخاذه هذه الحلية نعمة على أهل الأرض ، امتن بها عليهم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا مَالِكُ زَكَّيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ لَنُنَظِّرَنَّ ﴾ يعني السفن التي تجري ﴿ فِي الْبَيْتِ ﴾ قال مجاهد : ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت ، وقال قتادة : المنشآت يعني المخلوقات ، وقال غيره : المنشآت بكسر الشين يعني البادئات ﴿ كَالْأَكْثَمِ ﴾ أي كالجهال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح الناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، ولهذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا مَالِكُ زَكَّيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ عن عمرة بن سويد قال : كنت مع علي بن أبي طالب عليه السلام على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها ، فبسط علي يده ثم قال : يقول الله ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ لَنُنَظِّرَنَّ فِي الْبَيْتِ كَالْأَكْثَمِ ﴾ والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ولا مالات على بقله .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ يَا أَيُّهَا مَالِكُ زَكَّيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ يَتَذَكَّرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأَلُّفٍ ﴿ يَا أَيُّهَا مَالِكُ زَكَّيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت بل هو الحي الذي لا يموت أبداً ، قال قتادة : أنبأ بما خلق ثم أنبأ أن ذلك كله فان . وفي الدعاء للمأثور : يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك . وقال الشعبي : إذا قرأت ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه ذو الجلال والإكرام أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يطاع فلا يخالف قال ابن عباس : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ذو العظمة والكبرياء ، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال ﴿ يَا أَيُّهَا مَالِكُ زَكَّيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَتَذَكَّرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأَلُّفٍ ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه وافقار الخلق إليه في جميع الآئات وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم ، وأنه كل يوم هو في شأن ، فمن شأنه أن يجيب داعية أوعطي سائلاً ، أو يفك عاتية أو يشفي سقيماً . وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « قال الله ﷻ : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأَلُّفٍ ﴾ قال - من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » (١) .

﴿ سَتَجِدُنَا لَكُمْ آيَةً الْفَقْدَانِ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا مَالِكُ زَكَّيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ يَتَذَكَّرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأَلُّفٍ ﴿ يَتَذَكَّرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأَلُّفٍ ﴾ يَتَذَكَّرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأَلُّفٍ ﴿ يَتَذَكَّرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي تَأَلُّفٍ ﴾

عليهم . وقال الحسن وقادة : يعرفون بأسوداد الوجوه وزرقة العيون . قلت : وهذا كما يعرف المؤمنون بالفرقة والتجليل من آثار الوضوء . وقوله تعالى : ﴿ فَيَقْنَدُ بِالْأَنفِ وَالْأَقْبَامِ ﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك ، وقال ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنور ، وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة وراء ظهره ، وقال السدي : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فتربط ناصيته بقدميه ويقتل ظهره .

وقوله تعالى : ﴿ مَذْيَبَ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا لَكَّيْثُونَ ﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، هاهي حاضرة تشاهدونها عياناً ، يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً . وقوله تعالى : ﴿ يَلْقَوْنَ فِيهَا بَنِينَ زَوَّجَهُمْ بَنَاتُكُمْ ﴾ أي تارة يمدبون في الجنيم وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالحامض المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء ، وقوله تعالى : ﴿ مَكَوٍ ﴾ أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة لا يستطاع من شدة ذلك ، قال ابن عباس في قوله ﴿ يَلْقَوْنَ فِيهَا بَنِينَ زَوَّجَهُمْ بَنَاتُكُمْ ﴾ أي قد انتهى غلبه واشتد حره ، وقال قتادة : قد آن طبخه منذ خلق الله السموات والأرض ، وقال محمد ابن كعب القرظي : يؤخذ العبد فيحرك بناصيته في ذلك الحميم حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والهيكل في الرأس وهي كالتي يقول الله تعالى : ﴿ فِي اللَّيْلِ يُنَادُّ فِي الْكَلْبِ يُسَجِّرُونَ ﴾ والحميم الآن يعني الحار ، فقوله ﴿ يَزِيحُ مَكَوٍ ﴾ حميم حار جداً . ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتعميم الثقلين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه مما يزرعهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممثلاً بذلك على برهته ﴿ فَإِنِّي مَالِكٌ يَوْمَئِذٍ كَذَّابِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا سَأَلَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ١٠ فَإِنِّي مَالِكٌ يَوْمَئِذٍ كَذَّابِينَ ١١ ذُرَاةً اقْتَاتٍ ١٢ فَإِنِّي مَالِكٌ يَوْمَئِذٍ كَذَّابِينَ ١٣ فِيمَا عَيْنَا يَجْمَعُونَ ١٤ فَإِنِّي مَالِكٌ يَوْمَئِذٍ كَذَّابِينَ ١٥ فِيمَا مَعْنَى كَذَّابِينَ ١٦ فَإِنِّي مَالِكٌ يَوْمَئِذٍ كَذَّابِينَ ١٧ ﴾ .

قال ابن شاذب وعطاء الخراساني : نزلت هذه الآية ﴿ وَلَمَّا سَأَلَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ في أبي بكر الصديق ، وقال عطية بن قيس نزلت في الذي قال : أحرقوني بالنار لعلي أضل الله ، قال : تاب يوماً وليلة ، بعد أن تكلم بهذا ، فقبل الله منه وأدخله الجنة ، والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره . ﴿ وَهُمْ أَقْنَسُ عَنِ الْحَوَا ﴾ ولم يطلع ولا أثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عند ربه جنتان ، عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آبيتها وما فيهما ، وجنتان من ذهب آبيتها وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » ^(١) .

وعن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية ﴿ وَلَمَّا سَأَلَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال : ﴿ وَلَمَّا سَأَلَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق فقال : ﴿ وَلَمَّا سَأَلَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ، فقال « وإن رغم أنف أبي الدرداء » ^(٢) . وهذه الآية عامة في الإنس والجن ، فهي من أدل دلائل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال : ﴿ وَلَمَّا سَأَلَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ١٠ فَإِنِّي مَالِكٌ يَوْمَئِذٍ كَذَّابِينَ ١١ ﴾

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٦٠١) .

ثم نعت هاتين الجنةين فقال : ﴿ ذَرَانَا أَفْنَانٌ ﴾ أي أغصان نظيرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ﴿ فَإِنِّي مَالِكٌ رَزَقُكَ تَكْذِبَانِ ﴾ قال عطاء الخراساني وجماعة : أن الأفنان أغصان الشجر يس بعضهما بعضاً ، وعن ابن عباس : ﴿ ذَرَانَا أَفْنَانٌ ﴾ ذواتا ألوان ، ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاد ، واختاره ابن جرير . وقال عطاء : كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة ، وقال الربيع بن أنس واسمنا الفناء وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافات بينها ، وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى ، فقال : « يسير في ظل الفتن منها الراكب مائة سنة » أو قال : « يستظل في ظل الفتن منها مائة راكب ، فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال » (١) .

﴿ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فثمر من جميع الألوان ﴿ فَإِنِّي مَالِكٌ رَزَقُكَ تَكْذِبَانِ ﴾ قال الحسن البصري : إحداهما يقال لها : تسنيم ، والأخرى : السلسبيل وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى : من خمر لذة للشاربين ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَبَرٍ ذِكْرٌ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رِجَالُ الْمَلَائِكَةِ أَمْشِيْنَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَمُوتُ فِيهَا سَمٌ وَلَا نَجَسٌ ﴾ أي من جميع أنواع الثمار بما يعلمون وخير مما يعلمون ، وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ فَإِنِّي مَالِكٌ رَزَقُكَ تَكْذِبَانِ ﴾ عن ابن عباس ، مافي الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل .

﴿ تَجْرِيَانِ فِي مَرْثَبَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْنٌ وَمُنْتَهَى الْجَنَّاتِ دَاوُدُ وَيُوسُفُ فِي أَفْئِدَتِهَا وَمِنْ ثَمَرَاتِهَا نَبَاتٌ لَمْ يَنْبُتْ فِي سَائِرِ الْجَنَّاتِ وَلَا يَدْخُلُ فِيهَا السَّمُ وَلَا يَمُوتُ فِيهَا سَمٌ وَلَا نَجَسٌ ﴾ قال الحسن : ﴿ فَإِنِّي مَالِكٌ رَزَقُكَ تَكْذِبَانِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ تَجْرِيَانِ ﴾ يعني أهل الجنة ، والمراد بالانكاء ههنا الاضطجاع ويقال : الجلوس على صفة التربع ﴿ عَلَى مَرْثَبَةٍ مُبَارَكَةٍ مِنْ مُسْتَبَقٍ ﴾ وهو ما غلظ من الديباج ، وقال أبو عمران الجوني : هو الديباج المزين بالذهب ، فيه على شرف الظهارة بشرف البطانة ، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى . عن عبد الله بن مسعود قال : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتهم الظواهر . وقال مالك بن دينار : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور ، وقال سفيان الثوري أو شريك : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد ﴿ وَنَحْنُ الْجَنَّةِيْنَ دَاوُدُ ﴾ أي ثمرهما قريب إليهم متى شاموا تناولوه على أي صفة كانوا ، أي لا تمتنع من تناولها بل تسقط إليهم من أغصانها ﴿ فَإِنِّي مَالِكٌ رَزَقُكَ تَكْذِبَانِ ﴾ ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿ يُبِينُ ﴾ أي في الفرش ﴿ قَسِيرَتُ الْكَرْزِ ﴾ أي غضبيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعليها : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا في الجنة شيئاً أحب إلي منك فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك .

﴿ تَرَى تَجْرِيَتَهُنَّ فِي أَنْهَارٍ مُبَارَكَةٍ وَلَا يَجِدُ فِيهَا مِنْ ثَمَرٍ مِثْلُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَمُوتُ فِيهَا سَمٌ وَلَا نَجَسٌ ﴾ أي يل من أبقار عرب أثراب لم يظاها أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة ، قال أوطاه بن المنذر : سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة ، قال : نعم وينكحون ، للجن جنيات وللإنس إنسيات ، وذلك قوله : ﴿ تَرَى تَجْرِيَتَهُنَّ فِي أَنْهَارٍ مُبَارَكَةٍ وَلَا يَجِدُ فِيهَا مِنْ ثَمَرٍ مِثْلِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَمُوتُ فِيهَا سَمٌ وَلَا نَجَسٌ ﴾ .

الري من الماء ، وقال محمد بن كعب : ﴿ مُتَعَاتِكَيْنِ ﴾ متعلتان من الحضرة ، وقال قتادة : حضروان من الري ناعمتان ولاشك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها في بعض .

وقال هناك : ﴿ يَهَيَّا عَيْنَا نَجْرَيْنِ ﴾ وقال ههنا ﴿ حَنَّكَتَيْنِ ﴾ قال ابن عباس ، أي فياضتان والجري أقوى من النضج ، وقال الضحاك أي متعلتان ولا تنقطعان وقال هناك : ﴿ يَهَيَّا بَيْنَ كُلِّ فَيْكَةٍ نَفْيَانِ ﴾ وقال ههنا ﴿ يَهَيَّا فَيْكَةً وَغَلَّ وَغَلَّ ﴾ ولاشك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنوع على فاكهة ، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم ، ولهذا ليس قوله ﴿ وَغَلَّ وَغَلَّ ﴾ من باب عطف الخاص على العام لما قرره البخاري وغيره ، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها كالبعير المتعب »^(١) .

ثم قال ﴿ فَبَيْنَ عَيْنَيْ جَنَّاتٍ ﴾ قيل : المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة وقيل : خيرات جمع خيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه ، وروي مرفوعاً عن أم سلمة ، وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله تعالى أن الحور العين يغتنين : نحن الخيرات الحسان خلقنا لأزواج كرام ، ولهذا قرأ بعضهم ﴿ فَبَيْنَ عَيْنَيْ جَنَّاتٍ ﴾ بالتشديد^(٢) ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فَإِنِّي مَالَهُ زَيْنًا نَكَبَيْنِ ﴿ ثم قال : ﴿ حُورٌ مُّقْصِرَاتٌ فِي لَحْيَايَ ﴾ وهناك قال ﴿ فَبَيْنَ عَيْنَيْ جَنَّاتٍ ﴾ ولاشك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت وإن كان الجميع مخدرات ، وقوله تعالى : ﴿ فِي لَحْيَايَ ﴾ عن ابن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرون ، يطوف عليهم المؤمنون »^(٣) .

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم ، واثنان وسبعون زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء »^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَى بَيْنَهُنَّ أَشْجَاتَهُنَّ وَلَا جَانٌّ ﴾ قد تقدم مثله سواء ، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْآبَاؤُتِ وَالْمَرْءَاتُ ﴾ فَإِنِّي مَالَهُ زَيْنًا نَكَبَيْنِ ﴿ . وقوله تعالى : ﴿ مَتَّكِينَ عَلَى رَقَبٍ خَضِرٍ وَتَبَقَّرِي جَنَّاتٍ ﴾ قال ابن عباس : الرفف الحمايس ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وغيرهم ، وقال عاصم الجحدري : ﴿ مَتَّكِينَ عَلَى رَقَبٍ خَضِرٍ ﴾ يعني الوسائد ، وهو قول الحسن البصري في رواية عنه ، وقال سعيد بن جبير : الرفف رياض الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَبَقَّرِي جَنَّاتٍ ﴾ قال ابن عباس وقاتدة والضحاك والسدي : البقري الزراني ، وقال سعيد بن جبير : هي عناق الزراني يعني جياها ، وقال مجاهد : البقري الديباج ، وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى : ﴿ وَتَبَقَّرِي جَنَّاتٍ ﴾ فقال : هي بسط أهل الجنة لأبائكم فاطلبوها ، وقال الخليل بن أحمد : كل شيء نفس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرياً ، ومنه قول النبي ﷺ في عمر : « فلم أر عبقرياً يفري فريه »^(٥) وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنة

(١) أورده السوطي في الدر للنور (١٥٠/٦) .

(٢) قرأ معاذ القارئ وعاصم الجحدري وأبو نهيك ﴿ عَجْرَاتٍ ﴾ بتشديد الراء . انظر زاد المسير (١٢٥/٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٦٢) بنحوه .

(٥) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٤) وسلم في فضائل الصحابة (١٧) .

الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك ﴿ مُشْكِينَ عَلَىٰ مُشْكِيٍّ تَكَادَتْهَا مِنْ يَسْتَوِيٍّ ﴾ ففعلت بطائين فرشهم وسكت عن ظواهرها اكتفاء بما مدح به البطائين بطريق الأولى والأخرى . وتمام الحاشية أنه قال بعد الصفات المتقدمة ﴿ مَلَٰئِكَةُ الْجَنَّةِ إِلَّا الْإِنْسَانُ ﴾ فوصف أهلها بالإحسان ، وهو أعلى المراتب والنهايات كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان ، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الآخرين ، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من الأوليين .

ثم قال : ﴿ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي هو أهل أن يجبل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وقال ابن عباس : ﴿ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ذي العظمة والكبرياء . عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلْجَلُوا اللَّهَ يَغْفِرْ لَكُمْ » ^(١) وفي الحديث الآخر : « إِنْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَذِي السُّلْطَانِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَلَا الْجَانِي عَنْهُ » ^(٢) وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « أَلْظَلُّوا بِيَاذَا الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ » ^(٣) . وقال الجوهري : أَلْظَ فلان بفلان إذا لزمه ، وقول ابن مسعود أَلْظَلُّوا بِيَاذَا الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ أي الزموا ، يقال : الإلْظاظ هو الإلحاح . قلت ، وكلاهما قريب من الآخر ، والله أعلم ، وهو المداومة واللزوم والإلحاح . فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ؛ يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمَنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ^(٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٤٣) والبيهقي في السنن (١٦٣/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٦) واللساني في السنن (٦٩/٣) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٥) والبيهقي في السنن (١٨٣/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَرُفِقَتْ زَوَاجًا قُلُوبَهُ ﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش . وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين ، وقال السدي : وهم جمهور أهل الجنة ، وآخرون عن يسار العرش وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار وطائفة سابقون بين يديه ﷺ ، وهم أخص وأحقى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء ، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الَّتِيئَةِ مَا أَصْحَابُ الَّتِيئَةِ ﴾ وَأَصْحَابُ الَّتِيئَةِ مَا أَصْحَابُ الَّتِيئَةِ ❶ وَالَّتِيئَةُ الَّتِيئَةُ ❷ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَرُفِقَتْ زَوَاجًا قُلُوبَهُ ﴾ قال : هي التي في سورة الملائكة ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا الرِّجَالَ لَنْبَحُوا عَلَىٰ آلِهِمْ لِيَنْشَأَ لَكُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ مُّقْتَصِدُونَ وَمُتَّبِعُونَ ﴾ وقال مجاهد ﴿ وَرُفِقَتْ زَوَاجًا قُلُوبَهُ ﴾ يعني رفقا ثلاثة . وقال ميمون بن مهران : أفواجا ثلاثة .

عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ فَأَصْحَابُ الَّتِيئَةِ مَا أَصْحَابُ الَّتِيئَةِ ﴾ وَأَصْحَابُ الَّتِيئَةِ مَا أَصْحَابُ الَّتِيئَةِ ❶ فقبض بيده قبضتين فقال : « هذه للجنة ولا أبالي ، وهذه للنار ولا أبالي » ❶ وعن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه بدلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » ❷ وقال محمد بن كعب وأبو حنيفة يعقوب بن مجاهد ﴿ وَالَّتِيئَةُ الَّتِيئَةُ ﴾ هم الأنبياء ﷺ ، وقال السدي : هم أهل عليين ، وقال عن ابن عباس : يوشع بن نون ، سيق إلى موسى ، ومؤمن آل يس مسيق إلى عيسى ، وعلي بن أبي طالب سيق إلى محمد رسول الله ﷺ ، عن ابن سيرين الذين صلوا إلى القبالتين . وقال الحسن وقائدة أي من كل أمة ، وهذه الأقوال كلها صحيحة فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَابِقُوا إِلَىٰ مَنَاصِبِهِمْ ذِي قُرْبَىٰكُمْ وَرَبِّكُمْ عَرَسَها السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزء من جنس العمل ، وكما تدن تدان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الْمَتَرُونَ ❸ فِي جَنَّتِ النَّجْمِ ﴾ .

﴿ تِلْكَ يَوْمَ الْأَوَّلِينَ ❶ وَتِلْكَ يَوْمَ الْآخِرِينَ ❷ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّرْجُونَ ❸ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ❹ تَلَوْا عَلَيْهِمْ وَلَهُنَّ ❺ أَكْوَافٌ وَالْبَاقِي وَكَانَ يَوْمَئِذٍ ❻ لَا يَسْمَعُونَ دَعْوًا وَلَا يُفْهِمُونَ ❷ وَفَكَهَنُوا يَمَّا يُنْمَرُونَ ❸ وَلَهُمْ عَلَيْهِمْ مَا يَشْتَوُونَ ❹ وَحُورٌ مِّمَّنْ ❺ كَأَمْثَلِ الْعُزْلِيِّ ❻ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ❷ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تِلْفًا ❸ إِلَّا ذِكْرًا سَلْطًا سَلْطًا ❹ ﴾ يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ تِلْكَ ﴾ أي جماعة من الأولين ﴿ وَتِلْكَ يَوْمَ الْآخِرِينَ ﴾ من الآخرين ، وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين قليل : المراد بالأوليين الأمم الماضية ، وبالأخريين هذه الأمة ، هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري وهو اختيار ابن جرير واستأنس بقوله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » ❶ ولم يحك غيره ولا عزاه إلى أحد ،

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٦) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٧١٩٥) وأحمد في مسنده (٣٤١/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٨/١) .

وما يستأنس به لهذا القول مارواه أبو هريرة قال : لما نزلت ﴿ثَلَاثَةَ يَوْمَاتٍ مِنَ الْأَلْيَةِ ۝ وَيَقِيلُ يَوْمَ الْأَخِيرِ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فنزلت ﴿ثَلَاثَةَ يَوْمَاتٍ مِنَ الْأَلْيَةِ ۝ وَثَلَاثَةَ يَوْمَاتٍ مِنَ الْأَخِيرِ﴾ فقال النبي ﷺ : «إني لأرجو أن تكونوا ريع أهل الجنة ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة ، أو شطر أهل الجنة وتقاسمونها نصف الثاني» (١) .

وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم . فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ثَلَاثَةَ يَوْمَاتٍ مِنَ الْأَلْيَةِ﴾ أي من صدر هذه الأمة ﴿وَيَقِيلُ يَوْمَ الْأَخِيرِ﴾ أي من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية ﴿ثَلَاثَةَ يَوْمَاتٍ مِنَ الْأَلْيَةِ ۝ وَيَقِيلُ يَوْمَ الْأَخِيرِ﴾ قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة ، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تضم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحيح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : «خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» (٢) الحديث بتمامه . فأما الحديث الذي رواه عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل أمتي مثل المطر لا يسرى أوله خير أم آخره» (٣) فهذا الحديث ، بعد الحكم بصحة إسناده ، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم ، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العدة الكبرى على الأول واحتياج الزرع إليه أكد ، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ولا تعلق أسامه فيها ولهذا قال ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة» وفي لفظ : «حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك» (٤) والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبينا ، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وفي لفظ «مع كل ألف سبعون ألفاً» (٥) - وفي آخر - «مع كل واحد سبعون ألفاً» .

وعن أبي زمل الجهمي رحمه الله قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح يقول وهو ثاب رجله : «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله إن الله كان تواباً» سبعين مرة ثم يقول : «سبعين بسبعائة لا خير لمن كانت ذنوبه في يوم واحد أكثر من سبعائة» ثم يقول ذلك مرتين ثم يستقبل الناس بوجهه (٦) . وكان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا ثم يقول : «هل رأى أحد منكم شيئاً» قال أبو زمل : فقلت

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٦٨) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٤) وإسناد في الإيمان (٣٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٩) والترمذي في السنن (٢٣٠٢) وأحمد في مسنده (٧٨/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٩/٤) . (٤) أخرجه البخاري في الملقاب (٣٦٤٠) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧١) ، (٣٧٢) وأحمد في مسنده (٤٠٠/٢) ، والطبري في الكبير (١٨٢/٨) .

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٣) وإسناد في الإيمان (٣٦٧) .

أنا يا رسول الله ، فقال : « خير تلقاه ، وشر توقاه ، وخير لنا ، وشر على أعدائنا الحمد لله رب العالمين اقصر رؤياك » قلت : رأيت جميع الناس على طريق رحب سهل لاحب والناس على الجادة منطلقين ، فبينما هم كذلك ، إذ أشفى ذلك الطريق على مرج لم تر عيني مثله ، يرف رفيقا يقطر ماؤه فيه من أنواع الكلال ، قال : وكانوا بالرحلة الأولى حين أشفوا على المرج كبروا ثم أكبوا وراحلهم في الطريق ، فلم يظلموه يمينا ولا شمالا ، قال فكأنني أنظر إليهم منطلقين ، ثم جاءت الرحلة الثانية ، وهم أكثر منهم أضغاثا فلما أشفوا على المرج كبروا ثم أكبوا وراحلهم في الطريق ، فمنهم المرتع ، ومنهم الأخذ الضفث ، ومضوا على ذلك ، قال : ثم قدم عظم الناس ، فلما أشفوا على المرج كبروا وقالوا : هذا خير المنزل ، كأنني أنظر إليهم يميلون يمينا وشمالا ، فلما رأيت ذلك لزمته الطريق حتى أتى أقصى المرج ، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات وأنت في أعلاها درجة ، وإذا عن يمينك رجل آدم شتل أفتى إذا هو تكلم يسمو فيقرع الرجال طولا ، وإذا عن يسارك رجل ربة باز كثير خيلان الوجه ، كأنما حمم شعره بالماء إذا هو تكلم أصغيت لإكرام له ، وإذا أمام ذلك رجل شيخ أشبه الناس بك خلقا ووجها ، كلكم تأمونه تريدونه ، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارب ، وإذا أنت يا رسول الله كأنك تبعضها . قال : فامتقع لون رسول الله ﷺ ساعة ثم سري عنه ، وقال رسول الله ﷺ : « أما مارأيت من الطريق السهل الرحب اللاحب : فذاك ما حملتكم عليه من الهدى وأنتم عليه ، وأما المرج الذي رأيت : فالدنيا وغدارة عيشها ، مضيت أنا وأصحابي لم تتعلق منها بشيء ولم تتعلق منا ، ولم نردّها ولم تردنا ، ثم جاءت الرحلة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضغاثا ، فمنهم المرتع ومنهم الأخذ الضفث ونجوا على ذلك ، ثم جاء عظم الناس فمالوا في المرج يمينا وشمالا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وأما أنت : فمضيت على طريقة صالحة ، فلن تزال عليها حتى تلقاني ، وأما المنبر الذي رأيت فيه سبع درجات وأنا في أعلاها درجة : فالدنيا سبعة آلاف سنة ، أنا في آخرها لقا ، وأما الرجل الذي رأيت على يمين الأدم الشتل : فذلك موسى عليه السلام ، إذا تكلم يعلو الرجال بفضل كلام الله إياه ، والذي رأيت عن يساري الباز الربة الكثير خيلان الوجه كأنما حمم شعره بالماء ، فذلك عيسى ابن مريم نكرمه لإكرام الله إياه ، وأما الشيخ الذي رأيت أشبه الناس بي خلقا ووجها فذاك أبونا إبراهيم كلنا نؤمه ونقتدي به ، وأما الناقة التي رأيت ورأيتني أبعضها : فهي الساعة علينا تقوم ، لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمتي » قال : فما سألت رسول الله ﷺ عن رؤيا بعد هذا إلا أن يجيء الرجل فيحدثه بها متبرعا (١) .

وقوله تعالى : ﴿ تَحْتَ سُرُرٍ مَوْشَوْنَ ﴾ قال ابن عباس : أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به ، وكذا قال مجاهد وغيره ، وقال ابن جرير : ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها ، وهو فعيل بمعنى مفعول ؛ لأنه مضفور ، وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللاكي .

وقوله تعالى : ﴿ تُخَيَّرُونَ مَعَكُمْ مَقَالِيكُ ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد ﴿ يَلُوحُ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ أَجَلٌ ﴾ أي مخلدون على صفة واحدة لا يتكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٦١/١٠) والبيهقي في جميع الروايات (١٨٣/٧) والرحل : القطعة من الفرسان .

﴿ يَا كُرَاجُ وَيَإَيُّوْنَ وَيَا أَيُّوْنَ وَيَا أَيُّوْنَ ﴾ أما الأكراب : فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التي جمعت الوصفين ، والكؤوس الهنابات ، والجميع من خمر من عين جارية معين ، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْهَوْنَ ﴾ أي لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم ، بل هي ثاجة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة عن ابن عباس أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزرها عن هذه الخصال وقالوا في قوله : ﴿ وَلَا يُزْهَوْنَ ﴾ أي لا تذهب بعقولهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ وَمَا يُنْزِلُكَ ۖ وَلَقَدْ ظَهَرَ بَيِّنَاتٍ مِّنْهُ لِيُتَّبَعَ ﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ، ويدل على ذلك حديث عكراش بن ذؤيب قال : بعثني مرة في صدقات أموالهم إلى رسول الله ﷺ ، فقدمت المدينة فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار ، وقدمت عليه بإبل كأنها عروق الأرطى قال : « من الرجل ؟ » قلت : عكراش بن ذؤيب ، قال : « ارفع في النسب » فانتسبت له إلى مرة بن عبيد ، وهذه صدقة مرة بن عبيد ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « هذه إبل قومي ، هذه صدقات قومي » ثم أمر بها أن توسم بميسم إبل الصدقة وتضم إليها ، ثم أخذ بيدي فانتقلنا إلى منزل أم سلمة فقال : « هل من طعام ؟ » فأتينا بجفنة كالحصصة كثيرة الشريد والور ، فجعل يأكل منها ، فأقبلت أنصبط بيدي في جوانبها ، فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمنى ، فقال : « يا عكراش ، كل من موضع واحد ، فإنه طعام واحد . ثم أتينا بطبق فيه تمر أو رطب شك عبيد الله رطباً كان أو تمرًا ، فجعلت أكل من بين يدي ، وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق وقال : « يا عكراش ، كل من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد . » ثم أتينا بماء ففسل رسول الله ﷺ يده ومسح بببل كفيه وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثاً ثم قال : « يا عكراش هذا الوضوء مما غيرت النار » (١) .

قال أنس كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا ، فرمى رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه ، فإذا أثبت عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه ، فأتته امرأة فقالت : يا رسول الله رأيت كأنني أتيت فأخرجت من المدينة فأدخلت الجنة ، فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة ، فنظرت فإذا فلان ابن فلان وفلان ابن فلان فسمت اثني عشر رجلاً ، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم ، فقبل : اذهبوا بهم إلى نهر البليخ أو البليخ ، قال : ففتمسوا فيه ، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، فأتوا بصفحة من ذهب فيها بسر ، فأكلوا من بسر ما شاءوا فما يقبلونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا ، وأكلت معهم ، فجاء البشير من تلك السرية ، فقال : ما كان من رؤيا كذا وكذا ، فأصيب فلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلاً ، فدعا رسول الله ﷺ للمرأة ، فقال : قصي رؤياك . فقصتها وجعلت تقول : فجيء بفلان وفلان (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ظَهَرَ بَيِّنَاتٍ مِّنْهُ لِيُتَّبَعَ ﴾ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طير الجنة كأمثال البخت يرمى في شجر الجنة » . فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة ، فقال :

« أكلها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها » ^(١) وعن ابن عمر قال ذكرت عند النبي ﷺ طوبى فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر هل بلغك ما طوبى ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال : « طوبى شجرة في الجنة ما يعلم طولها إلا الله ، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفاً ورحقها الحلال ، يقع عليها الطير كأمثال البخت » فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هناك لطيراً ناعماً ، قال : « أنعم منه من يأكله ، وأنت منهم إن شاء الله تعالى » ^(٢) .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال : « نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر » فقال عمر : إنها لناعمة ، قال رسول الله ﷺ : « أكلها أنعم منها » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَخُورُ عَيْنٍ ﴾ ^(٤) . كَأَنْتَلَى الْأَلْوَالِ السَّكَوْنِ ﴿ قرأ بعضهم بالرفع ^(٥) وتقديره ، ولهم فيها ﴿ وَخُورُ عَيْنٍ ﴾ وقرأة الجر تحمل معنيين : أحدهما : أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله كقوله تعالى : ﴿ يَلُوكُ عَيْنَهُمُ الْإِبْدَ نَغْلِدُونَ ﴾ ^(٦) ، يَأْكُوبُ وَأُتَابُ وَيُضِلُّونَ عَمَّآ وَلَا يُبْرُونَ ﴾ ^(٧) وَيَكْفُهُمْ شِمَاتُ يَسْكَرُوكَ ﴾ ^(٨) وَيَلْعَنُ لَعْنَةً لَعْنَتُهُمْ ﴾ ^(٩) وَخُورُ عَيْنٍ ﴿ كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَحْوا لَهُمْ وَبِئْسَ مَا يَفْكَرُونَ ﴾ ^(١٠) وكما قال تعالى : ﴿ عَيْنُهُمْ يَلُوكُ شَجَرًا لَّيْسَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ ^(١١) والاحتمال الثاني : أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين ، ولكن يكون ذلك في القصور لابن بعضهم بعضاً ، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ كَأَنْتَلَى الْأَلْوَالِ السَّكَوْنِ ﴾ أي كأنهم للؤلؤ الرطب في بياضه وصفاته كما تقدم في سورة الصافات ﴿ كَأَنَّهَا بَيْضُ تَمْرٍ نَضْدَتِ ﴾ ^(١٢) ولهذا قال : ﴿ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَسْأَلُونَ ﴾ أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل . ثم قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأَلِيمًا ﴾ ^(١٣) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لاجئاً أي عبثاً خالياً من المعنى أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف ﴿ وَلَا تَأَلِيمًا ﴾ أي ولا كلاماً فيه قبح ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ أي إلا التسليم منهم بعضهم على بعضا وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم . ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ ^(١٤) فِي يَمِينٍ تَنْشُرُونَ ﴿ وَيَطْلَعُ تَنْشُرُونَ ﴿ وَظِلُّوا تَنْشُرُونَ ﴿ وَمَأْوَا مَسْكُوبٍ ﴿ وَيَكْفُهُمْ كَيْفَرٌ ﴿ لَا مَقْشُورَةَ وَلَا مَمْنُونَةَ ﴿ وَفُزِّي تَرْوَعُونَ ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِسَاءً ﴿ يَكْفُهُنَّ أَفْكَارٌ ﴿ عُرَى أَزْكَارٍ ﴿ لَأَحْسَبُ الْيَمِينِ ﴿ ثَلَاثَةً ﴿ بَيْنَ الْأَلَمِينَ ﴿ وَثَلَاثَةً بَيْنَ الْأَحْمِرِينَ ﴿ .

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون ، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار ، كما قال ميمون بن مهران : أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين فقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أي أي شيء أصحاب اليمين وما حالهم وكيف مآلهم . ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ فِي يَمِينٍ تَنْشُرُونَ ﴾ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو الأحوص وغيرهم : هو الذي لا شك فيه ، وعن ابن عباس : هو الموقر بالثمر ، والظاهر أن المراد هنا وهذا ، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١٣) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٢/٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٩) والحاكم في المستدرک (٥٣٧/٢) .

(٤) قرأ أبو جعفر وحمره والكساقي ﴿ وَخُورُ عَيْنٍ ﴾ بخفض الالفين والباءون بالرفع (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .

وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله ، عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعا بالأعراب ومساثلهم ، قال : أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هي ؟ » قال : السدر ، فإن له شوكاً مؤذيًا ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ فِي سِتْرِ تَنْشُورٍ ﴾ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوك ثمرة ، فإنها لتثبت ثمرًا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوتًا من طعام ، مافيها من لون يشبه الآخر » (١) .

وقوله : ﴿ وَتَكُنْ تَنْشُورٍ ﴾ الطلع شجر عظام يكون بأرض الحجاز من شجر العضاء واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك وقال مجاهد ﴿ تَنْشُورٍ ﴾ أي متراكم الثمر يذكر بذلك قريشًا ؛ لأنهم كانوا يمجون من وج وظلاله من طلع وسدر . وقال السدي : ﴿ تَنْشُورٍ ﴾ مصفود . قال ابن عباس : يشبه طلع الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل ، قال الجوهري : والطلع لغة في الطلع قلت : وقد روي من حديث الحسن بن سعد عن شيخ من همدان قال : سمعت عليًا يقول : هذا الحرف في طلع منضود ، قال : طلع منضود ، فعلى هذا يكون من صفة السدر ، فكانه وصفه بأنه مخضود ، وهو الذي لا شوك له ، وأن طلعه منضود وهو كثرة ثمره ، والله أعلم . قال مجاهد وابن زيد أهل اليمن يسمون الموز الطلع ، ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

وقوله تعالى : ﴿ وَظَلِّ تَنْذِيرٌ ﴾ عن أبي هريرة ، يبلغ به النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرعوا إن شئتم ﴿ وَظَلِّ تَنْذِيرٌ ﴾ » (٢) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » (٣) ، وقال الضحاك والسدي وأبو حذرة في قوله تعالى : ﴿ وَظَلِّ تَنْذِيرٌ ﴾ لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر ، وقال ابن مسعود : الجنة سجاج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَوْ تَسْكُوبٌ ﴾ قال الثوري : يجري في غير أخدود ، وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ تَنْ مَلَوْ غَيْرَ مَكِينٍ ﴾ الآية . بما أغنى عن إعادته ههنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَكُنْ تَنْشُورٍ ﴾ لا مَقْطُوعٌ وَلَا تَمْشُورٌ أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وفي ذكر سدره المنتهى : « فإذا ورقها كآذان الفيلة ، ونبقها مثل قلال هجر » (٤) وعن ابن عباس قال : خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة ، وفيه قالوا : يا رسول الله رأيتك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيتك تكعكت ، قال : « إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودًا ، ولو أخذته ؛ لأكتم منه ما بقيت الدنيا » (٥) وعن عتبة بن عبد السلمي يقول : « جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الخوض وذكر الجنة ، ثم قال الأعرابي : فيها فاكهة ؟ قال : « نعم ، وفيها شجرة تدعى طوبى » قال : فذكر

(١) أورده السويطي في الدر للثور (١٥٦/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٥) .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم في الإيمان (٢٥٩) وأحمد في مسنده (١٦٤/٣) .

(٥) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٩) ومسلم في الكسوف (١٧) وأحمد في مسنده (٣٥٨/١) والنسائي في السنن (١٤٧/٣) .

شيئاً لا أضرى ما هو ، قال : أي شجرة أرضنا تشبه ؟ قال : ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك ، فقال النبي ﷺ : « أتيت الشام ؟ » قال : لا . قال : « تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة تبت على ساق واحد وينفروش أعلاها » . قال : ما عظم العقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يفتر » . قال : وعظم أصلها ؟ قال : « لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً » . قال : فيها عنب ؟ قال : « نعم » قال : فما عظم الحية ؟ قال : « هل ذبح أبوك تبشاً من غنمه قط عظيماً ؟ » قال : نعم ، قال : « فسلخ إهابه فأعطاه أمك : فقال اتخذني لنا منه دلوّاً ؟ » قال : نعم . قال الأعرابي : فإن تلك الحية لتشبعني وأهل بيتي ، قال : « نعم ، وعامة عشيرتك » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا مَقْلُوبٌ وَلَا مَمْنُوعٌ ﴾ أي لا تنقطع شتاء ولا صيفاً بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا لا يمتنع عليهم بقدره الله شيء . وقال قتادة : لا يمنهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَفِئِ تَرْفُوعٌ ﴾ أي عالية وطيبة ناعمة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَرَفِئِ تَرْفُوعٌ ﴾ قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ إِنْسَةً ﴾ ﴿ جَعَلْنَاهُ إِنْسَكَا ﴾ ﴿ عَرَبًا أَرَبًا ﴾ ﴿ يَصْحَبُ آلِ يُونُسَ ﴾ جرى الضمير على غير مذكور . لكن لما دل السياق وهو ذكر الفرس على النساء اللاتي يضاجعن فيها اكتفى بذلك عن ذكرهن وعاد الضمير عليهن ، وقال الأخفش في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ إِنْسَةً ﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبل ذلك ، وقال أبو عبيدة : ذكرن في قوله تعالى : ﴿ وَحُرِّيرِينَ ﴾ ﴿ كَانَتِ الْأُلُوفُ الْكَثْرُونَ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ إِنْسَةً ﴾ أي أعدناهن في النشأة الأخرى بعد ما كن عجائز رمصاً ، صرن أبكاراً عرباً أي بعد الثوبية عدن أبكاراً عرباً متحبات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة . وقال بعضهم : ﴿ عَرَبًا ﴾ أي ضنجات ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ إِنْسَةً ﴾ قال : « نساء عجائز كن في الدنيا عمشاً رمصاً » ^(٣) . وعن الحسن قال : أتت عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال : فقلت تبكي . قال : « أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ إِنْسَةً ﴾ ﴿ جَعَلْنَاهُ إِنْسَكَا ﴾ » ^(٤) .

وعن أم سلمة قالت : قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ وَحُرِّيرِينَ ﴾ قال : « حور يبيض ضبخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كَانَتِ الْأُلُوفُ الْكَثْرُونَ ﴾ قال : « صفاءهن صفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ فَيَوْمَ تَخْرُجُ جَسَاءُ ﴾ قال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ كَانَتِ يَتِيمٌ تَكُونُ ﴾ قال : « رقتهن كرفة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقم » قلت : يا رسول الله أخبرني عن قوله : ﴿ عَرَبًا أَرَبًا ﴾ قال : « هن اللواتي قبضن في الدار الدنيا عجائز رمصاً شعثاً ، خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عرباً متعشقات محبات أثراً على ميلاد واحد » قلت : يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٤) .

(٤) ذكره البهوي في تفسيره (١٩٧) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٤/٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٣٦) .

نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » قلت : يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ﷻ ، أليس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير . يبيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظفن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كنا له وكان لنا » قلت : يا رسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : يارب إن هذا كان أحسن خلقاً معي فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة ^(١) . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء ، قلت : يا رسول الله ويطبق ذلك ؟ قال : يعطى قوة مائة ^(٢) .

وقوله ﴿عَرَبًا﴾ قال ابن عباس : يعني متحبيبات إلى أزواجهن ، ألم تر إلى الناقة الضبيعة هي كذلك ، وسأل ابن عباس عن قوله ﴿عَرَبًا﴾ قال : هي للملقة لزوجها . وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿عَرَبًا﴾ قال : « كلامهن عربي » . وقوله ﴿أَزْكَا﴾ قال ابن عباس : في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة ، وقال مجاهد : الأتراب المستويات ، وفي رواية عنه الأمثال ، وقال عطية : الأقران وقال السدي : أي في الأخلاق المتواخيات بينهما ، ليس بينهما تباعد ولا تحامد ، يعني لا كما كن ضارراً متعاديات . وعن علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة مجتمعا للحور العين يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلاق بمثلهما - قال - يقلن : نحن الخالدات فلا نبئد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له ^(٣) . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الحور العين ليعنين في الجنة يقلن : نحن خيرات حسان خيفنا لأزواج كرام ^(٤) » وقوله تعالى : ﴿لَا تَحْزَنَ الْيَتِيمَ﴾ أي خلقن لأصحاب اليمين أو ادخرن لأصحاب اليمين أو زوجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثًا﴾ ﴿يَحْمِلْنَ فِيهِنَّ حِمْلًا﴾ ﴿عَرَبًا﴾ ﴿أَزْكَا﴾ ﴿لَا تَحْزَنَ الْيَتِيمَ﴾ فتقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين ، وهذا توجيه ابن جرير .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿لَا تَحْزَنَ الْيَتِيمَ﴾ متعلقاً بما قبله وهو قوله ﴿أَزْكَا﴾ ﴿لَا تَحْزَنَ الْيَتِيمَ﴾ أي في أسنانهم ، كما جاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتقلون ، ولا يتمشطون ، أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ، ومجامرهم الآلوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء ^(٥) » وعن بن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٦/٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (٤١٧/١٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٦٤) وأحمد في مسنده (١٥٦/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٧/٤) .

(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٨/٤) والسيوطي في جمع الجوامع (٥٤٥٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (٤١٧/١٠) .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٤) والترمذي في السنن (٢٥٣٧) والحاكم في المستدرک (٢٨٨/٣) وأحمد في مسنده (٥٧٢/٢) .

أهل الجنة الجنة مجزؤًا مجزؤًا ثلاثين مئة سنة ^(١) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : وكان بعضهم يأخذ عن بعض قال : أكرهنا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه فقال : « عرضت علي الأنبياء وأتباعها بأمتها ، فيمر علي النبي ، والنبي في العصابة ، والنبي في الثلاثة والنبي وليس معه أحد - وتلا قعدة هذه الآية ﴿ أَلَيْسَ يَتَذَكَّرُ رَجُلٌ زَيْدٌ ﴾ قال : حتى مر علي موسى بن عمران في كيكبة من بني إسرائيل قال : قلت : ربي من هذا ؟ قال : هذا أنحوك موسى بن عمران ومن تبعه من بني إسرائيل ! قال : قلت : رب فأين أمتي ؟ قال : انظر عن يمينك في الضراب قال : فإذا وجوه الرجال ، قال : قال : أَرْضِيَتْ ؟ قال : قلت : قد وضيئت رب . قال : انظر إلى الأفق عن يسارك ، فإذا وجوه الرجال ، قال : أَرْضِيَتْ ؟ قلت : قد وضيئت رب . قال : فإن مع هؤلاء سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب . قال : وأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد - قال سعيد : وكان بدريا - قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : فقال : « اللهم اجعله منهم » قال : أنشأ رجل آخر قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سبقك بها عكاشة » قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم فداكم أبي وأمي أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا من أصحاب الضراب ، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق ، فإني قد رأيت ناسًا كثيرًا قد ناسبوا أموالهم » ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبرنا ، ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » قال : فكبرنا قال : « إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » قال : فكبرنا ، قال : ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿ قال : قتلنا بيننا : من هؤلاء السبعون ألفًا ، قتلنا : هم الذين ولدوا في الإسلام ولم يتركوا . قال : فبلغه ذلك فقال : « بل هم الذين لا يكتون ، ولا يسترقون ، ولا يتطرون ، وعلى ربهم يتوكلون » ^(٢) .

﴿ وَاصْصَبْ الْيَتَامَىٰ مَا وَصَّصَ الْيَتَامَىٰ ١٠ فِي سُبُورٍ وَكَبِيرٍ ١١ وَظَلِيْلٍ يِّنَ يَمِينٍ ١٢ لَا يَرْوِي وَلَا كَبِيرٍ ١٣ إِنَّهُمْ كَانُوا بِجَلِّ ذَلِكِ مَرْفُوعِينَ ١٤ وَكَانُوا يُمِرُّونَ عَلَى الْيَتَامَىٰ السَّلَامَ ١٥ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَلَيْسَ أَيْنَا وَكُنَّا ذُرِّيَّةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِمَ لَا تُبْعَثُونَ ١٦ أَوْ مَا بَأْسُنَا الْآذِلُونَ ١٧ قُلْ إِنَّكَ الْآزِلِينَ وَالْآخِرِينَ ١٨ لَتُبْعَثُنَّ إِلَىٰ مَقَدِّ يَوْمٍ تُعْلَمُ ١٩ ثُمَّ لَكُمْ إِلَيْهَا أَعْيُنُ السَّائِرِينَ ٢٠ فَكَلِمَةٌ يِّنَ شَجَرٍ يِّنَ نُفُورٍ ٢١ فَكَلِمَةٌ يِّنَهَا الْيَتَامَىٰ ٢٢ فَتَنْفَعُونَ عَلَيْهِ يِّنَ لَكَبِيرٍ ٢٣ فَتَنْفَعُونَ شَرِبَ لَكَبِيرٍ ٢٤ هَكَذَا تَزَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامِ ٢٥ .

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال ﴿ وَاصْصَبْ الْيَتَامَىٰ مَا وَصَّصَ الْيَتَامَىٰ ١٠ ﴾ أي أي شيء هم فيه أصحاب الشمال ، ثم فسر ذلك فقال ﴿ فِي سُبُورٍ وَكَبِيرٍ ١١ ﴾ وهو الهواء الحار ﴿ وَكَبِيرٍ ١٢ ﴾ وهو الماء الحار ﴿ وَظَلِيْلٍ يِّنَ يَمِينٍ ١٣ ﴾ قال ابن عباس : ظل الدخان ، ﴿ لَا يَرْوِي وَلَا كَبِيرٍ ١٤ ﴾ أي ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر ، وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكرم . وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة في النفي فيقولون : هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم . وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة . ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا بِجَلِّ ذَلِكِ مَرْفُوعِينَ ١٤ ﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعين مقبلين على

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٥/٢) والبخاري في الترمذي والترمذي (٥٠٠/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٢) والحاكم في المستدرک (٥٧٧/٤) والطبراني في الكبير (٦/١٠) .

يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبلر فيها ﴿ مَائِدَةً تْرَوْغُوتٍ ﴾ أي تبتونه في الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ الْأَرْضُ ﴾ أي بل نحن الذي نقره قراره وننتيه في الأرض . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقولوا زرع ، ولكن قل : حرث » قال أبو هريرة : ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ مَائِدَةً تْرَوْغُوتٍ أَمْ نَحْنُ الْأَرْضُ ﴿ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا ﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم ولو نشاء لجعلناه حطاً أي لأيسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿ فَطَلْتُمْ تَفَكُّوْنَ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ إِنَّا لَمُنْزِلُونَ ﴾ ﴿ بَلْ نَحْنُ عَزُزُونَ ﴾ أي لو جعلناه حطاً لظلمت تفكّهون في المقالة تنوعون كلامكم فتقولون تارة ﴿ إِنَّا لَنَعَزُّوْنَ ﴾ أي للمقون ، وقال مجاهد وعكرمة : إنا لموقع بنا . وقال قتادة : معذبون ، وتارة تقولون ﴿ بَلْ نَحْنُ عَزُزُونَ ﴾ . قال مجاهد أيضاً : ملقون للشر أي بل نحن محارفون أي لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح ، وقال مجاهد : مجدودون يعني لا حظ لنا ، وقال ابن عباس ومجاهد ﴿ فَطَلْتُمْ تَفَكُّوْنَ ﴾ تعجبون . وقال مجاهد أيضاً : تمجبون وتمزنون على ما فاتكم من زرعكم ، وهذا يرجع إلى الأول ، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم ، وهذا اختيار ابن جرير . وقال عكرمة ﴿ فَطَلْتُمْ تَفَكُّوْنَ ﴾ : تلاومون ، وقال الحسن وقاتدة والسدي : تندمون ، ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب ، قال الكسائي : تفكه من الأضداد ، تقول العرب تفككت بمعنى نعمت ، وتفككت بمعنى حزنت .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ مَائِدَةً تَنْزَّلُهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿ يعني السحاب ﴾ ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ يقول : بل نحن المنزلون ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُتَافًا ﴾ أي زعاقاً مراً لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذبا زلالا . وعن أبي جعفر عن النبي ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذي سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجابجا بذنوبنا » (٢) ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها ﴿ مَائِدَةً أَنْتُمْ حَصِرْتُمْ فِيهَا ﴾ أي نحن المتعذبون ﴿ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها . وللعرب شجرتان إحداهما : الرخ ، والأخرى : العفار ، إذا أخذ منها غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تاتر من بينهما شر النار . وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا ﴾ قال مجاهد وقاتدة : أي تذكر النار الكبرى ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : « فإنها قد فضلت عليها بحسمة وستين جزءا » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعْنَا الْإِنْسَانَ فِي مَا يَكُونُ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقاتدة والضحاك والنضر بن عربي : يعني بالمتقين المسافرين ، واختاره ابن جرير وقال : ومنه قولهم : أقوت الدار إذا رحل أهلها ، وقال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٨) وعزله إلى البزار وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦١/٦) والذهبي في كثر المال (١٨٢٢٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) والحاكم في المستدرک (٥٩٣/٤) ونحوه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥) والترمذي في

السنن (٢٥٩٠) .

غيره : القي والقواء القفر الخالي البعيد من العمران . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوي ههنا الجائع . وقال مجاهد : للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار ، وقال أيضًا : يعني للمستمتعين من الناس أجمعين ، وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع ، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناره فاطبخ بها واصطلى بها واشتوى ، واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات ، فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عالمًا في حق الناس كلهم ! وقد يستدل له بحديث أبي خديش حيان بن زيد الشرعي الشامي عن رجل من المهاجرين من قرن أن رسول الله ﷺ قال : « المسلمون شركاء في ثلاثة : النار والكلا والماء » ^(١) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يمنعن : الماء والكلا والنار » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْقَاطِرِ ﴾ أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء الزلال العذب البارد ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا كالبحار المفرقة ، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذا منفعة لهم في معاش دنياهم وزجرًا لهم في المعاد .

﴿ فَكَأَنَّمُ يُؤْتِيهِمْ الْغَنِيَّةُ ﴾ وَلَقَدْ لَقِيتُ لَوْ تَلَمَّعَتْ عَظِيمٌ ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿ لِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿ لَا يَسْمَعُ إِلَّا السَّمْعُ الْبَرُّ ﴾ تَبْرِيلُ بْنُ رَبِّ الْكَافِرِينَ ﴿ أَفَهَذَا لِلنَّاسِ عُدُوَّةٌ ﴿ وَيَتْلُونَهُ يَذُكُّكُمْ تَذَكُّرًا ﴿ .

الذي عليه الجمهور أنه قسم من الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمته ، ثم قال بعض المفسرين : لا ههنا زائدة وتقديره : أقسم بمواقع النجوم ويكون جوابه ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ وقال آخرون : ليست لا زائدة لا معنى لها بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي كقول عائشة رضي الله عنها : لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط ^(٣) . وهكذا ههنا تقدير الكلام : لا أقسم بمواقع النجوم ، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم . وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله ﴿ فَكَأَنَّمُ أُفِيضُ ﴾ فليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل : أقسم ، واختلفوا في معنى قوله ﴿ يُؤْتِيهِمْ الْغَنِيَّةُ ﴾ فعن ابن عباس : يعني نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد . ثم قرأ ابن عباس هذه الآية ، وقال الضحاك عن ابن عباس : نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفارة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ، فنجته السفارة على جبريل عشرين ليلة ، ونجته جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة فهو قوله ﴿ فَكَأَنَّمُ أُفِيضُ ﴾ يعني أفوض إلى نجوم القرآن ، وقال مجاهد أيضًا : مواقع النجوم في السماء ويقال : مطالعها ومشاورها . وكذا قال الحسن وقادة وهو اختيار ابن جرير ، وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٤/٥) وأبو طود في السنن (٣٤٧٧) وابن ماجه في السنن (٢٤٧٢) والبيهقي في السنن (١٥٠/٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٤٧٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٦) والألباني في الصحيحة (٥٢٩) .

أيضاً : أن المراد بذلك انتشارها يوم القيامة . وقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَفَسَدٌ تَوَّعَلُونَ عَظِيمٌ ﴾ أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لتقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمتكم المقسم به عليه ﴿ إِنَّهُ لَنَزَارٌ كَرِيمٌ ﴾ أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي معظم ، في كتاب معظم محفوظ موقر . وعن ابن عباس ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : الكتاب الذي في السماء . وقال ﴿ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ : يعني الملائكة ، وكذا قال أنس ومجاهد وعكرمة وغيرهم .

وقال قتادة : لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس ، والمنافق الرجس ، وقال أبو العالية : ليس أنتم أصحاب الذنوب ، وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون ، وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله . وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . وقال آخرون ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أي من الجنابة والحدث ، قالوا : ولفظ الآية خير ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن ههنا المصحف ، كما روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو ^(١) . واحتجوا في ذلك بما ورد في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم أن لا يمسه القرآن إلا طاهر ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ تَزِيلُ بَيْنَ رَبِّكَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس هو كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مزية فيه وليس وراءه حق نافع . وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ الْكَافِرِينَ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ قال ابن عباس : أي مكذبون غير مصدقين ، وقال مجاهد : أي تريدون أن تألوهم فيه وترتكبوا إليهم ﴿ وَتَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ أَنْكُمْ نَحْنُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال بعضهم : معنى ﴿ وَتَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ ﴾ بمعنى شكركم ﴿ أَنْكُمْ نَحْنُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي : تكذبون بدل الشكر ، وقد روي عن علي وابن عباس أنهما قرأها ﴿ وَتَعْلَمُونَ شُكْرَكُمْ أَنْكُمْ نَحْنُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وعن علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ وَتَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ أَنْكُمْ نَحْنُ الْكَافِرُونَ ﴾ تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا بنجم كذا وكذا ^(٣) وعن زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحدبية في أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب » ^(٤) وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الغيث فيقولون : بكوكب كذا وكذا » ^(٥) . وقال مجاهد ﴿ وَتَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ أَنْكُمْ نَحْنُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال : قولهم في

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٨٧٩) وأحمد في مسنده (١٦٣/٢) والبيهقي في السنن (١٠٨/٩) .

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١٦١/٢) والبيهقي في السنن (٨٨/١) والطرطشي في السنن (١٢١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٩) .

(٤) أخرجه البخاري في الاستيعاب (١٠٣٨) ومسلم في الإيمان (١٢٥) وأحمد في مسنده (١١٧/٤) وأبو داود في السنن (٣٩٠٦) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦) .

الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله وهو رزقه .

﴿ قَوْلًا إِيَّكَ بَلَدٌ لِّلْقَلَمِ ﴾ ١٠٠ وَأَنْتَ جَبَلٌ تَنْظُرُونَ ١٠١ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ١٠٢ قَوْلًا إِنْ كُنْتُمْ مِّنْ مَّيْمِينٍ ١٠٣ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٠٤ .

يقول تعالى : ﴿ قَوْلًا إِيَّكَ بَلَدٌ ﴾ أي الروح ﴿ لِّلْقَلَمِ ﴾ أي الحلق وذلك حين الاحتضار ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنْتَ جَبَلٌ تَنْظُرُونَ ﴾ أي إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أي بملأكتنا ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي ولكن لا ترونهم . وقوله تعالى : ﴿ قَوْلًا إِنْ كُنْتُمْ مِّنْ مَّيْمِينٍ تَرْجِعُونَهَا ﴾ معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدبين . قال ابن عباس : يعني محاسنين ، وقال سعيد بن جبير والحسن البصري ﴿ قَوْلًا إِنْ كُنْتُمْ مِّنْ مَّيْمِينٍ ﴾ : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس ، وعن مجاهد غير موقنين . وقال ميمون بن مهران : غير معدين مقهورين .

﴿ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَقْرَبِ ١٠٥ فُزِّعَ رِيحًا وَبَحَثَتْ بَيِّنَاتُ ١٠٦ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْأَمْعَنِ ١٠٧ فَسُكِّرَتْ لَهُ مِنْ أَمْعَنِ ١٠٨ ﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الشَّكَاكِينِ ١٠٩ فَتُرْجَىٰ ١١٠ وَنُصِّلَ بِهِ جَبِي ١١١ إِيَّاهُ هَذَا لَمْ يَحْضَرْ ١١٢ .

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم ، إما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين ، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى الجاهلين بأمر الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَقْرَبِ ﴾ أي المحتضر ﴿ مِنَ الْمَقْرَبِ ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات ﴿ فُزِّعَ رِيحًا وَبَحَثَتْ بَيِّنَاتُ ﴾ أي فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت كما تقدم في حديث البراء « أن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه ، انخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . قال ابن عباس ﴿ فُزِّعَ ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة ، وكذا قال مجاهد : إن الروح الاستراحة ، وقال أبو حمزة : الراحة من الدنيا ، وعن مجاهد ﴿ فُزِّعَ رِيحًا وَبَحَثَتْ ﴾ جنة وريحاء وقال قتادة : ﴿ فُزِّعَ ﴾ فرحة ، وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : ﴿ وَبَحَثَتْ ﴾ ورزق ، وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقرَّبًا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، ﴿ وَبَحَثَتْ ﴾ أي قال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه . وقال محمد بن كعب : لا يموت أحد من الناس حتى يعلم أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار ، وعن تميم الدار عن النبي ﷺ يقول : « يقول الله تعالى الملك الموت : انطلق إلى فلان فاقبض به فإنه قد جرت به بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب ، انتهي فلأريحه قال : فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضباط الريحان - أصل الريحانة واحد - وفي رأسها عشرون لوتًا لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك » (١) .

وعن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ فُزِّعَ رِيحًا وَبَحَثَتْ ﴾ برفع الراء (٢) ، وهذه القراءة هي

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٦٤/٦) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٦/٦) .

قراءة يعقوب وحده وخالفه الباقرن فقرأوا ﴿ فَرَجَ وَرَيَّانَ ﴾ بفتح الراء ^(١) . وعن أم هانئ ، أنها سألت رسول الله ﷺ : أتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يكون النسم طيراً يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها » ^(٢) . هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى يعلق يأكل ، وعن عطاء بن السائب قال : كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى رأيت شيئاً أبيض الرأس واللحية على جمار ، وهو يتبع جنازة فسمعت يقول : حدثني فلان ابن فلان سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » قال : فأكذب القوم بكونه ، فقال : « ما يبكيكم ؟ » فقالوا : إنا نكره الموت ، قال : « ليس ذاك ، ولكنه إذا احتضر ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرَيْنِ ﴾ ﴿ فَرَجَ وَرَيَّانَ وَجَحَّتْ تُيُوبُ ﴾ فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله ﷻ ، والله ﷻ للقاءه أحب ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿ فَرَجَ وَرَيَّانَ ﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله ﷻ ، والله تعالى للقاءه أكره » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أي وأما إذا كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ فَسَلَّمَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أي تبشرهم للملازمة بذلك تقول لأحدهم : سلام لك أي لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله وسلمت عليه ملازمة الله ، وقال البخاري ﴿ فَسَلَّمَ اللَّهُ ﴾ أي مسلم لك أنك من أصحاب اليمين ، وألغيت إن وبقي معناها كما تقول : أنت مصدق مسافر عن قليل إذا كان قد قال : إني مسافر عن قليل ، وقد يكون كالدعاء له كقولك : سقياً لك من الرجال إن رغبت السلام ، فهو من الدعاء ^(٤) . وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ومال إليه والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿ فَرَجَ وَرَيَّانَ ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ﴿ فَتَرَجَّ ﴾ أي فضيافة ﴿ مِنْ جَبَرِ ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿ وَتَصَلَّى جَبَرِ ﴾ أي وتقرر له في النار التي تغمره من جميع جهاته . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَنَا نَارَ حَقِّ الْيَقِينِ ﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مزية فيه ولا محيد لأحد عنه ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ . عن عتبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال : « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْأَكْبَرِ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « اجعلوها في سجودكم » ^(٥) وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غرست له نخلة في الجنة » ^(٦) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ^(٧) .

(١) روى رويس ﴿ فَرَجَ ﴾ بضم الراء والفرج به ابن مهران عن روح ، والباقرن بالفتح (الظر : تهرب النشر ص : ١٧٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٥/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٧) ومسلم في الذكر والدعاء (١٤) والترمذي في السنن (١٠٦٦) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة الواقعة) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/٤) .

(٦) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٦٤) والحاكم في المستدرک (٥٠١/١) والألباني في الصحيحة (٦٤) .

(٧) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٣١) والترمذي في السنن (٢٤١٧) وابن ماجه في السنن (٣٨٠٦) .

عن عرياض بن سارية أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال :
« إن فيهن آية أفضل من ألف آية » (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُؤْتِي مَا يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض أي من الحيوانات والنباتات ، وقوله تعالى :
﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي الذي قد خضع له كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيُؤْتِي مَا يَشَاءُ ﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه فيحيي ويميت ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿ وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾
وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرياض بن سارية أنها أفضل من ألف آية ، عن أبي زميل قال :
سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده في صدري ، قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال :
فقال لي : أشيء من شك ؟ قال وضحك ، قال : ما نجا من ذلك أحد ، قال : حتى أنزل الله تعالى :
﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا لَزَمَكَ إِلَيْكَ فَسَلِ الْوَيْلَ يَقْرَأُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية ،
قال : وقال لي : إذا وجدت في نفسك شيئا فقل ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴾ (٢) وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقولهم على نحو من بضعة عشر قولاً .

قال البخاري : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علماً والباطن على كل شيء علماً . وعن
سهيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول :
اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ،
ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت أخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول
فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن
فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر (٣) .

وعن أبي هريرة قال : بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم صحاب فقال نبي الله ﷺ :
« هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا العنان ، هذه روايا الأرض تسوقه إلى
قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :
« فإنها الرقيق مسقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال : « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » قالوا : الله
ورسوله أعلم . قال : « بينكم وبينها خمسمائة سنة » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا :
الله ورسوله أعلم . قال : « فإن فوق ذلك سماء يُقَدُّ ما بينهما مسيرة مائة سنة - حتى عد سبع

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٤) . (٢) أخرجه أبو حنيفة في السنن (٥١١٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦١) وابن ماجه في السنن (٢٨٧٣) وأحمد في مسنده (٥٣٦/٢) .

سموات - ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء مثل بُعد ما بين السماءين » ثم قال : « هل تدرون ما الذي تحتمك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الأرض » ثم قال : « هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع أرضين - بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة » ثم قال : « والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم حبلاً إلى الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ » ^(١) .

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِكُلِّ مَا يَلِيجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ أَسْمَاءَ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ^(٢) لَمْ تَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَلَكِ اللَّهُ شَرِيعُ الْبُيُوتِ ^(٣) يُلَاجِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُفْلِحُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا لَا تَشْعُورُ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهاها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ههنا . وقوله تعالى : ﴿ بِكُلِّ مَا يَلِيجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وزرع وثمار ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنْ أَسْمَاءَ ﴾ أي من الأمطار . والثلوج والبرد والأقنار . والأحكام مع الملائكة الكرام ، ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقررها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أي : من الملائكة والأعمال ، كما جاء في الصحيح : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » ^(٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم .

فلا إله غيره ولا رب سواه ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(٥) وعن عبد الله بن معاوية الغاضري مرفوعاً : « ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان ، إن عبد الله وحده وأعطي زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام ، ولم يغط القربة ولا الرذية ولا الشرطة اللقيمة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم وزكى نفسه » وقال رجل : يا رسول الله ما تركية المرء نفسه ، فقال : « يعلم أن الله معه حيث كان » ^(٦) وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدُّفْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَخْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنَّ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣ ، ٢٩٥) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٢) ومسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٨٢) والبيهقي في السنن (٩/٤) والألباني في الصحيحة (١٠٤٦) .

وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ لَكَ الْكَوْنُ وَالْأَرْضُ وَلَيْلٌ لِّلَّيْلِ ﴾ أي هو المالك للعالمين والآخرة كما قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ لَكَ الْكَوْنُ وَالْأَرْضُ ﴾ وهو المحمود على ذلك كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُوفُ فِي الْيَوْمِ وَالْآخِرَةِ ﴾ فجميع ما في السموات والأرض ملك له ، وأهلها عبيد أرقاء أذلاء بين يديه ولهذا قال : ﴿ قَالَ اللَّهُ تُرِيعُ الْيَوْمَ ﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة فيحكم بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن عمل أحدهم حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿ وَيَكُونُ بَيْنَ لَيْلَتَيْ أَيْرَاءٍ عَظِيمَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أي هو المتصرف في الخلق يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيطاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به خلقه ﴿ وَمَوْعِدُهُ يَوْمَ تَكُونُ السَّرائِرُ ﴾ أي يعلم السرائر وإن دقت أو خفيت .

﴿ مَا يَوْمُنَا بِأَمْرٍ وَعَدْنَاهُ وَإِنَّمَا جَعَلْنَاهُ مُتَقَلِّبِينَ فِيهِ فَلْيَنْظُرِ الْيَوْمَ مَنَّا مَنَّا يَنْظُرُونَ ﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُرُكُمْ إِلَيْكُمْ وَقَدْ لَكُمْ يَسْتَفْهِمُونَ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ١١ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عِبِيدِهِ مَا يَكُنِي يَنْتَظِرُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ فَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ ١٢ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ يَرْسُوكُمُ الْكُفْرَ وَالْأَرْضُ لَا يَسْجُو سَجْدَةً لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَتَتَوَلَّى الْوُجُوهَ لَكُمُ الْآخِرَةُ وَأُولَئِكَ الْأُولَى قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهُ وَقَدْ أَفْلَحَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ١٣ هُوَ الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ رَبَّنَا حَسَنًا يَمُوتُونَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ كَرِيمٌ ١٤ .

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ، أي مما هو معكم على سبيل العارية ؛ فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ، ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته ، فإن يفعلوا ولا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُ مُتَقَلِّبِينَ فِيهِ ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فاعمل وارثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصي الله فيه فتكون قد سميت في معاونته على الإثم والعدوان . عن عبد الله بن المشعير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ألهاكم التكاثر » ، يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْيَوْمَ مَنَّا مَنَّا يَنْظُرُونَ ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُرُكُمْ إِلَيْكُمْ ﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهرهم يدعركم إلى ذلك وبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ لَكُمْ يَسْتَفْهِمُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَالْأَكْثَرُ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُكُمْ وَيَسْتَفْهِمُ الْوَيْلَ لَكُم مِّنْ ذَٰلِكَ قَلِيلٌ مِّنْكُمْ مَنَّا مَنَّا يَنْظُرُونَ ﴾ يعني بذلك بيعة الرسول ﷺ ، وزعم ابن جرير أن المراد بذلك اليثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عِبِيدِهِ مَا يَكُنِي يَنْتَظِرُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ﴿ فَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ ﴾

أي في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس وإزالة الملل وإزالة الشبه ، ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ثم حثهم على الإيمان وبين أنه قد أزال عنهم موانعهم أيضاً على الإنفاق فقال : ﴿ وَنَا لَكُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ بَرَكَاتٌ أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أنفقوا ولا تخشوا فقرا وإقلاقاً ، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض وبيده مقاليدهما وعنده خزائنها ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي دِينَكَ مَنْ لَفَّ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَدْ لَفَّ ﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أنه قبل فتح مكة كان الحال شديداً فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْكَ أَقْطَمُ ذُنُوبُهُ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْعَتِنَا وَكَأَنَّ اللَّهَ الْمُسْتَعْتَبُ ﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح هنا فتح مكة ، وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية ، وقد يستدل لهذا القول بما روي عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال : « دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم » ^(١) ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : صباناً صباناً ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما ، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك ، والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ^(٢) .

وعن عطاء بن يسار عن أبي سعيد ذكر الخوارج : « تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ .. » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَنَّ اللَّهَ الْمُسْتَعْتَبُ ﴾ يعني المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء ، وفي الصحيح : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » ^(٤) وإنما نبه بهذا لئلا يهجر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلماذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه مع تفضيل الأول عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ يَوْمَ تَمَّاؤُنَّ خَيْرٌ ﴾ أي فلخيرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإتفاده في حال الجهد والقلّة والضيق ، وفي الحديث « سَبَقَتْ دَرَاهِمُ مِائَةِ أَلْفٍ » ^(٥) ولا شك عند أهل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢١) والترمذي في السنن (٣٨٦١) وابن ماجه في السنن (١٦١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٣) .

(٤) أخرجه مسلم في القدر (٢٤) وابن ماجه في السنن (٧٩) وأحمد في مسنده (٣٧٠/٢) والبيهقي في السنن (٨٩/١٠) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (٥٩/٥) .

أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد ، وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم ، فإن الجنة في السموات في أعلى عليين والنار في الدركات أسفل سافلين ، وقول كعب الأبحار : إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد فهذا من إسرائيلياته وترهاته ، وإنما المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة .

﴿يَا دَاوُدَ إِنَّمَا تَكُن مَلَكًا﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجماعات ونصلي معكم الجماعات ، وقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ونؤذي معكم سائر الواجهات ، ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى قد كنتم معنا ﴿وَلِكُلِّكُمْ فِتْنَةٌ أَنفُسُكُمْ وَرِجْسُكُمْ وَآزِيزَةٌ وَرِجْسُكُمُ الْآلِهَاتُ﴾ قال بعض السلف : أي فتنتم أنفسكم بالذلات والمعاصي والشهوات ﴿وَرِجْسُكُمْ﴾ أي آخرتم التوبة من وقت إلى وقت . وقال قتادة ﴿وَرِجْسُكُمْ﴾ بالحق وأهله ﴿وَأَزِيزَةٌ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿وَرِجْسُكُمُ الْآلِهَاتُ﴾ أي قلمت سيغفر لنا وقيل : غرتكم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿وَرِجْسُكُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي الشيطان ، قال قتادة : كانوا على خلدعة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتى ظنهم الله في النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا أي بأبداننا لا بنية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك ، فكنتم تراعون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً ، قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أسياء يناكحونهم ويفشونهم ويعاشرهم ، وكانوا معهم أموالاً ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطغأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور وبماز بينهم حيث ذ .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول ، وهو صديق
 القائلين ﴿ كُلِّتْهُمْ بِمَا كُفِبَتْ رُسُلُهُمْ ﴾ ١٠٠ إِذْ أَخَذَ الْيَهُودُ فِي جَثِّي وَقَدْلُوهُمْ ١٠١ عَنِ النَّبِيِّينَ ١٠٢ مَا سَلَكْتُكَ فِي
 سَبْعٍ ١٠٣ قَالُوا لَرَبِّكَ بَرَكَاتُكَ عَلَيْهِمْ ١٠٤ وَكَرَّمَكَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ١٠٥ وَكُنَّا نَحُوشُ مَعَ الْكَافِرِينَ ١٠٦ وَكَذَلِكَ نَكْفِيكَ بِرَبِّهِ الْيَهُودَ ١٠٧
 حَتَّى تَأْتِيَ الْكُفَّيْنِ ١٠٨ . فهذا إما خرج منهم على وجه التفرع لهم والتوبيخ . ثم قال تعالى ﴿ مَا تَقْنَعُهُمْ
 شِدَّةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ١٠٩ كما قال ههنا ﴿ قَالُوا لَا يُؤْخَذُ بِكُفْبَتِهِمْ وَلَا بِرِيبِ الْيَهُودِ كَذَّبُوا ﴾ ١١٠ أي لو جاء أحدهم
 اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه . وقوله تعالى : ﴿ مَا تَرْتِمُكُمْ
 أَنْتَارُ ﴾ ١١١ أي هي مصيركم وإليها منقلبكم ، وقوله تعالى : ﴿ هِيَ مَوْلَانَكُمْ ﴾ ١١٢ أي : هي أولى بكم من
 كل منزل على كفركم وإرتيابكم ﴿ وَبَقِيَ الصَّيْغَةُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْيَهُودَ مَائِدًا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِطَعْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ فَسَتَ قُلُوبُهُمْ ذِكْرٌ لَكُمْ لِيَتَذَكَّرُوا ﴾ ٥٠ ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحِي الْأَرْضِ بِدَرَجَةٍ قَدْ يَتَنَا لَكُمْ الْآيَاتِ لَكُمْ تَقُولُونَ ٥١ .

يقول تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ؟ أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن تفهمه وتقاد له وتسمع له وتطيعه . عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين

فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَفْشَحَ قُلُوبُهُمْ لِيُذَكِّرَ اللَّهُ الْآيَةَ وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ^(١) قَالَ : مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهِذِهِ الْآيَةِ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَفْشَحَ قُلُوبُهُمْ لِيُذَكِّرَ اللَّهُ الْآيَةَ ، إِلَّا أَرْبَعَ سِنِينَ ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ تَرَوُا إِلَافَةً الْكِتَابِ مِنْ بَدَلٍ فَلَمَّا خَلَّوْا عَنْهُمْ آلَمُوا فَوَشَّحَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدلو كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ونبلوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتوتكة ، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَصْطَفُونَ ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية .
عن إبراهيم قال : جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود فقال : يا عبد الله هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر ، فقال عبد الله : هلك من لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر قلبه منكراً . إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من بين أيديهم وأرجلهم استهوتهم قلوبهم واستحلته استنهم ، وقالوا نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب ، فمن آمن به تركناه ، ومن كفر به قتلناه ، قال : فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن ثم جعل القرن بين ثديتيه ، فلما قيل له : أؤمن بهذا ، قال : آمنت به ووعى إلى القرن بين ثديتيه ، وما لي لا أؤمن بهذا الكتاب ، فمن خير ملهم اليوم ملة صاحب القرن ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْسُ الْأَرْضَ بِدَرَجَاتٍ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضللتها ، ويفرج الكرب بعد شدتها ، فكما يحيى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضلل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا اللَّهَ وَآلَهُمْ كَرِيمٌ ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا اللَّهَ وَآلَهُمْ كَرِيمٌ ﴿ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالصَّادِقَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

يخير تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وَآلَهُمْ كَرِيمٌ ﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكورا ، ولهذا قال : ﴿ يَصْنَعُونَ لَهُمْ ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف ، وفوق ذلك ﴿ وَآلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي ثواب جزيل حسن ومرجع صالح ومآب

(١) أخرجه مسلم في التفسير (٢٤) وابن ماجه في السنن (٤٢٩٢) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٩٧/٢٧) .

كریم . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَضُونَ ﴾ هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون ، عن ابن عباس : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَضُونَ ﴾ هذه مقصولة ، ﴿ وَالَّذِينَ يَرْتَضُونَ ﴾ أي يرضون ، وعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَضُونَ ﴾ قال : هم ثلاثة أصناف : يعني الصديقين والصديقين والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُبْلِغِ اللَّهَ الْإِيمَانَ فَاُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْقِدِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان ولا شك أن الصديق أعلى مقامًا من الشهيد ، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليرتاضون أهل الغرف من فوقهم كما ترتاضون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قال : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في جنات النعيم كما جاء في الحديث : « إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعاً فقال : ماذا تريدون ؟ ا فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك كما قتلنا أول مرة ، فقال : إني قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَرْهَبْهُمْ وَنُرِيهِمْ ﴾ أي لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسمى بين أيديهم وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال ، وعن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدّق الله فقتل فذاك الذي ينظر الناس إليه هكذا ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ وقلنسوة عمر ، والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب فقتله فذاك في الدرجة الثانية ، والثالث : رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدّق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة ، والرابع : رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً لقي العدو فصدّق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

﴿ آمَنُوا أَنَّمَا الْغُيُوبُ الْغُيُوبُ الَّذِي لَيْسَ بِهِ غُيُوبٌ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا الْوَزْنِ الَّذِي هُمْ يُوزَنُونَ وَلَا الْكَفَّارُ الْكَفَّارُ هُمْ فِي عَذَابٍ مُّتَسَاوِينَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنْ أَلْفٍ وَرُسُودٌ وَمَا يَغْنِيهِمْ أَلْفٌ تُبْرَأُ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْغُيُوبِ ۚ لَئِنْ كَفَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ لَأُخَذَتْ بِهِمُ الْمِيزَانُ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَضُونَ ﴾

يقول تعالى موثقاً أمر الحياة الدنيا ومحقرها لها ﴿ آمَنُوا أَنَّمَا الْغُيُوبُ الْغُيُوبُ الَّذِي لَيْسَ بِهِ غُيُوبٌ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا الْوَزْنِ الَّذِي هُمْ يُوزَنُونَ ﴾ ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ كَثِيرٌ مِمَّنْ ظَهَرَ فِي الْمَوَدَّةِ الدُّنْيَا وَخَفِيَ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَضُونَ ﴾ وهو المظهر الذي يأتي بعد قنوط الناس كما قال

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٠٥٥) ومسلم في الجنة وصلة نعيمها (١١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٤١) والطبري في الترخيب والترهيب (٣١٦/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٤٤) وأحمد في مسنده (٢٢/١) .

تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ إِلَيْكَ السَّيِّئَاتِ مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتُمْ لَا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَبُّ الْكَلْبِ نَبَاتٌ ﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ﴿ ثُمَّ يَبْجِعُ فَرْقَهُ مُنْقَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴾ أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرا بعد ما كان خضرًا نضرا ، ثم يكون بعد ذلك كله حطمانا أي يصير يشا متحطما ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة ثم تكهل ثم تكون عجوزا شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضبا طريا لين الأعطاف ، بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخا كبيرا ضعيفا القوي ، قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال : ﴿ رَفِيَ الْآخِرَةُ عَدَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْآخِرَةُ أَذْنَبًا إِلَّا مَنْعُ الْفُتُورِ ﴾ أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا الْآخِرَةُ أَذْنَبًا إِلَّا مَنْعُ الْفُتُورِ ﴾ أي هي متاع فاني غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤوا ﴿ وَمَا الْآخِرَةُ أَذْنَبًا إِلَّا مَنْعُ الْفُتُورِ ﴾ » ^(١) وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والدار مثل ذلك » ^(٢) . ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلهذا حثه الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحصل له الثواب والدرجات فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ والمراد جنس السماء والأرض كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال ههنا ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ، كما قدمنا في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور : بالدرجات العلى والنعم المقيم قال : « وما ذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا تصدق ، ويحرقون ولا نعتق . قال : « أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتهم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم . تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين » قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » ^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) وأحمد في مسنده (٣٨٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في المساجد (١٤٢) والترمذي في السنن (الصلاة ٩٠) وأحمد في مسنده (١٦٧/٥) .

الذي ليس وراءه حق كما قال : ﴿ وَكَتَمْتَ كَيْتَ رَبِّكَ صَدَقًا وَعَدَلًا ﴾ أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبولأوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصروفات ﴿ لَنَحْنُ ذُو الْأَيْمَنِ هَـذَا هُنَا لَمَّا كُنَّا فِي تَوَالِفٍ ﴾ أي ههنا ههنا كما كنا في توالف .
وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحججة عليه ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحججة على من خالف شرع الله أمرهم بالهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت بالسيوف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » ^(١) ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ﴿ وَنَنفِخُ لِلشَّامِ ﴾ أي في معايشهم كالسكة والفأس والقدم والمنشار والإزميل والحجفة والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز ، وما لا قوام للناس بدونها وغير ذلك . عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم : السندان والكلبان والمقعة يعني المطرقة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنْ يَقْسِرُهُ وَيَخْلُقُ بِالْقَسْبِ ﴾ أي من نبته في حمل السلاح نصرته الله ورسوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من نصره ، من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليلو بمعضكم بعض .

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثَّتْ خَشْيَتُهُمْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَفَقِئُوا ۝ ثُمَّ فَتَيْنَا عَنْ أَسْقَرِهِمْ يُرْسِلْنَا وَقَفَيْنَا بِهِمْ أَنْ يَرْجِعَ مَعَهُمْ وَمَا كُنْهِنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَةً لَهُمْ يَذُوقُونَ فَمَا رَغَبُوا حَتَّىٰ رِغَابَهَا فَكَفَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا يَتَّبِعُ أَمْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَفَقِئُوا ۝ ﴾ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحًا عليه السلام لم يرسل بعده رسولًا ولا نبيًا إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتابًا ولا أرسل رسولًا ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالة حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ فَتَيْنَا عَنْ أَسْقَرِهِمْ يُرْسِلْنَا وَقَفَيْنَا بِهِمْ أَنْ يَرْجِعَ مَعَهُمْ وَمَا كُنْهِنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَةً لَهُمْ يَذُوقُونَ فَمَا رَغَبُوا حَتَّىٰ رِغَابَهَا فَكَفَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا يَتَّبِعُ أَمْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَفَقِئُوا ۝ ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رِغَابًا وَرَهْبًا ﴾ أي رقة وهي الخشية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالخلق . وقوله : ﴿ وَرَهْبًا ﴾ أي ابتعادها أمة النصارى ﴿ مَا كُنْهِنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي ما شرعناها وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .
وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا آيَةً لَهُمْ يَذُوقُونَ ﴾ فيه قولان أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، والآخر : ما كئبنا عليهم ذلك إما كئبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا رَغَبُوا حَتَّىٰ رِغَابَهَا ﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتعاد في دين

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٢) .

اللَّهُ ما لم يأمر به الله ، والثاني : في علم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ﷻ . عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا ابن مسعود » قلت : لبيك يا رسول الله . قال : « هل علمت أن بني إسرائيل اضرقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، لم ينج منها إلا ثلاث فرق ، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم ﷺ ، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت الجبابرة فقتلت فصبرت ونجحت ، ثم قامت طائفة أخرى لم تكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فقتلت ، وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران فصبرت ونجحت ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطلق القيام بالقسط ، فلحققت بالجلال فتعبدت وترهبت وهم الذين ذكر الله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ^(١) .

وعن سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير ، وهو يصلي صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر أو قريبا منها ، فلما سلم قال : يرحمك الله أرايت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفلته ؟ قال : إنها المكتوبة وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئا سهوت عنه ، إن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ؛ فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فترك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » ثم غدوا من الغد فقالوا : نركب فننظر ونعتبر ، قال : نعم فركبوا جميعا فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا خاوية على عروشها ، فقالوا : أنعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفني بها وبأهلها ، هؤلاء أهل الديار أهلكمم البني والحسد ، إن الحسد يطفئ نور الحسنات والبغي يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ^(٢) . وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « لكل نبي رهبانية » ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله ﷻ ^(٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْخِذْكُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيُفْرِجْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٤) إِنَّمَا يَسْمُرُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْقِرُونَ عَلَى نَفْسِهِمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿

عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجرم مرتين كما في الآية التي في القصص ، وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أمتة فأحسن تأديبها ، ثم أعطاها وتزوجها فله أجران » ^(٥) وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْخِذْكُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أي ضعفين ﴿ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ﴾ وزادهم

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢١٧/١٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٠٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٠٦/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في مسنده (٢٦٦/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في العلم (٢٦٧٢) والترمذي في السنن (١١١٦) وأحمد في مسنده (٤٠٥/٤) والدارمي في السنن (١٥٥/٢) .

﴿ وَنَسِيتُ لَكُمْ فُزُؤَكُمْ فَتَشُونَ بِهِ ﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ويفقر لكم ، ففضلهم بالنور والمغفرة .

وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل عمر بن الخطاب حبراً من أحبار يهود أفضل ما ضعف لكم حسنة قال : كفيل ثلاثمائة وخمسين حسنة ، قال : فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفولين ، ثم ذكر سعيد قول الله ﷻ : ﴿ يُؤَيِّدُكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد : والكفلان في الجمعة مثل ذلك ^(١) .
وما يؤيد هذا القول ما روي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قومًا يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا : لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم واخلدوا أجركم كاملاً ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير ، فأبوا . فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور ^(٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَسِيَ أَمَلُ الْكِتَابِ عَلَى قُرُونٍ عَلَى نَسْيِ قُرُونٍ فَتَوَبَّنَا وَأَلْزَمْنَا كَلِمَةً مَالِكُ الْكِتَابِ لَمْ يَذْكُرْهَا وَلَا نُحِيطُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء مامنع الله ﴿ وَأَلْزَمْنَا كَلِمَةً مَالِكُ الْكِتَابِ لَمْ يَذْكُرْهَا وَلَا نُحِيطُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . قال ابن جرير ﴿ إِنَّا نَسِيَ أَمَلُ الْكِتَابِ ﴾ أي ليعلم وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها (لكي يعلم) وكذا عطاء بن عبد الله وسعيد بن جبير . قال ابن جرير : لأن العرب تجعل لا صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جمحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : ﴿ مَا مَنَعَهُ إِلَّا تَجَبُّدٌ ﴾ ، و ﴿ وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، بالله ﴿ وَكَذَرْنَا عَلَى قُرُونٍ أَمَلُ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣١٥/٢٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الإجازة (٢٢٧١) والبيهقي في السنن (١١٩/٦) .

بفرق آخر قال : « قد أصبت وأحسن ، فاذهي فتصلي به عنه ، ثم استوصي بآب عمك خيراً »
 قالت : ففعلت ^(١) . فقله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُكَايَرُونَ مِنْ بَنَاتِهِمْ ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ،
 وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت علي كظهر أمي ، ثم في الشرع
 كان الظهار في سائر الأعضاء قياماً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً فأرخص الله لهذه
 الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ، هكذا قال غير واحد
 من السلف .

عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنت علي كظهر أمي حرمت
 عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكان تحته ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة ،
 فظاهر منها فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حرمت علي ، وقالت له مثل ذلك ، قال :
 فانطلقني إلى رسول الله ﷺ ، فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال :
 « يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء » فأنزل الله على رسول الله ﷺ فقال : « يا خويلة أبشري »
 قالت : خيراً - فقرأ عليها ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾
 إلى قوله ﴿ وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ بَنَاتِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ إِنَّا مَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ قِيلَ أَنْ يَسْلَمُوا ﴾ قالت : وأي رقبة
 لنا ؟ والله ما يجد رقبة غيري ، قال : ﴿ هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يَمْلِكُ مِثْلَهُ فَيَتَّقِي بَيْنَهُمَا مِثْلَ الْفَتَنِ ﴾ قالت : والله لولا أنه
 يشرب في اليوم ثلاث مرات للذهب بصره قال : ﴿ هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يَمْلِكُ مِثْلَهُ فَيَتَّقِي بَيْنَهُمَا مِثْلَ الْفَتَنِ ﴾ قالت : من
 أين ؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها ، قال : فدعا بشطر وسق ثلاثين صاعاً ، والوسق ستون صاعاً فقال :
 « ليطعم ستين مسكيناً وليراجعكم » ^(٢) .

وقال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة
 أشهر وجعل في الظهار الكفارة ، وقد استدلل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية
 بقوله منكم فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ،
 واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ مِنْ بَنَاتِهِمْ ﴾ على أن الأمة لاظهار منها ولا تدخل في هذا
 الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ مَا تَرَى أَكْثَرَهُمْ بَالًا مِمَّا ظَهَرُوا بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ وَمَا أَكْثَرَهُمْ كَذِبًا ﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل أنت
 علي كأمي أو مثل أمي أو كظهر أمي وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التي ولدته ، ولهذا
 قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ يَتَوَلَّوْنَ مَسْكَرَاتٍ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أي كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ ذَلِكَ اللَّهُ لَمَنَعُوا
 غُرُورًا ﴾ أي عما كان منكم في حال الجاهلية ، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم
 يقصد إليه المتكلم ، كما روي أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول لامرأته يا أختي ، فقال :
 « أحتك هي ؟ » ^(٣) فهذا إنكار ، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك ؛ لأنه لم يقصده ولو قصده

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١/٦) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٨٢/٧) وذكره الطبري في تفسيره ٥/٢٨ .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢١٠) .

لحرمته عليه ؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُقْرِئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ ثُمَّ يَمُوتُونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ ﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَمُوتُونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم وقول داود حكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفرء وفرقة من أهل الكلام ، وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقد حكى عن مالك أنه العزم على الجماع أو الإمساك عنه ، وعنه أنه الجماع ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريره ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريمًا لا يرفعه إلا الكفارة ، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد . وعن سعيد بن جبير : يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم .

وقال الحسن البصري : يعني الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأشأ أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر ، وقال ابن عباس : ﴿ يَنْقَبِلُ أَنْ يَنْتَهَكَ ﴾ والمس النكاح ، وقال الزهري : ليس له أن يقبلها ولا يمسه حتى يكفر . وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على ذلك يرحمك الله » . قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ﷻ » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهنا الرقة مطلقة غير مقيدة بالإيمان وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلقه هنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقة ، واعتضد في ذلك بما روي عن معاوية ابن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » ^(٢) .

وعن ابن عباس ، قال : أتى رسول الله ﷺ رجل فقال : إنني ظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال رسول الله ﷺ : « ألم يقل الله تعالى : ﴿ يَنْقَبِلُ أَنْ يَنْتَهَكَ ﴾ ؟ » قال : أعجبتي ، قال : « أمسك حتى تكفر » ^(٣) وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ تُدْعَوْنَ بِهِ ﴾ أي تزجرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي خير بما يصلحكم عليم بأحوالكم ، وقوله تعالى ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ يَنْقَبِلُ أَنْ يَنْتَهَكَ ﴾ أي شرعنا هذا لهذا . وقوله تعالى : ﴿ يَنْتَهِكُ فَلْيَاكُفْهُ يَكْفُرْ ﴾ أي شرعنا هذا لهذا . وقوله تعالى :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١٩٩) والنسائي في السنن (١٦٧/٦) والطبراني في الكبير (٢٣٣/١١) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٣٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٣٨٨/٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٠٤/٢) بنحو والريسي في نصب الراية (٢٤٨/٣) والسيوطي في الدر المنثور (١٨٣/٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَجِدُونَ الْإِثْمَ وَالْعُدْوَانَ وَمَنصِبَتِ الرُّسُولُ ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم ﴿ وَالْعُدْوَانَ ﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته بصرون عليها ويتواصون بها وقوله تعالى : ﴿ زَلْزَلًا جَلِيلًا حَبْرَةً بِمَا كَرِهْتُمْ بِدَ اللَّهِ ﴾ عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » قلت : ألا تسمعنهم يقولون : السام عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « أو سمعت ما أقول وعليكم ؟ » ^(١) فأنزل الله تعالى : ﴿ زَلْزَلًا جَلِيلًا حَبْرَةً بِمَا كَرِهْتُمْ بِدَ اللَّهِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَوَلَّوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم في الباطن ، ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبيًا لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبيًا حقًا لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا . فقال الله تعالى : ﴿ سَخِمْنَاهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ أي جهنم كفاتهم في الدار الآخرة ﴿ يَسْكُونَهَا فَتَكُنْ لَهُمْ مَسْجِدًا ﴾ ثم قال الله تعالى مؤدبا عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين ﴿ يَكْفُرُوا بِاللَّيْلِ مَآسُوا ﴾ إذا تنصبتهم فلا تنتجوا بالإثم والعُدْوَانِ وَمَنصِبَتِ الرُّسُولِ أي : كما يحتاج به الجهلة من كفره أهل الكتاب ومن مآلهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ وَتَجِدُوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَفِي قُلُوبِهِمُ اللَّهُ لَئِنْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ لِّئَلَّا يُفْهِمُوا ﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيك بها ، وعن صفوان بن محرز قال : كنت أخلد بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنبك كذا ؟ أتعرف ذنبا كذا ؟ أتعرف ذنبا كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » ^(٢) . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا الْكَافِرِينَ مِنَ الْكَافِرِينَ يَتَخَرَّكُ الَّذِينَ مَآسُوا وَلَيْسَ بِسَخِيمَةٍ شَيْئًا إِلَّا يَذُنُّهُمُ اللَّهُ فَلَا يُخْزِيهِمْ شَيْئًا ﴾ أي إنما النجوى وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءا ﴿ مِنَ الْكَافِرِينَ يَتَخَرَّكُ الَّذِينَ مَآسُوا ﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتاجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ يَتَخَرَّكُ الَّذِينَ مَآسُوا ﴾ أي ليسوعهم وليس ذلك بضارهم شيئا إلا ياذن الله ، ومن أحسن من ذلك شيئا فليستعد بالله وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء ياذن الله . وقد وردت السنة بالتهي عن المتاجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا ياذنه ، فإن ذلك يحزنه » ^(٣) .

﴿ يَكْفُرُوا بِاللَّيْلِ مَآسُوا ﴾ إذا قيل لكم تفسحوا في المجلدات فافسحوا ففسح الله لكم ولأن قيل أنشروا فأنشروا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا الهدى نجتهم والله بما تعملون خبير .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٨٤/٦ . (٢) أخرجه البخاري في اللغة (٢٤٤١) وأحمد في مسنده (٧٤/٢) .
(٣) أخرجه مسلم في السلام (٣٧) والترمذي في السنن (٢٨٢٥) وأحمد في مسنده (١٨/٢) .

وفي الحديث المروي في السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، فكان الصحابة ﷺ يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق ﷺ يجلسه عن يمينه وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلي لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهما بذلك ، وعن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح متاكباً في الصلاة ويقول : « استوتوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليليني منكم أولو الأحلام والنهي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً ^(١) . وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يلبه العقلاء منهم والعلماء فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة .

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، وليتوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذرُوا فرجات للشياطين ، ومن وصل صفّاً وصله الله ، ومن قطع صفّاً قطعه الله » ^(٢) ولهذا كان أبي بن كعب سيد القراء إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفئدة الناس ، ويدخل هو في الصف للمقدم ويحتج بهذا الحديث : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهي » وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أوردناه ، ولتقتصر على هذا المقدار من التوضيح للمتلقي بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع . وفي الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهباً فقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخبر الثلاثة ؟ أما الأول فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الثاني فاستحميا فاستحميا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه » ^(٣) .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » ^(٤) وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا لِلَّهِ الْمَجْلِسَ فَتَسَبَّحُوا لِلَّهِ تَسْبِيحًا ﴾ يعني في مجالس الحرب .. قالوا : ومعنى قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا لِلَّهِ الْمَجْلِسَ فَتَسَبَّحُوا لِلَّهِ تَسْبِيحًا ﴾ أي إذا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا لِلَّهِ تَسْبِيحًا أي إذا دعيتهم إلى الصلاة فارتفعوا إليها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجا من عنده ، فرميا يشق ذلك عليه ، عليه الصلاة والسلام وقد تكون له الحاجة ، فأمرُوا أنهم إذا أمرُوا بالانصراف أن ينصرفوا .

وقوله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ دَرَجَاتٍ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ وَأُولَئِكَ يَتَرَفَعُونَ فِي الْحُجُرَاتِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي لا تحقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً في حقه بل هو رفعة ورتبة عند الله ، والله تعالى لا يضع ذلك له ، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ دَرَجَاتٍ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ وَأُولَئِكَ يَتَرَفَعُونَ فِي الْحُجُرَاتِ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٥٤٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٦٦٦) واللفظي في الرغيب والرغيب (٣١٩/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٧٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٣/٢) .

يقول الله تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن ، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين . ﴿ أَتَرَى إِلَى اللَّهِ لَبَّيًّا وَقُلُوبًا غَائِبَةً ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن ثم قال تعالى : ﴿ مَا هُمْ بِيُنَاقِبُ وَلَا يَنْتَهُم ﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَتَّبِعُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴾ يعني المنافقين يحلفون على الكذب ، وهم علمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس ، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياداً بالله منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا جاعوا الرسول حلفوا له بالله إنهم مؤمنون ، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان في نفس الأمر مطابقاً ، ولهذا شهد الله بكذبهم في آياتهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ لَمَّا أَتَاهُ ثَلَاثًا نَدَىٰ يَلْمِزُكَ مَا كُنَّا يُسْتَوِيْنَ ﴾ أي أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهي موالات الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين ، وغشهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَتَقْلَبُونَ آيَاتِنَا جُنَّةً فَصَلُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي اظهروا الإيمان وأبطئوا الكفر واتقوا بالآيمان الكاذبة ، فظن كثير من لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فَكَلِمَةً مِّنْ لَّدُنِّيْهِ ﴾ أي في مقابلة ما امتنعوا من الحلف باسم الله العظيم في الآيمان الكاذبة الخائنة ، ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَقْبَلْهُنَّ مِّنْ أَمْرِكُمْ لَئِنْ أَوَّلَيْتُمْ مِنْ أَمْرٍ شَيْئًا ﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ﴿ أَوَّلَيْتُمْ أَصْحَابَ النَّارِ ثُمَّ يَرْكَبُونَ خَيْلًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنْسِفُ اللَّهُ ذِيكَ ﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يباقر منهم أحداً ﴿ وَيَتَّبِعُونَ كَلِمَةَ رَسُولِهِمْ ﴾ أي يحلفون بالله ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهَدْيِ وَالْإِسْقَامَةِ ﴾ كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا ؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ولهذا قال : ﴿ وَتَسْبِيحُ رَبِّهِمْ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أي حلفهم بذلك لربهم .

ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فأكّد الخبر عنهم بالكذب . وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلّمه فقال « علام تشتمني أنت وفلان وفلان » نفر دعاهم بأسمائهم ، قال : فاطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فأنزل الله ﷻ ﴿ وَيَتَّبِعُونَ كَلِمَةَ رَسُولِهِمْ ﴾ (١) .

وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين حيث يقول ﴿ تَدْرُ تَرَكُنَّ يَنْتَظِرُ لَكَ أَلَّا تَأْتِيَهُمْ ﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ﷻ ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ، ولهذا قال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة » فإنما

يَأْكُلُ الذُّبَابُ الْقَاصِمَةَ ^(١) قال زائدة : قال السائب : يعني الصلاة في الجماعة . ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ رَجَبٌ لِلنَّبِيِّ ﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَزَبْنَا رَجَبَ الشَّيْطَانِ ثُمَّ لَمَنَّا ﴾ .

﴿ إِنَّا لَنَبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَتُوبُكُمْ فِي الْآذِينَ ^(٢) كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ أَنْتُمْ لَنَا وَرَسُولُكُمْ إِنَّكَ اللَّهُ تَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ ^(٣) لَا تَحْزَنْ قَوْمًا يَفُوتُونَ يَأْتُوا وَالْيَوْمَ الْآخِرَ يُؤَذِّنُونَ مَنْ حَكَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَكَوْنُوا مَعَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعَا عَنْهُمْ أَزْلًا إِنَّا جَزَبْنَا عَنْهُمْ لَلْفَلْحُورِ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين للمهاجرين لله ورسوله ، يعني الذين هم في حد والشرع في حد ، أي مجانبون للحق مشاقون له هم في ناحية والهدى في ناحية ﴿ أُولَئِكَ فِي الْآذِينَ ﴾ أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة . ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ أَنْتُمْ لَنَا وَرَسُولُكُمْ ﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل ، بأن النصر له ولكتابه ورسوله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ أَنْتُمْ لَنَا وَرَسُولُكُمْ ﴾ أي كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه ، وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ قَوْمًا يَفُوتُونَ يَأْتُوا وَالْيَوْمَ الْآخِرَ يُؤَذِّنُونَ مَنْ حَكَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَكَوْنُوا مَعَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أي لا يوادون المهاجرين ولو كانوا من الأقربين . قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية ﴿ لَا تَحْزَنْ قَوْمًا يَفُوتُونَ يَأْتُوا وَالْيَوْمَ الْآخِرَ يُؤَذِّنُونَ ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ، ولهذا قال عمر بن الخطاب ؓ حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة ؓ : ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته . وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَكَوْنُوا مَعَهُمْ ﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ في الصديق . هم يومئذ يقتل ابنه عبد الرحمن ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ .

قلت : ومن هذا القليل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أمارى بدر ، فأشار الصديق بأن يقاتلوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم ، وقال عمر : لا أرى ما رأى ، يارسول الله هل تمكنني من فلان قريب لعمر فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل وتمكن فلاناً من فلان ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين القصبة بكمالها . وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أي من انصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أي كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته . قال السدي : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ جعل في قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أي قواهم .

(١) أخرجه أبو طراد في السنن (٥٤٧) والقسائي في السنن (١٠٦/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَذِلُّهُمْ فِي أَيِّ غَلْبٍ يَنْصِبُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة ، وفي قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم . وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ رِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ رِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُتْلُونَ ﴾ أي هؤلاء حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته . وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ رِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُتْلُونَ ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ رِزْبَ الْكَافِرِينَ هُمْ لَهُمْ لَكُونُوا ﴾ .

وعن الذبيل بن عباد قال : كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري : اعلم أن الجاه جاهان : جاه يحجبه الله تعالى على أيدي أوليائه لأوليائه ، وأنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ : « إن الله يحب الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة » (١) فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله ﴿ أُولَئِكَ رِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ رِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُتْلُونَ ﴾ .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٩٨٩) والحاكم في المستدرک (٤/١) .

سورة الحشر

عن سعيد بن جبير : قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ، قال : سورة بني النضير ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ شَانِئَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَلْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرَجُونَ يُرِيدُهُمْ وَالْيَهُودُ وَيَأْكُلُ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ٢ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْبِلَاءَ لَمَا دُفِنَ فِي الْأُتُنِ وَلَكِنَّ فِي الْأُخْرَىٰ عَذَابَ الْكَافِرِ ٣ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ مَا أَتَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ يَسَارٍ إِنَّ اللَّهَ يَكُونُ الْغَاقِبَ ٤ مَا تَقَطَّعَتْ مِنْ إِيْنِهِ أَوْ تَكُونُوا قَائِمَةً عَلَىٰ أَرْسُلِهَا فَاذْنِ اللَّهُ وَيُخْرِجِ الْفَاسِقِينَ ٥ .

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدهس ويصلي له ويوحده . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي منيع الجناب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي قدره وشرعه . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني يهود بني النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد . كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له ، وأنزل عليهم قضاه الذي لا يصد ، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانتهم من بأس الله ، فما أغشى عنهم من الله شيئاً وجاعهم من الله ما لم يكن بيالهم ، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أفرعات من أعالي الشام ، وهي أرض الحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخرجون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُخْرَجُونَ بِبُيُوتِهِمْ وَيَأْكُلُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يضره له في الآخرة من العذاب الأكبر .

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل رجعة بدر : إنكم أدنيتم صاحبنا وأنا نقسم بالله لنقاتله ، أو لنخرجكم ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى تقتل مقاتلتكم ونسي نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش فكاتب كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٣) .

وبين خدم نساكم شيء وهو الخلاخيل ، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أيقنت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك ليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان النصف ، وليسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتاب فحصرهم فقال لهم : « إنكم والله لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه » فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتاب وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتاب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها فقال تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ يَتَّبِعُ مَا أُوحِيَ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَلَا يَكُفُّ وَكَذَلِكَ يَقُولُ ﴾ بغير قتال ، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار ، وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة ^(١) . ولندكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وبالله المستعان .

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بدر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا سبعين وأقلت منهم عمرو بن أمية الضمري ، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتل رجلين لأدبهما » وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد ، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذبلك الرجلين ، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقها .

قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذبلك القتيلين من بني عامر اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان ، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذبلك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت بما امتنعت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدلوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يملو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال : أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ﷺ فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة .

فلما استلبت النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسأوه عنه ، فقال : رأيته داخل المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادوا من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٠٠٤) .

منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها ، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعييه على من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ، وقد كان رهط من بني عوف بن الحزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ووديعه ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اتبوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتهم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، فقفذ في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعلوا ، فاحتملوا عن أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة - سمالك بن خرشة - ذكرا قترا فأعطاهما رسول الله ﷺ ، قال : ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شائي ؟ » فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها بقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ يعني بني النضير ﴿ يَنْبِئُكَ لِيَوْمِ ذَلِكَ بَعْضُ الَّذِي كُتِبَ فِي الْكِتَابِ ﴾ من شك في أن أرض الحشر ههنا يعني الشام - فليقرأ هذه الآية ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض الحشر » وقوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجَ ﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقدرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَثُرُوا أَكْثَرَ مِمَّا كَانُوا ﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال . وقوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أي الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصروهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿ يَخْرُجُونَ فِي يَوْمٍ بَئِيسٍ وَأَكْبَرَ ﴾ وهو نقض ما استحسنته من سقوطهم وأبوابهم وتحملها على الإبل ، وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال ، وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا بِأَعْيُنِنَا ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبْنَا فِي آثَانِهِمْ ﴾ أي لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم ؛ لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم . عن عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن

إسحاق : كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وعن عروة أنه قال : كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر ^(١) .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَكُمْ رَسُولٌ عَلَيْهِمْ مِمَّا أُوْحِيََتْ عَلَيْهِمْ مِنْ خَبْرٍ وَلَا رُكُوبٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تَا لَّهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلْيَبْذِرُوا أَرْسُلَهُمْ بِالنَّارِ وَالسَّيْفِ وَأَنْتَ السَّابِقُ دُونَ ذَلِكَ بَيْنَ الْأَنْفِيَّةِ وَنَعْمَ عَلَيْكُمْ الْأَرْسُلُ فُحْشُهُ وَمَا تَنْهَكُم عَنْهُ فَأَنْهَوْا إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ﴾ .

يقول تعالى مبتدأ ما النفي وما صفة وماحكمه ، فالنفي كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب ، كأموال بني النضير هذه فإنها مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصالحة بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاده الله على رسوله ، ولهذا تصرف فيه كما يشاء ، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات فقال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَكُمْ رَسُولٌ عَلَيْهِمْ مِمَّا أُوْحِيََتْ عَلَيْهِمْ مِنْ خَبْرٍ وَلَا رُكُوبٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء .

ثم قال تعالى : ﴿ تَا لَّهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أي جميع البلدان التي فتحت هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلْيَبْذِرُوا أَرْسُلَهُمْ بِالنَّارِ وَالسَّيْفِ وَأَنْتَ السَّابِقُ دُونَ ذَلِكَ بَيْنَ الْأَنْفِيَّةِ وَنَعْمَ عَلَيْكُمْ الْأَرْسُلُ فُحْشُهُ وَمَا تَنْهَكُم عَنْهُ فَأَنْهَوْا إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ﴾ عن عمر ؓ قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وقال مرة : قوت سنته وما بقي جمعه في الكراع والسلاح في سبيل الله ﷻ ^(٢) . وعن مالك بن أوس قال : أرسل إلي عمر بن الخطاب ؓ حين تعالى النهار فجنه فوجدته جالسا على سرير مفضيا إلى رماله فقال حين دخلت عليه : يا مالك إنه قد دف أهل أبيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشيء فاقسم فيهم ، قلت : لو أمرت غيري بذلك ، فقال : خذته ، فجاءه يرفأ ، فقال : يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والوزير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفأ فقال : يا أمير المؤمنين هل لك في العباس وعلي ؟ قال : نعم ، فأذن لهما فدخلوا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا يعني عليا ، فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرحهما ، قال مالك بن أوس : خيل إلي أنهما قدما أولئك النفر لذلك ، فقال عمر ؓ : اتهد ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذي ياذنهم تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » قالوا : نعم . ثم أقبل على علي والعباس فقال : أنشدكما بالله الذي ياذنهم تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة ؟ » فقالا : نعم . فقال : إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحدا من الناس فقال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَكُمْ رَسُولٌ عَلَيْهِمْ مِمَّا أُوْحِيََتْ عَلَيْهِمْ مِنْ خَبْرٍ وَلَا رُكُوبٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في المنازي (باب حديث بني النضير) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/١) .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة ، ويجعل ما بقي أسوة المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذي ياذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم .

ثم أقبل على علي والعباس فقال : أنشدكما بالله الذي ياذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان ذلك ، قالوا : نعم . فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر : أنا ولي رسول الله ﷺ ، فبحث أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم إنه لصديق بار راشد تابع للحق فولياها أبو بكر ، فلما توفي قلت : أنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر فوليتها ما شاء الله أن أبيها ، فبحث أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتماها ، فقلت : « إن شئتما فأنأ أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذي كان رسول الله له يليها ، فأخذتماها مني على ذلك ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك والله لا أقضي بينكما بغير ذلك ، حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها فرداها إلي (١) .

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : إن الرجل كان يجمل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فضحت عليه قريظة والنضير ، قال فجعل يرد بعد ذلك ، قال : وإن أهلي أمروني أن أتني النبي ﷺ فأسأله الذي كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن أو كما شاء الله قال : فسألت النبي ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وجعلت تقول : كلا والله الذي لا إله إلا هو لا يعطيكهن وقد أعطانيهن ، أو كما قالت فقال نبي الله : « لك كذا وكذا » قال وتقول كلا والله قال ويقول « لك كذا وكذا » قال : وتقول : كلا والله ، قال : « ويقول لك كذا وكذا » قال : حتى أعطاهما - حسبت أنه قال : عشرة أمثاله أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال (٢) . وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هي للمصارف المذكورة في خمس الغنيمة .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إما يأمر بخير وإما ينهى عن شر . عن عبد الله هو ابن مسعود قال : لعن الله الواشحات والمستوشحات والمتصمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ﷻ ، قال : فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها : أم يعقوب ، فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك قلت كيت وكيت ، قال : ما لي لا ألين من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى ، فقالت إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأته فقد وجدته أما قرأت : ﴿ وَمَا تَأْتِيكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ قالت : بلى . قال : فإن رسول الله ﷺ نهى عنه . قالت : إني لأظن أهلك

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠/١) والبخاري في الاختصاص (٧٣٠٥) وأبو حنبل في السنن (٢٩٦٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٣) .

يفعلونه ، قال : اذهبي فانظري فلعبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئاً ، قال : لو كان كذا لما جمعتنا ^(١) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » ^(٢) . وعن عمر وابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدباء والحتم والنكير والمزفت ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا أَمَّاكُمْ أَن تَبَدُّوا وَمَا نَهَاكُمْ أَن تَبَدُّوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجه فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتاب ماعنه زجره ونهاه .

﴿ يَلْقَاكَ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَّقُونَ فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَنِعْمَةً اللَّهُ وَرِضْوَانُهُ أَوْلَىٰ لَكَ مِنْ أَتَمِّكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴾ ^(٣) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَكُونُونَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي شُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا فَقَوْلِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ^(٤) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا لَعَلَّنَا نَفْعُكَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَكُونُونَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ مِمَّا أُوتُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مبيّناً حال الفقراء المستحقين لمال الغنياء أنهم ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَّقُونَ فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَرِضْوَانُهُ أَوْلَىٰ لَكَ مِنْ أَتَمِّكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين . ثم قال تعالى مادحاً للأَنْصَار ومبيّناً فضلهم وشرفهم وكرمهم ، وعدم حسدهم وإثارةهم مع الحاجة فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وأمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأَنْصَار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم ^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ يَكُونُونَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا في المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ما أنتمم عليهم ودعوتهم الله لهم » ^(٦) . وعن أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال دعا النبي ﷺ الْأَنْصَار أن يقطع لهم البحرين . قالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثله ، قال : « إما لا فاصبروا حتى تلقوني ، فإنه سيصيبكم أثرة » ^(٧) . ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي شُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة . قال الحسن البصري : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي شُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعني الحسد ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ قال قتادة : يعني فيما أعطي إخوانهم وما يستدل به

(١) أخرجه البخاري في الباس (٥٩٤٣) ومسلم في الباس (١٢٠) وأحمد في مسنده (٤٣٣/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الاضطرار (٧٢٨٨) ومسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٥٠٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٨) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٠/٣) .

(٥) أخرجه البخاري في مناقب الْأَنْصَار (٣٧٩٤) .

على هذا المعنى ما رواه أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني لا حيث أبي فأقسمت أنني لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال « نعم » .

قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أنني لم أسمعهم يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله لم يكن يبني وبين أبي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث للمرات ، فأردت أن أوي إليك لأنظر ما عملك فأقضي به ، فلم أرك تعمل كبير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعائي فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تنطق ^(١) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْذَرُونَ فِي صَلَاتِهِمْ حِجَابًا مِمَّا أَوْثَرًا ﴾ يعني مما أوثر المهاجرون ، قال : وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ فَتَهْتَكُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِنَّهٗ كَانَ خَبِيرًا ﴾ ^(٢) قال : وقال رسول الله ﷺ : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » فقالوا : أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » قالوا : وما ذلك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » فقالوا : نعم يا رسول الله ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكُلَّ حَاجَةٍ ﴾ يعني حاجة أي يقدمون المحاويع على حاجة أنفسهم ويدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل » ^(٤) وهذا المقام أعلى من حال الدين وصف الله بقوله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ أَلْفَ مِائَةٍ ﴾ ، وقوله ﴿ وَيَأْتِي الْكَلَامَ عَلَى حَيْدٍ ﴾ ، فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون مائدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء أثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ، ومن هذا المقام تصدق الصديق ﷺ بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » فقال ﷺ : أبقيت لهم الله ورسوله ^(٥) ، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٣) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٥٤/٢٨) .

(٣) ذكره الألباني في إرواء الغليل (٤١٤/٣) . والصحيحة (٥٦٦) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٣٦٧٥) وأبو داود في السنن (١٦٧٨) . والمقام في المستدرک (٤١٤/١) .

حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ﷺ وأرضاهم .

وعن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال النبي ﷺ : « ألا رجل يضيف هذا الليلة ﷺ ؟ » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخره شيئا ، فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهن ، وتعالني فأطعني السراج ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : « لقد عجب الله ﷻ - أو ضحك - من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى : ﴿ وَنُؤَيِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَوْكَانَ يَوْمَ حَسْبَهُمْ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤَخِّرْ شَيْءَ تَقْيِيدِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِفُونَ ﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . فمن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم ؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » ^(٢) .

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا » ^(٣) وعن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت ، فقال له عبد الله : وما ذاك ، قال : سمعت الله يقول ﴿ وَمَنْ يُؤَخِّرْ شَيْءَ تَقْيِيدِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِفُونَ ﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من بدي شيئا ، فقال عبد الله : ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن ، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما ، ولكن ذلك البخل ، وبس الشيء البخل . وعن أبي الهياج الأسدي قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول : اللهم قني شح نفسي . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فراقهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان فالتابعون لهم بإحسان هم التابعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية ، ولهذا قال تعالى : في هذه الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أي قائلين ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أي بغضا وحسدا ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب ، لعدم انصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٩) ومسلم في الأشربة (١٧٣) والحاكم في المستدرک (١٣٠/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٣) والحاكم في المستدرک (١١/١) والآلباني في الصحيحة (٣٣٩/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٣٣) والبيهقي في السنن (١٣/٦) وابن ماجه في السنن (٢٧٧٤) والحاكم في المستدرک (٧٢/٢) .

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا إِعْلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

وعن عائشة قالت : أكرمتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسيبتهم سمعت نبيكم ﷺ يقول : « لا تنهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » ^(١) قال عمر رضي الله عنه : هذه لرسول الله ﷺ خاصة وقرى عربية وكذا وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل - وللقراء المهاجرين الذي أخرجوا من ديارهم وأموالهم - والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم - والذين جاءوا من بعدهم ، فاستوعبت هذه الآية الناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق . إلا بعض من تملكون من أرقائكم ^(٢) . وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ إِنَّمَا السَّبْتُ لِلْفَقِيرِ وَالسَّكِينِ ﴾ - حتى بلغ - ﴿ عَلَيْهِ سَكِينٌ ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ وَاتْلُوا مَا أَنزَلْنَا مِنْ خَمْسَةِ آيَاتٍ يُخَوِّفُ فِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يُذَكَّرُونَ ﴾ الآية . ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ تَا اللَّهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ وَلِلَّهِ الْقُرَى وَلِلَّهِ الْفَرَقُ ﴿ - حتى بلغ ﴿ وَالَّذِينَ يَبُوءُونَ مِنَ الْإِيمَانِ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ - ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا وله فيها حق ، ثم قال : لمن عشت ليأتين الراعي وهو يسرو حمير نصيبه فيها لم يهرق فيها جيبه ^(٣) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُظِيعَ فِيكُمْ أَمَةً أَبَدًا ذَٰلِكُمْ قَوْلُهُمْ لِتَنصَرِكُمْ وَاللَّهُ يَتَذَكَّرُ بِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصَرِفُ لَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ الْأَظْفَارُ شُرَّ لَا يَنْصَرِفُ ﴿١٩﴾ لَئِنْ أُشْتُ رَجَعَتْ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَتَّقُونَ ﴿٢٠﴾ لَا يَخْلُوفُكُمْ جَيْمًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُخَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَدَّ جُنْدٍ بِأَسْمِهِ يَنْتَهِي سَبِيحٌ تَحْسِبُهُمْ جَيْمًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢١﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَبِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ عَادَتْ آيَةُ ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَعْثُهُ إِلَيْكَ رَسُولٌ وَاللَّهُ رَبُّ السَّالِكِينَ ﴿٢٣﴾ فَكَانَ عَذَابُهُمْ أَثَرًا فِي السَّابِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُظِيعَ فِيكُمْ أَمَةً أَبَدًا ذَٰلِكُمْ قَوْلُهُمْ لِتَنصَرِكُمْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَتَذَكَّرُ بِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيههم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصَرِفُ لَهُمْ ﴾ أي لا يقاتلون معهم ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ لَيُؤْلِكَنَّ الْأَظْفَارُ شُرَّ لَا يَنْصَرِفُ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها ، ثم قال تعالى : ﴿ لَئِنْ أُشْتُ رَجَعَتْ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنُفِئَنَّ بَنِيَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ أَسْتَفْزِجَهُمْ ﴾ ولهذا

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٣/٢) وابن أبي شبة في مصنفه (١٢٥/١٥) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٣٧/٧) .

(٣) أورده الطبراني في تفسيره (٤٨/٢٨) والسويسي في الدر المنثور (١٠٧/٧) وعزله إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وغيرهم .

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال : « فجاء قوم حفاة عراة مجتاني النمار أو البهائم مقلدي السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة قال : فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَنُفْسٍ وَكَلَّفَ .. ﴾ إلى آخر الآية وقرأ الآية التي في الحشر ﴿ وَتَنْظُرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِنْفُسِهَا ﴾ تَصَلِّقُ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ ذِرْوَيْهِ مِنْ نُؤْيِهِ مِنْ صَبَاحِ بَرْءٍ مِنْ صَبَاحِ تَمْرِهِ ﴾ حتى قال : « وَلَوْ يَشِيقُ تَمْرُهُ ﴾ قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت رسول الله ﷺ يتהלل وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شَيْئاً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شَيْئاً سَيِّئاً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ، وَوِزْرُهُمْ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ يَتَكَلَّمُ الَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبُهُمْ ﴾ أمر بقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَنْظُرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِنْفُسِهَا ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تأكيد ثان ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْفُرُوا كَافِرِينَ سَوَاءٌ اللَّهُ فَانْسَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ . أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم . عن نعيم بن نعمة قال : كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله ﷻ فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ﷻ ، إن قرئتم جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله ﷻ أن تكونوا أمثالهم ﴿ وَلَا تَكْفُرُوا كَافِرِينَ سَوَاءٌ اللَّهُ فَانْسَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أي من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تغني عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله تعالى أتى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّسْجَبَاتٍ لَمْ يَوْعِبْنَاهُ لَمْ يَحْزَنْ وَأَسْلَمْنَا لَهُ لَمْ يَتَسَكَّمْ لِحُتْمِهِمْ كَاثِرًا بِشَيْءٍ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَذْكُرُكَ رَبِّكَ وَهَيْبًا وَكَأَنَّ لَنَا عَذُوبَاتٌ ﴾ لا خير في قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَحَبَّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ ﴾ أي : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ لَمْ يَحْزَنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَسَوْا كَالَّذِينَ آمَنُوا وَمِلُوا لِلَّذِينَكَ سَوَاءٌ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٢/٤) ومسلم في الزكاة (٦٩) والطبراني في الكبير (٣٧٤/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠/٨) .

يَتَكَلَّمُونَ وَمَعَهُمْ سَكَنٌ مَا يَتَكَلَّمُونَ ﴿٢١﴾ وهناك آيات أخر حالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار ويهين الفجار ولهذا قال تعالى مهنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْقَائِمُونَ ﴾ أي الناجون المسلمون من عذاب الله ﷻ .
﴿ تَوَرَّكُمَا هَكَذَا الْقَرْنَانِ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشْيَةً مَشْيَدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَقَالَ الْأَمْتَلُ نَصْرِيهَا لِلنَّاسِ لَمْ لَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ هو الله الذي لا إله إلا هو عليه القريب والشهيد هو الرحمن الرحيم ﴿٢٣﴾ هو الله الذي لا إله إلا هو الذي القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر شبحن الله عما يشركون ﴿٢٤﴾ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿٢٥﴾ .

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن وميثا علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد : ﴿ تَوَرَّكُمَا هَكَذَا الْقَرْنَانِ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشْيَةً مَشْيَدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ . أي : فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه فيه إخشاع وتصدع من خوف الله ﷻ ، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلتن قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْأَمْتَلُ نَصْرِيهَا لِلنَّاسِ لَمْ لَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ تَوَرَّكُمَا هَكَذَا الْقَرْنَانِ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشْيَةً مَشْيَدًا ﴾ إلى آخرها يقول : لو أتي أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من نقله ومن خشية الله فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْأَمْتَلُ نَصْرِيهَا لِلنَّاسِ لَمْ لَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ وثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع للمسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكن لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده . ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراد : فأنتم أحق أن تشاققوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع .

وهكذا هذه الآية الكريمة : إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقِيَمُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقيق وصغير وكبير حتى الدر في الظلمات . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحِمَتِي الْأَشْيَاءُ الْمَتْرُوفُ فِيهَا بِلَا مَنَاعَةٍ وَلَا مَدَافَعَةٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ : أي الطاهر ، وقيل : تقدسه الملازمة الكرام ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكمال في ذاته وصفاته وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي : أؤمن خلقه من أن يظلمهم . وقيل : أؤمن بقوله إنه حق . وقيل : صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي الشاهد على خلقه بأعمالهم ،

بمعنى هو رقيب عليهم . وقوله تعالى : ﴿ الْمَزِيدُ ﴾ أي الذي قد عُرِ كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنباه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ولهذا قال تعالى : ﴿ الْبَيِّنَاتُ الْمُنْكِرُ ﴾ أي : الذي لا تليق الجبرية إلا له ولا التكثير إلا لعظمته كما تقدم في الصحيح : « الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكَثْرَةُ رِدَائِي ، فَتَنْ تَارَعْنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَدْلُهُ » ^(١) . وقال قتادة : الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : ﴿ الْبَيِّنَاتُ ﴾ المصلح أمور خلقه ، والمتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : ﴿ الْمُنْكِرُ ﴾ يعني عن كل سوء . ثم قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَ أَفْوَعًا يَتْرِكُونُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ الخالق : القدير والبرء هو : الفري وهو التفتيل وإبراز ما قدره وقوره إلى الوجود وليس كل من قدر شيئا ورتبه على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار ، ولهذا قال : ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي ينفذ ما يريد لإيجاده على الصفة التي يريدها وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْأَشْكَاءُ الْمُسْتَقَرَّةُ ﴾ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ مِائَةً أَسْمَاءً إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا كَخَلِّ الْجَنَّةِ ، وَهُوَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوِثَرَ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا مِنْ خَلْقٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ إِنْ كَانَ حَيْثُما فَهُوَ ﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْمَزِيدُ ﴾ أي فلا يرام جنباه ﴿ الْمَزِيدُ ﴾ في شرعه وقدره . عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يُصَبِّحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِاللَّهِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، ثُمَّ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمَيِّسَ ، وَإِنْ تَأَتَّى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ثَمَاتٌ شَهِيدًا ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمَيِّسُ كَانَ يَتْلُكَ الْمَثَرَةُ » ^(٣) .

(١) أخرجه أبو حنيفة في البياض (٤٠٩٠) وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤) وأحمد في مسنده (٣٧٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٦) وأحمد في مسنده (٢٥٨/٢) والحاكم في المستدرک (١٦/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٥) والترمذي في السنن (٢٩٢٢) والبيهقي في الخريب والتهريب (٤٧٧/١) .

سورة المتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْجَدُوا عَنْدِي وَعَذَّبْتُكُمْ أُولَئِكَ تَلْفُوتُونَ إِلَيْهِمْ وَأَلْوَدَّ أَنَّكُمْ مِمَّنْ خَجَدْتُمْ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَلَفُونَ وَأَنَا اللَّهُ الْعَلِيمُ﴾^(١) **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** .

كان سبب نزول من هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة فمن عبيد الله بن أبي رافع أنه سمع علياً عليه السلام يقول : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طليعة معها كتاب فخذوه منها » ، فانطلقنا تعادى بنا خليفاً حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظليعة ، قلنا : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب ، قلنا : لتخرجي الكتاب أو لتلقين النياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقابها ، فأنزلنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ما هذا ؟ » . قال : لا تعجل علي إني كنت امرأة ملصقة في قريش ولم أكن من أنفسهم . وكان من مكن من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ صَدَقَكُمْ » . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يَذْرُوكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَوْتُ لَكُمْ »^(٢) . فأنزل الله السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْجَدُوا عَنْدِي وَعَذَّبْتُكُمْ أُولَئِكَ

وقد ذكر ذلك أصحاب المغازي والسير فقال محمد بن إسحاق بن يسار فيما يرويه عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم ثم أعطاه امرأة ، زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم غيره أنها سارة مولاة لبني عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبقيه لقريش فجعلته في رأسها ثم فلتت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام فقال : « أَدْرِكَا اثْرَهُمَا قَدْ كَذَبَ مَعَهَا حَاطِبٌ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُخَذِّلُهُمْ مَا قَدْ أَجْمَعْنَا لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ » فخرجنا حتى أدركاها بالخليفة خليفة بني أبي أحمد فاستنزاهما بالخليفة فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها علي بن أبي طالب : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ وما كذبنا ولتخرجي لنا هذا الكتاب أو لتكشفنك ، فلما رأته الجلد منه قالت : أعرض ، فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٠) ومسلم في الفضائل (١٦١) وأحمد في مسنده (٧٩/١) وإبراهيم في السنن (٣٣٠٥) وروضة خاخ : موضع بين الحرمين يهرب صحرار الأسد من المدينة (انظر معجم البلدان) والعقاص : حيط تشد به المرأة أطراف ذرايعها .

به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا فقال : « يَا حَاطِبُ مَا خَعَلَكَ عَلَى هَذَا ؟ » . فقال : يا رسول الله أما والله إني مؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت ولكنني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني فلا ضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ ؟ » . فأنزل الله ﷻ في حاطب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَدُوَّيْكُمْ وَعَدُوَّكُمْ أُولَئِكَ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمَا نَبُذْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَذَبَا يُكَذِّبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ السَّيِّئَةُ الرَّاسِخَةُ أُولَئِكَ قَوْمٌ فُتِنُوا وَإِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ (١) .

وعن حذيفة يقول : ضرب لنا رسول الله ﷺ واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال : فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرهما قال : « إِنْ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَشْكَنَةٍ قَاتِلُهُمْ أَهْلُ تَجَوُّرٍ وَعِزٍّ ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ ، فَتَعَدُّوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاشْتَعَلُوا رُءُوسَهُمْ وَسَلَطُوا فَاشْتَعَلُوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ يُلْقَوْنَهُ (٢) . » . وقوله تعالى : ﴿ يَتَّبِعُونَ آيَاتَ رَسُولٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُ مِنْ فَهْمٍ ﴾ . هذا مع ما قبله من التهيج على عدائهم وعدم موالاتهم ؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَا أَيْدِي رَسُولِكُمْ ﴾ أي : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ حَرَسْتُمْ جَهَنَّمَ فِي سِتْوَةِ لَيْلَةٍ مَسْرُورِينَ ﴾ أي : إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا تتوالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حقاً عليكم وسخطاً لدينكم . وقوله تعالى : ﴿ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ أَنْ تَقُولُوا بِنَا كُفْرُكُمْ وَمَا عَلَّمْتُمْ ﴾ أي : تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر . ﴿ وَنَنْ يَفْعَلَهُ مِنْكُمْ فَقَدْ مَلَ سَوَاءَ الْبَيْتِ ﴾ (٣) . إِنْ يَفْعَلُكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَهْلَةً وَيَسْطَرُوا بِإِيَّتِكُمْ لَيْلِيَةً وَاللَّيْلِيَّةُ يَأْتِيهِمْ يَأْتِيهِمْ . أي : لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وَيَوْمَآ تَوَّكَفَّرُونَ ﴾ أي : ويحرمون على أن لا تتألوا خيراً فهم عدائهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهيج على عدائهم أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنصَحْتُمْ أَرْبَابَكُمْ وَلَا أَنْفُسَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْعَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَمْلُونَهُ بَصِيرٌ ﴾ أي : قراياتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً ونفعهم لا يصل إليكم إذا أراضيتهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرايته من أحد ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء . عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال : « فِي النَّارِ » . فلما قفى دعاه فقال : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ » (٤) . ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمَا نَبُذْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَذَبَا يُكَذِّبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ السَّيِّئَةُ الرَّاسِخَةُ أُولَئِكَ قَوْمٌ فُتِنُوا وَإِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ (٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/٥) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤٠/٤ - ٤١) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٧) وأحمد في مسنده (١٧٧/٣) وابن ماجه في السنن (١٥٧٣) والبيهقي في السنن (١٩٠/٧) .

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاجْعَلْنَا قَرَارًا لَكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْكَافِرُ ﴿٢﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَنَزَلَ بِهِ اللَّهُ الْفَتْحَ الْكَبِيرَ ﴿٣﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي الزَّوْجِ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا لِيُؤْتِنَا إِثْرًا يُرْمَوْا مِنْكُمْ﴾ أي تبرأنا منكم ﴿وَمَا تَقْدِرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَثَرًا يُكْرَهُ﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿وَبَيْنَا وبينكم الْمَدَارُ وَالْمُنَافَاةُ﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتما على كفركم ، فنحن أبدا نبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّى تَقُولُوا لِلَّهِ عَدُوٌّ﴾ أي : إلى أن توحدوا الله فعبده وحده لا شريك له تخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد . وقوله تعالى : ﴿إِلَّا قَوْلَ الْكَافِرِ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَا يَرْجُوا لِقَاءَهُ﴾ أي : لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه ؛ فإنه إما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآلهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأقول الله عفو : ﴿مَا كَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ وَلَوْ سَأَلُوا أَهْلَ عِلْمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَمَنْ أَصْحَابُ الْحَبِيرِ﴾ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن مؤجبه وعذما إيمانه فلما تبين لله أكثر عذره لله تبرأ منه إلى إبراهيم لأبيه عذره . وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي الزَّوْجِ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي قائلوا ليقربهم إنا برءوا منكم إلى قوله تعالى : ﴿إِلَّا قَوْلَ الْكَافِرِ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَا يَرْجُوا لِقَاءَهُ﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار للمشركين .

ثم قال تعالى مخبرا عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرأوا منهم ، فلبجأوا إلى الله وتضرعوا إليه : فقالوا ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي : توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي المعاد في الدار الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ، وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتنوا بذلك ؛ يرون أنهم إما ظهروا علينا لحقهم عليه . واختاره ابن جرير ، وقال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله تعالى : ﴿وَاجْعَلْنَا قَرَارًا لَكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْكَافِرُ﴾ أي : وامر ذنوبنا عن غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ﴾ أي الذي لا يضام من لاذ بجنابك ﴿لَتَكْفُرُ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك . ثم قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضا ؛ لأن هذه الأسوة الحسنة ههنا هي الأولى بعينها ، وقوله تعالى : ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تهيج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد . وقوله تعالى ﴿وَنَزَلَ بِهِ اللَّهُ الْفَتْحَ الْكَبِيرَ﴾ عن ابن عباس : الذي قد كمل في غناه وهو الله هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفؤ وليس كمثل شيء ، سبحانه الله الواحد القهار ، و ﴿لَتَكْفُرُ﴾ المستحمد إلى خلقه أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ مِنْكُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَوِيٌّ دَائِمٌ عَلَيْهِمْ رَحِيمٌ﴾ لا يهتكركم الله عن الذين

لَمْ يَتَّبِعُواكَ فِي الْآيِينَ وَكَرَّ يَتَّبِعُونَكَ مِنْ يَدَيْكَ وَأَنْ تَبْرَهُمْ وَيَقْبِضُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الْآيِينَ قَتْلَوْلَكُمْ فِي الْآيِينَ وَلَكِنَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَظَنُّوا أَنَّ يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ وَمَنْ يَتَّبِعْ فَلْيُتَّبِعْ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴿٦﴾ .

يقول تعالى لعباد المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْآيِينَ مَوَدَّةً بَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ ﴾ أي محبة بعد البغضة ومودة بعد النفرة وألفة بعد الفرقة ﴿ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ ﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقسوة فتصبح مجمعة متفقة ، كما قال تعالى ممثلاً على الأنصار : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا يَتَّبِعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَأَزِيدْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الآية . وكذا قال لهم النبي ﷺ : « أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَذَا كُمْ اللَّهُ بِي وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي ١ » (١) . وفي الحديث : « أُحْبِبْتُ حَبِيبَكَ هُوَذَا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَا » (٢) . وقال الشاعر :

وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَيْنِ بَعْدَنَا يَهْطِلَانِ كُلُّ الظَّنِّ أَنَّ لَا تَلَاقِيَا

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأتوا إلى ربهم وأسلموا له وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب كان .

قال مقاتل بن حيان : إن هذه الآية نزلت في أبي سفيان صخر بن حرب ، فإن رسول الله ﷺ تزوج ابنته فكانت هذه مودة ما بينه وبينه ، وفي هذا الذي قاله مقاتل نظر ؛ فإن رسول الله ﷺ تزوج بأُم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف ، وأحسن من هذا ما رواه ابن شهاب أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان صخر بن حرب على بعض اليمن فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل فلقي ذا الحمار مرتباً فقاتله ؛ فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين ، قال ابن شهاب : وهو ممن أنزل الله فيه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْآيِينَ مَوَدَّةً بَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الْآيِينَ لَمْ يَنْهَكُمْ فِي الْآيِينَ وَكَرَّ يَتَّبِعُونَكَ مِنْ يَدَيْكَ وَلَمْ يَظْهَرُوا أَيْ : يعانوا على إخراجكم أي : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿ أَنْ تَبْرَهُمْ ﴾ أي : تحسنوا إليهم ﴿ وَيَقْبِضُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أي تعدلوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ . عن أسماء بنت أبي بكر ؓ قالت : قدمت أُمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأثبت النبي ﷺ ققلت : يا رسول الله إن أُمي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : « نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وقد ورد في الحديث الصحيح : « الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنَازِلٍ مِنْ نُورٍ عَنِ عَرْشِ الْعَرْشِ ؛ الَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَمَا زَلُوا » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الْآيِينَ قَتْلَوْلَكُمْ فِي الْآيِينَ وَلَكِنَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَظَنُّوا أَنَّ يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ ﴾ أي : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة قاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ينهاكم الله ﷻ عن موالاة الذين ناصبوكم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاةهم فقال :

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٣٤٧/٦) والبخاري في الوفاء (٢٦٢٠) ومسلم في الزكاة (٥٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) وإلحاقه في المستدرک (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) .

رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ﷺ فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردها إليه بالنكاح الأول ولم يحدث لها صداقاً . ومنهم من يقول بعد ستين وهو صحيح ؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمين على المشركين بستين .

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدلتها منه ؛ لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه . وقال آخرون : بل إذا انقضت العدة هي بالخيار إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عباس وألله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَنَّهُمْ مَا اتَّفَقُوا ﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجُزَّ عَيْنُكُمْ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِي إِيَّانَ يَأْتِيَنَّكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني إذا أعطيتهم من أصدقتهم فأنكحوهن أي تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي مَتَابِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ تحريم من الله ﷻ على عباده المؤمنين نكاح للمشركات والاستمرار معهن .

عن المسور ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ التَّوْبَتُ مَبِيعَتِي ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي مَتَابِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية ^(١) . وعن الزهري : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم فلما جاء النساء نزلت هذه الآية وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن وحكم على المشركين مثل ذلك ؛ إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى أزواجهن وقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي مَتَابِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ . قال الزهري : طلق عمر يومئذ قريية بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرجول الخزاعية وهي أم عبد الله فتزوجها أبو جهم ابن حذيفة بن غاثم رجل من قومه وهما على شركهما ، وطلق طلحة بن عبد الله أروى بنت ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص . .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَنَزَّلُ مَا أَتَيْنَكُمْ لَنَبَيِّنَنَّ لَكُمْ مَا أَتَيْنَكُمْ ﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين . وقوله تعالى : ﴿ يَكْفُرُ كُفْرًا أَتَوْا بِكُمْ بِمَكْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله ﷻ يحكم به بين خلقه ﴿ وَأَلَّهَ عِلْمُ حَكِيمٍ ﴾ أي عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْكُفْرَ فَاصْبِرُوا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَافِقَةِ ﴾ قال مجاهد وقادة : هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها . وقال الزهري : أقر المؤمنون بحكم الله ﷻ فأتوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله ﷻ فيما فرض عليه من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله تعالى للمؤمنين به : ﴿ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْكُفْرَ فَاصْبِرُوا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَافِقَةِ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١) وأحمد في مسنده (٢٣١/٤) .

أَتَزِيغُكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا يَقْتَضِي فَتَنَّاوُا الزَّيْغَ دَخَبَتْ أَعْيُنُهُمْ فِثْلَ مَا اتَّفَقُوا وَاللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين رد المؤمنين إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي أمرن وهاجرن ، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم ، والعقب ما كان بقي من صدق نساء الكفار حين أمرن وهاجرن . ﴿فَمَا يَقْتَضِي﴾ أصبغت غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿فَتَنَّاوُا الزَّيْغَ دَخَبَتْ أَعْيُنُهُمْ فِثْلَ مَا اتَّفَقُوا﴾ يعني مهر مثلها . وهذا لا ينافي الأول ؛ لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار ، وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير والله الحمد والمنة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ بِمَا يَمْسِكُهُ عَنْ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِأَقْرَبِيَّتِكُمْ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُتَهَنِّاتٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَلَا يَكُونَنَّ رِجَالُهُنَّ وَأَسْفُهُنَّ فَاسْتَشِيرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ بِمَا يَمْسِكُهُ عَنْ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِأَقْرَبِيَّتِكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : « قَدْ بَاتَيْتُكِ » كلاماً ، ولا والله ما مسلت يده يد امرأة في المباينة قط ، ما يباح من إلا بقوله : « قَدْ بَاتَيْتُكِ عَلَى ذَلِكَ » ^(١) . وعن أميمة بنت رقيقة قالت : أتت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً الآية وقال : « فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَقْرَبْتُمْ » . قلنا : الله ورسوله أرجح بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : « إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمَرْأَةٍ وَاحِدَةٍ قَوْلِي لِمَاؤُهَا امْرَأَةً » ^(٢) .

وعن سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ وقد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار - قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي بهتان نفترقه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، قال : « وَلَا تَغْتَشِشْنَ أَزْوَاجَكُنَّ » ، قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن : ارجعي فسلمي رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ قال : فسأله فقال : « تَأْخُذُ مَالَهُ فَتُخَاجِي بِهِ عَيْتَهُ » ^(٣) .

وعن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم وأم العلاء وابنة أبي سبرة امرأة معاذ وامرأتان أو ابنة أبي سبرة وامرأة معاذ وامرأة أخرى ^(٤) . وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد . وعن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكلهم يصلونها قبل الخطبة ثم يخطب بعد ، فنزل نبي الله ﷺ فكانني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ بِمَا يَمْسِكُهُ عَنْ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِأَقْرَبِيَّتِكُمْ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُتَهَنِّاتٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَلَا يَكُونَنَّ رِجَالُهُنَّ وَأَسْفُهُنَّ فَاسْتَشِيرُوا اللَّهَ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ : « أَتُنَزِّلُ عَلَى ذَلِكَ » ؟ فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها : نعم يا رسول

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في المختار (١٣٠٦) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٩/٦) .

الله - لا يدري حسن من هي - قال : فَصَلِّتُمْ قَالَ : وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتح والحوادث في ثوب بلال^(١) . وعن عباد بن الصامت قال : كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال : « بُيَايُغُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَشْرُفُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ - قرأ الآية التي أخذت على النساء » إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ فَعَمَّنْ وَنِيْ مِنْكُمْ فَأَجْزِئْ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَضَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَهُوَ بِهَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَضَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ^(٢) .

وعن عائشة قالت : جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه فنظر إلى يدها فقال : « أَذْهَبِي فَخُفِّي يَدَيْكَ » فذهبت فغيرتها بحناء ثم جاءت فقال : « أَتَأْيِظُكَ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللَّهِ شَيْئًا » فبايعته وفي يدها سواران من ذهب فقالت : ما تقول في هذين السوارين ؟ فقال : « جَوْشَنَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ »^(٣) .

ف قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ بِمَايَتَّكُنَّ ﴾ أي من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصرا في نفقتها فلها أن تأكل من ماله المعروف ما جرت به عادة أمثاله وإن كان من غير علمه عملا بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني ، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تُخْذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكَ وَيَكْفِي بَنِيكَ »^(٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزِينَ ﴾ عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تباع رسول الله ﷺ فأخذ عليها « أَنْ لَا يَشْرَكَ بِهَا شَيْئًا وَلَا يَشْرَفَ وَلَا يَزِينَ ﴾ الآية قال : فوضعت يدها على رأسها حياء فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقرى أيها المرأة فولله ما بايعنا إلا على هذا ، قالت : نعم إذا ، فبايعها بالآية^(٥) . وعن عامر الشعبي قال : بايع رسول الله ﷺ النساء وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ثم قال : « وَلَا تَقْتُلْنَ أَوْلَادَكُمْ » . فقالت امرأة : تقتل أبائهم وتوصي بأولادهم ؟ قال : وكان بعد ذلك إذا جاءت النساء يبايعن فجمعن فرض عليهن فإذا أقرن رجمن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذْنَ أَوْلَادَهُمْ ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويعم قتله وهو جنين كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها لتلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذْنَ بَيْنَهُنَّ يَتْرِبَةً بَيْنَ الْأَيْحِ وَيَتْرِبُهُنَّ ﴾ قال ابن عباس : يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ، وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملائنة : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللَّهُ الْجَنَّةَ ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَعَلَتْ وَلَدَهُ وَهُوَ يُنْظَرُ إِلَيْهِ اخْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ وَقَصَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ »^(٦) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّبِعَنَّكَ مِنْ مَّوَدِّكَ ﴾ يعني فيما أمرتهن به من معروف ونهيهن عنه من منكر . عن

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٤) ومسلم في الحفود (٤١) والترمذي في السنن (١٤٣٩) وأحمد في مسنده (٣١٤/٥) .

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧/٦) وأبو يونس في مسنده (٤٧٥٤) .

(٤) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٧٠) ومسلم في الأنفذية (٧) والنسائي في السنن (٢٤٧/٨) والترمذي في السنن (١٥٩/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٦) . (٦) أخرجه الترمذي في السنن (١٥٣/٢) .

ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّبِعُكَ فِي مَتَرُونَ ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء ^(١) . وقال ميمون بن مهران : لم يجعل الله طاعة لبيه إلا في المعروف والمعروف طاعة ، وقال ابن زيد : أمر الله بطاعة رسوله وهو خيرة الله من خلقه في المعروف . وعن ابن عباس وأنس بن مالك وسالم بن أبي الجعد وأبي صالح وغير واحد نهاهن يومئذ عن النوح . وعن أم عطية قالت : لما قدم رسول الله ﷺ جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب ﷺ فقام على الباب وسلم علينا فرددنا أو فرددنا عليه السلام ثم قال : أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن ، فقالت : فقلنا : مرحبا برسول الله ﷺ ورسول رسول الله ، فقال : تابيعن على أن لا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن ولا تزينن ، قالت : فقلنا : نعم ، قالت : فمد يده من خارج الباب أو البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال : اللهم اشهد ، قالت : وأمرنا في العيدين أن نخرج فيه الحليض والعواتق ولا جمعة علينا ، ونهانا عن اتباع الجنائز ، قال إسماعيل : فسألت جدتي عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّبِعُكَ فِي مَتَرُونَ ﴾ قالت : النياحة .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ بَيْنَا مَنْ ضَرَبَ الْحُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَذَكَأَ يَدْعُو الْجَاهِلِيَّةَ » ^(٢) . وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشافقة ^(٣) . وعنه ﷺ قال : « أَرَبُّ فِي أَتَمِّي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ : الْفَخْرُ فِي الْأَخْصَابِ ، وَالطُّغْيَانُ فِي الْأَنْشَابِ ، وَالْإِنْشِقَاقُ بِالْشُّجُومِ ، وَالْثَّيْبَةُ عَلَى الْمَيْتِ » وقال : « النَّايِبَةُ إِذَا لَمْ تُكْتَبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تَقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » ^(٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا قَوْمًا عَصَيْبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَوْنَ الْآخِرَةَ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ . ينهى تبارك وتعالى عن مولاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا قَوْمًا عَصَيْبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني اليهود والنصارى ، وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخلونهم أصدقاء وأحلاء وقد يسأون من الآخرة ، أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ فيه قولان أحدهما : كما يسأل الكفار الأحياء من قرابتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بقاء ولا نشورا فقد انقطع رجائهم منهم فيما يعتقدونه . قال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا قَوْمًا عَصَيْبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة يعني من مات من الذين كفروا فقد هبس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يعيشهم الله ﷻ ، وقال الحسن البصري : ﴿ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : الكفار الأحياء قد يسأون من الأموات ، وقال قتادة : كما يسأل الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا ، وكذا قال الضحاك رواه ابن جرير . والقول الثاني : معناه كما يسأل الكفار الذين هم في القبور من كل خير . وعن ابن مسعود قال : كما يسأل هذا الكافر إذا مات وعابن ثوابه واطلع عليه .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المقاتب (٣٥١٩) ومسلم في الإيمان (١٦٥) وأحمد في مسنده (٣٨٦/١) والبيهقي في السنن (٦٣/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٢٩) والترمذي في السنن (١٠٠١) وأحمد في مسنده (٤٥٥/٢) والبيهقي في السنن (٦٣/٤) .

سورة الصف

عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فذاكرنا قلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله ﷻ لعملناه فأنزل الله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ قال عبد الله بن سلام : قرأها علينا رسول الله ﷺ قال أبو سلمة : قرأها علينا ابن سلام . قال يحيى : قرأها علينا أبو سلمة ، قال ابن كثير : قرأها علينا الأوزاعي . قال عبد الله : قرأها علينا ابن كثير ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُبْتَغِيُونَ فِي سَبِيلِهِ مَقَاتًا كَاتِبَهُمْ بِكُنُوزٍ مُرْشُوشٍ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إنكار على من يعد وعدًا أو يقول قولًا لا يفي به ، ولهذا استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقًا سواء ترتب عليه عزم للموعد أو لا ، واحتجوا أيضًا من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « آتَى الْمُتَافِي ثَلَاثَةٌ : إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا أَوْفَى خَانَ » ^(١) . وفي الحديث الآخر : « أَوْفَى مَنْ كَرِهَ فِيهِ كَانَ مُتَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِطْلَةٌ مِنْ يَفَاقِي حَتَّى يَدْعَوْهَا » ^(٢) . ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله ﷺ وأنا عسي فلذهب لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال أعطك ، فقال لها رسول الله ﷺ : « وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ ؟ » فقالت : تمرًا ، فقال : « أَنَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كَيْبَتْ عَلَيْكَ كَذِبَةً » ^(٣) . وذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعد وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره تزوج ولك علي كل يوم كذا ، فتزوج ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك لأنه تعلق به حق آدمي وهو مبني على المضائق . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقًا ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم . عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله ﷻ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وهذا اختيار

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٨٨/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (١٠٦) وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٣) .

ابن جرير . وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون : لو تعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَلاً ﴾ . فبين لهم فابتلوا يوم أخذ بذلك فولوا عن النبي ﷺ مديرين فأُنزل الله في ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال : أحبكم إلي من قاتل في سبيلي . ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال يقول الرجل قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن ، وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر . وقال ابن زيد : نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ، ولا يقفون لهم بذلك . وعن أبي الأسود الديلي قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل كلهم قد قرأ القرآن . فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم . وقال : كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسبناها غير أبي قد حفظت منها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتمسألون عنها يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَلاً كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْمُوسٍ ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجيهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

عن أبي سعيد الخدري رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ : الْوَجُلُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَبُّوا لِلصَّلَاةِ ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَبُّوا لِلْقِتَالِ » ^(١) . وعن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف : كان يلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته فقلت : يا أبا ذر كان يلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءه ، فقال : لله أبوك فقد لقيت فهاهنا . فقلت : كان يلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يغض ثلاثة ويحب ثلاثة . قال : أجل فلا أخالني أكذب على خليلي ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ﷻ ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً فلقي العدو وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَلاً كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْمُوسٍ ﴾ وذكر الحديث . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَلاً ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصفاهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْمُوسٍ ﴾ أي ملتصق بعضهم في بعض ، من الصف في القتال ، وقال ابن عباس : مثبت لا يزول ملتصق بعضهم ببعض . وقال قتادة ﴿ كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْمُوسٍ ﴾ ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يخلط بنيانه . كذلك الله ﷻ لا يحب أن يخلط أمره ، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فليكن بامر الله فإنه عصمته لمن أخذ به ، وعن أبي بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَلاً كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْمُوسٍ ﴾ قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتموني ألتفت في الصف فنجشوا في لحيي .

﴿ وَلَئِنْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقْوِمُوا بِمَا تَعْلَمُونَ لَأَنِّي رَأَيْتُكُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وَلَئِنْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقْوِمُوا بِمَا تَعْلَمُونَ لَأَنِّي رَأَيْتُكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿ ١ ﴾ وَلَئِنْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقْوِمُوا بِمَا تَعْلَمُونَ لَأَنِّي رَأَيْتُكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿ ٢ ﴾ وَلَئِنْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقْوِمُوا بِمَا تَعْلَمُونَ لَأَنِّي رَأَيْتُكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿ ٣ ﴾ وَلَئِنْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقْوِمُوا بِمَا تَعْلَمُونَ لَأَنِّي رَأَيْتُكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿ ٤ ﴾

الْثَّوْبَةِ وَيَتَرَبَّصُّ بِأَمْرِ رَبِّهِ ثُمَّ إِذْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليله موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ لِمَ تَوَدُّونَ أَنْ تُقْلَبُوا عَنْ مَقَامِكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أي : لم توصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم وأمر له الصبر ، ولهذا قال : ﴿ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى : لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرْ ﴾ ^(١) . وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي صلى الله عليه وسلم أو يوصلوا إليه إذى . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاع الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَقْبَهُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ قَالَ يَسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِذْ يَنْتَ مِنْ التَّوْبَةِ وَيَتَرَبَّصُّ بِأَمْرِ رَبِّهِ ثُمَّ إِذْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أنصرت عنه وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكّي أحمد ، فعمسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة ، وما أحسن ما قال جبير بن مطعم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنْ لِي أَسْمَاءٌ : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْ ، وَأَنَا الْعَاقِبُ » ^(٢) .

وعن أبي موسى قال : سمى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال : « أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَالْحَاشِرُ ، وَالْمَقْفِيُّ ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْمَحَمَةِ » ^(٣) . وقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الرَّسُولَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بِمَا فِي كِتَابِهِمْ كَذِبًا كَذِبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْمُغْلِبُونَ ﴾ . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لمن بعث محمد وهو حي ليتبعه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لمن بعث محمد وهم أحياء ليتبعه وينصرنه . وعن العرابض بن سارية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَإِنْ أَدَمُ لَتَجِدَلَنِي فِي طَبِيعِي وَسَأَتُجَبِّمُكَ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبَشَارَةُ عِيسَى بِي وَوُفُؤُا أُمِّي النَّبِيِّ رَأَتْ ، وَكَذَلِكَ أَتَاهَا النَّبِيُّينَ تَرَانِ » ^(٤) .

وعن أبي أمامة قال : قلت : يا رسول الله ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبَشَارَةُ عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يُخْرِجُ مِنْهَا نُورًا أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ » ^(٥) . وعن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة وعثمان بن مظعون وأبو موسى فأتوا النجاشي ، وبعثت قريش

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٩) وأحمد في مسنده (٣٨٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٦) وأحمد في مسنده (٨٠/٤) والطبراني في الكبير (١٢٢/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٦) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) والحاكم في المستدرک (٦٠٤/٢) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٦٠٠/٢) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٩/١) والطبراني في الكبير (٢٥٣/١٨) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) .

يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجي ؟ قال : فقام شاب من أحدهم سناً فقال : أنا ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال : نعم أنت ذاك ، قال : فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى عليه السلام من روضة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمنوا به ففارقوا فيه ثلاث فرق فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون فظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً عليه السلام ﴿ قَامَتِ سَلَامَةُ بْنُ بَيْتِ إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ سَلَامَةُ ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿ فَهَذَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَذْرَاءٍ فَاسِحًا بَاهِينَ ﴾ بإظهار محمد عليه السلام دينهم على دين الكفار ^(١) . فأمة محمد عليه السلام لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح .

سورة الجمعة

عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[illegible]

يخبر تعالى أنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض أي : من جميع المخلوقات ناطقتها وجامدها ، ثم قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْقُدُّوسِ ﴾ أي : هو مالك السموات والأرض المتصرف فيها بحكمه ، وهو المقدس أي المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال ﴿ أَتَدْرِكُ الْمَكِيدَ ﴾ تقدم تفسيرها غير مرة ، وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَنَبَّأُ فِي الْأَنْبِيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ الأميون هم العرب كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ تُنَادُونَ بِاللهِ أَعْلَمَ وَأَقْبَلُ ﴾ فإلما ذكرنا ذلك في سورة البقرة ، وتخصيص المؤمنين بالذكر لا يعني من عداهم ولكن اللمة عليهم ألغى وأكثر وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ، وهذا لا ينافي قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِلَى رَسُولِهِمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وقوله تعالى إخباراً عن القرآن : ﴿ وَمَنْ يُفْكِرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْحَرْبُ فَالْحَرْبُ يُجَاهِدُونَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم .

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب أي نزرًا يسيرًا ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كُنَّا مِنْ قَبْلُ لَنَیَّ كُنَّا لَنَرِي مَا تَعْمَلُونَ ﴾ وذلك أن العرب كانوا قديمًا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فيدلوه وغثروه وقلبه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركًا واليقين شكًا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله . وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغثروها وأولوها فبعث الله محمّدًا صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقرّبهم إلى الجنة ورضاه الله عنهم والنهي عما يقرّبهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن من كان قبله وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين ولا يعطيه أحدًا من الآخرين فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، وقوله

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٦٤) .

تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْهُمْ لَنَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وَكَانَ مِنْهُمْ لَنَا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجهم حتى سفل ثلاثاً ، وفيما سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَكُنَّا لَرِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ » ^(١) .

ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ؛ لأنه فسر قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله ﻋَﻠَﻴْهِمُ السَّلَامُ وإلى اتباع ما جاء به ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْهُمْ لَنَا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال : هم الأعاجم وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب . وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي أَصْلَابِ أَصْلَابِ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ مِنْ أُمَّيْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ثم قرأ ﴿ وَكَانَ مِنْهُمْ لَنَا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ^(٢) يعني بقية من بقي من أمة محمد ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ فَسَلَّ اللَّهُ فِتْنَةً مِّنْ بَيْنَهُمْ وَأَكَلَهُذَا الثَّغُلَى الْفَاطِرُ ﴾ يعني ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة وما خص به أمته من بعثته ﷺ إليهم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ تَرَاهُمْ إِذْ يَقُولُ مَا يُكَذِّبُ الْخَمَارَ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَتْسَبَّحُونَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَى بَيْنَهُمُ الْقَوْمَ الْقَاتِلِينَ ﴾ ^(٣) قُلْ يَبَنَّا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَوَّلِيَّةَ اللَّهِ مِنْ دُونِ أَوَّلِيَّةِ اللَّهِ فَتَسُو أُولَئِكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَلَا يَتَذَكَّرُ أَلْبَنَّا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ^(٤) قُلْ إِنْ التَّوْبَةُ إِلَى اللَّهِ فَتُرْثُوا مِنْهُ فَاكُنْ مِنْ مَّوَدِّعِهِمْ ثُمَّ تَوَدُّونَ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَالنَّارُ هِيَ أَلْقَافُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذاكما لليهود الذين أعطوه التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً ؛ أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدرى ما عليه ، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحزفوه وبطلوه ، فهم أسوأ حالاً من الحمار ؛ لأن الحمار لا فهم له هؤلاء لهم فهم لم يستعملوها ، وقال تعالى : ﴿ يَتْسَبَّحُونَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَى بَيْنَهُمُ الْقَوْمَ الْقَاتِلِينَ ﴾ . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَإِسْمَاءُ يَحْطُبُ فَهُوَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، وَالَّذِي يَقُولُ لَهُ أَتَيْتُ ؛ لَيْسَ لَهُ جُمُعَةٌ » ^(٥) . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَبَنَّا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَوَّلِيَّةَ اللَّهِ مِنْ دُونِ أَوَّلِيَّةِ اللَّهِ فَتَسُو أُولَئِكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفتنين إن كنتم صادقين ، أي فيما تزعمونه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَذَكَّرُ أَلْبَنَّا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بما يعملون لهم من الكفر والظلم والعمور ﻋَﻠَﻴْهِمُ السَّلَامُ عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عند الكعبة لأتيته حتى أطأ على عنقه قال : فقال رسول الله ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٧) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣١) وأحمد في مسنده (٤١٧/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٨/٦) والبيهقي في كبر العمال (٣٤٥٧٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/١) .

الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرأنها - فامضوا إلى ذكر الله - فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ ، وَلَكِنْ ائْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالزَّوْقَارُ فَمَا أَزْرَكْتُمْ فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتُوا » ^(١) . قال الحسن : أما والله ما هو بالسعي على الأقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع . وقال قتادة في قوله : ﴿ فَاسْتَمِعُوا لِكَلِمَةٍ أَكْبَرُ ﴾ يعني أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها ، وكان يتأول قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ لَمَن يَكُن مَعَهُ الْغَفَّةُ ﴾ أي المشي معه .

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ » ^(٢) . وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُخْتَلِمٍ » ^(٣) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حَقُّ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ ، يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ » ^(٤) . وعن أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ غَسَلَ وَأَغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَتَوَضَّعَ وَتَوَضَّعَ وَلَمْ يَزَكَّ ، وَدَنَا مِنَ الْإِيمَانِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْعَ ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ ، صِيَامَهَا ، وَصِيَامَهَا » ^(٥) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجُمُعَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَهُ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَبَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِيمَانُ خَضِرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَتَقَبَّلُونَ الذَّكَرَ » ^(٦) . ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر ، وعن أيوب الأنصاري سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَتَمَسَّ مِنْ طَلَبِ أَهْلِهِ إِنْ كَانَ عِفَّةً ، وَلَيْسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ فَيَزَكِّيَ إِنْ بَدَأَ لَهُ وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا ، ثُمَّ انْقَسَتْ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يَصَلِّيَ ، كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخَرَى » ^(٧) .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال : « مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِمُعْتَبِرٍ سِوَى ثَوْبَيْ مَهْيَبٍ » ^(٨) . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا ثُرِيَتِ الظُّرُوفُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ؛ فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنه كان هذا لكثرة الناس ، وعن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٨) ومسلم في المساجد (١٥١) وأبو داود في السنن (٥٧٢) والترمذي في السنن (٣٢٧) .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٠٢) وأحمد في مسنده (١٠٥/٢) والدارمي في السنن (٣٦١/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٩) ومسلم في الجمعة (٧) والسنائي في السنن (٩٣/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٢/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٩/٢) والحاكم في المستدرک (٨٢/١) .

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨١) ومسلم في الجمعة (١٠) والترمذي في السنن (٤٩٩) والسنائي في السنن (٩٩/٣) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٥) .

(٨) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٠٩٦) .

الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء^(١) يعني يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد . وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان ويعذر المسافر والمريض وقيم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار كما هو مقرر في كتب الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ وَذُرُوا الْبَيْعَ ﴾ أي : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة ، ولهذا اتفق العلماء ﷺ على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه معاط أم لا ؟ على قولين وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم ، أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أي : فرغ منها ﴿ فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ لا حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله كما كان عراك بن مالك ﷺ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبث دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين . وروي عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ كُبْرًا لَّعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : في حال بيعكم وشراكم وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله ذكرا كثيرا ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة . وقال مجاهد : لا يكون العيد من الناكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ مَكْرًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوهَا قَائِمًا عَلَى مَا وَعَدَ اللَّهُ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِ وَرَمِ الْبَيْعَ وَاللَّهُ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ ﴾ .

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ مَكْرًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوهَا قَائِمًا ﴾ أي : على المنبر تخطب ، هكذا ذكره غير واحد من التابعين ، وزعم مقاتل بن حيان أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم وكان معها طبل فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائما على المنبر إلا القليل منهم وقد صح بذلك الخبر . فمن جابر قال : قدمت غير مرة المدينة ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلا فنزلت ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ مَكْرًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾^(٢) . وعن جابر بن عبد الله قال : بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقدمت غير إلى المدينة فابتدروا أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلا . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَنَاقَشْتُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْكُمْ أَحَدٌ لَسَأَلْتُ الْوَادِي نَارًا » ونزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ مَكْرًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوهَا قَائِمًا ﴾^(٣) . وقال : كان في الاثنين عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر ﷺ ، وفي قوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٩) وأحمد في مسنده (٣١٣/٣) .

(٣) أخرجه أبو يلى في مسنده (١٩٧٩) بإسناد ، وبخروه البخاري في الجمعة (٩٣٦) والترمذي في سننه (٣٣٠٨) والدارقطني في سننه (٥٠٢) .

﴿ وَذَكَرْكَ قَائِمًا ﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائمًا . فعن جابر بن سمرة قال : كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس ^(١) ولكن ههنا شيء ينبغي أن يعلم وهو أن القصة قد قيل إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة ، وعن أبي معاذ بكير بن معروف أنه سمع مقاتل بن حيان يقول : كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين حتى إذا كان يوم والنبى ﷺ يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة ، يعني فانفضوا ولم يبق معه إلا نفر يسير ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوَيْنَ الْخَيْرِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢/١١٠) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٢٢٠) .

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَتَّبِعُكَ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ رَسُولُهُ وَاللَّهُ يَتَّبِعُكَ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَ قُلُوبُهُمْ فَأَنزَلَهُمْ اللَّهُ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مُشَدَّدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَكِيدُونَ فَلَمَّا نَزَلَتْ فَلَمَحَهُمُ اللَّهُ أَنَّ يَوْمَهُمْ ۝ .

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين أنهم إما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ فإما في باطن الأمر فليسوا كذلك بل على الضد من ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَتَّبِعُكَ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ۝ ﴾ أي : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون ، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ رَسُولُهُ ۝ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَتَّبِعُكَ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ ﴾ أي : فيما أخبروا به وإن كان مطابقاً للخارج ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ، وهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم . وقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۝ ﴾ أي : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلفان الآثمة ليصدقوا فيما يقولون فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون وهو من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يأبون الإسلام وأهله عيالاً ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ ولهذا كان الضحك بن مزاحم يقرأها ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ۝ ﴾ أي تصديقهم الظاهر جنة أي : تقية يتقون به القتل ، والجمهور يقرأها ﴿ أَيْمَانَهُمْ ۝ ﴾ جمع يمين . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَ قُلُوبُهُمْ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ أي إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ قُلُوبُهُمْ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير فلا تمي ولا تهتدي .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ۝ ﴾ أي وكانوا أشكالا حسنة وذوي فصاحة والسنّة ، وإذا سمعهم السامع يضغى إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجرح والجنين ولهذا قال تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۝ ﴾ أي كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجنينهم أنه نازل بهم ، فهم جهامات وصور بلا معاني ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُمُ الْمَكِيدُونَ فَلَمَّا نَزَلَتْ فَلَمَحَهُمُ اللَّهُ أَنَّ يَوْمَهُمْ ۝ ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال . عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يَمُرُّونَ بِهَا : تَحِيضُهُمْ لَعْنَةً ، وَطَعْنَانُهُمْ نَهْبَةً ، وَغَيْبَتُهُمْ غُلُولٌ ، وَلَا يَمُرُّونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجَرًا ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبُرًا ، مُسْتَكْبِرِينَ لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ : خُشِبَتْ بِاللَّيْلِ ، ضُحِبَتْ بِالنَّهَارِ » (١) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمَ مَاذَا قَدْ فَتَنَ رَسُولُ اللَّهِ فَرَجَوْا مُدُومًا ﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَهُمْ
أَسْتَفْتَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْزِلْ بِهِ سُورَةً ۖ إِنَّا مِنْكُمْ بَلَّغُونَ ۚ ﴿٥﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا
تُعَذِّبُوا عَلَىٰ مَن عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ۖ يَقُولُوا ۖ وَالَّذِينَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كِبَارُهُمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ
يَقُولُونَ ۚ لَا تَنْبَغِي إِلَىٰ الْمَدِينَةِ الْيَوْمَ ۖ وَالَّذِينَ الْأَذَلُّ ۚ وَلَهُ أَلْمُذُنُ ۚ وَلِلَّذِينَ الْغُلَامَ الْأَمْلُ ۚ وَلِلَّذِينَ
يَقُولُونَ ۚ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمَ مَاذَا قَدْ فَتَنَ رَسُولُ اللَّهِ فَرَجَوْا مُدُومًا ﴾ أي صبدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم ولهذا قال
تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَهُمْ أَسْتَفْتَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْزِلْ بِهِ سُورَةً ۖ إِنَّا مِنْكُمْ بَلَّغُونَ ۚ ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَهُمْ
أَسْتَفْتَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْزِلْ بِهِ سُورَةً ۖ إِنَّا مِنْكُمْ بَلَّغُونَ ۚ ﴾ .

وقال سفيان ﴿ قَوْلًا مُدُومًا ﴾ قال ابن أبي عمر : حَوْلُ سَفِيَانٍ وَجْهَهُ عَلَىٰ يَمِينِهِ وَنَظَرَ بَعِيدَهُ شَرْوًا
ثُمَّ قَالَ : هُوَ هَذَا . وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ كُلَّهُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ
سَلُولٍ . قَالَ قَتَادَةُ وَالسَّيِّدِيُّ : أَنْزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ أَنَّ غُلَامًا مِنْ قَرَابَتِهِ انْطَلَقَ
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَدَّثَهُ بِحَدِيثٍ عَنْهُ وَأَمَرَ شَدِيدًا ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَإِذَا هُوَ يَحْلِفُ بِاللَّهِ
وَيَتَّبِعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقْبَلَتْ الْأَنْصَارُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْغُلَامِ فَلَامَوْهُ وَعَزَلَوْهُ وَأَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ مَا تَسْمَعُونَ ، وَقِيلَ
لِعَدُوِّ اللَّهِ : لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يُلَوِّي رَأْسَهُ ، أَيِ لَسْتَ فَاعِلًا ^(١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسح رجل من المهاجرين رجلاً
من الأنصار . فقال الأنصاري : يا للأَنْصَارِ ، وقال المهاجري : يا للمُهَاجِرِينَ ، فقال رسول الله ﷺ :
« مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟ دَعْوَاهَا قَاتِلُهَا مُتَبَغِّتٌ » ، وقال عبد الله بن أبي بَرْزَةَ سَلُولٍ وَقَدْ فَعَلُوهَا ، وَاللَّهِ
لَوْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من
المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا
المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « دَعْنِي لَا يَخْبَرُكَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » ^(٢) .

وعن زيد بن أرقم قال : خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبد الله بن أبي بَرْزَةَ سَلُولٍ يقول
لأَصْحَابِهِ : لَا تَتَفَقَّهُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَلَوْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ،
فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي ، فَذَكَرَهُ عَمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَرْزَةَ سَلُولٍ وَأَصْحَابُهُ فَحَلَفُوا بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ أَصْحَابُنِي
هُمُ لَا يَصْبِيئُ مِثْلَهُ قَطُّ وَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ فَقَالَ عَمِّي : مَا أَرَدْتُ إِلَّا أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
وَمُتَّفَقٌ ! قَالَ : حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّا جَاءَكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ قَالَ : فَبَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ » ^(٣) .

(١) أسباب النزول للنيسابوري (ص : ٢٣٧ ، ٢٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٥) ومسلم في البر والصلوة (٦٣) والترمذي في السنن (٣٣١٥) وأحمد في مسنده (٣٩٢/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٠) .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ حُشُوعٌ شَتَّى ﴾ قال : كانوا رجالاً أجمل شيء ^(١) .

وعن عروة بن الزبير وعمر بن ثابت الأنصاري أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع وهي التي هدم رسول الله ﷺ فيها مائة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر فبعت رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مائة ، فاقفل رجلان في غزوة رسول الله ﷺ تلك أحدهما من المهاجرين والآخر من بهز ، وهم حلفاء الأنصار فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي ، فقال البهزي : يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار . وقال المهاجري : يا معشر المهاجرين فنصره رجال من المهاجرين حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ، ثم حجز بينهم ، فانكفأ كل منافق أو رجل في قلبه مرض إلى عبد الله بن أبي ابن سلول فقال : قد كنت ترجى وتدفع ، فأصبحت لا تضرب ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب وكانوا يدعون كل حديث الهجرة الجلابيب ، فقال عبد الله بن أبي عبد الله : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال مالك بن الدخشن - وكان من المنافقين - ألم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ؟ فسمع بذلك عمر بن الخطاب فأقبل يمشي حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفنت الناس أضرب عنقه - يريد عمر عبد الله بن أبي - فقال رسول الله ﷺ لعمر : « أَوْ قَاتِلُهُ أَنْتَ إِنْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » . قال عمر : نعم لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . فأقبل أسيد بن حضير وهو أحد الأنصار ثم أحبب بني عبد الأشهل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفنت الناس أضرب عنقه . قال رسول الله ﷺ : « أَوْ قَاتِلُهُ أَنْتَ إِنْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » . قال : نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه ، فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . ثم قال رسول الله ﷺ : « إِذْنُوا بِالرَّحِيلِ » فهجر بالناس فسار يومه وليته والغد حتى متع النهار ، ثم نزل ثم هجر بالناس مثلها حتى صبح بالمدينة في ثلاثة سارها من قفا المشلل ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه فقال له رسول الله ﷺ : « أَيُّ عَمْرٍو أَكُنْتُ قَاتِلُهُ أَوْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » قال عمر : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتَهُ يَوْمَئِذٍ لَأَرْغَمْتُ أَنْفَ رَجُلٍ لَوْ أَمَرْتُهُمُ الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلُوهُ ، فَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي قَدْ وَقَفْتُ عَلَى أَصْحَابِي فَأَقَاتَلْتُهُمْ صَبْرًا » . وأمر الله ﷻ هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْصَرُوا ﴿ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ لَيْسَ نَجْعَتَنَا إِلَّا الْكَذِبَةُ ﴾ ^(٢) الآية .

وعن عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فعزني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخرج ما كان لها من رجل أبوأبوالده مني ، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٣/٤) .

(٢) سورة ابن هشام (٣٠٣/٣ - ٣٠٤) .

يَسِّرْ ﴿١﴾ أي يسهلكم ومجازاتكم ، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ﷻ على وقوع المعاد ووجوده ، فالأولى في سورة يونس ﴿وَيَسِّرْ لَكَ إِيمَانُكَ لِقَاءَ رَبِّكَ إِنَّهُ سَرِيعُ جَوَابٍ﴾ والثانية في سورة ماب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الآية ، والثالثة هي هذه ﴿وَعَمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكُمْ عِنْدَ اللَّهِ لَبِئْسَ مَا تَكْسِبُونَ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿فَتَأْتُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني القرآن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني الذين آمنوا بالله ورسوله ، وهو يوم القيامة سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة وذلك أن أهل الجنة يتبنون أهل النار . وقال مقاتل بن حيان : لا عين أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويذهب بأولئك إلى النار . قلت : وقد فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَسُحْبَاتُ اللَّهِ﴾ الآية .

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يعني عيسى ﴿وَأَلْيَمُوهَا اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية .

قال ابن عباس : بأمر الله يعني عن قدره ومشيقته ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يعني عيسى ﴿وَأَلْيَمُوهَا اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية .

أي : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه . وعوضه عما فاتته من الدنيا هدى في قلبه وقيتا صادقا ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرا منه . وعن ابن عباس ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يعني يهدي قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وعن أبي ظبيان قال : كنا عند علقمة فقرأ عنده هذه الآية ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ فسئل عن ذلك فقال : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم . وقال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يعني يسترجع بقول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ .

وفي الحديث المتفق عليه : «عجبنا للمؤمنين لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء شدة شكر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» (١) .

وعن عبادة بن الصامت قال : إن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَتَوَكُّلٌ بِهِ وَجْهًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» . قال : أريد أهون من هذا يا رسول الله . قال : «لَا تَهَيِّجُ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَطُّى لَكَ بِهِ» (٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَأَلْيَمُوهَا اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع وفعل ما به أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ثم قال تعالى : ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني ذلك يوم القيامة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٥) والبخاري في الصحيح (١٤٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٨/٥) .

عن العمل فإلما عليه ما حئل من البلاغ وعليكم ما حئلتم من السمع والطاعة . قال الزهري : من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم .

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ تَعَوَّلُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب أي وحدوا الإلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ وَأَرْزَاقِكُمْ عَذْرَا لَكُمْ فَلَسَدَرْتُمْ وَلَئِنْ تَعَمُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَقَرَّبُوا فَلَا تَكُنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْكُذْكُمْ فَنَنْتُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ (٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَلْفَمُوا وَأَنْفُسُكُمْ خَيْرٌ لِّأَعْيُنِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَيْعَ تَقِيهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣) إِنْ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ قَرَّبْنَا حَسَنًا يَتَّبِعُكُمْ وَلَمْ يَنْفَرِ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ عَلِيمٌ (٤) عَنِ الْقَتَبِ وَالْكَهْنَةِ الْبَرِّ لِلَّهِ كَيْدٌ .

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو الزوج والولد بمعنى أنه ينتهي به عن العمل الصالح ولهذا قال تعالى ﴿ فَلَسَدَرْتُمْ ﴾ قال ابن زيد : يعني على دينكم ، وقال مجاهد : ﴿ إِنَّ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ وَأَرْزَاقِكُمْ عَذْرَا لَكُمْ ﴾ قال : يحمل الرجل على قطعة الرحم أو مصيبة ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطعمه . وسئل ابن عباس عن هذه الآية ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ وَأَرْزَاقِكُمْ عَذْرَا لَكُمْ فَلَسَدَرْتُمْ ﴾ قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد قهروا في الدين ، فهشوا أن يعاقبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَلَئِنْ تَعَمُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَقَرَّبُوا فَلَا تَكُنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْكُذْكُمْ فَنَنْتُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقهم ليعلم من يطعمه من يعصيه . وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ أَمْرٌ عَظِيمٌ ﴾ عن أبي بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين ﷺ عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : « صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْتَرِفَانِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَبِيشِي وَرَفَعْتُهُمَا » (٢) . وعن الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة فقال لي : « هَلْ لَكَ مِنْ وَلَدٍ ؟ » قلت : غلام ولد لي في مخرجي إليك من ابنة حمد ، ولوددت أن بكاته سبع القرم فقال : « لَا تَقُولُ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ وَأَجْرًا إِذَا قُضُوا » ، ثم قال : « وَلَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ لَئِنْ لَجِئْتَ مَخْرَجَهُ » (٣) . وعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ عَذْرَاكَ الَّذِي إِنْ قَتَلْتَهُ كَانَ فَوْزًا لَكَ ، وَإِنْ قَتَلْتَ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ ، وَلَكِنْ الَّذِي لَعَلَّ عَذْرَاكَ وَلَكَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ صُلْبِكَ ، ثُمَّ أَغْدَى عَذْرَاكَ لَكَ مَالُكَ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينُكَ » (٤) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣١٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٧٧٤) وابن ماجه في السنن (٢٦٠٠) والحاكم في المستدرک (٢٨٧/١) وأحمد في مسنده (٣٥٤/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٥) .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم (٣٣٤/٣) واللفظي في الترغيب والترهيب (١٨٢/٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي جهدكم وطاقتكم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ » ^(١) . وقد قال بعض المفسرين : إن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ قال : لما نزلت هذه الآية اشدت على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتفرحت جباههم فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فمسخت الآية الأولى . وقوله تعالى ﴿ وَأَسْمُوا وَلْيَطِرُوا ﴾ أي : كونوا متقادين لما يأمركم الله به ورسوله ولا تحيدوا عنه بمنة ولا بسرة ، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتخلفوا عما به أمرتم . ولا ترتكبوا ما عنه زجرتم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي وابذلوا بما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم . يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ قَرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَبْزُغْهُ لَكُمْ وَيَقْبِرْ لَكُمْ ﴾ أي : مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ، ونزل ذلك منزلة القرض له كما ثبت في الصحيحين : أن الله تعالى يقول : من يقرض غير ظلوم ولا عديم ^(٢) . ولهذا قال تعالى يضاعفه لكم ﴿ وَيَقْبِرْ لَكُمْ ﴾ أي ويكفر عنكم السيئات . ولهذا قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي يصفح ويغفر ويمسح ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات ﴿ عَزِيزٌ أَلِيمٌ وَكَالْهَدْيِ الْهَيْدَرُ الْكَرِيمُ ﴾ تقدم تفسيره غير مرة .

(١) أخرجه البخاري في الاختصاص (٧٢٨٨) ومسلم في الميع (٤١٢) وأحمد في مسنده (٥٠٨/٢) والدارقطني في السنن (٢٨١/٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٣) .

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِيَدْنِيَّ وَأَحْسِرُوا لِعِدَّتِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَيْرِ حُدُودٍ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

خو طب النبي ﷺ أولاً تشريعاً وتكريماً ، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِيَدْنِيَّ ﴾ عن أنس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها ، فأذن الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِيَدْنِيَّ ﴾ فقيل له : راجعها فإنها صوامه قوامه وهي من أزواجك ونساءك في الجنة ، وقد ورد من غير وجه أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها .

عن عبد الله بن عمر أنه طلق امرأة له وهي حائض فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ثم يمسيكها حتى تطهر ثم تحيض فإني بدأته أن يطلقها » ، فليطلقها طاهراً قبل أن يمسيها ، فليكن العدة التي أمر الله ﷻ (١) . وروي عن عبد الرحمن بن أيمن مولى عزة أنه سأل ابن عمر ، وأبو الزبير يسمع : كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال : طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « ليراجعها » فردها وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسيك » . قال ابن عمر : وقرأ النبي ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِيَدْنِيَّ ﴾ (٢) . وعن عبد الله في قوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِيَدْنِيَّ ﴾ قال : الطهر من غير جماع ، وقال ابن عباس : لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه ؛ ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت يطلقها تطليقة . وقال عكرمة : العدة الطهر ، والقرء : الحيضة أن يطلقها حبلى مستتباً حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا ، ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعي ، فطلاق السنة : أن يطلقها طاهرة من غير جماع أو حاملًا قد استبان حملها ، والبدعي : هو أن يطلقها في حال الحيض أو في طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا ، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها ، وتحريم الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع ، وقوله تعالى ﴿ وَأَحْسِرُوا لِعِدَّتِكُمْ ﴾ أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أي في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أي : في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ؛ فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضاً وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَيْرِ حُدُودٍ ﴾ أي : لا يخرج من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٠) ومسلم في الطلاق (١٤) والنسائي في السنن (١٣٩/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق (١٠) .

والفاحشة الميينة تشمل الزنى ، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بلدت على أهل الرجل وأذتهم في الكلام والفعال ، وقوله تعالى : ﴿ وَفَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أي : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿ فَتَذَكَّرَ لَهُمْ ﴾ أي يفعل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِئْ بِهِدَ ذَاكَ أَمْرًا ﴾ أي إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها فيكون ذلك أيسر وأسهل . عن فاطمة بنت قيس في قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِئْ بِهِدَ ذَاكَ أَمْرًا ﴾ قالت : هي الرجعة ، ومن ههنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى إلى أنه لا تجب السكنى للمتوترة أي المقطوعة وكذا المتوفى عنها زوجها ، واعتمدوا أيضًا على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات وكان غائبًا عنها باليمن ، فأرسل إليها بذلك ، فأرسل إليها وكيه بشعر يعني نفقة فتمسخته فقال : والله ليس لك علينا نفقة ، فأنت رسول الله ﷺ فقال : « لَيْسَ لَكَ عَلَيَّ نَفَقَةٌ » وأمرها أن تحتد في بيت أم شريك ، ثم قال : « تِلْكَ امْرَأَةٌ نَفَسَتْهَا أَصْحَابِي ، اغْتَدِي عِنْدَ ابْنِ لَمْ مَكْتُومٍ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَغْنَى تَضْوِينَ ثِيَابَكَ » (١) . ﴿ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلَ فَأَتَيْتُكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوكُم مِّنْهُ وَمَعْرُوفٌ وَأَشْهَدُوا عَلَى نَفْسِهِ إِذَا هُوَ ذَاكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي محسنًا إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أي من غير مقابحة ولا مشاقة ولا تعنيف بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُوا عَلَى نَفْسِهِ إِذَا هُوَ ذَاكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي على الرجعة إذا عزمتم عليها ، وعن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها فقال : طَلَّقْتَ لغير سنة ورجعت لغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تمد ، وكان عطاء يقول : ﴿ وَأَشْهَدُوا عَلَى نَفْسِهِ إِذَا هُوَ ذَاكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتى به من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وأنه شرع هذا ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة ، ومن ههنا ذهب الشافعي في أحد قوله إلى وجوب الإشهاد في الرجعة كما يجب في إبداء النكاح ، وقد قال بهذا طائفة من العلماء ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصبح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَى اللَّهَ بِحَبْرٍ لَهُ مِزْرًا ﴾ أي ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أي من جهة لا تخطر بباله . وعن أبي ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو علي

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) وأبو داود في السنن (٢٢٨٤) والبيهقي في السنن (١٧٧/٧) .

هذه الآية ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَوَّ أَنْ التَّاسِ كُلُّهُمْ أَخَذُوا بِهَا كَقَتْنِهِمْ » قال : فجعل يجلوها ويردها علي حتى نعتست ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ كَيْفَ تَضَعُ إِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ ؟ » قلت : إلى السعة والدعة أنطلق فأكون حمامة من حمام مكة قال : « كَيْفَ تَضَعُ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَكَّةَ ؟ » قال : قلت : إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة ، قال : « وَكَيْفَ تَضَعُ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنَ الشَّامِ » قلت : إذا والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي ، قال : « أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ » قلت : أو خير من ذلك . قال : « تَشْعَقُ وَتَطْلُعُ وَإِنْ كَانَ عَيْدًا حَبِيشًا » ^(١) .

وعن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ فَرْجٍ فَرْجًا ، وَمَنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا ، وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » ^(٢) وقال ابن عباس : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يقول : ينجي من كل كرب في الدنيا والآخرة . وقال الربيع بن خثيم ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ : أي من كل شيء ضاق على الناس . وقال عكرمة : من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجًا ، وقال ابن مسعود ومسروق : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يعلم أن الله إن شاء أعطى وإن شاء منع ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي من حيث لا يدري . وقال قتادة : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أي من شبهات الأمور والكرب عند الموت ﴿وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من حيث لا يرجو ولا يأمل ، وقال السدي : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يطلق للسنّة ، ويراجع للسنّة ، وعن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ الْعَبْدَ لَيُخْرِجَنَّ الرَّزْقَ بِالذُّلْبِ يُصِيبُهُ ، وَلَا يَزِدُّ الْقَدْرَ إِلَّا الدُّعَاءُ ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعَمْرِ إِلَّا الْبِرُّ » ^(٣) وقال محمد بن إسحاق : جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال له : أمر ابني عوف ، فقال له رسول الله ﷺ : « أَرْسِلْ إِلَيْهِ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ بِأَمْرِكَ أَنْ تُكْثِرَ مِنْ قَوْلٍ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه ، فخرج فإذا هو بناق لهم فركبها وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه ، فصاح بهم فاتبع أولها آخرها ، فلم يفتأ أبوه إلا وهو ينادي بالباب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة ، فقالت أمه : واسواتاه وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد ، فاستبقا الباب والخادم فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلًا ، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى آتي رسول الله ﷺ فأسأله عنها ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخير عوف وخير الإبل ، فقال له رسول الله ﷺ : « اضْغَبْ بِهَا مَا أَحْبَبْتَ وَمَا كُنْتَ ضَائِعًا بِمَالِكَ » ونزل ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ^(٤) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ كَفَّاهُ اللَّهُ كُلَّ مُؤَنَةٍ وَرِزْقَةٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَّهَ إِلَيْهَا » ^(٥) . وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ عن عبد الله بن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوما فقال له رسول الله ﷺ : « يَا غُلَامُ إِنِّي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٨/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/١) والحاكم في المستدرک (٢٦٢/٤) .

(٣) أخرجه للبخاري في الترمذي والريث (٦١٩/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٧/٥) .

(٥) أخرجه للبخاري في الترمذي والريث (٥٣٧/٢) والطبراني في الصغير (١٦/١) والهيثم في مجمع الزوائد (٣٠٣/١٠) .

مُعْلَمُكَ كِلْعَابٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجْعَلُ لَهُ جَهَنَّمَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَشَعْتَ فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَبْغُوكَ ، لَمْ يُبْغُوكَ ، لَمْ يَبْغُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَبْغُوكَ لَمْ يَبْغُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَفُتِنَ الْأَقْلَامُ وَجُعِلَتِ الصُّحُفُ ^(١) .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَزَلَ بِهِ حَاجَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ كَانَ قَمَئًا أَنْ لَا تُسْأَلَ حَاجَتُهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ تَعَالَى آتَاهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ بِمَوْتٍ آجِلٍ » ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَلْعَنُ أُمَّرِيءَ ﴾ أي منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريد ويشاء ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ بِيَعْدِي ﴾ .

﴿ وَالَّذِي يَشِينُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَتْ فَيَدْتَمَنَ فَلَيْسَ أَشْهَرُ وَالَّذِي تَرِيحُنَ الْأَحْمَالُ لِبُهْنٍ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَبْنِي اللَّهُ يَبْنِ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ شِرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَثَرًا ﴾ .

يقول تعالى مبتدأ لعدة الآيسه وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها أنها ثلاثة أشهر عوضاً عن ثلاثة قروء في حق من تحيض كما دلت على ذلك آية البقرة ، وكذا الصغار اللاتي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كمدة الآيسه ثلاثة أشهر ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَرِيحُنَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ ارْتَبَتْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري وابن زيد : أي إن رأين دماً وشككنم في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه ، والقول الثاني : إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر ، وهذا مروى عن سعيد بن جبير وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى واحتج عليه بما رواه عمرو بن سالم قال : قال أبي بن كعب : يا رسول الله إن عدداً من عدد النساء لم تذكر في الكتاب الصغار والكبار وأولات الأحمال ، قال : فأنزل الله ﷻ ﴿ وَالَّذِي يَشِينُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَتْ فَيَدْتَمَنَ فَلَيْسَ أَشْهَرُ وَالَّذِي تَرِيحُنَ الْأَحْمَالُ لِبُهْنٍ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ ﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَرِيحُنَ الْأَحْمَالُ لِبُهْنٍ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ ﴾ يقول تعالى : ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعها ولو كان بعد الطلاق أو الموت بغواق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف كما هو نص هذه الآية الكريمة وكما وردت به السنة النبوية ، وقد روي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما أنها في المتوفى عنها زوجها أنها تتحد بأبعد الأجلين من الوضع والأشهر عملاً بهذه الآية والتي في سورة البقرة . وعن أبي سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال : أفنتي في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة ، فقال ابن عباس : آخر الأجلين ، قلت أنا : ﴿ وَالَّذِي تَرِيحُنَ الْأَحْمَالُ لِبُهْنٍ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريمة إلى أم سلمة يسألها فقالت : قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي . أي فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ وكان أبو السنايل فيمن خطبها ^(٤) . وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٢/١) والترمذي في السنن (٢٥١٦) والحاكم في المستدرک (٥٤١/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/١) . (٣) تفسير الطبري (١٨٠/٢٨) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٩) وأحمد في مسنده (٣٧٧/٤) .

أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته ، فكذب عمر بن عبد الله بخبره أن سبيعة أخبرت أنها كانت تحت سعد بن خولة وكان ممن شهد بدراً فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنسب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ، فقال لها : مالي أراك متجملة ؟ لعلك ترجين النكاح ؟ إنك والله ما أنت بنكاح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر ، قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأتيته رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك فأقناني بأني قد حملت حين وضعت حملي ، وأمرني بالترويح إن بدا لي ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْكَ أَنَّكَ بِبَيْتِكَ مِنْ أَمْرٍ إِسْرًا ﴾ أي يسهل أمره ويسره عليه ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِنَّكُمُ ﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ ﴿ وَنَبِّئْكَ أَنَّكَ يُكَذِّرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ أي يذهب عنه المحذور ويجزله له الثواب على العمل اليسير .

﴿ أَنْبِئُوكُم بِنَحْوِ سَكَنِكُمْ مِنْ بَيْتِكُمْ وَلَا تُضَارِّدُوهُنَّ لِیُضَيِّقُنَّ عَلَيْكُنَّ إِنَّ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاثِقُوا عَلَيْكُنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أُنْثِنَ لَكُمْ فَكُونُوا لِجُرُومِهِنَّ وَلَتَبَرُنَّ بِبَنَاتِكُمْ بِمُرْقٍ وَإِنْ تَكَسَّرْتُمْ فَمَتْرُوحٌ لَهُنَّ أَلْتَرْنَ ۝ لِیُشْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ فَلْيَفِيقْ وَبِمَا تَلَكَّهَ اللَّهُ لَا يَكْذِبُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا عَلَنَتْهَا سِجْنًا اللَّهُ بِذُنُوبِكُمْ بَصِيرٌ ﴾ :
يقول تعالى أمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عندها فقال : ﴿ أَنْبِئُوكُم بِنَحْوِ سَكَنِكُمْ ﴾ أي عندكم ﴿ مِنْ بَيْتِكُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : يعني سحركم حتى قال قتادة : إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُضَارِّدُوهُنَّ لِیُضَيِّقُنَّ عَلَيْكُنَّ ﴾ قال مقاتل بن حیان : يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه ، وقال أبو الضحی : يطلقها فإذا بقي يومان راجعها ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاثِقُوا عَلَيْكُنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف : هذه في البائن إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها . قالوا : دليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً أو حائلاً ، وقال آخرون : بل السياق كله في الرجعيات وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالباً فاحتج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ، ثم اختلف العلماء ، هل النفقة لها بواسطة الحمل أم للحمل وحده ؟ على قولين منصوبين عن الشافعي وغيره ، ويتفرع عليها مسائل كثيرة مذكورة في علم الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُنْثِنَ لَكُمْ ﴾ أي إذا وضعت حملهن وهن طوالق فقد بن بالقبضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به ، فإن أرضعت استحققت أجر مثلها ، ولها أن تعاقب أباه أو ليه على ما يتفقان عليه من أجرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أُنْثِنَ لَكُمْ فَكُونُوا لِجُرُومِهِنَّ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَبَرُنَّ بِبَنَاتِكُمْ بِمُرْقٍ ﴾

يَعْرِفُ أَيُّ وَلَدِكُنْ مُورِكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ إِضْرَارٍ وَلَا مُضَارَةٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ قَامَسْتُمُ فَسَرِّضْ لَهُ لَتَرْضَى ﴾ أي وإن اختلط الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيرا ولم يجهها الرجل إلى ذلك أو بذل الرجل قليلا ولم توافقه عليه فليسترضع له غيرها فلو رضيت الأم بما استوجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها . وقوله تعالى : ﴿ يَتَّقِ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتَيْهِ ﴾ أي ليتق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيَتَّقِ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُفِ اللَّهُ تَقَاتًا إِلَّا مَا آتَاهُ ﴾ . عن أبي سنان ، قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فيبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ؟ فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاءه الرسول فأخبره . فقال : رحمه الله تعالى تأول هذه الآية ﴿ يَتَّقِ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتَيْهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيَتَّقِ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ ^(١) . وعن شريح بن عبيد بن أبي مالك الأشعري واسمه الحارث قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ كَانَ لِأَحَدِهِمْ عَشْرَةُ دَنَانِيرٍ فَتَصَدَّقَ مِنْهَا بِدِينَارٍ ، وَكَانَ لِأَخْرَ عَشْرِ أَوَاقٍ فَتَصَدَّقَ مِنْهَا بِأَوْقِيَّةٍ ، وَكَانَ لِأَخْرَ مِائَةِ أَوْقِيَّةٍ فَتَصَدَّقَ مِنْهَا بِعَشْرِ أَوَاقٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هُمْ فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ ، كُلُّ قَدْ تَصَدَّقَ بِعَشْرِ مَالٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يَتَّقِ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتَيْهِ ﴾ ^(٢) » وقوله تعالى : ﴿ سَجَّالَ اللَّهُ بَعْدَ ضَعْفِ بُرْءٍ ﴾ وعد منه تعالى ووعده حق لا يخلفه . قال أبو هريرة : بينما رجل وامرأته له في السلف الحالي لا يقدران على شيء فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جالقا قد أصابته مسغبة شديدة ، فقال لامرأته : عندك شيء ؟ قالت : نعم أبشر أنا أن رزق الله ، فاستحسها ، فقال : ويحك ابغتي إن كان عندك شيء ، قالت : نعم هنيئة ترجو رحمة الله ، حتى إذا طال عليه الطول ، قال : ويحك قومي فانبغي إن كان عندك شيء فأتيني به فإني قد بلغت وجهدي ، فقالت : نعم ، الآن نفتح التور فلا تعجل فلما أن سكنت عنها ساعة وتحببت أن يقول لها ، قالت من عند نفسها : لو قمت فنظرت إلى تنوري ، فقامت فنظرت إلى تنورها ملآن من جنوب الغنم ورحيبتها تطحنان ، فقامت إلى الرحي فنفضتها واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم ، قال أبو هريرة فوالذي نفس أبي القاسم بيده هو قول محمد ﷺ : « لَوْ أَخَذْتُ مَا فِي رَحِيَّتِهَا وَلَمْ تَنْفَعْنِيهَا لَطَحْتُهَا إِلَى قَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٣) .

﴿ وَكَانَ مِّنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَبَّحْتَهَا سُبْحًا وَخَلَّيْتُمْ عَلَيْهَا لَكْرًا ﴾ ^(١) فَكَانَتْ وَكَلَّ أَهْمُهَا وَكَانَ عَوْنُهَا أَهْمُهَا عَمْرًا ^(٢) أَمَّا اللَّهُ فَمِمَّنْ عَلَيْكَ شَيْدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْكُلُ الْآلَتِيبُ الَّذِينَ مَاتُوا قَدْ أَرَادَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَكْرًا ^(٣) وَرَبُّوهُمَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ كَابِتِي أَلُو مَيَّوْنِي يَنْجُو الَّذِينَ مَاتُوا وَرَبُّوهُمَا الْقَلْبَلِيْنَ يَنْ أَلْقَلْتِ إِلَى الثُّورِ وَمَنْ يَقُولُ يَأْتِيهِ سُبْحًا يَدْجُلُهُ جَنَّتِي تَجْرِي مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلَّيْنِ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا .

يقول تعالى متوعدا لمن خالف أمره وكذب رسله وسلك غير ما شرعه ومخبرًا عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ مِّنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ﴿ فَمَا سَبَّحْتَهَا سُبْحًا وَخَلَّيْتُمْ عَلَيْهَا لَكْرًا ﴾ أي منكرًا فطيرها

(١) تفسير الطبري (١٩٠/٢٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣١/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (١١١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢١/٢) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٥٧/١٠) .

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ تُحَرِّمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرَاتَاتُ آذَانِكَ وَاللَّهُ عَفُوفٌ رَحِيمٌ ١﴾ قَدْ رَضِيَ اللَّهُ لَكُمْ لِحَافَةَ آيَاتِهِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَمَنْ أَلَيْسَ بِاللَّهِمُ الْكَلِيمُ ٢﴾ وَإِلَّا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَيْتِهِ أَرْبَعِينَ حَبْلًا نَبَأَتْ بِهِ. وَأَلْظَمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَبٌ بِمَشْرِقِهِ وَأَفْرَاسٌ عَرَبٌ بِمَشْرِقِهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَبَاكَ هَذَا قَالَ بَنِي الْأَسْلَبِ الْخَيْدُ ٣﴾ إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ مَسَّتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَقَلُّوْا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَجَبْرِئِلُ وَمِيكَائِيلُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ٤﴾ عَنِ زَيْدٍ إِنْ مَلَكَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْبَعًا غَيْرًا وَتَكُنْ مَسْلُوبَتِي مُؤْمِنَتِي قِيْلَتِي تَبَيَّنَتْ عَيْنَاكِ سَجَدَتِي تَبَيَّنَتْ وَالْبَكَارُ ٥﴾ .

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة فقول نزلت في شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرّمها فنزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ تُحَرِّمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرَاتَاتُ آذَانِكَ ١﴾ الآية .

عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ تُحَرِّمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لَكَ ١﴾ . وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه فقالت : أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي ١٩ فجعلها عليه حراما فقالت : أي رسول الله كيف تحرم عليك الحلال ١٩ فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ تُحَرِّمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لَكَ ١﴾ قال زيد بن أسلم : فقله أنت علي حرام لغو ^(١) وعن ابن عباس قال : قلت لعمر ابن الخطاب : من المراتبان ؟ قال : عائشة وحفصة وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة ، في نوبتها فوجدت حفصة فقالت : يا نبي الله لقد جئت إلي شيقا ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي ، قال : « أَلَا تُؤْخِضِينَ أَنْ أُحَرِّمَهَا فَلَا أَفْرَئُهَا ؟ » . قالت : بلى . فحرّمها ، وقال لها : « لَا تَذْكُرِي ذَلِكَ لِأَحَدٍ » ، فذكرته لعائشة فأظفهره الله عليه فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ تُحَرِّمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرَاتَاتُ آذَانِكَ ١﴾ الآيات كلها ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كُفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ وَأَصَابَ جَارِيَتَهُ ^(٢) .

وعن ابن عباس : في الحرام يمين تكفر . وقال ابن عباس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ٣﴾ . وعن ابن عباس : قال : نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ تُحَرِّمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لَكَ ١﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ . وهذا قول غريب ، والصحيح أن ذلك كان في تحرّمه العسل كما ورد عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أبتنا دخل عليها فلتغل له : أكلت مغافير إني أجد منك ريح مغافير . قال : « لَا وَلَيْكُمِي أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، فَلَنْ أَغُودَ لَهُ وَقَدْ حَلَفْتُ لَا تُخْبِرُنِي بِذَلِكَ أَحَدًا » ^(٤) . ﴿تَبَيَّنَ مَرَاتَاتُ آذَانِكَ ١﴾ والمغافير شبيهة بالصمغ يكون في الرمث فيه حلاوة ، أغفر الرمث إذا ظهر فيه ، وأحدها

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣٩٥٩) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣٩٩/٦) والهندي في كنز العمال (٤٦٦٨) وابن جرير في تفسيره (٢٠٢/٢٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١١) . (٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٢) .

مغفور ، ويقال : مغافير . وهكذا قال الجوهري : وقد يكون المغفور أيضًا للعشر والثمام والسلم والطلح ، قال : والرمث بالكسر مرعى من مراعي الإبل وهو من الحمض ، قال : والعرفط شجر من المعضاء ينضج المغفور .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن ، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، ففرت فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت النبي ﷺ منه شربة . فقلت : أما والله لنحتالن له ، فقلت لسودة ابنة زمعة : إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولني : أكلت مغافير ، فإنه سيقول لك لا ، فقولني له : ما هذه الريح التي أجعد ، فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل فقولني : جرست نحله العرفط وسأقول ذلك ، وقولي له أنت يا صفية ذلك ، قالت : تقول سودة : فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أنادي به بما أمرتني فرقا منك ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله أكلت مغافير ؟ قال : « لا » . قالت : فما هذه الريح التي أجعد منك ؟ قال : « سقتني حفصة شربة عسل » ، قالت : جرست نحله العرفط ، فلما دار إلي قلت نحو ذلك فلما دار إلي صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلي حفصة قالت له : يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال : « لا حاجة لي فيه » ، قالت : تقول سودة : والله لقد حرمناه ، قلت لها : اسكتي ^(١) . وعن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل وإن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه . وقد يقال إنهما واقعتان ولا بعد في ذلك إلا أن كونهما سببا لتزول هذه الآية فيه نظر ، وما يدل على أن عائشة وحفصة هما المتظاهرتان أن ابن عباس قال : لم أزل حربصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتى حج عمر وحجبت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، فنهروا ثم أتاني فسكبت على يديه فوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؟ فقال عمر : وا عجبا لك يا ابن عباس - قال الزهري : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه - قال : هي عائشة وحفصة .

قال : ثم أخذ يسوق الحديث قال : كنا معشر قريش قوما تغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسايتهم ، قال : وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي ، قال : فغضبت يوما على امرأتي فإذا هي تراجعتني ، فأنكرت أن تراجعتني ، فقالت : ما تذكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، قال : فانطلقت فدخلت على حفصة ، فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفأتمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئا وسليني من مالي ما بدا لك ، ولا يفرنك أن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل -

(١) أخرجه البخاري في الخلائق (٥٢٦٨) ومسلم في الخلائق (٢١) والبيهقي في السنن (٣٥٤/٧) .

وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال : وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخير الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك ، قال : وكنا نتحدث أن غسان تعمل الخليل لتغزونا ، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ، فقلت : وما ذلك أجلبت غسان ؟ قال : لا بل أعظم من ذلك وأطول ، طلق رسول الله ﷺ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ؟ قد كنت أظن هذا كائناً ، حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي ، فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ ؟ فقالت : لا أدري هو هذا معتزل في هذه المشربة ، فأتيته غلاماً له أسود فقلت : استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال : ذكرت لك له فصمت ، فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست عنده قليلاً ثم غلبنني ما أجد فأتيته الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرت لك له فصمت ، فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبنني ما أجد ، فأتيته الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرت لك له ، فصمت ، فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل قد أذن لك ، فدخلت فسلمت علي رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حصير - وقد أثر في جنبه فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرجع رأسه إلي ، وقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نسائهم فطفق نسائنا يتعلمن من نسائهم ، ففضضت علي امرأتي يوماً فإذا هي تراجعي فأنكرت أن تراجعي ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفأمن إحداكن أن يفضب الله عليها لفضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ فتبسم رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت : لا يفرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ فتبسم أخرى ، فقلت : أستأسن يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة مقامه ، فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع علي أمتك فقد وسع علي فارس والروم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالسا وقال : « أفي شك أنت يا ابن الخطايا ؟ أوليك قومٌ عَجَلْتُ لَهُمْ طَبَقَاتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، فقلت : استغفر لي يا رسول الله ، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله ﷻ (١) .

وعن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن . فنزلت هذه الآية (٢) . وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن منها في نزول الحجاب ، ومنها في أسارى بدر ، ومنها قوله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالْيَحْيَىٰ مِنْ مَّكَارِهِ إِيمَانًا ﴾ ومعنى قوله : ﴿ شُلَيْبٌ مُّؤْتَمِنٌ مِّمَّنْ يُؤْتِيكَ مَائِدَتَكَ عَيْنًا ﴾ ظاهر . وقوله تعالى : ﴿ سَيِّدٌ ﴾ أي صائحات ، قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وعكرمة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٦) .

ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال زيد بن أسلم : ﴿ تَبَيَّنَ ﴾ أي مهاجرات ، وتلا عبد الرحمن ﴿ انْتَبَهَرُونَ ﴾ أي المهاجرين والقول الأول أولى والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ تَبَيَّنَ وَإِكْكَارٌ ﴾ أي منهن نيات ومنهن أباكرا ليكون ذلك أشهى إلى النفس ؛ فإن التويع ييسط النفس ولهذا قال : ﴿ تَبَيَّنَ وَإِكْكَارٌ ﴾ . عن ابن بريدة عن أبيه ﴿ تَبَيَّنَ وَإِكْكَارٌ ﴾ قال : وعد الله نبيه ﷺ في الآية أن يزوجه فالتيب آسية امرأة فرعون ، وبالأبكار مريم بنت عمران .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَقْلِبُوا نَارًا وَهُدًى النَّاسِ وَالْجِبَارَةِ عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَصُونُ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَسْأَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْتَنِدُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُنْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَلُونَ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا إِلَى اللَّهِ قُوَّةً نَصَرُوا عَنَّا نَفْسَكُمْ أَنْ يُكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتَخْلُكُمُ جَنَّتُ قُبْرَى مِنْ هَتَمِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَوْمَهُمْ هَيَّئِ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْجَارُ يُقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا يَوْمَ كُنَّا قَوْمًا وَاقِفُونَ لَهَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

عن رجل عن علي عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَقْلِبُوا نَارًا ﴾ يقول : أدبهم وعلمهم . وقال ابن عباس : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأمروا أهلهم بالذكر ينجيكم الله من النار ، وقال مجاهد : اتقوا الله وأوصوا أهلهم بقوى الله وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله وتنههم عن معصية الله وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها . وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله من قراجه وإمامه وصيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه . عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ وَرُؤُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ مَنَعَ سَيْنَى ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ قَاضِرُ يَوْمِهِ عَلَيْهَا ﴾ (١) . قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمهيدا له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة للمعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُدًى النَّاسِ وَالْجِبَارَةِ ﴾ ﴿ وَهُدًى ﴾ أي حطبا الذي يلتقي فيها جث بني آدم ﴿ وَالْجِبَارَةِ ﴾ قيل : المراد بها الأصنام التي تعبد ، وقيل : هي حجارة من كبريت ، أنثى من الجبهة ، وعن عبد العزيز بن أبي داود قال : بلغني أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَقْلِبُوا نَارًا وَهُدًى النَّاسِ وَالْجِبَارَةِ ﴾ وعنده بعض أصحابه وفهم شيخ فقال الشيخ : يا رسول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبي ﷺ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَصُخْرَةٌ مِنْ صَخَرٍ جَهَنَّمَ أَغْطَمُ مِنْ جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّهَا ﴾ قال : فوقع الشيخ مغشيا عليه فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حي فناداه قال : ﴿ يَا شَيْخُ قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فقالها فبشره بالجنة قال : فقال أصحابه : يا رسول الله أمن بيننا ؟ قال : ﴿ نَعَمْ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴾ ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا وَكَانَ وَحِيدًا ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ ﴾ أي طباعهم غليظة قد نزع من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿ شِدَادٌ ﴾ أي تركيهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج . عن عكرمة أنه قال : إذا وصل أول

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٤) والبيهقي في السنن (١١/٢) .

(٢) أخرجه السوطي في الدرر اللخيرة (٧٣/٤) .

أهل النار إلى النار وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة ، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكب الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض صدر أحدهم سبعون خريقاً ، ثم يهون من باب إلى باب خمسمائة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول حتى يتتوها إلى آخرها ، وقوله : ﴿ لَا يَنْصُورُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . أي مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه لا يتأخرون عنه طرفة عين وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه وهؤلاء هم الزبانية - عياداً بالله منهم - وقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْلَمُونَ يَوْمًا إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون اليوم إلا ما كنتم تعملون ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم ، ثم قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا يَوْمًا إِلَى اللَّهِ قَبْلَهُمْ صَبُورًا ﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الذناعات .

وعن النعمان سئل عمر عن التوبة النصوح فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبداً .

ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر ويندم على ما سلف منه في الماضي ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لأدبي رده إليه بطريقه . عن عبد الله بن مغفل قال : دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبي ﷺ يقول : « التَّائِبُ تَوْبَةً ؟ » قال : نعم . وقال مرة : نعم سمعته يقول : « التَّائِبُ تَوْبَةً » ^(١) . عن أبي بن كعب قال : قيل لنا : أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة ، منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح الرجل الرجل وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح المرأة المرأة وذلك ما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً ، قال زر : فقلت لأبي بن كعب : فما التوبة النصوح ؟ فقال : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « هُوَ التَّائِبُ عَلَى الذَّنْبِ حِينَ يَفْطُرُ مِثْلَهُ فَتَسْتَغْفِرُ اللَّهُ بِتَكَاتُفِكَ مِنْهُ جُنْدَ الْحَاضِرِ ثُمَّ لَا تَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا » ^(٢) وعن الحسن قال : التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته وتستغفر منه إذا ذكرته ، فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات كما ثبت في الصحيح : « الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ ، وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا » ^(٣) . وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات - كما تقدم في الحديث وفي الأثر - ثم لا يعود فيه أبداً ، أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه الصلاة والسلام : « التَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا » وللاول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً « مَنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤٥/٦) والهندي في كنز العمال (١٠٤٢٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٥/٤) .

الذي يأنره كثير من الناس : من أكل مع مغفور له غفر له . وهذا الحديث لا أصل له وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال : يا رسول الله أنت قلت : من أكل مع مغفور له غفر له ؟ قال : لا ، ولكني الآن أقوله .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الْغَوَّيِينَ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ نَجِّنِي مِنَ الْمُكْفُرِينَ ﴾ .

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم . قال قتادة : كان فرعون أعنى أهل الأرض وأكفرهم ، فوالله ما ضار امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربه ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه . عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أطلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة . وعن القاسم بن أبي بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون فقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجددونها فإن مضت على قولها فآلقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها وأثنت الصخرة على جسد ليس فيه روح ^(١) . فقولها ﴿ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع ﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الْغَوَّيِينَ ﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم ^(٢) . عن أبي العالية قال : كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون ، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوق المشط من يدها . فقالت : تمس من كفر بالله ، فقالت لها بنت فرعون : ولك رب غير أبي ؟ قالت : ربي ورب أهلك ورب كل شيء الله ، فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباه ، فأرسل إليها فرعون فقال : تعبدن رباً غيري ؟ قالت : نعم ربي وربك رب كل شيء الله وإياه أعبد ، فعذبها فرعون وأوتد لها أوتاداً فشد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك فأتى عليها يوماً فقال لها : ما أنت متهمية ؟ فقالت له : ربي وربك رب كل شيء الله . فقال لها : إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلني . فقالت له : اقض ما أنت قاض ، فذبح ابنها في فيها ، وإن روح ابنها بشراً ، قال لها : أبشري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا ، فصبرت ، ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك ، فقالت له مثل ذلك ، فذبح ابنها الآخر في فيها ، فبشرها روحه أيضاً ، وقال لها : أصبري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا ، قال : سمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فأمنت امرأة فرعون وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها في الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيماناً وقيناً وتصديقاً فأطلع الله فرعون على إيمانها فقال للملأ : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها فقال لهم :

إنها تعبد غيري . فقالوا له : اقلها ، فأوتد لها أوتادًا فشدها يديها ورجليها ، فدعت آسية ربها فقالت : ﴿ رَبِّ آتِنِي فِي عَذَابِكَ بِمَا كُنْتُ فِي الْجَنَّةِ ﴾ فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحك حين رأت بيتها في الجنة . فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها إنا نعدُّها وهي تضحك ، فقبض الله روحها في الجنة صَلَّيْهَا . وقوله تعالى : ﴿ وَرَبِّهِ أَتَتْ عِمْرَانَ النَّبِيَّ أَحْصَتَ فَرْجَهَا ﴾ أي حفظته وصانته ، والإحصان : هو العفاف والحريّة ﴿ فَتَنَفَّسْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أي : بواسطة الملك وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه في جيب درعها فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى صَلَّيْهَا ولهذا قال تعالى ﴿ فَتَنَفَّسْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّكَ وَكُتِبَ ﴾ أي بقدره وشرعه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِينِينَ ﴾ . عن ابن عباس قال : خط رسول الله صَلَّيْهَا في الأرض أربعة خطوط وقال : « أَتَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله صَلَّيْهَا : « أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ : خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ عِزْرَانَ ، وَأَسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ » ^(١) . وعن أبي موسى الأشعري عن النبي صَلَّيْهَا قال : « كَفَّلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَزَيْنَبُ ابْنَةُ عِزْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ فَكَفْضُ الْفَرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/١) وإسحاق في المستدرک (٥٩٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٦٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٧٠) والترمذي في الترمذي (١٨٣٤) وأحمد في مسنده (٣٩٤/٤) .

علويات بعضهن على بعض ، أو متفصلات بينهن خلاء ، فيه قولان أصحهما الثاني كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره ، وقوله تعالى : ﴿ مَا تَرَى فِي سَعَى الرَّحْمَنِ يَتَنَزَّلُ ﴾ أي بل وهو مصطلح مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ سُوءٍ ﴾ أي : انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ؟ ﴿ فَاتَّبِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ سُوءٍ ﴾ أي : شقوق وقال السدي : من خروق . وقال ابن عباس : من وهاء . وقال قتادة : هل ترى خللاً يا ابن آدم ؟

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّبِعْ الْبَصَرَ كَرِهَ ﴾ أي مرتين ﴿ يَتَقَلَّبُ إِلَيْكُمُ الْبَصَرُ خَائِفاً ﴾ قال ابن عباس : ذليلاً . وقال مجاهد : صاغراً ﴿ وَفَوْقَ حَيْثُ ﴾ يعني وهو كليل ، وقال مجاهد والسدي : الحسير المنقطع من الإعياء ، ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر مهما كررت لا تقلب إليك أي لرجع إليك البصر ﴿ خَائِفاً ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً ﴿ وَفَوْقَ حَيْثُ ﴾ أي كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصاً ، ولما نفى عنها في خلقها النقص بين كمالها وزيتها فقال : ﴿ وَلَكِنَّ زَيْنًا أَلْبَسَ إِلَٰهَ الْبَصَرِ ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثواب . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا رُجُومًا لِلْعَاقِلِينَ ﴾ عاد الضمير في قوله : ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ على جنس المصاييح لا على عيناها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء ؛ بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ وَاعْتَدْنَا لَهُمُ عَذَابَ الشَّعِيرِ ﴾ أي : جعلنا للشياطين هذا الجزى في الدنيا وأعدنا لهم عذاب السعير في الآخرة . قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال براه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به .

﴿ وَلِلَّيْلِ كَرُوا بَرِيقَهُمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَبِشْرِ السَّوْءِ ۝ إِذَا أَقْبَضُوا بِهَا أَمْرًا لَهَا شَيْعًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمُورُ ۝ يَنْتَبِذُ كَلْبًا أَلْفَىٰ بِنَا فَوْجَ سَالَمٍ حَرْبَهُمْ أَنْ يُلَاقُوا زَيْدًا ۝ قَالُوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا زَيْدٌ فَكَلْبًا وَكَلْبًا مَا زَكَّ اللَّهُ مِنْ نَحْوِهِ إِنْ أَشَرُ إِلَّا فِي سَكَلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاقْرَأُوا بِآيَاتِهِمْ فَسَحْحًا لِّاصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ ﴿ و ﴾ أعطينا ﴿ وَلِلَّيْلِ كَرُوا بَرِيقَهُمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَبِشْرِ السَّوْءِ ﴾ أي بس المال والمنقلب ﴿ إِذَا أَقْبَضُوا بِهَا أَمْرًا لَهَا شَيْعًا ﴾ قال ابن جرير : يعني الصباح ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ قال الثوري : تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير . وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمُورُ ۝ يَنْتَبِذُ ﴾ أي تكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحقها بهم ﴿ كَلْبًا أَلْفَىٰ بِنَا فَوْجَ سَالَمٍ حَرْبَهُمْ أَنْ يُلَاقُوا زَيْدًا ۝ قَالُوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا زَيْدٌ فَكَلْبًا وَكَلْبًا مَا زَكَّ اللَّهُ مِنْ نَحْوِهِ إِنْ أَشَرُ إِلَّا فِي سَكَلٍ كَبِيرٍ ﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي لو كانت لنا عقول نتفعل بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتراض به ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم . قال الله تعالى : ﴿ فَاقْرَأُوا بِآيَاتِهِمْ فَسَحْحًا لِّاصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . عن أبي البحتري الطائي قال : أخبرني من سمعه

وهذا أيضًا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل وقال ههنا : ﴿ عَلَيْنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أي : تذهب وتجيء وتضطرب ﴿ أَمْ لَيْسَ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أي : ريحا فيها حصاب تدمغكم ، وهكذا توعدهم ههنا بقوله ﴿ فَسَتَكُونُ كَيْفَ تَكُونُونَ ﴾ أي : كيف يكون إنلاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم السالفة والقرون الخالية ﴿ كَذَّبَ كَانَ تَكْبِيرُ ﴾ أي : فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ، أي عظيمًا شديدًا أيضًا . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَنَا الْكُفْرُ قَرْهَرًا سَتَدَّبَّرْتُمُوتِينَ ﴾ أي تارة يصفغن أجنحتهن في الهواء وتارة تجمع جناحا وتنتشر جناحا ﴿ مَا يُمَسِّكُهُنَّ ﴾ أي في الجو ﴿ إِلَّا أَرْجُنَّ ﴾ أي بما سحر لهن من الهواء من رحمته ولطفه ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُبِينٌ ﴾ أي : بما يصلح كل شيء من مخلوقاته .

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّ مِنْ دُونِ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ ١٠ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ١١ أَتَنْ يَتَّبِعُ مَكِيدًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَتَّبِعُ سَوِيًّا عَلَى يَرْبُوعٍ شَتَّى ١٢ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ الشَّمْعَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١٣ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ١٤ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٥ قُلْ إِنَّمَا الْوَعْدُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ١٦ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ زُبُونُ الْمُؤْمِنِينَ كَذَّبُوا فَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ١٧ .

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يتفنون عندهم نصرًا ورفقًا منكرا عليهم فيما اعتقدوه ومخبرًا لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه فقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّ مِنْ دُونِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده أي لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله ﷻ وحده لا شريك له ، أي وهم يعلمون ذلك ومع هذا يبدون غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ لَجُّوا ﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أي في معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه ، ثم قال تعالى : ﴿ أَتَنْ يَتَّبِعُ مَكِيدًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَتَّبِعُ سَوِيًّا عَلَى يَرْبُوعٍ شَتَّى ﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًا على وجهه أي يمشي متجنبًا لا مستتبًا على وجهه ، أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يلعب ، بل تائه حائر ضال أهذا أهدى ﴿ أَمَّنْ يَتَّبِعُ سَوِيًّا ﴾ أي منتصب القامة ﴿ عَلَى يَرْبُوعٍ شَتَّى ﴾ أي على طريق واضح بئر وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة ، هذا مثله في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة ، فالؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم مضى به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿ أَمْشَرُوا الَّذِينَ نَالُوا بِأَعْيُنِهِمْ ﴾ ١٠ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَانْقُضْ عَنْ يَرْبُوعٍ الْمَتَابِ ١١ الْآيَاتِ ، أَرْوَاهُمْ أَشْبَاهَهُمْ . عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم فقال : « الَّذِينَ الَّذِينَ أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُنْشِئَهُمْ عَلَى وَجْهِهِمْ ؟ » ١٢ . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ »

الَّذِي أَنْشَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفْشَلُوا وَلَا تَعْبُدُوا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ إِنَّ هُمَا لَمِثَالُ الْبَدَنِ لَمَّا قُلْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَبَدَّلَ الْفِتْنَةُ الْفِتْنَةَ ﴿٢٩﴾ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفْشَلُوا وَلَا تَعْبُدُوا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ إِنَّ هُمَا لَمِثَالُ الْبَدَنِ لَمَّا قُلْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَبَدَّلَ الْفِتْنَةُ الْفِتْنَةَ ﴿٣٠﴾

قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا زَاكِرَةٌ فَذُكِّرْنَا فَذُكِّرْنَا ﴾ ، أي لما قامت القيامة وشاهدوا الكفار ورأوا أن الأمر كان قريباً ، لأن كل ما هو آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من البشر ، أي فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿ وَبَدَّلْنَا هُم مِّنْكَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ ﴾ . ولهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ ﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تستعجلون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مِّثِّي أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُعِزُّ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ إِلَهِ ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مِّثِّي أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُعِزُّ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ إِلَهِ ﴾ أي خلصوا أنفسكم فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوف ما تتمنون لنا من العذاب والنعكال فسواء عذبنا الله أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : أمانة برب العالمين الرحمن الرحيم وعليه توكلنا في جميع أمورنا كما قال تعالى : ﴿ قَابِضُ ذُرِّيَّتِهِ وَيَنْفَعُ كُلَّ غَلَّةٍ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ قَسَمْتُ لَكُمْ أَنَّ هُوَ فِي شَكْلِ ثَيْنٍ ﴾ أي : منا ومنكم ولن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى إظهاراً للرحمة في خلقه ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوَاً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : لا يقدر على ذلك إلا الله ﷻ فمن فضله وكرمه أن أنيع لكم المياه وأجرها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمِنَّة .

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ مِّمَّنْ يَسْجُدُ لِلَّهِ وَلَئِنْ لَمْ يَنْسَخْهُ رَبُّكَ وَأَنْتَ لَتَكُنَّ مِنَ الْمَنْقُوتِ (٢) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ (٣) .

المراد بقوله ﴿ تَ ﴾ حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط وهو حامل للأرضين السبع . عن ابن عباس قال : أول ما خلق الله القلم قال : اكتب . قال : وماذا أكتب ، قال : اكتب القدر ، فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى قيام الساعة ، ثم خلق النون ورفع بخار الماء ففتحت منه السماء ، وبسطت الأرض على ظهر النون فاضطرب النون فمادت الأرض فأنبتت بالجهال ، فإنها لتضجر على الأرض . روي عن أنس أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فساله عن أشياء قال :

إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي ، قال ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه ؟ وما بال الولد ينزع إلى أمه ؟ قال : « أشجرتي يهوى جبريل أيقظها » .

قال ابن سلام : فذاك عدو اليهود من الملائكة قال : « أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : فَتَأْتِي تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : زَيْتَاةُ كَبِدِ الْحَوْتِ ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدُ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ » (١) . وعن ثوبان أن حبراً سأل رسول الله ﷺ عن مسائل فكان منها أن قال : فما تحفهم - يعني أهل الجنة - حين يدخلون الجنة قال :

« زَيْتَاةُ كَبِدِ الْحَوْتِ » . قال : فما غذائهم على أثرها ؟ قال : « يَنْخَرُو لَهُمْ نُورُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : فما شربهم عليه ؟ قال : « مِنْ عَجْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا » (٢) . وقيل : المراد بقوله ﴿ تَ ﴾ لوح من نور . وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ ، وَقَلَمٌ مِنْ نُورٍ ، يَجْرِي بَيْنَهُمَا كَأَنَّ الْيَوْمَ الْقِيَامَةَ » (٣) .

وقوله تعالى ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به ، فهو قسم منه تعالى وتسميه خلفه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني وما يكتبون وقال السدي : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد . وقال آخرون : بل المراد ههنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام ، وعن الوليد بن عباد بن الصامت قال : دعاني أبي حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا اكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى الْآخِرِ » (٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩/٣) والبخاري في مناقب الأنصار (٣٩٣٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الموضع (٣٤) وأحمد في مسنده (١٨٩/٣) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٥٠/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٧/٥) وأبو داود في السنن (٤٧٠٠) والبيهقي في السنن (٢٠٤/١٠) والبرقلي في السنن (٣٣١٩) .

وعن مجاهد : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ يعني الذي كتب به الذكر . وقوله تعالى ﴿ رَمَّا يَسْتَظِرُّ ﴾ أي : يكتبون كما تقدم .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أَتَى بِمَنْشُورٍ رَبِّكَ يَشْجُرُ ﴾ أي : لست والله الحمد بمجنون كما يقول الجهلة من قومك المكذوبون بما جنتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي : بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم ، ومعنى غير ممنون : أي غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : أي غير محسوب وهو يرجع إلى ما قلناه . وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْخَائِي عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام . وقال عطية : لعلى أدب عظيم . قال قتادة : سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن تقول كما هو في القرآن ^(١) . وعن رجل من بني سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْخَائِي عَظِيمٍ ﴾ قال : قلت : حديثني عن ذلك . قالت : صنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما ، فقلت لجاري : اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعتة قبل فاطمحي الطعام . فجاءت بالطعام . قالت : فألقت الجارية فوقعت القصعة فانكسرت وكان نطع ، قالت : فجمعه رسول الله ﷺ . وقال : « اقصوا - أو اقصي شئك أسود - ظروفا مكان ظروفيك » . قالت : فما قال شيئا ^(٢) .

ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرا ونهيا سجية له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلي ، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل . عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مسست خيراً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ ^(٣) ، وعن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل ولا بالقصير ^(٤) وعن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خير بين شيئين قط إلا أن كان أحدهما إليه أسيرهما حتى يكون إثمًا ، فإذا كان إثمًا ، كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمة الله فيكون هو ينتقم لله ﷻ ^(٥) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا بُحِثَ لَأَنَّمْ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ » ^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْهُ وَبِحْمْدِهِ ۝ بِأَيِّكُمْ الْقَوْمُ ﴾ أي : فستعلم يا محمّد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المقتون الضال منك ومنهم ، قال ابن عباس في هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٣/٦) والبيهقي في السنن (٤٩٩/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٠٢٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٦) .

(٥) أخرجه البخاري في اللآلئ (٣٥٤٩) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/٢) .

وقال ابن عباس ﴿يَأْتِيَكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ أي المجنون . وقال قتادة وغيره : ﴿يَأْتِيَكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ أي أولى بالشیطان . ومعنى المفتون : الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه ، وإنما دخلت الباء في قوله : ﴿يَأْتِيَكُمْ﴾ لئلا على تضمين الفعل في قوله : ﴿سَتُنِيرُ رَبِّكَ تَبَيُّرًا﴾ وتقديره فستعلم ويعلمون أي فستخبر ويخبرون بأحكام المفتون . والله أعلم . ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ رَزَقَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَبِيلُهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَفِعِينَ﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي ويعلم الحرب الضال عن الحق . ﴿فَلَا تُلْقِ السَّكِينَةَ﴾ وَدُوا لَوْ تَتَّبِعُوا نَبِيَّهُمْ ﴿وَلَا تُلْقِ كُلَّ سَلَابٍ تَهْمِينًا﴾ هَكَذَا تَتَلَكَّ بِرَبِّهِ ﴿تَتَلَكَّ لَاحِظٌ مُتَتَبِعٌ أَتَيْتُمْ بِذَلِكَ رَيْبًا﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَرَبِّهِ ﴿إِنَّا تَتَلَكَّ حَقِّقًا عَلَيْنَا قَالَ كَسْبُطَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ سَتَيْتُمْ عَلَى الْمُرْأَةِ ﴿.

يقول تعالى كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿فَلَا تُلْقِ السَّكِينَةَ﴾ وَدُوا لَوْ تَتَّبِعُوا نَبِيَّهُمْ ﴿قال ابن عباس : لو ترخص لهم فيرخصون . وقال مجاهد : تركن إلى آلهتهم وترك ما أنت عليه من الحق . ثم قال تعالى ﴿وَلَا تُلْقِ كُلَّ سَلَابٍ تَهْمِينًا﴾ وذلك أن الكاذب لضغفه ومهاتته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها . قال ابن عباس : المهين الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . قال الحسن : ﴿كُلَّ سَلَابٍ﴾ مكابر ﴿تَهْمِينًا﴾ ضعيف . وقوله تعالى : ﴿هَكَذَا﴾ قال ابن عباس وفتادة : يعني الاختيار ﴿تَتَلَكَّ بِرَبِّهِ﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحرض بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهي الحالفة . عن ابن عباس قال : مؤرسل الله ﷺ بقبرين فقال : ﴿إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ﴾ أَمَا أَعَدُّهُمَا ؟ فَكَانَ لَا يَسْتَشِيرُ مِنَ الْيَزِيدِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَكَانَ يَمْشِي بِالْجُمُعَةِ ^(١) . وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَاكٌ » ^(٢) . وعن أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبي ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الَّذِينَ إِذَا دُفِنُوا ذُكِرَ اللَّهُ ﷻ » ثم قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّكُمْ الْمَشَاقُونَ بِالْجُمُعَةِ ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَجْبَةِ الْبَاقُونَ إِلَى الرَّأْيِ الْعَمَلِ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿تَتَلَكَّ لَاحِظٌ مُتَتَبِعٌ أَتَيْتُمْ بِذَلِكَ رَيْبًا﴾ أي : يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿تَتَلَكَّ﴾ في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿أَتَيْتُمْ﴾ أي : يتناول المحرمات ، وقوله تعالى : ﴿عُتِلَ بِذَلِكَ رَيْبًا﴾ أما العتل : فهو الفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع . عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ ؟ كُلُّ عُتِلٍ بِجَوَائِظٍ مُشْتَكِرَةٍ » ^(٤) . عون زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « تَبْكِي السَّمَاءُ مِنْ غَيْدِ أَصْحَابِ اللَّهِ جَسَمَةً ، وَرَأْسُهَا جَوْفَةً ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الدُّنْيَا هَضْمًا ، فَكَانَ لِلنَّاسِ ظُلُومًا . قال :

(١) أخرجه البخاري في الجنازة (١٣٦١) والترمذي في السنن (٧٠) والشافعي في السنن (١٠٦/٤) وابن ماجه في السنن (٣٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٦) ومسلم في الإيمان (١٦٩) وأبو داود في السنن (٤٨٧١) والترمذي في السنن (٢٠٢٦) وأحمد في مسنده (٣٩٧/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٩/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٨) وأحمد في مسنده (٣٠٦/٤) .

فَذَلِكَ الثُّغْلُ الزُّنَيْمُ^(١) . وأما الزنيم : فقال ابن عباس : رجل من قريش له زمة مثل زمة الشاة ، ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزمة من بين أخواتها ، ولما الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القوم : ومنه قول حسان بن ثابت يلزم بعض كفار قريش :

وَأَنْتَ زُنَيْمٌ نِيْطُ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نِيْطُ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ
عن ابن عباس في قوله : ﴿ زُنَيْمٌ ﴾ قال : الدعي الفاحش اللقيم . ثم قال ابن عباس :
زُنَيْمٌ تَدَاغَاهُ الرَّجَالُ زِمَادَةً كَمَا زِيدٌ فِي غَوْضِ الْأَيْمِ الْأَكَارِعِ

ويقال : الزنيم رجل كانت به زمة يعرف بها ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة ، وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري وليس به ، وعن ابن عباس أنه زعم أن الزنيم الملحق بالنسب ، وعن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول في هذه الآية ﴿ عَثَلٌ بِئَدَ ذَلِكَ زُنَيْمٌ ﴾ قال سعيد : هو الملحق بالقوم ليس منهم . ومثل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنى ، وقال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء ، والزنماء من الشياه التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقها . وعن سعيد بن جبيرة قال : الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزمنمتها ، والزنيم الملحق ، ويقال : هو اللقيم الملحق في النسب ، وقال مجاهد : الذي يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة ، وقال أبو رزين : الزنيم علامة الكفر ، وقال عكرمة : الزنيم الذي يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزمنمتها . والأقوال في هذا كثيرة . وترجع إلى ما قلناه وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر الذي يعرف به من بين الناس وغالباً يكون دعيًا ولد زني ؛ فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره كما جاء في الحديث : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدٌ زَنَى »^(٢) . وفي الحديث الآخر : « وَلَدُ الزَّانِي شَرُّ الثَّلَاثَةِ إِذَا عَمِلَ بِعَمَلِ أَبِيهِ »^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۖ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ يقول تعالى هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله ﷻ وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين . وقال تعالى ﴿ سَيَسْأَلُ عَنْ تَرْوِيلِهِ ﴾ قال ابن جرير : سئين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم كما لا تخفى عليهم السمعة على الخراطيم ، وهكذا قال قتادة ﴿ سَيَسْأَلُ عَنْ تَرْوِيلِهِ ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه . وفي رواية عنه : سيما على أفنه ، وقال ابن عباس ﴿ سَيَسْأَلُ عَنْ تَرْوِيلِهِ ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال ، وقال آخرون : ﴿ سَيَسْأَلُ ﴾ سمة أهل النار يعني نسود وجهه يوم القيامة وعبر عن الوجه بالخراطيم ، حكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة . وهو متجه . وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْعَبْدَ يُكْتَبُ مُؤْمِنًا أَحَقَّابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ سَاخِطٌ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ يُكْتَبُ كَافِرًا

(١) أورده السوطي في ألف الخضر (٢٥٢/٦) والطبري في تفسيره (٢٠/٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٥٨/١٠) والدارمي في السنن (١١٢/٢) والألباني في الصحيحة (٢٨٥/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٩٦٣) وأحمد في مسنده (٣١١/٢) والحاكم في المستدرک (١٠٠/٤) والبيهقي في السنن (٩١/٣) .

أَحْقَابًا ثُمَّ أَحْقَابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ رَاضٍ ، وَمَنْ مَاتَ هَمَازًا مَلَأْنَا مَلَقًا لِلنَّاسِ ؛ كَانَ عَلَامَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَسْعَهُ اللَّهُ عَلَى الْحَرْطُومِ مِنْ كِلَا الشَّعْطَيْنِ (١) .

﴿ إِنْ يَنْظَرُ كَمَا بَرَأَ اسْمَكَ الْكَلْبُ إِذْ اقْتَبَا لِشَرِّهِمَا مَضِيجٌ ﴾ (١) وَلَا يَنْتَفِرُ (٢) فَلَمَّا عَلَيَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ (٣) فَتَبَسَّتَ كَاشِرِيحٌ (٤) فَتَنَادَا مُضِيجٌ (٥) أَوْ أَفْذُوا عَلَى حَرْوِكُ إِذْ كُنتُمْ سَرِيعِينَ (٦) فَاسْلُكُوا دَعْرَ بَنَفْثَتَيْنِ (٧) أَنْ لَا يَدْخُلَا الْإِيمَ عَيْكِرَ نَسِيجَيْنِ (٨) وَنَعْدَا عَلَى حَرِّ قَبِيرَيْنِ (٩) فَلَمَّا رَأَيْنَا قَالُوا إِنْ لَمْ نَلَاكُنْ (١٠) بَلْ نَحْنُ نَحْرُوتُونَ (١١) قَالَ أَسْلَمْتُ لَكُمْ كُلُّ لَكُمْ وَلَا تُشِيرُونَ (١٢) قَالُوا مَبْنَعُ رَبِّنَا إِنْ كُنَّا غُلِيلَيْنِ (١٣) فَأَقْبَلَ بَسْمَهُمْ عَلَى بَعْضِ بَنَفْثَتَيْنِ (١٤) قَالُوا يَوَيْلَا إِنْ كُنَّا مَلِيعَيْنِ (١٥) عَنِ رَبِّنَا أَنْ يَدُلَّنَا حَيْثُ مَنَّا إِنْ يَكُ رَبَّنَا رَحِيمُونَ (١٦) كَذَلِكَ الْقَدَابُ وَكَلَامُ الْكَفَرَةِ أَكْثَرُ لَوْ كُنَّا يَسْلُكُونَ ﴿ .

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قریش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والحاربة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ يَنْظَرُ كَمَا بَرَأَ اسْمَكَ الْكَلْبُ ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ اقْتَبَا لِشَرِّهِمَا مَضِيجٌ ﴾ أي حلفوا فيما بينهم ليجدن ثمرها ليلاً فلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ وَلَا يَنْتَفِرُ ﴾ أي : فيما حلفوا به ، ولهذا حشثهم الله في أيمانهم فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَلَيَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ ﴾ أي : أصابها آفة سماوية ﴿ فَتَبَسَّتَ كَاشِرِيحٌ ﴾ قال ابن عباس : أي كالليل الأسود . وقال الثوري والسدي : مثل الزرع إذا حصد أي هشيما ييشا . وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالْمَقَاصِي » إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُحَرِّمُ بِهِ رِزْقًا قَدْ كَانَ مُتْرَكًا لَهُ . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا عَلَيَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ ﴾ فَتَبَسَّتَ كَاشِرِيحٌ (١) قد حرموا خير جهنم بذنبهم ﴿ فَتَنَادَا مُضِيجٌ ﴾ أي لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجباز أي القطع ﴿ أَوْ أَفْذُوا عَلَى حَرْوِكُ إِذْ كُنتُمْ سَرِيعِينَ ﴾ أي : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عبثاً ﴿ فَاسْلُكُوا دَعْرَ بَنَفْثَتَيْنِ ﴾ أي يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم .

ثم فسر الله سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى : ﴿ فَاسْلُكُوا دَعْرَ بَنَفْثَتَيْنِ ﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَا الْإِيمَ عَيْكِرَ نَسِيجَيْنِ ﴿ أي : يقول بعضهم لبعض : لا تمكثوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم . قال الله تعالى : ﴿ وَنَعْدَا عَلَى حَرِّ قَبِيرٍ ﴾ أي قوة وشدة ، وقال مجاهد : جد ، وقال الشعبي : على المساكين ، وقال السدي : كان اسم قرينهم حرد . فأبعد السدي في قوله هذا ﴿ قَبِيرَيْنِ ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرمون ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَا قَالُوا إِنْ لَمْ نَلَاكُنْ ﴾ أي : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهي على الحالة التي قال الله ﷻ قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مذلّمة لا ينتفع بشيء منها . فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إِنْ لَمْ نَلَاكُنْ ﴾ أي قد سلكتنا إليها غير الطريق فهنا عنها . قاله ابن عباس وغيره ، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ نَحْرُوتُونَ ﴾ أي بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب ﴿ فَلَا لَكُمْ لَكُمْ ﴾ أي أعدلهم وخيرهم ﴿ أَوَّلُ لَكُمْ لَكُمْ وَلَا تُشِيرُونَ ﴾ أي لولا تستنون . قال السدي : وكان استنابهم في ذلك الزمان تسبيحاً ، وقال ابن جرير : هو قول القائل إن شاء الله ، وقيل معناه : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥٣/٦ .

(١) أوردته الهذلي في مجمع الزوائد (٢١٣/٧) .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ولدنوا واعترفوا حيث لا ينجع .
ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ٣٥ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٣٦ أي يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع للمساكين من حق الجلاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ قَالُوا يَرْبُّكَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ عَنَّا رَبُّنَا أَنْ يَرْبُّكَ عَنَّا يَبْتَغِي إِنَّا كُنَّا رَبَّنَا زَعِيقُونَ ﴾ قيل : رغبوا في بذلها لهم في الدنيا ، وقيل : احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة ، والله أعلم . ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت مستهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحق ، إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أننا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية : رأس المال والربح والصدقة فلم يبق لهم شيء ، قال تعالى ﴿ كَذَّبَ أَتَّكَلَّيْ ﴾ أي هكنا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات وبذل نعمة الله كفراً ﴿ وَكَذَّبَ الْآخَرُ أَكْثَرَ كُذِّبُوا فَمَا يَدَّبَّرُونَ ﴾ أي هله عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق .

﴿ إِنَّا نَحْنُ غَنِيٌّ عَنَّا رَبَّنَا مَن جَاءَكَ مِنَ النَّاسِ فَسَبِّحْهُنَّ كُلَّهُنَّ ٣٧ مَا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ تَعَكُّبَهُنَّ ٣٨ أَمْ لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٣٩ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٠ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤١ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٢ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٣ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٤ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٥ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٦ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٧ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله وظنوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها ، ثم قال تعالى : ﴿ أَتَجِدُ الْكَافِرِينَ أَزْوَاجًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي أفساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ تَعَكُّبَهُنَّ ﴾ أي كيف تظنون ذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٣٩ ﴾ أي لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٠ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤١ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٢ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٣ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٤ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٥ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٦ إِنَّا لَكُنَّ يَكْفِيَنَّ يَدَهُنَّ ٤٧ ﴾

﴿ يَوْمَ يَكْفُتُ حَنَاقِي وَيَذَرُونَ إِلَى الْأَشْجِرِ وَلَا يُسْتَلَيٰهُنَّ ٤٨ خَشْيَةَ الْفِتْنَةِ يَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَهُمْ سَوَاءٌ ٤٩ قَدِي رَمَنَ يَكْذِبُ يَكْفِيَنَّ لِيَوْمِهِ سَتَاتُهُمْ يَوْمَ هِيَ لَا يَسْلَوْنَ ٥٠ وَأَمَّا كَيْدِي يَوْمَئِذٍ ٥١ أَمْ تَسْأَلُهُمْ لَعْنَةُ رَبِّهِمْ يَوْمَ تَكْفُرُونَ ٥٢ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ هُمْ يَخْتَفُونَ ٥٣ ﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ

يُكْتَفَى عَنْ سَائِي وَيَتَقَوَّى إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَنْصِفُونَ ﴿١﴾ يعني يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يَكْتَفَى رَجُلًا عَنْ سَائِيهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَيَتَقَوَّى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِجَاءً وَشُمْعَةً ، فَيَذْهَبَ لَيْسَ يَسْجُدُ فَيُغَوِّدُ طَهْرًا طَبَقًا وَاحِدًا ^(١) . وعن ابن عباس ﴿ يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي ﴾ قال : هو يوم القيامة يوم كرب وشدة . وعن مجاهد : ﴿ يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي ﴾ قال : شدة الأمر ، وقال ابن عباس : هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة ، وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يَكْتَفَى عَنْ سَائِي ﴾ قال : شدة الأمر وجده . وقال ابن عباس : هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة ، وقال أيضًا : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال ، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه . وقوله تعالى : ﴿ حَسْبُكَ يَوْمَئِذٍ رِجْلُكَ ﴾ أي : في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا فعوقبوا بتقصي ما كانوا عليه ، ولما دعا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة ، إذا تجلى الرب ﷻ فيسجد له المؤمنون لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد بل يعود ظهر أحدهم طبعًا واحدًا كلما أراد أحدهم أن يسجد خوفاً لقفاه عكس السجود كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَيْنِ يَرَى الْكَافِرُ بَيْدًا لِلَّيْلِيَّةِ ﴾ يعني القرآن ، وهذا تهديد شديد أي دعني وإياه مني منه أنا أعلم به كيف أسترده وأمه في غيه وأنظره ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَبْرِئُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْتَنْزِلُونَ ﴾ أي وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة وهو في نفس الأمر إهانة ولهذا قال : ﴿ وَآتَى لَمَمًا إِذْ كُيِّدَ نَبِيُّهُ ﴾ أي : وأوخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكرهم بهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذْ كُيِّدَ نَبِيُّهُ ﴾ أي عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي واجترأ على معصيتي .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُعْطِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمَ يُقْلِقُهُ » .

ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ نَسُودُ رَبَّكَ إِذَا أَتَى الْكُرْئِي وَيَوْمَ ظَلَمْتَ إِذْ أَنْتَ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَنْظُرُهُمْ إِجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُوا شُكْرًا ﴾ ^(٣) أم يصنعهم التائب فهم يَكْتَفُونَ ، والمعنى في ذلك أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ﷻ بلا أجر تأخذهم منهم بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى وهم يكذبون بما جنتهم به بمجرده الجهل والكفر والعدا .

﴿ فَتَنْبِذُ يَوْمَئِذٍ رَبُّكَ وَلَا ذَنْكَ كَصَلِيلِ الْكَرْبِيِّ إِذْ يَدْفَعُهُ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ مَسْخُومٍ ﴾ ^(٤) وَلَوْلَا أَنْ تَدْرَكُهُمْ يَوْمَئِذٍ رَبُّهُمْ لَيْدًا بِالْأَمْرِ يَوْمَ مَدْمُومٍ ^(٥) فَكَيْفَ يَوْمَئِذٍ نَجْمُهُمْ يَوْمَ الْقَلْبِيبِ ^(٦) وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ كَفَرُوا كَرَاهِيَةً بِأَسْمَائِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الْإِذْنَ وَهُمْ لَوَّاهُونَ بِأَنَّهُمْ لَشَتُونَ ^(٧) وَمَا هُمْ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ .

يقول تعالى ﴿ فَتَنْبِذُ ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم

(١) أخرجه البخاري في تفسيره (٤٩١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلوة (١٦) والفرمان في السنن (٣١١٠) وابن ماجه في السنن (٤٠١٨) .

ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَالِبِ لُؤْيٍ ﴾ يعني ذا النون وهو يونس ابن متى عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له وشروء الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسيح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير ، فحيث نادى في الظلمات ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ بِرَحْمَتِهِ ﴾ وهو مغموم ، وقيل : مكروب . عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَرْيَمَ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الْيَغْيَاءُ كَثُرُوا لَيَزِلَّ عَنْكَ بِأَسْرَرٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ﴿ لَيَزِلَّ عَنْكَ ﴾ لينفذنوك ﴿ بِأَسْرَرٍ ﴾ أي يمينونك بأبصارهم بمعنى يحسدونك ليقضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم ، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله تعالى كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حِمَّةٍ أَوْ دَمٍ لَا يَوْقَأُ » ^(٢) . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ الْعَيْنُ لَتُؤَلِّغَ الرَّجُلَ بِأَذْنِ اللَّهِ فَيَتَصَاعَدُ حَالِقًا ثُمَّ يَتَرَدَّى مِنْهُ » ^(٣) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَأْسَ فِي الْهَامِ ، وَالْعَيْنُ حَقٌّ ، وَأَصْدَقُ الطَّيْرَةِ الْقَالَ » ^(٤) . وعنه عليه السلام قال : « الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْ الْعَيْنُ وَلِذَا اسْتُعْثِلْتُمْ فَاغْشُوا » ^(٥) . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول : « أَعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامِيَةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامِيَةٍ . وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامِيَةٍ » . ويقول : « هَكَذَا كَانَ إِزْرَائِيلُ يُعَوِّذُ إِسْحَاقَ وَإِسْحَاقُ عِيسَى عليه السلام » ^(٦) .

وعن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل . فقال : لم أر كالיום ولا جلد مضابة . فما لبث أن لبط به فأثني به رسول الله ﷺ فقبل له : أدرك سهلاً صريعاً قال : « مَنْ تَهْتَفُونَ بِهِ ؟ » . قالوا : عامر بن ربيعة ، قال : « عَلَامَ يَقْتُلُ أَخَذَكُمْ أَخَاهُ ؟ إِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُهَيِّجُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ » . ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلته إزاره ، وأمره أن يصب عليه ^(٧) . وعن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس ، فلما نزلت الموعذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك ^(٨) . وعن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : اشتكت يا محمد ؟ قال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٠/١) والبخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٨٩) والترمذي في السنن (٢٠٥٧) وابن ماجه في السنن (٣٥١٣) وأحمد في مسنده (٤٣٨/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٥) والأكباتي في الصحيحة (٨٨٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٤) والترمذي في السنن (٢٠٦١) والطبراني في الكبير (١٩٢/٨) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٤/١) ومسلم في السلام (٤١) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٧) والترمذي في السنن (٢٠٦٠) .

(٧) أخرجه النسائي في السنن (القسامة ب ٤) والبيهقي في السنن (٣٦١/٩) .

(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٥٨) .

« نَعَمْ » . قال : باسم الله أريقك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين تشنك ، والله يشفيك ، باسم الله أريقك ^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا عَذْوَى ، وَلَا طِيْبَةٌ ، وَلَا حَامَّةٌ ، وَلَا حَسَدٌ ، وَالْعَيْنُ حَقٌّ » ^(٢) . وعن علي عليه السلام أن جبريل أتى النبي فوافقه مغتماً فقال : يا محمد ما هذا الغم الذي أراه في وجهك ؟ قال : « الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ أَصَابَتْهُمَا عَيْشٌ » قال : صدق بالعين ، فإن العين حق ، أفلا عوذتكما بهؤلاء الكلمات ؟ قال : « وَمَا هُنَّ يَا جَبْرِيلُ ؟ » قال : قل : اللَّهُمَّ ذَا السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ وَالْمَنِّ الْقَدِيمِ ذَا الْوَجْهِ الْكَرِيمِ وَلِي الْكَلِمَاتِ التَّامَاتِ وَالِدَعَوَاتِ الْمُسْتَجَابَاتِ عَافِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ مِنْ أَنْفُسِ الْجَنِّ وَأَعْيُنِ الْإِنْسِ . فقالها النبي ﷺ فقاما يلعبان بين يديه فقال النبي ﷺ : « عَوِّذُوا أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ بِهَذَا التَّغْوِيزِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّذِ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَنَجْوَةٍ ﴾ أي يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ويقولون إنه لمجنون أي لجميه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِقَاتَيْنِ ﴾ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢/٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/٢) .

(٣) أورده الهندي في كنز العمال (٢٨٥٤٦) .

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ ١ مَا لِلْحَاقَّةِ ٢ وَمَا أُنذِرُكَ مَا لِلْحَاقَّةِ ٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِ ٤ فَلَمَّا ثَمُرُ قُلُوبِهِمْ يَأْتِيهِمْ ٥ فَلَمَّا ثَمُرُ قُلُوبِهِمْ يَأْتِيهِمْ ٦ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعًا ٧ كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تُقَلِّبُ ٨ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٩ وَبِئْسَ فِرْعَوْنٌ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالنُّفُوكُتِ يُلَاقِيَهُ ١٠ فَصَبَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ١١ فَلَمَّذَهُمْ أَتَذَرُ ١٢ إِنَّا لَنَا عَلَمَا الْآلَاءِ حَمَلُهُمْ ١٣ لِلْبَاقِيَةِ ١٤ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَفِيهَا أَذُنٌ ذَكِيَّةٌ ١٥ .

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ، ولهذا عظم الله أمرها فقال : ﴿ وَمَا أُنذِرُكَ مَا لِلْحَاقَّةِ ﴾ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعًا كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تُقَلِّبُ ﴾ أي شديدة الهبوب . قال قتادة : عنت عليهم حتى نقتب عن أفئدتهم . وقال الضحاك ﴿ صَرْعًا ﴾ باردة ﴿ حَمَلُهُمْ ﴾ عنت عليهم بغیر رحمة ولا بركة . وقال علي وغيره : عنت على الخزنة فخرجت بغیر حساب . ﴿ سَرَّوَمَا عَتَيْتُمْ ﴾ أي سلطها عليهم ﴿ سَجَّ لَيَالٍ وَفُتِيَّةً آيَاتِهِمْ حُسْرًا ﴾ أي كواحل متتابعات متشابهة . قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم : حُسْرًا متتابعات . قال الربيع : وكان أولها الجمعة وقال غيره الأرباء ويقال : إنها التي تسميها الناس الأعباج ، وكان الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعًا كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تُقَلِّبُ ﴾ وقيل : لأنها تكون في عجز الشتاء ويقال : أيام المجوز ، لأن عجوزًا من قوم عاد دخلت سرًا فقتلها الريح في اليوم الثامن ، قال ابن عباس : ﴿ حَاوِيَةً ﴾ خربة ، وقيل : بالية أي جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتًا على أم رأسه فينشذخ رأسه وتبقى جثته هامة كأنها قائمة النخلة إذا غويت بلا أغصان . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تُصْبِرُثُ بِالْصَّبَا ، وَأَهْلِكُثُ عَادَ بِالذُّبُورِ »^(١) . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَادٍ مِنَ الرِّيحِ الَّتِي هَلَكَوا بِهَا إِلَّا مِثْلَ مَوْضِعِ الْخَاتَمِ ، فَمُوتَ بِأَهْلِ الْبَادِيَةِ فُحْمَتُهُمْ وَغَوَاشِيَتُهُمْ وَأَمَوَالُهُمْ ، فَجَعَلَتْهُمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَهْلُ الْحَاضِرَةِ مِنْ عَادِ الرِّيحِ وَمَا فِيهَا ، قَالُوا : هَذَا غَارِضٌ مُمِطُّنَا ، فَلَأَقُتْ أَهْلُ الْبَادِيَةِ وَغَوَاشِيَتُهُمْ عَلَى أَهْلِ الْحَاضِرَةِ »^(٢) . وعن مجاهد : الريح لها جناحان وذنب ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفًا ثم قال تعالى : ﴿ وَبِئْسَ فِرْعَوْنٌ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ قرئ بكسر القاف أي : ومن عنده بمن في زمانه من أتباعه من كفار القبط ، وقرأ آخرون بفتحها^(٣) أي ومن قبله من الأمم المشبهين له . وقوله تعالى : ﴿ وَالنُّفُوكُتِ يُلَاقِيَهُ ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسول ﴿ يُلَاقِيَهُ ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله .

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٥) وأحمد في مسنده (٣٥٥/١) والحاكم في المستدرک (٤٥٦/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢) والبيهقي في جميع الروايات (١١٣/٧) .

(٣) قرأ البصراني والكاسي « من قبله » بكسر القاف وفتح الباء والباقر بن فتح القاف وإسكان الباء (انظر : تزيين النشر ص ١٨٣) .

ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش : العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب . وفي حديث العباس بن عبد المطلب في ذكر حملة العرش أنهم ثمانية أوعال ، وقال عبد الله بن عمرو : حملة العرش ثمانية ما بين موق أحدهما إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام . وعن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَذِنَ لِي أَنْ أُخَذَّكُمْ عَنْ مَلَكٍ مِنَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ بُعْدَ مَا يَكُنْ شَخْطَةُ أَذْنِي وَعَقِيْقَةُ الطَّيْرِ سَبْعُمِائَةَ عَامٍ » ^(١) .

وعن سعيد بن جبير قال : ثمانية صفوف من الملائكة . وعن ابن عباس : الكروبيون ثمانية أجزاء كل جزء منهم بعلة الإنس والجن والشياطين والملائكة . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ ثَوْبُكَ لَا تَعْلَمُ أَنَّكَ تَخْلُقُهُ أَيَّ تَعْرِضُونَ عَلَى عَالَمِ السَّرِّ وَالنَّجْوَى الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِكُمْ بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِالْظَّاهِرِ وَالسَّرَّاتِ وَالضَّمَائِرِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَحْقُقِ نِكَرَ حَكِيَّةٍ ﴾ قال عمر بن الخطاب ؓ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخف عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ ثَوْبُكَ لَا تَعْلَمُ أَنَّكَ تَخْلُقُهُ ﴾ . عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعْرِضُ الثَّامِسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ ، فَأَمَّا عَرَضَتَانِ فَيُجَدَّلُ وَمُعَازَرُ ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَمَعْدُ ذَلِكَ تَطْيِيرُ الصُّحُفِ فِي الْيَمِينِ ، فَأَجَدُ يَمِينِهِ ، وَأَخِذُ بِشِمَالِهِ » ^(٢) .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَدْبَرَ كَتِفَيْهِ يَسْبِيهِ يَقُولُ مَاذَا أَقْرَأُوا كِتَابِي ﴾ ١٠ ﴿ إِنْ كُنْتُ لَيْتَ مَتَى حِسَابِي ﴾ ١١ ﴿ نَهَوْ فِي عَيْتِهِ زُلَيْفَتِهِ ﴾ ١٢ ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ ١٣ ﴿ قَوْلُهُمَا كَانَتْ ﴾ ١٤ ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا حِكْمَتَنَا بِمَا اسْتَفْتَيْنَا فِي الْآيَاتِ الْكَلَامَةِ ﴾ .

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة يمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه ﴿ مَاذَا أَقْرَأُوا كِتَابِي ﴾ أي خذوا أقرأوا كتابيه لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضه ، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات . عن أبي عثمان قال : المؤمن يعطى كتابه يمينه في ستر من الله فيقرأ سيئاته فكلما قرأ سيفة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرأها فيرجع إليه لونه ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات قال : فعند ذلك يقول : هاؤم أقرأوا كتابيه . عن عبد الله بن عبد الله حنظلة ، غسيل الملائكة قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فييدي أي يظهر سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقول له : إني لم أفضحك به وإني قد غفرت لك ، فيقول عند ذلك : ﴿ مَاذَا أَقْرَأُوا كِتَابِي ﴾ ١٠ ﴿ إِنْ كُنْتُ لَيْتَ مَتَى حِسَابِي ﴾ ١١ حين نجا من فضيحته يوم القيامة . وعن ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله ﷺ : « يُذْنِي اللَّهُ التَّيْبَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقْرُؤُهَا بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا ، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ يَمِينِهِ . وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُتَأَنِّقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُ لَيْتَ مَتَى حِسَابِي ﴾ أي قد كنت موقفا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَهْلَهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ نَهَوْ فِي عَيْتِهِ زُلَيْفَتِهِ ﴾ أي مرضية ﴿ فِي جَنَّةٍ ﴾

(١) أخرجه أبو دلود في السنن (٤٧٧٧) والآباني في الصحيح (١٠١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٤/٤) وإبراهيم في السنن (٢٤٢٥) وأبو دلود في السنن (٤٧٧٧) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٥) وأحمد في مسنده (١٠٥/٢) .

عَالِيَهُمْ أَيُّ رُفْعَةٍ قَصُورُهَا ، حَسَانُ حُورِهَا ، نَعِيمَةُ دُورِهَا ، دَائِمُ حُبُورِهَا .

وقد ثبت في الصحيح « إِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةٌ ذَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ ذَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » (١) .
وقوله تعالى : ﴿ فَتُكْرِمُنَا بِهِنَّ ﴾ قال البراء بن عازب : أي قرية يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره . وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَشَرِبُوا هَاتِيحَ بِمَا أَمَلَقْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً وإلاً فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اغتسلوا وشدّدوا وقاربوا ، واغسلوا أن أحداً منكم لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » (٢) .

﴿ وَمَا مِنْ أَوْفٍ بِكَبْرِ يُشَارِبُهُ فَقَدْ يَلْبَسُنِي زُيُوتٌ أَمْرٌ مَا يَسْكِينُ ﴾ يَلْبَسُنَا كَانَتْ الْقَائِيَةِ ﴿ مَا أَفْقَرُ عَنِّي مَالِيَةً ﴾ فَكَلَّ عَنِّي سُلَيْمِيَّةُ ﴿ عُدُوْهُ قَتَلُوْهُ ﴾ زُيُوتٌ لَتَجِيْبُ سَأَلُوْهُ ﴿ زُيُوتٌ فِي بَيْتِيْلِهِ دَرَجَتَا سَبْعُونَ ذِكْرًا قَاتَلُوْهُ ﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يَجِدُنَ يَأْمُو الْغُلَظِيَّةَ وَلَا يَجُتُّ عَنْ حُلْمِ الْيَسْكِينِ ﴿ قَلْبٌ لَمْ يَلْمِزْ هُنَا حَيْمٌ ﴾ لَا طَعْمَ إِلَّا مِنْ غِلَظِيَّةٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْغُلَظِيَّةُ .

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه في العرصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم ﴿ يَقُولُ يَلْبَسُنِي زُيُوتٌ أَمْرٌ مَا يَسْكِينُ ﴾ يَلْبَسُنَا كَانَتْ الْقَائِيَةِ ﴿ قَالَ الضُّعْفُكُ ﴾ يعني مorte لا حياة بعدها . وقال قتادة : تملى الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه ﴿ مَا أَفْقَرُ عَنِّي مَالِيَةً ﴾ فَكَلَّ عَنِّي سُلَيْمِيَّةُ ﴿ أَيُّ لَمْ يَدْفَعْ عَنِّي مَالِي وَلَا جَاهِي عَذَابَ اللَّهِ وَبَاسَهُ بَلْ خَلَصَ الْأَمْرَ لِي وَحْدِي فَلَا مَعِيْنَ لِي وَلَا مُجِيرَ فَعَنْدَهَا يَقُولُ اللَّهُ ﷻ : ﴿ عُدُوْهُ قَتَلُوْهُ ﴾ زُيُوتٌ لَتَجِيْبُ سَأَلُوْهُ ﴿ أَيُّ : بَأْسُ الزَّبَانِ أَنْ تَأْخُذَهُ عَقْبًا مِنْ الْحَشْرِ فَنُفْلَهُ أَيُّ تَضَعُ الْأَغْلَالُ فِي عَقْبِهِ ثُمَّ تُوْرِدُهُ إِلَى جَهَنَّمَ فَتُفْصِلُهُ إِثْمًا أَيُّ تَغْمِرُهُ فِيهَا . عن المنهال بن عمرو قال : إذا قال الله تعالى : خذوه ، اجتهد سبعون ألف ملك ، إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفاً في النار . وقال الفضيل بن العياض : إذا قال الرب ﷻ ﴿ عُدُوْهُ قَتَلُوْهُ ﴾ اجتهد سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغل في عقه ﴿ زُيُوتٌ لَتَجِيْبُ سَأَلُوْهُ ﴾ أي اغمره فيها ، وقوله تعالى : ﴿ زُيُوتٌ فِي بَيْتِيْلِهِ دَرَجَتَا سَبْعُونَ ذِكْرًا قَاتَلُوْهُ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ قَاتَلُوْهُ ﴾ تدخل في ستة ثم تخرج من فيه ثم ينظّمون فيها كما ينظّم الجراد في العود حين يشوى . عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ رُضَايَةَ مِثْلُ هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى جَمْعِهَا - أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَهِيَ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ لَبَلَعَتْ الْأَرْضُ قَبْلَ اللَّيْلِ ، وَلَوْ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ مِنْ رَأْسِ السُّلَيْمِيَّةِ لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيْفًا اللَّيْلِ وَالتَّهَارَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهَا أَوْ أَصْلَهَا » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَجِدُونَ بَأْوَ الْغُلَظِيَّةِ ﴾ وَلَا يَجُتُّ عَنْ حُلْمِ الْيَسْكِينِ ﴿ أَيُّ لَا يَقُومُ بِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَلَا يَنْفَعُ خَلْقَهُ وَيُؤَدِّي حَقَّهُمْ ، فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُوَحِّدَهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلِلْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَقُّ الْإِحْسَانِ وَالْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَانِ الزَّكَاةِ وَقَبْضِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : « الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » (٤) . وقوله تعالى : ﴿ قَلْبٌ لَمْ يَلْمِزْ هُنَا حَيْمٌ ﴾

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٠) والبيهقي في السنن (١٥/٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الرضى (٥٦٧٣) ومسلم في صفة الجنة (٧٥) وأحمد في مسنده (٢٦٤/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٨٨) والحاكم في المستدرک (٤٣٨/٢) وأحمد في مسنده (١٩٧/٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦٩٧) وأحمد في مسنده (١١٧/٣) .

بار راشد ، لأن الله ﷻ مقرر له ما يلقه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَعْيُنًا عَلَى الْغَابِيَةِ ﴾ يعني القرآن ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ بَيْنَكُمْ مُكْذِبِينَ ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ لَحَسْرَةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ قال ابن جرير : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة . عن أبي مالك ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ لَحَسْرَةً عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يقول : لندامة ، ويحتمل عود الضمير على القرآن أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين . ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ لَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي الحبر العبدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب ، ثم قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْغَدِيرِ ﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم .

سورة المارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِسَائِبٍ رَاقِعٍ ﴿١﴾ لَكَفِّيرٍ لَّيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ يَنْ أَلْفَ ذِي أَلَمَسَاجِ ﴿٣﴾ تَرْجُحُ التَّكْبِيكُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَتَنِيَرُ مَبْرُكًا حَبِيبًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَيْدًا ﴿٦﴾ وَزَيَّرَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ .

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِسَائِبٍ رَاقِعٍ ﴾ فيه تضمين دل عليه حرف الباء كأنه مقدر ، استعجل سائل بعذاب واقع ، أي وعذابه واقع لا محالة . عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِسَائِبٍ رَاقِعٍ ﴾ قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم ، وعن مجاهد : دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة : وهو قولهم : ﴿ اَللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقٌ بَيْنَ يَدَيْكَ فَانْقِطِرْ عَلَيْنَا جِسَارًا مِّمَّنْ السَّنَةِ أَوْ أَتَيْنَا بِسَائِبٍ رَاقِعٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ رَاقِعٍ ﴾ لَكَفِّيرٍ أي مرصد معد للكافرين . وقال ابن عباس : ﴿ رَاقِعٍ ﴾ جاء ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَنْ أَلْفَ ذِي أَلَمَسَاجِ ﴾ عن ابن عباس قال : ذو الدرجات ، وعنه قال : ﴿ ذِي أَلَمَسَاجِ ﴾ يعني العلو والفواضل . وقال مجاهد : معارج السماء وقوله تعالى : ﴿ تَرْجُحُ التَّكْبِيكُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ عن قتادة : ﴿ تَرْجُحُ ﴾ تصعد . وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا ناسًا ، قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ويكون من باب عطف الخاص على العام ، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم ؛ فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

وقوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين وهو قرار الأرض السابعة وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة ، وكذلك اتساع العرش من قطر إلى قطرة مسيرة خمسين ألف سنة وأنه من ياقوتة حمراء . عن ابن عباس قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، فذلك سبعة آلاف عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام ، فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

القول الثاني : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة . عن عكرمة قال : الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة لا يدري أحدكم مضى ولا كم بقي إلا الله ﷻ .

القول الثالث : أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة وهو قول غريب جدًا . عن محمد بن كعب قال : هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة . عن ابن عباس قال : هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، وقد وردت أحاديث في معنى ذلك ، فمن أبي سعيد قال : قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ما أطول هذا اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُحَقَّقُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَحْفَ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا

في الدنيا » (١) . وعن أبي عمر العدائي قال : كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة فقتل له : هذا أكثر عامري مالا ، فقال أبو هريرة : ردوه إلي ، فردوه فقال : نبت أنك ذو مال كثير ، فقال العامري : أي والله إن لي مائة حمرا ومائة أمتا ، حتى عد من الإبل والإبل وأفنان الرقيق ورباط الحيل . فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم ، يردد ذلك عليه حتى جعل لون العامري يتغير . فقال : ما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي تَجْدِيدِهَا وَزَيْلِهَا » قلنا : يا رسول الله ما تجدتها وزيلاها ؟ قال : « فِي عَشْرِهَا وَتِسْرَهَا ، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْذُ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرُه وَأَسْمِيَه وَأَشْرَه ، حَتَّى يُطْلَعَ لَهَا بِقَاعُ قَرْقَرٍ فَتَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا ، فَإِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيُزَي سَبِيلَه ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ بَقَرٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي تَجْدِيدِهَا وَزَيْلِهَا ، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْذُ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرُه وَأَسْمِيَه وَأَشْرَه ثُمَّ يُطْلَعَ لَهَا بِقَاعُ قَرْقَرٍ فَتَطْوُهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلْفٍ بِظُلْفِهَا ، وَتَنْطَحُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا لَيْسَ فِيهَا عِصْبَاءٌ وَلَا عُصْبَاءٌ إِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيُزَي سَبِيلَه ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي تَجْدِيدِهَا وَزَيْلِهَا ، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْذُ مَا كَانَتْ وَأَسْمِيَه وَأَشْرَه حَتَّى يُطْلَعَ لَهَا بِقَاعُ قَرْقَرٍ فَتَطْوُهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلْفٍ بِظُلْفِهَا ، وَتَنْطَحُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا ، لَيْسَ فِيهَا عِصْبَاءٌ وَلَا عُصْبَاءٌ إِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيُزَي سَبِيلَه » . فقال العامري : وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطى الكريمة ، وتمح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتسقى الإبل ، وتطرق الفحل » (٢) .

إِنشَاءً مِنْهُ ﴿٣٦﴾ واحدها عزة أي متفريق ، وهو حال من ﴿ تَهْطِيطٌ ﴾ أي في حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء فهم مخالفون للكتاب مختلفون في الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . وقال ابن عباس : قبلك ينظرون ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزَّةٌ ﴾ قال : العزيم : المصعب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به ، وعن الحسن في قوله : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزَّةٌ ﴾ أي متفرقين يأخذون يمينًا وشمالًا يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿ تَهْطِيطٌ ﴾ عامدين ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزَّةٌ ﴾ أي فرقا حول النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيه ﷺ . عن جابر بن سمرة : أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق فقال : « مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ ؟ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَنُفَعِّلَنَّ كُلَّ نَفْسٍ بِئْسَ ثَمَرًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ كَذَّاءٌ ﴿ أَيِ اطْمَعُ هَؤُلَاءِ وَالْحَالَةَ هَذِهِ مِنْ فِرَارِهِمْ عَنِ الرُّسُولِ ﷺ وَفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ أَنْ يَدْخُلُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ ؟ كَلَّا بَلْ مَا وَاهِمٌ جَهَنَّمَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرَّرًا لَوْفَرِغِ الْمَعَادِ وَالْعَذَابِ بِهِمُ الَّذِي أَنْكَرُوا كَوْنَهُ وَاسْتَعْدُوا وَجُودَهُ مُسْتَدَلًّا عَلَيْهِمُ بِالْبِدْءَةِ الَّتِي الْإِعَادَةُ أَهْوَنُ مِنْهَا وَهُوَ مُعْتَرِفُونَ بِهَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِثْلًا لِمَآئِدٍ ﴾ أي من المني الضعيف ، ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ بَرٌّ الْكَفَّيْرُ وَالْكَفْرُ ﴾ أي الذي خلق السموات والأرض وجعل مشرقًا ومغربًا وسحر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها . وتقرير الكلام ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بحث ولا نشور ؛ بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة ، ولهذا أتى بلا في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبغى من إقامة القيامة وهو خلق السموات والأرض وتسخير ما فيها من المخلوقات من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات . وقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ بَرٌّ الْكَفَّيْرُ وَالْكَفْرُ إِنَّا لَنُفَعِّلَنَّ ﴾ عَنِ لَنْ نُفَعِّلَنَّ خَيْرٌ مِنْكُمْ ﴿ أَيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ نَعِيدُهُمْ بِأَبْدَانٍ خَيْرٍ مِنْ هَذِهِ ، فَإِنْ قُدْرَتُهُ صَالِحَةٌ لِدَلَالَةِ ذَلِكَ ﴾ وَتَاغَتْ بِسَيِّئِهِمْ ﴿ أَيِ بَاجِزِينَ . وَاخْتَارَ ابْنَ جَرِيرٍ ﴿ عَنِ لَنْ نُفَعِّلَنَّ خَيْرٌ مِنْكُمْ ﴾ أَيِ أُمَّةٍ تَطِيعُنَا وَلَا تَعْصِيْنَا . وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرَ لِدَلَالَةِ الْآيَاتِ الْأُخْرَى عَلَيْهِ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ بَرٌّ الْكَفَّيْرُ وَالْكَفْرُ إِنَّا لَنُفَعِّلَنَّ خَيْرٌ مِنْكُمْ ﴾ أَيِ دَعَاهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَكَفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿ حَقٌّ يُقَالُ يَتَكَبَّرُ الْكِبَرُ يُعَدُّونَ ﴾ أَيِ فَسِيلَمُونَ غَبَّ ذَلِكَ وَيَذُوقُونَ وَيلَهُ ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ بَرٌّ الْكَفَّيْرُ يَرْكَبُ كَأَنَّهُمْ إِلَى شَرْبِ يُفَضُّونَ ﴾ أَيِ يَقُومُونَ مِنَ الْقُبُورِ إِذَا دَعَاهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ يَنْهَضُونَ سَرَاعًا ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى شَرْبِ يُفَضُّونَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِلَى عِلْمِ يَسْمَعُونَ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : إِلَى غَايَةِ يَسْمَعُونَ إِلَيْهَا ، وَقَدْ قَرَأَ الْجُمْهُورُ : إِلَى نَصَبٍ ، بَفَتْحِ النُّونِ ، وَإِسْكَانِ الصَّادِ (٢) . وَهُوَ مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمُنْصَوْبِ ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ نَصَبٍ بِضَمِّ النُّونِ وَهُوَ الصَّنَمُ أَيِ كَأَنَّهُمْ فِي إِسْرَاعِهِمْ إِلَى الْمَوْقِفِ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَهْرُولُونَ إِلَى النَّصَبِ إِذَا عَابَهُوهُ ﴿ يُفَضُّونَ ﴾ يَتَسَدَّدُونَ أَيْ يَسْتَلِمُونَ أَوَّلَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ حَقِيقَةً يُفَضُّونَ ﴾ أَيِ خَاضِعَةً ﴿ تَهْقِطُهُمْ ذُلَّةٌ ﴾ أَيِ فِي مُقَابَلَةٍ مَا اسْتَكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ ذِكْرٌ لِّأَيِّ كَلْبًا وَمُتَعَدِّينَ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١١٩) وأحمد في مسنده (١٠١/٥) والبيهقي في السنن (٢٣٤/٣) .

(٢) قرأ ابن عامر وحفص ﴿ نُصَبٌ ﴾ بِضَمِّ النُّونِ وَالصَّادِ ، وَالْباقُونَ بِفَتْحِ النُّونِ وَإِسْكَانِ الصَّادِ (انظر : تزيين النشر من ١٨٣) .

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به ههنا أحسن ﴿ثُمَّ شَدَدْنَا فِئَا﴾ أي إذا تمم ﴿وَنَزَّلْنَاكُمْ فِي غُرَابٍ﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿فَاسْتَلْذِكُوا فِيهَا سُبُلًا يَنْبَغُ﴾ أي خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبتهم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرزاق ، جعل السماء بناءً والأرض مهادًا وأوسع على خلقه من رزقه فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ، لأنه لا نظير له ولا عدل له ولا ند ولا كفاء ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير ولا مشير بل هو العلي الكبير .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مَعَنِي صَوْنٌ وَأُنَبِّئُكَ أَنَّ رَبِّي تَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا حَسْرًا﴾ ﴿وَنَكَّرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَكَا وَلَا يَدُوكَ وَيَعُوقَ وَشِرًّا﴾ ﴿وَقَدْ أَشَدُّوا كَيْدًا وَلَا يُرِيدُ الْفَاطِلِينَ إِلَّا سَفَلًا﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء ، أنه مع البيان المقدم ذكره والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى ، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد وهي نفس الأمر استدراج وإنظار ، لا إكرام ولهذا قال : ﴿وَأُنَبِّئُكَ أَنَّ رَبِّي تَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا حَسْرًا﴾ قرئ وولده بالضم وبالفتح ^(١) . وكلاهما متقارب وقوله تعالى : ﴿وَنَكَّرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ قال مجاهد : أي عظيمًا . وقال ابن زيد : كبير والعرب تقول : أمر عجيب وعجائب وعجاب ، ورجل حسان وحسان وبجمل بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد ، والمعنى في قوله تعالى : ﴿وَنَكَّرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ أي بأبائهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى كما يقولون لهم يوم القيامة ، ولهذا قال ههنا : ﴿وَنَكَّرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَكَا وَلَا يَدُوكَ وَيَعُوقَ وَشِرًّا﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله . وقال ابن عباس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يعوق فكانت مراد ثم لبني غطفان بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاء ، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تبيد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبت ^(٢) . عن أبي المطهر قال : ذكروا عند أبي جعفر وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب ، قال : فلما انتقل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن مهلب ، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله ، قال : ثم ذكروا رجلاً مسلماً وكان محبباً في قومه ، فلما مات اعتكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديتكم فتذكرونه ؟ قالوا : نعم ،

(١) قرأ اللذان وابن عامر وعاصم ﴿وَلَدَهُ﴾ بفتح الواو واللام والياء تنوين بضم الواو وإسكان اللام (انظر : تقريب البشر ص ١٨٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٠) .

فصور لهم مثله قال : ووضووه في ناديهم وجعلوا يذكرونه ؟ فلما رأى ما بهم من ذكره ، قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل رجل منكم تمثالاً مثله فيكون له في بيته تذكرونه ؟ قالوا : نعم ، قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله فأقبلوا ، فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبنائهم فجعلوا يرون ما يسمعون به . قال : وتناصلوا ودرس أمر ذكركم إياه حتى اتخذته إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول عيد من دون الله : الصنم الذي سموه ودا .

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَا كِبْرًا﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقا، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَذَرُ الْفَالِطِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾: دعاء منه على قومه لثردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَكَفَّهِمْ فَلَا يُؤْتُوا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَلَا يُؤْتُوا حَتَّىٰ يَرَوُا كِتَابَ الْأَكْثَرِ﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

[illegible]

يقول تعالى: ﴿يَا حَبِيبَتَيْنِ﴾ وقرئ خطاياهم ^(١) ﴿أَتَرَا﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعصوم
واصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أَتَرَا فَأَذَلُّوْا نَارًا﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة
النار ﴿فَلَمَّا بَعَدُوا أَمْرَ رَبِّكَ ذُكِّرُوا لِلنَّارِ﴾ أي لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من
عذاب الله ﴿وَقَالَ رَبُّ رَبِّكَ لَا تَقْرَبُوا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا
ولا ديارًا وهذه من صبيغ تأكيد النفي، قال الضحاك: ديارًا واحدًا. وقال السدي: الديار الذي
يسكن الدار، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح
لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ رَجِمَ
اللَّهُ مِنْ قَوْمِ نُوْحٍ أَحَدًا لَرَجِمَ لَأَزْوَاجَهُمَا لَمَّا رَأَتْ الْمَاءَ حَمَلَتْ وَلَدَهَا ثُمَّ صَبَعَتْ الْجَبَلُ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ
صَبَعَتْ بِهِ مَتَابِعَهَا، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ مَتَابِعَهَا وَضَعَتْ وَلَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَأْسَهَا، وَرَفَعَتْ
وَلَدَهَا بِطَيْعِهَا، فَلَوْ رَجِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَجِمَ هَلِوَةَ الْمَرْأَةِ» ^(٢). ونجى الله أصحاب السفينة الذين
آمنوا مع نوح ﷺ وهم الذين أمره الله بحملهم معه.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ إِن تَتَذَكَّرَ يٰأَيُّهَا الْعِبَادُ ﴾ أي إنك إن أقيمت منهم أحدا أضلوا عبادك أي الذين تخلّفهم بعدهم ﴿ وَلَا يَذْكُرُوا إِلَّا كَلِمًا ﴾ أي فاجروا في الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ثم قال : ﴿ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِرَبِّائِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(١) قرأ أبو عمرو ﴿عما خطاياهم﴾ بفتح والطاء والياء وألف بعدها من غير همز ولا تاء ، والياء تون بكسر الطاء وياء ساكنة بعدها وهمزة مفتوحة بعد الياء بعدها ألف وتاء مكسورة (تنظر تقريب النشر ص ١٨٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤٢/٢) .

يَسْمَعُ مُؤْمِنًا ﴿٢٥﴾ قَالَ الضُّحَّاكُ : يعني مسجدي ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن . عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا ، وَلَا تَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ إِلَّا هَلَاكًا ، وقال مجاهد : إِلَّا خَسَارًا أي الدنيا والآخرة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والترمذي في السنن (٢٣٩٥) وأبو داود في السنن (٤٨٣٢) .

ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فأوانا للمبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي جارك ، فنادى مناد لا نراه يقول : يا سرحان أرسله . فأتى الحمل يشدد حتى دخل في الغنم لم تصبه كلمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿ وَأَنزَلْنَاكَ بِإِنشَاءِ بَيْنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَرَادَوْهُمْ رَدًّا ﴾ وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان جثياً حتى يهرب الإنسي ويخاف منه رده عليه لما استجار به ليضله ويهيئه ويخرجه عن دينه ، والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَمْسَكَكُمُ اللَّهُ لَئِن يَشَاءَ اللَّهُ لَنَمَكَّنَنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ لَئِن يَشَاءَ اللَّهُ لَنَنزِّلَنَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَجَارِدَ فِيهِ السَّيِّئِينَ وَالصَّالِحِينَ فَتَعْلَمَنَّهُمْ لَوَافِدًا ﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَنَظَرْنَا فِيهَا فَزَاحَمْنَاهَا بِمَرَصِدِهَا فَاهْبَاطْنَا فِي الْأَرْضِ فَزَعَّيْنَا مِمَّنْ نَّعْلَمُ فِيهَا رَبِّمَاءِكَ أَفَتَدْعُونَ لَهَا بِرَبِّهَا وَأَنَّا لَا نَدْعَى لَهَا رَبًّا أَوْ أَتَدْعُونَ إِلَٰهًا غَيْرَ الَّذِي هُوَ يَدْعُونَ وَتَتَّخِذُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا حِمًى لَّئِنْ لَّمْ يَأْتِيكُمُ الْيَوْمَ الْبَاقُ فَتَمَوتُوا فَتَخْشَوْنَ أَسْرَافَهُمْ فَاسْرَفْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملك حرساً شديداً ، وحفظت من سائر أوجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدنا التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق ، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قال الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَنَظَرْنَا فِيهَا فَزَاحَمْنَاهَا بِمَرَصِدِهَا فَاهْبَاطْنَا فِي الْأَرْضِ فَزَعَّيْنَا مِمَّنْ نَّعْلَمُ فِيهَا رَبِّمَاءِكَ أَفَتَدْعُونَ لَهَا بِرَبِّهَا وَأَنَّا لَا نَدْعَى لَهَا رَبًّا أَوْ أَتَدْعُونَ إِلَٰهًا غَيْرَ الَّذِي هُوَ يَدْعُونَ وَتَتَّخِذُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا حِمًى لَّئِنْ لَّمْ يَأْتِيكُمُ الْيَوْمَ الْبَاقُ فَتَمَوتُوا فَتَخْشَوْنَ أَسْرَافَهُمْ فَاسْرَفْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء ﴿ لَا تَدْعُوا أَشْثَرُ أُوبَيْدٍ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَرَأَيْتُمْ رَّبَّهُمْ رَبَّكَ ﴾ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل والخير وأضافوه إلى الله ﷻ . وقد ورد في الصحيح « وَالشُّرُّ لَيْسَ إِلَٰهًا » (١) . وقد كانت الكواكب يرمي بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث العباس : بينما جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمي بنجم فاستنار فقال : « مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ » قلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم فقال : « لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ » (٢) وذكر تمام الحديث . وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء ، فأمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقي ، ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها ، هال ذلك الإنس والجن وازعجوا له وارتاعوا لذلك وظنوا أن ذلك لحراب العالم كما قال السدي ، لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، فكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر ، فلما بعث الله محمداً ﷺ نبياً رجعوا ليلة من الليالي ، ففرز عن ذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب ، فجعلوا يعشقون أرقاعهم ، ويسبون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/١) والبيهقي في السنن (١٣٨/٨) والترمذي في السنن (٣٢٢٤) .

مشقة لا راحة معها ، وعن ابن عباس : جبل في جهنم . وعن سعيد بن جبير : بحر فيها .

﴿ وَإِنَّ السَّجْدَةَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (١) وَإِنَّ لَكُمْ مَعَهُ يَدْعُو كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيكًا ﴿٢﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا ثَلَاثُ بِهِ لِيكًا ﴿٣﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَنُفِّكُ لَكُمْ صَرْفًا وَلَا رَحْمَةً ﴿٤﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُغَيِّرَ مِنِّي اللَّهُ شَيْئًا وَلَا أَتُوبُ . مُتَحَدِّثًا ﴿٥﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً . وَمَن يَخُصَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَانَ لَمَن تَارَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ يَهَيِّئُوا لَهَا ﴿٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَقُولُونَ مَن أَتَعَصَفَ كَاسِيرًا وَأَقْلَ عَدَدًا ﴿٧﴾ .

يقول تعالى أمرا عباده أن يوحدوه في مجال عبادته ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به ، كما قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ السَّجْدَةَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم ويعلمهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّ السَّجْدَةَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس . وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِنَّ السَّجْدَةَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ يقول : صلوا لا تخالطوا الناس . وعن سعيد بن جبير قال : قالت الجن لنبى الله ﷺ : كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناعون - أي بعيدون - عنك ؟ وكيف نشهد الصلاة ونحن نأزؤون عنك ؟ فنزلت ﴿ وَإِنَّ السَّجْدَةَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

قال عكرمة : نزلت في المساجد كلها ، وقال سعيد بن جبير : نزلت في أعضاء السجود أي هي لله فلا تسجدوا بها لغيره . وعن ابن عباس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ : عَلَى الْجَهَنَّمَ - أشار بيده إلى أنفه - وَالْيَدَيْنِ ، وَالرُّكْبَتَيْنِ ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ مَعَهُ يَدْعُو كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيكًا ﴾ عن ابن عباس قال : لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه ، لم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ لَسَنَ نَقْرَءُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يستمعون القرآن . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُو كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيكًا ﴾ قال : لما رآه يصلي وأصحابه يركعون يركعونه ويسجدون يسجدونه قال : عجبوا من طواعية أصحابه له قال : فقالوا لقومهم ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُو كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيكًا ﴾ وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعا وقال قتادة : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفقوه فأبى الله إلا أن ينصره ويضيه ويظهره على من ناواه ، وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر ، لقوله بعده ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا ثَلَاثُ بِهِ لِيكًا ﴾ أي قال لهم الرسول لما أدعوه وخالفوه كذبوه وتظاهروا عليه لييطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي ﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ وَلَا ثَلَاثُ بِهِ لِيكًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَنُفِّكُ لَكُمْ صَرْفًا وَلَا رَحْمَةً ﴾ أي إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي وعبد من عباد الله ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٢) ومسلم في الصلاة (٢٢٨) والشافعي في السنن (٢٠٩/٢) وابن ماجه في السنن (٨٨٣) وأحمد في مسنده (٣٠٥/١) .

ولا غوايتكم بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ ، ثم أخبر عن نفسه أيضًا أنه لا يجيره من الله أحد أي لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذه من عذابه ﴿وَلَنْ أَيْدِي دُؤُوبِهِ مُنْقِصَةٌ﴾ قال قتادة : أي لا ملجأ . وقال أيضًا : أي لا نصير ولا ملجأ . وفي رواية : لا ولي ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا بِنَاذِرٍ أَوْ وَرِثَاتٍ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿قُلْ إِيَّيَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿لَنْ يُغَيِّرَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لا يجيرني منه ولا يخلصني إلا بإلغاي الرسالة التي أوجب أداها علي . وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَمِشْ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُ لَكُمْ كَافَّةً﴾ أي أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ، أي : لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها . وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ قَائِمًا وَأَقْلَفَ عَدَدًا﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة ، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقل عددًا ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ، أي بل للمشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عددًا من جنود الله ﷻ .

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَنَّكُمْ لَأَنْتُمْ أَكْرَبُ مِمَّا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَةً﴾ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَطْلُوعُ عَلَى عَشِيرَةٍ أَمَةً ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْهَىٰ عَنِ غُلُوبِهِ﴾ رَضَا ﴿يَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أَهْلَكُوا رِثَتِي رَبِّي وَأَهْلَكَ بِمَا كَانُوا يَمُوتُونَ وَلَحَسَنَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ﴾ .

يقول تعالى أمرًا رسوله ﷺ أن يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَنَّكُمْ لَأَنْتُمْ أَكْرَبُ مِمَّا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَةً﴾ أي مدة طويلة وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجملة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض كذب لا أصل له ولم نره في شيء من الكتب وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال : يا محمد فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » (١) . ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال : يا محمد متى الساعة قال : « وَيَحِلُّ لَهَا كَائِفَةٌ فَمَا أَعَدَّتْ لَهَا » . قال : أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ولكني أحب الله ورسوله قال : « فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » . قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث (٢) . وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إِيَّيَّ لَا تُرْجَوُ أَنْ لَا تَعْبُرَ أَهْجِي عِنْدَ رُفْهَاتِ أَنْ يُؤْخِرَهُمْ يَصِفُ يَوْمٌ » . قيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة عام (٣) .

وقوله تعالى : ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يَطْلُوعُ عَلَى عَشِيرَةٍ أَمَةً﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ إنه يعلم الغيب والشهادة وأنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا ما أطلعه تعالى عليه ولهذا قال ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يَطْلُوعُ عَلَى عَشِيرَةٍ أَمَةً﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري . ثم قال تعالى : ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْهَىٰ عَنِ غُلُوبِهِ رَضَا﴾ أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٧) ومسلم في الإيمان (٥) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٠/١) وأبو داود في السنن (٤٣٥٠) والألباني في صحيحه (١٦٤٣) .

أمر الله ، ويساوتونه على ما معه من وحي الله ولهذا قال : ﴿ لَيْسَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَيْبَهُمْ وَأَسَاطِيرَ مَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ ﴾ وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله ﴿ لَيْسَ ﴾ إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد إلى النبي ﷺ وعن سعيد بن جبير في قوله ﴿ عَيْنَاهُ الْقَتِيبُ فَكَلَّا يَطْوَءُ عَلَى عَيْنَيْهِ لَمَّا ۖ إِلَّا مَنْ أَرَفَّضَ مِنْ رَسُولِهِ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ﴿ لَيْسَ ﴾ محمَّد ﷺ ﴿ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَيْبَهُمْ وَأَسَاطِيرَ مَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ ﴾ وعن قتادة ﴿ لَيْسَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَيْبَهُمْ ﴾ قال : ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ودفعها عنها ، وقيل غير ذلك ، وعن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَرَفَّضَ مِنْ رَسُولِهِ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : هي معقبات من الملائكة يحفظون النبي ﷺ من الشيطان حتى يتبين الذين أرسل إليهم ، وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وعن مجاهد قال : ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وفي هذا نظر . وقال البغوي قرأ يعقوب ﴿ لَيْسَ ﴾ بالضم أي ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا . ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله ﷻ ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير ^(١) ، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بلاكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ تَكْبِتُ إِلَّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ مَنْ يَكْفُرْ الزُّمُورُ وَمَنْ يُغْلِبْ عَلَى عَيْنَيْهِ إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ بَأَنَّهُ تَعَالَى عِلْمُ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا قَطْعًا لَا مُحَالَةً ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ وَأَسَاطِيرَ مَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ ﴾ .

(١) روى رويس ليعلم بضم الياء والباتون بضمها . (تقریب النشر ١٨٤) .

فقال : قرأت المفضل الليلة في ركعة . فقال هذا كهذ الشعر لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما فلذكر عشرين سورة من المفضل سورتين في ركعة وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَلَاثًا ﴾ قال الحسن وقادة : أي العمل به وقيل : ثقل وقت نزوله من عظمته ، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فكدات ترض فخذني .

وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أَخْبَانَا يَأْتِيَنِي فِي مِثْلِ صَلْبَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيُفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنَّهُ مَا قَالَ ، وَأَخْبَانَا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ^(١) . وعن هشام بن عروة عن أبيه أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائنها فما تستطيع أن تحرك حتى يسرى عنه ^(٢) وهذا مرسل ، الجران هو باطن العنق ، واختار ابن جرير أنه ثقل من الوجهين معاً كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَزَّلْنَاهُ بِاللَّيْلِ فِي أُنْزُلٍ وَكَلَّمَكَ وَأَنزَمْنَا قِيلًا ﴾ عن ابن عباس : نشأ : قام بالحشية ، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير : الليل كله ناشفة ، يقال : نشأ إذا قام من الليل وفي رواية عن مجاهد : بعد العشاء والغرض أن : ناشفة الليل هي : ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشفة وهي الآتات ، والمقصود أن قيام الليل وهو أشد مواطاة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَزَّلْنَاهُ بِاللَّيْلِ وَأَنزَمْنَا قِيلًا ﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغظ الأصوات وأوقات المعاش . وعن الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية - إن ناشفة الليل هي أشد وطئاً وأصوب قِيلاً - فقال له رجل : إنما تقرأوها وأقوم قِيلاً ، فقال له : إن أصوب وأقوم وأهياً وأشبه هذا واحد . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَكْتُبُكَ فِي الْكِتَابِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قال عطاء بن أبي مسلم : الفراغ والنوم ، وقال سفيان الثوري : فراغاً طويلاً . وقال السدي : تطوعاً كثيراً وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَكْتُبُكَ فِي الْكِتَابِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ لحوائجك فأفرغ لدينك الليل ، قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم إن الله تبارك وتعالى من على عباده فخففها ووضعها وقرأ ﴿ هُوَ أَزِيلُ إِلَّا قِيلًا ﴾ إلى آخر الآية وعن سعيد بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة لبيع عقاراً له بها ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : - أَلَيْسَ لَكُمْ فِي أَسْوَءِ حَسَنَةٍ ؟ . - فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رجعتها ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : أئت عائشة فسئله ثم أرجع إلي فأخبرني بردها عليك . قال فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلمحته إليها فقال : ما أنا بقاريها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً فأبت فيهما إلا

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٢) وأحمد في مسنده (٢٥٧/٦) وهرملي في السنن (٣٦٣٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٠٥/٢) .

مضياً ، فأقسمت عليه فجاء معي فدخلنا عليها فقالت : حكيم وعرفته قال : نعم قالت : من هذا الذي معك ؟ قال : سعيد بن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فرحمت عليه وقالت : نعم المرة كان عامراً . قلت : يا أم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : أأستقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن فهمت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ قلت : يا أم المؤمنين أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ قالت : أأستقرأ هذه السورة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة . فهمت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ فقلت : يا أم المؤمنين أنبئني عن وتر رسول الله ﷺ . قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعو ثم يسلم تسليماً يسمعا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فذلك إحدى عشرة ركعة يا بني ، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فذلك تسع يا بني ، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان . فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال : صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأقيتها حتى تشافهني مشافهة ^(١) .

وعن ابن عباس قال : أول ما نزل أول الزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُكُمْ رَبِّكُمْ وَيَتَذَكَّرُ لَكُمْ يَوْمَ تَكُونُ الْآيَاتُ الْكُبْرَى ﴾ أي أكثر من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك وما تحتاج إليه من أمور دنياك ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ أي فرغت من أشغالك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البال . قال ابن عباس ومجاهد وأبو صالح وعطية والضحاك والسدي ﴿ وَيَتَذَكَّرُ لَكُمْ يَوْمَ تَكُونُ الْآيَاتُ الْكُبْرَى ﴾ أي : أخلص له العبادة . وقال الحسن : اجتهد وأبذل إليه نفسك . وقال ابن جرير : يقال للعابد متبذل . ومنه الحديث المروي نهى عن التبذل يعني الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الشَّرِيفُ ﴾ أي لا اله إلا هو فَاتَّخِذْهُ زِكْرًا ﴿ أَيِ هُوَ الْمَالِكُ الْمُصَرِّفُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وكما أفردته بالعبادة فأفردته بالوكل فاتخذوه وكليلاً .

﴿ وَأَسِرْ إِلَىٰ ظَنٍّ وَأَعْبِرْهُمْ فَجَبْرًا حَيْلًا ﴾ وَفَدَىٰ وَاللَّكَّيْنِ أُولَىٰ الْكُفَّةِ وَهَاجَرٌ قَلِيلًا ﴿ إِنَّ لَدُنَّا أُنكَاثًا وَدَوَائِيًا ﴾ وَتَلَمَّامًا قَشِيرًا وَطَلَبًا أَيْلًا ﴿ يَوْمَ تَجُثُّ الْأَشْجَارُ وَأَلْجَا لَهَا لَيَسَّ أَلْيَسًا ﴾ إِنْ أُرْسِلَتْ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَبَّاهَا عَلَيْكُمْ مَا أَلْسَنَّا أَلْسَنَةً لَّهُ بِرُوحِ رُسُلِهِ ﴿ فَصَبْرٌ قَاسٍ رُسُلًا فَاتَّخِذْهُ أُخْرًا وَيَكُنْ لَكُمْ كَفَرٌ يَوْمَ يُحْمَلُ إِلَيْنَا أَلْسَنَةً مَّقْلُوبًا بِهٖ كَانَ وَعَدُهُ مَقْلُوبًا ﴾ .

أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿ قَلَّزُوا مَا يَنْتَرَيْنَ الْقُرْآنَ ﴾ أي من غير تحديد بوقت أي ولكن قوما من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، وقد استدلل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمته بهذه الآية وهي قوله : ﴿ قَلَّزُوا مَا يَنْتَرَيْنَ الْقُرْآنَ ﴾ على أنه لا يجب تعين قراءة الفاتحة في الصلاة بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بأية أجزاء واعتضدوا بحدث المساء صلاته : « ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَشَاءُ مِنْ الْقُرْآنِ » ^(١) . وقد أجابهم الجمهور بحدث عبادة بن الصامت أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ » ^(٢) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ صَلَاةٍ لَا يَقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِلَاجٌ فَهِيَ خِلَاجٌ فَهِيَ خِلَاجٌ غَيْرُ نَعَامٍ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ نَزَقٌ وَنَكَزَةٌ يَتُوبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ تَحْتِ الْاَرْضِ وَمَنْحَرُونَ يُتَّبِعُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوق أعذار في ترك قيام الليل من مرضى لا يستطيعون ذلك ومسافرين في الأرض يتتبعون من فضل الله في المكاسب والمتاجر وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله ، وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد فهي من أكبر دلائل النبوة لأنه من باب الإخبار بالغيبيات المستقلة ولهذا قال تعالى : ﴿ قَلَّزُوا مَا يَنْتَرَيْنَهُ ﴾ أي قوما بما تيسر عليكم منه .

عن أبي رجاء محمد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به إما يصلي المكتوبة . وقال : يتوسد القرآن لعن الله ذاك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : ﴿ وَإِنَّكَ لَدَىٰ جِلْدٍ لِمَا عَلَّمْتَهُ ﴾ ﴿ وَطَعْنَتْهُمَا لَوْ شَاءُوا أَنْتَ وَلَا مَعَالِكُكُمْ ﴾ قلت : يا أبا سعيد قال الله تعالى ﴿ قَلَّزُوا مَا يَنْتَرَيْنَ الْقُرْآنَ ﴾ قال : نعم ولو خمس آيات وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري أنه كان يرى حقا واجبا على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ مثل من رجل نام حتى أصبح فقال : « ذَاكَ رَجُلٌ هَالِكٌ الشَّيْطَانُ فِي أَذُنِهِ » ^(٤) . فقبل : معناه نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قام الليل ، وفي الحديث : « مَنْ لَمْ يُؤَازِرْ فَلَيْسَ بِمُتَابِعٍ » ^(٥) . وأغرب من هذا ما حكى عن أبي بكر بن عبد العزيز من الحنابلة من إيجابه قيام شهر رمضان فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِئُوا أَسْأَلَهُ وَيَكْفُرُوا الْإِكْرَ ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة ، وهنا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة لكن مقادير النصب والخروج لم تبين إلا بالمدينة والله أعلم ، وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينها على أقوال كما تقدم ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : « تَحْتَسِبُ صَلَواتِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » . قال : هل علي غيرها ؟ قال : « لَا إِلَّا أَنْ تَطْلُوعَ » ^(٦) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِئُوا اللَّهَ قُرْبَا حَسَنًا ﴾ يعني من الصدقات فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٢/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) والترمذي في السنن (٢٤٧) وأحمد في السنن (٣٢٢/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٠/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٥) والنسائي في السنن (٢٠٤/٣) وأحمد في مسنده (٤٢٧/١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/٥) .

(٦) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٨) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو طود في السنن (٣٩١) .

تَقِيَمُوا لِأَنفُسِكُمْ دِينَ تَحِبُّوا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّبِيَّ ﴿١٠﴾ أَيُّ جَمِيعٍ مَا تَقْدِمُوهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَهُوَ لَكُمْ حَاصِلٌ وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا أَبْقَيْتُمُوهُ لِأَنفُسِكُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّكُمْ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِي وَارِثُهُ ؟ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ . قَالَ : « اغْلَبُوا مَا تَقُولُونَ » . قَالُوا : مَا نَعْلَمُ إِلَّا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « إِنَّمَا مَالٌ أَحَدُكُمْ مَا قَدَّمَ وَمَا لُ وَّارِثُهُ مَا أَخَّرَ » ^(١) . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُّ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ وَاسْتَغْفَرِهِ فِي أُمُورِكُمْ كُلِّهَا فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ اسْتَغْفَرَهُ .

فتادة : طهرها من المعاصي . وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بهد الله إنه لدنس الثياب وإذا روي وأصلح إنه ليطهر الثياب ، وقال عكرمة والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال الشاعر :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْدَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِذَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَحِيمِلُ

وقال ابن زيد : كان المشركون لا يطهرون فأمره الله أن يطهر وأن يطهر ثيابه وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه كما قال امرؤ القيس :

أَقَابِلُم مَهْلًا بَغَضَ هَذَا الْخَذَلُ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْتَمْتُ مَجْرِي فَأَجْبِلِي

وَإِنْ تَكُ قَدْ سَأَعَتْكَ مِثِّي خَلِيقَةً فَسَلِّي نِيَابِي مِنْ نِيَابِكَ تَنْسَلِ

وقال سعيد بن جبير ﴿ رَبَّنَا كَلِّفْ ﴾ وقلبك ونيتك فطهر ، وقال محمد بن كعب القرظي والحسن البصري : وخلقك فحش ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيُّ زَكَاةٍ يُكَذِّبُ ﴾ قال ابن عباس : والرجز وهو الأصنام فاهجر . وقال الضحاك : أي اترك المعصية ، وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ﴾ قال ابن عباس : لا تعط العطية لتلمس أكثر منها وروي عن ابن مسعود أنه قرأ - ولا تمن أن تستكثر - وقال الحسن البصري : لا تمن بعملك على ربك تستكبره وقال مجاهد : لا تضعف أن تستكثر من الخير قال : تمن في كلام العرب تضعف ، وقال ابن زيد : لا تمن بالنبوة على الناس تستكبرهم بها تأخذ عليه عوضاً من الدنيا . فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبِّكَ تَأْسِيرُ ﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﴿ تَأْسِيرُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ فِي السَّانِدِ ﴾ فذلك يوم يبرز يوم حشر ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو كهيفة القرن ، وعن ابن عباس ﴿ فَإِذَا نَزَلَ فِي السَّانِدِ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْتُمْ وَصَاحِبُ الْقُرُونِ قَبْلَ الْقَتْمِ الْقُرُونِ وَحَتَّى جَهَنَّمَ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ ؟ » . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَنَزَلَ يَوْمَ حَشْرٍ ﴾ أي شديد ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي غير سهل عليهم ، وعن زرارة بن أوفى قاضي البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ فِي السَّانِدِ ﴾ فذلك يوم يبرز يوم حشر ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ شق شبهة ثم حو ميثا ﷺ تعالى .

﴿ ذَرَى وَمَنْ خَلَقْتَ رَحِيماً ﴾ وَجَّهَتْ لَهُ مَا لَا تَدْرِكُهُ رَأَيْنَ شَوْكاً وَوَهَّدَتْ لَهُ قَهْقَرَا ﴿ ثُمَّ يَلْجَأُ إِلَى رَبِّهِ ﴾ كَلَّا إِنَّكَ كَانِ لِلْإِنْسَانِ عِينَا سَأَلَهُمْ حَسْرَتَا إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرَ ﴿ فَتَنَّا كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ ثُمَّ أَوْبَقَ رَبُّهُ ﴿ فَقَالَ إِنَّ كَمَا لَا يَحْزَنُ يُؤْخِرُ ﴾ إِنَّ كَمَا لَا قَوْلَ الْبَشَرِ سَأَلِيهِ سَعَرَ وَمَا أَفْرَكَ مَا سَعَرَ ﴿ لَا تَبَى وَلَا تَنْدَرُ ﴾ لَوْنَهُ لِبَشَرٍ ﴿ عَنِهَا قَسَمَ عَسَرَ ﴾ .

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها وجعلها من قول البشر وقد عُدَّ الله عليه نعمه حيث قال تعالى : ﴿ ذَرَى وَمَنْ خَلَقْتَ رَحِيماً ﴾ أي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى ،

﴿ وَبَشِّرْ لَهُمْ أَنَّ مَلَائِكَةَ مَلَكُوتِكُمْ أَيْ وَاسْعًا كَثِيرًا قِيلَ : أَلْفَ دِينَارٍ ، وَقِيلَ : مِائَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ ، وَقِيلَ : أَرْضًا يَسْتَغْلِبُهَا ، وَقِيلَ : غَيْرَ ذَلِكَ ، وَجَعَلَ لَهُ ﴿ وَبَشِّرْهُمْ بِشَرِّهِمْ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : لَا يَغْيِبُونَ أَيْ حَضَرُوا عِنْدَهُ لَا يَسَافِرُونَ بِالتَّجَارَاتِ بَلْ مَوَالِيَهُمْ وَأَجْرَاهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَهُمْ قُعُودٌ عِنْدَ آبِيهِمْ يَجْتَمِعُ بِهِمْ وَيَتَمَلَّى بِهِمْ ، وَكَانُوا فِيمَا ذَكَرَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَقِيلَ : كَانُوا عَشْرَةَ وَهَذَا أَبْلَغُ فِي النِّعْمَةِ وَهُوَ إِقَامَتُهُمْ عِنْدَهُ ﴿ وَبَشِّرْهُمْ بِشَرِّهِمْ ﴾ أَيْ مَكْتَبَتِهِ مِنْ صَنُوفِ الْمَالِ وَالْأَثَاثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ يَبْسُطُ أَلْفَ أَيْدٍ ﴾ كَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ كَأَنَّ لِيَدَيْكَ حَيْثُكَ أَيْ مَعَانِدًا وَهُوَ الْكَفَرُ عَلَى نِعْمَةٍ بَعْدَ الْعِلْمِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَأُفْقِئَهُمْ سَعِيرًا ﴾ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « وَقَدْ زَادَ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ وَالصُّعُودُ يَجْعَلُ مِنْ نَارٍ يَنْصَعِدُّ فِيهِ الْكَافِرُ سِتِّينَ خَرِيفًا ثُمَّ يَهْوِي بِهِ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا » ^(١) . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : صُعُودًا صَخْرَةً فِي جَهَنَّمَ يَسْحَبُ عَلَيْهَا الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : صُعُودًا صَخْرَةً مَلْسَاءَ فِي جَهَنَّمَ يَكْلِفُ أَنْ يَصْعَدَهَا . وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿ سَأُفْقِئَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أَيْ شَقِيَّةً مِنَ الْعَذَابِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : عَذَابًا لَا رَاحَةَ فِيهِ وَاسْتِخَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُمْ مُكْرَّمُونَ ﴾ أَيْ إِنَّمَا أَرْهَقْنَاهُ صُعُودًا أَيْ قَرْنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّاقِّ لِبَعْدِهِ عَنِ الْإِيمَانِ لِأَنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ أَيْ تَرَوَى مَاذَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ حِينَ سَقَلَ عَنِ الْقُرْآنِ فَفَكَّرَ مَاذَا يَخْتَلِقُ مِنَ الْمَقَالِ ﴿ وَبَشِّرْ ﴾ أَيْ تَرَوَى . ﴿ تَقِيلُ كَيْفَ تَقْدَرُ ﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ تَقْدَرُ ؟ دَعَاءٌ عَلَيْهِ ﴿ ثُمَّ قَطَّرَ ﴾ أَيْ أَعَادَ النُّظْرَةَ وَالتَّرَوِيَّ ﴿ ثُمَّ عَمَّ ﴾ أَيْ قَبِضَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَطَّبَ ﴿ وَبَشِّرْ ﴾ أَيْ كَلِّحْ وَكَرِهْ وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ قَبَّرَ وَتَشَتَّتَكَرَ ﴾ أَيْ صَرَفَ عَنِ الْحَقِّ وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى مُسْتَكْبِرًا عَنِ الْإِقْنَادِ لِلْقُرْآنِ ﴿ فَقَالَ إِنْ كَذَبَ إِلَّا تَبَرَّ يُؤَيِّدُ ﴾ أَيْ هَذَا سِحْرٌ يَقْلَهُ مُحَمَّدٌ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ قَبْلَهُ وَيُحْكِيهِ عَنْهُمْ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنْ كَذَبَ إِلَّا تَبَرَّ الْآبِرْ ﴾ أَيْ لَيْسَ بِكَلَامِ اللَّهِ وَهَذَا الْمَذْكُورُ فِي هَذَا السِّيَاقِ هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُنِيرَةِ الْخَزْرُمِيِّ أَحَدَ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ لَعَنَهُ اللَّهُ وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِ فِي هَذَا مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : دَخَلَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُنِيرَةِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ فَسَأَلَهُ عَنِ الْقُرْآنِ فَلَمَّا أَخْبَرَهُ خَرَجَ عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ : يَا عَجَبًا لِمَا يَقُولُ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ بِشَعْرٍ وَلَا بِسِحْرٍ وَلَا بِهَذْيٍ مِنَ الْجَنُونِ وَإِنْ قَوْلُهُ لِمَنْ كَلَامُ اللَّهِ . فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ الْبُغْضَ مِنْ قُرَيْشٍ انْتَحَرُوا وَقَالُوا : وَاللَّهِ لَنْ صَبَأَ الْوَلِيدُ لَتَصْبُوا قُرَيْشَ ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ أَبُو جَهْلٌ بْنُ هِشَامٍ قَالَ : أَنَا وَاللَّهِ أَكْفَيْكُمْ شَأْنَهُ فَاَنْطَلِقْ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتُهُ ، فَقَالَ لِلْوَلِيدِ : أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْمِكَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ الصَّدَقَةَ ؟ فَقَالَ : أَلَسْتُ أَكْثَرَهُمْ مَالًا وَوَلَدًا فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٌ : يَتَحَدَّثُونَ أَنَّكَ إِنَّمَا تَدْخُلُ عَلَى ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ لِتَصِيبَ مِنْ طَعَامِهِ ، فَقَالَ الْوَلِيدُ : أَقَدْ تَحَدَّثْتَ بِهِ عَشِيرَتِي ؟ فَلَا وَاللَّهِ لَا أَقْرَبُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا عَمْرَ وَلَا ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ وَمَا قَوْلُهُ إِلَّا سِحْرٌ يُوَثِّرُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ : ﴿ ذَرَى رَمَنَ خَلَقْتَ وَجْهًا ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ لَا تَبَيِّنْ وَلَا تَقْدَرْ ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ نَظَرْتُ فِيمَا قَالَ الرَّجُلُ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ بِشَعْرٍ وَإِنْ لَهُ خَلَاةٌ ، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَالَاةٌ ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يعلَى عَلَيْهِ وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ سِحْرٌ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ تَقِيلُ كَيْفَ تَقْدَرُ ﴾ الْآيَةَ ﴿ ثُمَّ عَمَّ وَبَشِّرْ ﴾ قَبِضَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَكَلِّحَ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَأُفْقِئَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أَيْ سَأُعْغِرُهُ فِيهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا أَتَرَكْنَاهُ تَا سَعِيرًا ﴾ وَهَذَا تَهْوِيلٌ لِأَمْرِهِا وَتَضَخِيمٌ ، ثُمَّ فَشَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَبَيِّنْ وَلَا تَقْدَرْ ﴾ أَيْ تَأْكُلْ

(١) أخرجه الهرمزي في السنن (٣١٦٤) وأحمد في مسنده (٧٥/٣) .

لخومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون .
 وقوله تعالى ﴿ وَنَسْفَةً يَصُفِّرْ ﴾ قال مجاهد : أي للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فندعه أسود من الليل ، وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : أي حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقوله تعالى : ﴿ عَنَّا نَسْفَةً عَصَرْ ﴾ أي من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم .
 وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد ، غلب أصحابك اليوم فقال : « يَا أَيُّ شَيْءٍ » . قال : سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ قال رسول الله ﷺ : « أَفَغَلِبَ قَوْمٌ يُشَاكِرُونَ عَمَّا لَا يَخْلُقُونَ ؟ فَقَالُوا : لَا نَعْلَمُ حَتَّى نَسْأَلَ نَبِيَّنَا ﷺ ؟ عَلَيْنَا بِأَعْدَائِهِمْ قَدْ سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ أَنْ يُرْفَهُمْ اللَّهُ جَهَنَّمَ » . فأرسل إليهم فدعاهم قالوا : يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : « هَكَذَا » . وطبق كفيه ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة وقال لأصحابه : « إِنَّ شِعْلَكُمْ عَنْ تَرَبَةِ الْجَنَّةِ فِيهِ الدُّرُّنُكُ » . فلما سأله فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار قال لهم رسول الله ﷺ : « مَا تَوْنَةُ الْجَنَّةِ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : خبيرة يا أبا القاسم فقال : « الْحَبْرُ مِنَ الدُّرُّنُكِ » ^(١) .

﴿ وَنَا جَمَلًا أَحْصَى أَثَرُ إِلَّا مَلَكُوتُكَ وَنَا جَمَلًا حَذَّيْتُمْ إِلَّا فِتْنَةُ الْإِيْنِ كَثُرُوا يَسْتَفِيزُ الْإِيْنِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَرَبَّنَا الْإِيْنِ كَأَسْوَأَ لَيْسَ وَلَا يَرْثَاهُ الْإِيْنِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَالْمُتَفَرِّقُونَ وَيَقُولُ الْإِيْنِ فِي قُلُوبِهِمْ تَرَاهُ وَالْكَاذِبُونَ مَاذَا لَرَدَّ اللَّهُ يَهْدِي سَبِيلًا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْيَسْرَةَ وَالْعَسْرَةَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ عَلِيمٌ فَصِيرٌ ﴾ ٣١ وَنَا جَمَلًا أَحْصَى أَثَرُ إِلَّا مَلَكُوتُكَ وَنَا جَمَلًا حَذَّيْتُمْ إِلَّا فِتْنَةُ الْإِيْنِ كَثُرُوا يَسْتَفِيزُ الْإِيْنِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَرَبَّنَا الْإِيْنِ كَأَسْوَأَ لَيْسَ وَلَا يَرْثَاهُ الْإِيْنِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَالْمُتَفَرِّقُونَ وَيَقُولُ الْإِيْنِ فِي قُلُوبِهِمْ تَرَاهُ وَالْكَاذِبُونَ مَاذَا لَرَدَّ اللَّهُ يَهْدِي سَبِيلًا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْيَسْرَةَ وَالْعَسْرَةَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ عَلِيمٌ فَصِيرٌ ﴾ ٣١ وَنَا جَمَلًا أَحْصَى أَثَرُ إِلَّا مَلَكُوتُكَ وَنَا جَمَلًا حَذَّيْتُمْ إِلَّا فِتْنَةُ الْإِيْنِ كَثُرُوا يَسْتَفِيزُ الْإِيْنِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَرَبَّنَا الْإِيْنِ كَأَسْوَأَ لَيْسَ وَلَا يَرْثَاهُ الْإِيْنِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَالْمُتَفَرِّقُونَ وَيَقُولُ الْإِيْنِ فِي قُلُوبِهِمْ تَرَاهُ وَالْكَاذِبُونَ مَاذَا لَرَدَّ اللَّهُ يَهْدِي سَبِيلًا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْيَسْرَةَ وَالْعَسْرَةَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ عَلِيمٌ فَصِيرٌ ﴾ ٣١

يقول تعالى : ﴿ وَنَا جَمَلًا أَحْصَى أَثَرُ ﴾ أي خزانها ﴿ إِلَّا مَلَكُوتُكَ ﴾ أي زبانية غلاظا شداذا ، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة . فقال أبو جهل : يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وَنَا جَمَلًا أَحْصَى أَثَرُ إِلَّا مَلَكُوتُكَ ﴾ أي شديدي الخلق لا يقامون ولا يغالبون ، وقد قيل : إن أبا الأشدين واسمه كلدة بن أسيد بن خلف قال : يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجابا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويحاذبه عشرة ليزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه ، قال السهيلي : وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارحته وقال : إن صرعتني آمنت بك فصرعه النبي ﷺ مرارا فلم يؤمن . قال : وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب قلت : ولا منافاة بين ما ذكرناه والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَا جَمَلًا حَذَّيْتُمْ إِلَّا فِتْنَةُ الْإِيْنِ كَثُرُوا ﴾ أي إنما ذكرنا عددهم أنهم تسعة عشر اختيارا منا للناس ﴿ يَسْتَفِيزُ الْإِيْنِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ ﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَبَّنَا الْإِيْنِ كَأَسْوَأَ لَيْسَ ﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ﴿ وَلَا يَرْثَاهُ الْإِيْنِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَالْمُتَفَرِّقُونَ وَيَقُولُ الْإِيْنِ فِي قُلُوبِهِمْ تَرَاهُ ﴾ أي من

المنافقين ﴿ وَالْكَثِيرُ مِمَّا آتَاكَ اللَّهُ بَيْنَ يَدَيْكَ ﴾ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَنْ يَنْتَهَى عَنْ يَدَيْهِ ﴾ أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام وينزل عند آخرين وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ يَدَيْ جُودِ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى فلا يهزم أنهم تسعة عشر فقط كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملتين سمعوا هذه الآية فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بأخرها وهو قوله : ﴿ وَبَيْنَ يَدَيْ جُودِ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ وقد ثبت في حديث الإسراء عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة « فَإِذَا هُوَ يُدْخِلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَمُودُونَ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا عَلَيْهِمْ » .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَخَفَّتْ لَهَا أَنْ يَطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لَوْ عَلِفْتُمْ مَا أَغْلَمَ لَصَحِيحُكُمْ قَلِيلًا وَلَيْكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَا تَلَذَّيْتُمْ بِالسَّامِ عَلَى الْفُوشَاتِ ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَازُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » . فقال أبو ذر : والله لوددت أنني شجرة تعضد ^(١) . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعٍ قَدَمٍ وَلَا شِبِيرٍ وَلَا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا بَجِيمًا : شُهَعَاتُكَ مَا عِبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ إِلَّا أَنَا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا » ^(٢) . وعن عباد بن منصور قال : سمعت عدي بن أرطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال : سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً تُوعِدُ فَرَأِصُهُمْ مِنْ خِيَفَتِهِ مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَقَطُّ مِنْهُ دَقْعَةٌ مِنْ عِيبِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلِكٍ يَهْضُلُ وَإِنْ مِنْهُمْ مَلَائِكَةٌ شَجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَزِفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَلَا يَزِفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنْ مِنْهُمْ مَلَائِكَةٌ رُكُوعًا لَمْ يَزِفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَزِفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ ﷻ قَالُوا : شُهَعَاتُكَ مَا عِبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ يَدَيْ إِلَّا ذِكْرَكَ يَنْتَرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد ﴿ وَبَيْنَ ﴾ أي النار التي وصفت ﴿ إِلَّا ذِكْرَكَ يَنْتَرِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ نَحْنُ وَالْقَوْمُ ﴾ وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَشَرٌ ﴿ أَيِ أَشْرَقِ ﴾ ﴿ إِنِّي أَنْتَ الْكَافِرِ ﴾ أي المظالم يعني النار ، ﴿ نَبِيًّا بَاقِرًا ﴾ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَقْبَلَ النَّارَ ويهتدي للحق أو يتأخر عنها ويولي ويردها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَجُوعًا ﴾ ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَخَفَتُونَ ﴾ ﴿ عَنِ الشَّامِئِينَ ﴾ ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ ﴿ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ﴿ وَكَانَ خَوْفٌ مَعَ الْقَهْرِ ﴾ ﴿ وَكَانَ ذِكْرُنَا بِمَنَاقِبِهِمْ ﴾ ﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ ﴿ مَا نَعْمُهُمْ فَتَنَةً لِلنَّبِيِّينَ ﴾ ﴿ مَا لَمْ يَنْفَكُوا عَنْ أَفْكَارِهِمْ مَعْصِيَةً ﴾ ﴿ كَانَتْهُمْ حُمْرُ شُتُونَةٍ ﴾ ﴿ قَرَّتْ مِنْ قَسْوَمٍ ﴾ ﴿ بَلْ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣١٢) وابن ماجه في السنن (٤١٩٠) وأحمد في مسنده (١٧٣/٥) والحاكم في المستدرک (٥١٠/٢) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥١/١) والهيدي في كنز العمال (٢٨٩٣٩) والألباني في الصحيحة (١٠٥٩) .

(٣) أورده الهندي في كنز العمال (٢٩٨٣٦) .

يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ ﴿٣٨﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٣٩﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَزَكَّرَ ﴿٤٠﴾ فَمَنْ شَكَاهُ دَكَّرَ ﴿٤١﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَأَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفَرِ وَأَهْلُ النَّفَرِ ﴿٤٢﴾ .

يقول تعالى مخبراً أن ﴿ كُلُّ قَوْمٍ بِنَا كُنْتُمْ رَبيَّةً ﴾ أي : معتقطة ، بعملها يوم القيامة . ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ فإنهم ﴿ فِي جَنَّةٍ يَمْسُكُونُ ﴾ أي : النيران ﴿ أَي : يسألون المجرمين وهم في الفترات وأولئك في الدرجات قائلين لهم ﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿ قَالُوا لَرَبِّكَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴾ وَتَرَكْنَا نُسُومُ الْيَتِيمِينَ ﴿ أَي : ما عبدنا ربنا ولا أحسننا إلى خلقه من جنسنا . ﴾ وَكُنَّا نَحْمُسُ مَعَ الْكَاذِبِينَ ﴿ أَي : نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة : كلما غوى غاوى غويناً معه ﴾ وَكُنَّا نَكُونُ يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَتِيمَ ﴾ يعني الموت كقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ رُؤُوسُهُمْ فِي يَدَيْكَ الْيَتِيمَ ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا هُوَ - يَتِيمِي عُثْمَانُ بْنُ مَطْلُونٍ - فَقَدْ جَاءَهُ الْيَتِيمُ مِنْ رُؤُوسِهِ » ^(١) قال تعالى : ﴿ قَدْ تَنْهَضَتِ السَّيِّئِينَ ﴾ أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالداً فيها ، ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ كُنْ مِنْ أَفْكَرَ مُتْرِشِينَ ﴾ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ كَانَهُمْ حُمُرٌ مَشْقُورَةٌ ﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿ أي كأنهم في نفاهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرت بمن يريد صيدها من أسد ، وقال ابن عباس : الأسد بالعربية ، ويقال له بالحبشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ، وبالنبطية : أوبا . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ ﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبي ﷺ وفي رواية عن قتادة يريدون أن يؤتوا برائة بغير عمل فقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أي : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها .

ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَزَكَّرَ ﴾ أي : حقاً إن القرآن تذكره ﴿ فَمَنْ شَكَاهُ دَكَّرَ ﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَأَ اللَّهُ ﴿ وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْلُ النَّفَرِ وَأَهْلُ النَّفَرِ ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأتاب . وعن أنس بن مالك ؓ قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ أَهْلُ النَّفَرِ وَأَهْلُ النَّفَرِ ﴾ وقال : « قَالَ رَبُّكُمْ أَنَا أَهْلُ أَنْ أَهْلِي أَنْ أَهْلِي ، فَلَا يُجْعَلُ مَعِيَ إِلَهٌ فَتَنِي أَهْلِي أَنْ يَجْعَلَ مَعِيَ إِلَهًا كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في الجاه (١٧٤٣) والبخاري في شرح السنة (٢٤١٣/١٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٧٣/٣) والدارمي في السنن (٣٠٣/٢) .

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ① وَلَا إِلَهَ إِلَّا الْقَبْرُ الْوَلَدُ ② إِنْصَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْعَ عِظَامُهُ ③ بَلْ قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى ④ بَنَاتُهُ ⑤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يَقْتَرِ لَمَتُهُ ⑥ يَنْتَلِ لَيْلَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ⑦ كَيْفَ يَكُونُ الْقَبْرُ ⑧ وَتَحْتَفُ الْقَبْرُ ⑨ وَتَجْعُ الْقَبْرُ وَالْقَبْرُ ⑩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَكُنْ ⑪ كَلَّا لَا تَتَذَكَّرُ ⑫ إِنْ يَكُ يَوْمَهُ لَكَ شَكْرٌ ⑬ فَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَوْمَهُمْ يَسْأَلُ قَدَّمَ وَكَلَّمَ ⑭ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى قَلْبِهِ عِندَهُ ⑮ وَكَوَالْفَنِّ مَعْلُومٌ ⑯ ﴾ .

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه إذا كان متفتياً جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد والرد على ما يزعمه الجاهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ① وَلَا إِلَهَ إِلَّا الْقَبْرُ الْوَلَدُ ② ﴾ قال الحسن : أقسمت يوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة ، وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً ، وعن الحسن والأعرج أنهما قرأ - لأقسم يوم القيامة ① - وهذا يوجه قول الحسن ؛ لأنه أثبت القسم يوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة ، والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً معاً ، فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، قال الحسن البصري في هذه الآية : إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحدِيث نفسي ، وإن الفاجر يمضي قدماً قدماً ما يعتاب نفسه ، وعن جوير عن الحسن البصري قال : ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة . وقال عكرمة : يلوم على الخير والشر لو فعلت كذا وكذا ، وقال سعيد بن جبير : تلوم على الخير والشر ، وقال مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه ، وقال ابن عباس : ﴿ الْكَلْبَةُ ⑥ ﴾ المذمومة ، وقال قتادة : ﴿ الْكَلْبَةُ ⑥ ﴾ الفاجرة . قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات . وقوله تعالى : ﴿ إِنْصَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْعَ عِظَامُهُ ③ ﴾ أي يوم القيامة أيقظنا أننا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ﴿ بَلْ قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ ⑤ ﴾ قال ابن عباس : أن نجعله خفياً أو حافزاً . ووجه ابن جرير : بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا ، والظاهر من الآية أن قوله تعالى : ﴿ قَدِيرِينَ ⑤ ﴾ حال من قوله تعالى : ﴿ يَجْعَ ③ ﴾ أي أيقظنا الإنسان أننا لا نجعل عظامه ؟ بلى سنجمعها . قادرين على أن نسوي بناته ، أي قدرتنا صالحة لجمعها ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان فنجعل بناته وهي أطراف أصابعه مستوية . وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يَقْتَرِ لَمَتُهُ ⑥ ﴾ قال ابن عباس : يعني يمضي قدماً ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي القيامة . وقيل : ليمضي أمامه راحته رأسه ، وقيل : لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قدماً قدماً إلا من عصمه الله تعالى ، وروي أنه هو الذي يجعل الذنوب ويسوف التوبة وقيل : هو الكافر يكذب بيوم الحساب ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَنْتَلِ لَيْلَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ⑦ ﴾ أي يقول : متى يكون يوم القيامة وإثما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده . ﴿ كَيْفَ يَكُونُ الْقَبْرُ ⑧ ﴾ قرأ أبو عمرو بن العلاء : يرق بكسر الراء أي حار . وقرأ آخرون يرق بالفتح وهو قريب في

المعنى من الأول ^(١) ، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخضع وتحار وتذل من شدة الأهوال ومن عظم ما نشاهده يوم القيامة من الأمور . وقوله تعالى : ﴿ وَنَسَفَ الْقُتْرَ ﴾ أي ذهب ضوؤه ﴿ رَجَعَ الْبَصِيرَ وَالْقُتْرَ ﴾ قال مجاهد : كورا ، وقوله تعالى : ﴿ يَكُونُ الْإِنْسُ يَتَذَرُ لِقَى النَّفَرِ ﴾ أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حيث يد أن يفر ويقول : أين المفر أي هل من ملجأ أو موئل . قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا تَتَذَكَّرُ ﴾ ١٦ ﴿ إِنَّ رَبَّهُ يَسْأَلُ تَتَذَكَّرُ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : أي لا نجاة ، ﴿ لَا تَذَكَّرُ ﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ رَبَّهُ يَسْأَلُ تَتَذَكَّرُ ﴾ أي المرجع والمصير . ثم قال تعالى : ﴿ يَبْذُلُوا الْإِنْسُ يَتَذَكَّرُ نَسَا قَدَّمَ وَلَتَرُ ﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، وهكذا قال ههنا : ﴿ يَكُونُ الْإِنْسُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةً ﴾ ١٧ ﴿ وَكُوَ الْإِنْسُ مَتَذَكَّرُ ﴾ أي هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر ، وقال ابن عباس : سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه . وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفي رواية قال : إذا شئت والله رأيته بصيرا بصير ما يعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه وكان يقال : إن في الإنجيل مكتوبا يا ابن آدم تبصر القذاة في عين أخيك ، وتترك الخدع في عينك لا تبصره .

وقال مجاهد : ﴿ وَكُوَ الْإِنْسُ مَتَذَكَّرُ ﴾ ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَكُوَ الْإِنْسُ مَتَذَكَّرُ ﴾ ولو اعتذر يومئذ يبطل لا يقبل منه . وقال السدي : ﴿ وَكُوَ الْإِنْسُ مَتَذَكَّرُ ﴾ حجته . وقال قتادة عن ابن عباس : لو ألقى ثيابه . وقال الضحاك : ولو ألقى ستوره ، وأهل اليمن يسمون الستر المعذر . والصحيح قول مجاهد .

﴿ لَا تَعْرِفْهُ يَوْمَ . لَيْسَ لَهُ يَسْمَعُ يَوْمَ ١٨ ﴾ ١٨ ﴿ إِنَّ مَتَذَكَّرَ جَمْعَهُ وَتَذَكَّرَ ١٩ ﴾ ١٩ ﴿ فَإِنَّا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ ٢٠ ﴾ ٢٠ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَتَذَكَّرَ يَسْمَعُ ٢١ ﴾ ٢١ ﴿ تَبْشِيرُ الْمَاجِدَةِ ٢٢ ﴾ ٢٢ ﴿ وَتَذَكَّرَ الْآخِرَةِ ٢٣ ﴾ ٢٣ ﴿ وَجُودَهُ يَتَذَكَّرُ كَيْفَهُ ٢٤ ﴾ ٢٤ ﴿ إِنَّ رَبَّهُ نَافِرٌ ٢٥ ﴾ ٢٥ ﴿ نَفَرٌ لَنْ يَتَذَكَّرَ مَا لَازَرَهُ ٢٦ ﴾ ٢٦ . هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن يسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه . فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا تَعْرِفْهُ يَوْمَ . لَيْسَ لَهُ يَسْمَعُ يَوْمَ ﴾ أي بالقرآن . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَتَذَكَّرَ جَمْعَهُ ﴾ أي في صدرك ﴿ وَتَذَكَّرَ ﴾ أي أن تقرأه ﴿ فَإِنَّا قَرَأْنَاهُ ﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ ﴾ أي فاستمع له ثم أقرأه كما أقرأك ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَتَذَكَّرَ يَسْمَعُ ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبيته لك وتوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفثيه قال : فقال لي ابن عباس : أنا أحرك شفثي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه . وقال لي سعيد : وأنا أحرك شفثي كما رأيت ابن عباس يحرك شفثيه فأنزل الله ﷻ ﴿ لَا تَعْرِفْهُ يَوْمَ . لَيْسَ لَهُ يَسْمَعُ يَوْمَ ١٨ ﴾ ١٨ ﴿ إِنَّ مَتَذَكَّرَ جَمْعَهُ وَتَذَكَّرَ ١٩ ﴾ ١٩ ﴿ فَإِنَّا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ ٢٠ ﴾ ٢٠ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَتَذَكَّرَ يَسْمَعُ ٢١ ﴾ ٢١ ﴿ تَبْشِيرُ الْمَاجِدَةِ ٢٢ ﴾ ٢٢ ﴿ وَتَذَكَّرَ الْآخِرَةِ ٢٣ ﴾ ٢٣ ﴿ وَجُودَهُ يَتَذَكَّرُ كَيْفَهُ ٢٤ ﴾ ٢٤ ﴿ إِنَّ رَبَّهُ نَافِرٌ ٢٥ ﴾ ٢٥ ﴿ نَفَرٌ لَنْ يَتَذَكَّرَ مَا لَازَرَهُ ٢٦ ﴾ ٢٦ . فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما

(١) قرأ نافع (هذا يوق البصر) بفتح الراء وقرأ الباقون (يرى) بالكسر . انظر حجة القرايات ص ٢٣٦ .

أقرأه ^(١) . وعن ابن عباس ﴿ لَا تُخْرِقْ يَوْمَ يَسْأَلُكَ بِسَمَلٍ يَوْمَ ﴾ قال : كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه فقال الله تعالى : ﴿ لَا تُخْرِقْ يَوْمَ يَسْأَلُكَ بِسَمَلٍ يَوْمَ ﴾ ^(٢) إِنَّ عَلَيْكَ جَمْعَهُ ﴿ أَي : لجمعه لك ﴾ وَفَرَمَانَهُ ﴿ أَنْ نَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى ، وقال ابن عباس وعطية العوفي : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَإِنَّهُ ﴾ تبين حاله وحرامه وكذا قال قتادة . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِيقُونَ الْحِكْمَةَ ﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿ أَي : إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمُخَالَفَةِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ إِنْهُمْ إِنْمَا هَمَّتْهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ وَهُمْ لَاهُونَ مُتَشَاغِلُونَ عَنِ الْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذُرِّيَّةٌ يَتَذَكَّرُ لَهَا مِنَ النَّصَاحَةِ أَي : حَسَنَةٌ بِهِيَّةٍ مُشْرِقَةٍ مَسْرُورَةٍ ﴾ إِنَّ رَبَّكَ نَاطِقٌ ﴿ أَي : تَرَاهُ عَيْنَانِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ : « إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيْنَانِ » ^(٣) . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لَلَّهِ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ مِنْ طَرَفٍ مُتَوَاتِرَةٍ عِنْدَ أئِمَّةِ الْحَدِيثِ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهَا وَلَا مَنَعُهَا وَعَنْ جَبْرِ قَالَ : نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ : « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ، فَإِنْ اسْتَقْبَلْتُمْ أَنْ لَا تُثَلِّمُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ^(٤) . وعن أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا رِذَاءُ الْكِبَرَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَذْبٍ » ^(٥) . وعن صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجْهَنَا ؟ أَلَمْ تُكْثِرْ لَنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ وَهِيَ الزِّيَادَةُ » . ثُمَّ تَلَا هَذِهِ آيَةَ : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا لِلشَّيْءِ ذُوبَانٌ » ^(٦) .

وعن جابر « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ يَضْحَكُ » . يعني في عرصات القيامة ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ فِي الْعَرَصَاتِ رُوضَاتِ الْجَنَّتَاتِ . عَنْ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُو فِي مُلْكِهِ أَلْفِي سَنَةٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَذُنُهُ ، يَنْظُرُ إِلَى أَرْوَاحِهِ وَتَحْدِيمِهِ ، وَإِنْ أَقْصَلَهُمْ مَنْزِلَةً فِي وَجْهِ اللَّهِ كُلُّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ » ^(١) . وَلَوْ لَا خَشْيَةُ الْإِطَالَةِ لَأُورِدْنَا الْأَحَادِيثَ بِطَرَفِهَا وَالْفَاضِلُهَا مِنَ الصَّحَاحِ وَالْحَسَنِ وَالْمُسَانِدِ وَالسَّنَنِ ، وَلَكِنْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ مَفْرَقًا فِي مَوَاضِعٍ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ وَيَا لِهَذَا التَّوْفِيقِ ، وَهَذَا بِحَمْدِ اللَّهِ مُجْمَعٍ عَلَيْهِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّالِعِينَ وَسُلفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أئِمَّةِ الْإِسْلَامِ . وَهَذِهِ الْأَنْامُ ، وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَلِكَ بِأَنْ الْمَرَادَ بِإِلَى مُفْرَدِ الْآلَاءِ وَهِيَ النِّعَمُ ﴿ نَبِيٍّ يُبَيِّنُ بِأَمْرِهِ ﴾ تَعْلَمُ أَنْ يَسْأَلَ بِمَا كَايَرُهُ ﴿ هَذِهِ وَجْهُ الْفَجَارِ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَاسِرَةً ، قَالَ قَتَادَةُ : كَالْحَلَةِ وَقَالَ السُّدِّيُّ : تَغْيِيرُ أَلْوَانِهَا وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ ﴿ بَايَرُهُ ﴾ أَي : عَابَسَهُ ﴿ تَعْلَمُ ﴾ أَي : تَسْتَيْقِنُ أَنَّهَا تَسْتَيْقِنُ ﴾ أَنْ يَسْأَلَ بِمَا كَايَرُهُ ﴿ قَالَ مُجَاهِدٌ : دَاهِيَةٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : شَرٌّ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : تَسْتَيْقِنُ أَنَّهَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٣/١) وجمعه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٥) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥١) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٨) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٧) والحاكم في المستدرک (٨٢/١) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٢) والترمذي في السنن (٣٣٣٠) .

كَأَنَّهُمْ عَلَقٌ عَلَىٰ حَائِطٍ ﴿٢٦﴾ أَي فصار علقه ثم شكّل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً آخر سوياً سليم الأعضاء ذكرُوا أو أننى بإذن الله وتقديره . ولهذا قال تعالى : ﴿ جَعَلْنَاهُمْ نَجَافَ ذُرِّيَّتَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ أَن يُخَيَّرَ لِلذَّكَرِ ﴾ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه . وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداية وإما مساوية على القولين في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ والأول أشهر . وعن موسى بن أبي عائشة قال : كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ أَن يُخَيَّرَ لِلذَّكَرِ ﴾ قال : سبحانك هبلى . فسأله عن ذلك فقال : سمعته من رسول الله ﷺ . ، وعن أبي هريرة : قال قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ بِالثَّانِي وَالرَّابِعِينَ فَأَتَتْهُ إِلَىٰ أُخْرَاهَا ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَامِلٍ مُّكْتَمِلٍ ﴾ فَلْيُثَلِّ : بَلَىٰ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿ لَا أُقِيمُ بَيْنَ يَدَيِ الْيَتِيمِ ﴾ فَأَتَتْهُ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ أَن يُخَيَّرَ لِلذَّكَرِ ﴾ فَلْيُثَلِّ : بَلَىٰ ، وَمَنْ قَرَأَ : ﴿ وَالْمُرْتَدَّ ﴾ فَطَلَعَ ﴿ يَا أَيُّهَا الْحَدِيثُ بِمَدَنٍ يُقِيمُونَ ﴾ فَلْيُثَلِّ : آمَنَّا بِاللَّهِ » ^(١) وعن قتادة قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ أَن يُخَيَّرَ ﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سُبْحَانَكَ وَبَلَىٰ » ^(٢) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٠/٢) والبخاري في شرح السنة (١٠٤/٣) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٦٣/٨) وعوله إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد .

سورة الإنسان

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الذِّ ١ تَبٰرَكَ﴾ السجدة و ﴿هَٰذَا هَٰذَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَٰذَا هَٰذَا عَلَى الْإِنْسَانِ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَفْهَرُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّا تَدَّكُرُ ١﴾ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتِغِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ٢﴾ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه ، فقال تعالى : ﴿هَٰذَا هَٰذَا عَلَى الْإِنْسَانِ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَفْهَرُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّا تَدَّكُرُ﴾ ثم بين ذلك فقال ﷺ : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي أخلط ، والمشح والمشيح : الشيء المختلط بفضله في بعض ، قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَفْهَرُ﴾ يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتماعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور وحال إلى حال ولون إلى لون . وقوله تعالى ﴿بِئْتِيهِ﴾ أي نخبره ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية ، وقوله جل وعلا : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيناه له ووضحناه وبصرناه به . كقوله ﴿وَمَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي بيناه له طريق الحير وطريق الشر . وقيل خروجه من الرحم وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول . وقوله تعالى : ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ منصوب على الحال من الهاء في قوله : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ تقديره فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، فمن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كل الناس يغلدو فبائع نفسه فموقبها أو فمقبها » (١) .

وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » . قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يَكُونُونَ مِنْ بَقْدِي لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايَ ، وَلَا يَنْتَشُونَ بِسُنَنِي فَعَنْ صِدْقَتِهِمْ يَكْذِبُهُمْ وَأَعَانَتُهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَٰئِكَ لَا يَشْرُونَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا يَرُدُّونَ عَلَيَّ حَوْضِي ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْتُهُمْ بِكَلِمَتِهِمْ وَلَمْ يُحِثُّهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَٰئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ ، وَسَيَرُدُّونَ عَلَيَّ حَوْضِي يَا كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ : الصُّومُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ ، وَالصَّلَاةُ قُرْبَاتٌ - أَوْ قَالَ بُرْهَانٌ - يَا كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَتَّى تَبْتَ مِنْ شَعْبٍ ، الثَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ ، يَا كَعْبُ : النَّاسُ غَادِيَانِ فَمَتَّاعٌ نَفْسَهُ فَمُغْتَبَأٌ ، وَمَتَّاعٌ نَفْسَهُ فَمُوقَبَةٌ » (٢) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ إِلَّا يَتَابِعُهُ رَافِقَانِ ، زَانَةٌ يَبْدِي عَذَابُهَا وَزَانَةٌ يَبْدِي شَيْطَانُهَا ، فَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُحِبُّ اللَّهُ اتَّبَعَهُ الْمَلَكُ بِرَأْيِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ زَانَةِ الْمَلِكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ ؛ وَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُشْخِطُ اللَّهُ اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَأْيِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ زَانَةِ الشَّيْطَانِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ » (٣) .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٨٧١) وأحمد في مسنده (٣٣٤/١) والبيهقي في السنن (٢٠٠/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١) والترمذي في السنن (٣٥١٧) وابن ماجه في السنن (٢٨٠) وأحمد في مسنده (٣٤٢/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢١/٣) والبخاري في الترميز والهرهب (١٩٤/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٢) وابن عروة في صحيحه (١٩٣) .

﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ الْكَافِرِينَ سَلْبِلًا وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ١٠ إِنَّ الْآخِرِينَ يَشْرَبُونَ مِنْ حَافِرٍ كَانَ مِنْهَا حَافِرًا ١١ يَشْرَبُ بِهَا عَيْنُهُمْ أَفْهَ يَشْرَبُونَهَا تَقْبِيرًا ١٢ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَيَقُولُونَ بِمَا كَانَ شَرًّا مَسْطُورًا ١٣ وَيَقُولُونَ الْكَلَامَ عَلَى حَيْثُ وَشَكْرًا ١٤ وَإِنَّمَا تَلْعَلُهُمْ لُجُجٌ أَوْ لَا يُؤْمِنُ بِنُجْمِهِمْ وَلَا شَكْرًا ١٥ إِنَّا نَحْنُ رَبُّنَا يُؤْمِنُونَ بِمَا عَنُونَا فَلْتَمَ الْبُتْلَاءُ ١٦ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِمَا عَدَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ١٧ وَنَزَّلْنَاهُمْ نَارًا وَنُورًا ١٨ وَنَزَّلْنَاهُمْ بِمَا سَبَّحُوا جَنَّةً وَجَنَّةً ١٩ ﴾ .

يخبر تعالى عما أُرْصد له للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير وهو اللهب والحريق في نار جهنم ولما ذكر ما أعد لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الْآخِرِينَ يَشْرَبُونَ مِنْ حَافِرٍ كَانَ مِنْهَا حَافِرًا ١١ ﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذافة في الجنة . قال الحسن : برد الكافور في طيب الزنجبيل ، ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عَيْنُهُمْ أَفْهَ يَشْرَبُونَهَا تَقْبِيرًا ١٢ ﴾ أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج وورون بها ؛ ولهذا ضُغِنَ يشرب معنى يروي حتى عداه بالباء ونصب عينًا على التمييز ، قال بعضهم هذا الشراب في طيبه كالكافور ، وقال بعضهم : هو من عين كافور ، وقال بعضهم : يجوز أن يكون منصوبًا يشرب ، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ يَشْرَبُونَهَا تَقْبِيرًا ١٢ ﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاءوا وأين شاءوا قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم ، والتفجير هو الإنباع ، وقال مجاهد : ﴿ يَشْرَبُونَهَا تَقْبِيرًا ١٢ ﴾ يقولونها حيث شاءوا ، وقال الثوري : يصرفونها حيث شاءوا ، وقوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَيَقُولُونَ بِمَا كَانَ شَرًّا مَسْطُورًا ١٣ ﴾ أي يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر . عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِيعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يُعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يُعْصِ » ^(١) . ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذي يكون شره مستطيرًا ، أي منتشرًا عالمًا على الناس إلا من رحم الله ، قال ابن عباس : فاشيًا ، وقال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ الْكَلَامَ عَلَى حَيْثُ ١٤ ﴾ قيل على حب الله تعالى ، وجعلوا الضمير عائذًا إلى الله ﷻ لدلالة السياق عليه ، والأظهر أن الضمير عائذ على الطعام أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له ، عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتبه عني أول ما جاء العنب ، فأرسلت صغية يعني امرأته فاشتريت عنقودًا بدرهم فاتبع الرسول ﷺ سائل فلما دخل به قال السائل : السائل ، فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأرسلت بدرهم آخر فاشتريت عنقودًا فاتبع الرسول ﷺ السائل فلما دخل قال السائل : السائل فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأعطوه إياه ، فأرسلت صغية إلى السائل فقالت : والله إن عدت لا تصيب منه خيرًا أبدًا ، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت به ^(٢) . وفي الصحيح : « أَقْبَلُ الصَّدَقَةَ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ شَرِّهِ تَأْتِلُ الْبَنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ » ^(٣) . أي في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ الْكَلَامَ عَلَى حَيْثُ وَشَكْرًا وَبُيْرًا ١٥ ﴾ أما المسكين واليتيم فقد

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٢٨٩) والترمذي في السنن (١٥٢٦) وأحمد في مسنده (٤١/٦) .

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٨٥/٤) . (٣) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٢) .

تقدم يانهما وصفتهما ، وأما الأسير فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك : الأسير من أهل القبلة ، وقال ابن عباس : كان أسراهم يومئذ مشركين ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغذاء . وقال عكرمة : هم العبيد ، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرک ، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث حتى أنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصَّلَاةُ وَنَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ^(١) . قال مجاهد : هو المحبوس أي يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه قائلين بلسان الحال ﴿ إِنَّمَا تَلَوْتُمْ لِيِنَّهُ آثَرُ ﴾ أي رجاء ثواب الله ورضاه ﴿ لَا يُدْرِيكُمْ جَزَاءُكُمْ وَلَا شُكْرُكُمْ ﴾ أي لا نطلب منكم مجازاة نكافؤنا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .

قال سعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بالسنتم ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب ﴿ إِنَّمَا تَخَلَّتْ مِنْ رَبَّنَا يَتْرُكُنَا قَطْرًا ﴾ أي إنما فعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العيوس القمطرير . قال ابن عباس : عبوسا ضيقا ، قمطريرا طويلا ، قال ابن جرير : والقمطرير هو الشديد يقال هو يوم قمطرير ويوم قماطر ويوم عصبب وقد اقمطر اليوم بقمطر اقمطارا وذلك أشد الأيام وأطولها في البلاء والشدة ومنه قول بعضهم :

يَبْقَى عَمَلُنَا حُلًّا تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا ؟ عَلَيْنَا إِذَا مَا كَانَ يَوْمُ قَمَاطِرٍ ^(٢)

قال الله تعالى : ﴿ قَرْنَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذِكِّ الْكَلْبِ وَلَقَدْ نَفَرْنَا نَفَرًا وَشَرًّا ﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ﴿ قَرْنَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذِكِّ الْكَلْبِ ﴾ أي أنهم مما خافوا منه ﴿ وَلَقَدْ نَفَرْنَا نَفَرًا ﴾ أي في وجوههم ﴿ وَشَرًّا ﴾ أي في قلوبهم ، وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه ، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه ^(٣) حتى كأنه فلقه قمر ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَرَكْهُمْ يَوْمَ صَلَاتِهِمْ ﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم ويؤاهم ﴿ جَزَاءُ وَبَرِكًا ﴾ ، أي منزلا رحيا وعيشا رغدا ولباسا حسنا .

﴿ لَنُكَيِّسَنَّ يَوْمَ عَلَى الْأَرْضِ لَا يَرَوْنَ يَوْمَ حَسَا وَلَا رَهَقًا ﴾ ^(٤) وَنَكَيْتُمْ عَلَيْهِمْ فَلَقْنَا وَكَلَّتْ ثُلُوثُهَا نَذِيلًا ^(٥) وَطَلَّكَ عَلَيْهِمْ وَكَلَّتْ مِنْ يَسْقُو وَأَكْوَابَ كَانَتْ قَوَارِيرًا ^(٦) قَوَارِيرًا مِنْ يَسْقُو قَدْ رَمَتْهَا قَنَازِيرًا ^(٧) وَنَسَقْنَا يَوْمَ حَسَا كَانَتْ رِيَّاحُهَا نَجِيلًا ^(٨) عَيْنًا يَوْمَ حَسَا سَكِينًا ^(٩) وَتَلَوْتُ عَلَيْهِمْ وَلَدًا تَمْلِكُونَ إِنَّا نَجِيهِمْ حَبِيبَتِهِمْ قَوْلًا شَرًّا ^(١٠) وَلَمَّا رَأَيْتُمْ نِيَّكَ وَمَلَكَ كَيْدًا ^(١١) عَلَيْهِمْ يَدُوكَ شَيْئًا خَفَرًا وَاسْتَرْقُوا وَطَلَّكَ أَسْوَدًا مِنْ يَسْقُو وَسَقَاهُمْ رَحِيمًا شَرًّا مَهْمًا ^(١٢) إِذْ كُنَّا كَانْ لَكُ جَزَاءُ وَكَانَ سَيِّئًا مَعْدُومًا ^(١٣) .

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى : ﴿ لَنُكَيِّسَنَّ يَوْمَ عَلَى الْأَرْضِ ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الصافات وذكر الخلاف في الاتكاء هل هو الاضطجاع أو التمرق أو التربع أو التمكن في الجلوس ، وأن الأرائك هي السرر تحت الحجال وقوله تعالى : ﴿ لَا يَرَوْنَ يَوْمَ حَسَا وَلَا رَهَقًا ﴾ أي ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم ، هي مزاج واحد دائم سرمدي لا يغيرون عنها حولا ﴿ وَنَكَيْتُمْ عَلَيْهِمْ فَلَقْنَا ﴾ أي قرية إليهم أغصانها ﴿ وَكَلَّتْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٣) وابن ماجه في السنن (٢٦٩٧) .

(٢) معاني القرآن للزمخشري (ص ٣٥١) ، تفسير الطبري (٢٦٢/٢٨) .

(٣) أخرجه البخاري في اللقاب (٣٥٠٦) ومسلم في الحرة (٥٣) والحاكم في المستدرک (٦٠٠/٢) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٦) .

وسلطاناً باهراً . وثبت أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا إليها : إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَذْنِي أَهْلُ الْجَنَّةِ مَتَرٌ لَمْ يَنْظُرْ فِي مَلِكِهِ مِصْبَرَةٌ أَلْفِي مَتَرٌ يَنْظُرُ إِلَى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى أَذْنَاهُ » (١) .

وقوله ﷻ : ﴿ عِلْيَهُمْ نَيْبٌ سُنِّيٌّ فَخَرٌ وَسِيقٌ ﴾ أي لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولعان وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس ﴿ وَطَلَا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما اللقريون فكما قال تعالى : ﴿ يُحْكِمُ اللَّهُ فِيهِمَا مِنْ لَسَاوِدَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده : ﴿ وَسَنَنَهُمْ زِينَتُهُمْ مُشْرَبًا ظَهْرًا ﴾ أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة ، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشريوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم ، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا فَتَسْكُنُوا ﴾ أي يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم . قال تعالى ﴿ كُنَّا نَقْرَأُ هَيْثُ بِمَا اسْتَفْتَسْنَا مِنَ الْأَلْهَامِ تَفْكِيرًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ سَعِيرًا فَتَسْكُنُوا ﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّ هُنَّ نَزَّلَتْ خَطَاكَ أَلْفَ ثَوْبٍ ﴾ قاسم لشيء نزل ولا قطع بينهم وبينه أثر كثرة ﴿ وَلا تَكُنْ أَمَةً لِرَبِّكَ بَغْرًا ﴾ وأصيله ﴿ وَبِزَيْنِ أَلَيْلٍ قَاسِمَةً لَمْ يَسْبِقْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ إنك هؤلاء يحسون الكليلة ويذرون وركلهم يوماً قبيلاً ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَاهُمْ وَبَدَّدْنَا آسْرَهُمْ ﴾ ولما يشق بذلك أنزلهم تبيلاً ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ نَذْرٌ فَتَنَّا إِلَى تَرْبِهِمْ سَبِيلًا ﴾ وما تذكرون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيمًا ﴿ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَالْغَافِلِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مبتثلاً على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿ قَاسِمَةً لَشَيْءٍ نَبِّكَ ﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿ وَلا تَطْلُعْ مِنْهُمُ بَغْرًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله فإن الله بمصمك من الناس ، فالآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه . ﴿ وَلا تَكُنْ أَمَةً لِرَبِّكَ بَغْرًا وَأَصِيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره ﴿ وَبِزَيْنِ أَلَيْلٍ قَاسِمَةً لَمْ يَسْبِقْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَبِزَيْنِ أَلَيْلٍ فَتَحَدَّثَ بِذِهِ نَافِلَةً لَكَ صَاحٌ أَيْ يَمَكِّنُ رَبُّكَ مَكَانًا تَحْشُرُونَ ﴾ ثم قال تعالى منكرًا على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَحْسُونُ الْكَلِيلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَكْلَهُمْ يَوْمًا قَبِيلًا ﴾ يعني يوم القيامة ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَاهُمْ وَبَدَّدْنَا آسْرَهُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : يعني خلقهم ﴿ وَبَدَّدْنَا آسْرَهُمْ ﴾ أي وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً ، وهذا استدلال بالبداية على الرجعة ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ نَذْرٌ ﴾ يعني هذه السورة تذكرة ﴿ وَبِزَيْنِ أَلَيْلٍ قَاسِمَةً لَمْ يَسْبِقْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ أي طريقاً ومسلِكاً أي من شاء اهتدى بالقرآن ، ثم قال تعالى : ﴿ وَبِزَيْنِ أَلَيْلٍ قَاسِمَةً لَمْ يَسْبِقْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٣٥/١٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٤٢٠/١٠) .

فَتَنَكَّبُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٣﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿٢٤﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٥﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فيسيرها له ويقبض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى . وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى : ﴿٢٦﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٧﴾ ثم قال : ﴿٢٨﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالْظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٩﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

سورة الرسائل

عن عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿ وَالرَّسَلَكُ ﴾ فإنه ليطلعها وإنى لألتقاهما من فيه وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية ، فقال النبي ﷺ : « أَتَقُولُهَا » . فاجتدرناها فذهبت . فقال النبي ﷺ : « وَنَحْنُ شَرُّكُمْ كَمَا وَفَّقْتُمْ شَرُّهَا » ^(١) . وعن ابن عباس أن أم الفضل سمعته يقرأ ﴿ وَالرَّسَلَكُ ﴾ فقالت : يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لأخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالرَّسَلَكُ ﴾ ١ وَالصَّيْقَلُ ٢ وَالْقِيَرَتُ ٣ وَالْقِيَرَتُ ٤ وَالْقِيَرَتُ ٥ عَذْرَا أَوْ ذُنْدَرَا ٦ إِنَّمَا تَوَعَّدَنِي لَوَيْحٍ ٧ فَإِنَّا الْكُتُبُ لَكُنَّ ٨ وَإِنَّا الْكُتُبُ لَكُنَّ ٩ وَإِنَّا الْكُتُبُ لَكُنَّ ١٠ وَإِنَّا الْكُتُبُ لَكُنَّ ١١ لَيْلِي يَوْمِ الْقِيَامِ ١٢ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْقِيَامِ ١٣ وَيَلَّيْ يَوْمِ الْقِيَامِ ١٤ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : للملائكة ، وقيل : هي الرسل ، وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات أنها الملائكة . وعن أبي العبيدين قال : سألت ابن مسعود عن الرسائل عرفاً قال : الريح ، وكذا قال في ﴿ وَالصَّيْقَلُ عَصَا ﴾ والقِيَرَتُ نَزْرٌ ، إنها الريح وكذا قال ابن عباس ومجاهد وتوقف ابن جرير في ﴿ وَالرَّسَلَكُ ﴾ هل هي الملائكة إذا أرسلت بالعرف أو كعرف الفرس يتبع بعضهم بعضاً ، أو هي الرياح إذا هبت شيقاً فشيقة ؟ وقطع بأن العاصفات عصفاً الرياح وقوله تعالى : ﴿ وَالْقِيَرَتُ عَصَا ﴾ عَذْرَا أَوْ ذُنْدَرَا ، يعني الملائكة ولا خلاف ههنا : فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغي ، والحلال والحرام ، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعلال إلى الخلق وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَوَعَّدَنِي لَوَيْحٍ ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام أي ما وعدتم به من قيام الساعة والنفع في الصور وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ومجازاة كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، إن هذا كله لواقع ، أي لكائن لا محالة . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنَّا الْكُتُبُ لَكُنَّ ﴾ أي ذهب ضوؤها . ﴿ وَإِنَّا الْكُتُبُ لَكُنَّ ﴾ أي انقطعت وانشقت وتدلّت أرجاؤها ووهت أطرافها ﴿ وَإِنَّا الْكُتُبُ لَكُنَّ ﴾ أي ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا الْكُتُبُ لَكُنَّ ﴾ : جمعت . وقيل : أجلت . وقيل : أوعدت ثم قال تعالى : ﴿ لَيْلِي يَوْمِ الْقِيَامِ ﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْقِيَامِ ١٣ . يقول تعالى لأي يوم أجلت الرسل وأرجى أمرها حتى تقوم الساعة . ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْقِيَامِ ١٤ ﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً وقد قدمنا في الحديث أن ويل واد في جهنم ، ولا يصح .

﴿ أَرَأَيْتَ الْآلُونَ ١٥ ﴾ ثُمَّ تَقِيَهُمُ الْآخِرِينَ ١٦ كَذَلِكَ نَقُولُ لِلْمُتَّبِعِينَ ١٧ وَيَوْمَ يَوْمِ الْقِيَامِ ١٨ أَرَأَيْتَ الْآلُونَ ١٩

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٤) ومسلم في السلام (١٣٧) وإسنادي في السنن (٢٠٨/٥) وأحمد في مسنده (٤٢٨/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٦) .

وَنَبَأًا ﴿١٧﴾ وَصَّيْنَا النَّفَّاكَ ﴿١٨﴾ أَي لَنُخْرِجَ بِهَذَا الْمَاءِ الْكَثِيرِ الطَّيِّبِ النَّافِعَ الْمُبَارَكِ ﴿١٩﴾ حَبًّا ﴿٢٠﴾ يَدْخُرُ لِلْأُنَاسِ وَالْأَنْعَامِ ﴿٢١﴾ وَنَبَأًا ﴿٢٢﴾ أَي خَضِرًا يُوَكَّلُ رَطْبًا ﴿٢٣﴾ وَصَّيْنَا ﴿٢٤﴾ أَي بَسَاتِينَ وَحِدَاقٍ مِنْ ثَمَرَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ وَطَعْمٍ وَرَوَائِحٍ مُتَفَاوِتَةٍ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مُجْتَمِعًا ، وَلِهَذَا قَالَ : وَجَنَاتٍ أَلْفَافًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : أَلْفَاةً : مُجْتَمِعَةٌ .

﴿١٧﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٨﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّبُورِ نَفَاتُورُ أَرْوَاحِكُمْ ﴿١٩﴾ وَرُفِعَتِ الْأَنْسَاءُ فَكُنْتُ أَبْوَابًا ﴿٢٠﴾ وَصَّيْنَا لِيَلْبَاقَ فَكُنْتُ سَرَابًا ﴿٢١﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَلًا ﴿٢٢﴾ لِلْكَافِرِينَ نَكَبًا ﴿٢٣﴾ لَيُبَيِّنَ فِيهَا أَصْقَابًا ﴿٢٤﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا إِلَّا مَنْ بَرَأَ وَلَا ضَرَكًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا جِسْمًا وَفَسْفًا ﴿٢٦﴾ جَزَاءً وَنَكَبًا ﴿٢٧﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٨﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٩﴾ وَكُلُّ قَوْمٍ لَّحِصَتُهُ كِتَابًا ﴿٣٠﴾ فَذَرُّوا قُلُوبَهُمْ قَدْ رَضُوا قُلُوبَهُمْ إِلَّا عَذَابًا .

يقول تعالى مخبرًا عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود لا يزداد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التعيين إِلَّا اللَّهُ ﷻ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّبُورِ نَفَاتُورُ أَرْوَاحِكُمْ ﴿١٩﴾ قال مجاهد : زمرًا زمرًا . قال ابن جرير يعني تأتي كل أمة مع رسولها . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا يَتَّبِعُ الْمُتَّقِينَ أَرْبَعُونَ » . قالوا : أربعون يومًا ؟ قال : « أَتَيْتُ » . قالوا : أربعون شهرًا ؟ قال : « أَتَيْتُ » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أَتَيْتُ » . قال : « ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيُخْرِجُونَ كَمَا يُخْرِجُ الْبَيْتُ الْبَيْتُ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْقَى إِلَّا عَظْمًا وَاجِدًا وَهُوَ عَجَبُ الدَّنْبِ وَمِثْلُ مُرْكَبِ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) . ﴿٢٠﴾ وَرُفِعَتِ الْأَنْسَاءُ فَكُنْتُ أَبْوَابًا أَي طَرَفًا وَمَسَالِكَ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ ﴿٢١﴾ وَصَّيْنَا لِيَلْبَاقَ فَكُنْتُ سَرَابًا ﴿٢٢﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَرَى لِكُلِّ لَبَّاسٍ قَسَمًا لَبِئْسَ مَا كُنَّ مَرًّا لِنَفْسِهِ ﴾ وقال ههنا ﴿ فَكُنْتُ سَرَابًا ﴾ أَي يَخْبِلُ إِلَى النَّظَرِ أَنَّهَا شَيْءٌ وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ وَبَعْدَ هَذَا تَذْهَبُ بِالْكَلِيَّةِ فَلَا عَيْنَ وَلَا أَثَرَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَلًا ﴾ أَي مَرَصِدَةً مَعْدَةً ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ وَهُمْ الْمُرْدَةُ الْعَصَاةُ الْخَالِفُونَ لِلرَّسْلِ ﴿ نَبَأًا ﴾ أَي مَرْجَعًا وَمُنْقَلَبًا وَمَصِيرًا وَنَزْلًا .

وقوله تعالى : ﴿ لَيُبَيِّنَ فِيهَا أَصْقَابًا ﴾ أَي مَا كُنْتُ فِيهَا أَحْقَابًا وَهِيَ جَمْعُ حَقَبٍ وَهُوَ الْمَدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لَهْلَالُ الْهَجَرِيِّ : مَا تَجِدُونَ الْحَقَبَ فِي كِتَابِ اللَّهِ لِلْمَنْزِلِ ؟ قَالَ : لِمَجْدَةِ ثَمَانِينَ سَنَةً ، لِكُلِّ سَنَةٍ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، كُلُّ شَهْرٍ ثَلَاثُونَ يَوْمًا ، كُلُّ يَوْمٍ أَلْفَ سَنَةٍ . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو : الْحَقَبُ أَرْبَعُونَ سَنَةً كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ . وَقَالَ بَشِيرُ بْنُ كَعْبٍ : ذَكَرَ لِي أَنَّ الْحَقَبَ الْوَاحِدَ ثَلَاثُمِائَةِ سَنَةٍ ، كُلُّ سَنَةٍ ثَلَاثُمِائَةِ وَسِتُونَ يَوْمًا ، كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا كَأَلْفِ سَنَةٍ . عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « وَاللَّهِ لَا يَخْرُجُ مِنَ الثَّارِ أَحَدٌ حَتَّى يَمُوتَ فِيهَا أَحْقَابًا » . قَالَ وَالْحَقَبُ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ ، كُلُّ سَنَةٍ ثَلَاثُمِائَةِ وَسِتُونَ يَوْمًا مِمَّا تَعْدُونَ (٢) وَقَدْ قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حِيَّانٍ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَذَرُّوا قُلُوبَهُمْ قَدْ رَضُوا قُلُوبَهُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ وَقَالَ خَالِدُ بْنُ بَعْدَانَ هَذِهِ الْآيَةُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ . ثُمَّ قَالَ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيُبَيِّنَ فِيهَا أَصْقَابًا ﴾ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَدْخُلُونَهَا إِلَّا مَنْ بَرَأَ وَلَا ضَرَكًا ﴾ ثُمَّ يَحْدِثُ اللَّهُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَذَابًا مِنْ شَكْلِ آخَرٍ وَنَوْعٍ آخَرٍ ثُمَّ قَالَ : وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا لَا انْقِضَاءَ لَهَا ، وَعَنْ سَالِمٍ مِمْنَعَتِ الْحَسَنِ يَسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لَيُبَيِّنَ فِيهَا أَصْقَابًا ﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن (١٤١) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٥/١٠) والوارث في مسنده (٣٥٠٣) .

أَتَقْنَاهُ ﴿٣١﴾ قال : أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار ، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة كل يوم منها كالف سنة مما تعدون ، وقال الريح بن أنس ﴿ لَيْتَيْنِ فِيهَا تَحْقَابُ ﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله ﷻ ، وذكر لنا أن الحقب الواحد ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم كالف سنة مما تعدون . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أي لا يجلسون في جهنم برذاً لقلوبهم ولا شرباً طيباً يتذوقون به ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا حَرِيKAً وَسَفْكَاً ﴾ قال أبو العالية استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الفساق فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه ، والفساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم فهو بارد لا يستطيع من يرده ولا يواجه من ننته ، قال ابن جرير : وقيل المراد بقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ يعني النوم كما قال الكندي :

بَرَدَتْ مَرَاتِبُهَا عَلَيَّ فَصَدَّيْنِي عَنْهَا وَعَنْ قُبُلَاتِهَا الْبَرْدُ

وقوله تعالى : ﴿ جَزَاءُ وَكَفَّ ﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا . ثم قال تعالى : ﴿ إِنْهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم دأوا يجازون فيها ويحاسبون ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴾ أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله صلى الله عليه وسلم فيقابلونها بالكذب والمعاندة وقوله : ﴿ كِذَابًا ﴾ أي تكذيباً ، وهو مصدر من غير الفعل ، قالوا : وقد سمع أعرابي يستفتي الفراء على المزوة : « الخلق أحب إليك أو القصار ؟ »

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَمْسَيْنَتْهُ كُنُوزًا ﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد كلهم وكتبناهم عليهم ومنسجهم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا كَذِبَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ ﴾ أي يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه وآخر من شكله أزواج . وعن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ فَذُوقُوا كَذِبَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ ﴾ قال : فهم في مزيد من العذاب أبداً .

﴿ إِنَّ لِلنَّارِ لَنُفُوسًا مَّكَانًا ﴾ ﴿ سَكَنًا وَرَاقَةً ﴾ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَمْسَيْنَتْهُ كُنُوزًا ﴾ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴾ ﴿ جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ فِيهَا سَكَنًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد الله تعالى لهم من الكرامة والنعيم المقيم فقال تعالى : ﴿ إِنَّ لِلنَّارِ لَنُفُوسًا مَّكَانًا ﴾ قال ابن عباس والضحاك : متنزهاً . وقال مجاهد وقادة : فازوا فنخرجوا من النار . والأظهر هنا قول ابن عباس ؛ لأنه قال بعده ﴿ سَكَنًا ﴾ والحدائق البساتين من التخييل وغيرها ﴿ وَرَاقَةً ﴾ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَمْسَيْنَتْهُ كُنُوزًا ﴾ أي وحوراً كواعب ، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَمْسَيْنَتْهُ كُنُوزًا ﴾ أي نواهد ، يعنون أن ثديين نواهد لم يتدلين ؛ لأنهن أبكار عرب أثراب ، أي في سن واحد ، وعن أبي أمامة أنه سمعه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ قُفُصَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَتَكُونُ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ ، وَإِنَّ الشَّحَابَ لَتَقُشِّرُهُمْ كَتَنَادِيهِمْ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أَطِيرَكُمْ ؟ عَنَى إِنَّهَا لَتَكُشِّرُهُمُ الْكَوَاغِبُ الْأَثْرَابُ » ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَمْسَيْنَتْهُ كُنُوزًا ﴾ قيل : مملوءة متتابعة . وقيل : صافية ، وقيل : الملائى

لنترعة ، وقيل : هي المتابعة . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا كِتَابًا ﴾ كقوله : ﴿ لَا تَلْقَوْنَهَا وَلَا تَأْتِيكُمْ ﴾ أي ليس فيها كلام لا عار عن الفائدة ولا إثم كذب ، بل هي دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص . وقوله : ﴿ بَرَزَتْ مِنْ رَبِّكَ مَعَلَّةٌ يَسْجَا ﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله ومنه وإحسانه ورحمته ﴿ مَعَلَّةٌ يَسْجَا ﴾ أي كافيا وافيا سالما كثيرا ، تقول العرب : أعطاني فأحسبني أي كافيني ومنه حسبي الله أي الله كافني .

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ الرَّحْمَنُ لَا يَمُوتُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَوْمِ الْوُجُوهِ ﴾ ﴿ وَاللَّيْلَةِ ﴾ ﴿ مَعَلَّةٌ يَسْجَا لَا يَنْتَكِلُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِيَ لَهُ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنُ وَقَالَ مَوْلَايَ ﴾ ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْمُنْفِي ﴾ ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَتَدَا إِلَى رَبِّهِ مَنَابَا ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْكَاذِبُ يَنْفِئُ كَذِبَهُ ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيه وما بينهما وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَمُوتُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَوْمِ الْوُجُوهِ ﴾ اخلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو ؟ على أقوال أحدها : أنهم أرواح بني آدم ، الثاني : هم بنو آدم ، الثالث : أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة - ولا يبرهن وهم يأكلون ويشربون . الرابع : هم جبريل ويستشهد لهذا القول بقوله ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِئَلَّا يَكُنَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وقال مقاتل بن حيان : الروح هو أشرف الملائكة وأقربهم إلى الرب ﴿ وَالرَّبُّ ﴾ وصاحب الوحي . الخامس : أنه القرآن . والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يَوْمَ يَوْمِ الْوُجُوهِ ﴾ قال : هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقا .

والأشبه عندي والله أعلم أنهم بنو آدم . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُوذِيَ لَهُ ﴾ كقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي لَا تَنْفَعُكُمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ وكما ثبت في الصحيح : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الْوُشْلُ ﴾ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مَوْلَايَ ﴾ أي حقا ومن الحق لا إله إلا الله ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْمُنْفِي ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَتَدَا إِلَى رَبِّهِ مَنَابَا ﴾ أي مرجعا وطريقا يهتدي إليه ومنهجيا يمر به عليه وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعني يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا ، لأن كل ما هو آت آت ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْكَاذِبُ مَا قَدَّمَتْ يَدَا ﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرا وشرا ، قديما وحديثا ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَنْفِئُ كَذِبَهُ ﴾ أي يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابا ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، وذلك حين عاين عذاب الله ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة ، وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقص للشاة الجماء من القرناء ، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كوني ترابا فصير ترابا فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ يَنْفِئُ كَذِبَهُ ﴾ أي كنت حيوانا فأرجع إلى التراب .

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً وَمَرَجًا ۝ وَلِيَالٍ لَّيْسَ ۝ مَنَّا لَكَ وَلَئِنَّكَ ۝

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدنه ﴿ مَنَّا لَكَ وَلَئِنَّكَ ﴾ أيها الناس ﴿ أَنَسْتَدْعَاكَ أَوْ نَسْتَدْعِي ﴾ يعني بل السماء أشد خلقاً منكم ، وقوله تعالى : ﴿ مَنَّا ﴾ فسر بقوله : ﴿ رَجْعَ سَمَكِهَا ﴾ أي جعلها عالية البناء بعيدة الغناء مستوية الأرجاء مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنطَلَقْنَا بِهَا وَخَرَجْنَا مِنْهَا ﴾ أي جعل ليلاً مظلمة أسود حالكا ، ونهارها مضيقاً مشرقاً نيراً واضحاً ، قال ابن عباس : أغطش ليلاً أظلمه ، ﴿ وَخَرَجْنَا مِنْهَا ﴾ أي أثار نهارها . وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ رَحْوًا ﴾ فسر بقوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً وَمَرَجًا ﴾ وقد تقدم في سورة السجدة أن الأرض خلقت قبل خلق السماء ولكن إما دحيث بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . عن ابن عباس ﴿ رَحْوًا ﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام . فذلك قوله : ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ رَحْوًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَالٍ لَّيْسَ ﴾ أي قررها وأثبتها وأكدها في أمكانها وهو الحكيم العليم . الرؤوف بخلقه الرحيم . وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَحِيَّةً فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَالْقَاهَا عَلَيْهِمَا فَاسْتَقَرَّتْ فَصَحَّيْتُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ خَلْقِ الْجِبَالِ ، فَقَالَتْ : يَا رَبِّ ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ الْجِبَالِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : الْحَيْدُ . قَالَتْ : يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ الْحَيْدِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، النَّارُ . قَالَتْ : يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، الْمَاءُ . قَالَتْ : يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْمَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : الرِّيحُ . قَالَتْ : يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : إِنَّ أَدَمَ يَتَصَدَّقُ بِتَوْبَتِهِ يُخَوِّفُهَا عَنْ شِمَالِهِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ مَنَّا لَكَ وَلَئِنَّكَ ﴾ أي دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأثبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ، كل ذلك متاعاً لخلقها ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن يتنهي الأمد وينقضي الأجل .

﴿ فَإِذَا جَاءَ الظُّلُمُتُ الْكُبْرَى ۝ يَوْمَ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۝ وَتَرَى الْجِبِينَ لِيَن رَّى ۝ فَلَمَّا مَنَ طَفَى ۝ وَتَرَى لَكِبَةَ الْأَشْيَاءِ ۝ إِذَا الْبُحْبُوحُ ۝ وَالْمَاءُ مَنَ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْبَلَّةَ هِيَ الْكَأَنَى ۝ يَتَذَكَّرُكَ مَنَ الْكَلْبَةِ إِذَا مَرَسَتْ ۝ فَمَنْ لَتَ مِنْ ذِكْرَهَا ۝ إِلَى ذِكْرِكَ مَسْتَهْزِئًا ۝ إِنَّمَا أَنتَ سَرُورٌ مَنَ يَتَقَنَّنَا ۝ فَكَلِمَةً يَوْمَ يُرَدُّهَا لَوْ بَلِيًّا إِلَّا حَيَّةً أَوْ حَشَا ۝ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الظُّلُمُتُ الْكُبْرَى ﴾ وهو يوم القيامة ، قاله ابن عباس سميت بذلك ؛ لأنها تطم على كل أمر هائل مقطع ، ﴿ يَوْمَ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ أي حيسل يذكرك ابن آدم جميع عمله خيره وشره . ﴿ وَتَرَى الْجِبِينَ لِيَن رَّى ﴾ أي أظهرت للناظرين فرأها الناس عياناً ﴿ فَلَمَّا مَنَ طَفَى ﴾ أي ترمد وهنا ﴿ وَتَرَى لَكِبَةَ الْأَشْيَاءِ ﴾ أي قدمها على أمر دينه وأخبره ﴿ إِذَا الْبُحْبُوحُ هِيَ الْكَأَنَى ﴾ أي فإن مصيره إلى

الحميم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي خاف القيام بين يدي الله ﷻ وخاف حكم آله فيه ونهى نفسه عن هواها وردّها إلى طاعة مولاه ﴿إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ النَّارُ﴾ أي منقلبها ومصيره ورجعه إلى الجنة الفيحاء ثم قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ عَنِ السَّاعَةِ لَكِنَّ مِرْسَاكَ﴾ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَهَا﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مُنْهَبَكُهَا﴾ أي ليس عملها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردّها ورجعها إلى الله ﷻ فهو الذي يعلم وقتها على التمين ؛ ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » (١) . وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَعْتَنِيهَا﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذّره من بأس الله وعذابه فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلق ، وأنجح والحياة والحسار على من كذبك وخالفك . وقوله تعالى : ﴿كُلُّهُمْ يَوْمَ يَوْمَيْ رَبِّهِمْ أَوْ يُبَدِّلُهَا أَوْ يُغَيِّرُهَا أَوْ يُخَفِّفُهَا أَوْ يَزِيدُهَا أُولَٰئِكَ أَمْثَلُ السَّاعَةِ﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشيّة من يوم أو ضحى من يوم ، عن ابن عباس ﴿كُلُّهُمْ يَوْمَ يَوْمَيْ رَبِّهِمْ أَوْ يُبَدِّلُهَا أَوْ يُغَيِّرُهَا أَوْ يُخَفِّفُهَا﴾ أما عشيّة فما بين الظهر إلى الغروب الشمس ﴿أَوْ يُزِيدُهَا﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار وقال قتادة : وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّةُ زَيْدِكَ ۚ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُمُ الْإِذْرَاكِ ۚ (٤) لَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ (٥) فَلَمَّا كَرِهَ اللَّهُ مُدَاوَنَةَ الْمُشْرِكِينَ ۚ (٦) وَأَوَّاهَ عَنْهُمْ وَاعْتَزَّ بِالنَّاصِي ۚ (٧) وَلَوْ يَفْقَهُ تَوَلَّىٰ سَعْدُ ۚ (٨) أَنَّهُمْ كَفَرُوا أَزْوَاجًا ۚ (٩) وَلَكِنَّ اللَّهَ دَاخِرُ السُّعُودِ ۚ (١٠) وَهُوَ يُعْطِي السَّعْيَ ۚ (١١) وَأَنَّا مِنَ جَهَنَّمَ بَاسِقُونَ ۚ (١٢) ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب أحد عظماء قريش وقد طمع في إسلامه فيمنما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديماً فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلج عليه ، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ؛ ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعا ورغبة في هدايته . وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل على الآخر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّةُ زَيْدِكَ ۚ (٣) أَي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه ﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُمُ الْإِذْرَاكِ ۚ (٤) أي يحصل له انعطاف وازدجار عن المحارم ﴾ لَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ (٥) فَلَمَّا كَرِهَ اللَّهُ مُدَاوَنَةَ الْمُشْرِكِينَ ۚ (٦) وَأَوَّاهَ عَنْهُمْ وَاعْتَزَّ بِالنَّاصِي ۚ (٧) أي أما الغني فأنت تعرض له لعله يهتدي ﴾ وَمَا يُعْطِيكَ إِلَّا يَزِيدُ ۚ (٨) أَي ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة ﴾ وَلَكِنْ اللَّهُ دَاخِرُ السُّعُودِ ۚ (٩) أَي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ دَاخِرُ السُّعُودِ ۚ (١٠) وَلَوْ يَفْقَهُ تَوَلَّىٰ سَعْدُ ۚ (٨) أَنَّهُمْ كَفَرُوا أَزْوَاجًا ۚ (٩) وَلَكِنَّ اللَّهَ دَاخِرُ السُّعُودِ ۚ (١٠) وَمِنْ ههنا أمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والغني والسادة والعبيد والرجال والنساء والصغار والكبار . ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

عن عائشة قالت : أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدني . قالت : وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين . قالت : فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : « أَتَزِي بِمَا أَقُولُ بَأْسًا ؟ » . فيقول : لا ! ففي هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ ﴾ وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : أنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم ولم يذكر فيه عن عائشة (١) .

قلت : كذلك هو في الموطن . وعن عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنْ بَلَاءٌ يُؤْذَنُ بِأَلِيلٍ فَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَشْفَقُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ » (٢) . وهو الأعمى الذي أنزل الله تعالى فيه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ ﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وكان يؤذن مع بلال ، قال سالم : وكان رجلاً ضريب البصر فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس حين ينظرون إلى بزوغ الفجر : أذن . وذكر عروة بن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت في ابن أم مكتوم والمشهور أن اسمه عبد الله ويقال : عمرو والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ ﴾ أي هذه السورة أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، وقال قتادة والسدي : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ ﴾ يعني القرآن ﴿ فَتَنَّهُ ذِكْرًا ۚ ﴾ أي فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٧) ومسلم في الصيام (٣٧) والترمذي في السنن (٢٠٣) والنسائي في السنن (١٠/٢) وأحمد في مسنده (٥٧/٢) .

سورة التكويد

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَوَّاهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا هُوَ رَأَى عَيْنَ فَلْيَسْرَأْ » ﴿ إِذَا الْفُتُيْشُ كُورَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الْفُتُيْشُ كُورَتْ ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْيَسَارُ عُلِقَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْيَسَارُ سُيِّرَتْ (٦) وَإِذَا الْفُتُيْشُ رُوجَتْ (٧) وَإِذَا السَّمَاءُ سُيِّرَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ كُفِطَتْ (٩) وَإِذَا الْبَحْرُيْنِ سَيِّرَتْ (١٠) وَإِذَا الْيَمَّةُ انْزَلَتْ (١١) يَهْبَتُ مَا تَاءْتَحِرَتْ (١٢) .

عن ابن عباس ﴿ إِذَا الْفُتُيْشُ كُورَتْ ﴾ : يعني أطلعت . وقال العوفي : ذهب . وقال مجاهد : اضمحلّت وذهبت . وقال الضحاك : ذهب ضبوها . وقال الربيع : رمي بها . قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكويد جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض . فمعنى قوله تعالى ﴿ كُورَتْ ﴾ جمع بعضها إلى بعض ثم لفت قَوْمِي بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضبوها . وعن ابن عباس : إذا الشمس كورت قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبحث الله ريحا دبورًا فضررها نازًا . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُكْوَرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ أي انشردت كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴾ وأصل الانكدار الانصباب . عن أبي بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فيبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم فيبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ففرغت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجرو بعضهم في بعض ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : اختلطت ﴿ وَإِذَا الْيَسَارُ عُلِقَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وَإِذَا الْيَسَارُ سُيِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج ، قال : فيبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال : فيبينما هم كذلك إذا جاءتهم الريح فأماتهم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعًا صفيصفًا . وقوله ﴿ وَإِذَا الْيَسَارُ عُلِقَتْ ﴾ تركت وسيئت وقال أبي بن كعب : أهملها أهلها . وقال الربيع ابن خيثم : لم تحلب ولم تصر تخلى منها أربابها . وقال الضحاك : تركت لا راعي لها ، والمعنى في هذا كله متقارب ، والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر - وأحدثها عشاء . ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كمالاتها والارتفاع بها بعد ما كانوا أرغب شيء فيها ، بما دهمهم من الأمر العظيم الملقط

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/٢) والترمذي في السنن (٢٢٣٣) والألباني في الصحيحة (١٠٨١) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٤) .

الهائل وهو أمر يوم القيامة وانتقاد أسبابها ووقوع مقدماتها ، وقيل بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها ، وقد قيل في العشار : إنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا وقيل إنها الأرض التي تعشر ، وقيل : إنها الديار التي كانت تسكن تعطلت لنهب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه التذكرة ، ورجح أنها الإبل وعزاها إلى أكثر الناس . قلت : لا يعرف عن السلف والأئمة سواء . وقوله تعالى : ﴿ ذَاكَ الْفَوْشُ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت . قال ابن عباس : يحشر كل شيء حتى الذباب . وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق موافقة فيقضي الله فيها ما يشاء ، وقال عكرمة : حشرها موتها . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ ذَاكَ الْفَوْشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : حشر البهائم وموتها وحشر كل شيء للموت غير الجن والإنس ، فإنهما يوقنان يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَاكَ الْيَاسْرُ حُشِرَتْ ﴾ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أين جهنم ؟ قال : البحر . فقال : ما أراه إلا صادقا ﴿ وَالْأَيْمُ لِلشَّجَرِ ﴾ . ﴿ ذَاكَ الْيَاسْرُ حُشِرَتْ ﴾ . وقال مجاهد والحسن بن مسلم : سجرت أوقدت . وقال الحسن : يست . وقال قتادة : غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة . وقال السدي : فضحت وصبرت . وقال الربيع بن خيثم : سجرت فاضت . وقوله تعالى : ﴿ ذَاكَ الْفَوْشُ ذُجِبَتْ ﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره ، عن النعمان بن بشير أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ ذَاكَ الْفَوْشُ ذُجِبَتْ ﴾ - قال - الضُّرْبَاءُ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَفْعَلُونَ عَمَلَهُ »^(١) . وذلك بأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ بِأَصْحَابِ الْيَسَارِ ۚ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۚ وَالشُّرَكَاءُ الشُّرَكَاءُ ۚ ﴾ . قال : هم الضرباء ، عن النعمان قال : سئل عمر عن قوله تعالى ﴿ ذَاكَ الْفَوْشُ ذُجِبَتْ ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، فذلك تزويج الأنفس . وعن مجاهد ﴿ ذَاكَ الْفَوْشُ ذُجِبَتْ ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع بينهم . واختاره ابن جرير وهو الصحيح .

قول آخر في قوله تعالى : ﴿ ذَاكَ الْفَوْشُ ذُجِبَتْ ﴾ عن ابن عباس قال : يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصبيحتين ومقدار ما بينهما أربعون عامًا ، فنبت منه كل خلق بلي من الإنسان أو طير أو دابة ، ولو مر عليهم ما قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على وجه الأرض قد نبثوا ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله تعالى : ﴿ ذَاكَ الْفَوْشُ ذُجِبَتْ ﴾ . وزوج المؤمنون بالخير العين وزوج الكافرون بالشياطين . حكاه القرطبي في التذكرة . وقوله تعالى : ﴿ ذَاكَ الْفَوْشُ ذُجِبَتْ ﴾ أي ذُجِبَتْ قِيلَتْ ﴿ الْمَوْعُودَةُ هِيَ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدْسُونَهَا فِي التُّرَابِ كَرَاهِيَةَ الْبَنَاتِ ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَسْأَلُ الْمَوْعُودَةُ عَلَى أَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَهْلِيلًا لِعَاقِلَاتِهَا فَإِنَّهُ إِذَا سَأَلَ الْمَظْلُومُ فَمَا ظَنَ الظَّالِمِ إِذَا ؟ وَقد وردت أحاديث تتعلق بالموعدة ، فمن عائشة بنت جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت : حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيْلَةِ فَتَطَلَّثْتُ فِي الزَّوْمِ وَفَارَسَ فَإِذَا هُمْ يُعِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ وَلَا يَحْضُرُونَ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا » . ثم سأله عن العزل فقال رسول الله

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٤/٦) والطبري في تفسيره (٨٨/٢٩) .

وقال ابن عباس : هي الظباء ، وعن إبراهيم ومجاهد أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿ قَدْ أَتَيْنَا لَئِيْنِ ﴾ الجبري الكثير ﴿ فقال إبراهيم لمجاهد : قل فيها بما سمعت ، قال : فقال مجاهد : كنا نسمع فيها شيئا وناس يقولون إنها النجوم ، قال : فقال إبراهيم : قل فيها بما سمعت ، قال : فقال مجاهد : كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكس في حجرتها ، قال : فقال إبراهيم : إنهم يكذبون عليّ على هذا ، كما روى عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى والأسفل الأسفل . وتوقف ابن جرير في المراد بقوله ﴿ لَئِيْنِ ﴾ الجبري الكثير ﴿ هل هو النجوم أو الظباء وبقر الوحش قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا ، وقوله تعالى ﴿ وَآيَاتِي لَكُمْ مَسَاسَ ﴾ فيه قولان أحدهما : إقباله بظلامه ، والثاني : إذا أدبر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : خرج علينا عليّ حين ثوب الثوب بصلاة الصبح فقال : أين السائلون عن الوتر ﴿ وَآيَاتِي لَكُمْ مَسَاسَ ﴾ وأصبح لآي تنكس ﴿ هذا حين أدبر حسن . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ لَئِيْنِ ﴾ مَسَاسَ ﴿ إذا أدبر قال لقوله ﴿ وَآصْبَحَ لَئِيْنِ ﴾ أي أضواء واستشهد بقول الشاعر أيضا :
عَشَى إِذَا الصُّبْحُ لَمْ تَنْقُصَا وَاجْتَابَ غُثَّهَا لَيْلُهَا وَعَشْعُشَا (١)

أي أدبر وعندي أن المراد بقوله ﴿ لَئِيْنِ ﴾ إذا أقبل وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضا لكن الإقبال ههنا أنسب ، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضياؤه إذا أشرق ، كما قال تعالى ﴿ وَآيَاتِي لَكُمْ مَسَاسَ ﴾ وأصبح لآي تنكس ﴿ . وغير ذلك من الآيات ، وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة عسس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما والله أعلم . وقال ابن جرير : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن عسس دنا من أوله وأظلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَآصْبَحَ لَئِيْنِ ﴾ قال الضحاك : إذا طلع ، وقال قتادة : إذا أضواء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ وهو المروي عن علي . وقال ابن جرير : يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبين . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ قَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر وهو جبريل عليه الصلاة والسلام . ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أي له مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة ، قال أبو صالح في قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ قال جبريل يدخل في سبعين حجبا من نور بغير إذن ﴿ تُلَاقِيَنَّهُمْ ﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى . قال قتادة : ﴿ تُلَاقِيَنَّهُمْ ﴾ أي في السموات يعني ليس هو من أفناء الملائكة بل هو من السادة والأشراف معني به انتخب لهذه الرسالة العظيمة . وقوله تعالى : ﴿ أَمِينٌ ﴾ صفة لجبريل بالأمانة وهذا عظيم جدا أن الرب ﷻ يزكي عبده ورسوله للملكي كما زكى عبده ورسوله البشري محمدا ﷺ بقوله تعالى ﴿ وَبَارِكُكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﴾ يعني محمدا ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْكَافِرِينَ ﴾ يعني ولقد رأى محمدا جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿ بِالْأُفُقِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي البين وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء ، والدليل عليه أن المراد بذلك جبريل ﷺ ، والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى ، وأما

(١) البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن (ص : ٣٠) والطبري في تفسيره (٩٨/٢٩) .

الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِندَهَا جَنَّاتٌ مِّنْ أَلْوَانٍ ۖ لَا تَبْغَى ۚ كَيْدُهَا مَا يَشَاقُ ۚ ﴾ . فذلك إما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد سورة الإسراء . وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَىٰ عَلَى الْكَلْبِ بَطْنَيْنِ ﴾ أي وما محمّد على ما أنزله الله إليه ﴿ يَضِيضَيْنِ ﴾ أي يمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد^(١) أي يبخيل بل يبذله لكل أحد . قال سفيان بن عيينة : ظنين وضنين سواء أي ما هو بكاذب وما هو بفاجر . والظنين التهم والضنين البخيل . وقال قتادة : كان القرآن غيبا فأنزله الله على محمّد فما ضرب به على الناس بل نشره وبلغه وبذله لكل من أرادّه ، واختار ابن جرير قراءة الضاد قلت : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدّم ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَىٰ عَلَى الْكَلْبِ بَطْنَيْنِ يَجِيحُ ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا يبغي له ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَيُّ تَحْجُورَةٍ ﴾ أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبهم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقّا من عند الله ﷻ كما قال الصديق رضي الله عنه لو فد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم فتلوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة الكذاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال : ويحكم أين تذهب عقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل ، أي من إله ، وقال قتادة : ﴿ فَأَيُّ تَحْجُورَةٍ ﴾ أي عن كتاب الله وعن طاعته .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَهٌ يَّكَرُّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتمثلون ﴿ لَئِنْ شَاءَ يَنْصُرَكُمْ أَنْ يَسْتَعِيزَ ﴾ أي لمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه مناجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ﴿ وَمَا تَنْتَهُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ أي ليست المشيعة موكولة إليكم فمن شاء اعتدى ومن شاء ضل بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين . عن سليمان بن موسى لما نزلت هذه الآية ﴿ لَئِنْ شَاءَ يَنْصُرَكُمْ أَنْ يَسْتَعِيزَ ﴾ قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا تَنْتَهُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ .

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (بطنين) وقرأ الباقون (بطنين) (حجة القراءات ص ٧٥٢) .

سورة الانفاطار

عن جابر قال : قام معاذ فصبى العشاء الآخرة فطول فقال النبي ﷺ : « أَتَأْكُلُ أَتَى مَا مُعَادُ ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ شَيْعِ إِسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالضُّحَى ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ا » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوْكُبُ انشَرتْ ② وَإِذَا الْيَمَّا فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ⑥ أَلَيْسَ خَلْقَكَ فَسَوْكَ فَصَلَّكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا خَلَقَ رَبُّكَ ⑧ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالْبَيِّنِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَتْلُونَ مَا تُقَالُونَ ⑫ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أي انشقت ﴿ وَإِذَا الْكَوْكُبُ انشَرتْ ﴾ أي تساقطت ﴿ وَإِذَا الْيَمَّا فُجِرَتْ ﴾ : فجر الله بعضها في بعض وقال الحسن : فجر الله بعضها في بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط عليها بما لها .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴾ قال ابن عباس : بحثت ، وقال السدي : تبعثر تحرك فيخرج من فيها ﴿ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴾ هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب حيث قال الكريم حتى يقول قائلهم غره كرمه بل المعنى في هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم برك الكريم أي العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق وقال قتادة : ﴿ مَا غَرَّبَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴾ شيء ، ما غر ابن آدم غير هذا العدو الشيطان . وقال الفضيل بن عياض : لو قال لي ما غرك بي لقلت : متورك المرحاة . وقال أبو بكر الوراق : لو قال لي ما غرك برك الكريم لقلت : غرني كرم الكريم . وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال ﴿ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقنه الإجابة ، وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بباطل لأنه إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور . وقد حكى البغوي عن الكلبي ومقاتل أنهما قالوا : نزلت هذا الآية في الأسود بن شريق ضرب النبي ﷺ ولم يعاقب في الحالة الراهنة فأنزل الله تعالى ﴿ مَا غَرَّبَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ خَلْقَكَ فَسَوْكَ فَصَلَّكَ ﴾ أي ما غرك بالرب الكريم ﴿ أَلَيْسَ خَلْقَكَ فَسَوْكَ فَصَلَّكَ ﴾ أي جعلك سويا مستقيما معتدلا القائمة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال ، عن بشر ابن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوما في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَنِّتَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَتَيْدٌ فَجَمَعَتْ وَمَنْعَتْ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الشَّرَافِي قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَزَانُ الصَّدَقَةُ ؟ » (٢) . وعن أبي هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسود ، قال : « هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟ » . قال : نعم ، قال : « فَمَا أَلَوَّائِهَا » . قال : حمر . قال : « فَهَلْ فِيهَا مِنْ »

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٧٨) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٣) والنسائي في السنن (١٦٨/٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٦١١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/٤) .

أَوْزُقُ . قال : نعم ، قال : « فَأَتَى أَنفَاقًا ذَلِكُ » . قال : عسى أن يكون نزع عرق قال : « وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقًا » ^(١) ﴿ وَآيَةُ صُورِهِ مَا فَتَنَّا زُجْجَكَ ﴾ قال عكرمة إن شاء في صورة كلب وإن شاء في صورة حمار وإن شاء في صورة خنزير . ومعنى هذا القول عند هؤلاء أن الله ﷻ قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة للخلق ، ولكن بقدرته وطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام حسن المنظر والهيئة .

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكِيدُونَ الْإِنِّينَ ﴾ أي إما يحملكم على مواجهة الكرم ومقابله بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ لِحُفَظَتِهِمْ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴾ ^(٢) يعني وإن عليكم للملائكة حفظة كرامًا فلا تقابلوهم بالقبايح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ ^(٣) وَلَكِنَّ الشَّكَارَ لَفِي نَجِيمٍ ^(٤) يَصَلُّونَ بِحَيْثُ يَمِيزُونَ ^(٥) وَمَا هُمْ بِمُعْتَرِفِينَ ^(٦) وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْإِنِّينِ ^(٧) ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْإِنِّينِ ^(٨) يَوْمَ لَا تَنفِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ^(٩) .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم وهم الذين أطاعوا الله ﷻ ولم يقابلوه بالمعاصي . ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من المحيم والعذاب المقيم ولهذا قال : ﴿ يَصَلُّونَ بِحَيْثُ يَمِيزُونَ ﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْتَرِفِينَ ﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يومًا واحدًا ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْإِنِّينِ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ثم أكد بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْإِنِّينِ ﴾ ، ثم فسره بقوله ﴿ يَوْمَ لَا تَنفِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ونذكر ههنا حديث : « مَا تَقِي هَاهُنَا أَتُقْلِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ لَا أَفْلَحُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » ^(١٠) . ولهذا قال : ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ قَالَ تَهَادَةَ ﴿ يَوْمَ لَا تَنفِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ والأمر والله اليوم لله ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

(١) أخرجه البخاري في الاحصام (٧٣١٤) ومسلم في الممان (١٨) والترمذي في السنن (٢١٢٨) وأحمد في مسنده (٤٠٩/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٨) والسنن في السنن (٢٤٨/٦) وأحمد في مسنده (٥١٩/٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى الْكَلْبِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَانُوا عَلَى أَثَرٍ كَالْقَوْمِ أَوْ وَدَّعُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَنْظُرُونَ أَنفُسَهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ۝ يَتِمَّ عَقِبُ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْكَافِرِينَ ۝﴾ .

عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبت الناس كيلاً فأنزل الله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ فحسبوا الكيل بعد ذلك ^(١) . وعن عبد الله قال : قال له رجل يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل قال : وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ - حتى بلغ - يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْكَافِرِينَ ﴿ والمراد بالتطفيف ههنا الخس في المكيال والميزان إما بالازدياد إن اقتضى من الناس وإما بالنقصان إن قضاهم ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى الْكَلْبِ﴾ أي من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي يأخذون حقهم بالوفاي والرائد ﴿وَإِذَا كَانُوا عَلَى أَثَرٍ كَالْقَوْمِ أَوْ وَدَّعُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون ، والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعلّقين ويكون هم في محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميراً مؤكداً للمستمر في قوله كالوا ووزنوا ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه وكلاهما متقارب . وقد أمر الله تعالى بالفاء في الكيل والميزان فقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَزِنًا بِالْقِسْطِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يخسرون الناس في الميزان والمكيال . ثم قال تعالى متوعداً لهم : ﴿أَلَا يَنْظُرُونَ أَنفُسَهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ۝ يَتِمَّ عَقِبُ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْكَافِرِينَ﴾ أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول كثير الفزع جليل الخطب من خسره فيه أدخل نازراً حامية ؟ وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْكَافِرِينَ﴾ أي يقومون حفاة عراة غرلاً في موقف صعب حرج ضيق ضنك على الجرم وينشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه .
عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْكَافِرِينَ﴾ حتى يغييب أقدارهم في رشحهم إلى أنصاف أذنيهم ^(٢) .

عن المقداد بن الأسود الكندي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذْنُكَ السَّمْعُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ حَتَّى تَكُونَ قَدَرُ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ﴾ - قال - فَتَضَعُهُمُ السَّمْعُ فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ قَدَرُ أَصْعَالِيهِمْ ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِيْبِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى خَفَوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِئُهُ إِلَى جَانِبِهِ ^(٣) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لبشير الغفاري : ﴿كَيْفَ أَنْتَ صَابِرٌ فِي يَوْمٍ يَقُومُ النَّاسُ فِيهِ ثَلَاثُمَاوَةَ سَنَةٍ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا لَا يَأْتِيهِمْ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يُؤْمَرُ فِيهِمْ بِأَمْرٍ ؟﴾ قال بشير : للمستعان الله ، قال : ﴿فَإِذَا أَوْتَتْ إِلَى

(١) أخرجه النسائي في السنن (٤٥٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٨) وأحمد في مسنده (٦٤/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٦) والترمذي في السنن (٢٤٢١) .

فَرَأَيْتَ أَفْئِدَةً تَنْقُودُ بِاللَّهِ مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَسُوءِ الْحِصَابِ ^(١) . وعن ابن مسعود : يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلمهم أحد قد ألجم العرق بوجهم وفاجرهم ، وعن ابن عمر : يقومون مائة سنة ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يفتح قيام الليل : يكبر عشرا ويحمد عشرا ، ويسبح عشرا ويستغفر عشرا ويقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْدِنِي وَأَهْدِنِي وَغَافِلِي » . ويعتزذ من ضيق المقام يوم القيامة ^(٢) .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَفِي سِجِّينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ سِجِّينَ ﴾ ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ ﴿ قَالَ يُدْعَى لِلْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ الْيَوْمَ يُكْرَهُ إِلَيْنَا أَلْيَيْنَ ﴾ ﴿ وَمَا يُكْرَهُ إِلَيْنَا كَلَّ مُتَمَرِّدٍ أَيْمٍ ﴾ ﴿ إِنَّا نُنْزِلُ الْقُرْآنَ فَتَعْلَمُ أَنَّ أَسْبَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْشُورُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ ﴿ ثُمَّ قَالُوا هَذَا أَلْفُ كُفْرٍ كَذِبٍ ﴾ .

يقول تعالى حقاً ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَفِي سِجِّينَ ﴾ أي أن مصيرهم ومآولهم لفي سجين فعيل من السجن وهو الضيق كما يقال فسيق وسكير ومكسر ونحو ذلك ؛ ولهذا عظم أمره فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ سِجِّينَ ﴾ أي هو أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم ، ثم قد قال قائلون : هي تحت الأرض السابعة ، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل : يقول الله ﷻ في روح الكافر اكتبوا كتابه في سجين . وسجين هي تحت الأرض السابعة وقيل صخرة تحت السابعة خضراء ، وقيل بحر في جهنم ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الْفُلُّ حُجْبٌ فِي جَهَنَّمَ مَغْطًى وَأَمَّا يَسْجُونُ فَمَفْشُوحٌ » ^(٣) . والصحيح أن سجيناً مأخوذ من السجن وهو الضيق فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق وكل ما تعالى منها اتسع فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السفالين كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نَزَّادَةً أَشْفَلَ سَفِيلِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا الْيَمِينَ مَأْتَرًا كَذِبُوا أَسْمَاعِيكَ ﴾ وقال ههنا ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَفِي سِجِّينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ سِجِّينَ ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْفُلْأَيْنِ مَكَّانًا سَبِيحًا مَقْرُونَيْنِ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ ليس تفسيراً لقوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ سِجِّينَ ﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين أي مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد . قاله محمّد بن كعب القرظي .

ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ يُدْعَى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين ، وقد تقدم الكلام على قوله ويل بما أغنى عن إعادته وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار كما يقال : ويل لفلان ، وكما جاء عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَقِيلَ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ النَّاسَ وَقِيلَ لَهُ » ^(٤) . ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة ﴿ الْيَمِينَ يُكْرَهُ إِلَيْنَا ﴾ أي لا يصلدون بوقوعه ولا يعتقدون كونه ويستبعدون أمره ، قال الله تعالى :

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٢٤/٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٥٦) وأحمد في مسنده (١٤٣/٦) والنسائي في السنن (٢٨٤/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦١/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٥) والترمذي في السنن (٢٩٦/٢) وأبو داود في السنن (٤٩٩٠) .

﴿ وَمَا يَكْتُوبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُتَعَبِّ يَتَّبِعُ ﴾ أي معتمد في أفعاله من تعاطي الحرام والجواز في تناول المباح ، والأثيم في أقواله إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَلَقَّ عَنِيتَ فَلَنْ مَحْذُورٌ ﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل . قال الله تعالى : ﴿ كَذَّبَ بَلَّ كَذَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا إن هذا القرآن أساطير الأولين بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَّبَ بَلَّ كَذَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ والرين يعترى قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار والغين للمقرين . وقد روى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ لِلْمُؤْمِنِ إِذَا أَدْنَبَ كَانَتْ لَكُنْهَ سُدَّاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَتَزَعَّ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ قَلْبُهُ فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبُهُ وَذَلِكَ الرَّائِي الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ﴾ ﴿ كَذَّبَ بَلَّ كَذَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ ^(١) . وقال الحسن البصري هو الذنب على الذنب حتى يعمر القلب فيموت . وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ بَلَّ كَذَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم ، قال الإمام أبو عبد الله الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن وهو استدلال بفهم هذه الآية . كما دل عليه منطوق قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِحُجَّتِهِمْ يَوْمَ يُحْزَنُ ﴾ ^(٢) وكما دل على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم ﷻ في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنات الفاخرة . وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ بَلَّ كَذَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ قال : يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون ثم يحجب عنه الكافرون ، وينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية أو كلاماً هذا معناه ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالِيَ الْجَنَّةِ ﴾ أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالِيَ الْجَنَّةِ ﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ والتصغير والتحقير .

﴿ كَذَّبَ بَلَّ كَذَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ ^(٣) وَمَا أَتَيْكَ مَا بَلَغْتَ ^(٤) كَذَّبَ بَلَّ كَذَنَ ^(٥) يَنْهَدُ الْمُتَكَبِّرِينَ ^(٦) إِنَّ الْآزْوَارَ لَنِي ^(٧) نَبِيٍّ ^(٨) عَلَى الْأَرْوَاحِ يَنْظُرُونَ ^(٩) تَرَوْنَهُ فِي جُوهِهِمْ نَضْرَ النَّبِيِّ ^(١٠) يَسْقُونَ مِنْ رَحْمَةِ مَحْشُورٍ ^(١١) حَتَّى تَمُوتَ مَسْكٌ وَفِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَذَكِّرِينَ ^(١٢) وَمَنْ يَجْزِ مِنْ قَبِيحٍ ^(١٣) حَتَّى يَنْتَرِبَ يَمَّا الْمُنْفَرُونَ ^(١٤) .

يقول تعالى حقاً إن كتاب الأبرار وهم بخلاف الفجار ﴿ لَنِي عِيَّتٍ ﴾ أي مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين . عن ابن عباس في قوله ﴿ كَذَّبَ بَلَّ كَذَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ يعني الجنة . وفي رواية العوفي عنه : أعمالهم في السماء عند الله ، وقال قتادة : عليون ساق العرش اليمني ، وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع ولهذا قال تعالى معظماً أمره ومفخماً شأنه ﴿ وَمَا أَتَيْكَ مَا بَلَغْتَ ﴾ ثم قال تعالى مؤكداً لما كتب لهم ﴿ كَذَّبَ بَلَّ كَذَنَ ﴾ ^(١٥) يَنْهَدُ الْمُتَكَبِّرِينَ ^(١٦) وهم للملائكة . وقال ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها . ثم

يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿عَلَى الْأَلْبَانِ يُنْظَرُونَ﴾ أي إلى الله ﷻ في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين ينظرون إلى ربهم في دار كرامته . وقوله تعالى : ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتقصص أم لا ، يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

سورة الانشقاق

عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إِذَا النُّجُومُ انْشَقَّتْ ﴾ فمسجد فقلت له فقال : سجدت خلف أبي القاسم عليه السلام فلا أزال أسجد بها حتى أفاه ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا النُّجُومُ انْشَقَّتْ ^(١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ^(٢) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَفُتَّتْ ^(٣) وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ^(٤) يُنَادِيكَ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقْدِرْ ^(٥) فَأَمَّا مَنْ أَدْرَأَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ^(٦) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ^(٧) وَيَنْتَظِرُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ^(٨) وَأَمَّا مَنْ أَدْرَأَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ^(٩) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ^(١٠) وَيَصَلَ سِيرًا ^(١١) إِنَّهُمْ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ^(١٢) إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُم بِمُجُورٍ ^(١٣) عَلَيْنَ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ^(١٤) .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا النُّجُومُ انْشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق وذلك يوم القيامة ﴿ وَحُفَّتْ ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب بل قد فسر كل شيء وذل له كل شيء ثم قال : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَفُتَّتْ ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت .
عن علي بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَدَّ اللَّهُ الْأَرْضَ مَدَّ الْأَدِيمِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِيَشْرَبَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مُوضِعٌ قَدَمَيْهِ فَأَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى وَجِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَاللَّهُ مَا رَآهُ قَبْلَهَا فَأَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّ هَذَا أَخْبَرَنِي أَنَّكَ أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى صَدَقَ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ عِبَادُكَ عَبْدُكَ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ - قال - وَهُوَ الْمَقَامُ الْمُحْمَدُ » ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَفُتَّتْ ﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم . وقوله ﴿ يُنَادِيكَ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا ﴾ أي إنك سارع إلى ربك سعيًا وعامل عملًا ﴿ فَلْيَقْدِرْ ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . ويشهد لذلك ما روي عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « قَالَ جِبْرِيلُ يَا مُحَمَّدُ عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ تَمُوتُ ، وَأُخْبِرْتُ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ تَمُوتُ » ^(٢) . ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ﴿ رَبِّكَ ﴾ أي فملاق ربك ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك ، وعلى هذا فكلا القولين متلازم . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَدْرَأَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ^(٦) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ^(٧) أَي سَهْلًا بَلَا تَعْسِيرِ أَي لَا يَحِقُّ عَلَيْهِ جَمِيعُ دَقَائِقِ أَعْمَالِهِ فَإِنْ مِنْ حَوْسِبٍ كَذَلِكَ هَلَكَ لَا مُحَالَةَ . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ تَوَقَّشَ الْحِسَابَ غُدْبَ » . قالت : فقلت : أفليس قال الله تعالى : ﴿ سَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قال : « لَيْسَ ذَلِكَ بِالْحِسَابِ وَلَكِنْ ذَلِكَ الْغَرَضُ ، مَنْ تَوَقَّشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُدْبَ » ^(٣) . وعن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في بعض صلواته :

(١) أخرجه البخاري في الألفان (٧٦٦) وأبو داود في السنن (١٤٠٨) .

(٢) ذكره الهندي في كبر العمال (٣٩٠٩٤) .

(٣) هذا الحديث من الأحاديث المشهورة على ألسنة الناس وهو من الأحاديث للوضوعة ، فقد ذكره السيوطي في اللكن المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (١٦/٢) والفتي في تذكرة للوضوعات (٢٠٠) والعلواني في كشف الخفاء (٧٨/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٦) وأحمد في مسنده (٤٧/٦) والترمذي في السنن (٣٣٣٧) ومسلم في الجنة وصفة نعمتها (٧٩) .

« اللَّهُمَّ خَابِئِي جِسَابًا يَبِيرَا » . فلما انصرف قلت يا رسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : « أَنْ يُنْظَرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَزَ لَهُ عَنْهُ إِنَّهُ مَنْ تَوَقَّشَ الْحِسَابَ يَا عَائِشَةُ يُؤَمِّدُ بِهَذَا » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَيَنْتَبِإُ إِلَى أُمِّهِ سَرُورًا ﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة ، مسرورًا أي فرحًا مغتبطًا بما أعطاه الله ﷻ . عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال : إنكم تعملون أعمالًا لا تعرف ويوشك الغائب أن ينوب إلى أهله فمسرورًا أو مكظوم ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا مَنِ أَوَّلَ كِتَابٍ ذَرَّكَ ظَهَرَ ﴾ أي بشماله من وراء ظهره تنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ﴿ سَوَّيْتُ يَمِينًا بِيَمِينِي ﴾ أي خسارًا وهلاكًا ﴿ وَبَسَّطُ سِيرًا ﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أُمِّهِ سَرُورًا ﴿ أَيِ فَرَحًا لَا يَفْكَرُ فِي عَوَاقِبِ وَلَا يَخَافُ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَعْقِبَهُ ذَلِكَ الْفَرَحُ الْيَسِيرُ الْخِزْنُ الطَّوِيلُ ﴾ . ﴿ إِنَّهُ كَانَ أَنْ لَا يَحْزَنَ ﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته قاله ابن عباس وقادة وغيرهما ، والخور هو الرجوع قال الله : ﴿ يَكُنْ لَهُ ذِكْرٌ كَانَ بِهِ نَبِيرًا ﴾ يعني بلى سميده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرا وشرًا فإنه كان به بصيرًا أي عليمًا بخيرا .

﴿ فَلَا أَقِيمُ بِالشَّقَى ﴾ وَالَّذِي وَمَا وَسَقَ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ لَتَرَكَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿ مَا لَمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ يَكُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴾ وَأَلْفَ أَلْفٍ مِمَّا يُؤْمِنُونَ ﴿ فَيَرْثُهُمْ ذَكَرُ آلِيهِمْ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُوا فَكَلِمَاتٍ لَمْ يُؤْمِرُوا بِهَا فَيَكْفُرُوا بِهِمْ فَأُولَٰئِكَ سَيُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ .

روي عن علي وابن عباس وعباد بن الصامت وأبي هريرة وشداد بن أوس وابن عمر وغيرهم أنهم قالوا : الشفق الحمره . وعن أبي هريرة قال : الشفق البياض ، فالشفق هو حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس ، وإما بعد غروبها ، كما هو معروف عند أهل اللغة . قال الخليل بن أحمد : الشفق الحمره من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة فإذا ذهب قيل غاب الشفق . وقال الجوهري : الشفق بقية ضوء الشمس وجمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة . وكذا قال عكرمة : الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء . وفي الصحيح عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « وَقَفْتُ الْمَرْبَ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّقَقُ » ^(٣) . ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية ﴿ فَلَا أَقِيمُ بِالشَّقَى ﴾ : هو النهار كله وفي رواية عنه أيضًا أنه قال الشفق الشمس ، وإنما حملة على هذا قرنه بقوله تعالى ﴿ وَالَّذِي وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع كأنه أقسم بالضياء والظلام . قال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مديرا وبالليل مقبلا .

وقد قال عكرمة : ﴿ وَالَّذِي وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه . وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى ، وعن سعيد بن جبير ومسروق وأبو صالح والضحاك وابن زيد ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ إذا استوى . وقال قتادة : إذا استدار . ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبهر جعله مقابلا لليل وما وسق ، وقوله تعالى : ﴿ لَتَرَكَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال ابن عباس ﴿ لَتَرَكَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ حالًا بعد حال قال هذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٦/٦) ومسلم في الحجة وصفة نعيمها (٨٠) والترمذي في السنن (٢٤٢٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩/٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٦٦/١) .

نبيكم ﷺ^(١)، وعن الشعبي قال : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء . قلت يعنون ليلة الإسراء ؟ وقال ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ منزلاً على منزل ، قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ سَنَةً مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَذُوا الْقُلْدَةَ بِالْقُلْدَةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا مَجْعَزَ صَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ ﴾ . قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى قال ﴿ فَمَنْ ؟ ﴾^(٢) . وهذا محتمل .

قال عبد الله : السماء تنشق ثم تحمر ثم تكون لوتاً بعد لون . وقال الحسن البصري ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ يقولون حالاً بعد حال ، رخاء بعد شدة وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر وفقراً بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقماً بعد صحة ، ثم قال ابن جرير بعدما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لتركبن أنت يا محمد حالاً بعد حال وأمرأ بعد أمر من الشدائد والمراد بذلك إن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ جميع الناس وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً . وقوله تعالى : ﴿ فَسَاءَ لِمَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِنَّا فَرَقْنَاهُمْ عَلَى الْقُرْآنِ لَآ يَسْمَعُونَ ﴾ أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً . وقوله تعالى : ﴿ يَكْفُرُونَ كَذِبًا يُكَذِّبُونَ ﴾ أي من سجيبتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ وَأَقْبَلَتْ بِمَا رَغَّبَتْ ﴾ أي يكتمون في صدورهم ﴿ تَبَيَّرَتْهُمْ يَصْدَقَ أَلْسِنَهُ ﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله ﷻ قد أعد لهم عذاباً أليماً . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي بجوارحهم ﴿ لِمَنْ أَجْرٌ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير منقوص ، وقال مجاهد والضحاك : غير محسوب وحاصل قولهما أنه غير مقطوع . وقال السدي : منقوص ، وقال بعضهم : غير ممنون عليهم وهذا القول الأخير عن بعضهم قد أنكره غير واحد فإن الله ﷻ له المنّة على أهل الجنة في كل حال وإن لحظة ، وإنما دخلوها بفضلهم ورحمته لا بأعمالهم ، فله عليهم المنّة دائماً سرمداً ، والحمد لله وحده أبداً ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٥٥/٤) وأحمد في مسنده (٣٤٠/٥) .

سورة البروج

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماوات ذات البروج والسماوات الطارق^(١) . وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسماوات في العشاء^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَائْتِمَنَّ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ لِلْوَعْدِ ② وَتَجَاوَزَ وَتَشْهُورِ ③ قِيلَ أَتَصَبُّ الْأَخْدُودِ ④ الْفَرَّ ذَاتِ الْوَعْدِ ⑤ إِذْ هُرَّ عَلَيْهَا قُودُ ⑥ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَنِيِّ ⑧ الْغَنِيِّ لَهُ مَلَائِكَةُ الْمَقَرِّ ⑨ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑩ إِنَّ الْإِنِّ قَتَلْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ثُمَّ لَمْ يَبْرُوا قَلْعَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَكَمْ عَذَابُ الْمَقَرِّ ⑪ .

يقسم تعالى بالسماوات وبروجها وهي النجوم العظام . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم : البروج النجوم وعن مجاهد أيضا : البروج التي فيها الحرس . وقال يحيى بن رافع : البروج قصور في السماء ، وقال المنهال بن عمرو ﴿ وَائْتِمَنَّ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ الخلق الحسن . واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجاً تسير الشمس في كل واحد منها شهراً ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلاثاً فلذلك ثمانية وعشرين منزلة ويستمر ليلتين ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْيَوْمِ لِلْوَعْدِ ② وَتَجَاوَزَ وَتَشْهُورِ ③ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك . فمن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية ﴿ وَتَجَاوَزَ وَتَشْهُورِ ③ ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة والموعود يوم القيامة^(٣) . وعن أبي هريرة أيضاً أنه قال : اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن وقطادة وابن زيد ولم أرهم يخطفون في ذلك ولله الحمد .

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الشَّاهِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَإِنَّ الْمَشْهُودَ يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ذَخَرَهُ اللَّهُ لَنَا »^(٤) . وعن ابن عباس قال : الشاهد هو محمّد ﷺ والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَكَ الْكُنُوزُ وَذَلِكَ يَوْمٌ تَشْهُورُ ③ ﴾ وعن شباك قال : سأل رجل الحسن بن علي عن ﴿ وَتَجَاوَزَ وَتَشْهُورِ ③ ﴾ قال : سألت أحداً قبلي ؟ قال : نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة ، فقال : لا ، ولكن الشاهد محمّد ﷺ ثم قرأ ﴿ كَذِبَتْ إِذَا جِئْتَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَذِهِ آيَاتٍ ④ ﴾ والمشهود يوم القيامة ثم قرأ ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَكَ الْكُنُوزُ وَذَلِكَ يَوْمٌ تَشْهُورُ ③ ﴾ وقال مجاهد وعكرمة والضحاك : الشاهد ابن آدم والمشهود يوم القيامة . وعن عكرمة أيضاً الشاهد محمّد ﷺ والمشهود يوم الجمعة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الشاهد الله والمشهود يوم القيامة . وقال الأعمشون : على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة . وقوله تعالى : ﴿ قِيلَ أَتَصَبُّ الْأَخْدُودِ ④ ﴾ أي لعن أصحاب الأخدود وجمعهم أعاديدهم وهي الحفر في الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ﷻ فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم ، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأججوا

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٦/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٨/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٣٩) والطبراني في الكبير (٣٣٨/٣) والألباني في الصحيحة (١٥٠٢) .

فيه نازا وأعدوا لها وقودا يسعرونها به ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقلذوهم فيها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قِيلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۚ أَلَمْ يَكُنْ ذَٰلِكَ الْقَوِيُّ ۚ إِذْ هَرَّ عَلَيْهِمُ الْخُودُ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شِدَّةٌ ۚ أَيْ مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُقِيمُوا بَالَهُ الْعَزِيزُ لِكَيْبِدِ ۚ أَيْ وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لا ذنبه بجناته المنيح الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به فهو العزيز الحميد ، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَّذِي لَمْ يَمْلِكِ السَّمَاءُ وَالأَرْضَ ۚ ۖ مِنْ تَمَامِ الصِّفَةِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ ۚ أَيْ لا يغييب عنه شيء في جميع السموات والأرض ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم فمن علي أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فامتنع عليه علماءهم فعمد إلى حفر أخدود فقفذ فيه من أنكر عليه منهم واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم . وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين فخذوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها ، وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة واحدهم حبشي ، وقال ابن عباس ﴿ قِيلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۚ أَلَمْ يَكُنْ ذَٰلِكَ الْقَوِيُّ ۚ ۖ ناس من بني إسرائيل خبدا أخذوا في الأرض ثم أولقوا فيه نازا ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء فعرضوا عليها . وزعموا أنه دانيال وأصحابه . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم وقيل خير ذلك .

عن صهيب الرومي أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَ فِتْنٌ كَانَ قَبْلَكُمْ مِثْلُكَ وَكَانَ لَهُ شَاحِرٌ فَلَمَّا كَثُرَ الشَّاحِرُ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَثُرَ مِنِّي وَخَضِرَ أَجْلِي فَأَدْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لَا يَعْلَمُ السَّخَرُ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا كَانَ يَعْلَمُ السَّخَرُ ، وَكَانَ بَيْنَ الشَّاحِرِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ زَاهِبٌ ، فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ تَلَاوِيهِ فَأَعْجَبَتْهُ نَعْوُهُ وَكَلَامُهُ ، وَكَانَ إِذَا أَتَى الشَّاحِرَ ضَرَبَتْهُ وَقَالَ : مَا حَبَسَكَ ، وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا : مَا حَبَسَكَ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ : إِذَا أَرَادَ الشَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ حَبَسَنِي الشَّاحِرُ . قال : فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَطَبِيعَةُ عَظِيمَةٍ فَذُ حَبَسَتْ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَمْجُزُوا . فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ أَمْ أَمْرُ الشَّاحِرِ ، قَالَ : فَأَخَذَ حَبِيرًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَيْكَ وَأَوْضَى مِنْ أَمْرِ الشَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْجُزَ النَّاسُ ، وَزَمَانًا فَقَتَلَهَا وَنَضَى النَّاسُ فَأَعْجَبَ الرَّاهِبُ بِذَلِكَ فَقَالَ : أَيْ بَنِيَّ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي وَإِنَّكَ سَبَّحْتَ فَإِنَّ التَّبْلِيغَ فَلَا تَذُلْ عَلَيَّ ، فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَالسَّائِرَ الْأَدْوَاءَ وَيَشْفِيهِمْ ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَبِي فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهَذَانَا كَبِيرَةٍ فَقَالَ : اشْفِنِي وَلَكَ مَا ههنا أَجْمَعُ فَقَالَ : مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ﷻ فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ ، فَآمَنَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ ، ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِثْنَهُ نَحْوًا مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا فَلَانُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ ؟ فَقَالَ : رَبِّي ؟ فَقَالَ : أَنَا ! قال : لَا ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ : نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَيْ بَنِيَّ بَلِّغْ مِنْ سِخْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ

الْأَكْمَةَ وَالْأَنْرَصَ وَهَذِهِ الْأَذْوَاءُ ۖ قَالَ : مَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يُشْفِي اللَّهُ ﷻ ، قَالَ : أَنَا ، قَالَ : لَا .
 قَالَ : أَوَّلَكَ رَبِّ غَيْرِي ؟ قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، فَأَخَذَهُ الْبُعْثَا بِالْعَذَابِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى
 الزَّوَاهِبِ فَأَتَى بِالزَّوَاهِبِ . فَقَالَ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَتَى فَوَضَعَ الْمِشْشَارَ فِي مَقْرِي رَأْيِهِ حَتَّى وَقَعَ
 شِقَاؤُهُ ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَتَى فَوَضَعَ الْمِشْشَارَ فِي مَقْرِي رَأْيِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ إِلَى
 الْأَرْضِ . وَقَالَ لِلْعَلَامِ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَتَى فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَقَرٍ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا وَقَالَ : إِذَا بَلَغْتُمْ
 ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجِعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَذَهَبُوا ، فَذَهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوْا بِهِ الْجَبَلَ قَالَ : اللَّهُمَّ اكْفَيْهِمْ بِمَا
 شِئْتَ ، فَزَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَذَهَبُوا أَجْمَعُونَ وَجَاءَ الْعَلَامُ بِتَلَمُّسٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ . فَقَالَ : مَا
 فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَقَرٍ فِي قَوْقُورٍ ، فَقَالَ : إِذَا لَجَجْتُمْ بِهِ الْبَحْرَ
 فَإِنْ رَجِعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَتَقَرُّوهُ فِي الْبَحْرِ ، فَلَجَجُوا بِهِ الْبَحْرَ ، فَقَالَ الْعَلَامُ : اللَّهُمَّ اكْفَيْهِمْ بِمَا شِئْتَ
 فَتَقَرُّوا أَجْمَعُونَ ، وَجَاءَ الْعَلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانَهُمُ
 اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمُرُكَ بِهِ فَإِنْ أَتَيْتَ فَعَلْتَ مَا أَمُرُكَ بِهِ
 فَتَقَاتِلَنِي وَإِلَّا فَأَنْتَ لَكَ لَا تَسْتَطِيعُ كَلْفِي ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ تَقَاتِلَنِي
 عَلَى جَذَعٍ وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ قُل : بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِ ، فَلَمَّا إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَاتِلَنِي ،
 ففعل ووضعه السهم في كبد قوسه ثم رماه ، وَقَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِ ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صَدْرِهِ
 فَوَضَعَ الْعَلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ . فَقَالَ النَّاسُ : أَمَّا يَرْبُ الْعَلَامِ . فَقِيلَ لِلْمَلِكِ : أَرَأَيْتَ
 مَا كُنْتَ تَحْتَذِرُ ؟ فَقَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، فَأَمَرَ بِأَقْوَامِ الشُّكَّاكِ فَخُذَتْ فِيهَا
 الْأَحَادِيدُ وَأُضْرِبَتْ فِيهَا الثِّرَانُ وَقَالَ : مَنْ رَجِعَ عَنْ دِينِهِ فَذَعْرُوه وَإِلَّا فَأَقْبِسُوهُ فِيهَا ، قَالَ : فَكَانُوا
 يَمْدُدُونَ فِيهَا وَيَحْدِقُونَ ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ بِأَيِّ لَهَا تَرِيضُهُ ، فَكَانَتْهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَمُوتَ فِي النَّارِ ، فَقَالَ
 الصَّبِيُّ : اضْبِرِّي يَا أُمُّهُ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ ١) .

وقال ابن إسحاق : فيما يرويه عن محمد بن عمرو بن حزم أنه حدث أن رجلاً من أهل نجران
 كان في زمان عمر بن الخطاب حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته فوجد عبد الله بن الناصر
 تحت دفن فيها قاعداً واضعاً يده على ضربة في رأسه ممسكاً عليها بيده فإذا أخذت يده عنها تبعث
 دماً ، وإذا أرسلت يده ردت عليها فأمسكت دمه وفي يده خاتم مكتوب فيه ربي الله فكتب فيه إلى
 عمر بن الخطاب يخبره بأمره فكتب عمر إليهم أن أقروه على حاله وردوا عليه الذي كان عليه
 ففعلوا ٢) . وروي عن عبد الله بن جعفر عن بعض أهل العلم أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد
 حائطاً من حيطان المدينة قد سقط فيه فسقط ثم بناه فسقط ، فقيل له : إن تحت رجلاً صالحاً ، فحفر
 الأساس فوجد فيه رجلاً قائماً معه سيف فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض نقيمت على أصحاب
 الأخدود ، فاستخرجه أبو موسى ، وبني الحائط فثبت ، قلت : هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مضاض
 الجرهمي أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم ، وولد

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦) والترمذي في السنن (٣٤٠) ورواه مسلم بنحوه عن هبة بن خالد عن حماد بن سلمة في

الرمذ (٧٣) . (٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣٧١/٣٨) .

الحارث هذا هو عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة لما أخرجهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن وهو الثقال في شعره الذي قال ابن هشام إنه أول شعر قاله العرب :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحِجُونَ إِلَى الصَّغَا
أَتَيْسَ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَلَى نَحْرُ كُنَّا أَهْلَهَا قَابَاذَنَا
صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودِ الْقَوَائِرُ (١)

وهذا يقتضي أن هذه القصة كانت قديماً بعد زمان إسماعيل عليه السلام بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها وما ذكره ابن إسحاق يقتضي أن قصتهم كانت في زمن الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما من الله السلام وهو أشبه والله أعلم .

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً . قال أسباط عن السدي في قوله تعالى ﴿ قِيلَ انصَبْ الْخَمْرُ ﴾ قال : كانت الأخدود ثلاثة : خد بالعراق ، وخذ بالشام ، وخذ باليمن . وعن مقاتل قال : كانت الأخدود ثلاثة : واحدة بنجران باليمن والأخرى بالشام والأخرى بفارس حرقوا بالنار ، أما التي بالشام فهو انطنانوس الرومي ، وأما التي بفارس فهو يخنصر ، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس ، فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآناً وأنزل في التي كانت بنجران . وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا لِلْكَافِرِينَ وَلِلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي حرقوا ﴿ ثُمَّ لَوْ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أي لم يلقوا عذاباً فعلموا ويندموا على ما أسلفوا ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْكَافِرِينَ ﴾ وذلك أن الجزء من جنس العمل . قال الحسن البصري انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَاتُهُمْ لَمْ يَجْعَلْ يَنْفِرْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَكْثَرُ ﴾ ﴿ إِنَّ بَلَى رَبِّكَ أَكْثَرُ ﴾ ﴿ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ نَبِيِّدْ ﴾ ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْغَوِيُّ ﴾ ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿ فَكُلَّا لَنَا رُبُّدْ ﴾ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ ﴿ رِيعُونَ وَبُوعُونَ ﴾ ﴿ بَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ بَيْنَ الْبَنَاتِيمَ خُيُودًا ﴾ ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ ﴿ فِي تَوَجُّعٍ مُتَقَوِّلٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ كَلِمَاتُهُمْ لَمْ يَجْعَلْ يَنْفِرْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَكْثَرُ ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ الْقَوِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَلَى رَبِّكَ أَكْثَرُ ﴾ أي إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي ، فإنه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل ملح البصر أو هو أقرب . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ نَبِيِّدْ ﴾ أي من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ويعيده كما بدأه بلا مانع ولا مدافع ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْغَوِيُّ ﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه ويخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان ، والودود قال ابن عباس وغيره هو الحبيب ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق والمجيد فيه قراءتان الرفع على أنه صفة للرب وتكثير الجلال والجر على أنه صفة للعرش وكلاهما معنى صحيح ﴿ فَكُلَّا لَنَا رُبُّدْ ﴾ أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعذله ، كما روينا عن أبي بكر

(١) كان السبب في قول هذا الشعر : أن عمرو بن الحارث خلبت له إبل فيبث عنها حتى أتى الحرم ، فأراد دخوله لأبعد إليه ، فنادى عمرو ابن لحي : من وجد جرهما فلم يقتله فقلت يده ، فسمع بذلك عمرو ، وأشرف على جبل من جبال مكة فرأى إليه تبحر ويروح لحماها ، فانصرف بالثأر خائفاً ، وأبعد في الأرض ، وبخرجه يشرب للتل ، ثم قال هذا الشعر (انظر : السيرة النبوية ١/١٢٠) .
والجحر : جبل بأعلى مكة ، والجدودة المحفوظ .

الصدّيق أنه قيل له وهو في مرض الموت هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لي إني فعّال لما أريد وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَنتَ حَيُّ الْيَتِيمَ ۚ ﴾ ﴿ رِعَونَ وَتَوَدَّ ﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس وأنزل عليهم من النعمة التي لم يردّها عنهم أحد ؟ وهذا تقرير لقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ رَبُّكَ لَنَنصِفَ ﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليماً شديداً أخذ عزيز مقتدر . عن عمرو بن ميمون قال : مرّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ هَلْ أَنتَ حَيُّ الْيَتِيمَ ﴾ فقام يستمع فقال : « نَعَمْ قَدْ جَاءَنِي » . وقوله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد ﴿ وَأَلْقَيْنَا نَارَ الْجَهَنَّمَ ۚ ﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ ﴾ أي عظيم كريم ﴿ فِي تَبَعٍ مَّخْطُومٍ ﴾ أي هو الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل .

سورة الطارق

عن خالد بن أبي حبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا ، حين أتاهاهم ينتفي عندهم النصر فسمعته يقول : ﴿ وَاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ ﴾ . حتى ختمها . قال : فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ثم قرأتها في الإسلام . قال : فدعنتي ثقيف . فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قریش : نحن أعلم بصاحبنا لو كنا نعلم ما يقول حقاً لا تبعناه ^(١) . وعن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء فقال النبي ﷺ : « أَفَأَنْتَ أَنْتَ يَا مُعَاذُ ! مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ بِالشَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَالشَّمْسِ وَضَبْحَاهَا وَنَحْوَهَا ؟ » ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ ﴾ ١ وَمَا قَدَرَهُ مَا الْكَوْكَبُ ٢ أَتَمَّ الْكَوْكَبُ ٣ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْنَا حَافِظٌ ٤ نَتَنَبَّأُ الْإِنْسَانَ بِمَا كُنَّ ٥ كُنَّ مِنْ تَوَلَّى ٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَكْثَلٍ وَأَكْثَرٍ ٧ إِفْرَقَ عَنْ تَجْوِيدٍ لَقِيدٍ ٨ يَمَّ يَمَّ ثَبَلُ الْاِسْتِزَارِ ٩ قَا لَمْ يَنْ قُوَّ وَلَا كَابِرٍ ١٠ .
يقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا قَدَرَهُ مَا الْكَوْكَبُ ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ أَتَمَّ الْكَوْكَبُ ﴾ قال قتادة وغيره : إنما سمي النجم طارِقاً لأنه إما يرى بالليل ويختفي بالنهار ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً ^(٣) أي يأتيهم فجأة بالليل ، وفي الحديث الآخر المشتعل على الدعاء « إِلَّا طَارِقاً يَكْخِرُ يَا رَحْمَنُ » ^(٤) . وقوله تعالى : ﴿ الْكَوْكَبُ ﴾ قال ابن عباس : المضيء وقال السدي : يتقرب الشياطين إذا أرسل عليها وقال عكرمة : هو مضيء ومحرق للشيطان .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْنَا حَافِظٌ ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ، وقوله تعالى : ﴿ نَتَنَبَّأُ الْإِنْسَانَ بِمَا كُنَّ ٥ كُنَّ مِنْ تَوَلَّى ٦ ﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البداية فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَكْثَلٍ وَأَكْثَرٍ ﴾ يعني المني يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة فيقول منهما الولد بإذن الله ﷻ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَكْثَلٍ وَأَكْثَرٍ ﴾ يعني صلب الرجل وثرائب المرأة وهو صدرها . وعن ابن عباس قال : هذه الثرائب ووضع يده على صدره . وقال عطية عن ابن عباس : تربية المرأة موضع القلادة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الثرائب بين الثديين ، وعن مجاهد : الثرائب ما بين الثديين إلى الصدر وعنه أيضاً : الثرائب أسفل من التراقي ، وقال سفيان الثوري : فوق الثديين وعن سعيد بن جبير : الثرائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل . وعن الضحاك : الثرائب بين الثديين والرجلين والعينين ، وعن معمر بن أبي حبيبة المدني أنه بلغه في قول الله ﷻ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَكْثَلٍ وَأَكْثَرٍ ﴾ قال : هو عصابة القلب من هناك يكون الولد . وعن قتادة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَكْثَلٍ وَأَكْثَرٍ ﴾ من بين صلبه ونحره وقوله تعالى : ﴿ إِفْرَقَ عَنْ تَجْوِيدٍ لَقِيدٍ ﴾ فيه قولان :

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٩/٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٥/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الصرة (١٨٠١) .

سورة الأعلى

سورة سبح مكية والدليل على ذلك ما روي عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجملاً يقرئنا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولان هذا رسول الله ﷺ قد جاء فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها ^(١) . وعن علي عليه السلام قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هَلَا صَلَّيْتَ بِسْمِ اللَّهِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالشَّمْسُ وَمُبَاحَا وَاللَّيْلُ إِذَا تَغَشَّى » ^(٢) . وعن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الْأَلَى خَلَقَ سَمَوَاتٍ ۝ وَاللَّيْلَ قَدَرُ فَهَيْتَ ۝ وَاللَّيْلَ أَنْزَلَ الْأَنْجَارَ ۝ فَسَبِّحْهُ غَنَّةً آمِينَ ۝ سُبْحَانَكَ لَا تَهْوَى ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ بِسْمِ الْجَهَنَّمَ وَبِمَا يَخْفَى ۝ وَيُخْرِجُهُ لِلنَّاسِ ۝ فَذَكِّرْ لِنَقَمَةِ الْإِنْسَانِ ۝ سُبْحَانَكَ مَنْ يَشَاءُ ۝ وَيَنْتَجِبُ الْأَشْفَى ۝ الْأَلَى يَسْمُ الْأَنْجَارَ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ .

عن إياس بن عامر : سمعت عقبة بن عامر الجهني لما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال لنا رسول الله ﷺ : « اجعلوها في ركوعكم » . فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال : « اجعلوها في سجودكم » ^(٣) . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال : « سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى » ^(٤) . وعن عبد خير قال : سمعت علياً قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقال : سبحان ربي الأعلى . وعن أبي إسحاق الهمداني أن ابن عباس كان إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ يقول : سبحان ربي الأعلى وإذا قرأ ﴿لَا أُقِيمُ بِمِثْرِ الْقِيَمَةِ﴾ فأتى على آخرها ﴿الَّذِينَ ذَكَرَ يُقِرُّ بَعْدَ أَنْ يُحْيِيَ لِلزُّلُمِ﴾ يقول : « سُبْحَانَكَ وَيَلَى » ، وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سُبْحَانَكَ رَبِّي الْأَعْلَى » ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ﴾ أي خلق الخليفة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيات .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلَ قَدَرُ فَهَيْتَ﴾ قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتها . وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون ﴿رَبِّكَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكَ فِتْنَةً خَلَقَهُ ثُمَّ هَكَئِ ۝ أَي قَدَرُ قَدَرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ . وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدَرُ مَقَادِيرِ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِحَفْصِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَوْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » ^(٥) . وقوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلَ أَنْزَلَ الْأَنْجَارَ ۝﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزرور ﴿فَسَبِّحْهُ غَنَّةً آمِينَ﴾ قال ابن عباس : هشيماً متغيراً . قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٥/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/١) وأبو داود في السنن (استطاع الصلاة : ٣٨٥) والبيهقي في السنن (٣١٠/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) .

الذي معناه التقدم وأن معنى الكلام والذي أخرج المرعى ، أحوى أخضر إلى السواد فجعله غطاء بعد ذلك ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملاً إلا أنه غير صواب لخالفته أقوال أهل التأويل . وقوله تعالى : ﴿ سَتَقْبَلُهُ أَيَا مُحَمَّدٌ ﴾ ﴿ قَدْ تَخَيَّرَ ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له ، بأنه سيقربه قراءة لا ينسأها ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير وقال قتادة : كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله وقيل المراد بقوله ﴿ قَدْ تَخَيَّرَ ﴾ طلب وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ أي لا تنسى ما نقرئك إلا ما يشاء الله رحمه فلا عليك أن تتركه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَكْتُمُ الْبَهْرَ وَكَأَيُّنَ ﴾ أي يعلم ما يحجر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء . وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤَيِّدُ بِيَدَيْهِ ﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ونشر لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ تَخَيَّرَ بَيْنَ الْإِكْرَامِ ﴾ أي ذكر حيث تنفع التذكرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم ، وقال : حدث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله . وقوله تعالى : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي سيعظم بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ﴿ وَنَجِّنَا الْأَنْفُسَ ﴾ الآية يسلو آثار الكثرين ﴿ ثُمَّ لَا يَبُوءُ بِهَا دَآئِبِينَ ﴾ أي لا يموت فيستريح ولا يحى حياة تنفعه ، بل هي مضرة عليه لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال . وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أَمَا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِمُ الرَّحْمَةَ فَيُمِيتُهُمْ فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الشَّجَعَاءُ فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الصَّبَاةَ فَيَمِيتُهُمْ - أَوْ قَالَ - يَمِيتُونَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ - أَوْ قَالَ الْحَيَاةِ ، أَوْ قَالَ الْحَيَوَانِ ، أَوْ قَالَ نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَمِيتُونَ نَبَاتَ الْحَيَاةِ فِي حَبِيلِ الشَّيْلِ » . قال : وقال النبي ﷺ : « أَمَا تَرَوْنَ الشَّجَرَةَ تَكُونُ خَضِرَاءَ ثُمَّ تَكُونُ صَفْرَاءَ ثُمَّ تَكُونُ خَضِرَاءَ ؟ » . قال : فقال بعضهم كأن النبي ﷺ كان بالبادية ^(١) .

﴿ قَدْ أَلْقَى مِنْ تَرْكِهِ ﴾ ﴿ وَكَرِهَ أَنْ يُرِيدَ فَصَلَّى ﴾ ﴿ عَلَى قَوْمٍ لَوْ أَنَّهُمْ آذَنُوا ﴾ ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا لَكُنَّ الشَّحِيبِ الْأَوَّلُ ﴾ ﴿ مُصِيبٌ لِمَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَلْقَى مِنْ تَرْكِهِ ﴾ أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَكَرِهَ أَنْ يُرِيدَ فَصَلَّى ﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضاوان الله وطاعة لأمر الله وامتناعاً لشرع الله . وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ ﴿ قَدْ أَلْقَى مِنْ تَرْكِهِ ﴾ قال : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَلَعَ الْأَلْبَدَ وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ » . ﴿ وَكَرِهَ أَنْ يُرِيدَ فَصَلَّى ﴾ قال : « هِيَ الصَّلَاةُ الْحُسْنَى وَالْحَافِظَةُ عَلَيْهَا وَالْإِيمَانُ بِهَا » ^(٢) . وعن أبي خلدة قال : دخلت على أبي العالية فقال لي : إذا غدوت غداً إلى العيد فمر بي . قال : فمررت به . فقال : هل طمعت شيئاً ؟ قلت : نعم قال : أفضت على نفسك من الماء ؟ قلت : نعم . قال : فأخبرني ما فعلت زكاتك !

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧/٧) والبيهقي في مسنده (٢٢٨٤) .

قلت : قد وجهتها . قال : إنما أردت لك لهذا ثم قرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى ﴾ ١٤ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء قلت : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى ﴾ ١٤ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة فليقدم بين يدي صلاته زكاة فإن الله تعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى ﴾ ١٤ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وقال قتادة في هذه الآية : زكى ماله وأرضى خالفه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْخِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دانية فانتهى والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ويهتكم بما يزول عنه قريباً وترك الاهتمام بدار البقاء والخلد . وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالٌ مِّنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ » (١) . وعن عرفة الثقفي قال : استقرأت ابن مسعود ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ - فلما بلغ - ﴿ بَلْ تُؤْخِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ، فسكت القوم . فقال : آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وهذا منه على وجه التواضع والهضم أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو والله أعلم . وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحْبَبَ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِأَخِيرَتِهِ ، وَمَنْ أَحْبَبَ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَاتَّقُوا مَا بَقِيَ عَلَى مَا بَقِيَ » (٢) . وقوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَنَیُّ الشُّحِّفِ الْأَوَّلِ ﴾ ١٥ ﴿ شُحِّفِ لِرَبِّعِهِمْ وَتُؤْتُونَ ﴾ قال النبي ﷺ : « كَانَ كُلُّ هَذَا - أَوْ كَانَ هَذَا - فِي شُحِّفِ إِبْرَاهِيمَ وَهَارُونَ » . وعن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَنَیُّ الشُّحِّفِ الْأَوَّلِ ﴾ ١٥ ﴿ شُحِّفِ لِرَبِّعِهِمْ وَتُؤْتُونَ ﴾ يقول : الآيات التي في سبج اسم ربك الأعلى ، وقال أبو العالية : قصة هذه السورة في الصحف الأولى ، واختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى ﴾ ١٤ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ ١٥ ﴿ بَلْ تُؤْخِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ١٦ ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ١٧ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي مضمون هذا الكلام ﴿ لَنَیُّ الشُّحِّفِ الْأَوَّلِ ﴾ ١٥ ﴿ شُحِّفِ لِرَبِّعِهِمْ وَتُؤْتُونَ ﴾ وهذا الذي اختاره حسن قري .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) والبخاري في الترمذي والريثي (١٧٨/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٧/٤) .

سورة الغاشية

عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة . وعن عبيد الله بن عبد الله أن الضحّاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ النَّفْثَةِ ① وَجُورِ يَوْمِيكَ خَنِيمَةً ② عَاكِلةٌ نَّايِبَةً ③ تَصَلَّى نَارًا حَاكِيَةً ④ تَشَقَّى بَيْنَ عَيْنَيْ مَكِينٍ ⑤ لَيْسَ لَهَا طَلَمٌ إِلَّا بَيْنَ مَرْجَحٍ ⑥ لَا يُسِينُ وَلَا يُثْنِي بِنِجَاحٍ ⑦ . ﴾

الغاشية من أسماء يوم القيامة ؛ لأنها تغشى الناس وتمصهم ، فعن عمرو بن ميمون قال : مرّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ حَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ النَّفْثَةِ ﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءني » . وقوله تعالى : ﴿ وَجُورِ يَوْمِيكَ خَنِيمَةً ﴾ أي : ذليلة . قال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها عملها وقوله تعالى : ﴿ عَاكِلةٌ نَّايِبَةً ﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه ، وصلت يوم القيامة نازراً حامية . وعن أبي عمران الجوني يقول : مرّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بدبير راهب فناداه ، يا راهب فأشرف ، قال : فجعل عمر ينظر إليه ويكي فقليل له : يا أمير المؤمنين ما يكيك من هذا ؟ قال ذكرت قول الله ﷻ في كتابه ﴿ عَاكِلةٌ نَّايِبَةً ③ تَصَلَّى نَارًا حَاكِيَةً ④ ﴾ فذاك الذي أبكاني . وقال ابن عباس ﴿ عَاكِلةٌ نَّايِبَةً ③ ﴾ النصارى ^(٢) ، وعن عكرمة والسدي عاملة في الدنيا بالمعاصي ناضبة في النار بالمذاب والإهلاك ، ﴿ تَصَلَّى نَارًا حَاكِيَةً ④ ﴾ أي حارة شديدة الحر ﴿ تَشَقَّى بَيْنَ عَيْنَيْ مَكِينٍ ⑤ ﴾ أي قد انتهى حرها وغلبانها . وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهَا طَلَمٌ إِلَّا بَيْنَ مَرْجَحٍ ⑥ ﴾ قال ابن عباس : شجر من نار ، وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم ، وقال قتادة : هو الشبرق ، وقال عكرمة : وهو شجرة ذات شوك لاطقة بالأرض . وقال مجاهد : الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يس وهو سم ^(٣) ، وعن قتادة أيضاً قال : من شر الطعام وأبشعه وأخبثه ؛ وقوله تعالى : ﴿ لَا يُسِينُ وَلَا يُثْنِي بِنِجَاحٍ ⑦ ﴾ يعني لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور .

﴿ وَجُورِ يَوْمِيكَ نَاعِمَةً ① لَيْسِيَا رَاكِبَةً ② فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ③ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيْثَةً ④ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ⑤ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ⑥ وَأَكْوَابٌ مَنُوشَةٌ ⑦ وَنَاكِدٌ مَّصُونَةٌ ⑧ وَذَلَالٌ مُبِينٌ ⑨ . ﴾

لما ذكر حال الأشياء ثني بذكر السعداء فقال : ﴿ وَجُورِ يَوْمِيكَ ① ﴾ أي يوم القيامة ﴿ نَاعِمَةً ② ﴾ أي يعرف النعيم فيها ، وإنما حصل لها ذلك بسعيها ، وقال سفيان ﴿ لَيْسِيَا رَاكِبَةً ③ ﴾ قد رضىت عملها . وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ③ ﴾ أي ريفية بهية في الرفات آمنون ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيْثَةً ④ ﴾ أي لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو ، ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ⑤ ﴾ أي سارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات ، وليس المراد بها عيناً واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَاهَا

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٠١/٣) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الغاشية) .

الْحَيَّةُ تَقْبِضُ مِنْ تَحْتِ بَلَالٍ - أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ - الْمِشْكِ ^(١) . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْبُوعَةٌ ﴾ أي عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السمك عليها الحور العين . قالوا فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْشَوَّعَةٌ ﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها من أربابها ﴿ وَنَكَارُوتٌ مَصْفُوفَةٌ ﴾ : النمازق الوسائد . وقوله تعالى : ﴿ وَنَكَارُوتٌ مَبْنُوءَةٌ ﴾ : الزرابي البسط ، ومعنى مبثوثة أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها ، ونذكر ههنا هذا الحديث الذي رواه أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا هَلْ مِنْ مُشْمَرٍ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَزَوْجُ الْكُفْيَةِ نُورٌ بِلَالًا ، وَزَيْنَحَانَةُ تَهْتَرُ ، وَقَضُوْ مَشِيْدٌ ، وَتَهْمُوْ مَطْرَدٌ وَثَمَرَةٌ نَضِيْجَةٌ ، وَزَوْجَةٌ حَشَنَاءُ جَمِيْلَةٌ ، وَخَلَلٌ كَثِيْرَةٌ ، وَمُعَامٍ فِي أَتَدٍ فِي دَارٍ سَلِيْمَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ وَخَضِرَةٌ ، وَحَبْرَةٌ وَنَفْعَةٌ ، فِي مَحَلٍّ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ ؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله نحن المسمرون لها ، قال : « قُولُوا إِنَّ شَاءَ اللَّهِ » . قال القوم : إن شاء الله ^(٢) .

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ذَلِكِ الْبَلَالِ كَيْفَ خُبِتْ ﴿ ذَلِكِ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ذَلِكِ الْإِبِلِ كَيْفَ سُلِطَتْ ﴿ فَلَا يَكُنْ لَكُمْ آتٌ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُحْصِيٍّ ﴿ إِلَّا مَنْ قَوْلٍ وَكَثَرُ ﴾ يَمْدُحُهُ اللَّهُ الْعَدَابُ الْأَكْبَرُ ﴿ إِنَّ لَنَا لِمَأْتِمَهُمْ ﴾ ثُمَّ لَدَى عَلَيْنَا جِسْمَهُمْ .

يقول تعالى أمرا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة والشدة ، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتتفاد للقائد الضعيف وتوكل ويتنفع بوبرها ويشرب لبنها ، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضي يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت أي كيف رفعها الله ﷻ عن الأرض هذا الرفع العظيم ﴿ ذَلِكِ الْبَلَالِ كَيْفَ خُبِتْ ﴾ أي جعلت منصوبة فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن ﴿ ذَلِكِ الْإِبِلِ كَيْفَ سُلِطَتْ ﴾ أي كيف بسطت ومدت ومهدت ، فبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه ، والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه ، وهكذا أقسم ضمنا في سؤاله على رسول الله ﷺ فمن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد إنه أتانا رسولك فرغم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : « صدق » . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » قال : فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال أله أرسلك ؟ قال : « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : « صدق » قال : فبالذي أرسلك ، أله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟ قال : « صدق » قال : فبالذي أرسلك أله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال :

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٦٢٢) .

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٦٢٢) .

« صَدَقَ » . قال : ثم ولى فقال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئا ولا أنقص منهن شيئا . فقال النبي ﷺ : « إِنَّ صَدَقَ لَيُذْخِرَنَّ الْجَنَّةَ » ^(١) .

وعن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيرا ما كان يحدث عن امرأة في الجاهلية على رأس جبل معها ابن صغير لها ترعى غنما ، فقال لها ابنها : يا أمه من خلقتك ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق أبي ؟ قالت : الله ، قال : فمن خلقتني ؟ قالت : الله ، قال : فمن خلق السماء ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : الله . قال : فإني لأسمع لله شائئا وألقى نفسه من الجبل فتقطع . وقوله تعالى : ﴿ تَذَكَّرْ إِنَّا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝ أَيُفَذِّكِرُكَ الْكَافِرُ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝ ﴾ قال مجاهد : لست عليهم بجبار أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم ، وقال ابن زيد : لست بالذي تكرهمهم على الإيمان . وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَمِيزْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوا عَصَوْا بِمَنِي دِمَائِهِمْ وَأَقْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَجَسَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ » ^(٢) . ثم قرأ ﴿ إِنَّا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝ ﴾ أي تولى عن العمل بأركانه وكفر بالحق بحجانه ولسانه ، ولهذا قال : ﴿ يَجْزِيهِ اللَّهُ الْقَذَابَ أَكْثَرَ ۝ ﴾ روي أن أبا أمامة الباهلي مر على خالد بن معاوية فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أَلَا كَلُّكُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ شَرَّدَ عَلَى اللَّهِ شِرَاذَ التَّجِيرِ عَلَى أَفْلِهِ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ أَيُرْجِعُهُمْ وَنُقَلِّبُهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَيْنَنَا جَسَابُهُمْ ۝ ﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازهم بها إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٣/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٧٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٢ ، ٣٣) وأبو داود في السنن (١٥٥٦) وأحمد في مسنده (١٩٥١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨/٥) .

سورة الفجر

عن جابر قال : صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطول في ناحية المسجد ثم انصرف فبلغ ذلك معاذاً فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال : يا رسول الله جئت أصلي معه فطول علي فانصرفت وصليت في ناحية المسجد فغلقت ناقي . فقال رسول الله ﷺ : « أَتَأْتِي مُعَاذَ ؟ أَتَى أَنْتَ مِنْ سَبِيحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالْفَجْرِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ۝ دَلِيلَ عَشِيرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ دَلِيلَ إِذَا يَسِرُ ۝ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّكَ جِنِّيرٍ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلَ رَبُّكَ بِكُلِّ ۝ إِزْمٍ نَّكَاتٍ الْوَسَادِ ۝ أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ يَنْتَلِهَا فِي الْبَلَدِ ۝ وَيَتَوَدَّدُ اللَّيْلُ جَانِبًا الْغَمَرِ بِالْكَوَاكِبِ ۝ وَرَبُّكَ ذِي الْأَنْتَاكِ ۝ اللَّيْلِ لَمُفَا فِي الْبَلَدِ ۝ فَاتَّخِذُوا فِيكَ الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِذْ رَبُّكَ يُبَايِعُكَ ۝ .

أما الفجر : فمعروف وهو الصبح ، والمراد به فجر يوم النحر خاصة وهو خاتمة الليالي العشر ، وقيل المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده وقال عكرمة : المراد به جميع النهار . والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة ، وعن ابن عباس مرفوعاً : « مَا مِنْ أَتَامِ الْعَقْلِ الصَّالِحِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ فِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ » . يعني عشر ذي الحجة قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِتَقِيٍّ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ » (٢) . وقيل المراد بذلك العشر الأول من المحرم حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يمهز إلى أحد ، وقد روي عن ابن عباس ﴿ دَلِيلَ عَشِيرٍ ﴾ قال : هو العشر الأول من رمضان ، والصحيح القول الأول . وعن جابر عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الْعَشَرَ عَشْرُ الْأَضْحَى ، وَالْوَتْرُ يَوْمَ عَرَفَةَ وَالشَّفْعُ يَوْمَ النَّحْرِ » (٣) . وقوله تعالى ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة لكونه التاسع وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . قول ثان . عن وأصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله تعالى ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قلت : صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا ولكن الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى . قول ثالث : عن أبي سعيد بن عوف قال : سمعت عبد الله بن الزبير يخطب الناس فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر . فقال : الشفع قول الله تعالى ﴿ فَمَنْ قَعَلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ والوتر قوله تعالى ﴿ وَتَمَّ كُفْرَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وقال محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام التشريق والوتر آخر أيام التشريق . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا يَأْتِيهِ إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَائِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ » (٤) . قول رابع : قال الحسن البصري : الخلق كلهم شفع ووتر أقسم تعالى بخلقه وهو رواية عن مجاهد والمشهور عنه الأول . وقال ابن عباس : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الله وتر واحد وأتمم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٨/٢) وإبهيقي في السنن (١١٢/٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٢٢٧) وأحمد في مسنده (٢٢٤/١) وإبهيقي في السنن (٤٨٤/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) وإبهيقي في السنن (٣٥٠٦) .

قول خامس : عن مجاهد ﴿ وَالشَّعِيقُ وَالْوَرَّى ﴾ قال : الشفع الزوج ، والورث : الله ﷻ . وقال : الله الورث وخلقه الشفع الذكر والأنثى . وقال مجاهد : كل شيء خلقه الله شفع . السماء والأرض والبحر والبر والبحر والجن والإنس والشمس والقمر ونحو هذا ، ونحو مجاهد في هذا ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ تَبٰرَكَ الَّذِي مَخْلَقَ فَتًى حَقًّا فَقَدْ آتٰنَاكُمْ لَهُ نَمًى كَذَكَّرْتُمْ ﴾ أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد . قول سادس : عن الحسن ﴿ وَالشَّعِيقُ وَالْوَرَّى ﴾ : هو العدد منه شفع ومته وتر . قول سابع في الآية الكريمة : عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « الشُّعُفُ الْيَوْمَانِ ، وَالْوَرَثُ الْيَوْمُ الثَّلَاثُ » ^(١) . وقال أبو العالية والربيع بن أنس وغيرهما : هي الصلاة منها شفع كالرابعة والثانية ومنها وتر كالمغرب فثلاث وهي وتر النهار ، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل . وعن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر فقال : « هِيَ الصَّلَاةُ بِنَفْسِهَا شَفَعٌ ، وَبِنَفْسِهَا وَرْثٌ » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَبَسَ ﴾ أي إذا ذهب ، وقال عبد الله بن الزبير : حتى يذهب بعضه بعضاً ، وقال ابن زيد : إذا سار ، ويحتمل أن يكون المراد إذا سار أي أقبل وقد يقال إن هذا أنسب لأنه في مقابلة قوله : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَبَسَ ﴾ فإن الفجر وهو إقبال النهار وإدبار الليل فإذا حمل قوله : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَبَسَ ﴾ على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس وقال عكرمة ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَبَسَ ﴾ يعني ليلة جمع ليلة المزدلفة . وعن كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول في قوله : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَبَسَ ﴾ قال : اسر يا سار ولا تبيين إلا بجمع ، وقوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ مَسَمٌ لِّئِيْ جَبَرِ ﴾ أي لذي عقل ولب ودين وحجبا ، وإنما سمي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطوائف من اللصوق بجداره الشامى ، ومنه حجر اليمامة ، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف ﴿ وَيَقُولُونَ جِبَرًا عَجَبًا ﴾ كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقنون المطيعون له الخائفون منه المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم ، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطلاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَآءِ ﴾ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته ، مكذبين لرسله جاحدين لكتبه ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحداث وعبراً فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَآءِ ۝ إِذْ كَانَتْ الْوُكُودُ ۝ وَهَؤُلَاءِ عَادَ الْأُولَى وَهُمْ وَلَدَ عَادَ بْنِ لَازِمَ بْنِ عَوْصَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحَ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَهُمْ الَّذِينَ بَثَّ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولَهُ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ ، وَأَهْلَكَهُمْ بِبَرِيحٍ مَّرَّتَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ۝ سَخَّرَ مَا عَلَيْهِمْ سَخَّجَ لِيَالٍ وَتَنَبَّأَ أَنَّهُمْ حُشُونًا قَتَرَفَ الْقَوْمَ فَبِمَا مَرَّتَيْنِ كَانَتْمْ أَتَجَارُ تَحَلَّى ۝ شَاوِيَةً ۝ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع لتحيير مبصرهم المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ إِذْ كَانَتْ الْوُكُودُ ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم وقوله تعالى ﴿ كَانَتْ الْوُكُودُ ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقه وأقواهم بطشاً ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٢٧) ، والحاكم في المستدرک (٤/٢٢٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٤٢) .

قال : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلُقًا مِنْ بَدَنِكُمْ وَأَوَّلَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَحْلُوتُ مِنْ سُوءِهَا ضُوءًا وَتَجْعَلُونَ الْجِبَالَ يُوقًا قَاذِكُرُوا مَا لَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَعْتَبُوا فِي الْأَرْضِ مُقْبِرِينَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ أَلَيْسَ لَكُمْ بِمَثَلٍ يَنْتَقِلُ فِي الْبَلَدِ ﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبتهم ، قال مجاهد : إرم ، أمة قديمة يعني : عاذا الأولى ، قال قتادة بن دعامة والسدي : إن إرم بيت مملكة عاد ، وهذا قول حسن جيد قوي ، وقال مجاهد وقاتدة والكلبي في قوله ﴿ كَانُوا أَلْيَاكُم ﴾ كانوا أهل عمد لا يقيمون ، وقال ابن عباس : إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم ، واختار الأول ابن جرير وزد الثاني فأصاب ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لَكُمْ بِمَثَلٍ يَنْتَقِلُ فِي الْبَلَدِ ﴾ أعاد ابن زيد الضمير على العماد لارتفاعها وقال : بنوا عمداً بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد ، وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم ، وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف لأنه لو كان المراد ذلك لقال التي لم يعمل مثلها في البلاد وإنما قال ﴿ تَمْ يَنْتَقِلُ فِي الْبَلَدِ ﴾ عن المقدم عن النبي ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : « كَانَ الرَّجُلُ يَمْشِي عَلَى الصُّخْرَةِ فَيَحْمِلُهَا عَلَى الْحِمَى فَيَهْلِكُهُمْ » ^(١) . وعن ثور بن زيد الديلي قال : قرأت كتاباً وقد سمي حيث قرأه أنا شداد بن عاد ، وأنا الذي رفعت العماد ، وأنا الذي شددت بذراعي نظر واحد ، وأنا الذي كنتز كثرأ على سبعة أذرع لا يخرجها إلا أمة محمد ﷺ . قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم للبدو أو سلاحاً يقاتلون به أو طول الواحد منهم ، فهم قبيلة وأمة من الأمم وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع المقرونون بشمود كما ههنا والله أعلم .

ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إِرَمَ كَانَتْ أَلْيَاكُم ﴾ مدينة إما دمشق أو إسكندرية ففيه نظر فإنه كيف يلتصم الكلام على هذا ﴿ أَلَيْسَ لَكُمْ بِمَثَلٍ يَنْتَقِلُ فِي الْبَلَدِ ﴾ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حيثئذ ، ثم المراد إما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد لأن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم . وإنما نهت على ذلك لئلا يفتخر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها : إرم ذات العماد ، مبنية بلبن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصباءها لأجى وجواهر ، وقرابها بنادق المسك وأنهارها سارحة وثمارها ساقطة ودورها لا أنيس بها وسورها وأبوابها تصفر ليس بها دافع ولا مجيب ، وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

وذكر العلبي وغيره أن رجلاً من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت فبينما هو بتيه في ابتغالها إذ اطلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال فأعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤٧/٦) .

وليس كذلك ، وهذا مما يقطع بعدم صحته ، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض . فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر والياقات واللائي والإكسير الكبير ، ولكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقر ونحو ذلك من الهذيانات ويظنون بهم ، والذي يجزم به أن في الأرض دفتان جاهلية وإسلامية وكنوزًا كثيرة من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله ، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وإفراء وبهت ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب . وقول ابن جرير يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ إِذْ نَفَثَ الَّيْسَاءُ ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تصرف فيه نظر ، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده ﴿ وَتَوَدَّ الَّيْنِ جَبَا الشَّعْرَ الْوَلَوِ ﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها ، ومنه يقال : مجتاهي النمار إذا خرقها واجتاهي الثوب إذا فححه ومنه الجيب أيضًا ، وقال ابن إسحاق : كانوا عربًا وكان منزلهم بوادي القرى . وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَدَّ بِي الْأَكْثَوِ ﴾ قال ابن عباس : الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره ، ويقال : كان فرعون يوتد أيدهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها . وقال السدي : كان يربط الرجل كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه وقال قتادة : بلغنا أنه كان له مظال وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وحبال . وعن أبي رافع : قيل لفرعون ذي الأوتاد لأنه ضرب لأمراته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رعى عظيمة حتى ماتت . وقوله تعالى : ﴿ الَّيْنِ طَعَنَ فِي الْيَلْدِ ﴾ ① فَكُفِّرُوا بِي الْفَسَادَ ② أي تمردوا وعصوا وعاثوا في الأرض بالفساد والأذية للناس ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي أنزل عليهم رجزًا من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ رَكَبَ الْيَلْرَسَاءُ ﴾ قال ابن عباس : يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيما يعملون ويجازي كلًا بسعيه في الدنيا والأخرى وسيعرض الخلاق كلهم عليه فيحكم فيهم بعذله ويقابل كلًا بما يستحقه وهو المنزه عن الظلم والجور .

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْلَغَهُ رُبُّهُ كَارِهُهُ وَتَعَصَّى فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ① وَإِنَّا إِذَا مَا ابْلَغْتُهُ فَعَدَّ عَلَيْهِ رِبِّي وَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ② كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ ③ وَلَا تَحْقُقُونَ عَلَى عِلْمِكُمُ الْيَسِيرِينَ ④ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْثَلًا لَنَا ⑤ وَيُشِيرُونَ الدَّالَّ حَبًّا حَبًّا ⑥ .

يقول تعالى منكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وضع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له ، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان ، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتنحه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ① ﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما الممار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيراً بأن يصبر . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ ② ﴾

فيه أمر بالإكرام له كما جاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « خَيْرُ نَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ نَيْتٌ فِيهِ يَتِمُّ يُحْسِنُ إِلَيْهِ وَتَمُرُّ نَيْتٌ فِيهِ يَتِمُّ بُشَاءٌ إِلَيْهِ - ثم قال بأصبعه - أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا » ^(١) . وعن سهل يعني ابن سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » . وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام ^(٢) : « وَلَا تَحْشُوتُ عَلَى لَمَسِهِ الْيَتِيمَ » يعني لا يأمرن بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك « وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ » يعني الميراث « أَشْكَرَ لَنَا » أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام « وَتُحِبُّونَ الْكَافَرَ حُبًّا » أي كثيرا زاد بعضهم فاحشًا .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكِّيَ الْاَرُضُ دُكًّا ١١ وَجَاءَ رُكُودُهَا رُكُودًا صَغًا ١٢ نَبَاحَ يَوْمٍ يَمُوتُ فِيهَا يَوْمَئِذٍ يَبْكُ ١٣ الْاِنْسَانُ وَالْاَنْثَى ١٤ اَلَّذِيْنَ يَكْفُرْ ١٥ يَقُولُ يَكْفُرْتُ قَدْتُ جِلْدِي ١٦ يَوْمَئِذٍ لَا يَنْدُبُ عَلَانِهٖ اُنْسًا ١٧ وَلَا يُؤْنِسُ وَكَافَّةً اُنْسًا ١٨ يَكَايِبُهَا النَّفْسُ النُّطْمِيَّةُ ١٩ اَرْجَبُ اِنْ رَكِبَ رَايِبَةً رَحِيْبَةً ٢٠ فَادْنِ فِي عَيْنِي ٢١ وَادْنِ حَتَّى ٢٢ ٠ ﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأحوال العظيمة فقال تعالى : ﴿ كَلَّا ١١ أَي حَقًّا ١٢ إِذَا دُكِّيَ الْاَرُضُ دُكًّا ١٣ أَي وعلقت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لربهم ١٤ وَجَاءَ رُكُودُهَا ١٥ يعني لفصل القضاء بين خلقه وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمّد صلوات الله وسلامه عليه بعد ما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النبوة إلى محمّد ﷺ فيقول : « أَنَا لَهَا ، أَنَا لَهَا » ^(٣) . فذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء ، فيشفعه الله تعالى في ذلك وهي أول الشفاعات ، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا وقوله تعالى : ﴿ نَبَاحَ يَوْمٍ يَمُوتُ فِيهَا يَوْمَئِذٍ يَبْكُ ١٣ ﴾ عن عبد الله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لَأَوَّلُ يَبْكُهُمْ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَحْجُورُهَا » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَبْكُ الْاِنْسَانُ ١٤ ﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم الدهر وحديثه ﴿ وَالْاَنْثَى ١٥ ﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى ﴿ يَقُولُ يَكْفُرْتُ قَدْتُ جِلْدِي ١٦ ﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصيًا ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعًا ، وعن محمّد بن عمرة وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال : لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ولو أنه رد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب . قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا يَنْدُبُ عَلَانِهٖ اُنْسًا ١٧ ﴾ أي ليس أحد أشدّ عذابًا من تعذيب الله من عصاه ﴿ وَلَا يُؤْنِسُ وَكَافَّةً اُنْسًا ١٨ ﴾ أي وليس أحد أشدّ قبضًا ووقوفًا من الزبانية لمن كفر بربههم ﷻ ولهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين ، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَكَايِبُهَا النَّفْسُ النُّطْمِيَّةُ ١٩ اَرْجَبُ ٢٠ ﴾

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٦٧٩) وللطبري في التخریب والخریب (٣٤٨/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٥) وأبو طود في السنن (٥١٥٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢٧/١) . (٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٩٥/٤) .

إِنَّكَ بِرَيْكِ ﴿١﴾ أَي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿٢﴾ رَاضِيَةً ﴿٣﴾ أَي في نفسها ﴿٤﴾ مَرِيَّةٌ ﴿٥﴾ أَي قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاهما ﴿٦﴾ فَادْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿٧﴾ أَي في جملتهم ﴿٨﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٩﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضًا كما أن الملائكة يشيرون للمؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكنذلك ههنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية . فن ابن عباس نزلت في عثمان بن عفان . وعن بريدة بن الحبيب نزلت في حمزة بن عبد المطلب ﷺ . وقال العوفي عن ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة ﴿١٠﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١١﴾ ائِجِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴿١٢﴾ يعني صاحبك وهو بدنها الذي كانت تعمه في الدنيا ﴿١٣﴾ رَاضِيَةً مَّرِيَّةً ﴿١٤﴾ وروي عنه أنه كان يقرأها ﴿١٥﴾ فَادْخُلِي فِي عِبْدِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿١٦﴾ وكذا قال عكرمة والكلبي واختاره ابن جرير وهو غريب والظاهر الأول لقوله تعالى : ﴿١٧﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ أَفْوَ مَوْلَهُمْ الْحَقِّ ﴿١٨﴾ أَي إلى حكمه والوقوف بين يديه . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿١٩﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٠﴾ ائِجِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرِيَّةً ﴿٢١﴾ قال : نزلت وأبو بكر جالس فقال : يا رسول الله ما أحسن هذا : فقال : «أَمَّا إِنَّهُ سَيُقَالُ لَكَ هَذَا» . وعن سعيد بن جبیر قال : مات ابن عباس بالطائف فجاء طير لم يرد على خلقته فدخل نعشه ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿٢٢﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٣﴾ ائِجِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرِيَّةً ﴿٢٤﴾ فَادْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٥﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٢٦﴾ . وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَفْسًا بِكَ مُطْمَئِنَّةٌ تُوَفِّرُنِي يَلْقَائِكَ وَتَرْضَىٰ بِقَضَائِكَ وَتَقْنَعُ بِعَطَائِكَ » (١) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٥١/٦) ، والهندي في كنز العمال (٣٧٣٥) .

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أُنْقِضُ عَهْدَ الْبَلَدِ ﴾ ١ وَأَنْتَ بِلَِّ عَهْدَ الْبَلَدِ ٢ وَكَذَلِكَ بَلَّ عَهْدَ ٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ٤ اِنْصَبْ أَنْ لَنْ يَقُورَ عَلَيْكَ ٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبًا ٦ اِنْصَبْ أَنْ لَمْ يَرَهُ ٧ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ عَيْنِينَ ٨ وَلِسَانًا وَمَشْفَقِينَ ٩ وَبَعِثْنَاكَ نَجْدَيْنِ ١٠ .

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حلالاً لبيته على عظمة قلدها في حال إحرام أهلها ، عن مجاهد : ﴿ لَا أُنْقِضُ عَهْدَ الْبَلَدِ ﴾ لا رد عليهم . أقسم بهذا البلد ، وقال ابن عباس : ﴿ لَا أُنْقِضُ عَهْدَ الْبَلَدِ ﴾ يعني مكة ﴿ وَأَنْتَ بِلَِّ عَهْدَ الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت يا محمد يحل لك أن تقتل به ، وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك وقال قتادة : أنت به من غير حرج ولا إثم ، وقال الحسن البصري : أحلها الله له ساعة من نهار ، وهذا المعنى قد ورد به الحديث المتفق على صحته : « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حُرْمَةُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَفْضَدُ شَجَرُهُ وَلَا يَحْتَلَى خَلَاهُ ، وَإِنَّمَا أُجِلْتُ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا يَوْمَ كَحْرَمَتِهَا بِالْأَمْسِ أَلَا فَلْيَلِمْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » . وفي لفظ آخر : « فَإِنْ أَحَدٌ تَرَشَّصَ بِقِتَالِ رَشُولِ اللَّهِ فَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ إِذَنْ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذُنْ لَكُمْ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ بَلَّ عَهْدَ ﴾ الوالد الذي يلد وما ولد العاقر الذي لا يولد له ، وقال عكرمة : الوالد العاقر ، وما ولد الذي يلد . وقيل : يعني بالوالد آدم وما ولد ولده ، وهذا حسن قوي لأنه تعالى لما أقسم بأمر القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن وهو آدم أبو البشر وولده .

وقال ابن جرير : أنه عام في كل والد وولده وهو محتمل أيضاً ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وغيرهم : يعني منتصباً زاد ابن عباس في رواية عنه منتصباً في بطن أمه والكبد الاستواء والاستقامة ، ومعنى هذا القول : لقد خلقناه سوياً مستقيماً . وعن ابن عباس : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ قال : في شدة خلق ألم تر إليه وذكر مولده ونبات أسنانه . وقال مجاهد ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ : نطفة ثم علقه ثم مضغة يتكبد في الخلق . قال مجاهد : وهو كقولہ تعالى : ﴿ حَتَّى تَنْتَهِزَ كُرْسًى وَتَضَعَهُ كُرْسًى ﴾ وأرضعته كرها ومعيشته كره فهو يكابد ذلك . وقال سعيد بن جبیر : في شدة وطلب معيشة . وقال عكرمة : في شدة وطول وقال قتادة : في مشقة . وروي أن الحسن قرأ هذه الآية ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ قال : يكابد أمراً من أمر الدنيا وأمراً من أمر الآخرة ، وفي رواية يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة . واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها . وقوله تعالى ﴿ اِنْصَبْ أَنْ لَنْ يَقُورَ عَلَيْكَ ٥ ﴾ قال الحسن البصري : يعني يأخذ ماله . وقال قتادة : ابن آدم يظن أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه وأين أنفق . وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبًا ﴾ أي يقول ابن آدم أنفقت مالا لبدا أي كثيراً ﴿ اِنْصَبْ أَنْ لَمْ يَرَهُ ٧ ﴾

(١) أخرجه البيهقي في المحج (١٥٨٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) .

أَلَمْ يَقُلْ : قَالَ مُجَاهِدٌ : أَيُّ أَحْسَبَ أَنْ لَمْ يَرَهُ اللَّهُ ﷻ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يَحْتَسِبُ لَكُمْ عَذَابٌ ﴾ أَيُّ يَصِيرُ بِهِمَا ﴿ وَلَكُلَّا ﴾ أَيُّ يَنْطَلِقُ بِهِ فَيَصِيرُ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ ﴿ وَشَفَّيْتُمْ ﴾ يَسْتَعِينُ بِهِمَا عَلَى الْكَلَامِ وَأَكْلِ الطَّعَامِ وَجَمَالاً لَوَجْهِهِ وَفَمِهِ .

﴿ وَهَدَيْتُهُ الْبَلَدَيْنِ ﴾ : الطَّرِيقَيْنِ ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : الْخَيْرُ وَالشَّرُّ ، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ هُمَا نَجْدَانِ ، فَمَا يَجْعَلُ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ ﴾ ^(١) . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهَدَيْتُهُ الْبَلَدَيْنِ ﴾ قَالَ : الثَّوْدَيْنِ . وَرواه ابن جرير ثم قال : والصواب القول الأول .

﴿ فَلَا أَقْنَمَ الْقَبَةَ ﴾ ^(٢) وَمَا أَذْرَبَكَ مَا الْقَبَةُ ^(٣) فَلَا رَقِيَّةَ ^(٤) أَوْ يَلْمَسُكَ فِي يَوْمٍ ذِي سَقَبَةٍ ^(٥) يَتَسَاءَلُ مَا مَرَّكَ ^(٦) أَوْ يَشْكِيكَ ذَا مَرَّكَ ^(٧) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَسَّلُوا بِالسَّبْرِ وَتَوَسَّلُوا بِالرَّحْمَةِ ^(٨) أَلَيْسَ لَكَ أَهْلٌ لِكَيْتُكَ ^(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَكَ أَصْحَابُ الْمَشْجَةِ ^(١٠) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوقَدَةٌ ^(١١) .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا أَقْنَمَ ﴾ أَيُّ دَخَلَ ﴿ الْقَبَةَ ﴾ قَالَ : جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿ فَلَا أَقْنَمَ الْقَبَةَ ﴾ قَالَ : عَقِبَةٌ فِي جَهَنَّمَ . وَقَالَ قَتَادَةُ : إِنَّهَا عَقِبَةٌ قَحْمَةٌ شَدِيدَةٌ فَاتَّحَمُوهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى . . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ وَمَا أَذْرَبَكَ مَا الْقَبَةُ ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ اتِّحَامِهَا فَقَالَ : ﴿ فَلَا رَقِيَّةَ ^(١) أَوْ يَلْمَسُكَ ﴾ أَيُّ أَفْلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي فِيهَا النِّجَاةُ وَالْخَيْرُ ثُمَّ يَبِينُهَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَذْرَبَكَ مَا الْقَبَةُ ^(٢) فَلَا رَقِيَّةَ ^(٣) أَوْ يَلْمَسُكَ ﴾ قَرَأَ فَلَكَ رَقِيَّةٌ بِالْإِضَافَةِ وَقَرَأَ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ وَفِيهِ ضَمِيرُ الْفَاعِلِ وَالرَّقِيَّةُ مَفْعُولُهُ وَكِلْتَا الْقَرَاءَتَيْنِ مَعْنَاهُمَا مُتَقَارِبٌ ^(٤) . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ مَنْ أَتَقَّنَ رَقِيَّةً مُؤَمَّنَةً أَتَقَّنَ اللَّهَ بِكُلِّ لَذِيبٍ - أَيُّ عَضْوٍ - مِنْهَا إِذَا مِتَّ مِنَ النَّارِ ، حَتَّى إِذَا لَيْسَ لَكَ يَدٌ يَلْتَمِسُ الْيَدَ وَيَلْتَمِسُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ وَالْفَرْجُ الْفَرْجَ ﴾ . فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ : أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؟ فَقَالَ سَعِيدٌ : نَعَمْ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ لَغْلَامٍ لَهُ أَفْرَهُ غُلَامَانِ ادْعُ مَطْرُفًا فَلَمَّا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ : اذْهَبْ فَإِنَّتِ حَرَّ لَوَجْهِهِ اللَّهُ ^(٥) وَعِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ هَذَا الْغُلَامَ الَّذِي أَعْتَقَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنَ الْعَابِدِينَ كَانَ قَدْ أُعْطِيَ فِيهِ عَشْرَةُ آلَافٍ دَرَاهِمَ ، وَعَنْ أَبِي نَجِيحٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ أَيُّمَا مُسْلِمٍ أَتَقَّنَ رَجُلًا مُسْلِمًا فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ وَقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَائِهِ عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مَحْزُورِهِ مِنَ النَّارِ وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَتَقَّنَ امْرَأَةً مُسْلِمَةً فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ وَقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَائِهَا عَظْمًا مِنْ عِظَامِهَا مِنَ النَّارِ ﴾ ^(٦) .

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْسَةَ أَنَّهُ حَذَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ﴿ مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِيَذْكُرَ اللَّهَ فِيهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَتَقَّنَ نَفْسًا مُسْلِمَةً كَانَتْ فِدْيَتُهُ مِنْ جَهَنَّمَ ، وَمَنْ شَابَ شَيْئَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ ثَوْرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٧) .

وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْسَةَ : قَالَ السَّلْمِيُّ قُلْتُ لَهُ : حَدَّثَنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ فِيهِ انْتِقَاصٌ وَلَا وَهْمٌ قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : ﴿ مَنْ وُلِدَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ فِي الْإِسْلَامِ قَمَاتُوا قَبْلَ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٥٣/٦) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحيدة وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر ﴿ فَلَكَ ﴾ يرفع الكاف ، وقرأ الباقون ﴿ فَلَكَ ﴾ يفتح الكاف (للذهلب ص ٤٥٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الحق (٢٥١٧) ومسلم في الحق (٢٤) والترمذي في السنن (١٥٤٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٤) .

أَنْ يَكْتُلُوا الْحَيَّ أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِنَّهُمْ ، وَمَنْ شَابَ شَيْئَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَلَغَ بِهِ الْعَدُوَّ أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ كَانَ لَهُ عَقْرٌ وَرَقَبَةٌ وَمَنْ أَغْتَنَى رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَغْنَتْهُ اللَّهُ بِكُلِّ غَضَبٍ مِنْهُ غَضَبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، وَمَنْ أَتَقَى زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَعْلَابِيَّةَ أَبْوَابٍ يُدْخِلُهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ بَابٍ شَاءَ مِنْهَا ^(١) .

وعن العريف بن عياش الديلمي قال : أتينا وثالة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا حديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان فنضب وقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص ، قلنا إنما أردنا حديثا سمعته من رسول الله قال : أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب يعني النار بالقتل فقال : « أَغْنَتْهَا عَنْهُ يَغْنُ اللَّهُ بِكُلِّ غَضَبٍ مِنْهُ غَضَبًا مِنَ النَّارِ » ^(٢) .

وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله علمني عملا يدخلني الجنة ، فقال : « لَيْسَ كُنْتُ أَفْضَرْتُ الْخَطِيئَةَ لَقَدْ أَفْرَضْتُ الْمَشَاكَّةَ ، أَغْنَيْتِ النَّسْعَةَ وَفُكْتُ الرَّقَبَةَ » . فقال : يا رسول الله أو ليستا بواحدة ، قال : « لَا إِنْ عَقَّ النَّسْعَةَ أَنْ تَنْقَرَهُ بِمَقْبِهَا ، وَفُكْتُ الرَّقَبَةَ أَنْ تُعِينَ فِي عَقَبِهَا ، وَالْمَنْحَةُ الْوُكُوفُ ، وَالْقِيَاءُ عَلَى ذِي الرَّجَمِ الظَّلَامِ فَإِنْ لَمْ تَطْلُقْ ذَلِكَ فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ وَأَمُرْ بِالْمَرْغُوفِ وَائْتِ الْفَكْرَ ، فَإِنْ لَمْ تَطْلُقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الْخَبْرِ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبَسْ فِي يَوْمِ ذِي سُنَّتِهِ ﴾ قال ابن عباس : أي ذي مجاعة ، وقال إبراهيم النخعي : في يوم الطعام فيه عزير ، وقال قتادة : في يوم مشتهى فيه الطعام .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ ﴾ أي أعلم في مثل هذا اليوم يتيسر ﴿ ذَا مَرْبَةٍ ﴾ أي ذا قرابة منه كما جاء في الحديث عن سلمان بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّجَمِ اثْنَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ » ^(٤) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَسْكِبَ ذَا مَرْبٍ ﴾ أي فقيرا مدقفا لاصقا بالتراب وهو الدعاء أيضا . قال ابن عباس : ذا مرتبة هو المطروح في الطريق ، الذي لا بيت له ولا شيء بقيه من التراب . وفي رواية هو الذي لصق بالدعاء من الفقر والحاجة ليس له شيء . وفي رواية عنه : هو البعيد التربة ، قال ابن أبي حاتم : يعني الغريب عن وطنه . وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي لا أحد له . وقال ابن عباس وسعيد وقاتدة ومقاتل : هو ذو العيال ، وكل هذه قرية المعنى . وقوله تعالى : ﴿ تَنْتَ كَانِ مِنَ الَّذِينَ مَاتُوا ﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه محسب ثواب ذلك عند الله ﷻ وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَيِّ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْتَةِ ﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحا ، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم كما جاء في الحديث « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مَن فِي السَّمَاءِ » ^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٦١٢/٢) وأبو داود في السنن (٣٩٦٤) وأحمد في مسنده (٤٩١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦١٤/٤) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٤١) والترمذي في السنن (١٩٢٤) وأحمد في مسنده (١٦٠/٢) .

وعن عبد الله بن عمرو يرويه قال : من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكُونُونَ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أي أصحاب الشمال ﴿ عَنِّي نَارٌ تُمْسُّهُمْ ﴾ أي مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها . قال أبو هريرة وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم ﴿ تُمْسُّهُمْ ﴾ أي مطبقة وقال ابن عباس : مغلقة الأبواب ، وقال الضحاك ﴿ تُمْسُّهُمْ ﴾ حيط لا باب له وقال قتادة : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد ، وقال أبو عمران الجوني : إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره فأوثقوا بالحديد ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم أي أطيحها قال : فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدًا ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدًا ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبدًا ، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبدًا .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢/٢) والحاكم في المستدرک (١٧٨/٤) .

الضحك والثوري : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها . وعن أبي الأسود الدبلي قال : قال لي عمران بن حصين : أرايت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه ؟ شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شيء قضى عليهم ، قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعته منه فزعاً شديداً قال : قلت له ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قال : سئدك الله إنما سألتك لأخبر عقلك إن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرايت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة ، قال : « بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ » . قال : ففيم نعمل ؟ قال : « مَنْ كَانَ اللَّهُ خَلْقَهُ لَإِخْدَى الْمَثَرَتَيْنِ يُهَيِّئْ لَهُ وَتَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ وَتَقَرَّرْ وَرَأَى سَوْنَهَا ١ ۝ فَكَلَّمَهَا بِجُورِهَا وَتَقَوَّيَهَا ٢ ۝ ﴾ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ١ ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ٢ ۝ ﴾ يحتمل أن يكون المعنى ، قد أفلح من زكى نفسه أي بطاعة الله ، كما قال قتادة وطهرها من الأخلاق الدنية والردائل ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ٢ ۝ ﴾ أي دسها أي أحمّلها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ . وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دس الله نفسه . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿ وَتَقَرَّرْ وَرَأَى سَوْنَهَا ١ ۝ فَكَلَّمَهَا بِجُورِهَا وَتَقَوَّيَهَا ٢ ۝ ﴾ وقف ثم قال : « اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، أَلْتَّ وَلِيَّهَا وَمَوَلَاهَا ، وَخَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا » (٢) . وعن عائشة أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول : « رَبِّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكَّاهَا أَلْتَّ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَلْتَّ وَلِيَّهَا وَمَوَلَاهَا » (٣) .

وعن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْهَرَمِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ . اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكَّاهَا أَلْتَّ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَلْتَّ وَلِيَّهَا وَمَوَلَاهَا . اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ . وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَدَعْوَةٍ لَا يَسْتَجَابُ لَهَا » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكمهن (٤) .

﴿ كَلَّبَتْ ثَمُودُ بِطَوَّافَتِهَا ١ ۝ إِذِ ابْتَمَتَ آسَافُهَا ٢ ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ٣ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَامْتَرَوْا ٤ ۝ فَكَذَّبْنَاهُمْ نَارَ بَعْثِهِمْ قَسَوْنَاهَا ٥ ۝ وَلَا يُخَالِفُ عَقْبُهَا ٦ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي ، فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام من الهدى واليقين ، ﴿ إِذِ ابْتَمَتَ آسَافُهَا ٢ ۝ ﴾ أي أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف عاقر الناقة وهو أحمير ثمود وهو الذي قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا سُلَيْمَ بْنَ دَاوُدَ إِذْ قَالَ لَهُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فَاسْعَوْا فِي ظُهُورِكُمْ حَقْدِكُمْ مِنْ أَلْفٍ مِنْ آلِ فِرْعَانَ وَلِيَقُلِ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ وَفِي آيَةِ الْآلَةِ وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَزِيزًا فِيهِمْ شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ نَسِيبًا رَئِيسًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٣) وأحمد في مسنده (٣٧١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٦) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧١/٤) .

مطاعاً ، وعن عبد الله بن زمة قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : « إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَارِمٌ غَزِيرٌ مَنِيْعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي رَهْمَةَ » ^(١) وقوله تعالى : ﴿ نَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴾ يعني صالحاً ^(٢) ﴿ نَاقَةُ آلِهِ ﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ﴿ وَسَفِيهَا ﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها فإن لها شرب يوم ، ولكم شرب يوم معلوم . قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَسَقَرُوهَا ﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿ فَدَمَرْنَا عَلَيْهِمْ رَهْطَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي غضب عليهم فدمر عليهم ﴿ فَسَوَّيْنَاهَا ﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَخَافُ ﴾ وقرأ ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ ^(٣) ﴿ عَقَبَهَا ﴾ قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعه . وقال السدي : لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع ، والقول الأول أولى دلالة السياق عليه والله أعلم .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٤) .

(٢) قرأ نافع وابن عباس وأبو جعفر ﴿ بالهاء والباقرن والواو ﴾ (المهذب ص : ٤٥٩) .

والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة ؛ فعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال : سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول : قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتلف ؟ قال : « بَلَى عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ » . قال : ففيم العمل يا رسول الله ؟ قال : « كُلُّ مِثْقَلٍ يَأْخُذُكَ » ^(١) . وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ » . فقالوا : يا رسول الله أفلا تتكل ؟ فقال : « اَعْمَلُوا فَكُلُّ مِثْقَلٍ يَأْخُذُكَ لَهْ » . ثم قرأ ﴿ تَنَاسَّ أَتَمَّنْ وَتَلَقَّنْ ① وَتَدَكَّرْ يَلْمَسْ ② - إِلَى قَوْلِهِ - فَتَسِيرُ يَسِيرُ ③ ﴾ ^(٢) .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ نَوْمٍ عَزَبَتْ فِيهِ شَعْبَةُ إِلَّا وَبِحَبِيبِهَا مَلَكَانِ يُتَادَوَانِ يَسْتَعْمِلُهُمَا عَالِي اللَّهِ كُلُّهُمَا إِلَّا الثَّقَلَيْنِ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَقَاتًا خَلْقًا وَأَعْطِ مُسِيكًا تَلَقًّا » ^(٣) . وأنزل الله في ذلك القرآن ﴿ تَنَاسَّ أَتَمَّنْ وَتَلَقَّنْ ① وَتَدَكَّرْ يَلْمَسْ ② فَتَسِيرُ يَسِيرُ ③ وَأَنَا مِنْ بَيْنِ وَأَسْتَفَقَ ④ وَكَلَبَ يَلْمَسْ ⑤ فَتَسِيرُ يَسِيرُ ⑥ » . وعن ابن عباس أن رجلاً كان له نخيل ، ومنها نخلة فرعها في دار رجل صالح فقير ذي عيال ، فإذا جاء الرجل فدخل داره ف يأخذ الثمرة من نخلته فنسقط الثمرة فيأخذها صبيان الرجل الفقير ، فينزل من نخلته فينتزع الثمرة من أيديهم ، وإن أدخل أحدهم الثمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه ، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ أخبره بما هو فيه من صاحب النخلة ، فقال له النبي ﷺ : « إِذْهَبْ » ، ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة فقال له : « أَعْطِنِي نَخْلَتَكَ الَّتِي فَوْقَهَا فِي دَارِ فَلَانٍ وَلَكَ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ » ، فقال له : لقد أعطيت ولكن يصعبني ثمرها وإن لي لنخلًا كثيرًا ما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة من ثمرها ، فذهب النبي ﷺ فبصره رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة فقال الرجل : يا رسول الله إن أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتك إياها أعطيتني ما أعطيت بها نخلة في الجنة ؟ قال : « نَعَمْ » . ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة ولكلاهما نخل : فقال له : أخبرك أن محمداً أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنة فقلت له : قد أعطيت ولكن يصعبني ثمرها ؛ فسكت عنه الرجل ، فقال له : أراك إذاً يبعثها قال : لا ، إلا أن أعطى بها شيئاً ولا أظنني أعطاه قال : وما منك ؟ قال : أربعون نخلة . فقال الرجل : لقد جئت بأمر عظيم نخلتك تطلب بها أربعين نخلة ، ثم سكنا وأنشأ في كلام آخر ، ثم قال : أنا أعطيتك أربعين نخلة . فقال : أشهد لي إن كنت صادقاً ، فأمر بأناس فدعاهم فقال : اشهدوا أنني قد أعطيت من نخلي أربعين نخلة بنخلتي التي فرعها في دار فلان ابن فلان ثم قال : ما تقول ؟ فقال صاحب النخلة : قد رضيت ، ثم قال بعد : ليس بيني وبينك بيع لم نفترق فقال له : قد أقالك الله ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة . فقال صاحب النخلة : قد رضيت على أن تعطيني الأربعين على ما أريد . قال : تعطينيها على ساق ثم مكث ساعة ثم قال : هي لك على ساق ، وأوقف له شهوداً وعد له أربعين نخلة على ساق ففرقا ، فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٥) .

(٣) أخرجه الطبري في الترهيب والترهيب (١١٩/٤) .

فقال : يا رسول الله إن النخلة للمائلة في دار فلان قد صارت لي فهي لك ، فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له : « **النخلة لك ولعيلالك** » . وقال عكرمة قال ابن عباس : فأمر الله ﷻ **﴿ وَأَلَيْهِ إِنَّا يَتَخَن - فَلَمَّا مَنَّ أَتَيْنُكَ وَنَقَى ﴾** **﴿ وَصَدَّقَ الْيَهُودُ ﴾** **﴿ فَتَنَبَّأَ يُنَبِّرُ ﴾** **﴿ وَأَمَّا مَنْ يَبْذُلُ وَاسْتَتَق ﴾** **﴿ كَذَّبَ الْيَهُودُ ﴾** **﴿ فَتَنَبَّأَ يُنَبِّرُ ﴾** إلى آخر السورة .

قال ابن جرير وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فمن غامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة فكان يعتق عجايز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أي بني أراك تعتق أناسا ضغفاء فلو أنك تعتق رجالا جلداء يقومون مملك ويمنعونك ويدفعون عنك . فقال : أي أبت إنما أريد - أظنه قال - ما عند الله ، قال فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه **﴿ فَلَمَّا مَنَّ أَتَيْنُكَ وَنَقَى ﴾** **﴿ وَصَدَّقَ الْيَهُودُ ﴾** **﴿ فَتَنَبَّأَ يُنَبِّرُ ﴾** ، وقوله تعالى **﴿ وَمَا يَبْذُلُ عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾** قال مجاهد : أي إذا مات . وقال زيد بن أسلم : إذا تردى في النار .

﴿ إِذْ عَنَّا الْيَهُودُ ﴾ **﴿ وَذَكَرْنَا الْكَوْثَرَ وَالْأَوَّلَ ﴾** **﴿ فَذَرَكُنَا مَا تَلَقَى ﴾** **﴿ لَا يَسْتَهَيُّ إِلَّا الْآفَاقُ ﴾** **﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾** **﴿ وَسَيَجْزِيهِ الْآفَاقُ ﴾** **﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾** **﴿ وَمَا يُلْهِيهِ عَنْدَهُ مِنْ شَيْءٍ خَيْرٌ ﴾** **﴿ إِلَّا أَفْيَافَهُ وَيَوْمَ يَرَى الْآفَاقُ ﴾** **﴿ وَلَسَوْفَ يَرَى ﴾** .

قال قتادة **﴿ إِذْ عَنَّا الْيَهُودُ ﴾** أي نبين الحلال والحرام ، وقيل : من سلك طريق الهدى وصل إلى الله وجعله كقوله تعالى **﴿ وَهَلْ أَتَاكَ خَبْرُ الْكَوْثَرِ وَالْأَوَّلِ ﴾** أي الجميع ملكتنا وأنا المتصرف فيهما ، وقوله تعالى **﴿ فَذَرَكُنَا مَا تَلَقَى ﴾** قال مجاهد : أي توهج . وعن النعمان بن بشير خطب قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول : **﴿ إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَجُلٌ تَوَضَّعَ فِي أَحْقَصِ قَدَمَيْهِ جَحْشَتَانِ تَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ ﴾** ^(١) . وقوله تعالى **﴿ لَا يَسْتَهَيُّ إِلَّا الْآفَاقُ ﴾** أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقي ، ثم فسره فقال : **﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾** أي قلبه **﴿ وَتَوَلَّى ﴾** أي عن العمل بجوارحه وأركانه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : **﴿ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا شَقِي ﴾** . قيل : ومن الشقي قال : **﴿ الَّذِي لَا يَعْمَلُ طَاعَةً وَلَا يَتَزَكَّى لِمَنْ مَغْصِيَةٌ ﴾** ^(٢) .

وعن أبي هريرة أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : **﴿ كُلُّ أُمَّتٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مِنْ أُمَّةٍ ﴾** . قالوا : ومن أئمة يا رسول الله ؟ قال : **﴿ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي قَعَدَ أُمَّةٍ ﴾** ^(٣) .

وقوله تعالى **﴿ وَسَيَجْزِيهِ الْآفَاقُ ﴾** أي وسيحزح عن النار النقي النقي الآفقي ، ثم فسره بقوله **﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾** أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا **﴿ وَمَا يُلْهِيهِ عَنْدَهُ مِنْ شَيْءٍ خَيْرٌ ﴾** أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك **﴿ أَفْيَافَهُ وَيَوْمَ يَرَى الْآفَاقُ ﴾** أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات قال الله تعالى : **﴿ وَلَسَوْفَ يَرَى ﴾** أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٢/٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٩٨) وأحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٢) .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق عليه السلام ، حتى أن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بمعومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِيكَ الْآلُفُ ﴾ ^(١) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ^(٢) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ^(٣) ولكنه مقدم الأمة وسابقتهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، وكان صديقاً تقياً كريماً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يدك عندي لم أجرك بها لأجيتك ، وكان الصديق قد أغلظ له في المقابلة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ^(٤) إِلَّا أَتَيْنَاهُ بِبُيُوتٍ مَبْنُوعَةٍ ^(٥) وَلَسَوْفَ يَرْضَى ^(٦) . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَتَقَى زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دَعَتْهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا نَحْنُ » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : « نَقَمَ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » ^(١) .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) .

صورة الضحى

عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال : قرأت على عكرمة بن سليمان وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد فلما بلغت والضحى قالوا لي : كثير حتى تختم مع خاتمة كل سورة ، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك ، وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك ، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك ، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البرقي من ولد القاسم بن أبي بزة وكان إماماً في القراءات . فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال : لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي قال : هو منكر الحديث لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أن سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال : أحسنت وأصبحت السنة وهذا يقتضي صحة هذا الحديث . ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفية فقال بعضهم : يكبر من آخر ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَنفَكْ ﴾ ، وقال آخرون : من آخر ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ، وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول : الله أكبر ! إله إلا الله والله أكبر . وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى إليه ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَنفَكْ ﴾ السورة بتماها كبر فرحاً وسروراً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَى ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَنفَكْ ﴾ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَنَ ﴾ ﴿ وَاللَّيْلَةُ إِذَا نَفَسَتْ ﴾ ﴿ وَسَوَاءٌ يُنِيطُكَ رَبُّكَ فَمَا قَصَدَ ﴾ ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ يَمِينًا وَشِمَالًا ﴾ ﴿ وَجَعَلَ حَافِلًا مُّغْنًى ﴾ ﴿ فَلَمَّا الْيَمَّةُ طَلَا نَقَّارٌ ﴾ ﴿ وَمَا أَكْتَافِلُ فَكَ نَهَرٌ ﴾ ﴿ وَأَمَّا يَنْتَظِرُكَ قَسَبٌ ﴾ .

عن الأسود بن قيس قال : سمعت جندباً يقول : اشتكى النبي ﷺ فلم يغم ليلة أو ليلتين ، فأتته امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فانزل الله ﷻ ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَنفَكْ ﴾ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَنَ ﴾ ^(١) وعن الأسود بن قيس أنه سمع جندباً يقول : رمى رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه فقال : « هَلْ أَنتَ إِلَّا أَصْبُعٌ دُيُوتِ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا تَقِيَتْ » ^(٢) .

قال : فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم . فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فنزلت ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَنفَكْ ﴾ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَنَ ﴾ والسياق لأبي سعيد قيل إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب ، وذكر أن أصبعه ﷺ دميت ، وقوله هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون ثابت في الصحيحين ولكن الغريب ههنا جعله سبباً لتركه القيام ونزول هذا السورة .

وقد ذكر بعض السلف منهم ابن إسحاق أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها ودنا إليه وتلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح ﴿ تَنَزَّلُ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم في الجهاد (١١٢) والترمذي في السنن (٣٣٤٥) .

لَكَ حَبِيبٌ مَا أُوتِيَ ﴿١﴾ قَالَ : قال له هذه السورة ﴿ وَالضُّحَى ۝ ١ ﴾ وَأَيُّلِي إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ قَالَ ابن عباس : لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبعثاً عنه جبريل أياً ما فتغير بذلك . فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه فأنزله الله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ﴿ وَأَيُّلِي إِذَا سَجَى ﴾ أي سكن فأظلم وادلمهم ، وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا ، وقوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أي ما تركك ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ أي وما أبغضك ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها اطراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته ، ولما خيّر عليه الصلاة والسلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلي آخرها ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله ﷻ اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية . وعن عبد الله هو ابن مسعود قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأتى في جنبه فلما استيقظ جعلت أمع جنبه وقلت : يا رسول الله ألا أدلتنا حتى نيسط لك على الحصير شيئاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا إِنَّمَا عَطَايَ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَائِبٍ ظُلٌّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ زَاغَ وَتَوَكَّهَا » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى ﴾ ﴿٣﴾ أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته وفيما أعده له من الكرامة ، ومن جعلته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه مسك أذفر ، وعن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : عرض وعلى رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً فأنزل بذلك فأنزل الله ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى ﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم . وعن ابن عباس من رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار . وقال الحسن : يعني بذلك الشفاعة ، وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ اشْتَاكَرَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةُ عَلَى الدُّنْيَا ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى ﴾ (٢) .

ثم قال تعالى يعطد نعمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿ أَنْتَ بِحَدِّكَ بِسْمَا فَكَأَنَّ ﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه ، وقيل بعد أن ولد عليه الصلاة والسلام ، ثم توفيت أمه أمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويقرره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتمه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تديره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل فأقام عليه سفهاء قريش وجهالهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهْتَى ﴾ ومنهم من قال إن المراد بهذا أن النبي ﷺ ضل في شباب مكة وهو صغير ثم رجع ، وقيل إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكباً ناقه في الليل فجاء

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٤/١٠) والبخاري في شرح السنة (٢٤٨/١٤) .

إبليس فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالراحلة إلى الطريق .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبِّكَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عن سواه فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه . وقال قتادة في قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَرَّمَهُ حَتَّىٰ جَعَلَكَ حَلَّالًا مِّمَّنْ جُكِّلَ ﴾ ① وَرَبِّكَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ قال : كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يعثه الله ﷻ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ الْيَتِيمُ عَنْ كَثْرَةِ الْغَرَضِ وَلَكِنَّ الْيَتِيمَ غِنَى النَّفْسِ » ② . وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قَدْ أُلْفِعَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا وَنَقَمَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » ③ . ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا الْيَتِيمَ فَلْهَفْزُ ﴾ أي كما كنت يتيمًا فأواك الله فلا تقهر اليتيم ، أي لا تلذذ وتنهره وتهنه ولكن أحسن إليه وتلطّف به ، قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم ﴿ وَأَنَا أَكْسَيْتُكَ فَلْهَفْزُ ﴾ أي وكما كنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد . قال ابن إسحاق : فلا تكن جباراً ولا متكبراً ولا فحاشاً ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله وقال قتادة : يعني رد المسكين برحمة ولين ﴿ وَأَنَا يَتَمِّتُكَ فَهَيِّتْ ﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك ، وعن أبي نضرة ، قال : كان المسلمون يرون أن من شكّر النعم أن يحدث بها .

عن أنس أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله قال : « لَا مَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ لَهُمْ وَأَتَيْتُمُ عَلَيْهِمْ » ④ . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ » ⑤ . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَلْيُجِزْ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُتِي بِهِ ، ثُمَّ اتَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ » ⑥ . وقال مجاهد : يعني النبوة التي أعطاك ربك . وفي رواية عنه القرآن ، وعن الحسن بن علي ﴿ وَأَنَا يَتَمِّتُكَ فَهَيِّتْ ﴾ قال : ما عملت من خير فحدث إخوانك ، وقال محمد بن إسحاق : ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها وادع إليها . قال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سوا إلى من يطعمن إليه من أهله واقرضت عليه الصلاة فصلی .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٠) والترمذي في السنن (٢٣٧٣) وأحمد في مسنده (٢٦١/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) وأحمد في مسنده (١٧٣/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١٢) والترمذي في السنن (٢٤٨٧) والحاكم في المستدرک (٦٣/٣) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١١) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والبيهقي في السنن (١٨٢/٦) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٣٤) والبيهقي في السنن (١٨٢/٦) والألباني في الصحيحة (٦١٧) .

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا يَدَكَ ۖ وَإِذْ نَزَعْنَا الْأَثَرُ عَنْكَ ۖ وَذَرَفْنَا عَنْكَ الْخَازِرَ ۖ إِنَّ مَعَ الشَّرِّ بُرْكَ ۖ وَإِنَّا قَرَفَتْنَا صَبَ ۖ وَلَكَ رَبُّكَ قَرِيبٌ ۖ ۝﴾

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ ﴾ يعني أنا شرحنا لك صدرك أي نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً ، وكما شرح الله صدره ، كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق . وقيل المراد بقوله ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء كما تقدم من رواية مالك ابن صعبة وقد أورده الترمذي ههنا وهذا وإن كان واقعاً ليلة الإسراء كما رواه مالك بن صعبة ولكن لا منافاة فإن من جملة شرح صدره ليلة الإسراء وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً فإله أعلم .

وعن أبي بن كعب أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره . فقال : يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال : « لَقَدْ سَأَلْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، إِنِّي فِي الصُّخْرَاءِ اثْنِ عَشَرَ مِائِينَ وَأَشْهُرٍ ، وَإِذَا يَكْلَامُ فَوْقَ رَأْسِي وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ : أَهْوِ هُوَ ؟ فَاسْتَقْبَلَانِي يُوجِّهُو لَمْ أَرْهَأْ قَطُّ ، وَأَزْوَاجٌ لَمْ أَجِدْهُمَا مِنْ خَلْفِي قَطُّ ، وَثِيَابٌ لَمْ أَرْهَأْ عَلَى أَحَدٍ قَطُّ ، فَأَقْبِلَا إِلَيَّ يَتَشَبَّهَانِ حَتَّى أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِعَضْدي لَا أَجِدُ لِأَحَدِهِمَا مَسَاحًا فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَصْحِيفُهُ ، فَأَصْحِيفَانِي بِلَا قَضَرٍ وَلَا هَضَبٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : افْلِقْ صَدْرَهُ ، فَهَوَّيْ أَحَدَهُمَا إِلَى صَدْرِي فَقَلَعَهُ فِيمَا أَرَى بِلَا دَمٍ وَلَا وَجَعٍ . فَقَالَ لَهُ : أَخْرِجِ الْجِلَّ وَالْحَسَدَ . فَأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ الْعَلَقَةِ ، ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا . فَقَالَ لَهُ : أَذْخِلِ الرَّائِقَةَ وَالْوَحْمَةَ . فَإِذَا مِثْلُ الَّذِي أَخْرَجْتَ شَبَّهِ الْفِضَّةِ ، ثُمَّ هَرَأَ إِلَيْنَا رَجُلِي الْيَعْنَى ، فَقَالَ : أَعَدَّ وَأَسْلَمَ ، فَرَجَعْتُ بِهَا أَعْدُو رَقَّةً عَلَى الصُّبَيْرِ ، وَزَخْمَةً لِلْكَبِيرِ ۖ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا يَدَكَ ۖ وَإِذْ نَزَعْنَا الْأَثَرُ عَنْكَ ۖ وَذَرَفْنَا عَنْكَ الْخَازِرَ ۖ ۝﴾ بمعنى ﴿ لِيَتَفَرَّكَ لَكَ أَثَرُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ﴿ الْآيَةُ أَنْتَ عَنَّا عَمَّرَكَ ۖ ﴾ الإنقاض الصوت وقال غير واحد من السلف : أي أُنْقَلَقَ حملهُ ، وقوله تعالى ﴿ وَذَرَفْنَا عَنْكَ الْخَازِرَ ۖ ﴾ قال مجاهد : لا أذكر إلا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَوِدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ ، قُلْتُ : قَدْ كَانَ قَبْلِي أَنْبِيَاءُ مِنْهُمْ مَنْ سَمِعْتُ لَهُ الرُّبُوعَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْبِي الْمَوْتَى ، قَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَاعْتَمَلْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ أَلَمْ أَوْفِقْ لَكَ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ ۖ » (٢) . وعن ابن عباس ومجاهد أن المراد بذلك الأذان يعني ذكره فيه وأورد من شعر حسان بن ثابت :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٩/٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٥/١١) .

أَعَزُّ عَلَيْهِ لِلْإِيمَانِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مِنْ نُورٍ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمُّ الْإِلَهِ اسْمُ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَفِيِّ الْمُؤَدَّدُ أَشْهَدُ
وَسَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجِلَّهُ فَلَوْ الْعَرْشُ مَخْمُودٌ وَهَذَا مُخَمَّدُ

وقال آخرون : رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ، ونوه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به وأن يأمروا أممهم بالإيمان به ، ثم شبر ذكره في أمته فلا يذكر الله إلا ذكر معه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعَذْرِ عَذْرًا ﴾ (١) إِنَّ مَعَ الْعَذْرِ عَذْرًا أخرجه تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ثم أكد هذا الخبر . وعن أنس بن مالك يقول : كان النبي ﷺ جالما وحياه جحر فقال : « لَوْ جَاءَ الْعَشْرُ فَدَخَلَ هَذَا الْجُحْرُ لَجَاءَ الْيُسْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ فَيُخْرِجَهُ » (٢) . فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّ مَعَ الْعَذْرِ يُسْرًا ﴾ (٣) إِنَّ مَعَ الْعَذْرِ يُسْرًا وعن الحسن قال : خرج النبي ﷺ يوما مسرورا فرحا وهو بضحك وهو يقول : « لَنْ يَغْلِبَ عَشْرٌ يُسْرَتَيْنِ ، لَنْ يَغْلِبَ عَشْرٌ يُسْرَتَيْنِ » (٤) إِنَّ مَعَ الْعَذْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعَذْرِ يُسْرًا . ومعنى هذا أن العسر معرف في الحالين فهو مفرد واليسر منكر فتعدد ؛ ولهذا قال : « لَنْ يَغْلِبَ عَشْرٌ يُسْرَتَيْنِ » . يعني قوله : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعَذْرِ يُسْرًا ﴾ (٦) فالعسر الأول عين الثاني واليسر تعدد . وما يروى عن الشافعي أنه قال :

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الْقَرْجَا مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ لَمْ يَنْلُ أَذَى وَمَنْ رَجَا يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وقال آخر :

وَلَوْ نَزَلَتْ تَضِيئِي بِهَا الْفَتَى دَرَجًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْخُرُجُ
كَمَلْتُ فَلَمَّا اسْتَحْكَمْتُ خَلْقَاتَهَا فَرِحْتُ وَتَحَانَ يَطْلُبُهَا لَا تُفْرِجُ

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ (١) ذَلِكَ رَبُّكَ فَارْجَبْ ﴿ أَي إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَشْغَالِهَا وَقَطَعْتَ عِلَاقَتَهَا فَانصَبْ إِلَى الْعِبَادَةِ وَقِمِ لَهَا نَشِيطًا فَارِغَ الْبَالِ وَأَخْلَصْ لِرَبِّكَ النِّيَّةَ وَالرَّغْبَةَ ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُنْفَقِ عَلَى صَحْبِهِ « لَا صَلَاةَ بِخَضِرَةِ طَعَامٍ وَلَا وَفَوْ يُدَافِعُهُ الْأَخْيَارُ » (٢) . وقوله ﷺ : « إِذَا أَهَمَّتْ الصَّلَاةَ وَخَضِرَ الْعَشَاءُ قَاتِلُوا بِالْعَشَاءِ » (٣) . قال مجاهد في هذه الآية : إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا فَقَمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَانصَبْ لِرَبِّكَ ، وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ : إِذَا قَمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَانصَبْ فِي حَاجَتِكَ . وعن ابن مسعود : إِذَا فَرَغْتَ مِنَ الْفَرَائِضِ فَانصَبْ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ . وقال زيد بن أسلم والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أَي مِنَ الْجِهَادِ ﴿ فَانصَبْ ﴾ أَي فِي الْعِبَادَةِ ﴿ ذَلِكَ رَبُّكَ فَارْجَبْ ﴾ قَالَ الثوري : اجعل نيتك ورغبتك إِلَى اللَّهِ ﷻ .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٥٥/٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٢٨/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في التسبیح (٦٧) والبيهقي في السنن (٧٣/٣) .

(٤) أخرجه الطبرانی في الصغير (٨٤/٧) .

سورة التين

عن البراء بن عازب كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللّٰتِ وَاللّٰزِعَاتِ ۝ وَهُوَ سَيِّدُ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْإِثْنِ ۝ أَتَىٰ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ ۝ .

اختلف المفسرين هنا على أقوال كثيرة فقيل : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : وهي نفسها . وقيل : الجبل الذي عندها . وقال القرطبي : هو مسجد أصحاب الكهف . وعن ابن عباس : أنه مسجد نوح الذي على الجودي ، وقال مجاهد : هو تينكم هذا ﴿ وَاللّٰتِ وَاللّٰزِعَاتِ ﴾ قال كعب الأحبار وقادة : هو مسجد بيت المقدس . وقال مجاهد وعكرمة : هو هذا الزيتون الذي تصبرون ﴿ وَهُوَ سَيِّدُ ۝ ﴾ وقيل : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﷺ ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ يعني مكة قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما ولا خلاف في ذلك ، وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول محله التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم ﷺ والثاني طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران والثالث مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ . قالوا وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ماعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ثم بالأشرف منه ثم بالأشرف منهما .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هذا هو المقسم عليه وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القائمة سوي الأعضاء حسنها ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي إلى النار ، قاله مجاهد وأبو العالية وغيرهما ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيرهم إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وقال بعضهم ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي إلى أرذل العمر ، وروي هذا عن عكرمة قال : من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر واختار ذلك ابن جرير ، ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه . وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع كما تقدم ، ثم قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْإِثْنِ ﴾ أي يا ابن آدم ﴿ بَعْدَ الْإِثْنِ ﴾ أي بالجزء في المعاد ولقد علمت البداية وعرفت أن من قدر على البداية فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا . عن منصور قال : قلت لمجاهد ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْإِثْنِ ﴾ عني به النبي ﷺ قال : معاذ الله ، عني به الإنسان . وقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا من ظلمه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي عَلَّمَ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ۝ ﴾
عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو الصعيد - الليالي ذوات العدد ويتروذ لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتروذ لمثلها ، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : « قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ - قال - فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَوْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ . قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَوْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَوْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي عَلَّمَ ﴾ - حتى بلغ - ﴿ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ۝ » . قال : فرجع بها ترجف بواديه حتى دخل على خديجة فقال : « زَمَلُونِي زَمَلُونِي » . فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال : « يَا خَدِيجَةُ مَا لِي ؟ » . وأخبرها الخبر وقال : « قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » . فقالت له : كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحْمَ وَتَصْدُقَ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلَ الْكُلَّ وَتَقْرَى الضَّيْفَ وَتَعْمِنَ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها وكان امرأً قد تبصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت خديجة : أي ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَوْ شَخْرَجِي هُمْ ؟ » فقال ورقة : نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواق الجبال ، فكلمنا أوفى بلروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدي له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقاً ، فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بنبوة الجبل تبدي له جبريل فقال له : مثل ذلك (١) . فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمة المباركات ، وهي أول رحمة رحم الله بها العباد وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم فشرفه وكرمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان . وتارة يكون في اللسان وتارة يكون في الكتابة بالبيان ذهني ولفظي ورسمي . والرسم يستلزمهما من غير عكس . فلهذا قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ۝ ﴾ وفي الأثر قيدوا العلم بالكتابة ، وفيه أيضاً من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم .

﴿ كَلَّا إِذَا الْإِنْسَانُ يَلْفَلْهُ ١ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ لَمِشَقَقٌ ٢ ۚ إِذَا بِكَ رُكُوعَ الرَّجُلِ ٣ ۚ أُنْزِلَتْ إِلَيْهِ يَنْفَخُ ٤ ۚ مَبْنًى إِذَا صَلَّى ٥ ۚ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذَبِ ٦ ۚ أَوْ أَمْرًا بِالْفِرَقِ ٧ ۚ أُتِيَْتَ إِنْ كُتِبَ يَقُولُ ٨ ۚ أَوْ يَقْرَأُ آيَاتَ اللَّهِ يَتَدَبَّرُهَا ٩ ۚ فَلَا لَهْفَ عَلَيْهِمْ ١٠ ۚ لَقَدْ نَسَخْنَا بِالْحَمْدِ ١١ ۚ نَاسِيَةً كَذِبَهُمْ فَالِقَةً ١٢ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّيْكُمْ ١٣ ۚ فَالْعَمَلُ الْوَاقِعُ ١٤ ۚ وَاسْجُدْ وَاقْبِ ١٥ ۚ ۝﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر ويطر وطيغان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدئه وتوعده ووعظه فقال ﴿ إِذَا بِكَ رُكُوعَ الرَّجُلِ ﴾ أي إلى الله المصير والمرجع وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيه صرفته . عن عون قال : قال عبد الله : منهومان لا يشبعان صاحب العلم وصاحب الدنيا ولا يستويان فأما صاحب العلم فيزداد رضي الرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان ، قال ثم قرأ عبد الله ﴿ إِذَا الْإِنْسَانُ يَلْفَلْهُ ١ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ لَمِشَقَقٌ ٢ ۚ ﴾ وقال للآخر : ﴿ إِنَّا نَقْصِي اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُفْلِكِينَ ٣ ۚ ﴾ وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ « مَثُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا » (١) ثم قال تعالى : ﴿ أُنْزِلَتْ إِلَيْهِ يَنْفَخُ ٤ ۚ مَبْنًى إِذَا صَلَّى ٥ ۚ ﴾ أنزلت في أبي جهل لعنه الله ، توعده النبي ﷺ على الصلاة عند البيت فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذَبِ ٦ ۚ أَوْ فَمَا ظَنُّكَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَتَّهَى عَلَيْهِ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي فِعْلِهِ ٨ ۚ أَوْ أَمْرًا بِالْفِرَقِ ٧ ۚ ﴾ بقوله وأنت ترجره وتوعده على صلاته ولهذا قال : ﴿ أَوْ يَقْرَأُ آيَاتَ اللَّهِ يَتَدَبَّرُهَا ٩ ۚ فَلَا لَهْفَ عَلَيْهِمْ ١٠ ۚ ﴾ أي لما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ، ويسمع كلامه وسيجازهه على فعله أتم الجزاء . ثم قال تعالى متوعداً ومتهادداً ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ١١ ۚ لَأَكْثُرَنَّ ١٢ ۚ ﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد و تَنَسَّاهُ بِالْحَمْدِ ١١ ۚ أي لنسئها سواءاً يوم القيامة . ثم قال : ﴿ نَاسِيَةً كَذِبَهُمْ فَالِقَةً خِطَبَةً ١٣ ۚ ﴾ أي ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطفة في أفعالها ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّيْكُمْ ١٣ ۚ فَالْعَمَلُ الْوَاقِعُ ١٤ ۚ ﴾ أي قومه وعشيرته أي ليدعهم يستصغر بهم ﴿ سَبَّحُوا بُرُودَهُ ١٥ ۚ ﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه ؟ وعن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : ﴿ لَئِنْ فَعَلْتُ لَأَخَذْتَهُ لِلْمَلِكَةِ ١٦ ۚ ﴾ .

وعن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يغفر محمداً وجهه بين أظهركم . قالوا : نعم ، قال : فقال : والللات والعزى لئن رأيت يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب ؛ فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليلاً على رقبته ، قال : فما فاجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له ما لك ؟ فقال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهو لا وأجنحة قال : فقال رسول الله ﷺ : ﴿ لَوْ نَدَانِي لَأَخْطَفْتَهُ لِلْمَلِكَةِ عُصْرًا عُصْرًا ١٧ ۚ ﴾ . قال وأنزل الله لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا ﴿ كَلَّا إِذَا الْإِنْسَانُ يَلْفَلْهُ ١ ۚ ﴾ إلى آخر السورة (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا تُلْمِئُوهُ يَا مُحَمَّدٌ لَا تَطْعَمُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ مِنَ الْمَدَامَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَكَثَرَتْهَا وَصَلْ حَيْثُ شِئْتَ ، وَلَا تَبَالِهْ فَإِنَّ اللَّهَ حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ وَهُوَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ١٨ ۚ ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَقْدُ مِنْ رَبِّكَ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدَّعَاءَ ١٩ ۚ ﴾ (٣) .
وقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿ إِذَا انشأته فَاشْقُقْ ٢٠ ۚ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ٢١ ۚ ﴾ .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٩٦/١) والطبرانی في الكبير (٢٢٣/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٤٨) وأحمد في مسنده (٢٤٨/١) . (٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٣٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) وأبو داود في السنن (٧٨٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) .

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْوٍ ۝ سَلَّمَ مِنْ حَنْ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝ .

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة التي قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ ﴾ وهي ليلة القدر وهي من شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ۝ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلاً حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ثم قال تعالى معطفاً لشأن ليلة القدر : التي اختصها بأنزال القرآن العظيم فيها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ . عن القاسم بن الفضل الحداني عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن ابن علي بعدما بايع معاوية فقال : سودت وجوه المؤمنين أو يا مسود وجوه المؤمنين فقال : لا تؤنني رحمك الله ، فإن النبي ﷺ أرى بني أمية على منبره فسأه ذلك فنزلت ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ ﴾ يملكها بحدك بنو أمية يا محمّد ، قال القاسم : فعددتنا إذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص .

قلت : وقول القاسم بن الفضل الحداني إنه حسب مدة بني أمية فوجدتها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص ليس بصحيح ، فإن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه استقل بالملك حين سلم إليه الحسن بن علي الإمرة سنة أربعين ، واجتمعت البيعة لمعاوية وسمي ذلك عام الجماعة ، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين ، ولكن لم تزل يدهم عن الإمرة بالكلية بل عن بعض البلاد إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة ، وذلك أزيد من ألف شهر فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر ، وكان القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير وعلى هذا فيقارب ما قاله الصّحّة في الحساب والله أعلم ، وما يدل على ضعف هذا الحديث أنه سيقول لمد دولة بني أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ، فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم ، فإن ليلة القدر شريفة جداً ، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر ، فكيف تمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذبذبة بمقتضى هذا الحديث وهل هذا إلا كما قال القائل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرَهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ الشَّيْفَ أَنْصَى مِنَ الْعَصَا
وقال آخر :

إِذَا آتَتْ فَصَلَّتْ اشْراً ذَا بَرَاغَةِ عَلَى نَاقِصٍ كَنَانِ الْمَدِيحِ مِنَ النَّقِصِ

ثم الذي يفهم من الآية أن الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بني أمية ، والسورة مكية فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها والمنبر إنما صنع

بالمدينة بعد مدة من الهجرة ، فهذا كله مما يدل على ضعف الحديث ونكارتة ^(١) ، والله أعلم .
وقال سفيان الثوري : بلغني عن مجاهد ليلة القدر خير من ألف شهر قال : عملها صيامها وقيامها
خير من ألف شهر . وعن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر . وقال
عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها وخير من عمل ألف شهر ، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف
شهر ليس فيها ليلة القدر . وهو اختيار ابن جرير وهو الصواب لا ما عداه وهو كقوله ﷺ : « رِبَاطُ لَيْلَةٍ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الشَّأْنِ » ^(٢) . وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة ،
وثبة صالحة أنه يكتب له عمل سنة أجر صيامها وقيامها إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ : « قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرٌ
مُبَارَكٌ افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ ، تَنْفُتُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ ، وَتُثَلُّ فِيهِ
الشَّيَاطِينُ ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مِنْ حَرَمٍ خَيْرًا فَقَدْ حُرِّمَ » ^(٣) . ولما كانت ليلة القدر تعدل
عبادتها عبادة ألف شهر ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا
وَاجْتِسَادًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ الْكُتُبَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ
أَمْرٍ ﴾ أي نزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع نزل البركة والرحمة كما
يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيمها له
وأما الروح فقيل المراد به ههنا جبريل عليه السلام فيكون من باب عطف الخاص على العام وقيل هم ضرب
من الملائكة وقوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال مجاهد : سلام هي من كل أمر . وعنه في قوله
﴿ سَلَّمَ مِنْ ﴾ قال : هي سالمة لا يستطیع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو يعمل فيها أذى ، وقال قتادة
وغیره : تقضى فيها الأمور وتقدر الآجال والأرزاق . كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ كَبِيرٍ ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ سَلَّمَ مِنْ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ عن الشعبي في قوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ **سَلَّمَ مِنْ**
حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ قال : تسليم للملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر . وقال قتادة
وابن زيد في قوله ﴿ سَلَّمَ مِنْ ﴾ يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر ، ويؤيد هذا المعنى
ما روي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْوَاثِقِ ، مَنْ قَامَتْهُ
الْجَنَّةُ حِسْبَتُهَا فَإِنَّ اللَّهَ يُغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَهِيَ لَيْلَةٌ وَثْقَى يَسْمَعُ أَوْ سَمِعَ أَوْ خَامِسَةٌ أَوْ
ثَالِثَةٌ أَوْ آخِرُ لَيْلَةٍ » . وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَمَارَةَ لَيْلَةٍ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بَلْغَةٌ كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا
سَاكِنَةً سَاجِدَةً لَا يَرَدُّ فِيهَا وَلَا حَوْلَ وَلَا يَجُلُ لِكُوزِ كَيْبِ يُؤْمَى بِهِ حَتَّى يُصْبِحَ ، وَأَنَّ أَمَارَتَهَا أَنَّ الشَّمْسَ صَبَحَتْهَا
تُخْرِجُ شُعْرَتَهَا لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَا يَجُلُ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا يُؤْمِدُ » ^(٥) .

فصل : اختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الأمة ؟ على

(١) انظر الحديث في الترمذي في السنن (٣٣٥٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٦٤) وأحمد في مسنده (٧٥/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٥) .

قولين . قال مالك : أنه بلغه أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك فكانه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خيرا من ألف شهر . وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر وقد نقله صاحب العدة أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء فالله أعلم . وحكى الخطابي عليه الإجماع ونقله الرازي جازما به عن المذهب ، والذي دلّ عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضية كما هي في امتنا .

وعن مرثد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها قلت : يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال : « بَلْ هِيَ فِي رَمَضَانَ » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال : « بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . قلت : في أي رمضان هي قال : « الْتَمِشُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ وَالْعَشْرِ الْآخِرِ » . ثم حدث رسول الله ﷺ وحدث ثم اهتبلت غفلته ، قلت : في أي العشرين هي ؟ قال : « إِيْتَمِشُوهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » . ثم حدث رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت : يا رسول الله أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي ؟ فغضب علي غضبا لم يغضب مثله منذ صحبتته وقال : « الْتَمِشُوهَا فِي الشَّيْءِ الْآخِرِ ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » (١) . ففيه دلالة على ما ذكرناه وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي ﷺ لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعد من قوله عليه الصلاة والسلام « فَرَقْتُ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ » . لأن المراد رفع علم وقتها عينا . وفيه دلالة على أن ليلة القدر يخص وقوعها بشهر رمضان من بين شائر الشهور ، لا كما روي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة من أنها توجد في جميع السنة وترتجى في جميع الشهور على السواء . وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال : باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان . عن عبد الله ابن عمر قال : سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر . فقال : « هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ » (٢) .

فصل : ثم قد قيل إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان ، وقيل : إنها تقع ليلة سبع عشرة وروى فيه أبو داود حديثا مرفوعا عن ابن مسعود وروى موقوفا عليه وعلى زيد بن أرقم وعثمان بن أبي العاص وهو قول عن محمد بن إدريس الشافعي ، ويحكي عن الحسن البصري ، ووجهه بأنها ليلة بدر وكانت جمعة هي السابعة عشرة من شهر رمضان ، في صبيحتها كانت وقعة بدر وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ وقيل : ليلة تسع عشرة ، وقيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال : اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال : إن الذي تطلب أمامك فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال الذي تطلب أمامك ثم قام النبي ﷺ خطيبا صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « مَنْ كَانَ اشْتَكَفَ مَعِيَ فَلْيُزِجْ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَإِنِّي أَسْتَعِيْهَا وَإِنِّي فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ فِي وَثْرٍ وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١/٥) والحاكم في المستدرک (١٣٣/١) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٣٨٧) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٤) .

أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ . وكان سقف المسجد جريدًا من النخل وما نرى في السماء شيئًا فجاءت قرعة فمطرنا فضلبى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤيا . وفي لفظ : في صبح إحدى وعشرين^(١) قال الشافعي : وهذا الحديث أصبح الروايات ، وقيل ليلة ثلاث وعشرين لحديث عبد الله بن أنيس وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد فإله أعلم ، وقيل ليلة أربع وعشرين . عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةٌ أُنْزِعَ وَعَشْرِينَ »^(٢) . وقد تقدم في سورة البقرة حديث وإثله بن الأسمع مرفوعاً « إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ لَيْلَةَ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ » . وقيل تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال « التمسوها في العشر الأواخر مِنْ رَمَضَانَ فِي تَائِبَةٍ تَبْقَى فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى فِي تَحَامِيصَةٍ تَبْقَى »^(٣) . فسرّه كثيرون بليالي الأوتار وهو أظهر وأشهر ، وحمله آخرون على الأشفاق . عن أبي سعيد أنه حمّله على ذلك والله أعلم ، وقيل إنها تكون ليلة سبع وعشرين لما رواه أبي فقال : والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان يحلف ما يستتي ووالله إني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها هي ليلة سبع وعشرين ، وأما أنها أن تطلع الشمس في صبيحتها يبيضاء لا شعاع لها ، وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم عن رسول الله ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين وهو قول طائفة من السلف وهو المجادة من مذهب الإمام أحمد بن حنبل ككلامه وهو رواية عن أبي حنيفة أيضًا وقد حكى عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن من قوله ﴿ مِنْ » لأنها الكلمة السابعة والعشرين من السورة فالله أعلم .

قال ابن عباس : دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر فأجمعوا أنها في العشر الأواخر ، قال ابن عباس : فقلت لعمر : إني لأعلم - أو لاني لأظن - أي ليلة القدر هي فقال عمر : وأي ليلة هي ؟ فقلت : سابعة تمضي - أو سابعة تبقى - من العشر الأواخر فقال عمر : من أين علمت ذلك قال ابن عباس فقلت : خلق الله سبع سموات وسبع أرضين وسبعة أيام وإن الشهر يدور على سبع وخلق الإنسان من سبع ويأكل من سبع ويسجد على سبع والطواف بالبيت سبع ورمي الجمار سبع لأشياء ذكرها . فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له ، وعن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ : « فِي رَمَضَانَ فَاتِّمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرَةِ فَإِنَّهَا فِي وَثْرٍ إِحْدَى وَعَشْرِينَ أَوْ ثَلَاثَ وَعَشْرِينَ أَوْ خَمْسَ وَعَشْرِينَ أَوْ سَبْعَ وَعَشْرِينَ أَوْ تِسْعَ وَعَشْرِينَ أَوْ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ »^(٤) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر : « إِنَّهَا فِي لَيْلَةٍ سَابِقَةٍ أَوْ تَائِبَةٍ وَعَشْرِينَ وَإِنَّ لِلْمَلَائِكَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى »^(٥) . وعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال : « فِي تِسْعٍ يَبْقَيْنَ أَوْ سَبْعٍ يَبْقَيْنَ أَوْ خَمْسَ يَبْقَيْنَ أَوْ ثَلَاثَ أَوْ آخِرَ لَيْلَةٍ يَبْقَى التَّيْمِسُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ » . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ في ليلة القدر « إِنَّهَا آخِرُ لَيْلَةٍ » .

(١) أخرجه البخاري في الاحتكاف (٢٠٤٠) والبيهقي في السنن (٢٨٥/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في ليلة القدر (٢٠٢١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٠/٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥١٦/٢) .

فصل : قال الشافعي في هذه الروايات : صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له أتلتس ليلة القدر في الليلة الغلانية ؟ يقول : « نعم » . وإنما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل . وروي عن أبي قلابة أنه قال : ليلة القدر تنتقل في العشر الأخير وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك والثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم . وهو محكي عن الشافعي وهو الأشبه والله أعلم . وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأخير من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَلَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّقًا فَلْيَتَحَرَّقْهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ » ^(١) . وفيها أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوَتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » ^(٢) . ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل وأنها معينة من الشهر ، بما رواه عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر ففلاحي رجلان من المسلمين فقال : « خَرَجْتُ لِأَخْبِرْكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَفَلَاخِي فَلَانٌ وَفَلَانٌ فَرَفِغَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ فَالْتَمِسُوهَا فِي الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ وَالْخَامِسَةِ » ^(٣) . وجه الدلالة منه أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة ؛ إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إن إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط . وقوله : « فَفَلَاخِي فَلَانٌ وَفَلَانٌ فَرَفِغَتْ » . فيه استئناس لما يقال إن الممارسة تقطع الفائدة والعلم النافع كما جاء في الحديث « إِنْ الْعَبْدَ لَيُحَرِّمُ الرِّزْقُ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » ^(٤) . وقوله : « فَرَفِغَتْ » . أي رفع علم تعيينها لكم لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله جهلة الشيعة لأنه قد قال بعد هذا « فَالْتَمِسُوهَا فِي الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ وَالْخَامِسَةِ » . وقوله : « وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ » . يعني عدم تعيينها لكم فإنها إذا كانت مهمة اجتهد طلابها في ابتغالها في جميع رجائها فكان أكثر للمعبادة بخلاف ما إذا علموا عينها ، فإنها كانت الهمة تنقاصر على قيامها فقط ، وإنما اقتضت الحكمة إيهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغالها ، ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف في العشر الأخير من رمضان حتى توفاه الله ﷻ ثم اعتكف أزواجه من بعده ^(٥) ، وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر ^(٦) ، ولمسلم عنها كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره ^(٧) ، وهذا معنى قولها وشد المئزر ، وقيل المراد بذلك اعتزال النساء ويحصل أن يكون كناية عن الأمرين لما روي عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد مئزره واعتزل نسائه ^(٨) . وقد حكى عن مالك رضي الله عنه أن جميع ليالي العشر في طلب ليلة القدر على السواء لا يترجح منها ليلة على أخرى ، والمستحب الإكثار من

(١) أخرجه مسلم في الصيام (٢٠٥) وأحمد في مسنده (٥/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٧) ومسلم في الصيام (٢١٩) .

(٣) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٣) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨٠/٥) .

(٥) أخرجه مسلم الاحتكاف (١) والبخاري في الاحتكاف (٢٠٣٣) .

(٦) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ومسلم في الاحتكاف (٧) .

(٧) أخرجه مسلم في الاحتكاف (٨) والترمذي في السنن (٧٩٦) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٦) .

الدعاء في جميع الأوقات ، وفي شهر رمضان أكثر وفي العشر الأخير منه ، ثم في أوتاره أكثر .
 والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني . فعن عائشة قالت :
 قلت يا رسول الله أرايت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : « قولي : اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ
 تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي » (١) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٣) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٠) وأحمد في مستدركه (١٨٣/١) .

سورة البينة

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ » . قال : وسماني لك ؟ قال ^(١) : « نعم » . فبكى . وعن أبي بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لي : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْفَرْنَ - قال : فقرا - ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ » - قال : فقرا فيها - وَلَوْ أَنَّ آدَمَ سَأَلَ وَادِيًا مِنْ مَالٍ فَأَعْطِيَهُ لَسَأَلَ ثَانِيًا ، وَلَوْ سَأَلَ ثَانِيًا فَأَعْطِيَهُ لَسَأَلَ ثَالِثًا ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا الثَّرَاثُ ، وَيَثُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ ثَابَ ، وَإِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الْخِيفَةُ غَيْرَ الْمُشْرِكَةِ وَلَا الْيَهُودِيَّةَ وَلَا النَّصْرَانِيَّةَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ خَيْرًا قُلْتُ يَكْفُرُهُ » ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتِبَ قِسْمَةٌ ۝ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۝ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ غَيْرِينَ ۝ لَمْ يَكُنِ حَقْلُهُ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِسْمَةِ ۝﴾ .

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم ، وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿مُنْفَكِينَ﴾ يعني مستهين حتى يبين لهم الحق . وهكذا قال قتادة ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي هذا القرآن ولهذا قال تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ . ثم فسر البينة بقوله ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ يعني محمدا ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتوب في اللؤلؤ الأعلى في صحف مطهرة . وقوله تعالى : ﴿فِيهَا كُتِبَ قِسْمَةٌ﴾ قال ابن جرير : أي في الصحف الملهمة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ لأنها من عند الله ﷻ وقوله تعالى ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيانات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم واختلفوا اختلافا كثيرا كما جاء في الحديث « إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِخْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَسَتَقَرُّ فِيهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثَ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي الثَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ غَيْرِينَ ۝ لَمْ يَكُنِ حَقْلُهُ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِسْمَةِ ۝﴾ . قوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ غَيْرِينَ ۝﴾ يعني متحفين من الشرك إلى التوحيد ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أشرف عبادات البدن ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمهاجرين ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِسْمَةِ﴾ أي الملة القائمة العادلة أو الأمة المستقيمة المعتدلة ، وقد استدل كثير من الأمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان ولهذا قال : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ غَيْرِينَ ۝ لَمْ يَكُنِ حَقْلُهُ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِسْمَةِ ۝﴾ .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٥٩) وأحمد في مسنده (١٣٠/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي كَرِّ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَقَّ دَرَجَةٌ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزل وأنبياء الله المرسله أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها ، أي ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله وخلقها . ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ، بأنهم خير البرية ، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية للملائكة لقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ومقام رضاه أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ حَقَّ دَرَجَةٌ ﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن عشي الله واتقاه حتى تقواه ، وعبداه كأنه يراه ، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « رَجُلٌ أَخَذَ بِعِتَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، كُلَّمَا كَانَتْ هَيْعَةً اسْتَوَى عَلَيْهِ . أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رَجُلٌ فِي ثَلَاثٍ مِنْ غَتَمِهِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى . قال : « الَّذِي يُشَالُّ بِاللَّهِ وَلَا يُعْطِي بِهِ » ^(١) .

سورة الزلزلة

عن عبد الله بن عمرو قال : أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرئني يا رسول الله . قال له : « إقرأ ثلاثاً من ذَوَاتِ الْوَاءِ » فقال له الرجل : كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني ، قال : « فاقراً من ذَوَاتِ حَم » فقال مثل مقالته الأولى ، فقال : « إقرأ ثلاثاً من المُشْتَبَحَاتِ » فقال مثل مقالته ، فقال الرجل : ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقراه ﴿ إِنَّا زَلَّيْنَا الْأَرْضَ زَلَّالَةً ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل : والذي بعثك بالحق نبياً لا أزيد عليها أبداً ثم أدير الرجل . فقال رسول الله ﷺ : « أَلْفَحِ الرَّؤُوسَ كُلَّهَا ، وَالَّذِي يُؤْتِيهِ الرُّوحَ » ثم قال - عليّ به - فجاءه فقال له - أَمُوتَ يَوْمَ الْأَضْحَى جَعَلَهُ اللَّهُ عَيْدًا لِهَيْبَةِ الْأُمَمِ » فقال له الرجل : أرايت إن لم أجد إلا منيحة أنني فأضحى بها ، قال : « لَا وَلَكِنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِكَ وَتَقْلَمُ أَظْفَارَكَ وَتَقْصُ شَارِبَكَ وَتَحْلِلُ عَاتِكَ فَذَاكَ تَمَامُ أَضْحِيَّتِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ » وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثَلَاثُ الْقُرَّانِ ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ رُبْعُ الْقُرَّانِ » ^(١) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ نِصْفُ الْقُرَّانِ ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثَلَاثُ الْقُرَّانِ ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ تَعْدِلُ رُبْعُ الْقُرَّانِ » ^(٢) وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هَلْ تَزَوَّجْتَ يَا فَلَانُ » قال : لا والله يا رسول الله ولا عندي ما أتزوج ؟ قال : « أَلَيْسَ مَعَكَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ؟ » قال : بلى قال : ثلاث القرآن - قال : أَلَيْسَ مَعَكَ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ - قال : بلى ، قال : رُبْعُ الْقُرَّانِ - قال : أَلَيْسَ مَعَكَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ؟ - قال : بلى قال - رُبْعُ الْقُرَّانِ - قال أَلَيْسَ مَعَكَ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ - قال : بلى ، قال : رُبْعُ الْقُرَّانِ ، تَزَوَّجُ ^(٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا زَلَّيْنَا الْأَرْضَ زَلَّالَةً ﴾ وَلَقَرَجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا ^(١) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ^(٢) يَوْمَئِذٍ نُخَبِّرُ عَنْهَا بَرَّهَا ^(٣) يَوْمَئِذٍ نُخَبِّرُ عَنْهَا بَرَّهَا ^(٤) يَوْمَئِذٍ نُخَبِّرُ عَنْهَا بَرَّهَا ^(٥) وَمَنْ يَسْعَلْ يَسْأَلْ دَرَجَةً شَرًّا يَسْأَلُ ^(٦) .

قال ابن عباس : ﴿ إِنَّا زَلَّيْنَا الْأَرْضَ زَلَّالَةً ﴾ أي تحركت من أسفلها ﴿ وَلَقَرَجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا ﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثُ الْأَرْضِ أَفْقَالٌ كَيْدَهَا أَفْقَالُ الْأَشْطَوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَتَلْتُ ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ رَجَمِي ، وَيَجِيءُ الشَّارِقُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئاً » ^(٥) وقوله ﷻ ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ أي استعكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة وهو

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩/٢) وأبو داود في السنن (١٣٩٩) والحاكم في المستدرک (٥٣٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٩) والترمذي في السنن (٢٨٩٩) والنسائي في السنن (٢٥٠/٢) ، وأحمد في مسنده (٤١٨/٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٤) والحاكم في المستدرک (٥٦٦/١) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٥) .

(٥) أخرجه مسلم في الفتاوى (٢) والترمذي في السنن (٢٢٠٨) .

مستقر على ظهرها ، أي تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه ثم ألفت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين وحيشة استكر الناس أمرها وتبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَحُوتُ أَخْبَارُهُ ﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها . عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَ تَحُوتُ أَخْبَارُهُ ﴾ قال : « أَتَذَرُونَ مَا أُخْبِرْتُهَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « فَإِنْ أُخْبِرْتُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا ، أَنْ تَقُولَ عَمِلَ كَذَا وَكُنَّا نَزَمُ كَذَا وَكَذَا فَهَلْ يُخْبِرُهَا » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَعْلَمُ لَهَا ﴾ قال البخاري : أوحى لها وأوحى إليها ووحى لها ووحى إليها واحد . وكذا قال ابن عباس أوحى لها أي أوحى إليها . والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها . وقال ابن عباس ﴿ يَوْمَ تَحُوتُ أَخْبَارُهُ ﴾ قال : قال لها ربها قولي فقالت ، وقال مجاهد : أوحى لها أي أمرها . وقال القرطبي أمرها أن تتشق عنهم . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْصُرُ أَلْسَانُهُ ﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب أشتاتاً أي أنواراً وأصنافاً ما بين شقي وسعيد مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار ، قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم . وقال السدي أشتاتاً فرقاً . وقوله تعالى : ﴿ إِسْرًا أَعْتَلَمَهُمْ ﴾ أي ليعلموا ويجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر لهذا قال : ﴿ كَمَنْ يَسْتَلْ يَسْكَالَ دَرَّةً وَخَيْرٌ يَرَهُ ﴾ (٢) وَمَنْ يَسْتَلْ يَسْكَالَ دَرَّةً شَرًّا يَرَهُ . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الْحِفْلُ ثَلَاثَةٌ : لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سَيْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وَرْءٌ . فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَتَبَتْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَعَالَ طَبْعُهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طَبْعِهَا ذَلِكَ فِي الْمَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طَبْعُهَا فَاسْتَنْتَشَتْ شَوْقًا أَوْ شَوْقَيْنِ كَانَتْ أَثَارُهَا وَأَزْوَائُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ . وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يَرِدْ أَنْ تُسْقَى بِهِ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ ، وَهِيَ لِلْبَلَدِ الرَّجُلِ أَجْرٌ . وَرَجُلٌ رَتَبَتْهَا تَنْقِيًا وَتَعَفًا وَلَمْ يَنْسَ عَنِ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَبِهِ لَّهُ سَيْرٌ ، وَرَجُلٌ رَتَبَتْهَا فَخْرًا وَرِنَاءً وَتَوَلَّاهُ فَبِهِ عَلَى ذَلِكَ وَرْءٌ » فسنل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال : « مَا أُنْزِلَ إِلَهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هُوَ الْآيَةُ الْفَادَةُ الْجَانِبَةَ ﴾ (٣) فَمَنْ يَسْتَلْ يَسْكَالَ دَرَّةً خَيْرٌ يَرَهُ (٤) وَمَنْ يَسْتَلْ يَسْكَالَ دَرَّةً شَرًّا يَرَهُ (٥) .

وعن صبيصة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿ فَمَنْ يَسْتَلْ يَسْكَالَ دَرَّةً خَيْرٌ يَرَهُ (٦) وَمَنْ يَسْتَلْ يَسْكَالَ دَرَّةً شَرًّا يَرَهُ ﴾ قال حسي لا أبالي أن لا أسمع غيرها . وعن عدي مرفوعاً « إِنَّاؤُا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » (٧) وله أيضاً « لَا تَحْمُزْنَ مِنَ الْمَرْغُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِنَاءِ الْمُعْتَشَقِي وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ » (٨) وفي الصحيح : « يَا مُعْتَشَرُ نِسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ لَا تَحْمُرْنَ جَارَةً لِجَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاؤَ » يعني ظلفها (٩) . عن

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٣) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٢) والحاكم في المستدرک (٢٥٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٧٣٥٦) والترمذي في السنن (١٦٣٦) والبيهقي في السنن (١٥/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٦٣) ومسلم في الفكة (٦٨) والسنائي في السنن (٧٥/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٥) والألباني في الصحيحة (١٣٥٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الفكة (٩٠) والترمذي في السنن (٧١٣٠) .

عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « يَا عَائِشَةُ اشْتَرِي مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنَّهَا تَشُدُّ مِنَ الْجَائِعِ مَسَدَهَا مِنَ الشُّبَّانِ » ^(١) . وروي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت : كم فيها من مقال ذرة . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : لما أنزلت ﴿ إِنَّا نُلَوِّجُ الْأَرْضَ زَلْزَالًا ﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حين أنزلت ، فقال له رسول الله ﷺ : « مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا بَكْرٍ » قال : يبكي هذه السورة . فقال له رسول الله ﷺ : « لَوْلَا أَنَّكُمْ تُحْطِثُونَ وَتُذَيِّبُونَ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ لَخَلَقَ اللَّهُ أُمَّةً يُحْطِثُونَ وَتُذَيِّبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » ^(٢) .

وعن سعيد بن جبير في قول الله تعالى ﴿ فَكَنْ يَسْتَلْ وَيَشْكَالَ دَرَّةٌ حَبِيرًا يَسْرُ » ^(٣) وَكَنْ يَسْتَلْ وَيَشْكَالَ دَرَّةٌ حَبِيرًا يَسْرُ ﴿ وذلك لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَيَكْلِمُونَ الْكَلَامَ عَلَى حَيْدٍ وَشَكَاةٍ وَيُبَيِّنُ ﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه ، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجزء ونحو ذلك فيردونه ويقولون : ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحب ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة والنظرة والغيبة وأشياء ذلك يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر فنزلت ﴿ فَكَنْ يَسْتَلْ وَيَشْكَالَ دَرَّةٌ ﴾ يعني وزن أصغر النمل ﴿ حَبِيرًا يَسْرُ ﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك قال يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة ، وبكل حسنة عشر حسنات ، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضًا بكل واحدة عشرا ويحصى عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة . وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّا كُنْمْ وَتُحْقَرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُوهُ » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحفر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالموود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها ^(٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩/٦) والبخاري في الترمذي (١٠/٢) والألباني في الصحيحة (٢٣٠٠) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١/٧) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) .

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا ﴾ ١ ﴿ قَالَتُورَيْتَ قَتَا ٢ ﴾ ١ ﴿ قَالَتُورَيْتَ صَبَا ٣ ﴾ ١ ﴿ قَاتَرْنَ يَوْمَ نَضَا ٤ ﴾ ١ ﴿ قُوسَطَنْ يَوْمَ جَمَا ٥ ﴾ ١ إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦ ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧ ﴾ ١ ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨ ﴾ ١ ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافٍ ٩ ﴾ ١
الْقُبُورِ ١٠ ﴿ وَخُيِّلَ مَا فِي الشُّجُورِ ١١ ﴾ ١ ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ١٢ ﴾ ١ .

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فعلدت وضيحت وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو ﴿ قَالَتُورَيْتَ قَتَا ﴾ يعني اصطكاك نعالها للمصخر فتقذح منه النار ﴿ قَالَتُورَيْتَ صَبَا ﴾ يعني الإغارة وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحا ويستمع الأذان فإن سمع أذاناً وإلا أغار . وقوله تعالى : ﴿ قَاتَرْنَ يَوْمَ نَضَا ﴾ يعني غباراً في مكان معترك الخيول ﴿ قُوسَطَنْ يَوْمَ جَمَا ﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمع . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس حدثه قال : بينا أنا في الحجر جالساً جاءني رجل فسألني عن : ﴿ وَالْمَدْيَنَ صَبَا ﴾ فقلت له : الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون ناههم . فانفتل عني فذهب إلى علي عليه السلام وهو عند سقاية زمزم ، فسأله عن العاديات ضبيحا فقال : سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم سألت ابن عباس فقال : الخيل حين تغير في سبيل الله . قال : اذهب فادعه لي فلما وقف على رأسه قال : أتفتي الناس بما لا علم لك . والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد فكيف تكون العاديات ضبيحا . إنما العاديات ضبيحا من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى ، قال ابن عباس : فنزعنا عن قولتي ورجعت إلى الذي قال علي عليه السلام ، ﴿ قَالَتُورَيْتَ قَتَا ﴾ يعني : بحوافرها وقيل : أسعرت الحرب بين ركبائهن ، وقال مجاهد : يعني : مكر الرجال وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل . وقيل المراد بذلك نيران القبائل . وقال من فسرها بالخيل هو إيقاد النار بالمزدلفة . قال ابن جرير : والصواب الأول : أنها الخيل حين تقذح بحوافرها .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتُورَيْتَ صَبَا ﴾ قال ابن عباس وقادة : يعني : إغارة الخيل صباحاً في سبيل الله ، وقال من فسرهما بالإبل هو : الدفع صباحاً من المزدلفة إلى منى . وقالوا كلهم في قوله : ﴿ قَاتَرْنَ يَوْمَ نَضَا ﴾ هو : المكان الذي حلت فيه أثارت به الغبار إما في حج أو غزو . وقوله تعالى : ﴿ قُوسَطَنْ يَوْمَ جَمَا ﴾ يعني : جمع الكفار من العدو ويحتمل أن يكون فوسطن بذلك المكان جميعاً ويكون جمعاً منصوباً على الحال المؤكدة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود . قال أنس وابن زيد : الكنود الكفور . قال الحسن : الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه . وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قال قتادة وسفيان الثوري : وإن الله على ذلك لشهيد ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد أي بلسان حاله أي : ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أي : وإنه لحب الخير وهو المال لشديد ، وفيه مذهبان : أحدهما أن المعنى إنه لشديد الحبة للمال والثاني : وإنه لحريص بخيل من محبة

المال وكلاهما صحيح . ثم قال تبارك وتعالى مزهناً في الدنيا ومرغباً في الآخرة ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ إِذَا أُنذِرَ مَا فِي السَّجُورِ ﴾ أي : أخرج ما فيها من الأموات . ﴿ وَنُحِيطَ مَا فِي السُّدُورِ ﴾ قال ابن عباس وغيره يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي : لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة .

سورة القارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأَثَرُهُ كَانَ يَوْمَ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠ إِنَّهُ حَالِيَةٌ ١١ .

القارة من أسماء يوم القيامة كالخاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك . ثم قال تعالى معظما أمرها ومهولا لشأنها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبعوث . وقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ يعني صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في اللهاب والتمزق . ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم فقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ يعني في الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَثَرُهُ كَانَ يَوْمَ ﴾ قيل : معناه فهو ساقط هارباً بأثر رأسه في نار جهنم وعبر عنه بأثره يعني دماغه . وقال قتادة : يهوي في النار على رأسه ، وقيل : معناه فأثره التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها هاوية وهي اسم من أسماء النار ، قال ابن جرير : إنما قيل للهاوية أمه لأنه لا مأوى له غيرها ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين فيقولون : روحوا أخاكم ، فإنه كان في غم الدنيا ، قال فيسألونه : ما فعل فلان ، فيقول : مات ، أو ما جاءكم ؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاوية . وقوله تعالى : ﴿ نَارُ يَتَنَبَّهَاتُ ﴾ أي حارة شديدة الحر قوية اللهب والسعير . عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ﴿ نَارُ يَتَنَبَّهَاتُ أَكْثَرُ النَّاسِ تُوقَدُونَ مِنْ جُزْءٍ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ فقال : ﴿ إِنَّهَا فَضَّلْتُ عَلَيْهَا يَتَشَعَّرُ وَيَتَنَبَّهَاتُ مِنْ جُزْءٍ ﴾ (١) وعن يحيى بن جعدة . . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : ﴿ إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ جُزْءٍ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنَفَعَةً لِأَحَدٍ ﴾ (٢) وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ﴿ هَذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ ﴾ (٣) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ أُوْقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اخْتَمَرَتْ ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى انبُضَتْ ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اشْوَدَّتْ فَبُهِتَ سَوْدَاءُ مُظْلَمَةً ﴾ (٤) وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : ﴿ إِنْ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ تَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ ﴾ (٥) وثبت أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ اسْتَشْكَبَ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ : يَا رَبِّ ، أَكَلْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ومالك في الموطأ (٩٩٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٤/٢) والترمذي في السنن (٣٤٠/٢) وابن ماجه في السنن (٤٣١٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٩/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٩١) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٦٣) .

بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا يَنْفَسِينَ نَفْسَ فِي الشِّتَاءِ وَنَفْسَ فِي الصَّيْفِ فَأَشْدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الشِّتَاءِ مِنْ
 بَرْدِهَا وَأَشْدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا ^(١) وَقَالَ : « إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَتِرِدُّوا عَنِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ
 شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَتْحِ جَهَنَّمَ » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٣٧) ، مسلم في المساجد (١٨٥) والترمذي في السنن (٥٩٢) .
 (٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٣٣) مسلم في المساجد (١٨) وأبو داود في السنن (١٠٢) .

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَنُكُمُ الْكَافِرُ﴾ ① حَتَّى دُزِمَ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَقْلَعُونَ ⑤ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑧ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ فِي جُحِيمٍ عَنِ النَّاسِ ⑨ .

يقول تعالى : أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت ووزم المقابر وصبرتم من أهلها .

عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿الْهَنُكُمُ الْكَافِرُ﴾ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿حَتَّى دُزِمَ الْمَقَابِرَ﴾ حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ وقال الحسن البصري : ﴿الْهَنُكُمُ الْكَافِرُ﴾ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وعن أنس بن مالك عن أبي بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿الْهَنُكُمُ الْكَافِرُ﴾ يعني : «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ» ① وعن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : ﴿الْهَنُكُمُ الْكَافِرُ﴾ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَا لِي ، مالي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَقْبَيْتُ أَوْ لَيْسَتْ فَأَقْبَيْتُ أَوْ تَصَدَّقْتُ فَأَقْبَيْتُ ؟ ② وعن أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : «يَبْغِي الْمَيْتَ ثَلَاثَةَ فَرَسِجٍ الثَّانِي وَيَبْغِي مَعَهُ وَاحِدٌ : يَبْغِيهِ أَهْلُهُ وَمَا لَهُ وَعَمَلُهُ فَرَسِجٌ أَهْلُهُ وَمَا لَهُ وَيَبْغِي عَمَلُهُ» ③ وعن أنس أن النبي ﷺ قال : «نَهَرُ ابْنِ آدَمَ وَيَبْغِي مَعَهُ الثَّانِي : الْحَوْصُ وَالْأَمَلُ» ④ وذكر في ترجمة الأحنف بن قيس واسمه الضحاك أنه رأى في يد رجل درهما فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل : لي ، فقال : إنما هو لك إذا أنفقت في أجر أو ابتغاء شكر ، ثم أنشد الأحنف ممثلاً قول الشاعر :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أُنْسَكْتَهُ فَإِذَا أَلْفَقْتَهُ فَاَلَسَّالُ لَكَ

وعن ابن بريدة في قوله : ﴿الْهَنُكُمُ الْكَافِرُ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان بن فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالأحياء ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يسيرون إلى القبور ومثل فلان . وفعل الآخرون مثل ذلك فانزل الله : ﴿الْهَنُكُمُ الْكَافِرُ﴾ حَتَّى دُزِمَ الْمَقَابِرَ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهَا رَأْيٌ عَمِرَ وَشَغَلَ . وقال قتادة : ﴿الْهَنُكُمُ الْكَافِرُ﴾ حَتَّى دُزِمَ الْمَقَابِرَ كانوا يقولون : نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعدو من بني فلان وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم . والصحيح أن المراد بقوله : ﴿دُزِمَ الْمَقَابِرَ﴾ أي : صرتم إليها ودفنتم فيها . كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعودده فقال : «لَا بَأْسَ طُهْرٌ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ» فقال : قلت : طهور بل هي حمى تقور ، على شيخ كبير تزيره القبور ،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٠) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ومسلم في الزهد (٥) والترمذي في السنن (٢٣٧٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٣٩) وأحمد في مسنده (١٩٢/٣) والطبراني في الكبير (٢٥٨/٧) .

قال : « فَتَمَّمْ إِذْنٌ » ^(١) . وعن علي قال : ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُفْرُ ﴾
 حَتَّى زِدْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَرَأَ : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُفْرُ ﴾
 حَتَّى زِدْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ فَلَبِثْتُ هُنِيئَةً ثُمَّ قَالَ : يَا مَيْمُونُ مَا أَرَى الْمَقَابِرَ إِلَّا زِيَارَةً وَمَا لِلزَّائِرِ بِدَنْ أَنْ
 يَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهِ . قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَعْنِي أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهِ أَيْ : إِلَى جَنَّةٍ أَوْ إِلَى نَارٍ . وَهَكَذَا ذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ
 الْأَعْرَابِ سَمِعَ رَجُلًا يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ حَتَّى زِدْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فَقَالَ : بَعَثَ الْيَوْمَ رَبُّ الْكَعْبَةِ أَيْ أَنَّ الزَّائِرَ
 سِيرَ حُلٍّ مِنْ مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ . قَالَ الْحَسَنُ
 الْبَصْرِيُّ : هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي أَيْهَا الْكَافِرُ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
 تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَصَلَوْنَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أَيْ : لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ الْعِلْمِ لَمَا
 أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ حَتَّى صَرَفْتُمْ إِلَى الْمَقَابِرِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾^(٣) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا
 عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿ هَذَا تَفْسِيرُ الْوَعِيدِ الْمُتَقَدِّمِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾^(٤) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ .
 تَوَعَّدُهُمْ بِهَذَا الْحَالِ وَهُوَ رُؤْيَا أَهْلِ النَّارِ الَّتِي إِذَا زُفِرَتْ زُفْرَةٌ وَاحِدَةٌ خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ عَلَى
 رُكْبَتَيْهِ مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْعَظَمَةِ وَمَعَانِيَةِ الْأَهْوَالِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ الْمُرَوِّى فِي ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّ
 الْجَحِيمَ ﴾ أَيْ : ثُمَّ لَتَسَالُكُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ شُكْرٍ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الصَّحَّةِ وَالْأَمْنِ
 وَالرِّزْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا إِذَا قَابَلْتُمْ بِهِ نِعْمَهُ مِنْ شُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ
 جَالِسَانِ إِذْ جَاءَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « مَا أَجْلَسَكُمَا هَهُنَا ؟ » قَالَا : « وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنَا مِنْ
 بَيْوتِنَا إِلَّا الْجُوعَ » قَالَ : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ » . فَانْطَلَقُوا حَتَّى أَتَوْا بَيْتَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ
 فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَرْأَةُ ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ : « أَتَيْنَ فُلَانٌ ؟ » قَالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعِذُّ لَنَا مَاءً فِجَاءَ صَاحِبِهِمْ
 يَحْمِلُ قَرْبَتَهُ ؟ فَقَالَ : مَرَحِبًا . مَا زَارَ الْعِبَادَ شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنْ نَبِيِّ زَارِنِي الْيَوْمَ ، فَعَلَّقَ قَرْبَتَهُ بِكَرْبٍ نَخْلَةٍ ،
 وَانْطَلَقَ فِجَاءَهُمْ بَعْدَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلَا كُنْتُمْ اجْتَمَعْتُمْ ؟ » فَقَالَ : أَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونُوا الَّذِينَ
 تَخْتَارُونَ عَلَى أَعْيُنِكُمْ ، ثُمَّ أَخَذَ الشَّعْرَةَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّكَ وَالْخُلُوبُ » فَذَبَحَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ
 فَأَكَلُوا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَتَسَالُكُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أَخْرَجَكُمْ الْجُوعُ فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصْبَحْتُمْ
 هَذَا فَهَذَا مِنَ التَّجِيمِ » ^(٥) . وَعَنْ أَبِي عَسِيبٍ - مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 لِيَلَّا فَمَرَّ بِي فِدْعَانِي فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ مَرَّ بِأَبِي بَكْرٍ فِدْعَاهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ثُمَّ مَرَّ بِعُمَرَ فِدْعَاهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ،
 فَانْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا لِبَعْضِ الْأَنْصَارِ فَقَالَ لِصَاحِبِ الْحَائِطِ : « أَطْعِمْنَا » فِجَاءَهُ بَعْدَهُ فَوَضَعَهُ
 فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ بَارِدٍ فَشَرِبَ وَقَالَ : « لَتَسَالُكُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قَالَ :
 فَأَخَذَ عُمَرُ الْعَدْقَ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ حَتَّى تَنَاقَرَتِ الْبِسْرُ قَيْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا
 لِمَسْئُولُونَ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : « نَعَمْ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : خِيَوْفَةُ لَفٍّ بِهَا الْوَجِلُ عَوْرَتُهُ ، أَوْ كِبَرُوتُهُ
 سُدَّ بِهَا جَوْعَتُهُ ، أَوْ مَجْعَرٌ يَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرِّ » ^(٦) .

وعن جابر بن عبد الله قال : أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وطبنا وشربوا ماء فقال رسول

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٧٠) والبيهقي في السنن (٣٨٣/٢) والطبراني في الكبير (٣٤٢/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٤٠) .

الله : « هَذَا مِنَ النِّعَمِ الَّذِي تُشَاكِرُونَ عَنْهُ » ^(١) وعن محمود بن الربيع قال : لما نزلت : ﴿ أَفَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ الْكَافِرُ ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ لَتَشْكُنَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قالوا : يا رسول الله عن أي نعيم نسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر فعن أي نعيم نسأل ؟ قال : « أَمَا إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ » ^(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُشَاكَلُ عَنْهُ - يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ - الْعَبْدُ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَلَمْ تُصَبِّحْ لَكَ بِذَلِكَ وَنَزَوَّكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ ؟ » ^(٣) وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ ثُمَّ لَتَشْكُنَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قال : « الْأَشْمُ وَالصُّحَّةُ » ^(٤) وقال زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ : ﴿ ثُمَّ لَتَشْكُنَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ يعني : شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم .

وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة غسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصري : من النعيم الغذاء والعشاء . وقال أبو قلابة : من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي . وقول مجاهد أشمل هذه الأقوال ، وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتَشْكُنَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْكَافِرُ وَالْقَوَادِرُ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُوحًا ﴾ . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقْمَتَانِ مَقْبُورٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصُّحَّةُ وَالزَّرَاعُ » ^(٥) . ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين التعمتين لا يقومون بواجبهما ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مقبور . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى - قَالَ عَفَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَا ابْنَ آدَمَ حَمَلْتُكَ عَلَى الْحَيْلِ وَالْإِجْلِيلِ وَزَوَّجْتُكَ النِّسَاءَ وَجَعَلْتُكَ تَرْتِغًا وَتَرَأْسًا فَأَنْتَ شُكْرُ ذَلِكَ ؟ » ^(٦)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥١/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٤/١) .

(٤) ذكره السوطي في الدر المنثور (٣٨٨/٦) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٠٤) وابن ماجه في السنن (٤١٧٠) وأحمد في مسنده (٣٤٤/١) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤٩٢/٢) .

سورة الهزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣ ﴿كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْأَخْلَافِ ٤ وََمَا آدْرَاكَ مَا لِّلْطَلُفَةِ ٥ نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَلْجَأُ الْفُقَرَاءَ ٦ إِلَيْهَا عَلَيْهِمْ نُوَصِّدُهُ ٧﴾ فِي عَمَلٍ مُّتَدَنٍّ ٨ .

الهماز بالقول واللماز بالفعل يعني : يزدرى الناس ويتقص بهم ، قال ابن عباس : ﴿هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ﴾ طعان معياب . وقال الربيع بن أنس : الهزلة يهززه في وجهه ، واللمزة من خلفه . وقال قتادة : الهزلة واللمزة لسانه وعينه وبأكل لحوم الناس ويطعن عليهم . وقال مجاهد : الهزلة باليد والعين واللمزة باللسان ، وهكذا قال ابن زيد . وقال مالك عن زيد بن أسلم : همزة لحوم الناس . ثم قال بعضهم : المراد بذلك الأخنس بن شريق ، وقيل غيره . وقال مجاهد : هي عامة . وقوله تعالى : ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي : جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده ، وقال محمد بن كعب : ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة . وقوله تعالى : ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي : يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار . ﴿كَلَّا﴾ أي : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى : ﴿لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْأَخْلَافِ﴾ أي : ليلقين هذا الذي جمع مالا فعده في الحطمة ، وهي : اسم صفة من أسماء النار ؛ لأنها تعظم من فيها . ولهذا قال : ﴿وَمَا آدْرَاكَ مَا لِّلْطَلُفَةِ ٥ نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَلْجَأُ الْفُقَرَاءَ ٦ إِلَيْهَا عَلَيْهِمْ نُوَصِّدُهُ ٧﴾ قال ثابت البناني : تحرقهم إلى الأبدية وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ثم يكي . وقال محمد بن كعب : تأكل كل شيء من جسده حتى إذا بلغت فواده حلو حلقه ترجع على جسده . وقوله تعالى : ﴿إِنَّا عَلَيْهِمْ نُوَصِّدُهُ ٧﴾ أي مطبقة . وقوله تعالى : ﴿فِي عَمَلٍ مُّتَدَنٍّ ٨﴾ : عمد من حديد ، وقال السدي : من نار ، وقال ابن عباس : يعني : الأبواب هي المدة ، وقال قتادة في قراءة عبد الله بن مسعود - إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة - وقال ابن عباس : أدخلهم في عمد ممددة عليهم بعماد في أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب . وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون في النار . واختاره ابن جرير . وقال أبو صالح ﴿فِي عَمَلٍ مُّتَدَنٍّ ٨﴾ : يعني : القيود الثقيل .

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ يَدْعُوًّا مِّنْ تَحْتِهَا ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ مِّنْ رِّجْلٍ ۝ فَمَلَّاهُمْ كَغَصَصٍ مَّاكُولٍ ۝ ﴾ .

هذه من النعم التي امن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله وأرغم أنافهم وخيب سعيهم وأضل عملهم وردهم بشراً خيبة . وكانوا قوماً نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ولسان حال القدر يقول : لم نصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره بيعة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء . وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود : أن ذا نواس وكان آخر ملوك حمير وكان مشركاً ، وهو الذي قتل أصحاب الأخدود وكانوا نصارى وكانوا قريباً من عشرين ألفاً ، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان فذهب فاستغاث بقيص ملك الشام وكان نصراً فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين أرباط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران أرباط وأبرهة فاختلفا في أمرهما وتصارولا وتقاتلا وتصارفاً ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن ابرز إلي وأبرز إليك فأبنا قتل الآخر استقل بعده بالملك ، فأجابه إلى ذلك فتيارزا وخلف كل واحد منهما قناة فحمل أرباط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرباط فقتله ورجع أبرهة جريحاً فداوى جرحه فبرأ واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزئ ناصيته ، فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانه ويحث مع رسوله بهناها وتحف وبجرباب فيه من تراب اليمن وجز ناصيته فأرسلها معه ويقول في كتابه : ليطأ الملك على هذا الجرباب فير قسمه وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك ، فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه وأقره على عمله ، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي : إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم ين قبلها مثلاً ، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رقيقة البناء عالية الفناء مزخرفة الأرجاء سمعها العرب : القليس ؛ لارتفاعها ؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها ، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً حتى قصدوا بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلاً فأحدث فيها وكراً راجعاً ، فلما

رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضبنا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به . فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً .

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارا وكان يومًا فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض فاضأب أبرهة لذلك ، وسار في جيش كثيف عزمم لئلا يصدده أحد عنه واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الحجم لم ير مثله يقال له : محمود . وكان قد بعث إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك . ويقال : كان معه ثمانية أفيال وقيل : اثنا عشر فيلاً غيره فالله أعلم . يعني : ليهدم به الكعبة بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ، ثم يزجر ليفلق الحائط جملة واحدة ، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموه ذلك جداً ، ورأوا أن حقاً عليهم الحاجة دون البيت ، ورد من أرادته بكيد فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له : ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله وما يريد من هدمه وخرابه ، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم لما يريد الله ﷻ من كرامة البيت وتعظيمه وأسر ذو نفر فاستصحبه معه ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه شهران وناهس ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ، وأسر نفيل بن حبيب فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز ، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعو خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات فأكرمهم ، وبشوا معه أبا رغال دليلاً فلما انتهى أبرهة إلى المفسس وهو قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب ، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة وكان يقال له : الأسود بن مقصود ، فهجاه بعض العرب فيما ذكره ابن إسحاق ، وبعث أبرهة حنابلة الحميري إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشراف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجرئ لقتالكم إلا أن تصلوه عن البيت ، فجاء حنابلة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حنابلة : فاذهب معي إليه ، فذهب معه فلما رآه أبرهة أجله ، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط ، وقال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال لترجمان : إن حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي ، فقال أبرهة لترجمان : لقد كنت أعجبتني حين رأيته ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتي ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ؟ وتركت بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ، فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه . قال : ما كان ليمنع مني قال : أنت وذلك ، ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب ففرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من مرة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِلَّا لَمُوءَةٌ يَمُوءُ
لَا يَنْفِلِينَ صَالِيَهُمْ . وَيَحَالُ هُمْ أَتَيْدًا . يَحَالُكَ

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال . وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق فينتقم الله منهم . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهياً فيله وكان اسمه محموداً ، وعبأ جيشه فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا في رأسه بالطيرزين وأدخلوا محاجن لهم في مرافقه فنزعوه بها ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن . فقام بهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا يصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصابت ؟ وخرجوا هارين يتندرون الطريق ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق ، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة ، وجعل نفيل يقول :

أَتَبْرَأُ الْمَكْرُ وَالْإِلَهَ الطَّالِبِ
وَالْأَشْرَمُ الْمُكْلُوبُ لَيْسَ الْعَالِبُ

قال ابن إسحاق وقال نفيل في ذلك أيضاً :

أَلَا حُجِّيتَ عَنَّا يَا وَدِيتَا
وَدِيتَا لَوْ رَأَيْتَ وَلَا تَرِي
إِذَا لَعَنَ زَيْبِي وَحَمِدْتَ أَمْرِي
حَمِدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرَا
فَكُلُّ الْقَوْمِ تَسَالُ عَنْ نُفَيْلِ
تَجِئْتَكُمْ مَعَ الْإِضْبَاحِ عَيْتَا
لَذَى جَنْبِ الْمُحْصَبِ مَا رَأَيْتَا
وَلَمْ تَأْسِ عَلَى مَا قَاتَ بَيْنَا
وَعِجْتُ حِمَاةً ثُلُقَى عَلَيْنَا
كَأَنَّ عَلَيَّ لِحْمِجَيْنِ دَيْنَا^(١)

وذكر الواقدي بإسناده أنهم لما تمبؤوا لدخول الحرم ، هياؤا الفيل جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها فإذا وجهوه إلى الحرم رضى وصاح ، وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ليقهر الفيل على دخول الحرم وطال الفصل في ذلك ، هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة فيهم المطعم بن عدي وعمر بن عائد بن عمران بن مخزوم ومسعود بن عمرو الثقفي على حراء ينظرون ما الحبيشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل وهو العجب المعجاب ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل أي : قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام وأرجلها حمر ومع كل طائر ثلاثة أحجار وجاءت فحلقت عليهم وأرسلت تلك الأحجار ، عليهم فهلکوا . وقال محمد بن إسحاق : جاؤوا بفيلين فأما محمود فربض ، وأما الآخر فشجع فحصب .

وقال وهب بن منبه : كان معهم فيلة ، فأما محمود وهو فيل الملك فريض ليقتردي به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تشجع فحصب فهرت بقية الفيلة . وقال عطاء بن يسار وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراحنة ، بل منهم من هلك سريعاً ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاريون . وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً حتى مات بيلاد خضع . وقال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطوا بكل طريق ويهلكون على كل منهل وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أثمة أثمة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان أن قريشاً أصابوا ملاً جزيلاً من أسلابهم وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة . قال ابن إسحاق : وحذثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رُميت الحصبة والجذري بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رمي به مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعسر ذلك العام ، وهكذا روي عن عكرمة من طريق جيد . قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يحد به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عليهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن يَبَبِيلٍ ۚ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۚ ﴾ قال ابن هشام : الأبايل الجماعات ولم تتكلم العرب بواحدة . قال : وأما السجيل فعن يونس النحوي وأبي عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب . قال وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة وإنما هو سنج وجل يعني بالسنج الحجر والجل الطين . يقول الحجازة من هذين الجنسيتين الحجر والطين قال : والعصف ورق الزرع الذي لم يقضب ، واحدته عصفه انتهى ما ذكره . وعن عبد الله وأبي سلمة بن عبد الرحمن ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : الفرق . وقال ابن عباس والضحاك : أبابيل يتبع بعضها بعضاً . وقال الحسن البصري وقادة : الأبايل الكثيرة . وقال مجاهد : شتى متتابعة مجمعة . وقال ابن زيد : الأبايل المختلفة تأتي من ههنا ومن ههنا أتتهم من كل مكان ، وقال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبايل إليل .

عن ابن عباس ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب . عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : كانت طيراً خضرًا خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع . وعن عبيد بن عمير قال : هي طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها الحجارة . وقال سعيد بن جبير : كانت طيراً خضرًا لها مناقير صفر تختلف عليهم . وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء : كانت الطير الأبايل مثل التي يقال لها : عنقاء مغرب ، وعن عبيد بن عمير قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب القيل بعث عليهم طيراً أنشفت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجرعة حجرين في رجله وحجراً في منقاره . قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت ، وألقت ما في أرجلها ومناقيرها فما يقع على رأس رجل إلا خرج من دبره ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادت شدة فأهلكوا جميعاً .

وقوله تعالى : ﴿ جَنَلَهُمْ كَتَمَفٍ ثَأْكُورٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني الثين الذي تسميه العامة هبور ، وقال سعيد : ورق الخنطة وعنه : العصف الثين والمأكول القصيل يجز للدواب . وعن ابن عباس : العصف القشرة التي على الحبة كالغلاف على الخنطة .

وقال ابن زيد : العصف ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فرائثه فصار دريئاً ، والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى أهلكتهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح كما جرى للملكهم أبرهة فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء وأخبرهم ماذا جرى لهم ثم مات . فملك بعده ابنه يكسوم ، ثم من بعده أخوه مسروق ابن أبرهة . ثم خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى فاستعانته على الحبشة فأنفذ معه من جيوشه ، فقاتلوا معه فرد الله إليهم ملكهم وما كان في آبالهم من الملك ، وجاعته وفود العرب بالهزيمة . وعن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بكمة أعميين مقعدين يستطعمان .

قلت : كان اسم قائد الفيل أنيشا . وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة قصة أصحاب الفيل ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن ، وإنما بحث على الجيش رجلاً يقال له : شمر بن مقصود وكان الجيش عشرين ألفاً وذكر أن الطير طرقتهم ليلاً فأصبحوا صرعى . وهذا السياق غريب جداً وإن كان أبو نعيم قد قواه ورجحه على غيره . والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشي قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار . وهكذا روي عن عروة أن أبرهة بحث الأسود بن مقصود على كتيبة معهم الفيل ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه ، والصحيح قدومه ولعل ابن مقصود كان على مقدمة الجيش والله أعلم . ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب فيما كان من قصة أصحاب الفيل فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبيري :

تَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا كَانَتْ قَدِيمًا لَا بُرَامَ حَرَمِهَا
لَمْ تَخْلُقِ الشُّفْرَى لِيَالِي حَرَمَتْ إِذْ لَا عَزِيمَ مِنَ الْأَكَامِ تَرُومِهَا
سَائِلُ أَمِيرِ الْجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى فَلَمَّسَوفَ يُثْبِي الجَاهِلِينَ عَلَيْهَا
يَسْتَوْنَ أَلْفًا لَمْ يَمُوتُوا أَوْضَهُمْ بَلْ لَمْ يَعْشَ بَعْدَ الْإِبَابِ سَقِيمِهَا
كَانَتْ يَهَا عَادَ وَجَرَهُمْ قَبْلَهُمْ وَاللَّهِ مِنْ قَوِّ الْعِبَادِ يُؤَيِّمِهَا

وقد قلدنا في تفسير سورة الفتح أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على التنية التي تهبط به على قریش برکت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء أي : حرت فقال رسول الله ﷺ : « مَا خَلَّاتِ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا خَابِسُ الْفِيلِ » - ثم قال - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَشَأُنُونِي الْيَوْمَ حُطَّةٌ يُعْظَمُونَ فِيهَا مُحْرَمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا » ثم زجرها فقامت (١) ، وروي أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » (٢) .

(١) أنجزه أبو داود في السنن (٢٦٧٥) والبيهقي في الجان (٢١٩/٩) .

(٢) أنجزه مسلم في الحج (٤٤٧) وأبو داود في السنن (٢٠١٧) والترمذي في السنن (٢٦٥/٢) .

سورة قريش

ذكر حديث غريب في فضلها : عن أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال : « فَضَّلَ اللَّهُ قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِلَالٍ : إِيَّيْهِمْ ، وَإِنَّ الثَّوْبَةَ فِيهِمْ ، وَالْحِجَابَةَ وَالسَّقَايَةَ فِيهِمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِيهِمْ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ - ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ الْكِتَابِ الْهَدْيَةِ ﴾ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا قَرِيبُ ﴾ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾ وَالصَّبِيحُ ﴿ قَلِّبُوا رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَجْعَلْ مِنْ جِوْجِ وَءَامَنَهُمْ يَزْنَ حَوْفِي ﴾ » ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا قَرِيبُ ﴾ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾ وَالصَّبِيحُ ﴿ قَلِّبُوا رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَجْعَلْ مِنْ جِوْجِ وَءَامَنَهُمْ يَزْنَ حَوْفِي ﴾ .

هذه السورة مفصلة عن التي قبلها في المصحف الإمام كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ لأن المعنى عندهما : حسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله لإيلاف قريش أي لا تلافهم واجتماعهم في بلدهم آمين ، وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك ثم يرجعون إلى بلدهم آمين في أسفارهم لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله فمن عرفهم بل احترمهم بل من صوفي إليهم وسار معهم آمن بهم ، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم ، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَزْزًا مَلِكًا وَيَكْفُلُ أَتَانًا يَزْنَ حَوْفِي ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا قَرِيبُ ﴾ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾ .

وقال ابن جرير : الصواب : أن اللام لام التعجب كأنه يقول : اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك . قال : وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان مستقلتان . ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال : ﴿ قَلِّبُوا رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أي : فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَجْعَلْ مِنْ جِوْجِ وَءَامَنَهُمْ يَزْنَ حَوْفِي ﴾ أي : هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع وءامنهم يَزْنَ حَوْفِي أي : تفضل عليهم بالأمن والرخص ، فليغردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، ولا يعبدوا من دونه صنما ولا ندأ ولا وثنا . ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبها منه ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وَقَدْ لَكُمْ قُرَيْشٌ لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ » ^(٢) .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٣٦/٢) والألبانی في الصحيحة (١٩٤٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/٦) والطبرانی في المعجم (١٧٧/٢٤ - ١٧٨) .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : سألت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال : « هُمُ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَجْهِهَا » ^(١) قلت : وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكليّة ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً أو تأخيرها عن أول الوقت .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعِينُ الْمَاعُونُ ﴾ أي : لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم . فهو لا يمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى . وعن مجاهد قال علي : الماعون الزكاة . قال الحسن البصري : إن صلى رءى ، وإن فاتته لم يأس عليها ، ويمنع زكاة ماله . وفي لفظ : صلقة ماله . وقال زيد بن أسلم : هم المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها ، وخفيت الزكاة فمنعوها . سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون فقال : هو ما يتعاضده الناس بينهم من الفأس والقدر . عن عبد الله قال : كنا مع نبينا ﷺ نقول : الماعون منع الدلو وأشباه ذلك . عن ابن عباس ﴿ وَيَسْتَعِينُ الْمَاعُونُ ﴾ : يعني : متاع البيت . وقال : لم يجرئ أهلها بعد . وقال ابن عباس : اختلف الناس في ذلك فمنهم من قال : يمنعون الزكاة ، ومنهم من قال : يمنعون الطاعة ، ومنهم من قال : يمنعون العارية . وعن علي : الماعون منع الناس الفأس والقدر والدلو . وقال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة . وهذا الذي قاله عكرمة حسن فإنه يشمل الأقوال كلها وترجع كلها إلى شيء واحد وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمد بن كعب : ﴿ وَيَسْتَعِينُ الْمَاعُونُ ﴾ : المعروف . ولهذا جاء في الحديث : « كُلُّ مَفْرُوفٍ صِدْقَةٌ » ^(٢) . وعن الزهري ﴿ وَيَسْتَعِينُ الْمَاعُونُ ﴾ : قال : بلسان قريش المال . وعن علي بن فلان التميمي : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ إِذَا لَقِيَهُ جَاءَ بِالسَّلَامِ وَبَرَدَ عَلَيْهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ لَا يَمْنَعُ الْمَاعُونُ » . قلت : يا رسول الله ما الماعون ؟ قال : « الْحَبْرُ وَالْحَبِيدُ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ » ^(٣) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٤/٢) والبيهقي في مجمع الزوائد (٣٢٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في الزكاة (٥٢) .

(٣) ذكره الهندي في كثر المسال (٧٥٤) والسويطي في الدر للنظر (٤٠٠/٦) .

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْشَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّكَ شَافِعُكَ هُوَ الْأَكْبَرُ ۝ ﴾ .

عن أنس بن مالك قال : أغشى رسول الله ﷺ لإغفاعة فرقع رأسه متبسماً إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ آيَةً شَوْرَةً » فقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنْشَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ حتى ختمها فقال : « هَلْ تَذَرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هُوَ نَهْرٌ أَغْطِيهِ رَبِّي ﷻ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَيْفَ تَرُدُّ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آيَةً عِنْدَ الْكَوَاعِبِ يَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَاَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي ، فَيَقَالُ : إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَخَذْتُوا بِهَذَا » ^(١) وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر ، وأن آيته عدد نجوم السماء .

وقد استدل كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسمة من السورة وأنها منزلة معها . فاما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ بَيْتَاهُ اللَّوْثُ فَمَضَرْتُ بِبَيْدِي إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ فَإِذَا مِشْكٌ أَذْفَرُ ، قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أُعْطَاكَهُ اللَّهُ ﷻ » ^(٢) . وعنه قال : لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال : « أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ بَيْتَاهُ اللَّوْثُ الْهَوَافِ : قُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ » ^(٣) وعن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله : ما الكوثر ؟ قال : « هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ أَغْطِيهِ رَبِّي نَهْرٌ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، فِيهِ طُيُورٌ أَغْتَاقُهَا كَأَصْفَاقِ الْجَزْرِ » . قال عمر : يا رسول الله ، إنها لناعمة . قال : « أَكَلَهَا أَنْتُمْ مِنْهَا يَا عُمَرُ » ^(٤) . وعن عائشة قالت : الكوثر نهر في الجنة شاطئه دار مجوف . وقال إسرائيل : نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء . وعن ابن عباس ؓ أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه ، قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه . عن ابن عباس ؓ قال : الكوثر الخير الكثير . وهذا التفسير بمعن النهر وغيره لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ومن ذلك النهر . وقال مجاهد : هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة . وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة . وقد صرح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر ، فقال : الكوثر نهر في الجنة حاضه ذهب وفضة يجري على الباقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَالْمَاءُ يَجْرِي عَلَى اللَّوْثِ وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ » ^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٢/٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٥/٣) والحاكم في المستدرک (٨٠/١) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٠/٣) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٦١) وأحمد في مسنده (١٥٨/٢) والحاكم في المستدرک (١٧١/٣) .

عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يوماً ، فلم يجده ، فسأل عنه امرأته وكانت من بني النجار . فقالت : خرج يا نبي الله آنفاً عامداً نحوك فأظنه أعطاك في بعض أزقة بني النجار ، أو لا تدخل يا رسول الله ؟ فدخل ، فقدمت إليه حيشاً فأكل منه فقالت : يا رسول الله هنيئاً لك ومريفاً ، لقد جئت وأنا أريد أن أتيك فأهنيك وأمريك أخبرني أبو عمارة أنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر فقال : « أَجَلٌ وَعَرَصَةٌ - يعني أرضه - يَأْفُوتُ وَمَزْجَانٌ وَزَرْجَدٌ وَلُؤْلُؤٌ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أي : كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته ، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ، وتحرك فاعبه وحده لا شريك له وانحر على اسمه وحده لا شريك له . ويعني بذلك نحر البدن ونحوها . وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه . وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ وضع اليد على اليسرى تحت النحر ، يروى هذا عن علي ولا يصح . وعن أبي جعفر الباقر : رفع اليدين عند افتتاح الصلاة ، وقيل : استقبال بنحر القبلة . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وقد روي عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ ﴿ إِذَا أَطَعْتَنَّاكَ الْكُرْهُ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « يَا جَبْرِيلُ مَا هَذِهِ التَّجْوِيزَةُ الَّتِي أَمَرَنِي بِهَا رَبِّي ؟ » قال : ليست بنجيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أرفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة ^(٢) .

وعن عطاء الخراساني : أرفع صلبك بعد الركوع واعتدل وأبرز نحره يعني به الاعتدال . وكل هذه الأقوال غريبة جداً . والصحيح القول الأول : أن المراد بالنحر ذبح المناسك ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ، ثم ينحر نسكه . ويقول : « مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا ، وَنَسَكَ نُسُكَنَا فَقَدْ أَضَابَ النُّسُكَ ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ » . فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله إني نسكت شاتي قبل الصلاة وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم قال : « شَأْنُكَ شَأْنُ لَحْمٍ » ، قال : فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين أفجزئ عني ؟ قال : « تُجْزِئُكَ وَلَا تُجْزِئُ أَخَدًا بِقَدْكَ » ^(٣) . قال أبو جعفر بن جرير : والصواب قول من قال إن معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحره اجعله له دون الأوثان شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له وخصك به . وهذا الذي قاله في غاية الحسن .

قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي : إن مفضلنا يا محمداً ، ومبغضنا ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبرر الأقل الأذل المنقطع ذكره . قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : نزلت في العاص بن وائل . وعن يزيد بن رومان : قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٧/٣) والبيهقي في مجسم الرواة (٣٦٤/١٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٣٨/٢) . (٣) أخرجه البخاري في المصنوع (٩٨٣) .

ذكره . فأنزل الله هذه السورة . وقال شعر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي معيط . وقال ابن عباس وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش . وعن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنبر المنبر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ إِنَّكَ شَانِئَتَهُ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ وعن عطاء نزلت في أبي لهب وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ إِنَّكَ شَانِئَتَهُ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

وعن ابن عباس : نزلت في أبي جهل ، وعنه ﴿ إِنَّكَ شَانِئَتَهُ ﴾ يعني : عدوك وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم . وقال عكرمة : الأبر الفرد ، وقال السدي : كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا : بتر ، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا : بتر محمد فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ شَانِئَتَهُ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبر الذي إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبهى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقباه العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد .

سورة الكافرون

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة ، أو بضع عشرة مرة ، قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ^(١) . وعن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ أربعين أو خمسين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ^(٢) . وعن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ شهرا وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ^(٣) . وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، وعن فروة بن نوفل - هو ابن معاوية - عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له : « هَلْ لَكَ فِي رَبِّكَ لَنَا تَكْفُلُهَا ؟ » قال : أَرَأَاكَ زَيْبٌ قال : ثم جاء فسأله النبي ﷺ عنها قال : « مَا فَعَلْتَ الْجَارِيَةُ ؟ » قال : تَرَكْتُهَا عِنْدَ أُمِّهَا قال : « فَمَجِيءٌ مَا جَاءَ بِكَ » قال : جئت لتعلمني شيئا أقوله عند منامي قال : « أَفَرَأَى قُلُوبَ يَمَانِيَةِ الْكَافِرِينَ » ثُمَّ تَمَّ عَلَى خَاتَمِهَا فَأَنَّهُمَا تِرَاعَةٌ مِنَ الشُّوْكِ ^(٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَمَانِيَةُ الْكَافِرِينَ ۝ لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾ .

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يحمله المشركين ، وهي أمرة بالإخلاص فيه فقولہ تعالى : ﴿ قُلْ يَمَانِيَةُ الْكَافِرِينَ ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجّهون بهذا الخطاب هم كفار قريش . وقيل : لأنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة . فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يترأ من دينهم بالكلية فقال : ﴿ لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : من الأصنام والأنداد . ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ﴾ وهو الله وحده لا شريك له ، فما ههنا بمعنى من ، ثم قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ﴾ أي : ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ﴾ أي : لا تقتلون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم فبئس منهم في جميع ما هم فيه ، فإن العابد لا بد له من معبود يعبد . وعبادة يسلكها إليه فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله أي : لا معبود إلا الله ولا طريق إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عبادا لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ قال البخاري : يقال ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الكفر ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ الإسلام ، ولم يقل : ديني لأن الآيات بالنون فحذف الياء كما قال : ﴿ فَهَرَبَ مِنْ دِيْنِهِ ﴾ وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجبيكم بما بقى

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٦/٥) والبيهقي في السنن (٢٤١/٨) .

من عمري ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ وَلَزِمْتُكَ حَتَّىٰ تَقُولَ مَا أَتَوَلَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ رُبِّكَ خَلْقَيْنَا وَكَفَرْنَا ﴾ انتهى ما ذكره .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقوله : ﴿ إِذْ مَعَ النَّسْرِ مَسْرًا ﴾ (١) فهذه ثلاثة أقوال : أولها : ما ذكرناه أولاً ، الثاني : ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد ﴿ لَا أَتَّبِعُ مَا تَتَّبِعُونَ ﴾ (٢) وَلَا أَتَّبِعُ عِبَادَتَكُمْ مَا أَتَّبِعُ ﴿ في الماضي ﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَابَدْتُمْ ﴿ وَلَا أَتَّبِعُ عِبَادَتَكُمْ مَا أَتَّبِعُ ﴾ في المستقبل ، الثالث : أن ذلك تأكيد محض . وثم قول رابع : وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَتَّبِعُ مَا تَتَّبِعُونَ ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَابَدْتُمْ ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد ، فكأنه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً . وهو قول حسن أيضاً والله أعلم . وقد استدلل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة ، فورث اليهود من النصراني وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم تورث النصراني من اليهود وبالعكس لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى » (٣)

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٠٨) وإلحاح في المستدرک (٢٤٠/٢) وأحمد في مسنده (١٩٥/٢) والدارقطني في السنن (٧٢/٤) .

سورة النصر

عن عبد المجيد بن سهيل عن عبيد الله بن عتبة قال : قال لي ابن عباس : يا ابن عتبة أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت نعم : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال : صدقت . وعن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق فعرفت أنه الوداع فأمر براحلته القصواء فرحلت ثم قام فخطب الناس ، وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : « إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » فبكيت ثم ضحككت وقالت : أخبرني أنه نعت إليه نفسه فبكيت . ثم قال : « اضْبِرِّي فَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَوْقًا بِي » فضحككت ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَذَاقَتْ النَّاسُ يَذَلَّتُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَتَوَكَّبًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّكَ كَانَتْ قَرَابًا ۝ ﴾ .

عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ، فقال عمر : إنه ممن قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريههم فقال : ما تقولون في قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك . ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّكَ كَانَتْ قَرَابًا ﴾ فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول ^(٢) . وعن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ - قيل : يا رسول الله وما أهل اليمن ؟ قال : قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ لِنَيْفَةِ طِبَاعِهِمْ ، الْإِيمَانُ يَمَانٌ ، وَالْقِفَّةُ يَمَانٌ ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ » ^(٣) .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ علم النبي ﷺ أن قد نُعِيَتْ إليه نفسه فقيل : إذا جاء نصر الله والفتح السورة كلها ^(٤) ، وعن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وعن أبي سعيد الخدري أنه قال : لما نزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى خجما فقال : « النَّاسُ خَيْرٌ وَأَنَا وَأَصْحَابِي خَيْرٌ - وقال - لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتٌ » فقال له مروان : كذبت وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدناك ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصلقة . فرفع مروان عليه الدرة ليضربه فلما رآها ذلك قال : صدق ^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/١) والطبراني في الكبير (١١٩٠٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٠) . (٣) ذكره الطبراني في معجمه (٢٢٩٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/١) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢/٣) .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَاقٌ ، وَلَكِنْ إِذَا اسْتَقْرَرْتُمْ فَأَقْرَرُوا » ^(١) . فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنه أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعني نصلي له ونستغفره . معنى مליح صحيح وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات ، فقال قائلون : هي صلاة الضحى وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها فكيف صلاها ذلك اليوم ، وقد كان مسافراً لم ينو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً ، يقصر الصلاة ، ويفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحواً من عشرة آلاف . قال : هؤلاء وإنما كانت صلاة الفتح قالوا : فيستحب لأمر الجيش إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات ، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن .

ثم قال بعضهم : يصليها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين كما ورد في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين . وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله تعالى عنهما من أن هذه السورة نهي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجاً فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا ، فهنيئاً للندوم علينا والوفود إلينا فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى . ولهذا قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

وعن مسروق قال : قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول : « شُحْبَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ اسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » وقال : « إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمِّي وَأَمْرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أَسْبِّحَ بِحَمْدِهِ وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ كَمَا كَانَ تَوَّابًا ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴾ » ^(٢) . وعن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ ﴾ كان يكثر إذا قرأها وركع أن يقول : « شُحْبَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ » ثلاثاً ^(٣) ، والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تكلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة . وعن جابر الجايفي بن عبد الله قال : قدمت من سفر فجايعني جابر بن عبد الله فسلم علي ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر يكي ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا » ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣) ومسلم في الإمارة (٨٥) والترمذي في السنن (١٥٩٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٧) ومسلم في الصلاة (٢١٧) والبيهقي في السنن (٢١٩/٢) وأحمد في مسنده (٤٩٤/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٣/٣) .

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ بَدَأُ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَفْقَهَ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْكِ ۚ ۝﴾

عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يَا صَبَاخَاهُ » فاجتمعت إليه قريش فقال : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثَكُمُ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصِيبُكُمْ أَوْ تَمْشِيكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي ؟ - قالوا : نعم ، قال : فَأَنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ يَبْنَ يَدِي عَذَابٌ شَدِيدٌ » فقال أبو لهب : ألهذا جمعنا ، بئى لك فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ بَدَأُ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ﴾ إلى آخرها ^(١) . وفي رواية : فقام ينفض يديه وهو يقول : بئى لك سائر اليوم ألهذا جمعنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ بَدَأُ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ﴾ الأول : دعاء عليه والثاني : خبر عنه ، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتيبة ، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له والازدراء به والتقص له ولدينه . عن أبي الزناد قال : أخبرني رجل يقال له : ربيعة بن عباد من بني الدليل وكان جاهليا فأسلم قال : رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي الحجاز وهو يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُقْلِحُوا » . والناس مجتمعون عليه وراه رجل وضىء الوجه أحول ذو غدريتين يقول : إنه صائى كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب ^(٢) . فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ بَدَأُ أَبِي لَهَبٍ ۚ ﴾ أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه ﴿ وَتَبَّ ۚ ﴾ أي : وقد تب تحققت خسارته وهلاكه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أَفْقَهَ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ ﴾ قال ابن عباس وغيره : ﴿ وَمَا كَسَبَ ۚ ﴾ يعني : ولده ، وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقا ، فأني أفندي نفسي يوم القيامة من العذاب بما لي وولدي ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا أَفْقَهَ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ ﴾ أي : ذات شرر ولهب وإحراق شديد ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان ، وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلها تكون يوم القيامة عونًا عليه في عذابه في نار جهنم . ولهذا قال تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ ﴾ في جديها حبلٌ من مسكٍ يعني : تحمل الحطب فتلقي على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه . هي مهية لذلك مستعدة له ، قال مجاهد والسدي : كانت تمشي بالنخيمة وقال الضحاك : كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ قال ابن جرير : وقيل : كانت تعبر النبي ﷺ بالفقر ، وكانت تحتطب فميرت بذلك والصحيح الأول والله أعلم . قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة فقالت : لأنفقتها في عداوة محمد يعني : فأعقبها الله منها حبلًا في جديها من مسد النار . وروي عن الشعبي : المسد الليف ، وعن عروة : المسد : سلسلة ذرعا سبعون ذراعا ،

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤١/٤) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٢) .

وعن الثوري : هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً . وعن مجاهد : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً ؟ وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت ﴿ تَبَيَّنَ لِيَ لَهْرٌ وَتَبَّ ﴾ أقبلت الموراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول :

مُذَكَّمَا أَبَيْتَا وَدَيْتُهُ قَلْبِي وَأَنْسَرُهُ عَصِييَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » وقرأ قرأتاً اعتصم به . كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ جَهَنَّمَ شَنْجًا ﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجاني قال : لا ورب هذا البيت ما هجاك . فوَلَّتْ وهي تقول : قد علمت قريش أنني ابنة سيدها . قال : وقال الوليد في حديثه أو غيره : فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت فقالت : تعس مذمم ، فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصان فما أكلم ، وثقاف فما أعلم . وكلتانا من بني العم ، وقريش بعد أعلم ^(١) . وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴾ أي : في عنقها حبل من نار جهنم ، ترفع به إلى شفيرها ثم ترمي إلى أسفلها . ثم لا تزال كذلك دائماً ، قال العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ وَأَمَّا كَلِمَةُ الْحَبْلِ ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء ، وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا باطلاً ولا ظاهراً ، ولا مسراً ولا معلقاً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٦١/٢) وأبو يعلى في مسنده (٢٣٥٨) .

سورة الإخلاص

ذكر سبب نزولها وفضلها

عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ أَفْصَحُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ (١) . زاد ابن جرير والترمذي قال : ﴿ الْفَصَحُ ﴾ الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله لا يموت ولا يورث . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء (٢) .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : « سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ ؟ » فسأله فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : « أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُجِيبُ » (٣) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد ، حتى يفرغ منها . ثم كان يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فلما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، فقال : ما أنا بتاركها إن أحببت أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتم . وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره . فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال : « يَا فَلَانُ ، مَا يَمْتَنِعُ أَنْ تُفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ؟ » قال : إني أحبها ، قال : « حَيْكَ إِذَا مَا أَذْخَلَكَ الْجَنَّةَ » (٤) . وعن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالتها ، فقال النبي ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَقْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ » (٥) وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَتَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتْلُو ثَلَاثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ ؟ » . فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أيها يطيق ذلك يا رسول الله . فقال : « اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ » (٦) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بقل هو الله أحد فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَقْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ - أو ثلثه - » (٧) .

وعن عبيد بن حنن قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقيلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ : قل هو الله أحد فقال رسول الله : « وَجِبَتْ - قلت : وما وجبت ؟ قال - الجنة » (٨) وعن عبد الله بن حبيب قال :

- (١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣/٥) .
- (٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٥) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٣) .
- (٣) أخرجه البخاري (٧٤٨٨) والترمذي في السنن (٢٩٠١) والبيهقي في السنن (٢٤١/١) .
- (٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٤) .
- (٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٥) .
- (٦) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٢) .
- (٧) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٧) وأبو داود في السنن (١٧١/٢) وإمام في المستدرک (٥٦٦/١) .

أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا فخرج فأخذ بيدي فقال : « قل » فسكت قال : « قل » قلت : ما أقول ؟ قال : « قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً ، تكفيك كل يوم مؤتين »^(١) وعن تميم الداري رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدًا أَحَدًا صَدَقَ لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ عَشْرَ مَرَاتٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ حَسَنَةٍ »^(٢) .

وعن معاذ بن أنس الجهني عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَخْتَمَهَا عَشْرَ مَرَاتٍ بَنَى لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ » فقال عمر : إِذَا نَسْتَكْثِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ »^(٣) وروي عن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ عَلَى فَرَاشِهِ قَنَامٌ عَلَى يَمِينِهِ ثُمَّ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مِائَةً مِائَةً فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ لَهَ الرَّبِّ سُبْحَانَكَ يَا عَبْدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : يَا عَبْدِي ادْخُلْ عَلَى يَمِينِكَ الْجَنَّةِ »^(٤) .

حديث آخر في الدعاء بما تضمنته من الأسماء عن بريدة : أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد ، فإذا رجل يصلي يدعو يقول : اللهم إني أسألك بأنني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَهُ بِأَسْمَاءِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ »^(٥) . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ مَنْ جَاءَهُ يَوْمٌ مَعَ الْإِيمَانِ دَخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ ، وَزُوجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ حَيْثُ شَاءَ : مَنْ عَفَا عَنْ قَاتِلِهِ ، وَأَدَّى ذِمَّتَهُ خَفِيًّا ، وَقَرَأَ فِي ذِكْرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرَ مَرَاتٍ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » قال : فقال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول الله ؟ قال : « أَوْ إِحْدَاهُمَا »^(٦) .

حديث في الإكثار من قراءتها في سائر الأحوال : عن أنس قال : نزل جبريل على النبي ﷺ فقال : مات معاوية بن معاوية الليثي ، فحبب أن تصلي عليه ؟ قال : « نعم » فضرب بجناحه الأرض فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ، ورفع سريره فنظر إليه فكبر عليه ، وخلفه صفان من الملائكة في كل صف سبعون ألف ملك فقال النبي ﷺ : « يَا جِبْرِيلُ بِمَ نَالَ هَذِهِ الْمُرَّةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى » قال : بحبه قل هو الله أحد وقراءته إياها ذاهباً وجائياً قائماً وقاعداً وعلى كل حال^(٧) .

حديث آخر في فضلها مع المعوذتين : عن عتبة بن عامر قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله بِمَ نَجاة المؤمن ؟ قال : « يَا عُتْبَةُ أَخْرِسْ لِي سَانِكَ ، وَلِهَسْتُكَ بِسْمِكَ ، وَابْلَغْ عَلَيَّ خَطِيئَتِكَ » . قال : ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال : « يَا عُتْبَةُ بِنِ غَايِرٍ أَلَا أَعْلَمُكَ خَيْرَ ثَلَاثِ شُورٍ أَنْزَلَتْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ » . قال : قلت : بلى جعلني الله فداك قال : فأقراني : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّيَ الْكَافِّيِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٥) والترمذي في السنن (٣٥٧٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٣/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٨) والحاكم في المستدرج والبيهقي في التمهيد (١١٦/١) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٧٥) وأحمد في مسنده (٣٤٩/٥) .

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرج والبيهقي في التمهيد (٤٠٥/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (٣٠١/٦) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

يَرَبِّ النَّاسِ ﴿ ثُمَّ قَالَ : « يَا عُقْبَةُ لَا تَنْسَهُنَّ وَلَا تَبْتَ لَيْلَةً حَتَّى تَقْرَأَهُنَّ » قَالَ : فما نسيتهن منذ قال : لا تنسهن ، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن ، قال عقبة : ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال فقال : « يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَغِطْ مَنْ حَرَمَكَ ، وَأَعْرِضْ عَنْ ظَلَمَكَ » (١) .

حديث آخر في الاستشفاء بهن ؛ عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفبه ، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ .
قال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير ابن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان ؛ أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبه ولا عدل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ﷻ ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ : يعني : الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم ، وعن ابن عباس : هو السيد الذي قد كمل في سوذده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته . وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسوذد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء وليس كمثل شيء ، سبحانه الله الواحد القهار ، وعن الحسن : هو الباقي بعد خلقه . وعنه أيضاً : الحي القيوم الذي لا زوال له ، وعن عكرمة : الذي لم يخرج منه شيء ، ولا يطعم ، وعن الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيراً له وهو قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وهو تفسير جيد . وعن أبي رباح وعطية الوفي وغيره : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد : وكل هذه صحيحة ، وهي صفات ربنا ﷻ ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج ، وهو الذي قد انتهى سوذده . وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه . وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ و﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . قال مجاهد : ﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ يعني : لا صاحبة له . وفي الحديث « لَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٨) وأبو داود في السنن (٥٠٥٦) والترمذي في السنن (٣٤٠٢) .

أَحَدٌ أَصْبِرَ عَلَىٰ أَدَىٰ سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُمْ يَزُرُّهُمْ وَيُعَافِيهِمْ «^(١) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذِكْرٌ ، وَشَتَنَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذِكْرٌ ، فَأَمَّا تَكْلِيْفُهُ إِلَيَّ فَقَوْلُهُ لَنْ يُصِيبَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَعْنُهُ إِلَيَّ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ »^(٢) .

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤٩) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .
 (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٢) والنسائي في السنن (١١٢/٤) .

سورة الفلق

عن زر بن حبيش قال : قلت لأبي بن كعب : إن ابن مسعود لا يكتب الموعودتين في مصحفه فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له : قل أعوذ برب الفلق فقلتها ، قال : قل أعوذ برب الناس فقلتها ، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ ^(١) . وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلُهَا قَطُّ . » ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢) وعن عقبة بن عامر قال : بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نعب من تلك النعاب إذ قال لي : « يَا عَقْبَةُ لَا تُرَكِّبْ » قال ، فأشفقت أن تكون معصية قال : فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب ثم قال : « يَا عَقْبُ أَلَا أَعْلَمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ » قلت : بلى يا رسول الله فأقراني : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْكَافِرِينَ ﴾ ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله ﷺ بقرأ بهما ، ثم مر بي فقال : « كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عَقْبُ أَقْرَأَ بِهِمَا كُلُّمَا نِمْتُ وَكُلَّمَا قُمْتُ » ^(٣) وعن عقبة بن عامر أنه قال : إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباء ، فركبها ، فأخذ عقبة يقودها له ، فقال رسول الله ﷺ : « أَقْرَأْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » فأعادها له حتى قرأها ، فعرف أنني لم أفرح بها جداً فقال : « لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا ؟ فَمَا قُمْتُ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلَهَا » ^(٤) وعن عقبة بن عامر قال : اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب ، فوضعت يدي على قدميه ، فقلت : أقرئني سورة هود أو سورة يوسف فقال : « كُنْ تَقْرَأُ شَيْئاً أَفْعَ جِدُّ اللَّهِ مِنْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » ^(٥) . وعن أبي عبد الله بن عباس الجهني أن النبي ﷺ قال له : « يَا ابْنَ عَابَسٍ أَلَا أَدُلُّكَ - أَوْ أَلَا أَخْبِرُكَ - بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْكَافِرِينَ ﴾ هَاتَانِ السُّورَتَانِ ^(٦) .

وعن أبي العلاء قال : قال رجل : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، والناس يعتقبون وفي الظهر قلة ، فحانت نزلة رسول الله ﷺ ونزلني ، فلمحتني فضرب منكبي فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه . ثم قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْكَافِرِينَ ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه فقال : « إِذَا صَلَّيْتَ فَأَقْرَأْ بِهِمَا » ^(٧) الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ . ﴾

عن جابر قال ﴿ الْفَلَقِ ﴾ الصبح وعن ابن عباس ﴿ الْفَلَقِ ﴾ الخلق ، أمر الله نبيه أن يتعوذ من

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٩/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٤) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٥٤/٨) وأحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (١٥٨/٢) وأحمد في مسنده (١٥٩/٤) .

(٦) أخرجه النسائي في السنن (٢٥٢/٨) وأحمد في مسنده (١٤٤/٤) والأكثاني في الصحيحة (١١٠٤) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٥) .

الخلق كله ، وقال كعب الأحبار ﴿ آتَيْنَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ بيت في جهنم ، إذا فتح صباح جميع أهل النار من شدة حره . وقيل : جب في قعر جهنم ، عليه غطاء ، فإذا كشف عنه خرجت منه نار تضيئ منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه .

قال ابن جرير : والصواب القول الأول : إنه فلق الصبح وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ وَنَسْفَةٍ مَّا تَخَلِّقُ ﴾ أي : من شر جميع المخلوقات ، وقال ثابت البناني والحسن البصري : جهنم وإبليس وذريته مما خلق ﴿ وَنَسْفَةٍ غَائِبَةٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : قال مجاهد : غاسق الليل إذا غرب الشمس ، وقال ابن نجيم وقادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه . وقال الزهري : الشمس إذا غربت ، وعن عطية وقادة : الليل إذا ذهب . وعن أبي هريرة : الكوكب . وعن ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : ﴿ وَنَسْفَةٍ غَائِبَةٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ النجوم الغائبة . قلت وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ ، قال ابن جرير ، وقال آخرون : هو القمر ، قلت : وعدة أصحاب هذا القول ما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع وقال : ﴿ تَقْوِذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا ، هَذَا الْغَائِبَةُ إِذَا وَقَبَ ﴾ ^(١) قال أصحاب القول الأول : وهو آية الليل إذا ولج وهذا لا يتنافى قولنا : لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضيئ إلا بالليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَسْفَةٍ أَتَتْكُمْ فِي السَّحَابِ ﴾ : يعني السواحر . قال مجاهد : إذا رقبين ونفثن في العقد . وعن طاوس قال : ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والجانين . وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ، ولا يأتيهن ، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا . فقال : ﴿ يَا عَائِشَةُ أَغْلِبْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ : مَا تَهَالُ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : مَطْلُوبٌ ، قَالَ : وَمَنْ مَطْلُوبٌ ؟ قَالَ : لَيْدٌ بَيْنَ أَغْصَمَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ خَلِيفَ الْيَهُودِ كَانَ مُتَأَفِّقًا ، قَالَ : وَفِيمَ ؟ قَالَ : فِي مَشْطٍ وَمَشَاطَةٍ ، قَالَ : وَأَيْنَ ؟ قَالَ : فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرَ تَحْتَ رَاغِقَةٍ فِي بَيْتِ خَزْوَانَ ، قَالَتْ : فَأَتَى الْبَيْتَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ فَقَالَ : ﴿ هَذِهِ يَمْرُؤُا تَبَى أُرِيغَتْهَا وَكَأَنَّ مَاءَهَا نَقَاعَةُ الْحَبَاءِ ، وَكَأَنَّ تَحْلِفَهَا زُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ . قال : فاستخرج ، فقلت : أفلا تنشرت ؟ فقال : ﴿ أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَّانِي وَأَكْرَهَ أَنْ أُتِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا ﴾ ^(٢) .

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّي الْكَافِي ① مَلِكِ الْكَافِي ② لَدُنْهِ الْكَافِي ③ مِنْ سَرِّ الْأَوْتَارِ الْكَافِي ④ أَلَّذِي يُؤْتِسُوسُ فِي صُدُورِ الْكَافِي ⑤ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالْكَافِي ⑥ 》 .

هذه ثلاث صفات من صفات الرب ﷻ : الربوبية والملك والإلهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإليه فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له ، فأمر المستعبد أن يعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس وهو الشيطان الملوكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ، ولا يأكله جهنم في الخيال ، والمصوب من عصمه الله .

وقد ثبت في الصحيح : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينَهُ » قالوا : وأنت يا رسول الله قال : « نَعَمْ إِلَّا أَنَا اللَّهُ أَعَانَتْنِي عَلَيْهِ قَائِلَتُهُ فَلَا تَأْخُذْنِي إِلَّا بِخَيْرٍ » ^(١) . وثبت عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو مكتف وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها فلقية رجلاً من الأنصار فلما رآها النبي ﷺ أمرها فقال رسول الله ﷺ : « عَلَى رِثْلَيْكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُجَيْمٍ » فقالا : سبحان الله يا رسول الله فقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَيْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُغْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً - أَوْ قَالَ شَرّاً - » ^(٢) .

عن رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حمامة فقلت : تعس الشيطان فقال النبي ﷺ : « لَا تَقُلْ تَعَسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ تَعَسَ الشَّيْطَانُ تَعَاطَمَ . وقال : يَقُوَّتِي صَرْعَتُهُ وَإِذَا قُلْتَ بِاسْمِ اللَّهِ تَصَافَرُ حَتَّى يَمِيزَ مِثْلَ الذُّبَابِ » ^(٣) ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاهر الشيطان وغلب ، وإن لم يذكر الله تعاطم وغلب . وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا كَانَ فِي الْمَسْجِدِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَأَبَسَ بِهِ كَمَا يُبَسُّ الرَّجُلُ بِإِدْيَاهِ ، فَإِذَا سَكَرَ لَهُ زَنْقُهُ أَوْ أَلْحَمَتُهُ قَالَ أَبُو هَرِيرَةَ ؓ : وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ ذَلِكَ أَمَا لِلزَّنُوقِ فَتَرَاهُ مَائِلاً كَذَا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ ، وَأَمَّا الْمَلْجَمُ فَنَفَاحٌ فَاهٍ لَا يَذْكُرُ اللَّهَ ﷻ » ^(٤) . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ قال : الشيطان جائم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس . وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه : ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر الله خنس . وقال العوفي عن ابن عباس : هو الشيطان يأمر فإذا أطيع خنس .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَّذِي يُؤْتِسُوسُ فِي صُدُورِ الْكَافِي ﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر أو يعم بني آدم والجن ؟ فيه قولان ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليظاً . وقال ابن جرير : وقد

(١) أخرجه مسلم في صفات الملائكة (٦٩) وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٨١) ومسلم في الإسلام (٢٤) وأبو طرد في السنن (٢٤٧٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٠/٢) والبيهقي في مجمع الروايات (٢٤٢/١) .

استعمل فيهم رجال من الجن فلا بدع في إطلاق الناس عليهم . وقوله تعالى : ﴿ يَنْ أَلْجِسَ وَالتَّكَايِسَ ﴾ هل هو تفصيل لقوله : ﴿ أَلْزَى يَوْشَوْشَ فِي صُدُورِ التَّكَايِسَ ﴾ ثم يبينهم فقال : ﴿ يَنْ أَلْجِسَ وَالتَّكَايِسَ ﴾ وهذا يقوي القول الثاني وقيل : قوله : ﴿ يَنْ أَلْجِسَ وَالتَّكَايِسَ ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ، وعن أبي ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد ، فجلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا قال : « ثُمَّ فَصَّلْ » قال : فقامت فصليت ثم جلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ تَقُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » . قال : فقلت : يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » قال : فقلت يا رسول الله الصلاة ؟ قال : « خَيْرٌ مَوْضُوعٍ مَنْ شَاءَ أَقَلَّ وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ » قلت : يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فَرَضٌ مُجْزِئٌ وَعِنْدَ اللَّهِ مَزِيدٌ » . قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : « أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ » قلت : يا رسول الله أيها أفضل ؟ قال : « جَهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ أَوْ سِرٌّ إِلَى فَقِيرٍ » قلت : يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدَمَ » قلت : يا رسول الله ونبيًا كان ؟ قال : « نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ » قلت : يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال : « ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةِ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا » وقال مرة « خَمْسَةَ عَشَرَ » قلت : يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آيَةُ الْكَوْثَبِ ﴾ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ^(١) وعن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به قال : فقال النبي ﷺ : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَشْوَسَةِ » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٥٩/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٥/١) وأبو داود في السنن (٥٠٤) .

الفهارس والمراجع

- فهرس القراءات القرآنية
- فهرس الأحاديث
- فهرس الآثار
- المراجع
- فهرس المجلد الثالث

فهرس القراءات القرآنية

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ الْحَسْبُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَكِئَةِ ﴾	الفاتحة	٢	٣٢
﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾	الفاتحة	٤	٣٤
﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾	الفاتحة	٦	٣٦
﴿ يَا كَاذِبُوا يَكْذِبُونَ ﴾	البقرة	١٠	٥٢
﴿ افْعَلُوا بِغَنَابَتِكُمْ أَفْعَالًا مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾	البقرة	٦١	٨٥
﴿ مَا تَسْعَى بِنَهْلِهِ أَوْ تَسْأَلُهَا ﴾	البقرة	١٠٦	١١٩
﴿ وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾	البقرة	١١٩	١٣٠
﴿ وَتَمَنَّى يَدِهَا إِلَى بَرْقِ نُفُوسٍ مُبْتَلًى ﴾	البقرة	١٣٢	١٤٥
﴿ يَأْتِيهِمُ الْيُسُوفُ فَلَا يَكْفِيهِمْ يَوْمَئِذٍ صُلَحُهُمْ ﴾	البقرة	٢٠٨	٢٠٠
﴿ وَتَسْأَلُهُمْ إِنَّمَا كُنَّ نَجَفَافًا فَيُجْزَوْنَ ﴾	البقرة	٢١٩	٢٠٧
﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِلَاقِ كَيْفَ تُنْقَرُهَا ﴾	البقرة	٢٥٩	٢٥١
﴿ كَتَبْنَا عَلَيْكَ الْحَقَّ ﴾	البقرة	٢٦٥	٢٥٤
﴿ وَتُكْفِّرُ عَنْهُمْ سُوْعَتَهُمْ ﴾	البقرة	٢٧٠	٢٥٨
﴿ فَلَمَّا وَفَّقْنَاهَا كَلَّمَ رَبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَأْسِهِ أَنْتَ وَقَوْمُكَ أَنْتَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴾	آل عمران	٣٦	٢٨٩
﴿ يَا كُفَّهِ نَارُ الْكَلْبِ وَبِمَا كُفَّهْ تَدْرُسُونَ ﴾	آل عمران	٧٩	٣٠٥
﴿ قُلْ مَعَهُ رَيْبٌ يُرَى ﴾	آل عمران	١٤٦	٣٣٢
﴿ وَمَا كَانَ لِيُفِيَنِّي أَنْ يَفْعَلَ ﴾	آل عمران	١٦١	٣٤٠
﴿ فَلَا تَحْزَنْهُمْ حِسَابًا مِنْ الْمَالِ ﴾	آل عمران	١٨٨	٣٥٤
﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعِينُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾	النساء	١	٣٦٣
﴿ فَإِنَّا أَهْلُ الْحَيْوَةِ كُنَّا أَتَيْنَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُفْتَوًى يَضْفُ مَا عَلَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَالِ ﴾	النساء	٢٥	٣٨٧
﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾	النساء	٢٩	٣٩١
﴿ أَوْ لِنَسْأَلُ الْمَلَائِكَةَ ﴾	النساء	٤٣	٤٠٨
﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَى الْعَمَلِينَ ﴾	المائدة	٦	٥٠٢
﴿ قَالَ رَبِّانِي مِنَ الْوَالِدِ يُنْفِقُونَ ﴾	المائدة	٢٣	٥١٣
﴿ وَكَفَيْتُمْ عَنْهُمْ فِيهَا أَنْ الْقَسَسَ وَالنَّفِيسَ وَالْمَعْبُوتَ وَالْمَعِينِ ﴾	المائدة	٤٥	٥٣٠
﴿ وَلَيْسَ لَهُمْ أَهْلٌ إِلَّا جَبَلٌ ﴾	المائدة	٤٧	٥٣٢

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَقُولِ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْشَأَ اللَّهُ جَهَنَّمَ لِيُشْرِكُوا بِمَکَرِهِمْ﴾	المائدة	٥٣	٥٣٥
﴿يَنْزِلُ فِيهَا النَّفُوسُ﴾	المائدة	٥٧	٥٣٨
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا الْكُفَّاءُ﴾	المائدة	٦٠	٥٣٩
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	المائدة	٩٥	٥٥٧
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	المائدة	١٠٦	٥٦٧
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	المائدة	١٠٧	٥٦٨
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	المائدة	١١٢	٥٧١
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	٥٥	٥٩٠
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	٧٤	٥٩٨
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	٨٣	٦٠٢
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	٩٤	٦٠٦
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	١٠٥	٦١١
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	١٠٩	٦١٣
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	١١١	٦١٤
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	١١٩	٦١٦
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	١٢٥	٦٢٢
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأنعام	١٥٢	٦٣٦
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأعراف	٢٧	٦٥٧
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأعراف	٥٤	٦٧٠
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأعراف	٥٧	٦٧١
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأعراف	١٠٥	٦٨٣
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأعراف	١٢٧	٦٨٦
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأعراف	١٤٣	٦٩١
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأعراف	١٤٩	٦٩٤
﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الأعراف	١٦٤	٧٠١

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ إِنَّكَ الْيَقِينُ أَتَوْا إِذَا مَتَّعْتَهُمْ مَّكَانًا مِّنَ الْأَيَّامِ ﴾	الأعراف	٢٠١	٧١٩
﴿ وَأَنَّىٰ يَمُوزُكَ مَنَّانُ ﴾	الأأنفال	٩	٧٣٠
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَمُوجُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَدِهِمْ ﴾	الأأنفال	٧٣	٧٦٥
﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَمُوجُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾	التوبة	١٧	٧٧٤
﴿ وَبَنَاءَ الْمَعْدُونَةِ يَمُوجُ الْأَعْرَابُ ﴾	التوبة	٨٩	٨١٢
﴿ وَالشَّيْخُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾	التوبة	١٠٠	٨١٥
﴿ إِذْ سَأَلْتَهُ مَنْ هَٰؤُلَاءِ ﴾	التوبة	١٠٣	٨١٧
﴿ هَٰؤُلَاءِ نِسَاءُ الَّذِينَ اتَّبَعْتُمْ مَّا شَتَّيْتُمْ ﴾	يونس	٣٠	٨٤٥
﴿ وَكَانَ مَوْسَىٰ رَجُلًا مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَانَ مُعْتَدًّا عَلَيْهِ رَبُّهُ ﴾	يونس	٨٨	٨٥٧
﴿ وَاتَّخَذَ فِي الْكَلْبَةِ الْذِّبْنَ رَجُلًا يَّخْلُصُونَ سَيِّدَهُ ﴾	الرعد	٤٠	٩٤١
﴿ وَسَيِّدُهُ الْكَافِرُ لِمَنْ عَقِيَ النَّارُ ﴾	إبراهيم	٢	٩٤٣
﴿ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾	إبراهيم	٤٦	٩٥٩
﴿ وَلَمْ يَكُنْ مَعَكُمْ مِّنْ قَبْلُ ﴾	النحل	٨١	٩٩٨
﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾	الإسراء	١٦	١٠٢٤
﴿ وَلَٰئِذَا أُنذِرَ أَن يَأْتِيَ مَرَدُّهُ ﴾	الإسراء	٣٥	١٠٣٠
﴿ وَذُرِّيًّا إِلَيْكَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾	الإسراء	١٠٢	١٠٥٤
﴿ لَقَدْ جَاءَتْكَ مَآ أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ ﴾	الإسراء	١٠٥	١٠٥٥
﴿ وَفَرَّحْنَا بِفِرْعَوْنَ إِذْ يَفْرَحُ عَلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مَكْرٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَارِيكًا ﴾	الكهف	٥	١٠٦٠
﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ اعْتَكَبَهُمْ عَلَيْكُمْ وَفَعَلَ فِيهِمْ مَا يُفْعَلُونَ ﴾	الكهف	٤٤	١٠٧٢
﴿ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّهَّرِينَ لَمَّا قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَهُ الْبَنَاتِ ﴾	الكهف	٧٩	٩٤٧
﴿ وَكَانَ وَرَثَتُهُنَّ مِنْهُنَّ بِأُخْرَىٰ كُلِّ مَسْجِدٍ مَّسْجِدًا ﴾	مريم	٢٤	١٠٩٩
﴿ فَتَأْتِيهِنَّ مِنْ خَلْفِهِمْ غَوَائِدُهُنَّ ﴾	مريم	٥١	١١٠٤
﴿ وَذَكَرَ فِي الْكِتَابِ مَوْسَىٰ إِذْ كَانَ مُخْلَصًا ﴾	طه	٥٣	١١٣٢
﴿ الَّذِي يَمْلِكُ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْمَا ﴾	الحج	٢	١١٧٥
﴿ وَرَبِّ السَّمَوَاتِ سَعْدُونَ ﴾	النور	٣٥	١٢٥٢
﴿ الرَّحْمَنُ الَّذِي هُوَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ فَيُخَوِّضُهُمْ فِيهِمْ فَيُخَوِّضُهُمْ فِيهِمْ فَيُخَوِّضُهُمْ فِيهِمْ ﴾	الفرقان	١٨	١٢٧٣
﴿ مَا كَانَ يَلْمِزُكَ لَٰكِنَّا نَحْنُ الْمُخَلِّصِينَ مِنْ أَوْلِيَّكَ ﴾	الشعراء	١٣٧	١٣٠١
﴿ إِنَّ مَثَلَ الْإِنْسَانِ إِلَّا سُلُوكَ الْأَوَّلِينَ ﴾			

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ أَلَا يَسْتَحْذِرُوا لِلَّهِ ﴾	النمل	٢٥	١٣١٩
﴿ يَكْذِبُوا عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾	النمل	٦٦	١٣٢٩
﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي			
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	العنكبوت	٢٥	١٣٦١
﴿ وَالصَّمَمَ لَمَّا كَبُرَا ﴾	الأحزاب	٦٨	١٤٥٩
﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَطَلَبُوا أَنفُسَهُمْ ﴾	سبا	١٩	١٤٧١
﴿ وَلَقَدْ أَسْلَمَ بِكُمْ جِبَلٌ كَبِيرًا ﴾	يس	٦١	١٥١١
﴿ يُزَيِّنُ الْكَكُوبَ ﴾	الصفافات	٦	١٥١٩
﴿ لَئِكَ لَئِن كُنْتُمْ فِيكُمْ ﴾	الصفافات	٩٥	١٥٢٤
﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاقِينَ ﴾	الصفافات	١٣١	١٥٣٢
﴿ قَالَ فَلَمَّا وَلَّىٰ وَلَّيْتُ أَقُولُ ﴾	ص	٨٤	١٥٥٠
﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾	الزمر	٣٦	١٥٥٩
﴿ إِنَّ أَتَانِي أَن يُبَدِّلَ بَيْنَكُمْ أَوْ أَن يَخْلَعَنِي فِي			
الْأَرْضِ الْفَاسِدِ ﴾	غافر	١٦	١٥٧٧
﴿ لَوْلَا فَضْلَتُ رَبِّي لَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾	فصلت	٤٤	١٦٠١
﴿ وَبِهَا مَا نَتَنَبَّهُهُ الْإِنْسَ ﴾	الزخرف	٧١	١٦٢٩
﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِ ﴾	النجم	١٩	١٧٣٣
﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكَ حَلَكًا مِّن قَارٍ وَنَارٍ وَلَا تَتَنَبَّهُونَ ﴾	الرحمن	٣٥	١٧٥٢
﴿ بَيْنَ خَرَابٍ ﴾	الرحمن	٧٠	١٧٥٦
﴿ وَتُورِثُهُنَّ ﴾	الواقعة	٢٢	١٧٦٤
﴿ فَرُوحٌ وَرِيشَانِ ﴾	الواقعة	٨٩	١٧٧٤
﴿ فِي السَّحَابِ ﴾	المجادلة	١١	١٧٩٤
﴿ وَبَنَىٰ دَارَهُنَّ وَبَنَىٰ بَنَاتَهُنَّ ﴾	الحاقة	٩	١٨٧٢
﴿ يَوْمَ يَقُولُونَ بَيْنَ التَّنَادِ يَرَبْنَا إِنَّهُنَّ إِنَّا فَسَّرْنَا بِهِنَّ ﴾	المعارج	٤٢	١٨٨٢
﴿ وَابْتُغُوا مِن لَّدُنِّي مَالًا وَلَوْلَئِكَ إِلَّا خَسَارًا ﴾	نوح	٢١	١٨٨٥
﴿ يَسْتَكْبِرُ ﴾	الجن	٢٨	١٨٩٣
﴿ وَمَا خَلَقْتَنَّهُمْ لَتَقَرَّبَا قَاتِلَآءًا فَتُحْلَقَا فَآلَا يُحْشَرُونَ ﴾	نوح	٢٥	١٨٨٦
﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾	القيامة	١	١٩٠٦
﴿ لَوْ كُنَّا صَاطِعَةً لِّجَهَنَّمَ ﴾	التازعات	١١	١٩٢٤
﴿ وَمَا هُوَ عَلَىٰ الشَّيْبِ بِمُنِيرٍ ﴾	التكوير	٢٤	١٩٣٦

فهرس الأحاديث

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
			[حرف الألف]
٢٧٠	أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم	١١٤٢ ، ٢٤٦	أتى تحت العرش
١٧٦٠	أتدرون من السابقون إلى ظل الله		آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾
١٩٠٢	أتري بما أقول يا شاة	٨٣٤	أمن شره وكفر قلبه
٤٣٤	أتشهدون أن لا إله إلا الله	١٥١٤	أمين أمين أمين
٦٥٢ ، ٦٣٦	أتسحبون من دقة سابقه	١٠٢٦	آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا عاهد
١٢٦٣	أتعرف الحيرة		ابداً بما بدأ الله به
٢٥٩	أتقوا فراسة المؤمنين	٨٠٨ ، ١٦٦	ابداً بنفمك فصديق عليها فإن فضل شيء
١٩٦٨	أتقوا النار ولو بشق تمرة	١٨٢٣ ، ١٥٧	فلأملك
٦٩٧	أتقولون هذا أضل أم بهمه	٢٠٧	أبشر يا أبا بكر هذا جبريل
١١٩٠	أتى رسول الله ﷺ بكشين	٧٣٢	أبيض الحلال إلى الله الطلاق
١٩٨٧	أتيت على نهر حائه من ذهب	٤٥٧	أبيض الناس إلى الله من يتني في الإسلام
٢٦١	أتيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم	٥٣٥	ابن آدم أنفق أنفق عليك
٨٦١	أتقل الصلاة على المنافقين صلاة المشاء	٢٠١	ابك هذا ؟
٥٠٨	أثنا عشر كلمة تقيا بني إسرائيل	١٥٣	أتاني الليلة آيات
٩٠	اجتنبوا الحمر فإنها لم أحيث	٨١٧	أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد
٧٣٥ ، ٣٦٩ ، ٢٩٣	اجتنبوا السبع الملوقات	١٦٥٧	أترون هذه تلقى ولدها في النار
١٧٧٤	اجعلوها في ركوعكم	١٤٣٩	أتألفهم
٦٤	أجل إنها صلاة رغب ورهب	٧٩٨	أتاني جبريل فيشربي
١٩٨٨	أجل ، وعرضته بالثوت وبرجان	٦٣٤	أتاني ربي في أحسن صورة
٧٧٧	أجل يا بلال أسرج لي فرس	٧٤	أتدرون فيما انتطلحا
١٠٣٠	اجلس .. اتقيه لأملك	٣٧	أتدرون لمن هذا ؟
١٧٥٧	أجلوا الله يغفر لكم	٦٧٧	أتدرون ما هذان الكتابان
٩٦	اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا	١٦٠٦	أتدرون ما أعياها
١٤٣٥	أحب أهلي إلي فاطمة بنت محمد	١٩٦٨	أتدرون ما هذه الریح
١٨١٧	أحب حيك موتاً ما عسى أن يكون بفيك موتاً	١٦٩٩	أتدرون ما يوم الجمعة
١٥٤٠	أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود	٣٩٢	أتدري أين تذهب الشمس
٣٧٠	أخرج مال الضعيفين	٦٣٩	أتدري لم بحث إليك
١٣٩٩	أحسنهم خلقاً	٣٤١	أتدري ما حق الله على العباد
١٥٣٣	أحفظ الله يحفظك	٥٩٠	أتدري ما حق الله على عباده
١٢٤٥	أحفظ عورتك	٤٠١ ، ٥٨	أتدري عليه حديثه
٦٨٧ ، ٤٨٩ ، ١٦٣	أحل لنا ميتتان ودمان	٢٢٠	أترون هذه تلقى ولدها في النار
١٨٦٩	أحياناً يأتي مثل صلصلة الجرس	١٤٣٩	أترون هذه طارحة ولدها في النار
١٣٦٢	أنعرك أن الله تعالى يجمع الأولين	٣٧١ ، ١٥١	
١٣٨٠	أنعركم لم سعى الله إبراهيم عليه		

- أخبرني بهذا جبريل أنفاً ١٠٥
 أخبروها أنها لا تتدخلها وهي عجوز .. ١٧٦٦
 اختصمت الجنة والنار ٨٩٠
 أحسك هي ؟ ١٧٩١
 أخرج متاعك فضمه في الطريق ٤٦٤
 أخرج يا أبا بكر فهذا حينك ١٠٤١
 أخر عني يا عمر ٨١١
 أخرج يا فلان فإنك متافق ٨٠١ ، ٨١٦
 أخلص دينك يكفك القليل من العمل .. ٨٦٣
 أضع اسم عبد الله رجل تسمى بملك الملوك ٣٥
 أد الأمانة إلى من ائتمنك ٤١٨
 أدخلت ذلك منك في ذلك منها ١٦٩٩
 ادعوا الله تبارك وتعالى وأتمموا موافق بالإجابة ١٥٧٥
 ادعوا لي للقتل ٤٣٨
 ادعهم أن يتكلموا بكلمة تدلهم بها العرب .. ١٥٣٨
 أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ١٧٥٦
 ﴿إِذْ أَنْتُمْ أَشْقَىٰ﴾ انتهت لها رجل ٢٩٤٦
 إذا أتى أحدكم عذابه بطعامه ٤٠٣
 إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه ٧٦٦
 إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأتمم تسعون .. ١٩٩
 إذا أرسل الرجل كلبه وسمى فأمسك .. ٤٩٦
 إذا أرسلت كلبك وذكرت الله ٤٩٦ ، ٤٩١
 إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ١٢٤٢
 إذا استشار أحدكم أخاه ٣٤٠
 إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده ٥٠٠
 إذا انتهى المؤمن الولد في الجنة ١٧١٠
 إذا اشتد الحر فأبردوا ١٩٩٩
 إذا التقى المسلمان بسيطيهما ٦٤١
 إذا أصحك حسن عمل امرئ مسلم قتل ٨٠٣ ، ٨١٨
 إذا أقبل الليل من ها هنا ١٨٧ ، ١٥٠٧
 إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها سمياً ١٨٣٢
 إذا أمرتكم بأمر ١٨٠٦
 إذا أمرتكم بأمر فأتوا به ما استطعتم .. ١٨١٦
 إذا انتهى أحدكم إلى المجلس ١٢٦٨
 إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليفضه ١٥٦٠
 إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ١٤٣٢
 إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار .. ٤٨٦
 إذا تباعتم بالعينة ٧٧٦
 إذا تقابل المسلمان بسيطيهما ٥١٧
 إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخره ٥٠١
 إذا جاء أحدكم الجمعة ١٨٣٢
 إذا حللكنم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ٧١٦
 إذا خلص المؤمن من النار حبسوا بقنطرة ٦٦٤ ، ١٦٦٥
 إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم ١٢٥٦
 إذا دخل أحدكم المسجد فليقل ١٢٥٦
 إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي ٨٨٣
 إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله هل تشتهون ٨٤٤ ، ٨٠٤
 إذا دخل الرجل بيته فذكر الله ٤٩٧
 إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى :
 تريدون شيئاً أزيدكم ١٨٨٢
 إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه ١٧٢٢
 إذا دعا أحدكم أخاه فليجب ١٤٤٨
 إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ٣٩٩
 إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ١٥٧٣ ، ١٦٩٦
 إذا ذبح للمسلم ولم يذكر اسم الله ٦٨٨
 إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ٨٩٤
 إذا رأيت الله يعطي العبد ٤٥ ، ١٦٢٦
 إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ٤٠
 إذا رأيتم الذين يجادلون فيه ٢٧٧
 إذا رأيتم الرجل يتعد المسجد ٧٧٤
 إذا رجعت فطلق إحداهما ٣٨٤
 إذا رميت بالمرأض ٤٩٠
 إذا زنت أمة أحدكم ٣٧٦ ، ٣٩٠
 إذا زنت فاجلدوها ٣٨٨
 إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس ١٣٣ ، ١٢٠٩
 إذا سرك إن تعلم جهل العرب ٦٢٨
 إذا سلم عليكم اليهود ٤٣١
 إذا سلمتكم علي تسلموا على المرسلين .. ١٥٣٦
 إذا سمع الأذان أدير وله ضراط ٥٣٨
 إذا سمعت الخفيث عني تعرفه فلوكم ٦٩٨ ، ٨٨٣
 إذا سمعت المؤذن يقولوا مثلما يقول ٥٢٤ ، ٨٠٣
 إذا صدقكم شريكهما ١٤٥٣
 إذا صدقكم شريكهما ٨٥٣
 إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله ١٤٥١
 إذا صلبت المرأة خمسها ٣٩٩
 إذا صليتم علي فسلوا الله لي الوسيلة ٨٠٣

أرسل إليه أن رسول الله بأمرك أن تكثر . ١٨١٩
أرم فذلك أي وأمي . ٣٣٦
أرموا بني إسماعيل فإن أبأكم كان راميا . ١٤٧٠
أرموا واركبوا . ٧٥٨
أرواح الشهداء في حواصل طير خضر . ١٥٥
أرواحهم في جوف طير خضر . ٣٤٤
أسبغ الوضوء وخلل بين الأصابع . ٥٠٤
أسبغوا الوضوء ، ويل للأعقاب . ٥٠٣
استغفروا لأسيكم وأسألوا له التثبيت . ٨١١
استعملوا بالله من عذاب القبر . ٦٦٣
استأذن الحر لعينة . ٧١٨
استحيوا إن الله لا يستحي من الحق . ٢١٢
استقيموا ولن تحصوا . ١٢٠٨
استسلم رسول الله ﷺ للركن . ١٢٤
استسوا حتى أثنى على ربي . ١٦٩٤
استسوا ولا تختلفوا . ١٧٩٥
استسوا فإن الله كتب عليكم السعي . ١٥٧
استس يا زبير ثم أرسل للماء . ٤٢٣
الإسلام يجب ما قبله . ١٨٥٤
أسلم وإن كنت كارها . ٧٩٣ ، ٢٤٨
أسلمنا قالوا : قد أسلمنا . ٢٩٨
اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب . ٢٨٧
اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين . ١٥٩
اسم الله على كل مسلم . ٦١٧
الإسلام علانية والإيمان في القلب . ١٦٩٤
أسمع ربي قد رخص لي فهم . ٨٠٩
سمعت بلالاً ينادي . ٣٤٣
اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم . ٤٢٠
اشتد غضب الله على من دس وجهه . ٣٣٦
اشتد غضب الله على من قتل رسول الله . ٣٣٦
أشترط لربي أن تصدوه . ٨٠٦ ، ٨٢٢
اشتكت النار إلى ربي . ١٩٨٩
أشد الناس بلاء الأكياء . ١٣٥٧
أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبي . ٨٦
أشيروا علي أنها للمسلمين . ٥١٣
أشيروا علي مشير للمسلمين . ٣٤٠
أصبحتنا على ملة الإسلام . ٦٤٢
أصنع بها ما أحببت . ١٨٤٥

إذا ظهرت المعاصي في أمتي . ٧٣٩
إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق . ٥٤
إذا قال أحدكم في الصلاة آمين . ٤٠
إذا قضى الله الأمر في السماء . ١٣٠٨
إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء . ١٤٧٤
إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا . ٢٣٩
إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد . ١٩٣٩
إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم . ١٢٠٩
يهودياً . ١٢٠٩
إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض . ١٩٤٤
إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى جهنم . ١٥١٢
إذا كان يوم القيامة عرف الكافر . ١٢٤١
إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها . ١٦١٣
إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان . ١٧٩٣
إذا كثر الناس الذهب . ٧٨٤
إذا لم تصطحبوا ولم تغتفوا . ٤٩٥
إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . ١٢٦ ، ١٧٢٤ ، ١٥٠١
إذا نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف . ٤٦٣
إذا نس أحدكم وهو يصلي . ٤٠٧
إذا نودي للصلاة صلاة الصبح . ١٨٧
إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين . ٤٩٣
إذا وضعت جنبك على الفراش . ٢٤
أذهب إليه قل له : إنك لست من أهل النار . ١٦٩٢
أذهب فاطرحه في القبر . ٧٢٣
أذهب فواره ولا تحنن شيكاً . ٨٢٤
أذهبي فغيري يدك . ١٨٢١
أرى رؤياكم قد تواطأت . ١٩٨٩
أرأيت في المنام دار هجرتمكم . ١١٩٤
أرأيت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ آتَمَكَا ﴾ . ١٥٦
أرأيتكم لو أخبرتمكم أن العدو يصيحكم . ١٤٨٠
أرأيتكم لو أن بياب أحدكم نهراً . ٨٨٨
أرى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم . ١٤٥٧
أربع إذا كن فيك فلا عليك . ١٤٦٣
أربع في أمتي من أمر الجاهلية . ١٨٢٢ ، ٧٩٦
أربع من كن فيه كان منافقاً . ١٨٢٣
أرجع فأحسن وضوءك . ٥٠٣
أرحموا ترحموا . ٣٢٩

- أفضل الصدقة للماء ٢٠٩
أصدق كلمة قالها شاعر ١٣٥٧
الإضرار في الوصية من الكيل ٣٧٤
أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ١٨٣١
أطت السماء وحق لها أن تھط ١٥٣٥
أطرق بصرك ١٢٤٥
أطعمنا ٢٠٠١
اطلبوا الخير دهركم كله ٨٦٣
أعاذك الله من إمارة السفهاء ١٩١١
أعنت عن كل واحدة منهم رقة ١٩٣٤
أعنى الناس على الله رجل قتل ليلاً ٨٤٠
أعنت النسمة ٧٩٨
أعنتها فإنها مؤمنة ٥٥١
أعنتوا عنه ١٩٦٨
أعصر عليه السلام أربع عمر كلها في ذي القعدة ١٨٦
أعد من المال طائفة وقم بما تطيق ٧٦٤
أعلم الله إلى أمرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة ١٤٩٥
أعطيني نخلتك التي فرعها في دار فلان ١٩٧٤
أعطي يوسف وأمه شطر الحسن ٩٠١
أعطيت غصناً لم يعطهن أحد من الأنبياء ٧٠٠
أعطيت غواتهم سورة البقرة ٢٧٢
أعطيت غصناً لم يعطهن أحد قبلي ٩٢ ، ٧٢٥ ،
..... ٣٣٣ ، ٤١١ ، ٧٦٢ ، ١٤٧٦
أعطيت الشبح الطول مكان الثوراة ٤٤
أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء ٣١٦
أعظم الملوك عند الله فراخ من الأرض ٣٤٠
أعمار أمي ما بين الستين إلى السبعين ١٤٩٥
أصلوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحسن
لن يدخله عمله الجنة ٦٤٠
أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ١٦٠٠
أعوذ بالله العظيم ١٢٥٥
أعوذ بوجهك ٦٣
اغزوا في سبيل الله ١٩٠ ، ٧٦٥
أف لك ، أف لك ٣٤١
أفان أنت يا معاذ ١٩٣٧ ، ١٩٥٢ ، ١٦٦٠
أفضل الذكر لا إله إلا الله ٣٣
أفضل الصدقة أن تصديق وأنت صحيح ١٦٥
أفضل الصدقة جهد المقل ١٨٠٧
- أفضل الصدقة للماء ٦٦٨
أفضل نساء أهل الجنة خديجة ١٨٥٧
أفلح من هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً ١٥٥٩
أفلا أكون عبداً شكوراً ١٦٧٤
أفني شك أنت يا ابن الخطاب ؟ ١٨٥٢
أفني القرآن سجدة ٩٠
أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي ١١٩٤
أقبل وأدبر واتق الدبر والحبيضة ٢١١
أقبلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ ٧٤٧
اقرأ يا حضير ٤٣
اقرأ علي ٤٠٥
اقرأ ﴿ قُلْ أَهْوَىٰ بِرَبِّيَ الْكَافِرُ ﴾ ٢٠٢٦
أقرأني رسول الله إلى أنا الرزاق ١٧١٩
أقرأني رسول الله ﷺ ذلك أن منهم
قسيين ٥٤٨
أقرب ما يكون المهد من ربه وهو ساجد .. ١٩٨٤
أقطنوا في ريع دينار ٥٢٦
أقطنوا يدها اليمنى ٥٢٦
أقم حتى تأتينا الصدقة ٧٩٩
أقيموا الصلوة وحافظوا بين المناكب ١٧٩٥
أكتب بسم الله الرحمن الرحيم .. ٩٢ ، ١٦٨١
أكتب باسمك اللهم ١٦٨١
أكثر جنود الله لا أكله ولا أمر به ٦٨٧
أكثرهم ذكراً للموت ٦٢٢
أكثروا ذكر الله تعالى ١٤٣٨
أكرمهم عند الله أتقاهم ٨٩٣ ، ١٧٠٠
أكره أن يحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه ٥٣
أكل ولدت نحلتي ٥٠٦
اليسوا من ثيابكم البياض ٦٦٠
التقى آدم وموسى ١١٣٠
الشمس لي غلاظاً من غلمانكم ١٢٥
الشمسوها في المشر الأواخر ١٩٨٨
الشمسوها في المشر الأول ١٩٨٧
ألحقوا الفرائض بأهلها ٤٨٢
الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة .. ١٩٢٩
ألست تشهد أن لا إله إلا الله ١٥٦٣
الله أكبر الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده ٢٠٢٩
الله أكبر ثلاثاً - الحمد لله ثلاثاً ٢٥

- اللهم لك الملك كله ٦٧٠
 اللهم هذا عن أمتي ١١٩١
 اللهم هذا قسمي فيما أملك ١٤٤٤ ، ٤٥٧
 اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً ٦٤
 اللهم لا تنيها ١١٢
 ألم أجذك ضللاً فهذاكم الله ١٨١٧ ، ٨٠٦
 ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ٦٦٨ ، ٧٧
 ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة ٢٠٢٦
 ألم تر أن قومك حين بنوا البيت ١٢٦
 ألم تعلم أن الله تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا
 أَكْرَمُ نَبِيٍّ ﴾ ٦٧
 ألم يقل الله تعالى : ﴿ يَنْبَغِي أَنْ يَنْتَكِبَ ﴾ ١٧٩١
 ﴿ الْهَيْكَلُ الْكَبِيرُ ﴾ عن الطاعة ١٩٧٤
 ﴿ الْهَيْكَلُ الْكَبِيرُ ﴾ يقول ابن آدم مالي ١٩٧٤
 إلى أقربهم منك بالآ ٤٠٢
 إلى عباد الله ٧٧٧ ، ٣٣٥
 إلا أن تروا كفراً بواحاً ٦٨
 إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة ١٦١٠
 ليس تشهد أن لا إله إلا الله ٤١٤
 انظروا بيذا الجلال والإكرام ١٧٥٧
 ليس لكم في أسوة حسنة ١٨٩٥
 لم القرآن هي السبع المثاني ٩٧٤
 أما الله شفائي ١١٨
 أما أهل النار الذين هم أهلها ١١٣٦ ، ٧٣
 أما إن ذلك سيكون ٢٠٠٢
 أما إن ملكاً بينكما ١٢٨٣
 أما إنكم ستعرضون على ربكم ١٧١١
 أما إنه سيقال لك هذا ١٩٦٥
 أما إنه لو ذكر اسم الله لكناكم ٤٩٧
 أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد ٣١٩
 أما بعد أيها الناس إنما أنا بشي ١٤٣٠ ، ١٦١١
 أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بهت
 محمداً ١٢٢٧
 أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض ٤٥٤
 أما بعد فإنا أهلك من كان قبلكم ٥٢٧
 أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر ١٩٤
 أما ترضون أن تكونوا ربح أهل الجنة ٣١٨
 أما الروضة فروضة الإسلام ٢٤٩
 الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل ٦٩٠
 الله الله في أصحابي لا تتخلوهم غرضاً ١٤٥٧
 اللهم أت نفسي تقواها ١٩٧١
 اللهم اجعل أوسع رزقك علي ٢٥٥
 اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد ١٢٤٢
 اللهم اجعل في قلبي نوراً ١٩٤
 اللهم اجعل له لساناً ذاكراً ٨١٦
 اللهم احبنا مسلمين ١٢٩٥
 اللهم أسألك العفو والعافية ٦٣٩ ، ٦٥٥
 اللهم أصم بصره ٩٧٨
 اللهم اغفر للأتصار ولأبناء الأتصار ٨٠٥
 اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ١٤٦٨
 اللهم اغفر لي واهدني ١٩٤٠
 اللهم اغفر لي ذنوبي وافض لي أبواب رحمتك ١٤٥٣
 اللهم ألق بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا ١٦٥١
 اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ١٦٥٥
 اللهم أنت خولفتني عبداً من عبادك ٧٥٨
 اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ٦٤٣
 اللهم أنجز لي ما وعدتني ٧٢٩ ، ٧٧٧
 اللهم إن تهلك هذه العصابة ٧٣٥
 اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ١٤٢٩
 اللهم إنا نعوذ بك من ضرورهم ١٥٧٨
 اللهم أنت السلام ومنك السلام ١٧٥٧
 اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ٤٣٤
 اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ١٩٧١
 اللهم إني أعوذ بك من الهرم ١٢٢٢
 اللهم اهدني فيمن هديت وعلاني فيمن عليت ١٤٥٤
 اللهم أهد حسان يروح القدس ٩٩
 اللهم بارك لنا في قمرنا ١٢٥
 اللهم حاسبي حساباً يسيراً ١٩٤٥
 اللهم حبب عليهم الخير حلياً ١٤٣٢
 اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ١٠٧ ، ٢٠٢
 اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ١٩٧
 اللهم الرفيق الأعلى ١٢٩٥
 اللهم زدنا ولا تنقصنا ١٢٠٧
 اللهم صل على آل أبي أوفى ٨٠٢ ، ٨١٧
 اللهم فقهِه في الدين وعلمه التأويل ٢٧٨
 اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله ٣٤

- أنت بما تقول ١٥٠
 أنت مع من أسحبت ١٦٠٨
 أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها . ٧٨ ، ٣١٦
 اتقن على ذلك ١٨٢٠
 أنزل الله علي أمانين ٧٤٣
 أنزلت علي أنفأ سورة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ ٢٠١٣
 أنزلت هذه الآية علي رسول الله وهو بأسفل المنبئية . ١٨١٩
 أنزلت هذه الآية علي عبد الله بن أبي ١٨٣٦
 أنزلت صبحف إبراهيم في أول ليلة ١٨٥
 انسك شاة أو أطعم ستة مساكين ١٨٨
 أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد ٦٩٧
 اتشق القمر علي عهد رسول الله ١٧١٦
 انصر أخاك ظلالاً أو مظلوماً .. ٤٨٨ ، ١٦٩٥
 انضجوا الخيل عنا ٣٢٢
 انطلقا فيشرا ولا تنفرا ١٤٤٠
 انطلقوا حتى تأتوا روضة غياخ ١٨١٤
 انظر فإنك لست بخير من أحمر ١٧٠٠
 انظرون من إخوانكن ٢٢٦
 انظروا إلي هذا المحرم ما يصنع ١٩٢
 أنفق بلالاً ولا تمس من ذي المرش إقلالاً ٢٠١
 أنفقي حكلكا وهكلكا ١٠٢٨
 إن آدم لما أبعطه الله ١١٠
 إن أبا سفيان قد أصاب مكم طرماً ٣٣٠
 إن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه ٨٢٤
 إن إبراهيم يلتقي أباه آزر ٧٤
 إن أبغض الرجال إلي الله الأكذب ١٩٩
 إن ابني آدم ~~الخير~~ ضربا لهذه الأمة ٥١٩
 إن ابني مات في إلندي .. إن له مرضيقا ٢٢٦
 إن ابني هذا سيد ٨٥ ، ١٦٩٥
 إن أبي وأباك في النار ١٨١٥
 إن أخذ المني فقد اتخذه إبراهيم ١٢٢
 إن أحب الأعمال إلي الله تمجيد الصلاة ٢٣٣
 إن أحب الصلاة إلي الله تعالى صلاة داود ١٤٦٨ ، ١٢١٥
 إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان .. ٢٠٢٨
 إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده ١٥٨٢
 إن أسقى ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله ٧٤
 أما صاحبكم هلأ فقد غامر ٦٩٩
 أما ما رأيت من الطريق السهل الربح ١٧٦٢
 أما مرت بواد محمل ٩١
 أما معاوية فصعلوك ١٦٩٨
 أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين ١٩٠٥
 أما والذي نفسي محمد بيده ليحن منكم ٣١٨
 أما والله إني لأمين من في السماء ٩٧٤
 إما لا غاصبروا ١٨٠٦
 أمان أمي من الفرق ٨٧٣ ، ١٢٢٦
 أمر أن يقرأ بالسماوات في العشاء ١٩٢١
 أمرت أن أسجد علي سبعة أعظم ١٨٦٥
 أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا ٧٧٠ ، ١٩٠
 ١٦٨٢
 امكني في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله ٢٣٨
 أمتهركون فيها يا ابن الخطايا ؟ ٨٩٥
 أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا للملاحين ١٧١١
 أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشف العيون ٤٨٧
 أمرنا رسول الله ﷺ أن نشرك في الإبل ١٨٧
 أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة ٣٩١
 أمرني خليلي بسبع ٥٣٧
 أمك وأباك وأخاك وأختك لم أذكك ٢٠٣ ، ١٠٢٧
 أمك ثم أمك ٩٧
 أنا أفصح من نطق بالضاد ٢٩
 إنا أمة أمية لا نكتب ٢٦٧
 أنا أول من تشق عنه الأرض ١٧١٢
 أنا أول من يؤذن له بالسجود ١٠٣٤ ، ١٧٧٩
 أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة ١٨٥٥
 أنا أولى الناس بأبن مريم ٥١٠
 أنا رسول الله وأنا محمد ١٦٨٨
 أنا سيد الناس يوم القيامة ١٠٤٥
 أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ١٠٤٦
 إنا على سفر ٨١٩
 أنا لها . أنا لها ١٠٤٣
 أنا محمد وأنا أحمد ١٨٢٥
 أنا النبي لا كذب ٧٧٨
 أنا وكافل اليتيم في الجنة ١٩٦٤
 أنت أحب بلاد الله إلي الله ١٦٦٦

- إن الله رفيق يحب الرفق ٣١
 إن الله زوى لي الأرض ٧٨٣
 إن الله ﷻ أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ٥٨
 إن الله ﷻ قد أتى عليكم في الطهور ٨٠٥
 إن الله ﷻ لا يعذب العامة بعمل الخاصة ٧٣٨
 إن الله ﷻ يلقي المؤمنين فيضع عليه كفه ٨٦٨
 إن الله فرض على المسلمين حج البيت ٣١٢
 إن الله قال لي : أتفق أتفق عليك ١٠٢٨
 إن الله قال : من اتدب خارجي في سبيلي ٤٤١
 إن الله قد أحسن عليكم الثناء ٨٠٥
 إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ٣٧٤ ، ٧٦٦
 إن الله قد أمكنكم منهم ٧٦١
 إن الله قد صدقتك ١٨١٠
 إن الله قدر مقادير ٧٠٩
 إن الله قدر مقادير الخلائق ١٩٥٤
 إن الله قسم بينكم أخلاقكم ٢٥٥ ، ٨٨٨ ، ١٣٥٣
 إن الله كتب الحسنات والسيئات ٢٧١
 إن الله كتب كتب كتاباً فهو عنده ٨٦٢
 إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات ١٤٤٧
 إن الله لم يعطني معقلاً ١٤٢٧
 إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره ٧٩٧
 إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم ٨٣٤
 إن الله لم يهلك قوماً ٥٣٩
 إن الله لو عذب أهل سماواته ١٣٦٣
 إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح ١٧٢٢
 إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ١٠٤٦
 إن الله ليصالح بصلاح الرجل المسلم ولينه ٢٤٣
 إن الله ليلين قلوب رجال ٧٦١
 إن الله مع الحاكم مالم يجر ٤١٩
 إن الله ورسوله حرم بيع الخمر ٦٣٢
 إن الله وضع عن أمي الخطأ والنسيان ٢٧٣ ، ٦١٨
 إن الله وعدني أن يدخل الجنة ٣١٨
 إن الله وملأه بصلواته على ميامن الصوف ١٤٢٣
 إن الله لا يظلم المؤمن حسنة ٤٠٥
 لا إن الله لا عمل حتى تموتوا ٧٩٥
 إن الله لا يتم ولا يبني له ٢٤٦ ، ١٤٩٦
 ١٦١٨
 إن الله لا ينظر إلى صوركم ٢٦٣ ، ٥٤
 إن أنا لكم بالحيضة قد مات ١١٤ ، ١٩٩
 إن إخوانكم قد تركوا الأموال ١٨٠٧
 إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في
 ملكه ١١٤٧ ، ١٦٢٩ ، ١٩٠٨ ، ١٩٤٢ ، ١٩١٥
 إن أرواح الشهداء في حواصل طير ١٧٨٣
 إن إسرائيل قد التقم الصور ٧٣
 إن الإسلام بدأ غريباً ٤٩٤
 إن الذي يأكل أو يشرب في آفة الذهب ١٦٤
 إن أصحاب الأعراف يوم ٦٦٧
 إن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي ٤٥٢
 إن أعظم المسلمين جرماً ١٢١
 إن أفعالكم تعرض على أقداركم ٨٠٣ ، ٨١٨
 إن أكل فلا تأكل فاني أخاف أن يكون أمسك ٤٩١
 إن الله أبى على من قتل مؤمناً ٤٣٥
 إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم ٧٦
 إن الله إذا أتم نعمته على عبد ٤٠٤
 إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ٦٢١
 إن الله أعطى كل ذي حق حقه ١٨٠
 إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ١٩٩١
 إن الله بعث فينا رسولاً منا ٨٣٣
 إن الله تجاوز لي عن أمي ما حدثت به ٢٧١ ، ٦٩٩
 إن الله تعالى إذا رضي عن العبد أتى عليه ١٤٩١
 إن الله تعالى أمرني أن أترككم أن تتقوا الله ١٤٦٠
 إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ١٤٨٤ ، ١٥٤٥
 إن الله تعالى يستحي أن يسطر العبد إليه يده ١٨٧
 إن الله تعالى يدعو الناس ١٧٨٠
 إن الله تعالى : يقول توبه العبد مالم يفرغ ١٥٨٩
 إن الله تعالى يقول : يا عبادي إني حرمت ٧٥٦
 إن الله تعالى يقول : يا عبادي كل كلم منسوب ١٥١٧
 إن الله تعالى ينزل كل ليلة ١٧١٥
 إن الله تعالى يقول : يا عبادي إني حرمت ٧٥٦
 إن الله جميل حسنة ابن آدم إلى عشر أمثالها ٢٥٢
 إن الله حسن عن مكة الفيل ٢٠٠٩
 إن الله حد حديدك فلا تضلها ٢٢٢
 إن الله حرم بيع الخمر ٤٨٩
 إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً ١١٤٦
 إن الله خلق آدم من قبضة ١٣٨٢
 إن الله خلق خلقه في ظلمة ٦٢٠

- ١٧٠٦ ، ١٠٣٠ ، ٦٣٥
 إن الجماء لتقتص ٤٥
 أن تعبد الله كأنك تراه ٨٥١
 إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ٥٤٥
 إن جهنم لما سبق إليها لتلقاهم لهبها ١٤٧٨
 إن حبيبي نهاني أن أصلي بأرض المقبرة .. ١١١
 إن الحمد لله نحمده ونستعينه ٧٠٩
 إن الحلال بين والحرام بين ٢٦٢
 إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ٢٢٨
 إن خليلي عهد إلي أن أبيا ذهب أو فضة ٧٨٦
 إن خير دينكم أسره ١٨٥
 إن خلود كان يأكل من كسب يده ... ١٢١٥
 إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم ١٦٨٩
 إن الدنيا حلوة خضرة ٦٤٤ ، ٨٣٨
 إن الدعاء هو العبادة ١٥٧٥
 إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ١٨١٨
 إن رأيتمونا تخطفنا الطير ٣٣٥
 إن ربكم أنذرکم ثلاثاً ١٦٠٨
 إن ربى أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة ٣١٧
 إن ربى أمرني أن أعلمكم ما جهنم ١٣٦٥
 إن ربكم ﷻ خيرني ٤١٤
 إن ربكم رحيم ٦٤١
 أن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله ١٨٧
 إن رجلاً أذنب ذنباً ١٣٥
 إن الرجل في الجنة ليتكئ في الجنة ١٧١٠
 إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال
 الجبال ١٣٥٩
 إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ١٦٩٢ ،
 ١٧٠٦
 إن الرجل ليتكئ للثكأ مقدار أربعين سنة ١٧١٣
 إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير ١٨١ ، ٣٧٥
 أن الرجل يقتل بالرأفة ٥٣٠
 إن الرجل يؤتى به ويوضع له في كفه ٦٥٢
 إن رجلاً حضره الموت فلما أيس الحياة ١٥١٦
 أن رجلاً قال : يا رسول الله إن امرأتي ١٩٣٨
 إن الرسالة والنبوة قد انتظمت ١٤٣٧
 إن رسول الله أضافه يهودي ٤٩٨
 إن رسول الله برئ من الصالفة ١٨٢٢
 ١٧٠٠ ، ١٤٧٨
 إن الله يجزي بالحسنة ألف حسنة ٧٩١
 إن الله يحب الأتقياء ١٧٩٩
 إن الله يحب أن تؤتى رخصه ٤٩٤
 إن الله يحب ثلاثة ويتنقض ثلاثة ٤٠٣
 إن الله يتجلى للمؤمنين بضحك ١٩٠٨
 إن الله يدلي المؤمن بوضعه ١٧٩٣
 إن الله يرفع بهذا الكتاب ١٧٩٦
 إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً ٣١٤
 إن الله يستخلص رجلاً من أممي ١١٥٦
 إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف ٢٣٩
 إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت يوم ٣٧٧
 إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغفر ٣٧٦
 إن الله يقبل توبة العبد ما لم يقع الحجاب ٣٧٧
 إن الله يقبل الصدقة وأعدلها بيمينه ٨٠٢ ، ٨١٨
 إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ٨٠٤
 إن الله يولي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ١٢٦ ،
 ٨٧٠ ، ٨٨٧ ، ١٠٣٤
 إن أهون أهل النار علماً من له نعلان ١٩٩٨
 إن أممي يدعون يوم القيامة غراً ٥٠١
 إن الأنبياء إخوانة لملائكة ٤٦٩
 إن أنسابكم ليست بحسبة على أحد ١٧٠٠
 إن أهل الجنة ليتراءون العرف ٤٢٤ ، ٨٠٣
 إن أهل الجنة يلهمون التبسيع ٨٣٧
 إن أهل الدرجات العلى يرون أهل عليين ١٠٢٧
 إن أهل خيبر أهدوا لرسول الله شاة مصلية ٤٩٨
 إن أهل عليين يرون من قرهمهم ٧٢٧ ، ١١٣٦
 إن أهل الكتابين اخرجوا في دينهم ٣١٥
 إن أهون أهل النار علماً ٨١٠
 إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ١٣٠٧
 إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ١٧٥٥
 إن أول عظم من الإنسان يتكلم ١٥١٢
 إن أول ما دخل النفس على بني إسرائيل ٥٤٦
 إن أول ما يسأل عنه العبد من الصميم ٢٠٠٢
 إن أول من جسد آدم ٢٢٦
 إن بني إسرائيل قالوا : يا رسول الله ﷺ هل يصنع ربك ١٣٨
 إن بالمدينة أقواماً ما سمر من مسير ٤٣٩
 أن تجعل لله نداً وهو خلقك ١٦٠ ، ٢٩٣ ،

- ١٣٥ إن الغضب من الشيطان
 ١٨٣٠ إن في أصلاب أصلاب رجال
 ١٧٥٦ إن في الجنة خيمة من ثلثة مجوفة
 ١٧٦٧ إن في الجنة لجمعا للحرور المين
 ١٥٦٩ إن في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان
 ١٧٦٥ إن في الجنة شجرة يسير الراكب ٤١٨ ، ١٧٦٥
 ١٤٧٨ إن في الجنة غرقا يرى ظاهرها
 ١٧١٥ ، ١٥٥٥
 ١٥٤٧ إن في الجنة قصيرا يقال له عدل
 ٨٠٣ إن في الجنة لفرقا يرى ظاهرها من باطنها
 ٤٣٩ ، ٤٣٠ إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين
 ٢٣٥ إن في الصلاة لشغل
 ٢٤٦ إن فيها اسم الله الأعظم
 ٢٧٧ إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا
 ١٨١٥ ، ١٩٠ إن قوما كانوا أهل ضعف
 ١٨٩٦ إن قصص أهل الجنة لفيديو
 ١٣٦٣ إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف
 ٣٣٤ إن لك أجر رجل ممن شهد بلوا
 ١٨١٣ ، ٣٠ إن لله تسعة وتسعين اسما
 ٣٠٣ إن لله تعالى عبادا لا يكلمهم يوم القيامة
 ١٤٥٥ إن لله ملائكة سياحين في الأرض
 ١٣٩٨ إن لقمان الحكيم كان يقول
 ١٥٨٦ إن لربكم في بقية أيام دهركم تفحات
 ١٥٢٩ إن لكل نبي دعوة مستجابة
 ٢٥٦ إن للشيطان لمة بابن آدم
 ١٨٣٥ إن للمنافقين علامات
 ٨٠٣ إن للمؤمن في الجنة لحمة من ثلثة
 ٣٠٠ إن لكل نبي ولاية من النبيين
 ١٤٣٧ إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي
 ١٥٣٨ إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه اللز
 ٧١١ إن من أمي قوما على الحق
 ١٥٤٣ إن ما بين مصرعين في الجنة
 ١٧٢٩ إن للرفقة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها
 ١٤٠٢ إن للرفقة عورة فإذا عرجت استشفها الشيطان
 ٥١ إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكته
 ١٩١٥ إن المؤمن إذا أذنب كان نكته سوداء
 ٨٥٢ أن للمؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة
 ١٠٤٠ إن للمؤمن لينفي شياطينه
- ١٩٣ أن رسول الله خرج ذات ليلة
 ١٨٥ أن رسول الله ركب على حمار عليه قطيفة
 ١٨٠٤ أن رسول الله قطع نخل بني النضير
 ٨٣٤ أن رسول الله أتاه ملكان فيما يرى النائم
 ٧٨٠ أن رسول الله أخذ الجزية من الجوس
 ١٩٦ أن رسول الله اعتمر أربع عمر
 ٥٢٥ أن رسول الله قطع في معج
 ١٠٥٥ أن رسول الله لما بناه وأبسه
 ١٩٢٨ أن رسول الله وثا يخطب أحد عظماء قريش
 ١٣٨٦ إن الفاجر إذا مات يستريح منه
 ١٣٢ إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة
 ٣٨١ إن الرضاة تحرم ما تحرم الولادة
 ١٦١٨ إن روح القدس نفث في روعي
 ٤٨٦ إن الزمان قد استدار كهيته
 ٣٨٨ إن زنت فحلونها
 ٧١٣ إن الساعة تهيج بالناس
 ١٥٤٥ إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا
 ١٨٥٨ إن سورة في القرآن ثلاثين آية
 ٧١٩ إن شئت دعوت الله فشفاك
 ١٣٤٠ ، ١٨٥ إن شئت فسم وإن شئت فأضطر
 ٧٩٧ إن شعنا أعطينكما ولا حظ فيها لغني
 ١٠٣٦ إن الشمس والقرآن آيات
 ١٠٤٥ أن الشمس لتدونا حتى يبلغ المرق نصف الأذن
 ٧٧٤ إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب النعم
 ٧٤٣ إن الشيطان قال : وعزتك يا رب
 ٤٩٣ إن الشيطان قد يمس أن يعبد
 ٦٣٨ ، ٦٥٤ إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه
 ١١٢ إن الشيطان يضع عرشه على الماء
 إن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر
 ٤٩٧ اسم الله عليه
 ٧٩٧ إن الصدقة لا تحمل حمد
 ١٧٦٣ إن طير الجنة كأمثال البخت
 ١٥٨ إن العالم يستغفر له كل شيء
 ١٩٨٩ ، ١٨٤٥ إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب
 ٣٣ أن عبدا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد
 ١١٤٥ إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة
 ١٩٦٠ إن العشر عشر الأضحي
 ١٥٤٤ إن غفريقا من الجن تفلت علي البارحة

- إنك إن اتبعت عورات الناس ١٦٩٧
 إنك لم تدع لنا شيئا ٤٣٠
 إنك لن تتفق نفقة تبني بها ٢٦٠
 إنكم تختصمون إلي ٤٤٦
 إنكم تدعون يوم القيامة مقدمًا ١٥٩٦
 إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ١٩٠٨
 إنكم سترون ربكم عيانًا ١٩٠٨
 إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ١١٤٥
 إنكم والله لا تؤمنون عندي ١٨٠١
 إنكم وليتم أمرا هلكت فيه الأمم ٦٣٦
 إنكم لا تدعون أمسا ولا غائبا ١٤٨١
 إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ١٣٩٩
 إنما الأعمال بالنيات ٥٠٠ ، ٤٤٠
 إنما أمروا بأدنى بقرة ٨٩
 إنما أنا لكم بمنزلة الوالد ١٤١٦
 إنما ينو هاشم وينو المطلب شيء واحد ٧٥٠
 إنما بنيت للمساجد لما بنيت له ١٢٥
 إنما جعل الإمام ليؤتم به ٢٤٠ ، ٢٢٠
 إنما جعل الطواف بالبيت ١٩٨
 إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون البئر ٧٥١
 إنما يخبرني الله تعالى فقال: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ٨١١
 إنما كان يكفيك ٤١٠
 إنما مثلي ومثلي ما بعثني الله به ٩٧٦
 إنما هلك من كان قبلكم بهلها ٢٧٨
 إنما هي توبة نبي ١٥٤٢
 إنه أوحى إلي أن تواضعوا ١٣٣٠
 إنه أوله ٨٢٤
 إنه مستفتح لكم مشارق الأرض ٧٨٣
 إنما سمعنا الله الأبرار لأنهم يروا ١٩٣٨
 إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم ٨٠٥
 إنه سيكون اختلاف ٧٥٩
 إنه سيكون قوم يعطرون في الماء ٦٧١
 إنه سينها ما تقول ١٣٦٧
 إنه طرا حلي حزبي ١٧٠٣
 إنه قد أذن لكن أن تخرجن ١٤٤٧
 إنه قد سن لكم معاذ ١٨٣
 إنه قد نعت إلى نفسي ٢٠١٨
 إنه كان معك ملك يرد عنك ١٦١٦
- إن المسلم إذا أتفق على أهله ٢٦٠
 إن المسلم إذا توجها فأحسن الوضوء ٨٩١
 إن مكة حرمها الله ١٢٦
 إن من إجلال الله إكرام ذي الشبية ١٧٥٧
 إن من البيان سحرا ١٥١٥ ، ١١٦
 أن ملكين يزلان من السماء صبيحة كل يوم ٢٠١
 إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ١٦١٣
 إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع
 المنتشر على مفرق رأسه ٢٠٣
 إن من ورثكم الكلاب المضل ١٧١٣
 إن الميت يحضره للملاكمة ٦٠
 إن موسى كان رجلا حكيما متورا ١٤٥٩
 إن ناركم هذه جزء من سبعين ١٩٧٢
 إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات ٢٠٠
 إن الناس أربعة والأعمال ستة ٦٤١
 إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا ٢٠١٩
 إن النبي ﷺ أمر من كل جانب عشرة أوسق ٦٢٩
 إن النبي جاءهم في صفة المهاجرين ٢٤٤
 إن الهدي الصالح والسمت الصالح ١٦٨٩
 إن هذا الأمر في قرعش ١٧٢٥
 إن هذا البلد حرمه الله ١٩٤٠
 إن هذا الرجوع والسقم رجز ٨٤
 إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم ٢٣٩
 إن هذه الصلاة عرضت على الذين
 من قبلكم فضيعوها ٢٣٤
 إن هذا الدين يسر ٨٣٣
 إن وسادك إذا عرض ١٧٧
 إن هذا البلد حرمه الله ١٩٠ ، ١٢٦
 ١٣٠٨ ، ٧٨٧
 إن هذه من غنائمكم ٧٤٨
 إن هذا السيف لا لك ولا لي ٧٢٣
 إن اليسير من الرياء شرك ١٣٩٨
 إن بين الله ملكي ٥٤١
 إن يعيش هذا لا يدركه الهرم ٧١٣
 إن اليهود اختلوا على اثنين وسبعين فرقة ٨٦٠
 إن اليهود افرقت على إحدى وسبعين ٨٩٠
 إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ١٩٩١
 إن اليهود مغضوب عليهم ٧٨٢

- ١١٤ إنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته
 ٧٤٢ إنه كان يقول في كتاب الله
 ٤٢٠ إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقاً عليه
 ٨٠ إنه ليس الذي تمنون
 ١٣٩٥ إنه ليس بذلك
 إنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى
 مثقال ذرة
 ٤٣٦ إنها حق فادرسوها
 ١٥٤٩ إنها ستكون هجرة بعد هجرة
 ١٣٦٢ إنها طيبة وإنها تنفي الجحش
 ٤٣١ إنها في ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين
 ١٩٨٨ إنها لن تراني
 ١٩٩٥ ، ١٠٣٢ إنها ما نسخ وأنسى
 ١١٩ أنهار الجنة تنجر من تحت تلال
 ١٩٥٨ أنهار الجنة تنجر من تحت تلال
 ٦٢ إنهم افرقوا على اثنين وسبعين فرقة
 ١٣٧٦ إنهم قوم خرجوا عصاة
 ٦٦٦ إنهم لا يحسدونا على شيء كما
 يحسدونا على يوم الجمعة
 ١٥٠ إنهما ليهذبان وما يهذبان في كبير
 ١٠٣٢ إني أخبرت عن غير أبي سفيان
 ٧٢٧ إني أرى صفه رسول الله
 ٣٣٩ إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون
 ١٩٠٤ إني أعرف كلمة لو قالها للذهب عنه
 ٧١٩ إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم
 ٤٢٦ إني تارك فيكم الثقليين
 ١٦١١ إني خلقت عبادي حنفاء
 ٦٨٢ ، ١٣٨٣ إني ذاكر لك أمراً
 ١٤٢٦ إني رأيت الجنة فتأولت منها حقوقاً
 ١٧٦٥ إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي
 ٨٤٣ إني سألت ربي ﷺ في الاستغفار لأمي
 ٨٢٤ إني عمداً فعلته يا عمر
 ٥٠٠ إني عند الله خاتم النبيين
 ١٢٧ ، ١٨٢٥ إني قد خيأت خيأاً فما هو
 ١٦٣٣ إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم
 ٧٦٢ إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة
 ١٧٦١ إني لأرجو أن لا تمجز أمتي
 ١٨٩٢ إني لأعرف حبيراً بمكة كان يسلم علي
 ٩٢ إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي
 ٧٩٨ إني مبتليكم بك ومنزل عليكم كتاباً
 ١٣٦٩ إني والله إن شاء لا أحلف على بين
 ٢١٢ إني والله ما أنا بشاعر
 ١٥١٣ إني لا أحل للمسجد لحافض
 ٤٠٧ إني لا أصافح النساء
 ١٨٢٠ إنيهم وجبريل معك
 ٩٩ أهدني النبي ﷺ مرة غفلاً
 ١٨٧ أوتخين ذلك
 ٣٨٣ أوتقوا إلي لمن دعوت ربي
 ١٦٠ أو غير ذلك يا عائشة
 ٧٠٩ أو في شك أنت يا ابن الخطاب
 ١٦٢٠ أو قتاله أنت إن أمرتك
 ١٨٣٧ أوفد الله على النار ألف سنة
 ٨١٠ أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر
 ١٧٦٧ ، ١٥٦٨ أول الحصص يوم القيامة جاران
 ١٥٥٨ أولي الناس يوم القيامة أكثرهم علي صلاة
 ١٤٥٢ أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في السماء
 ٤٣٥ أولفك أصحاب الأعراف
 ٦٦٦ أو ليس قد ابتحن منك
 ٢٦٩ أو مسلم
 ١٧٠١ ألا أبهتن معكم رجلاً أميناً
 ٢٩٨ ألا احتطت يا أبا بكر فإن يضع ما بين
 ١٣٧٧ ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة
 ٤٥٠ ألا أخبركم بخير الشهداء
 ٢٦٨ ألا إن أولياء الله المصلون
 ٢٩٣ ألا إن الزكاة في الحلق واللثة
 ٤٩٢ ألا إن الزمان قد استدار كهيئته
 ٧٨٦ ألا إن المسيلة الجلياع
 ٢٢٣ ألا إن القوة الرمي
 ٧٥٨ ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع
 ٢٦٤ ألا أتبيكم بأكثر الكيالي
 ٢٩٣ ألا أتبيكم بخير الثلاثة ؟
 ١٧٩٥ ألا أتبيكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكمكم
 ١٤٣٨ ألا إنما أنا بشر
 ١٨٨ ألا إلى أوتيت القرآن ومثله معه
 ١٤ ألا تخرجون مع راعيتي في إبله
 ٥٢٠ ألا تصفون كما تصف الملائكة
 ٧٢١ ، ١٥١٩

- أيا حاح إلى شيء كان موقوفاً معه ... ١٥٢١
 [حرف الباء]
 بايع رسول الله ﷺ النساء وعلى يده ثوب ١٨٢١
 يخ يخ ، ذلك مال رايح ... ٣٠٨
 بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول
 الله إلى هرقل ... ٢٩٩ ، ١١٣١
 بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله ... ٤٨٥
 بشر المشاكين إلى المساجد ... ١٢٥٥
 بشر هذه الأمة بالنساء والرفعة ... ١٢٦٣ ، ١٦٠٩
 بشروا ولا تنفروا ... ١٧٤ ، ٦٩٩ ، ١٢٠٥
 بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف ... ٨٠٤
 بعث إلى الأحمر والأسود ١٣ ، ١٢٠٧ ، ١٣٤٩
 بعث أناس الساعة كهاتين ... ٧١٣ ، ١٧٤١
 بعث بالحنيفية السمحة ... ١٨٦ ، ٢٧٣ ،
 ٦٩٩ ، ٨٢٣
 بعث بالسيف بين يدي الساعة حتى
 يبعث الله وحده ... ١٧٨٦
 بعث بين يدي الساعة بالسيف ... ١١٨
 بعث من خير قرون بني آدم ... ٦٢١
 بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ... ١٨٢٦
 بعثني أبو بكر في تلك الحجة في المؤذنين ... ٧٦٨
 بعثني أبو بكر فممن يؤذن ... ٧٦٨
 البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة ٦٣٦ ، ٦٥٢
 البقرة سنم القرآن وفروته ... ٤٣ ، ١٤٩٩
 بكمروا بالصلاة في يوم النجوم ... ٢٣٤
 البلاد بلاد الله والعباد عباد الله ... ١٣٧١
 بل أنا قاتله ... ٣٣٦
 بل أستاذ بهم ... ١٠٣٦
 بل تزلزل نزلته للحرب والمكينة ... ٧٣٢
 بل شيء قضى عليهم ... ١٩٧١
 بل هو من أهل الجنة ... ١٦٩٢
 بلغنا عني ولو آية وحشدوا عن ... ١٥
 بلى ... ١٦٩٢
 بلى ، فأخبرت أنك تأتئين عامك هذا ؟ ... ١٦٩٢
 بكم تحكم ؟ ... ١٦٩١
 بكم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة ... ١٩٥٧
 بني الإسلام على خمس ... ٤٨
 البيت قبله لأهل المسجد ... ١٥٢
 ألا رجل يضيف هذا الليلة ؟ ... ١٨٠٨
 ألا من مشمر إلى الجنة ... ٨٠٤
 ألا هل من مشمر للجنة ... ١٥١١
 ألا لا يحسن بعد العام مشرك ... ١١٣
 أي آية في كتاب الله أعظم ... ٢٤٤
 أي شيء يحبون أن أتيتكم به ... ١٠٩
 أي عم قل لا إله إلا الله ... ٨٢٣
 أي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح ... ١٦٧٣
 إياك وإسبال الإزار ... ٤٠٣
 إياك ومكر السيئ فإنه لا يحيق المكر السيئ ... ١٤٩٧
 إياكم والشح فإنه أمهلك من كان قبلكم ... ٤٠٤
 إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ... ٣٧٤ ،
 ١٠٣٠ ، ١٦٩٧ ، ١٧٣٥
 إياكم ومحقرات الذنوب ... ٩٦ ، ١٧٣٩
 إياكم وهاتان الكميتان ... ٩٠
 إياكم والدخول على النساء ... ١٤٢١
 أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله ... ١٨٩
 أيسففر الرجل لأبيه وهما مشركان ... ٨٢٣
 أيسفر أحدكم أن يقرأ تلك القرآن ... ٢٠٢٢
 أيكم مال وارثه أحب إليه ... ٣٢٦
 أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ... ١٨٩٩
 أيكم يباهي على ثلاث ... ٦٣٤
 أيكم يباهي على هؤلاء الثلاث ... ٦٣٧
 أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ... ١٨٢١
 أيما عبد تزوج بغير إذن مولاه ... ٣٨٧
 أيما مسلم أعتق رجلاً مسلماً ... ١٩٦٧
 أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة ... ١٥١
 أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء ... ١٩٤٢
 أيها الناس أربعوا على أنفسكم ... ٦٧٠
 أيها الناس إن الله طيب ... ١٦٢
 أيها الناس إنكم قد أسرعت في حظائر يهود ... ٩٨٣
 أيها الناس إنكم مسؤولون عني ... ٥٤٢ ، ٦٧٣
 أيها الناس تدرسون مثلي ومثلكم ... ١٤٨٠
 أيها الناس السكنة السكنة ... ١٩٤
 أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهويكم
 الشيطان ... ٤٧٨
 أيها الناس قد فرض عليكم الحج ... ٣١١
 أين السائل ... ١٨٦

تقطع يد السارق في ربع دينار ٥٢٥
تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ٧٦٥
تكفل الله للمجاهد في سبيله ٧٩٢
تلك امرأة يشهاها أصحابي ١٨٤٤
تلقى الأرض أنفلاذ أكبادها ١٩٩٣
تلك صلاة المنافق ٤٦٢
تلك عاجل بشرى المؤمن ٨٥٢
تلك المرأة لأربع : لملها ولحسبها ٢٠٩
توضأ ثم صل ٤٠٩
توضأ كما أمرك الله ٥٠١
توضع الموازين يوم القيامة ١١٥٨
توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي .. ٢٧٠

[حرف التاء]

لكلثة أمه - رجل قتل رجلاً ٤٣٥
ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفس إيمانها ... ٦٣٩
ثلاث أنقسم عليهن ٣٢٧
ثلاث جعلن جد وهزلهن جد ٢٢٤
ثلاثة حق على الله عونهم ١١٤٩
ثلاث في الناس كفر ١٤١٥
ثلاث لأزمات لأمتي ١٦٩٧
ثلاث من جاء بهن مع الإيمان ٢٠٢٣
ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان ١٧٧٦
ثلاث من قالهن لاعتيا أو غير لاهب ٢٢٤
ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً ٥٧
ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ٧٤٠
ثلاثة حق على الله عونهم .. ١٧٥٠ ، ٧١٨
ثلاثة لا ترد دعوتهم ١٧٦
ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ١٦٤
ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة . ١٦٤ ، ٢٥٣ ، ٣٩٤
ثلاثة لا يمتن : لله والكأ والنار ١٧٧١
ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم ٢٦٩
ثلاثة يضحك الله إليهم ١٨٢٤
ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين ٤٩ ، ٣٥٧ ، ١٣٤٩ ، ١٧٨٧
الثلث والثلث كثير ١٧٠
ثم رفع بي إلى البيت المعمور ١٧٢١
ثم يبعث الله إليك الملك ٧٠٩

[حرف الجيم]

جاء الحق وزهق الباطل ١٠٤٧

اليحان بالخيار ما لم يتفرقا ٣٩٢ ، ٤٨٦
يبدأ أنا نائم أطوف بالكمية ٤٧٣
يبدأ أيوب يقتل عربائاً ١٥٤٦
يبدأ رجل يجر إزاره إذ خسف به ١٣٥٣
يبدأ رجل يمشي فيمن كان قبلكم ١٠٣٠

[حرف التاء]

التاجر الصدوق الأمين مع الصديقين ... ٤٢٤
تبارك الذي أوحى سمعه كل شيء ١٧٨٩
تبايعوني على أن لا تشركوا ١٨٢١
تبعث كل نفس على ما كانت عليه ٦٥٩
تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء ١٤٩٣
تجيء الأعمال يوم القيامة ٣٠٦
تحتاج الجنة والنار ١٧٠٩ ، ٦١
تحب ذلك ؟ ٨٢٥
تحروا ليلة القدر في الوتر من المشر الأواخر ١٩٨٩
تحروها لإحدى عشر يمين ٧٥١
تحشرون حفاة عرلة غرلاً ١٩٣١
تحفرون صلاتكم مع صلاتهم ١٧٧٨
تخرج الزكاة من مالك إن كان ١٠٢٧
تزوجوا الودود الولود فإني مكال ٢٨١ ، ١٢٤٩
تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله ٧١٤
تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا ١٧٨
تسحرنا مع رسول الله ﷺ وكان النهار ١٧٨ ، ١٨٧
تسحروا فإن في السحور بركة ١٧٧
تشاروت قرين ليلة بمكة ٧٤١
تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ١٠٤٤
تصدق رجل من ديناره ١٨١١
تصدقوا عليه ٧٩٩
تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء ٩٧٩
تعلفوا الحفود ١٢٢٨
تسجلوا إلى الحج ٣١٢
تمس عبد الدينار تمس عبد الدرهم ١٦٦٥
تعلموا سورة البقرة وآل عمران ٤٤
تعلموا الفرائض وعلموه الناس ٣٧٠
تعلموا القرآن واتقوا ، فإن مثل القرآن ٤٣
تعوذ يا أيها فر من شياطين الإنس والجن ٦١٤
تعوذ بالله من شر هذا ٢٠٢٧
تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ١٧٣٨

الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات . ١٧٨٩
الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ... ١٥
الحمد لله رب العالمين أم القرآن . ٢١
الحقيقية السمحة . ٦٤٢

[حرف الحاء]

الحالة بمنزلة الأم . ١٤١٤ ، ٢٩٠
خذ بعض مالها وفارقها . ٢١٩
خذ الدية بآرك الله لك فيها . ٥٣٦
خلوا الشيطان . ١٣٠٨
خلوا عني ، خلوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلا . ٣٨٩
خلني من ماله بالمعروف . ١٨٢١
خرجت لأخبركم بيلة القدر . ١٩٨٩
خرجت من نكاح . ٨٣٣
خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا
خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا
قبل أن تنزل الزكاة . ٥٨٤
خفف على داود القرآن . ١٠٣٥
خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال ٦٦ ، ١٥٩٤
خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ . ١٦٦٩
خلقت الملائكة من نور . ٦٣٨ ، ٦٥٣ ، ١٧٥٠
خمس صلوات في اليوم والليلة . ١٨٩٨
خمس فواصق يقتل في الحل والحرم . ٦٣
خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان . ١٤٦٢
خيرًا . ٣٨٠
خيركم خيركم لأهله . ٣٧٩
خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه . ٤٠٢
خير بيت في المسلمين بيت فيه يقيم . ١٩٦٤
خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة . ٤٥٩
خير الصلوة ما كانت عن ظهر غنى . ٢٠٧
خير القرون قرني ثم الذين يلونهم . ١٧٦١
خير مال امرئ له مهرة مأمورة . ٢٨٢
خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله . ٣١٦ ، ١٧٠٠
خير نساء ركين الإبل . ٢٩١
خير نساءها مريم . ٢٩٢
خير يوم طلعت فيه الشمس . ٧٢
خيرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة . ٧٦٤
الحليل الثلاثة . ٧٥٨
الحليل الثلاثة : لرجل أجر . ١٩٩٤

جاءت الراجفة تتبعها الرادفة . ١٩٢٤
جاءني به جبريل من عند الله . ١٠٤٩
جاءت فاطمة بنت عتبة بتابع رسول الله ﷺ . ١٨٢١
الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة . ٢٥٧
جعل أبو عبيدة بن الجراح يمتع له الآلهة . ٧٧٦
جعل الله الآلهة مواثيت للناس . ١٨١
جعل الله الرحمة مائة جزء . ٦٤٥
جنبوا للمساجد صبيانكم . ١٢٥٤
الجنة مائة درجة . ١١٣٦
جنتان من ذهب آتيتهما . ٨٠٣
جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما . ١٩٠٨
جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما . ١٧٥٣
الجيران ثلاثة : جبار له حق واحد . ٤٠٢

[حرف الحاء]

حاج موسى آدم . ١١٤٤
حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى
وسماها صلاة العصر . ٢٣٣
حبب إلي النساء والطيب . ٢٨١
حبس الأصل وسبل الثمر . ٣٠٨
حبك الشيء يهني ويهضم . ١٠٢ ، ٦٩٤
حتى ثبرًا . ٥٣١
الحج عرفات - ثلاثا - فمن أدرك عرفة . ١٩٣
حجي واشترطي . ١٨٧
حد الساحر ضربة بالسيف . ١١٢
حدلوا عن بني إسرائيل ولا حرج . ٧١٦ ، ١٧٠٤
حدلوا عني ولا تكلبوا علي . ١١٥
الحرب عذبة . ١١٦
حزلك أئت حزلك أئي شئت . ٢١١
حرموا من الرضاة من يحرم من النسب . ١٤١٤
حسب امرئ من الشر إلا من عصم . ١٣٩٨
حسبنا الله ونعم الوكيل . ٣٤٨
الحسنی الجنة . ١٩٧٣
حق الله على كل مسلم أن يتخسل . ١٨٣٢
حق له أن يؤمن . ٢٧٣
حقًا عليه أن يدخله الجنة . ٨٠٣
الحلال ما أحل الله . ١٦٣
الحمد لله الذي جعلك يا بنية . ٢٩٠
الحمد لله الذي رزقني من الرأش . ٦٤١ ، ٦٥٧

- ٤٧٣ رأيت موسى وعيسى وإبراهيم
 ٣٣٦ رأيت يد طلحة شلاء
 ١٩٧١ رب أعط نفسي تقواها
 ٢٤٠ رب زد أممي
 ٢٦٢ الربا ثلاثة وسبعون بابا
 ١٩٦٠ رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة
 ١٩٩ ربح البيع صهيب
 ٧٢٥ رجلا من أممي جيشا بين يدي رب العزة
 ٣٣٣ رحم الله رجلا ردهم عنا
 ١٦٨٧ ، ١٨٦ رحم الله المخلقين
 ٨٨٢ رحمة الله على لوط لقد كان يؤتي إلى ركن شديد
 ١٨٢٥ ، ١٤٦٠ رحمة الله على موسى لقد أودى
 ٣٤٨ ردوا علي الرجل
 ٨٩٠ ردوه علي
 ٧٤٩ رغبت لكم عن غسالة الأيدي
 ١٥٢٨ رؤيا الأنبياء في المنام وحى
 ٨٥٢ الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن
 ٧٤ زوجكها بما ملك من القرآن
 ١٦٩٨ زينب ؟
 [حرف السين]
 ٨٢٣ السامعون هم الصالحون
 ١٠٥٠ سأل أهل الكتاب عن الروح
 ٥٩٣ سألت ربي ثلاثا
 ١٩٨٠ سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله
 ١٨١ سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة
 ٣٩٤ ، ١٩١ سباب المسلم فسوق
 ١٦٨١ سبحانه الله إن للموت لسكرات
 ٣٢٦ سبحانه الله ! فأين الليل
 سبحانه اللهم وبحمدهك وتبارك
 ٢٥ اسمك وتعالى جنتك
 ١٤٠٦ ، ٢٥٨ سبعة يظلمهم الله في ظله
 ١٧٥٢ سبق درهم مائة ألف
 ١٥٤٢ سيقك بها عكاشة
 ٢٧٧ ستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة
 ٤٥٣ سندوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب
 ٣٩٧ سلوا الله من فضله
 ١٠٤ سلوا عما شئتم
 ٧٥٨ الخيل معقود في نواصيها الخير
 [حرف الدال]
 ٤٨٨ الدال على الخير كفاحه
 ٤٨١ دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض
 ٢٠١٣ دخلت الجنة فإذا أنا بنهر
 ٤٣٢ دعوه ، ما تريد ؟
 ٢٦٢ دع ما يريك إلى ما لا يريك
 ٧٤٠ دعه فإنه قد شهد بدرا
 ١٨٣٦ دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه
 ١٧٧٨ دعوا لي صاحبي
 ١٨٢٦ ، ١٨٢٥ ، ١٤٤ دعوة أبي إبراهيم
 ٢١٧ دعي الصلاة أيام أقرئك
 ١٩٥٦ الدنيا دار من لا دار له
 الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له
 ١٧٣٥ ، ٢٠١
 ٢٨١ الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة
 ٤١٣ الدواوين عند الله ثلاثة
 [حرف الذال]
 ٢٧١ ذاك صريح الإيمان
 ٦١٧ ذبيحة المسلم حلال
 ١٢١ ذروني ما تركتكم
 ٣٥٧ ذروني أتبع لربي
 ٤٨٦ ذكاة الجنين ذكاة أمه
 ١٦٩٧ ، ١٤٥٧ ذكرك أعماك بما يكره
 ٨٠٦ ذكر لنا أن رجلا حضروا فوجدوا الدخان
 ٧١١ ذكر لنا أن نبي الله كان على الصفا
 ١٨٩٨ ذاك رجل بال الشيطان في أذنه
 ١٩٣٤ ذلك الراد الخفي وهو للموعدة معلت
 ٨٥١ الذين إذا رأوا ذكر الله
 [حرف الراء]
 ١٩٦٨ الراحمون يرحمهم الرحمن
 ١٧٣٠ رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته
 ٤١٠ رأيت رسول الله ﷺ يبول
 ١٦٠٩ رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه
 ١١٤٩ رأيت الليلة كأنما في دار عقبة
 ٧١٢ رأيت ليلة أسري بي كذا
 ٨٠٦ رأيت المسجد الذي بني ضرابا

- سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله . ٣٠٨
 سلوه عن الروح . ١٠٤٩
 السلام عليكم أهل البيت . ١٤٢١
 السمع والطاعة على المرء المسلم . ٤٢٠
 سمع الله أن حملة اللهم ربنا لك الحمد . ١٤٥٧
 سمعت أنين عبي العباس . ٧٦٣
 سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : فروح .
 وريحان . ١٧٤٧
 سموا أنتم وكلوا . ٦١٨
 سموا عليه أنتم وكلوا . ٦١٧
 سيد الاستغفار أن يقول العبد . ١٩٦
 سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالتندر . ١٧٢٠
 [حرف الشين]
 شأنكم بها . ٨١١
 شامت الوجوه . ٧٣٥
 شغلونا عن الصلاة الوسطى . ٢٣٣
 شفاعةي لأهل الكيثار من أمتي . ١٤٦٥
 الشهداء أربعة . ١٧٥٧
 الشهداء على بارق نهر . ٣٤٥
 شهدت حلف المطمين وأنا غلام . ٣٩٧
 شاهداً أحداً مع رسول الله . ٣٤٦
 الشهر تسع وعشرون . ٢١٤
 شهيداً عليهم ما دمت فيهم . ٤١٥
 شيتي هود والوالعة . ١٧٢٣
 [حرف الصاد]
 صبح أناس غيلة أحد . ٥٥٥
 صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم .
 فتنة . ١٨٤١
 صدق والذي بعثني بالحق . ٦٠١
 وصدقت ذلك من مدد السماء الثالثة . ٧٣١
 صدقت صدقت كيف يقدر الله قوماً . ١٥٩٦
 صدقة تصدق الله بها عليكم . ٤٤٢
 الصدقة على المسكين صدقة . ١٦٥ ، ٤٠١
 الصراط للمستقيم كتاب الله . ٣٧
 الصعيد الطيب طهور للمسلم . ٤١٠
 صفاؤه صفاء الله . ١٧٦٦
 صل قائماً فإن لم تستطع . ٩٧٧
 الصلاة خير موضوع . ٤٧٥
- الصلاة الصلاة وما ملكت . ٤٠٣
 الصلاة على وقتها . ٩٧ ، ٦٣٤
 صلاة في مسجد قباء كمرة . ٨٢٠
 الصلاة في وقتها . ١٢٠٨ ، ٢٣٢
 صلاة المرأة في بيتها أفضل . ١٢٥٦
 صلاة المنافق . ٢٠٢١
 الصلاة وما ملكت أيمانكم . ١٩١٣
 الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة . ١٢٢ ، ٨٩٠
 صلوا علي فإنها زكاة لكم . ١٤٥٢
 صلى الله عليك وعلى زوجك . ٣٠٨ ، ٨١٧
 الصرم نصف الصبر . ٧٧
 صيام رمضان كبه الله على الأمم . ١٧١
 [حرف الضاد]
 ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً . ٣٧ ، ٦٣٧
 ضربة للوجه والكفين . ٤١٠
 ضعه من حيث أخذته . ٧٢٤
 [حرف الطاء]
 طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان . ٢١٦
 الطوفان للموت . ٦٨٧
 طوفي من وراء الناس . ١٧٢١
 [حرف الظاء]
 الظلم ثلاثة . ٤١٣
 [حرف العين]
 العائد في هبته كالكلب بقيه ثم يعود . ١٦٩٨
 عادني رسول الله . ٣٧٠
 العار والتخزية تبلغ من ابن آدم . ٣٥٦
 العهد للمسلم إذا بلغ أربعين سنة . ١٦٥٠
 العج والنج . ٣١٢
 عجب ربك من قوم يقدون . ٢٤٨ ، ٣٠٦
 عجب ربنا من رجلين . ١٤٠٧
 عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء . ١٥٥ ، ٦٨١
 . ٨٣٨ ، ١٣٨٥
 عجبت من مجادلة العبد ربه . ١٥٩٥
 العجوة من الجنة . ٨٢
 العلل القلبية . ٧٨
 عدل يوم كميادة أربعين سنة . ٤١٩
 عرض علي الأنبياء فجمل النبي عمر . ٨٦٠

- ١٢٢٣ فاطمة بضعة مني يخطني
 ٦٥٩ فأما من كان من أهل الشقاوة
 ١٨٩٦ فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن
 ١١٦ فإن كل محدثة بدعة
 ١٨١٠ فينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً في السماء
 ١٨٧ القجر فجران
 ١٧٠ فخاركم في المجالية خباركم في الإسلام
 ٦٩١ فساح الجبل
 ٢٠١٠ ففضل الله قريش بسبع خلال
 ١٠٤٢ ففضل صلاة الجميع على صلاة الواحد
 ١٢٠٥ ففضلت سورة الحج بسجدة
 ١٤١١ ففضلت على الأنبياء بست
 ٤١٠ ، ٢٧٢ فضلنا على الناس بثلاث
 ١٥٣٥ ، ١٥١٩
 ٦٣٦ فطاشت السجلات
 ١٢٢ الفطرة خمس
 ١٠٤٣ فقلت : اللهم اغفر لأمي
 ١٩٨٣ فقلت ما أنا بقارئ
 ١٥٨٠ فلا أدري في أي القريتين أنا
 ١٠٢ فقل بمضكم ألحن بحجته
 ٤٩٧ فلملك تأكلون متفرقين
 ٤٣ فلمله قرأ سورة البقرة
 ١٩٤٠ الفلق جب في جهنم
 ١٧٣٠ فلم أر عبقراً يغري فريه
 ١٤٢ فلم لا أخذتم مسكها
 ٤٣٧ فليحق رقية
 ٦٥٩ فولاذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل
 ٨٠٦ في أصحاحي اثنا عشر مناقاً
 ١٥١ في الأنعام آيات محكمات
 ١٦٤٠ في الجنة بحر اللبن وبحر الماء
 ١٧٧ في المال حق سوى الزكاة
 ٦٥١ ، ٦٣٦ فيأتي المؤمن شاب حسن اللون
 ٧٢٣ فينا أصحاب بدر نزلت
 ١٤٠٨ فيها ما لا عين رأت
 [حرف القاف]
 ٧٢ قال آدم عليه السلام : أرايت يا رب
 ٣٧٧ ، ١٣٥ قال إبليس : يا رب وعزتك لا أزال
 ٢٥٩ قال رجل : لأصليكن الليلة بصدقة
 ٨٤٩ عرضت علي أمي البارة
 عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه
 ١٧٦٨ ، ٣١٧ الرهيط
 ٣١٧ عرضت علي الأنبياء الليلة بأمتها
 ٣٢٩ عرف الحق لأهله
 ١٣٣ عشر من الفطرة
 ١٨١٣ العظمة إزاري
 ١٧١ علمها بالألأ
 ٧١٣ علمها عند ربي
 ١٢٠ علي أفضنا وأنت أقرؤنا
 ١٨٠ علي رسلكما إنها صفية
 ٨٨٧ علي شيء قد فرغ منه يا عمر
 ١١٩٤ علي كل أهل بيت في كل عام أمباحة
 ٨٠١ علي هؤلاء الثفر
 ١٤٣١ ، ٨٢٩ عليكم بالصدق
 ١٧٤ عليكم برخصة الله التي رخص لكم
 ١٦٦٨ ، ٣٢٦ عليكم بلا إله إلا الله
 ٣٣٦ عليكم صاحبكم
 ١٨٦ عمرة في رمضان تعدل حجة
 ١٧٩٧ علام تشمتني أنت وفلان ؟
 ١١٤ العون حق
 [حرف الغين]
 ٣٣٤ غبت عن أول قتال النبي ﷺ
 ٦٨٧ غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات
 ١٨٣٢ غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم
 ٣٣٨ غشنا الناس ونحن في مصافنا
 ٤٥٢ غفر الله لك يا أبا بكر
 [حرف الفاء]
 ٢١ فاتحة الكتاب شفاء من كل سم
 ٢١٨ فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن
 ٤٧٩ فادخل علي ربي في داره
 ٩٠١ فإذا هو قد أعطي شطر الحسن
 ١٩٠٤ فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك
 ١٧٦٥ فإذا ورقها كأذان القيلة
 ٢٨٩ فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الحائلة
 ١٤٧٤ فأمجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله
 ٢٣٠ فإذا حلت فاذنني
 ١٢٢٣ فاطمة بضعة مني يبرئني

- قال الله : إذا تحدثت عبدي بأن يصلي حسنة ٢٧١
 قال الله : إني خلقت عبادي حنفاء ٧٩
 قال الله : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ٢٠٢٥
 قال الله تعالى : ابن آدم أتني تصجري ١٥١٦
 قال الله تعالى : أنا الرحمن ٣١ ، ١٦٦٩
 قال الله تعالى : أربع خصال واحدة منهن
 لي ١٥٨٥
 قال الله تعالى : شعثني ابن آدم ٩٨٧
 قال الله تعالى : يا آدم لا تمزج من أربع ركعات ٩٧٦
 قال الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعيادتي ١٧١٩
 قال الله ﷺ : أنفق أنفق عليك ٨٦٦
 قال الله ﷺ : كل يوم هو في شأن ١٧٥١
 قال الله ﷺ : يا ابن آدم إن ذكرتني ١٥٢
 قال الله : يا ملك الموت قبضت ولد
 عبدي ١٥٦
 قال جبريل : يا محمد عني ما شئت فذلك ميت ١٩٤٤
 قال ربكم أنا أهل أن أتقي ١٩٠٥
 قالت الملائكة : رب وذلك أن عبدك يريد ٢٧١
 فأتاهم الله لقد علموا أنها لم يستقيها ٤٩٣
 الثبر كقطع الليل المظلم ١٥٨٢
 قل العير لا ير بذنب ٥١٧
 القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها ١٤٦٢
 قد أتى الله عليكم في الطهور ٨٢١
 قد أفلح من أسلم ووزق كفافاً ١٤٧٩
 قد أمرني ربي بالمقاتلة فقاتلوا ٤٢٩
 قد بايعك ١٨٢٥
 قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك ١٩٨٦
 قد قد ٧٤٣
 قد كنت أنهلك عن حب يهود ٥٣
 قدمت حيد مرة إلى المدينة والرسول يخطب ١٨٣٣
 قدر الله المقادير ١٧٨٥
 قدم رسول الله للمدينة وليس ١٦٩٦
 قرصت نبياً من الأنبياء غلة فأمر بقربة
 النمل ١٣١٦
 قرأ رسول الله ﷺ سورة النجم ١٧٤٠
 قرأ رسول الله عام الفتح في مسيره سورة
 الفتح ١٦٧٣
 قرن يفتح فيه ٧٣ ، ١١٤٣
- قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ٣٥ ، ٢٢ ، ٢١
 قل أعوذ برب الفلق ٢٠٢٦
 قل : بسم الله وكل يمينك ٢٩
 قل : ربي الله ثم استقم ١٥٩٨
 قل : اللهم إني أسألك نفساً ١٩٦٥
 قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ١٤٥٩ ، ١٩٦
 قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ١٧٣٣
 قل : اللهم غارت النجوم وهذأت العيون ١٣٨١
 ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل لث القرآن ١٩٩٣
 قل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمؤمنين
 حين تمضي وحين تصبح ٢٠٢٣
 القلوب أربعة ، قلب أجود ٥٧
 قم فصل فإن الصلاة شفاء ١٢٥٣ ، ٧٧
 قم يا فلان ١٧٩٤
 القنطار اثنا عشر ألف أوقية ٢٨٢
 قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ١٦٦٥
 قولوا : اللهم صلى على محمد وعلى
 آل محمد ٨٨٠ ، ١٤٥٠
 قولني : اللهم إنك عفو تحب العفو ١٩٩٠
 قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ٧٦٠
 قوموا إلى سيدكم ١٤٢٥ ، ١٧٩٤
 قيام العيد من الليل ١٤٠٨
 قيني ١٦٩٨
 قيل ليني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً ٨٤
 قيل لي : أنت منهم ٩٠
 [حرف الكاف]
- كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ٢٠٢٤
 كان إذا دعا لرجل أمصابه وأصابته ولده ٨١٦
 كان إذا حزبه أمر صلى ١٥٣
 كان بين آدم ونوح عشرة قرون ١٠٢٤
 كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ١٢٠٧
 كان دلود ﷺ فيه خيرة شديدة ١٢٩٣
 كان الرجل منهم يأتي على الصخرة فيحملها ١٩٦٢
 كان رسول الله إذا تلا ﴿ غير المتشبه ﴾ ٤٠
 كان رسول الله إذا حزبه أمر صلى ٧٧
 كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من الصلاة
 يستغفر الله ثلاثاً ١٩٦
 كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي

- ١٢٥ الركعتين اللتين قبل الفجر
 ٧٤٨ كان رسول الله إذا بعث سرية
 ٣٧٥ كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي
 ٢٨ كان ﷺ لا يعرف فصل السورة
 ٢٨ كان رسول الله يقطع فرائه (بسم الله)
 ٢٩ كان رسول الله يفتح الصلاة بالتكبير
 ٤٠٩ كان رسول الله يوضأ ثم يقبل ثم يصلي
 ١١٨ كان رسول الله وأصحابه يفتون عن المشركين
 كان رسول الله يأمرني فأغسل رأسه
 ٢٠٩ وأنا حائض
 ٢٨ كان رسول الله يجهر بسم الله
 كان رسول الله كثيراً ما كان يحدث
 ١٩٥٩ من امرأة في الجاهلية
 ١٨٥١ كان رسول الله يحب الحلوى
 ١٨٧ كان رسول الله يدني إلي رأسه
 كان رسول الله يصلي على أثر
 ١١٨٦ كل صلاة مكتوبة ركعتين
 كان رسول الله يعالج من التنزيل
 ١٩٠٧ شدة
 ١٤٩ كان رسول الله يصلي نحو بيت المقدس
 كان رسول الله يصلي يوم الجمعة
 ١٨٣٤ قبل الخطبة
 كان رسول الله يقرأ عشر آيات
 ١٩٤ من سورة آل عمران
 ١٧٧٣ كان رسول الله يؤتى بالثمنمة
 ١٧٩٥ كان رسول الله يمسح مناكبنا
 ١٩٤ كان ﷺ يسير المتق فإذا
 ٤١٤ كان في بني إسرائيل رجلاً
 ١٩٤٨ كان فيمن كان قبلكم ملك
 ١٨٧ كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية
 ١٥٢ كان النبي إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس
 كان النبي بمكة فأنزل الله ﴿وما
 ٧٤٤ كان الله ليديهم
 ١٤٠٥ كان النبي يقرأ في الفجر يوم الجمعة السجدة
 ٦٧ كان النبي يحرس حتى نزلت هذه الآية
 ٨٦٦ كان في عمام ما تحته هواء
 ٣٨٢ كان فيما أنزل القرآن (عشر رضعات)
 ٧٩ كان هذا الراكب لياكم يربد
- ٨٢٠ كان يزور مسجد قباء راكباً ومشياً
 ١٨٧ كان يحتكب العشر الأواخر
 كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة
 ١٩١١ ﴿حم تنزيل﴾
 كان يقرأ في المشاء الآخرة بالسماء ذات
 ١٩٤٧ البروج
 ١٠٨ كان ينهى عن قيل وقال
 ٤٢٠ كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء
 ٧٠٣ كانت تأتيتهم يوم السبت فإذا كان المساء
 ١٥٨ كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة
 ٧٤٩ كانت صغية من الصفي
 ١٨٩٤ كانت قراءة رسول الله سناً
 ١٨٣٤ كانت للنبي عطلتان
 ٧٥١ كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان
 ١٢٥٧ كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر
 ٢٢٣ كأنك ترهبين أن ترجعي إلى رفاعه
 ١٨٨ كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت
 ١٦٤٤ كأني أراكم حائنين بالكوم دون جهنم
 ١٦٩٧، ٨٦ الكبير بطر الحق وغضب الناس
 ٦٦ كتب عليهم ألا يفر عشرون من مائتين
 ٣٠٢ كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية
 ١٥٨٢ كذبت يهود وهم على الله أكذب
 ٨٩٥ الكريم ابن الكريم ابن الكريم
 ١٥٦٤ كفارة الذنب النملة
 ٤٠٣ كفى بالمرء إلماً أن يحبس عن يملك قوتهم
 ٤٢٩ كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع
 ١٩٠٣، ١٤٨٥ كل ابن آدم يلى إلا عجب الذنب
 ٢٩١ كل ابن آدم يلقى الله بذنب يعلبه
 ١٩٧٥ كل أمي تدخل الجنة إلا من أوى
 ١٥٦٤ كل أهل النار يرى مقعده من الجنة
 ٦٦٥ كل أهل الجنة يرى مقعده من النار
 ٦٥٩ كل إناس يندو فبالع نفسه
 ٧٤٤ كل تقى
 كل حرف في القرآن ذكر فيه القنوت
 ١٣٨٢، ٢٩٢، ١١٦ فهر الطاعة
 ٤٣٦، ٤١٣ كل ذنب عسى الله أن يفرقه
 ١١٥٥ كل شيء خلق من ماء
 ١٨٩٨ كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خلتج

كيف أنتم وصاحب القرن قد اتقم القرن ... ١٦٠١
 كيف بهكم إذا نزل فيكم للمسيح ابن مريم ... ٤٦٩
 كيف تهلك ... ١٥٥٣
 كيف تيكم ... ١٢٣٤
 كيف يغلق قوم فعلموا هذا بنبيهم ... ٣٢٥

[حرف اللام]

لأعلمتك أعظم سورة في القرآن ... ٢٢
 لمن أنتم اتهم أذئاب البرق وتبايهم ... ١٣٦٣
 لمن فعل لأخلته الملائكة ... ١٩٨٤
 لمن كنت أقصرت الخطية ... ١٩٦٨
 لبنة ذهب ولينة فضة ... ٨٠٣
 لبيك وسعديك والخير في يديك ... ١٠٤٤
 لتأتين يوم القيامة بسبعمائة مخطومة ... ٢٥٢
 لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في حجر ثعلب ... ٨١٦
 لتأخذوا عني مناسككم ... ١٩٤ ، ١٥٧
 لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ... ٥٤٧
 لتصيح كل أم ما كانت تعبد ... ١٠٤٢ ، ٣٠
 لتركبن سنن من كان قبلكم ... ١٩٤٦
 لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم ... ٤٣٥
 للسائل حق وإن جاء على فرس ... ١٧٠٥ ، ١٦٦
 ... ١٧١٥
 للصائم عند إفطاره دهره مستجابة ... ١٧٦
 لملك قبلت أو لمست ... ٤٠٩
 لمن الله أكل الربا وموكله ... ٦٣٢ ، ٤٦٢
 لمن الله السارق يسرق ... ٣٨
 لمن الله الواشعات ... ١٨٠٥
 لمن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم ... ٢٦٢
 لعنت الحمر على عشرة أوجه ... ٥٥٤
 لغفوة في سبيل الله أو روضة خير من الدنيا ... ١٧٥٥
 للغر في اليمين هو كلام الرجل في بيته ... ٢١٤
 لقد أوتى هذا زمزما من مزامير آل داود ... ١٤٦٧
 لقد حجرت واسما ... ١٤٥١
 لقد خبت وعسرت إن لم أكن أعدل ... ٢٧٧ ، ٢٩٦
 لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من ...
 يسره الله عليه ... ٧٧ ، ١٤٠٨
 لقد سألت يا أبا هريرة ... ١٩٨٠
 لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد ... ١٦٩٣
 لقد عجب الله من فلان ... ١٨٠٨

كل عرفات موقف وارفعوا عن عرفات ... ١٩٥
 كل غلام مرتهم بعقيقته ... ٢٨٩
 كل مخمر غمر ... ٩٠
 كل مسكر غمر ... ٩٠
 كل للمسلم على المسلم حرام ... ١٦٩٨
 كل معروف صدقة ... ٢٠١٢
 كل من أحب أن يعبد من دون الله ... ١٦٢٧
 كل مولود يولد على الفطرة ... ٧٩ ، ٤٥١ ،
 ... ٦٥٩ ، ٦٨٢ ، ٧٥٥
 ... ٨٦٧ ، ١٩٤٤
 كل الناس يفسد فباع نفسه ... ١٩١١
 كلا يا عمر إنه سيأتي على الناس زمان ... ١٥٩٩
 الكلب الأسود شيطان ... ٢٧
 كلكم راح وكلكم مسقول عن رحمة ... ٦٥١
 كلكم مغفور إلا صاحب الجمل الأحمر ... ١٦٧٧
 كلعتان خفيفتان على اللسان ... ١١٥٨ ، ١٧٧٤
 كلوا الزيت وادهنوا ... ١٢١٢
 كلوا واشربوا والبسوا ... ١٣٤ ، ٦٦٠
 كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه ... ٤٨٦
 الكفاءة من لئن وماؤها شفاء ... ٨٢
 كما أنه لا يفتي من الشوك السب ... ١٦٤٣
 كم ينحرون كل يوم ... ٢٨٠
 كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء ... ٢٩٢ ، ١٨٣١
 كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار ... ١٨١١
 كنا نخبر أنهم أربعة عشر ... ٨٠٦
 كنا نخرج مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ... ١٨٥
 كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ... ١٠٣٢
 كنت أسقي أبا عبيدة وأبي ... ٩٠
 كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه ...
 رسول الله ﷺ ... ٧٦٦
 الكوثر نهر في الجنة ... ٢٠١٣
 الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... ٣٥
 كيف أصبحت يا حارث ... ٢٢٧
 كيف أتت صانع في يوم يقوم الناس فيه ... ١٩٣٩
 كيف أتت يا فلان ... ٣١٣
 كيف أنتم ورويع الجنة ... ٣١٨
 كيف أنتم وصاحب القرن قد اتقم القرن ... ١٦٩
 ... ١١٤٣ ، ١٧٠٧

أَمْرُهُ يَرْبِي الْفَلَكِي ﴿ ٢٠٢٦
 لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة ١٤٩٤
 لن يغلب عصر يسرين ١٩٨١
 لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة ٣٩٩
 لن يلع النار أحد على قبل ١١٤٧
 له أجران : أجر السر وأجر العلانية ... ٢٠١١
 لو اجتمعوا في مشورة ما خالفتموها ٣٤٠
 لو أدخلت ما في رجليها ١٨٤٨
 لو أن أحداً منكم إذا أراد أن يأتي أهله ... ٢٩ ، ٢١٣
 لو أن أحداً منكم يعمل في صخرة صماء ١٠٠ ، ٨٠٣
 ١٣٩٧ ، ١٦٨٩
 لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله ... ١٠٣٨
 لو أن حوراء تزقت في بحر لم يضر ١٦٣٩
 لو أن حلواً من ضئاق يهراق في الدنيا ١٥٤٨
 لو أن اليهود تمتموا لما روا ١٠٣
 لو أنكم تكونون على كل حال على الحال
 التي أنتم عليها ٣٢٨ ، ١٥٥٥
 لو تركته لكان لئام طاعوا ١٣٦ ، ١٣٩
 لو جاء العسر فدخل هذا البحر ١٩٨١
 لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ٤٢٠
 لو ذهبت إلى خراج لأجبت ١٤٤٨
 لو دنا مني لأخطفته للملائكة ١٩٨٤
 لو رحم الله من قوم نوح أحداً رحم أم العصى ٨٧٥
 لو شئت لأجرى الله مني جبال الذهب ١٢٧٤
 لو طمعت في فسخها لأجزأ عنك ٤٩٢
 لو فعل لأخلفته الملائكة حياتاً ٢٩٨ ، ١٨٣٠
 لو كان الإيمان عند الثريا لنا له رجال ١٨٣٠
 لو كان القرآن في إمام ما أحرقت النار ١٣٦٩
 لو كان محمد ﷺ كائناً شياً ٥٤٧
 لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة ١٦٢٤
 لو كنت أمراً أحداً بالسجود لأحد ٣٩٩
 لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم ٤٢٣
 لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ٣٤ ، ٦٤٣
 لو دعت أنها في قلب كل إنسان ١٨٥٨
 لولا أن الرسل لا تقتل ٧٧١
 لولا أن قمركم حديث عهد بجاهلية ١٢٦ ، ١٤٠
 ليلفن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ٧٨٣
 ليحجن البيت وليحمرن بعد خروج يأجوج ١٤٣

لقد قلت كلمة لو مزجت ١٦٩٨
 لقد كان تنورنا وتنور النبي واحد ١٧١٠
 لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت .. ٥٩١
 لقد هممت أن أنهي عن القبلة ١٩٣٣
 لقد هممت أن لا أقبل هدنة إلا من قرشي ٨١٤
 لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى ٤٧٠
 لك كنا وكلنا ١٨٠٥
 لكني أصوم وأفطر ٥٤٩
 لكل نبي حوارى وحواري الزبير ٢٩٥
 لكل نبي رهبانية ١٧٨٧
 لكل شيء منام ومنام القرآن سورة البقرة ٢٤٥
 لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه ٦١٧
 للجنة أقرب إلى أحدكم ٧٥٨
 لم تحمل الفئام لسود الرؤوس غيرنا ٦٦٢
 لم يهزؤ للصود عثلتها ١١٨
 لم يبق أحد غيرك ٨٠٨
 لما أنزل الله ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ ٦٣٦
 لما تجلى الله للجبال طارت لمظلمته ٦٩١
 لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ٥٣٦
 لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين ٨٧٤
 لما خلق الله آدم مسح ظهره ١٧٢ ، ٧٠٦
 لما خلق الله الأرض جعلت تمهد لخلق الجبال ٢٥٨
 لما خلق الله الخلق كتب في كتاب ٦٣٤
 لما خلق الله الأرض وجعلت تمهد ١٩٢٦
 لما سار رسول ﷺ محمراً ١٨٤
 لما هرج بي مروت يقوم لهم أطفال ١٦٩٨
 لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الله ٨٥٩
 لما قدم رسول الله من جمع نساء الأنصار ١٨٢٢
 لما قدم النبي ﷺ للمدينة كانوا أخبث الناس
 كيلاً ١٩٣٩
 لما كان يوم أحد من العام للمقبل عوقبوا ٣٤٣
 لما كان يوم أحد هزم للمشركون ٣٣٤
 لما نزلت آية الصدقة كنا ٧٩
 لما نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون ٧٦١
 لما وقعت بنو إسرائيل في المصامي ٥٤٦
 لما ولدت حوراء طاف بها إبليس ٧١٥
 لن نقرأ شيئاً أنفع عند الله من ﴿ قل

- ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم ١٣٨٦
 ما بال أقوام يتناولون الذرية ٧٦
 ما بال أقوام يقول أحسنهم كلها وكلها ٨٧
 ما بال دعوى الجاهلية ١٨٣٦
 ما بال العامل نبهته على عمل ١٦٠
 ما بالهم وبال الكلب اقتلوا منها ٤٩٦
 ما بضع سنين عندكم ١٣٧٧
 ما بقي شيء يقرب من الجنة ٨٣٤
 ما بي ما تقولون ١٠٥٠
 ما بين المشرق والمغرب قبلة ١١٤
 ما بين النفتختين أربعون ١٥٦٧
 ما تجرع حيد من جرعة أفضل أجراً ١٣٥
 ما ترى ديناراً ؟ ١٧٩٧
 ما ترك القتال على المقتول ٥١٧
 ما تركت بعدي فتنة أضمر على الرجال .. ٢٨١
 ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ٥٢٨
 ما تقول أو قد قالوها ٨٨٣
 ما تقولون في الزنا ٤٠٢
 ما تكلم أحد في صبره إلا ٢٩٣
 ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ١٤٥٣
 ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه ١٨٠
 ما حملك على ذلك ١٦١٥ ، ٨٠٠
 ما حملك على ما صنعت ١٨٩
 ما خالطت الصدقة مالاً ٣٦٩
 ما خلقت وزليك لأهلك يا عمر ٢٥٨
 ما خلأت القصور ٢٠٠٩
 ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم ٧٩٠
 ما روي إيليس يوثا هو فيه أصغر ٧٥٥
 ما زال جبريل يوصيني بالجار ٤٠٢
 ما زالت أكلة خبير تماودني ١٠٠
 ما السموات السبع في الكرسي ٢٤٧
 ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم ٨٣٠
 ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه ١٦٢٨
 ما على أحدكم إن وجد سعة ١٨٣٢
 ما عندكم يا ثمانية ١٦٦٤
 ما فتح على عاد من الربيع إلا مثل موضع
 الحاتم ١٦٥٤
 ما فعل كعب بن مالك ٨٢٦
- ليدخل الجنة بشفاقة رجل ليس نبي مثل الحسن ١٧٢٩
 ليس بالكذاب من يتم خيراً ١١٦
 ليس ذاك الكبير إنما الكبير ١٣٧١
 ليس الشديد بالصرعة ٣٢٦
 ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة ١٠٣٤
 ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه ١٠٢٠
 ليس الفجر المستطيل في الأفق ١٧٨
 ليس الكلاب الذي يصلح بين الناس ٤٤٩
 ليس لنا مثل السوء العائد في هبته
 كالكلب ١٣٩٧ ، ٧٠٩
 ليس المسكين بالطولف الذي ترد ١٦٦ ، ٦٠
 ١٧١٥ ، ٧٩٧
 ليس المسكين الذي ترد الثمرة والتمرثان ٢٥٩
 ليس من البر الصيام في السفر ١٧٤
 ليس من قرس عربي إلا يؤخذ له ٢٨٢
 ليس من ليلة إلا البحر يشرف فيها
 ثلاث مرات ١٧٢٢
 ليس منا من شرب الخلود ١٧٩٦
 ليتبهون رجال أو لأحرقن بيوتهم ٢٣٣
- [حرف الميم]
- ما أبالي ما أوتيت إن أنا شربت تريباً ١٥١٤
 ما أبقيت لأهلك ١٨٠٧
 ما أجلسكما ههنا ٢٠٠٩
 ما أحب أبي حكيت إنساناً ١٦٩٨
 ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أتاه الله ١٥٨٢
 ما إنشاله سرق ٥٢٦
 ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً ٤٧
 ما شأنكم ٤٧١
 ما اصطفى الله للملكة ٦٨
 ما أصبر من استغفر ١٣٧
 ما أطعمته إذا كان جائعاً ١٧٢
 ما أطيبك وأطيب ريحك ١٦٩٧
 ما أعماركم في أعمار من معنى ١٧٤١
 ما انتقم رسول الله لنفسه قط ١٦١٤
 ما أنزل الله علي فيهما شيئاً ٧٥٨
 ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ٢٢
 ما أنعم الله على عبده نعمة ٣٣
 ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ٤٩٢ ، ٤٩٠

- ما من مسلم يدعو الله بدعوة ١٨٦
 ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي ٨٤٧
 ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا ٨٤٣
 ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يزوران ١٠٣٠
 ما متلك أن تأتي ٧٣٧
 ما منكم من أحد يوضأ فيبلغ أو يفسخ ١٥٦٩ ، ١٥٤٣
 ما منكم من أحد يقرب وضوءه ثم يمتضمض ٥٠٤
 ما للمسؤول عنها بأعلم من السائل ١٦٠٢ ، ١٣٠٥
 ما هذا الصوم ٨٧٥
 ما هذا الطهور الذي أتى الله عليكم ٨٢٠
 ما هذا اليوم الذي تصومون ٨٠٩ ، ٨٠
 ما هذا يا جبريل ٧١٧
 ما هذان النهران يا جبريل ١٠١٣
 ما هذه الروح الحبيطة ٦٦٢
 ما هذه ؟ هذه الجمعة ١٧١٠
 ما نقص مال من صدقة ٤٦٤ ، ٤٦٣٠
 ما هلك قوم حتى يعلنوا من أنفسهم ٦٥١
 ما يسرني أن عندي مثل أحد ٧٨٦
 ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ٥٤
 ما ينقم ابن جميل إلا أن كان قتيلاً ٥٩ ، ٨٠٦
 مالي أراك قد جهدت جهداً شديداً ١٨٣
 مالي أراكم سكوناً ١٦٥٩
 مالي فيه مثل ما لأحدكم ١٦٠
 ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل ٦٣
 للمتضرع ٨٢٤
 مثل البخيل والمتفق كمثل رجلين عليهما ١٠٢٩
 مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب ١٧٠٧ ، ١٨٣١
 مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم ٩٠
 مثل ما يحشي الله به من العلم ٦٧٢
 مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ٩٨ ، ٨٠٢
 ١٦٨٩ ، ١٦٩٦
 مثل للمسلمين واليهود والنصارى كمثل
 رجل استعمل قوماً ١٧٨٨
 مثل الملوك على الأسرة ٣٥
 مثل للشافق كمثل ثاغية بين غنمين ٤٦٢
 مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً ١٤٢٧
 مثلي ومثل الساعة كهاتين ١٧٣٩
 محمد وأمه هم الشاهدون ٨٣
 ما فوق الإزار والتفتف عن ذلك أنفضل ٢١٠
 ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب ١٧٦٥
 ما في السماوات السبع موضع قدم
 ولا شبر ولا كف إلا فيه ملك ١٩٠٤
 ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد ١٧٠٣
 ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به ٣٩٧
 ما الكرسي في العرش إلا كحلقه ٢٤٧
 ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب ١٦١٨
 ما للمسؤول عنها بأعلم علم من
 السائل ١٩٢٧ ، ١٩٩٠
 ما معك يا فلان ٤٣
 ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ٦٦٠
 ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ١٣٩٠
 ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ١٦٣٠
 ما من إمام يموت وهو غاش لرحيته ١٥٧٩
 ما من امرئ مسلم يئزل أمراً ١٦٩٩
 ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه ١٣٨٩
 ما من امرئ مسلم يركب ذابة فيصنع ١٧٢٠
 ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله
 فيهن من هذه الأيام ١٩٦٠
 ما من ثلاثة في قرية ١٧٩٨
 ما من خارج يخرج إلا يباه رايان ١٩١١
 ما من ذنب أحرى أن يمسجل الله عقوبته ٨٤٢ ، ١٦٦٩
 ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ١٣٩٩
 ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله ٧٨٥
 ما من رجل يذنب ذنباً فيعرض ١٣٥
 ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف ٢٥٣
 ما من عبد إلا وله في السماء بابان ١٦٣٦
 ما من عبد تصيبه مصيبة ١٥٦
 ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا ١٠٢٥
 ما من مسلم يذنب ذنباً فيعرض ٤٤٨ ، ٨٨٨
 ما من مسلم يشاك شوكه فما فوقها ٦٣
 ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به ١٤١٦
 ما من مولود يولد إلا على الفطرة ١٣٨٥
 ما من مولود يولد إلا معه الشيطان ٢٨٩
 ما من نبي إلى وقد أوتي من الآيات ١١٤٧ ، ١٤٢١
 ما من نبي يمرض إلا خير ٤٢٤
 ما من نفس تموت لها عند الله ١٦٩

- المرء مع من أحب ٤٢٤ ، ٧٦٦
 مر ملا من قريش على رسول الله ٥٠
 المستبان ما قال : صلى اليادئ منهما ٤٦٣
 المسجد الحرام .. بيت المقدس ١٣٢
 المسلم أعز المسلم لا يظلمه : ١٠٣٦ ، ١٦٩٧
 المسلم يكفيه اسمه ١٢٠
 المسلمون تتكافأ دماؤهم ٥٣٠
 المسلمون شركاء في ثلاثة : الماء ١٧٧١
 مسروون بالذهب والفضة ١٤٩٣
 مع كل إنسان ملك إذا نام ٦٠
 معاذ الله أن نعيد غير الله ٣٠٤
 معلمين ، وكان سببا للملاكمة يوم بدر ٣٢٤
 مفاتيح الغيب خمس ٥٥
 المقسطون على منابر من نور ١٨١٧
 المقسطون عند الله على منابر من نور ١٦٩٥ ، ١٧٤٧
 مكتوب بين عينيه كافر ١٣٧١
 ملعون من سب والديه ١٠٨
 من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة ٤٢٩ ، ٨٠٣
 من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ١٣٣
 من أتى حائضا أو امرأة في دبرها ٢١٧
 من أتى عرفا أو كاهنا فقد كفر ١٠٢
 من أحب أن يوحح عن النار ويدخل
 الجنة ١٨٥ ، ٣١٣
 من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل
 على الله ١٥٦٠
 من أحب بشيء من جسده فكره ٤٥
 من أحب دنياه ضربه بآخرته ١٩٥٦
 من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ١٧٧٤
 من احتكر على المسلمين طعامهم
 ضربه الله بالإفلاس ٢٦٣
 من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ٤٦١
 من أحسن في الإسلام لم يؤخذ بما عمل ٧٤٦
 من أذنب ذنبا في الدنيا فعوقب ٥٢٢
 من أراد أن تستجاب دعوه ٢٦٥
 من أراد أن يتم على فراشه فنام على يمينه
 ثم قرأ ٢٠٢٣
 من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة
 فليظفر ١٥٣
- من أرسل بنفقة في سبيل الله ٢٥٢
 من استبج في أهله يمين فهو أعظم إثما ٢١٣
 من استجد ثوبا فليس ٦٥٧
 من استصف أعفه الله ٢٥٩
 من استمع إلى آية من كتاب الله ٧٢١
 من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ١٣٤٩
 من أسلف فليسلف في كيل موزون ٢٦٦
 من أصاب منه من حاجة ١٧٢
 من أصابه فاقة فأنزلها بالناس ١٠٢٥
 من أصبح متكم معافى في جسده أمنا
 في سره ٥١٢
 من أصيب بقتل أو خيل ١٧٩
 من أطاعني فقد أطاع الله ٤٢١ ، ٤٢٨
 من أغان باطلا ليدحض به حقًا ١٥٧٢
 من أغان على قتل المسلم ولو بشطر كلمة ٤٣٥
 من أغان مجاهدا في سبيل الله ٢٦٥
 من أحقر رقبة مسلمة فهي فتاؤه ١٠٢٦ ، ١٩٦٧
 من أعطي فشكر ومنع فصبر ٨٣
 من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ١٨٣٢
 من اغتسل يوم الجمعة ومس الطيب ١٨٣٢
 من أغلق بابا فهو آمن ١٩٠
 من أفضل أيامكم يوم الجمعة ١٤٥٤
 من أكبر الكيالي أن يلعن الرجل والديه ٣٩٤
 من أنا ... أنا محمد بن عبد الله ١٢٤
 من انتسب إلى تسعة آباء كفار ٤٦٠
 من أنظر معسرا فله بكل مثله صدقة ١٣٥ ، ٢٦٥
 من أنعم الله عليه نعمة ١٥٢
 من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله ١٥٦٩
 من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله ٢٥٢
 من بلغ ذا سلطان حاجة ١٦٦٥
 من بني مسجدا يتني به وجهه الله ١٢٥٤
 من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله ١٧٢٧
 من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ١٨٣٠
 من تواضع لله رفعه الله ١٠٣٠
 من توضع على طهر كتب الله له به عشر ٥٠٠
 من توضع فليستشق ٥٠١
 من توضع نحو وضوئي هذا ٥٠٢
 من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم ٦٨

- من جامع للمشرك ٤٤٠ ، ٧٦٦
 من جر لويه خيلاء لم ينظر الله إليه .. ١٣٩٩
 من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه .. ١٧٢٧
 من جمع بين صلاتين من غير عذر ٣٩٤
 من حدثك أن محمداً كتم شيئاً ٦٧
 من حلف بالأمانة فليس منا ١٤٦٣
 من حلف على يمين كاذبة ٣٠٣
 من حمى مؤمناً من منافق يختابه ١٦٩٩
 من يخاف أدلج ومن أدلج بلغ ١٧٥٥
 من خرج من بيته مجاهد في سبيل الله ٤٤١
 من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ٤٢٠
 من دعى على من ظلمه فقد انتصر ١٦١٦
 من دعى إلى هدى كان له من الأجر ٤٨٨ ، ٩٨٦
 ١٣٦١ ، ١٧٣٨
 من ذبح قبل أن يصلي فليدبح ١٢٠
 من رأى منكم منكراً فليغيره ٧٩ ، ٣١٥
 من رأى من أمره شيء فكرهه فليصبر .. ٤٢٠
 من رأى من يميل عمل قوم لوط ٣٧٦
 من رجل يؤذني ؟ ١٨٢٧
 من رمى بسهم فله أجره ٤٣٩
 من رجل يؤذني حتى أبلغ كلام ربي ٢٩٤
 من سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف ٢٦٠
 من سأل وله ما يغنيه جاءت مسأته ٢٦٠
 من سئل عن علم فكتمه ١٨ ، ١٥٩ ، ١٨٧
 من ستر عورة مؤمن فكأنما ١٦٩٧
 من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ٢٦٤
 من سره أن ينظر إلى يوم القيامة ١٩٣٢
 من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ١٤٨٣
 من سمع سمع الله به ومن رآه رآه الله به ٤٦١
 من سمع الناس يلمن سمع الله به ٢٠١١
 من سن في الإسلام سنة حسنة ١٥٠١
 من سبكم ٧٩٤
 من شهد أن لا إله إلا الله ٤٧٩
 من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الألبان ١٩٥٥
 من شهد الجنازة حتى تصلي عليها ٨١١
 من صام ثلاث أيام من كل شهر ١٦٠
 من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن ٢٣
 من صلى صلاتنا ونسك نسكتنا ٢٠١٤
 من صنع كذا وكذا ٧٧٣
 من ضم يميناً من أبوين مسلمين ١٠٢٦
 من ظلم قيد شبر من الأرض طوفه ١٨٤٩
 من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب ٩٧
 من عبد الله لا يشرك به شيئاً ٢٩٣
 من غسل واغتسل يوم الجمعة ١٨٣٢
 من عقد عقدة ونفت فيها ١٠٢
 من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ١١١ ، ٢٨٨
 من فاتته صلاة العصر فكأنما ٢٣٤
 من فارق الدنيا على الإخلاص لله ٧٧٢
 من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ١٩٠ ، ٧٤٦
 ٧٩١
 من قال اللهم فاطر السماوات والأرض ١٥٦١
 من قال حين يسمع النداء : اللهم رب
 هذه الدعوة ١٠٤٣
 من قال حين يصبح : أعوذ بالله السميع ١٨١٣
 من قال : سبحان الله العظيم ١٧٧٤
 من قال علي ما لم يقل فليبرأ مقعده ٩
 من قال في القرآن برأيه ١٧
 من قال فيمن سمع النداء اللهم رب هذه الدعوة ٥٢٣
 من قال : لا إله إلا الله واستأجلاً ٢٠٢٣
 من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ١٩٨٦
 من قتل عبده قتلناه ١٧٨
 من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده ٣٩٢
 من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن ١٥٧١
 من قرأ ألف آية في سبيل الله ٤٢٤
 من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ٢٧٢
 من قرأ بآية آية في ليلة كعب له قنوت ليلة ١٥٥٤
 من قرأ حم الدخان في ليلة ١٦٣٣
 من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى
 يخضبها ٢٠٢٣
 من قرأ منكم باليتين والزيتون ١٩١٠
 من كل الليل قد أوتى رسول الله ٢٨٣
 من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له ١٤٩٩
 من قسدت منكن في بيتها ١٤٢٨
 من القوم ٧٣
 من كان عنده من هذه الخمر شيء ٩٤
 من كان له إمام قراه الإمام له قراءة ٢٤ ، ٤١ ، ٧٢١

- من كان معه هدي فليهل بهج وعمرة . ١٨٦
 من كان منكم أهدى فإنه لا يهل شيء عظم . ١٨٩
 من كان بعيداً محمداً فإن محمداً قد مات . ١٤٤
 من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة . ٤٦١
 من كانت له امرأتان فمال إلى أحدهما . ٤٥٧
 من كنتم علماً يعلمه أجمع يوم القيامة . ٢٦٨
 من كثرت صلاته بالليل . ١٦٨٩
 من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده . ١٠٢
 من كسر أو وجع أو عرج فقد حل . ١٨٧
 من كف غضبه كف الله عنه عذابه . ١٣٣
 من ليس لحرر في الدنيا . ١٤٩٣
 من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً . ٨٧٨
 من لعب بالرد قد عصى الله . ٩٠ ، ٤٨٩
 من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر . ١٣٦٨
 من لم يحمده الله على ما عمل من عمل صالح . ٦٧٠
 من لم يدع الله غضب عليه . ١٥٨٦
 من لم يسأل الله بغضب عليه . ٣١
 من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم . ١٨٥
 من لم يؤثر فليس منا . ١٨٩٨
 من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . ١٥١
 من محمد رسول الله إلى بني زهير . ٧٤٩
 من ملك ذا رحم محرّم حق عليه . ٢٢٧
 من نذر أن يعطي الله فليطعمه . ١٩١٢
 من نزل به حاجة فأنزلها بالناس . ١٨٤٦
 من نوقش الحساب عذب . ١٩٤٤
 من هم بصحة فلم يعملها . ١٦٠
 من هم بصحة فلم يعملها . ١٠٨
 من وجدتم في متاعه غلوا فأحرقوه . ١٦٠
 من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط . ٦٧٩ ، ٨١٨
 من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام . ١٩٦٧
 من ولي لنا عملاً وليس له منزل . ١٦٠
 من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة . ٨٠٨
 من يدخل الجنة يتم لا يأس . ١٤٠٨
 من يرد الله به غيراً يفقهه في الدين . ٤١٥
 من يعط الله ورسوله فقد رشد . ٤٢٨
 من يحمل سوفاً في الدنيا يجر به . ٤٥٣
 من يقوم فينظر لنا ما فعل القوم . ١٤١٩
- منعت الزكاة وأردت قتل رسولي . ١٦٩٤
 منهومان لا يشيعان . ١٩٣٤
 مهلاً يا قوم بهذا أهلكتم الأمم . ٤٢٨
 المؤمن إذا عمل حسنة سرته . ١٧٧
 المؤمن الذي يخاطب الناس ويصبر على أذاهم . ٤٨٨
 المؤمن القوي خير وأحب إلى الله . ١٧٧٨
 المؤمن للمؤمن كالبنيان . ٨٠٢ ، ١٦٨٩
 المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزء . ١٧٠١
 موت الفجأة رحمة للمؤمنين . ٦٨١
 موضع سوط في سبيل الله . ١٧٨٤
 موضع سوط من الجنة خير . ١٨٥
- [حرف الثون]
- نار بني آدم التي توقدت جزء . ١٩٩٨
 نار بني آدم التي توقدت جزء من سبعين . ٨٠٨ ، ١٧٧٠
 ناولني كفاً من تراب . ٧٧٨
 ناوليني الحمرة من المسجد . ٤٠٧
 نحن أحق بالشك من إبراهيم . ٢٥١
 نحن الآخرون السابقون يوم القيامة . ٢٠٢ ، ٢١٣
 نحن أعلم بهذه الآية منكم . ١٩٥
 نحن معاشر الأنبياء أولاد علات . ١٣٣ ، ١٥٩
 نحن معاشر الأنبياء لا نورث . ٣١٥ ، ٨٥٤
 نحن يوم القيامة على كرم فوق الناس . ٨٤٥
 نزل القرآن على سبعة أحرف . ٢٧٨
 نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر . ٧٣٢
 نزلت في أناس من أمي يكونون في آخر الزمان . ١٧٤٦
 نزلت في المحابين في الله . ٧٦٠
 نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ . ٨٢٠
 نساء عجائز كن في الدنيا عمشاً رمضاً . ١٧٦٦
 نسمة للمؤمن طائر يعلق في شجر الجنة . ١٦٩
 نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم . ٧٧٩
 نصرنا بالصبا وأهلكنا عاد بالدير . ١٤١٨ ، ١٧١٧
 نظرت إلى الجنة فإذا الرمان . ١٧٥٦
 نعم صبيحاً لا ينفذ أحمر وأصفر . ١٤٩٠
 نعم صلي أمك . ١٨١٧

هل تسمعون ما أسمع ٨٢٥
 هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب ٧٣
 هل عندك غنى ينيك ؟ ٤٩٥
 هل عندك من شيء تصدقها ١٤٤٢
 هل قرأ أحد منكم معي آتفا ٧٢٠
 هل لك إلى بيعة ولك الجنة ٥٣٧
 هل لك مال ؟ ٨٥٠
 هل لك يا جد العام في جلد بني الأصفر ٧٩٤
 هل لي لوتفا ١٤٢
 هم لوتواكم خولكم ٤٠٣
 هما في النار ١٧٢٣
 هو أبو جهل ابن هشام ٧٤٣
 هو حبل الله للتين ٣١٤
 هو الطهور ماؤه الحل ميتته ١٦٢ ، ٤٨٩
 هو مسجدي هذا ٨٢١
 هو للمقام الذي أشفع لأمتي ١٠٤٦
 هي رؤيا عين أراها رسول الله ١٠١٧
 هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل ٨٥٢
 هي الشفاعة ١٠٤٦

[حرف الواو]

وأمركم بأربع وأنهاكم عن أربع ٧٤٩
 واتقوا الله في النساء ٤٠٠
 واستوصوا بالنساء خيرا ٣٨٠
 واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ١٧٤٦
 واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة ٦٦٥
 وافقت ربي في ثلاث ١٣٥
 وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ ٨١٤
 وإن ربي أمرني أن أعلمكم ٥١١
 وإن رغم أنف أبي الدرداء ١٧٥٣
 وأنا أقول ذلك ١٥٠١
 وإنا لن نتفق نفقة ٨٦٥
 والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض ١٧٠٩
 والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ٣١٥ ، ٧٣٨
 والذي نفسي بيده لتبين سنن الذين قبلكم ٨٠١
 والذي نفسي بيده لتبينهم ٨٠١
 والذي نفسي بيده لوتأبىن حتى لم يبق ١٧٧٥
 منكم أحد ١٨٣٣
 والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ٤٦٩

نعم عذاب القبر حق ١٥٨٢
 نعم قولوا اللهم استر عورتنا ١٤٢٠
 نعم كيف قلت ؟ إن قال أرايت إن قلت ١٩٥
 نعم ليكرن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي ١٥٥٨
 نعم حقه ٤٠٥
 نعم هو في ضحضاح من نار ١٧٦٦
 نعم وعامة عشيرتك ١٧٧٩ ، ٢٣٩
 نعم يا جبريل بم نال هذه المنزلة ٢٠٢٣
 نعم يبيت الله تعالى ثم يهتك ١٥١٦
 نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ٢٠٠٢
 نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ١٧٧٢
 نهى أن يعطى الرجل أهله ١٩٥٢
 نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل ٩٨٠
 نهى رسول الله عن كسر سكة المسلمين ١٣٢٥
 نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة ١٧٦٤
 نهين أن نسال رسول الله ﷺ عن شيء ١٠٨
 نور أنى أراه ١٧٣١

[حرف الهاء]

هذا أمر قد توجه ٣٥٣
 هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ٧١٣
 هذا جبل يحبنا ونحبه ٩٢ ، ١٣٨
 هذا سبيل الله مستقيما ٦٣٥
 هذا قبر أبي رغال ٦٧٧
 هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ١٦٨٨
 هذا من النعيم الذي تسألون عنه ٢٠٠٢
 هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ٥٠٣
 هذا وقومه ، ولو كان الدين ١٦٧٢
 هذا يوم الحج الأكبر ٧٦٩
 هذه تلك ٣٧٩
 هذه للجنة ولا أبالي ١٧٦٠
 هذه لكم قد أعطى التورم بين أيديكم ٧١١
 هكذا أمرني ربي ٥٠١
 هل يتكلم ويين تميم شيء ٦٧٥
 هل تدرون ما هذا ؟ ١٧٧٥
 هل تدرون ما البيت المعمور ؟ ١٧٢١
 هل تدرون ماذا قال ربكم ٨٤٢ ، ١٧٢٢

- والذي نفسي بيده ما أسر أحد سريرة .. ٦٥٥
والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى ١٧٤١
والذي نفسي بيده ما من عهد يصلى ... ٣٩٣
والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ١٦١٣
والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ٤٣١
والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان ١٦١١
والذي نفسي بيده لا يسلونني اليوم شيئا ١٦٧٤
والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل ٨ ، ١٧ ،
..... ٢٨٥ ، ٧٠٠ ، ٨٦٧ ، ٨٦٩
والذي نفسي بيده لا يصيب للمؤمن هم ٤٢٧ ، ٨٦٨
والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء . ٨٦٨
والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم
حتى أكون ٧٤١ ، ١٤١٦
والله إنك خير أرض الله ٣١١ ، ١٦٠٥
والله في عون العبد ١٦٩٦
والله لا أجد ما أحملكم عليه ٨١٣
والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما
يغمس أحدكم أصبعه في اليم ١٣٥١
والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس ٣٥٠
وغطون رؤسكم بقول : شكركم ١٧٧٢
وتكفل الله لمن خرج في سبيله ٨٢٢
وجهت وجهي للذي فطر السموات ٦٤٣
وحذثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ١٧٠٤
وذاك ؟ ١٧١١
ورجل ذكر الله تعالى غاليا ففاضت عيناه ١٧١٠
وستغرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ٥٩٤
وضع رسول الله ذنبي على منكبيه ٦٤٢
وكل رثا في الجاهلية موضوع ٢٦١
ولم ؟ لمن قال : إنه لا يصلح لك ٧٢٩
الولد عبد لك والعبد لك ٢٨٠
ولد لي الليلة ولد سميت باسم أبي إبراهيم ٢٨٩
ولدت من نكاح لا من سفاح ٣٨٠
ولو أن تلقى أخذك ووجهك إليه متبس ١٣٩٧
ولي عقدة النكاح الزوج ٢٣٢
وماذا أردت أن تعطيه ١٨٢٣
وما ذلك ؟ ١٧٨٤
وما تصدق أحد بعذل تمر من كسب طيب ١٣٨٨
وما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم
- الأول كفل ١٣٦١
وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ١٧٩ ، ١٦٤٨
ومن أحب قوما فهو منهم ٧٦٦
ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يعلن عقده ٧٥٧
ومن يسر على معسر يسر الله عليه ١٧٩٤
والجهنم أمانة للمساء ١٦٢٤
ويزل فيهم قرأتا قرآنه ٣٤٦
ولا تركوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر ١٧٣٦
ولا تفش أزواجكم ١٨٢٥
ولا يكلمكم يومئذ إلا الرسل ٨٨٥
ولا يحل لي من غنائكم مثل هذه ٧٤٨
ويحك قطعت عنق صاحبك ٤١٥
ويحك يا بلال ٣٥٧
ويل للأعقاب ويطون الأقدام من النار ٥٠٣
ويل للمراتب من النار ٥٠٣
ويل واد في جهنم ٩٥
ويلك قطعت عنق صاحبك ١٧٣٧
[حرف اللام ألف]
لا ٣٦٩
لا أحد خير من الله ٦٣٥ ، ٦٦١
لا أحصى ثناء عليك ٦١٠
لا أعاف على أمي : إلا ثلاث خلال .. ٢٧٧
لا إذن تتركون جميعا ١٦٦٩
لا أسألكم على ما آتاكم من البيئات .. ١٦١٠
لا أشك ولا أسأل ٨٦٠
لا أقول إلا حقا ١٠٧١
لا أتقن أحدكم بجمي يوم القيامة ٣٤١
لا أتقن أحدكم يضع إحدى رجله ٤٣
لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك ٢٧٩
لا إله إلا الله ٤١٩ ، ١٦٨٢
لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده ١٤٢٤
لا إثم هي أربعة أشهر وعشرا ٢٢٩
لا إنا نكاح رغبة لا نكاح دلسة ٢٢٣
لا إنه لم يقل يوما من الدهر ٣٠٧ ، ٤٠٤
لا بأس إذا كان في صمام واحد ٢١١
لا بد لي أن أذهب بها أنا ٧٦٨
لا ، بل للأبد ٣١١
لا تبدلوا اليهود والنصارى بالسلام ٧٨١

- لا تبيع مكانك ١٦٣
لا تتخذوا قبري عيدًا ١٤٥٥
لا تتعنوا لقاء العدو ٣٣٠
لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ١٦٩٧
لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ١٤٥٥ ، ٤٣
لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجات ٣٨١
لا تحرم المصبة ولا للمصتان ٣٨١
لا تحقرن من المعروف شيئًا ١٣٠٤ ، ٩٧
لا تحمل الصدقة إلا خسة ٧٩٩
لا تحمل الصدقة لغني ٧٩٩ ، ٧٩٧
لا تخبروني على موسى ٧٦٢
لا تدعوا على أنفسكم ١٠٢١ ، ٨٣٨
لا تدعوهما وإن طردتكم الجبل ١٧٢٧
لا تلعب هذه الأمة حتى يلن أولها آخرها ١٨٠٩
لا تركبوا ما ارتكبت اليهود ٨٩
لا ترجعوا بعدي كفارًا ٦٤
لا تزال أمتي بخير ٧٨
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ١٤٤
..... ١٧٦١ ، ١٦٣
لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ١٣٧ ، ١٢٠
لا تسأل المرأة زوجها الطلاق ٢١٩
لا تسألوا الآيات فقد سألتها قوم صالح .. ٦٧٦
لا تسبوا أصحابي ١٧٧٨ ، ١٦٩٠
لا تسبوا تيمًا ١٦٣٨
لا تسبوا الليل والنهار ١٦٠١
لا تسبني عنه ٤٦٣
لا تستضيئوا بنار المشركين ٣٢١
لا تشددوا على أنفسكم ١٧٨٧
لا تصحب إلا مؤمنًا ٤٩٨
لا تصدقوا أهل الكتاب ١٣٧٠
لا تضربوا إمام الله ٤٠٠
لا تضربوني كما أضرت النصارى عيسى ابن مريم ٤٧٨
لا تطعموهم مما لا تأكلون ٢٥٦
لا تعلم يهود أن في ديننا فسحة ٦٤٢
لا تغضب ٣٢٧
لا تفضلوا بين الأنبياء ١٠٣٥
لا تفضلوني على الأنبياء ٢٤٣
لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان ٥١٨
- لا تقاطعوا ولا تتدابروا ١٦٩٧
لا تقطع يد السارق في دون الخن ٥٢٦
لا تقولين زعت ١٧٦٠
لا تقولوا للعب الكرم ١١٨
لا تقوم الساعة حتى تروا عشرين آيات ٦٣٩ ، ٤٧٢
لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ٦٣٩
لا تقوم الساعة حتى تقاطروا قرنا صغار الأعين ١٦٧٩
لا تكفروا الكلام بشير ذكر الله ٩٣
لا تكرهن أحدًا على السير معك من أصحابك ٢٠٤
لا تلعن فإنه يحب الله ورسوله ١٥٩
لا تمتعوا إماء الله مساجد الله ١٤٠٢ ، ١٢٥٦
لا تمت المرأة لزوجها ٩٠
لا تنكحوا النساء لحسنهن ٢٠٩
لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل ٦٤٠
لا تواصلوا ١٧٩
لا تأبسا من الرزق ١٣٨٨
لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن ٣١٤
لا حبس بعد سورة النساء ٣٧٥
لا ، حتى تلوق صبيته ويلوق عيسيتها ٢٢٣ ، ٢٢٢
لا حسد إلا في اثنين ٣٩٦ ، ٢٥٧
لا حلف في الإسلام ٣١٨
لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام ٢٢٦
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ٣٥ ، ٢٣
لا صلاة لمن لم يطلع الصلاة ١٣٦٩
لا طاعة إلا في المعروف ١٢٤ ، ١٢٤
لا طاعة في معصية الله ٣٢١
لا عليكم أن تمجوا ٨١٨
لا لو كنت أمرًا بشيرًا أن يسجد ليش ٧٠
لا ليس ذلك من النبي ٨٦
لا أبرح حتى تناجز القوم ١٦٧٦
لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل ٢٢٥
لا نورث ما تركناه صدقة ١٨٠٤
لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ٣١١
لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ٢٠٣
لا والذي بهت محمدًا بالحق ١٦٩٤
لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ٥٠٠
لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله ٢٩
لا ولو قلت نعم لموجبت ١٢٢ ، ١٠٨

- لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد
 امرأة ١٧٧١
 لا والله ما يلقى حبيبة في النار ٥١٠
 لا والله لا تلزوني منه درهمًا ٧٦٣
 لا يبقى بحجرة العرب دينان ... ١١٣ ، ١٢٦
 لا يبلغ العيد أن يكون من المختفين ٤٦
 لا يتوارث أهل ملتين ٨٦٥
 لا يتم بعد حلم ١٦٦
 لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين ٢٢٦
 لا يحقرن أحدكم نفسه ٥٣٧ ، ١٤٣٧
 لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ٦٣٥
 لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ٤٣٣ ، ٦٣٥
 لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله
 إلا الله ١٠٢٩
 لا يحل لإمرأة تؤمن بالله ٢٢٨ ، ٢٢٩
 لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين ١٧٩٥
 لا يدخل الجنة عاق ٢٥٣
 لا يدخل الجنة من كان في قلبه مقال
 ذرة من كبر ٧٣ ، ١٣٩٩
 لا يدخل النار إن شاء الله ١٦٧٨
 لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن ٩٣
 لا يذهب الليل والنهار حتى تعد اللات والعزى ٧٨٣
 لا يرث المسلم الكافر ٧٦٥
 لا يزال البلاء بالمؤمن ٦٨١
 لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر ١٧٩
 لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ١٤٠٥
 لا يشيع الرجل دون جاره ٤٠٢
 لا يشير أحدكم إلى أخيه ١٠٣٤
 لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني
 قريظة ٢٣٦ ، ١٤٢٥
 لا يفرك مؤمن مؤمنة ٣٧٩
 لا يقتلن أحد حتى نأمره ٣٢٢
 لا يقتل مسلم بكافر ١٦٧
 لا يقيم الرجل الرجل ١٧٩٥
 لا يس القرآن إلا طاهر ١٧٨٢
 لا يمتنع أحد أن يبلل من سحورك ١٧٨
 لا يكون أحد منكم إلا وهو يحسن بالله
 الظن ٣١٣ ، ١٥٩٦
- لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب ٢١٤
 لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره ١٣٩٩
 لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله ٤٩٩
 لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ٧٧٦
 [حروف الياء]
 يا أبا بكر ألا أفرتك آية ٤٥٣
 يا أبا بكر هل بلغك ما طوي ١٧٦٤
 يا أبا بكر قل : اللهم فاطر السموات ١٥٦٢
 يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ٧٩١
 يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود ٥٣٦
 يا أبا ذر ٤١٣
 يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا ١٠٣١
 يا أبا أمامة إن من من المؤمنين من يدين ٣٣٩
 يا أبا ذر هل تدري أين تقرب الشمس ١٤٠١ ، ١٥٠٧
 يا أبا ذر هل صليت ؟ ٢٤٤ ، ٦١٣ ، ١٥٠٧
 يا أبا جهل ابن هشام وما عية ٦٧٧
 يا أبا رزين ، أما مروت يرادي قومك ١٤٨٥
 يا أبا سعيد من رضي بالله ربًا ٤٣٠
 يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله ٧٤٦
 يا أبا عبد الله هل علم مؤمنة ٢٠٨
 يا أبا هريرة ما فعل أسيرك ٢٤٥
 يا ابن الخطاب ألا أفرتك آيات ١٠٦
 يا ابن مسعود هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا ١٧٨٧
 يا إخوان القردة والخنازير ٩٤
 يا أسلع مالي أرى ٤١١
 يا أصحاب سورة البقرة ٤٥
 يا أيها الناس ابكوا ٨١٠
 يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ١٧٤
 يا أيها الناس أخلصوا الطعام وصلوا الأرحام ١٧١٥
 يا أيها الناس أفشوا السلام ٨٣٩
 يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمتنا الله ٥٤٣
 يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله ٦٥٨
 يا أيها الناس إني كنت أفنت لكم في الاستمتاع ٣٨٦
 يا أيها الناس أي يوم هذا ؟ ٥٤٢
 يا أيها الناس من عمل لنا ٣٤١
 يا أيها الناس لا تمتنعوا لقاء العدو ٧٥٣
 يا بنية هل عندك شيء أكله ٢٩٠
 يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا ٢٦٢

- ١٣٠٦ يا فاطمة بنت محمد يا صفية
 ٥٥٤ يا فلان أما علمت أن الله حرّمها
 ٢٨٥ يا فلان قل : لا إله إلا الله
 ٤٢٤ يا فلان مالي أراك مهتفا
 ٤٠٩ يا فلان ما منعك أن تصلي مع القوم
 ٢٠٢٢ يا فلان ما منعك أن تفعل ما يأمرك
 ١٥٠٢ يا ليت مات في غير مولده
 ١٢٢ يا محمد اثنا بكتاب تزله علينا
 ١٣٠ يا محمد إن كنت رسولاً من الله
 ٦١١ يا محمد لتستبين عن سيك آلهتنا
 يا محمد ما تعلم أن الله أنزل على بشر من
 شيء بعد موسى
 ٤٧٥ يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً
 ٧٦٠ ،
 ١٧٠٢ ، ٣١٤
 يا معشر الشباب من استطاع منكم
 البائة ١٤٣٢ ، ١٢٤٩ ، ١٧١
 يا معشر قريش أرايكم أن غيلاً تصبحكم
 ٨٦٥
 يا معشر المسلمين إياكم والزنا
 ٥٤٧
 يا معشر اليهود أسلموا
 ٢٨٠
 يا معشر النساء تصلّين
 ٢٦٨
 يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه
 ١٦٩٨
 يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا
 ٧٣٨ ، ٢٧٨
 يا ملك الموت أرفق بصاحبي
 ١٤٠٦
 يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي
 ١٠٤٤
 يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش
 ١٧٥٢
 يتبع الميت ثلاثة ٢٠٠٠
 يتعاقبون عليكم ملائكة بالليل ١٠٤٢
 يجاء بصاحبها يوم القيامة ٢٨٤
 ويجزيك الثلث أن تصدق به ٧٣٩
 يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا
 ٦٩
 يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ١٠٤٦
 يجيء المقتول يوم القيامة أخذاً رأسه ٤٣٥
 يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ٣٨٤
 يحشر للكافرين يوم القيامة أمثال الذر ١٠١ ، ١٥٦٠
 يحضر الجمعة ثلاثة نفر ٦٤١
 يخرب الكعبة ذو السيفتين ١٤٣
 يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ٤٧٢ ،
 ١٥٦٦ ، ١٣٤٤
- ٦٥٢ يأتي القرآن صاحبه
 ٦٢٥ يا بني آدم إن كنتم تغفلون فعدوا
 ٣٤٦ يا بني لا ينبغي لي ولا لك
 ٣٤٥ يا جابر مالي أراك مهتفا
 ١٧١ يا جبريل وما يوم المزيد
 ١٤١٩ يا حذيفة اذهب فادخل
 ٥١٩ يا حمزة نفس تحبها أحب إليك
 ١٦٨١ يا خالد هذا ابن عمك
 ٤٢١ يا خالد لا تسب عملاً
 ١٧٨٩ يا خويلد ابن عمك شيخ كبير
 ٧٦٤ يا خويلد ما أمرنا في أمرك بشيء
 ٥٤٩ يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم
 ٨٩٥ يا رسول الله لو قصصت علينا
 ٣٥٧ يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء
 ١٦١ يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب
 ١٨٣١ يا سلمان ما يوم الجمعة ؟
 ٨٦ يا سلمان هم أهل النار
 ٧٧٩ يا شعبة يا شعبة أذن مني
 ١٢٤٠ يا عائشة أبشري
 ١٦٦١ يا عائشة إن الدنيا لا تبغي لحمد
 ١٧٩٣ يا عائشة إن الله لا يحب الفحش
 ١٧٤٧ يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب
 ١٦٥٤ يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب
 ٤٥٣ يا عائشة هذه مباينة الله للعبد
 ٨٤٨ يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي
 ١٥٢٧ يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم
 ٤٤٠ يا عباس إنكم خاصمتكم فخصمتكم
 ٢١٣ يا عبد الرحمن بن سمره لا تسأل الإمارة
 ٨٨٣ يا عدي أسلم تسلم
 ٢٠٢٣ يا عتبة بن عامر ألا أعلمك خير ثلاث سور
 ٢٠٢٣ يا عتبة أغرس لسانك وليسمعك بيتك
 ٢٠٢٦ يا عتبة ألا تركب
 ٧١٨ يا عتبة صل من قطعك
 ١٧٦٣ يا عكراش هذا الوضوء مما غرت النار
 ١٣٥٠ يا عم قل لا إله إلا الله
 ٣٩٢ يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟
 ٧٧٣ يا عوش قولي : اللهم رب النبي محمد
 ١٩٤٦ يا غلام إني معلمك كلمات

- يخرج قوم من أمّتي يسبقون الأعمال .. ١٣٦٥
يدخل أهل الجنة جرّداً
مرّداً ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٧٦٨
يدعو الله لصاحب الدين القيامة ٧٩٩
يدعى أحدهم فيعطى كتابه يمينه ١٠٤٠
يدعى نوح يوم القيامة فيقال له ١٥٠
يدلّ المؤمن من ربه ﷻ حتى يضع عليه عاتقه ٢٧٢
يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ٦٧ ، ١٧٧٦
يرفع لكل غادر لواء ١٩٥٣
يريدون أن يسجنوني ٥٤١
يسرق البيضة فتقطع يده ٥٢٦
يسميه كل شيء إلا الثقلين ١٧٥٢
يسير في ظل الفتن منها الراكب مائة سنة ١٧٥٤
يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ١٨٠٧
يبرئني الله نفسه يوم القيامة ١٧٠٩
يعطى المؤمن في الجنة قوة كلها وكلها ١٧٦٧
يعظم أهل النار في النار ٤١٨
يفرّ للشهيد كل شيء إلا الدين ١٦٦٤
يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا ١٦٤٠
يقال لفارّئ القرآن اقرأ وارفق ١٨٩٤
يقال للرجل من أهل النار ٣٠٨
يقبض الله الأرض ويطوي السماء يمينه ٣٥
يقبض الله الأرض وتطوى السماء يمينه ١٥٦٦
يقطع الصلاة للحمار والمرأة والكلب الأسود ٢٦ ، ٤٩٦
يقول ابن آدم : مالي مالي ٢٠١ ، ٦٠٦ ، ١٧٧٧
يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء ١٠٤٠
يقول الله تعالى : ابن آدم أني تمجّزني ٩٨٢
يقول الله تعالى : إذا هم بعد بصنة ٩٠١
يقول الله تعالى : أعددت لعبادي ١٣٥٤
يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي ١٧٥
يقول الله تعالى : إن كل مال منحه عبدي ١٦١
يقول الله تعالى : أفنق أفنق عليك ١٤٧٩
يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ٦٥٩ ، ٦٨٩
يقول الله تعالى : العظمة لإزاري ١٦٤٦
يقول الله تعالى : كلّني عبدي ١٣٧٤
يقول الله تعالى الملك الموت : انطلق ١٧٧٣
يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ١٤٣٩
يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً ١٥٨٤
يقول الله تعالى : من يقرض غير عديم ٢٣٩
يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ ١١٤٧
يقول الله تعالى : يا ابن آدم إنك مادعوتي ٦٣٤
يقول الله تعالى : يا ابن آدم واحدة لك ١٧٦
يقول الله تعالى : يا أهل الجنة ١١٤٦
يقول الله تعالى : يا حيادي لو أن أولكم ١٢٩٧
يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ١٦٤٤
يقول الله ﷻ : من عمل حسنة ٦٤١
يقول الله ﷻ : يا ابن آدم حملتك على الخيل ١٩٧٦
يقول الله لبعض العبيد يوم القيامة : ألم أزوجك ١٦٤٥
يقول الله : وعزتي وجلالي لا يجاوزني ١١٤٢
يقول الله : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ١٤٥٧
يكفيك آية الصيف ٤٨١
يكون للمسلمين ثلاثة أمصار ٤٧٠
يكون النسم طيراً يعلق ١٨٧٤
يلقى في النار ويقول : هل من مزيد ١٧٠٩
يزول الله تبارك وتعالى في كل ليلة ٢٨٣
يصب لكل غادر لواء ٦٢٢ ، ٩٨٥
يهديكم الله ويصلح بالكم ١٦٦٣
يهرم ابن آدم ويغنى معه الثمان ٢٠٠
يؤتى بأنعم أهل الدنيا ٨٤٣
يؤتى بحسنات العبد وسبعاته ١٤٠٩ ، ٣٧٦
يؤتى بالرجل من أهل النار ٥٢٥
يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ٨٨٦ ، ١٦٣٩
يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ٦٥٢
يؤذك هوام رأسك ١٨١
يوشك أن يرفع العلم ٥٤١
يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم ٨٢٣
اليوم للواعد يوم القيامة ١٩٤٧
يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم ١٩٣٩

فهرس الآثار

الأنكر	قائله	الصفحة
	[حرف الألف]	
آخر آية نزلت هذه الآية ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾	أم سلمة ؓ	٣٥٧
اجلاه بالطهارة خمس في الرأس	ابن عباس ؓ	١٣٢
إبراهيم أول من اختن	سعيد بن المسيب ؓ	١٣٣
أنت قريش اليهود فقالوا : بما جاءكم موسى ؟	ابن عباس ؓ	٣٥٤
أندري ما في قوله : ﴿ وَكَفَرْتُ جُرْمَتِ ﴾	عاصم بن أبي النجود ؓ	٦٢٧
أنعرف محمدًا كما تعرف ولدك	عمر ؓ	١٥٣
الأحقاف واد بحضرموت	علي بن أبي طالب ؓ	١٦٥٣
أحلفهما آية وحرمتها آية	ابن عباس ، عثمان بن عفان ؓ	٣٨٣
أخذ علينا رسول الله كما أخذ على النساء	عبادة بن الصامت ؓ	٥٢٢
ادنه ادنه فالله يحكم بينكم	علي ؓ	٤٥٦
إذا طلق رجل امرأته تطليقتين	ابن عباس ؓ	٢١٩
إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل	زيد بن ثابت ؓ	٣٨٢
إذا كان الخلع بغير لفظ الطلاق	سفيان الثوري ؓ	٢٢١
إذا كنت في صلاة فأنت في معروف	ابن حون الأنصاري ؓ	١٣٦٧
إذا لم يجد هديًا فعليه صيام ثلاثة أيام	ابن عباس ؓ	٨٩
أرغبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته	ابن عمر ؓ	١٦١١
الأسباط بنو يعقوب	قتادة ؓ	١٤٧
الأسباط قبائل بني إسرائيل	البخاري ؓ	١٤٧
أصابها من الليل طش من المطر	علي ؓ	٧٣٢
أصل الصمر دلم يأخذ الإبل	ابن جرير	١٣٩٧
أصبحت رياضة رسول الله ﷺ	ابن إسحاق ؓ	٣٣٦
أقبل أبو سفيان في الركب من الشام	عمير بن إسحاق ؓ	٧٥١
اقتل رجلا من جهني وأنصاري	قتادة ؓ	٧٨٨
الأقراء الحيفض	عقمة ؓ	٢١٧
أقربهما للفقوى الذي يفو	ابن عباس ؓ	٢٣٢

٢٨٩	علي بن أبي طالب ؑ	أقضي فيهما بقضاء رسول الله
٣٧٣	أبو بكر الصديق ؑ	أقول فيها برأيي
٣٩٤	بريدة	أكبر الكبار للشرك بالله
٦٨٦	ابن عباس وابن مسعود ؑ	التقى موسى وأمير السحرة
٧٨٤	عكرمة ؑ	اللهم إني أسمع آية
١٧٢٤	عائشة ؓ	اللهم من علينا وقتنا عذاب السموم
٨٨٥	سليمان ؑ	أما إنه لم يكن بالزنى
١٨١١	أبو بكر ؑ	أما تعلمون أنكم تفتنون وتروجون
٥٨١	ابن عباس ؑ	أما قوله : والله ربنا
٧٧٠	ابن مسعود ؑ	أمرتم بإقامة الصلاة
٧٤	سعيد بن جبير ؑ	إن آياته كتابه الذي أنزله
٦٢٦	ابن عباس ؑ	إن أعداء الله كانوا إذا أحرقوا
٦٥٩	ابن عباس ؑ	إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم
١٧٢٣	ابن عباس ؑ	إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته
٦٦٤	السدي ؑ	إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة
١٦٧	سعيد بن جبير ؑ	إن حين من العرب اقتتلوا
٤١٥	ابن مسعود ؑ	أن الرجل ليقدر بدينه
٧٦٠	ابن عباس ؑ	إن الرحم ليقطع
١٤٣٥	أنس بن مالك ؑ	إن زينب بنت جحش كانت تغفر
٤١٨	ابن مسعود ؑ	أن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة
٨١٨	ابن مسعود ؑ	إن الصدقة تقع في يد الله ﷻ
٣٥٥	لقمان ؑ	إن طول الوحدة ألهم للفكرة
١٣٧١	أبو مالك الأشعري ؑ	إن في الجنة غرقاً يرى ظاهرها من باطنها
١٢٦	ابن عباس ؑ	إن فريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة
١٢٢	البراء بن عازب ؑ	إن كان ليأتي علي السنة
١٢٣	عبد الله بن كعب ؑ	إن كعب بن الأشرف كان شاعراً وكان يهجو النبي
١٥٧١	عبد الله بن مسعود ؑ	إن لكل شيء لباباً
٤٤٦	ابن عباس ؑ	إن للصلاة وقت كوقت الحج
٧٦	ابن عباس ؑ	إن لم نخش أن تقضح بثلاث آيات
٧٧٥	ابن عباس ؑ	إن المشركين قالوا : عمارة بيت الله

١٣٦	عائشة <small>رضي الله عنها</small>	إن المقام كان زمان رسول الله <small>ﷺ</small> زمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت
٧٤١	ابن عباس <small>رضي الله عنه</small>	أن نفروا من قريش من أشرف كل قبيلة
٥٢٤	يزيد الفقير	أن ناشأ يخرجون من النار
١٤٩٢	عبد الله بن مسعود <small>رضي الله عنه</small>	إن هذه الأمة ثلاث أثلاث
٩٩	الريح بن أنس <small>رضي الله عنه</small>	إن اليهود سألو محمداً <small>ﷺ</small> زماناً عن أمور من التوراة
٦٤٠	مجاهد	إن اليهود والنصارى اختلقوا
٥٠٤	جرير بن عبد الله البجلي <small>رضي الله عنه</small>	أنا أسلمت بعد نزول المائدة
٧٣٨	مطرف <small>رضي الله عنه</small>	إنا قرأنا على عهد النبي <small>ﷺ</small>
٢١٢	ابن عمر <small>رضي الله عنه</small>	إنا كنا معشر قريش نحبي النساء
٥٨٩	سلمان <small>رضي الله عنه</small>	إنا نجد في التوراة عطفين
٤٤٣	أمية بن عبد الله <small>رضي الله عنه</small>	إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف
٥٠٦	بعض الصحابة <small>رضي الله عنهم</small>	أنت أفظ وأغلظ من رسول الله
٤٨٥	عبد الله بن عمرو <small>رضي الله عنه</small>	أنزلت على رسول الله سورة المائدة وهو راكب
١٣٢٧	قنادة	إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال
٢٩٠	قنادة	إنما سمي يحيى لأن الله أحياه
٢١٥	عائشة <small>رضي الله عنها</small>	إنما اللغو في المزاحمة
٤٨٩	عائشة <small>رضي الله عنها</small>	إنما نهى عن الدم السافح
١٠١١	ابن مسعود <small>رضي الله عنه</small>	إنهم من العتاق الأول
٥٠٤	عثمان <small>رضي الله عنه</small>	أنه خلل بين أصابعه
٢٠٦	عمر <small>رضي الله عنه</small>	إنه كل ما خامر العقل
٨٧٩	قنادة <small>رضي الله عنه</small>	إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أعجب
٨٢٤ ، ٨٠٩	سعيد بن جبير <small>رضي الله عنه</small>	إنه يتبرأ منه يوم القيامة
٤٨٥	أسماء بنت يزيد <small>رضي الله عنها</small>	إني لأخلة بزمام العنشاء
٢١٨	ابن عباس <small>رضي الله عنه</small>	إني لأحب أن أزين للمرأة
٤٨٣	عمر <small>رضي الله عنه</small>	إني لأستحي أن أخالف فيه أبى بكر
٢٠٧	عائشة <small>رضي الله عنها</small>	إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي
٢٦٢	عمر <small>رضي الله عنه</small>	إني لعلي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم
٢٥١	ابن عباس <small>رضي الله عنه</small>	أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحن
٩٨٤	زيد بن أسلم <small>رضي الله عنه</small>	أول جبار كان في الأرض الثمروذ
١٧٢٩	عبد الله <small>رضي الله عنه</small>	أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿ وَالنَّجْوَى ﴾

١٢٧	ابن عباس ؓ	أول ما نسخ لنا من القرآن شأن القبلة
١٣٥	مجاهد ؓ	أول من أُنشِرَ المقام إلى موضعه عمر
٨٥٠	قاعدة	ألا تتصرون أنحكم ؟
٣٧٩	عمر ؓ	ألا لا تقولوا في صدق النساء
٧٤٨	الحسن ؓ	ألا أرضى من مالي بما رضي الله
١٦٩٠	واصل الأحنف ؓ	ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه
٧٢١	طلحة بن عبيد الله ؓ	ألا تستمعان إلى الذكر
٣٨١	البراء بن عازب ؓ	أي عم ، أين يحك النبي ؟
١٩٧	ابن عباس ؓ	أيام التشريق أربعة أيام
٢٣٠	ابن عمر ؓ	أيما امرأة نكحت في عدتها
٧٨٤	ابن عمر ؓ	أيما مال أديت زكاته فليس يكثر
٣٣٢	ابن مسعود ؓ	أيها الناس غلوا للمصاحف
٣٥٨	شداد بن أوس	أيها الناس لا تهتموا بالله في قضاءه

[حرف الباء]

٥٠٤	همام	بال جرير ثم توضع ومسح
٧٨٦	الأحنف ؓ	بشر الكنازين يرضف يحمى عليه
٦٠٣ ، ٨٥	أبو حرب	بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية
١١٤٩	ابن عباس ؓ	بنو إسرائيل والكهف ورمم
١٣٥٥	أبو سعيد ؓ	بينما رجل ممن كان قبلكم نزع في بردين
١٤٩	ابن عمر ؓ	بينما الناس بقاء في صلاة الصبح

[حرف التاء]

٣٨٤	علي بن أبي طالب ؓ	تصدق النبي كنت نطأ ثم نطأ الأخرى
٥٣١ ، ٤٥	ابن عباس ؓ	تقتل النفس بالنفس
٨٨٣	مسروق	تنهى عن الواصلة

[حرف الثاء]

٢٣٧	عطاء ؓ	ثم جاء الميراث ففسخ السكنى
-----	--------	----------------------------

[حرف الجيم]

٧٥٥	ابن عباس ؓ	جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين
-----	------------	--------------------------------------

٥٨٩ ، ٥٣	عكرمة ؓ	جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة
١٩٢	ابن مسعود ؓ	الجدال في الحج أن تماري صاحبك حتى تفضبه

[حرف الحاء]

٣٥	عمر ؓ	حاسبوا أنفسكم قبل أت تحاسبوا
٦٢٧ ، ١٣٦	ابن عباس ؓ	الحجر الحرام مما حرموا من الوسيلة
١٣٥ ، ١٢٥	سعيد بن جبير ؓ	الحجر مقام إبراهيم نبي الله
٤٨٥	جبير بن نفير ؓ	حججت فدخلت على عائشة
٢١١	ابن عباس ؓ	الحرث موضع الولد
٣١١	ابن عباس ؓ	الحرم كله مقام إبراهيم
٣٨٤	علي بن أبي طالب ؓ	حرمها آية وأحلها آية
١٧٠٧	عائشة ؓ	حضرت أبي وهو يموت
٢٥٧	ابن عباس ؓ	الحكمة القرآن

[حرف الخاء]

٨٧٩	السدي	خرجت للملازمة من عند إبراهيم نحو قرية لوط
٤٤٢	أنس ؓ	خرجنا مع رسول الله من المدينة إلى مكة
٤١١	عائشة ؓ	خرجنا مع النبي في بعض أسفاره
٤٥٦	ابن عباس ؓ	خشيت سودة أن يطلقها رسول الله
٧٤٨	عطاء بن رباح ؓ	خمس الله ورسوله واحد
١٧٤١	ابن مسعود ؓ	خمس قد مضين الروم والدخان

[حرف الدال]

٣٨	ابن عباس ؓ	دخل أبو بكر بيت المدراس
----	------------	-------------------------

[حرف الزاء]

٢٥٧	ابن مسعود ؓ	رأس الحكمة مخافة الله
٧٣٨	عبد الرحمن بن أبي ليلى	رأيت فيما يرى النائم كأن سبيتا دلي
١٣٥	أنس بن مالك ؓ	رأيت للمقام فيه أصابعه
١٥٤	مجاهد	رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة
٣٠٥	عمر ؓ	رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً
١٩١	ابن عمر ؓ	الرفث إثبات النساء

- ٣٥٤ ركعتان مقتصدتان في تفكر ابن عباس ؓ
٨٩٤ رؤيا الأنبياء وحى ابن عباس ؓ

[حرف السين]

- ١٧٠٧ السائق من الملائكة والشهيد الإنسان ابن عباس ؓ
١٠٥٠ سأل أهل الكتاب عن الروح عكرمة
١٣٤١ سئل أي الأجلين قضى موسى محمد بن كعب ؓ
١٥٤١ السجدة في ﴿ تَرَى ﴾ ليست من عزائم السجود ابن عباس ؓ
١٢٠ سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ ﴿ مَا نَسَخَ ﴾ الحسن ؓ
٨٢٣ سياحة هذه الأمة الصيام عائشة ؓ

[حرف الشين]

- ٧٩٢ شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا محمد ؓ
٣٢٣ شهدت اليرموك وعليها خمسة أرواح عياض الأشعري

[حرف الصاد]

- ١٧٠٦ صاحب اليمين يكتب الحبر الأحنف ؓ
٧٧ الصبر إعراف العهد لله سعيد بن جبير ؓ
٧٧ الصبر صبران عمر بن الخطاب ؓ
٤٨٦ الصفا والبروة والهدي والبدن مجاهد
٢٣٣ الصلاة الوسطى صلاة الصبح جابر بن عبد الله ؓ
١٤٤٩ صلاته تبارك وتعالى مبرح قدوس عطاء بن أبي رباح ؓ
٧٢ صلى ابن مسعود نسبح ناشأ بشير بن جابر ؓ
٤٠٧ صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا علي ؓ

[حرف الضاد]

- ٢٥٤ ضرب مثلاً بممل ، قال عمر : أي عمل ابن عباس ؓ

[حرف الطاء]

- ٣٨٥ طلاق الأمة ست ابن عباس ؓ
٢٢٤ طلق رجل امرأته وهو يلمب ابن عباس ؓ

[حرف الظاء]

- ١٠١٨ ظهر بهختصر على الشام فخر بيت المقدس ابن عباس ؓ

[حرف العين]

٢٤٨	مجاهد	العروة الوثقى الإيمان
١٧٥٠	ابن عباس ؓ	المصنف ورق الزرع الأخضر
١٣٦٦	عمرو بن العاص ؓ	عقلت عن رسول الله ألف مثل
٣٧٠	عبد الله بن عمرو ؓ	العلم ثلاثة
١٣٥٣	سعيد بن جبير ؓ	العلو البغي

[حرف الفين]

٣٤٢	عمر ؓ	الغال يجمع رحله فيحرق
٣٩	عدي بن حاتم ؓ	غير المغضوب عليهم هم اليهود

[حرف القاء]

٧٥٥	مجاهد	فئة من قرهش
٢٣٦	ابن عباس ؓ	فرض الله الصلاة على لسان نبيكم
٤٤٢	عائشة ؓ	فرضت الصلاة ركعتين ركعتين
١٩١	ابن عمر ؓ	الفسوق ما أصيب من معاصي الله
٢٣٢	الثوري	الفضل أن تغفر المرأة عن شطرها
٤٦٣	ابن مسعود ؓ	في تروايت من نار
٧٦٣	ابن عباس ؓ	في نزلت ﴿ مَا كَانَتْ لِيَنِي أَنْ يَكُونَ لَكُمْ أَشْرَى ﴾
٦٦٥	علي ؓ	فيما والله أهل بدر نزلت ﴿ وَزَعَمْنَا مَا فِي سُطُورِهِمْ ﴾

[حرف القاف]

١٤٠ ، ١٢٦	عطاء ؓ	قال آدم : إني لا أسمع أصوات للملائكة
٨١٣	أبو ثمامة ؓ	قال الخواريون : يا روح الله
١٤٧ ، ١٣٣		قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله : ما الهدي
٥٩٦ ، ٧١	السدي ؓ	قال للمشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا
٥٩٩ ، ٧٧	محمد بن إسحاق	قال ذلك حين خرج من السرب
١٣٧٣	الشعي	قال عيسى ابن مريم : إني الإحسان أن نحسن
٣٢٠	ابن عمر ؓ	قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين
١١٠ ، ١٠٠	عائشة ؓ	قدمت علي امرأة من أهل دومة الجندل
١٦٩٦		قدم رسول الله المدينة وليس

١٧٤٠	عبد المطلب بن أبي وداعة	قرأ رسول الله ﷺ سورة النجم
١٦٧٣	عبد الله بن مغفل	قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح
١٨٠٩	مالك بن أوس	قرأ عمر بن الخطاب ﴿إِنَّمَا الْكُفْرُ﴾
١٧٢٢	عمر	قسم ورب الكعبة حتى
١٤٨٧	عكرمة	القطمير هو اللغافة
١٠٠	حذيفة	القلوب أربعة
٣٧	ابن عباس	قل يا محمد : اهدنا الصراط المستقيم
١٤٠ ، ١٢٦		القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك
١٦٩٥	أنس	قبل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبي

[حرف الكاف]

١٦٩١	ابن أبي مليكة	كاد الحيران أن يهلكا
٢٧٤	معاذ	كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَأَنصَبَ عَلَى الْقُرْآنِ فَصَحَّحَ﴾
١٧٦	البراء بن عازب	كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائما
١٥٢	ابن عباس	كان أول ما نسخ من القرآن القبلة
٣٨٠	ابن عباس	كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب
٢٨	ابن عباس	كان ﷺ لا يعرف فصل السورة
٢٨	ابن عباس	كان رسول الله ﷺ يجهر بيسم الله
٢٨	أم سلمة	كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته (بسم الله)
٢٩	عائشة	كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير
٤٠٩	عائشة	كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي
٦٦٠ ، ٣١	ابن عباس	كان رجال يطوفون بالبيت عمرة
٦٦٠ ، ٣١	السدي	كان الذين يطوفون بالبيت عمرة يحرمون عليهم الوردك
٩٩	ابن عباس	كان حين ذهب ملك سليمان ارتد فقام من الجن
١٢٢ ، ٣٨	ابن عباس	كان حيي بن أخطب .. من أشد يهود العرب حسدا
٣٨٢	عائشة	كان فيما أنزل القرآن (عشر وضعات)
١٧٢	معاذ	كان في اجتماع الأمر من قاء صام
٧٦٣	ابن عباس	كان العباس أسر يوم بلو
١٣٩٥	عمرو بن قيس	كان لقمان عبدا أسود
٦١١ ، ١٠٩	قتادة	كان المسلمون يسبون أصنام قريش

١١٨	السدي	كان المسلمون يحسبون أن الأنبياء
١٣٦ ، ١٢٥	سفيان بن عيينة ؓ	كان للمقام من مقع البيت على عهد رسول الله
١٣١٧	ابن عباس ؓ	كان الهندس مهندساً
٢٩١	ابن عباس ؓ	كان يحيى ويحيى ابني خالة
٨٣١	ابن عباس ؓ	كان ينطلق من كل حي من العرب
٣٤٦	ابن إسحاق ؓ	كان يوم أحد يوم السبت
١٨١٠	ابن مسعود	كانت امرأة ترعى الغنم
٧١٥	ابن عباس ؓ	كانت حواء تلد لآدم ؑ أولاداً
٤٤٤	البخاري	كانت ذات الرقاق بعد الخندق
١٩٣	ابن عباس ؓ	كانت عكاظ ومجنة وذو الحجاز
٣٨٣	مالك بن أوس ؓ	كانت عندي امرأة فزولت
٧٤٨	ابن عباس ؓ	كانت الغنمة تخمس
١٣٧٥	عبد الله بن مسعود ؓ	كانت فارس ظاهرة على الروم
١١٥	عائشة ؓ	كانت قرش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة
٣٢	ابن عباس ؓ	كانت قريش يطوفون بالبيت عراة
٢٩٢	مجاهد ؓ	كانت مريم ؑ تقوم حتى تتورم كعباها
٦٦٠	ابن عباس ؓ	كانوا يطوفون بالبيت عراة
١٨٢٤	أبو بحرية	كانوا يكرهون القتال على الخيل
٢٤٧	ابن جرير	الكرسي موضع القدمين
٢٤٧	الحسن البصري	الكرسي هو العرش
١٤٧ ، ١٣٥	ابن عباس ؓ	كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة
٧٧	مجاهد ؓ	كل ظن في القرآن فهو علم
١٣٣ ، ١٢٢	ابن عباس ؓ	الكلمات التي ابتلي إبراهيم بهن
٢١٦	عمر بن الخطاب ؓ	كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها
٤١٤	عبد الله بن عمر	كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل النفس
١٠٢٦	سميد بن المسيب	كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول : اللهم اغفر لي
٨١٣	قنادة ؓ	كنت أكتب لرسول الله ﷺ
٤٢٦	ابن عباس ؓ	كنت أنا وأمي من المستضعفين
٧٣٢	طلحة ؓ	كنت بمن أصابه النعاس يوم أحد
١٩	أوس بن حذيفة ؓ	كيف تحويون القرآن

[حرف اللام]

٣٤٠	ابن عباس ؓ	لعل رسول الله ﷺ أخذها
٢٢٣	ابن مسعود ؓ	لعن رسول الله ﷺ الواثمة والمستوشمة
٧٥٣	ابن مسعود ؓ	لقد قللوا لي أحييتا يوم بدر
١٧٢٧	عائشة	لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من الترافل أشد تعاضدا منه
٢٨١	عائشة رضى الله عنها	لم يكن شيء أحب إلى رسول الله من النساء
٤٦٧	ابن عباس ؓ	لما أراد الله أن يرفع عيسى
٦٨٨	سعيد بن جبير ؓ	لما أتى موسى ﷺ فرعون
١٧٨٨	ابن إسحاق	لما أجمع رسول الله ﷺ للسير إلى مكة
١٨٠١	ابن عباس ؓ	لما أراد الله أن يرفع عيسى
٨٧٩	السدي ؓ	لما أصبح قوم لوط نزل جهنم
٧٤٥	الحسين ؓ	لما أصبحت قريش يوم بدر
٧٥٣	كعب الأحرار	لما خرجت قريش من مكة إلى بدر
٧٥٥	ابن عباس ؓ	لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل
٣٤٦	عكرمة ؓ	لما رجع المشركون من أحد قالوا : لا محمد فتكم
٥٣٦	عبادة بن الصامت ؓ	لما حاربت بنو قريظ رسول الله ﷺ
١٢٥	ابن عباس ؓ	لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله
٧٢٨	ابن عباس ؓ	لما شاور النبي ﷺ لقاء العدو
٧٥٥	ابن عباس ؓ	لما كان يوم بدر سار إليهم
١٦٨١	أنس بن مالك ؓ	لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله
٣٥٩	عائشة رضى الله عنها	لما مات النجاشي كما تحدثت
٣٤٨	ابن عباس ؓ	لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي ﴾
٨٣١	عكرمة ؓ	لما نزلت ﴿ إِنَّا نُنْزِلُكَ ﴾ قال المناقبون
١٢٨	مجاهد ؓ	لما نزلت ﴿ أَتَقْوُونَ أَنْتَجِبَ لَكُمْ ﴾
٧١٨	عبد الرحمن بن زيد ؓ	لما نزلت ﴿ خُذِ الْقَوْلَ ﴾
١٨١٩	المسور	لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية
٥٩٢	ابن عباس ؓ	لملك الموت أعوان من الملائكة
٢٤٧	ابن عباس ؓ	لو أن السموات السبع والأرضين السبع
٣٥٥	بشر الحافي ؓ	لو تفكر الناس في عظمة الله

١٣٤ ، ١٢٥	ابن عباس ؓ	لو لم يصح الناس هذا البيت
١٨٢٤	قنادة	لو نعلم أحب الأعمال إلى الله
١٨٢٣	عبد الله بن سلام ؓ	لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله
٦٣١ ، ١٤٣	عكرمة	لولا هذه الآية لنتبع الناس ما في المروق
٥٨٣ ، ٣١	السدي ؓ	ليس من رجل ظالم يدخل قبره
٤٠٦	سعيد بن المسيب ؓ	ليس من يوم إلا يعرض فيه على النبي ﷺ

[حرف الميم]

٧٢	ابن عباس ؓ	ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى
٣٨٣	عمر بن الخطاب ؓ	ما أحب أن أجزهما جميعًا
١٥١	البراء بن عازب ؓ	مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس
١٣٩٨	إبراهيم بن أدهم ؓ	ما صدق الله من أحب الشجرة
٥٩١ ، ٥٥	عبد الله بن الحارث ؓ	ما في الأرض من شجرة لا تغرز إبرة
١١٤٩	ابن عباس ؓ	ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم
٩٧٥	ابن مسعود ؓ	ما منكم من أحد إلا سيخلفه الله به يوم القيامة
٢٠٩	مسروق ؓ	ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضًا
٧٠٢ ، ١٦٤	عكرمة	ما يبيحك يا ابن عباس
٧٨٤	ابن عمر ؓ	ما أدي زكاته فليس بكتر
١٦٥٢	عائشة ؓ	ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن إلا أن أنزل عنري
١٦٨٩	عثمان ؓ	ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله
		ما سمعت رسول الله يقول لأحد بمشي على
١٦٤٩	عامر بن سعد ؓ	وجه الأرض أنه من أهل الجنة
٨٧٦	السدي ؓ	ما بعث نبي بعد عاد إلا لنوا على لسانه
٨٢٤	ابن عباس ؓ	ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات
٧٣٢ ، ١١	علي ؓ	ما كان فينا فارس يوم بدر خير المقداد
٧٣٨	ابن مسعود ؓ	ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة
١٧٢ ، ١٦٣	عائشة ؓ	ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه
١٨٥ ، ١٧٥	ابن عباس ؓ	ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير
٣٥٨	ابن مسعود ؓ	ما من نفس برة ولا فاجرة إلا الموت خير لها
٣٥٨	أبو الدرداء ؓ	ما من مؤمن إلا والموت خير له

١٣٨٦	ابن عباس ؓ	المراد بالسبر هاهنا الفياهي
٢٣١	الحسن البصري ؓ	المس التكاخ
١٣٤	ابن عباس ؓ	مقام إبراهيم الحج كله
١٣٥ ، ١٢٥	السدي ؓ	المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل
٩٧٤	عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؓ	المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله
٧٥٣	كعب الأحبار	ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن
٦٣٤ ، ١٥١	ابن مسعود ؓ	من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ
٢٤٢	ابن عباس ؓ	من اخترف منه يده روي ومن شرب
٨١٥	محمد بن كعب	من أقرئك هذا ؟
١٨٣٣	بعض السلف	من باع واشترى في يوم الجمعة
٣٧٦	عبد الله بن عمر ؓ	من تاب قبل موته نيام تيب عليه
١٥٨٧	ابن عباس ؓ	من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها
٥٠٩	ابن عباس ؓ	من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن
٣١١	ابن عباس ؓ	من عاذ بالبيت أحاطه الله
٥٥٢ ، ١٠	ابن عمر ، ابن عباس ؓ	الميسر هو القمار

[حرف التون]

٩٨١	أسماء بنت أبي بكر ؓ	نحزنا على عهد رسول الله فرشا
٣٥٩	الزبير بن العوام ؓ	نزل بالنجاشي علو
٤٠٦	سعد ؓ	نزلت في أربع آيات
٧٣٢	ابن مسعود ؓ	التعاس في الرأس والتوم
١٢٩	عمر ؓ	نعمت البدهة هذه

[حرف الهاء]

١٨١٨	عبد الله بن أحمد	هاجرت أم كلثوم بنت عقبة
٦٩٨	الأكرع ؓ	هل تجدني في الكتاب ؟
٧١٥	ابن عباس ؓ	هل تدريان ما يولد لكما
٦٧٣	علي ؓ	هل رأيت كتيبا أحمر ؟
٦٩٨	محمد بن جبير ؓ	هل عندكم رجل نيبا ؟
٨٢٠	ابن عباس ؓ	هم أناس من الأنصار
٥٤٨	جائمة بن رئاب ؓ	هم الرهبان الذين في الصومع

٢٩١	الربيع بن أنس ؓ	هو الذي لا يولد له
٤٥٥	عائشة ؓ	هو الرجل تكون عنده البتمة
٧٨٤	ابن عمر ؓ	هو المال الذي لا تودى زكاته
٣٨٢	علي ؓ	هي بمنزلة الربيعة

[حرف الواو]

١٦١١	أبو بكر ؓ	والله لقراءة رسول الله ﷺ أحب إلي
٨١٧	أبو بكر ؓ	والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها

[حرف اللام ألف]

١٥٨٧	عبد الله بن الزبير ؓ	لا إله إلا الله وحده
٢١٣	ابن عباس ؓ	لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الحبر
١٤٤٣	عكرمة ؓ	لا تحمل الموهبة لفيرك
١٧١٣	علي ؓ	لا تسألوني عن آية في كتاب الله
٤١	بلال ؓ	لا تسبقني بأمين
٣١٧	بريدة بن الحبصية ؓ	لا رقية إلا من عين
٣٨١	ابن عمر ؓ	لا يحرم أقل من ثلاث وضعات
١٨٣٣	مجاهد	لا يكون البعد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله فالتنا
٢١٣	الشحي	لا عين في مصيبة

[حرف الهاء]

٣٥٤ ، ١٩٠	حمصى ؓ	يا ابن آدم الضعيف اتق الله
٣٥٤	الحسن البصري	يا ابن آدم كل في ثلث بطونك
٣٤٧	عائشة ؓ	يا ابن أخي كان أبوك منهم
٢٣٧	ابن الزبير ؓ	يا ابن أخي لا أشير شيقاً منه من مكانه
١٠٢١	ابن الكواء	يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر
٣٧٤		يا أمير المؤمنين هب أن أبانا
١٥٤ ، ١٥١	زيد بن أسلم ؓ	يا رب كيف أشكرك
٤٣٨	ابن أم مكتوم ؓ	يا رسول الله أنا ضير
٤٠	ابن عباس ؓ	يا رسول الله ما معنى آمين
١٢٢	وهب بن زيد ؓ	يا محمد اتينا بكتاب تنزله علينا
١٣٠	ابن عباس ؓ	يا محمد إن كنت رسولاً من الله

٦١١	ابن عباس ؓ	يا محمد لتستهين عن مبعك آلهتنا
٤٧٥	عدي بن زيد ؓ	يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى
٨١٣	الأوزاعي	يا معشر من حضر لستم مقرين بالإساءة
١٧١٢	كعب الأحبار	يا أم الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس
٣٨٨	علي بن أبي طالب ؓ	يا أيها الناس أقيموا الحجد على إيمانكم
١٠٣٨	ابن مسعود ؓ	يا أيها الناس إن ربيكم يستعجبكم
١٥٥٠	عبد الله بن مسعود ؓ	يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به
٦٦٦ ، ٤٦	ابن مسعود ؓ	يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسنة أكثر
٥٨٣ ، ٣١	أبو مرزوق	يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره
١٨٩	البخاري	يقال إنه عمر
٤٦١	ابن عباس ؓ	يكره أن يقوم الرجل إلى صلاته وهو كسلان
٤٥٦	علي ؓ	يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه
٤٠٥	عبد الله بن مسعود ؓ	يؤتى بالمهد أو الأمة يوم القيامة

المصادر والمراجع

- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان للأمر علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت : ٧٣٩ هـ) تحقيق : كمال يوسف الحوت . مؤسسة الكتب الثقافية ١٩٨٧ م .
- إرواء الغليل في تخریج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت : ٤٦٨ هـ) . دار الفكر بيروت (١٩٩٨ م) .
- تحفة الأحوذی بشرح جامع الترمذی للمباركفوري (ت ١٣٥٣ هـ) ط . دار الاتحاد العربي للطباعة . القاهرة . بدون تاريخ .
- الترغيب والترهيب للمحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت : ٦٥٦ هـ) تحقيق : مصطفى محمد عمارة . دار إحياء التراث العربي - ١٩٦٨ م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري (ت : ٢١٠ هـ) ط . المكتبة التجارية ١٩٩٥ م .
- الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦ هـ) ط . دار الفكر ١٩٩٤ م .
- الجامع الصحيح للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت : ٢٧٩ هـ) ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت . بدون تاريخ .
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (ت : ٦٧١ هـ) ط . دار الفكر ١٩٨٧ م .
- الجامع الصغير وزيادته محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٧٩ م .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي (ت : ٩١١ هـ) ط . دار المعرفة . بيروت . بدون تاريخ .
- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي (ت : ٥٩٧ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٤ م .
- سلسلة الأحاديث الضعيفة لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
- سنن ابن ماجه للإمام ابن ماجه (ت : ٢٧٠ هـ) ط . دار الفكر العربي ١٩٥٤ م .
- سنن أبي داود للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت : ٢٧٥ هـ) ط . دار الكتب العلمية . بيروت . بدون تاريخ .
- سنن الدارقطني للإمام علي بن عمر الدارقطني ط . دار المحاسن للطباعة . مصر ١٩٦٦ م .
- السنن الكبرى للمحافظ أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (ت : ٤٥٨ هـ) ط . دار الفكر . بدون تاريخ .
- سنن النسائي للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب . ط . مكتبة المطبوعات الإسلامية . حلب ١٩٨٦ م .
- السيرة النبوية لابن هشام . تحقيق : مصطفى السقا وآخرين . دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- شرح السنة للإمام الحسين بن مسعود البغوي (ت : ٥١٦ هـ) تحقيق شعيب الأرنؤوط

- ومحمد زهير الشاويش . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- صحيح ابن خزيمة للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت: ٣١١ هـ) تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي . المكتب الإسلامي ١٩٧٥ م .
- غريب الحديث لأبي القاسم بن سلام (ت: ٢٢٥ هـ) ط . حيدر آباد . بدون تاريخ .
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت: ١١٦٢ هـ) . تحقيق أحمد القلاش . مؤسسة الرسالة ١٩٨٥ م .
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي ، (ت: ٩٧٥ هـ) تحقيق : بكري حياني ، وصفوة السقا - مؤسسة الرسالة ١٩٨٩ م .
- لسان العرب لابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١ هـ) ط . دار المعارف . بدون تاريخ .
- مختار الصحاح للرازي (ت: ٦٦٦ هـ) ط . دار البصائر ١٩٨٥ م .
- المستدرک علی الصحيحین لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥ هـ) . دار الكتاب العربي . بيروت . بدون تاريخ .
- مسند أبي يعلى الموصلي للحافظ أحمد بن علي بن المنثى التميمي (ت: ٣٠٧) تحقيق : حسين سليم أسد - دار المأمون للتراث ١٩٨٤ م .
- مسند أبي عوانة للإمام أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني (ت: ٣١٦ هـ) . دار المعرفة - بيروت - بدون تاريخ .
- المسند للإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
- المصباح المنير للفيومي (ت: ٧٧٠ هـ) المطبعة الأميرية . مصر . ط الثالثة ١٩١٢ م .
- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١ هـ) تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت: ٨٠٧) . مكتبة القدسي - بدون تاريخ .
- المعجم الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠ هـ) تحقيق د. محمود الطحان . مكتبة المعارف الرياض ١٩٨٥ م .
- المعجم الصغير لأبي القاسم سليمان أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠ هـ) تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان . دار الفكر بيروت ١٩٨١ م .
- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠ هـ) تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي - بدون تاريخ .
- المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية ط . الثالثة ١٩٨٥ م .
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (ت: ٦٠٦ هـ) ط . الخيرية . بدون تاريخ .

١٧٧٥	تفسير سورة الحديد	١٣١٥	تفسير سورة النمل
١٧٨٩	تفسير سورة المجادلة	١٣٣٥	تفسير سورة القصص
١٨٠٠	تفسير سورة الحشر	١٣٥٧	تفسير سورة العنكبوت
١٨١٤	تفسير سورة المحتحنة	١٣٧٥	تفسير سورة الروم
١٨٢٣	تفسير سورة الصف	١٣٩٣	تفسير سورة لقمان
١٨٢٩	تفسير سورة الجمعة	١٤٠٥	تفسير سورة السجدة
١٨٣٥	تفسير سورة المنافقون	١٤١٣	تفسير سورة الأحزاب
١٨٣٩	تفسير سورة التغابن	١٤٦٥	تفسير سورة سبأ
١٨٤٣	تفسير سورة الطلاق	١٤٨٣	تفسير سورة فاطر
١٨٥٠	تفسير سورة التحريم	١٤٩٩	تفسير سورة يث
١٨٥٨	تفسير سورة الملئ	١٥١٩	تفسير سورة الصافات
١٨٦٣	تفسير سورة القلم	١٥٣٧	تفسير سورة ص
١٨٧٢	تفسير سورة الحاقة	١٥٥١	تفسير سورة الزمر
١٨٧٨	تفسير سورة المعارج	١٥٧١	تفسير سورة غافر
١٨٨٣	تفسير سورة نوح	١٥٩١	تفسير سورة فُصِّلَتْ
١٨٨٨	تفسير سورة الجن	١٦٠٥	تفسير سورة الشورى
١٨٩٤	تفسير سورة الزُمل	١٦١٩	تفسير سورة الزخرف
١٩٠٠	تفسير سورة المدثر	١٦٣٣	تفسير سورة الدخان
١٩٠٦	تفسير سورة القيامة	١٦٤١	تفسير سورة الجاثية
١٩١١	تفسير سورة الإنسان	١٦٤٧	تفسير سورة الأحقاف
١٩١٧	تفسير سورة المرسلات	١٦٦٣	تفسير سورة مُحَمَّد
١٩٢٠	تفسير سورة النبأ	١٦٧٣	تفسير سورة الفتح
١٩٢٤	تفسير سورة النازعات	١٦٩١	تفسير سورة الحجرات
١٩٢٨	تفسير سورة عبس	١٧٠٣	تفسير سورة ق
١٩٣٢	تفسير سورة التكوين	١٧١٣	تفسير سورة الناريات
١٩٣٧	تفسير سورة الانفطار	١٧٢١	تفسير سورة الطور
١٩٣٩	تفسير سورة المطففين	١٧٢٩	تفسير سورة النجم
١٩٤٤	تفسير سورة الانشقاق	١٧٤١	تفسير سورة القمر
١٩٤٧	تفسير سورة البروج	١٧٤٩	تفسير سورة الرحمن
١٩٥٢	تفسير سورة الطارق	١٧٥٩	تفسير سورة الواقعة

٢٠٠٠	تفسير سورة التكاثر	١٩٥٤	تفسير سورة الأعلى
٢٠٠٣	تفسير سورة العصر	١٩٥٧	تفسير سورة الفاشية
٢٠٠٤	تفسير سورة الهمة	١٩٦٠	تفسير سورة الفجر
٢٠٠٥	تفسير سورة الفيل	١٩٦٦	تفسير سورة البلد
٢٠١٠	تفسير سورة قريش	١٩٧٠	تفسير سورة الشمس
٢٠١١	تفسير سورة الماعون	١٩٧٣	تفسير سورة الليل
٢٠١٣	تفسير سورة الكوثر	١٩٧٧	تفسير سورة الضحى
٢٠١٦	تفسير سورة الكافرون	١٩٨٠	تفسير سورة الشرح
٢٠١٨	تفسير سورة النصر	١٩٨٢	تفسير سورة التين
٢٠٢٠	تفسير سورة المسد	١٩٨٣	تفسير سورة العلق
٢٠٢٢	تفسير سورة الإخلاص	١٩٨٥	تفسير سورة القدر
٢٠٢٦	تفسير سورة الفلق	١٩٩١	تفسير سورة البينة
٢٠٢٨	تفسير سورة الناس	١٩٩٣	تفسير سورة الزلزلة
٢٠٣١	الفهارس والمراجع	١٩٩٦	تفسير سورة العاديات
		١٩٩٨	تفسير سورة القارعة

رقم الإيداع

2000/2608

I.S.B.N التوزيع الدولي

977-5146-84-4

(من أجل تواصلٍ ببناء بين الناشر والقارئ)



عزيزي القارئ الكريم .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

نشكركم اقتناء كتابنا : « صحيح مختصر تفسير ابن كثير » ورغبة منا في تواصل ببناء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيكم مهم بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائماً بملاحظاتك ؛ لكي ندفع سويًا مسيرتنا إلى الأمام ويعود النفع على القارئ والدار .

* فهيا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للمبيانات التالية :-

الاسم كاملاً : الوظيفة :
المؤهل الدراسي : السن :
الدولة : المدينة : حي : شارع :
ص.ب : تليفون : فاكس :

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : المدينة : العنوان :

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضع لم)

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضع لم)

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟

☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع (لطفًا وضع لم)

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة ... فلا تتوان وقُون ما يحول في خاطرك :-

.....
.....
.....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة لتراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصلٍ ببناء بين الناشر والقارئ)

[illegible]

Bibliotheca Alexandrina



0414509